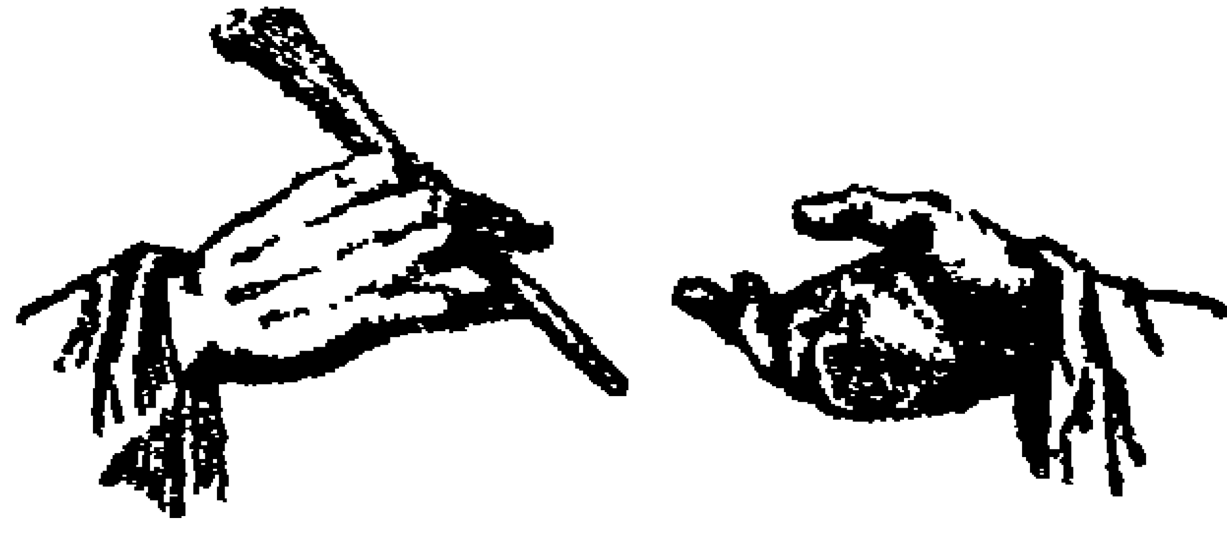


المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع بعد المئة

١ يونيو ١٩٤٦ — ١ رجب ١٣٦٥

« لا يُولَعَنَّ الوَالي بسوءِ الظَّنِ لقولِ الناس ،
وليجعل لِحُسن الظنِّ من نفسه نصيباً موفوراً ،
يرَوِّح به عن قلبه ، ويُصدِرُ به عن أعماله »

يتيمة الدهر : ابن المقفع

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن نجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الاول من المجلد التاسع بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٦ ١ رجب سنة ١٣٦٥

القنبلة الذرية

فعلها وأثرها في الاهداف

انتقل فئة من العلماء الذين عاونوا في تأليف القنبلة الذرية الى هيروشيما ونجازاكي ليمتحنوا ما كان لها من أثر في الهدفين . ولقد وقفوا بحوثهم هذه على مقدار ما لهذه القنبلة من ذريع الفعل وقوة التحطيم ومقدار أثرها في الأهداف بنسبة بُعد انفجارها من الهدف أو قربها منه ، وحصروا جلَّ اهتمامهم في قياس قدرة تحطيمها في المدن الحديثة

ان المدن اليابانية ليس فيها من قوة المقاومة ما في المدن الحديثة الأخرى . ولكن فيها بعض عمائر كانت أقوى بناء وأمتن أساساً من غيرها وبخاصة في مدينة نجازاكي ، فكانت هذه العمائر موضع البحث العلمي والفحص عن قدرة القنبلة الذرية على التحطيم والفتك . وما فتئوا غير بعيد حتى بان لهم أن قصة هذه القنبلة وقدرتها على الفتك والتهشيم مروعة الى حدٍّ لم يتصوَّروه بادىء ذي بدء .

بدأ هؤلاء العلماء بحوثهم عن ذلك في شهر سبتمبر الماضي في المدينتين المهشمتين . وعقب على بحوثهما بعثتان أُخريان ، تحريراً لما وصل اليه هؤلاء العلماء من النتائج ، فوزنت كل النتائج العلمية وقيّمت ، وبحثت أجزاء من الأهداف المحطمة في معامل الولايات المتحدة ، نقلت اليها بالطائرات .

على أن كثيراً من نتائج البحوث والأرقام التي وصل اليها العلماء الفاحصون لا تزال سراً مكتماً ، وعلى الرغم من ان هذه النتائج أولية من حيث الصفة فانه يرجح انها سوف لا تختلف عن النتائج النهائية شيئاً يذكر . فالقنبلة التي انفجرت فويق مدينة نجازاكي كانت من القوة والعنف بحيث أن قدرتها على رج العمائر كانت بقوة ضغط مقداره ١١٫٩٥٢ رطلاً على كل قدم مربعة، وكان الانفجار على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم . وكان هذا الضغط تحت مركز الانفجار مباشرةً . ومعنى هذا ان كل قدم مربعة من العمائر التي كانت في مركز الانفجار أصابه ضغط مقداره ستة أطنان . وعلى بعد ٤٢٠٠ قدم من مركز الانفجار ، أي على ثمانية أعشار ميل منه كان الضغط بنسبة ٢١٦٠ رطلاً على كل قدم مربعة . وكان على بعد ميلين بنسبة ٢٠١ رطلاً على كل قدم مربعة ، وعلى بعد ٢٫٦٥ ميل ١٤٤ قدماً .

يقول علماء مكتب الطقس بواشنطن بالولايات المتحدة ان ريحاً سرعة سيرها ١٥٠ ميلاً في الساعة ، أو بعبارة أخرى ريحاً سرعتها ٣٠ ميلاً أزيد من سرعة العاصفة التي اجتاحت « ميامي » في سنة ١٩٢٦ ، قد تحدث ضغطاً مقداره ٩٠ رطلاً على كل قدم مربعة . غير أن القنبلة الذرية أرسلت على نجازاكي من ارتفاع ٢٥٠٠ قدم ضغطاً مقداره ١٣٣ ضعف الضغط الذي تحدثه ريح سرعتها ١٥٠ ميلاً في الساعة ، وعلى بعد ٤٢٠٠ قدم من مركز الانفجار كان الضغط ٢٤ ضعفاً ، وعلى بعد ميلين ضعفين ، وعلى بعد ٢٫٦٥ ضعف ونصف ضعف .

في القنبلة الذرية عاملان من عوامل الموت والتهشيم ، وفي كل من العاملين قوة تعادل قوة الآخر . العامل الأول هو « الصدمة » ، والعامل الثاني هو « الحرارة » . وكل القنابل سواء أكانت اصطناعية أم ذرية ، إنما فيها أثر من القوتين معاً . كلها تقتل وتهشم باطلاق الطاقة إطلاقاً سريعاً . أما الذرية منها فانها تطلق القوة التي تربط بين أجزاء الكون المادي، انها تضرب الهواء أول ما تضرب بتلك القوة الفائقة ، والهواء ينقل الصدمة التي يحدثها ذلك الضرب الى الأرض . انها تحدث موجة اصطدامية أشبه بموجة صوتية عظيمة . أو بعبارة أخرى أشبه بتلك الهزة التي تحسها إذا وضعت يدك على طرف منضدة وطرقت طرفها الآخر بمطرقة ثقيلة .

يحدث انفجار القنبلة الذرية في أقل من $\frac{1}{1000000}$ من الثانية . ان سلسلة الانقسام في ذراتها تبدأ وتنتهي في ذلك الجزء الوهمي من الزمن . وفي وقت الانفجار بالذات يتولد في مركزها حرارة تبلغ حوالي اربعة ملايين درجة فارنهيت ، أو بعبارة أوضح حرارة مقدارها يزيد على سبعمائة ضعف الحرارة التي يبلغ عندها الحديد درجة الغليان . غير أن هذه الحرارة تبرد بسرعة غير أنها تظل حامية جواً كبيراً في مدى مسافات كبيرة نسبياً . وقد وجد في اليابان أن المواد القابلة للالتهاب والأجسام البشرية قد احترقت بل استحالت رماداً على بعد ميل وأزيد قليلاً من مركز الانفجار .

***

ان البحوث التي أجريت في هيروشيما ونجازاكي قد دلت على أن قدرة القنبلة الذرية على القتل وإحداث الجراح قد امتدّ الى مسافة ٦٥٠٠ قدم من مركز الانفجار . وللانفجار ثلاث أحوال في التدمير . أولها موجة الصدمة ، ثم ضغط الهواء المحمي وتمدده ، ثم يلي ذلك بعد وقت يسير جداً ضغط منخفض يحدثه توزع الغازات . وهذه الأحوال الثلاث تضر أكبر الضرر بالأنسجة الانسانية . والخسائر التي أحدثها النشاط الاشعاعي ، ويقصد بها الخسائر التي تترتب على قذف خلايا الجسم باشعاعات « غمّا » ، إنما هي قليلة بالقياس على تلك التي أحدثتها قوات أخرى أطلقتها القنبلة الذرية . فان الأشخاص الذين كانوا قريبين من مركز الانفجار قد أصابهم فضلاً عن الضرر الناتج عن النشاط الاشعاعي ، جراح مختلفة أحدثها الانفجار أو الحرارة أو كلاهما .

يفعل الانفجار في الأجسام فعل ضغط عظيم بيدي جبّار قوي الأصلاب . فالاضلاع تنضغط بشدة مطبقة على الرئتين فتحدث نزيفاً ، يعقبه إدماء من الفم والأنف . أما في طور الضغط العالي فان أعضاء الجسم تنضغط بقوة وسرعة فائقة . أما في طور الضغط المنخفض فان الغازات التي تكون في المعدة والأمعاء تنزع الى التمدّد بقوة ممزقة .

إن حرارة الأرض التي تعرّضت للانفجار في المدينتين اليابانيتين قد حسبت وعرف مقدارها ، ولكن الأرقام لا تزال تعتبر من أسرار الادارة الحربية . على أنها كانت ولاشك عالية بحيث بلغت ١٥٠٠ درجة سنتجراد . هذه الحرارة ولا شك أعلى من الحرارة التي

نعرف أن الشمس ترسلها في الفضاء . ولكن حرارة القنبلة الذرية كانت من القوة والعنف بحيث ألهبت كل الأجسام السود التي كانت على العمائر والملابس السود والأجسام التي تميل الى السواد .

ان اليابانيين الذين كانوا يلبسون السواد قد أصابهم من الضرر أضعاف ما أصاب غيرهم . هذا بأن السواد أشد اجتذاباً للحرارة من الألوان التي هي الى البياض . والذين كانوا يلبسون ملابس مسيَّرة بخطوط سود احترقت أجسامهم خطوطاً بحسب ذلك . ويقول الكولونيل « ورّن » Warren ان الذين كانوا يلبسون ملابس سوداً أو كان علابسهم سيور سود ، قد احترقت جسومهم وهم على بعد ٢٠٠٠ قدم من مركز الانفجار .

ويقول الماجور « كيوكوي » أحد هيئة الحكام العسكريين في منطقة هيروشيما أن مركز الانفجار شمل مساحة نصف قطرها ميلين . وأن حقول القمح وغابات الصنوبر التي كانت في ذلك النطاق قد احترقت احتراقاً تامًّا . وكذلك الاسماك في البرك القليلة الغور . وعلى هذا كانت تلك الحرارة المجتاحة التي أحدثتها القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي ، حتى أن رجلاً كان على بعد ميل ونصف من مركز الانفجار قد أصابته حروق في وجهه ، وأن الأجمات التي كانت على بعد ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ قدم قد تهتكت .

عندما تنقسم ذرة من الذرات ، فانقسامها يكون أشبه بانفجار قنبلة ، إذ ترسل من حولها أجزاء بالغة منتهى الصغر ، واشعاعات تنبعث بسرعة لا يتصوّرها الوهم ويسمي العلماء تلك الأجزاء « نيوترونات » وأشعة دون الحمراء وأشعة « غما » وأشعة « بتا » . وما أشبهها برصاصات صغيرة تصيب ذرات الجسم وجزيئاته باعثة فيها طاقة محوَّلة في صورة حرارة قاتلة . والنتيجة المحتومة لهذه « الأعيرة » ، وبخاصة « أعيرة » أشعة « غمَّا » وبعض النيوترونات تفعل متباطئة في هدم بعض خلايا الجسم ، وبخاصة خلايا نخاع العظم ، والطحال وكريات الدم البيض .

ونخاع العظم هو الذي يولد خلايا الدم التي تعوّض الجسم ما فقد منها . فاذا تلف ذلك النخاع وانقطع عن أداء وظيفته ، وماتت خلايا الدم بفعل الاشعاع ، فان الجسم يعجز عن أن يولد غيرها وينفد مخزونه منها . وكذلك نعلم أن نخاع العظم يحوي تلك الأجسام التي تجعل

الدم يتجلط ويتخثر . فاذا فقد الدم تلك الخصيات ، فانه يصبح من السهل أن يسيل من أوعيته الى أوعية الجسم المجاورة لها .

ربما كانت أول علامة من العلامات الظاهرة لفعل الاشعاع ظهور كدمات على ظاهر الجسم نامة عن الأماكن التي انفجرت فيها أوعية فأحدث انفجارها نزيفاً وان شخصاً به هذه الأعراض خطر عليه أن تعضه بعوضة ، لأن وقف سيل الدم في مكان العضة يصبح مشكلة من المشكلات المريرة . وعند ما تموت كريات الدم البيض بأسرع مما تتولد ، يصبح التهاب الحلق أو ارتفاع ما في درجة الحرارة، اصابة قد تكون قاتلة . ذلك بأن هذه الكريات هي التي تقاوم الجراثيم التي تغزو الجسم .

إن اشعاعات « غمّا » كالاشعاعات دون الحمراء والحرارة ، تحدث ضرراً بالغاً في لمح البصر . وقد يقع الضرر قبل أن يسمع المصاب صوت الانفجار ، أي بمجرد أن يرى ومض انفجار القنبلة ، وقبل أن يحس الصدمة . وان انساناً في داخل بيت قد يصاب اصابة قاتلة بالاشعاع من غير أن يدرك أنه أصيب. وقد يستطيع أن يهرع الى خارج البيت قبل أن تصيبه صدمة انفجار شاكراً لله حسن حظه على النجاة ، ولكن ما يلبث أن يموت بعد أسابيع قليلة

يقول كولونيل ورّن Warren . « ليس الموت ولا الأذى الدائم بنصيب محتوم لكل من يتعرّض لإشعاعات « غمّا » فان شخصاً صحيح البدن قوي البنية ، اذا تعرّض لهذه الاشعاعات باعتدال قد ينجو ويصح ثانية ، اذا كشف عن احتمال تعرضه لها مبكراً وأسعف بالعلاج والتمريض . ولكن متوسط اليابانيين الذين أصيبوا لم يكونوا أصحاء . بل كان أكثرهم منهوكي القوى قضى عليهم العمل الشاق وعمل فيهم السّغب ، ولم يكن أكثرهم على علم بأن اشعاعات « غمّا » قد تنفذ حتى من بنايات الأبرق (الأسمنت المسلح) . وان أي شخص على بعد ٢٠٠٠ قدم من مركز الانفجار قد يصبح ضحية تلك الاشعاعات . وما دام ان ضرر الاشعاعات ضرر يتجمع شيئاً بعد شيء ، فأثره بطيء الاستبانة ، ولا تظهر أعراضه في أقل من أربعة أيام ، وقد يتأخر ظهورها فلا نشاهد إلاّ بعد شهرين من الإصابة . وهذا هو السر في ان اليابانيين اعتقدوا أن أرض المدفين المصابين عندهما قد تشبعا بالاشعاعات من جرّاء الانفجار وان اشعاعات ثانوية مخلفة عن الأولى تصيب الناس».

لقد تحقق الكولونيل «وُرّن» من أن الاشعاعات التي خلّفها الانفجار هي من الضعف بحيث لا يمكن أن تترك أثراً محسوساً في الاشخاص الذين بقوا في المنطقة المصابة . ولقد أكد العلماء اليابانيون هذا الكشف . ولا ينبغي أن يغيب عن ذهننا أن القنبلة الذرية هي سلاح يعمل مدمراً بطريق « الصّدمة » . وعند ما أُلقيت القنبلتان الذريتان على هيروشيما ونجازاكي حدد انفجارهما على ارتفاع بحيث يحدث أكبر تدمير ممكن . وهذا الارتفاع لا يزال سرًّا من الأسرار . على ان المشاهدين من اليابانيين يقولون ان انفجارها كان على ارتفاع ٥٥٠ متراً أو حوالي ٨٠٠ قدم من سطح الأرض .

أما فعل هذه القنابل في السفن وبخاصة السفن الحربية فأمرٌ لا يمكن تحقيقه على وجهٍ ما قبل تجربة انفجارها فوق أهداف منها على سطح الماء في هذا الصيف ، على ان لبعض العلماء نظريات فيما يمكن أن تحدث هذه القنبلة في أهداف بحرية . وهم يقولون أن صدمة تحدثها كمية من مادة ت.ن.ت T. N. T. مقدارها ٢٠٫٠٠٠ طن قد تحدث في البحر موجة مدّية ارتفاعها ١٠٠ قدم من قاعدتها إلى قمتها . وتمضي على هذا مسافة ١٠٠٠ قدم من مركز الانفجار . على أن غيرهم يزعم أن مسافتها سوف تكون أكثر من ١٠٠٠ قدم ، وأن حجمها كافٍ لابتلاع أضخم السفن البحرية

أما في المواني القليلة الغور وهي التي يحدث في مداخلها مد بحري في العادة ، فان مثل هذه الموجة قد ترد كل مائها نحو البحر وترمي السفن إلى القاع فتقصم ظهورها . أما الصدمة والحرارة المنبعثة عن الانفجار فكافية لأن تحطم أقوى دروع السفن الحربية ، وتسلب جميع الرجال المعرّضين لفعلها قدرة العمل . ويمكن ملافاة شيء من هذا الضرر بتفريق السفن الحربية وعدم تجمعها في بؤرة واحدة

أما فعل هذه القنبلة في المنشئات الحربية كالثكنات ومخازن المهمات والميرة ولا سيما اذا كانت مشيدة فوق الأرض وقوة مقاومتها لا تزيد على قوة منشئات نجازاكي ، فان قوة تدميرها تكون ذريعة مبيدة للأخضر واليابس .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا »

نشيد الصحة

أنا الفيتامين « ا » مني تستمد الحيوية . . والنمو . . والقوة !
وأنا الذي أدفع عنك خطر جراثيم الانف ، والحلق ، والرئة . واذا خلا مني طعامك . ضعفت عيناك ، واضطربت غددك !
واذا بحثت عني ، وجدتني في مستخرجات الالبان ، وصفار البيض ، والكبد ، والسبانخ والطماطم ، والخس ، والمشمش ، والمانجو .
فتخير هذه لاطعمتك .. ولا تنساني

***

أنا الفيتامين « ب » .. بدوني لا يوجد شيء يسمى « صحة » !
فأنا الذي أهبك المناعة ضد الامراض ... وأفتح شهيتك ... وأعينك على الهضم .
وجودي في طعامك . . يمنع عنك ضعف القلب . . وضعف الاعصاب .. ويزيل عنك الامساك .. ويكثر لبن المرضعات .
وفي امكانك أن تجدني . . في قشور الحبوب ، والخبز الكامل ، والكبد ، وصفار البيض ، والبندق ، والبسلة ، والطماطم ، والعنب .
فاذكرني دائماً ولا تنساني .

***

أنا الفيتامين « ج » بغيري يفقد النشاط .. وتضعف العظام — واذا خلا طعامك مني أصابك الصداع . وضعف الهضم . ونزف جلدك دماً .
فابحث عني تجدني . . في البرتقال ، والليمون ، والجرجير ، والكرنب ، والطماطم ، والبصل ، والجزر ، واللوز .
واياك أن تنساني .

***

أنا الفيتامين « د » . . لابد من وجودي لنمو العظام . وتكوين الاسنان . وحفظ نسبة الكالسيوم في الدم . وتنظيم افرازات الغدد .
واذا خلا طعام الاطفال مني . أصابهم لين العظام والكساح .
وأنا موجود في الزبد ، واللبن ، وصفار البيض ، وزيت كبد الحوت .
فتغذ بي ولا تنسني .

***

أنا الفيتامين « هـ » .. أنا سر الصحة والشباب . وسلامة الجهاز العصبي . وأنت لو سعيت إلي تجدني دائماً في النباتات الخضر المورقة والزبد ، وزيت الزيتون ، والخس ، والنخالة .
فاحفظ مكاناً لي على مائدتك . ولا تنسني .

فهمي عطا الله

ماهي الضويئات [1]

اطلعت في مقتطف ابريل الأخير على ملاحظات الأستاذ جريس الشرايحة على بعض نقط في مقالي « سر القنبلة الذرية » الذي نشر في عدد نوفمبر الماضي من المقتطف . وهي ملاحظات رقمية وتاريخية . فأشكرها له عظيم الشكر .

أما الملاحظة الأولى فهي إن أول من لاحظ ان الذرة ليست بسيطة بل هي ذات قطبين موجب وسالب هو طمسن أستاذ روذرفورد . وهو محق في هـذه الملاحظة . ولم يكن غرضي أن أسرد تاريخ الاكتشافات الذرية وإلاّ لبدأت بالسير اسحق نيوتن فهو أول من قال ان النور جسيمات تنطلق من الجسم المنير كالشمس أو غيرها فكأنه قال إن النور فوتونات وإنما عنيت ان روذرفورد كان أول من حوّل ذرة النيتروجن الى ذرة أوكسيجن باضافة ذرة هيدروجن اليها . يعني أنه أول من خطا الخطوة الأولى في تحويل العناصر بعضها الى بعض وهو الأمر الذي خاب في محاولته الكيماويون القدماء الذين راموا أن يحوّلوا النحاس الى ذهب .

ثم أنكر عليّ قولي « إن بوهر برهن على أن الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها » .... وغضّ النظر عن بقيـة الجملة التي فيها ما أريد ان أنسبه الى بوهر . وهي : « إن بعض الكهيربات تقيم معها أي مع الكهارب في النواة (فيتكوّن منهما النيوترون) والبعض الآخر تدور حول النواة على بُعد منها في أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس » الخ . والمراد من هـذا القول إن بوهر هو أول من قرَّر النظام الفلكي للذرة . فاقتضبه الأستاذ . وهو أهم ظاهرة في بنية الذرة .

ولا أخفي على الأستاذ جريس إني كتبت ذلك المقال على أثر خبر القنبلة الذرية متسرعاً لكي ينشر على الأثر . ولسوء الحظ تأخر نشره ولما كتبته لم أرجع الى مصادره لكي

---

(١) الضويئات ترجمة photon ومفردها ضويئة ، والفوتونات معربها ومفردها فوتون.

أتثبت منهـا بل اعتمدت على الذاكرة إذ لم يكن غرضي أن أحقق تواريخ أو حوادث أو أرقاماً . بل أن أشرح بقدر ما توصل اليه علمي الضئيل كيفية انفجار القنبلة . ثم صحح الأستاذ مقدار السعر وهو الحرارة اللازمة لرفع حرارة جرام واحد من الماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد . وقد ورد في مقالي خطأ كيلوجرام بدل جرام . وهو يلقي مسؤولية هذا الخطأ عليّ . طبعاً عليّ . ولـكني لا أدري كم واحد من القراء يلقي هذه المسؤولية عليّ لأني لا أدري على أي شيطان ألقيها أعلى شيطان السهو أو شيطان القلم الذي تعوَّدأن يتكلم بالـكيلوجرامات والجرامات والمليغرامات . ولا أدري ان كان الأستاذ جريس يحسب هـذا الخطأ جهلا . الحمد لله انه لم يكن خطأ في تركيب دواء لمريض .

أما مسألة عمر الراديوم والأورانيوم فلم أدقق فيهـا وانما كان غرضي أن أقول إنه عمر طويل . وإذا شاء الأستاذ أن يعلم ما رجحه العلماء فهو أن جرام الراديوم يصبح نصف جرام بعد ١٦٠٠ سنة ويذوب في ٢٢٨٠ سنة. واما الأورانيوم فعمره نحو ٦٧٥٠ مليون سنة[1] .

بقيت الملاحظة الجوهرية على النقطة المهمة التي هي محور ذلك المقال . فقـد استنكر قولي أن الـكهارب والـكهيربات تتناثر وتنطلق فوتونات أي ضويئات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم .

ولـكيلا يرجع القارىء الى نقده في مكانه أنقله هنـا بحروفه قال : ان النور الذي نشاهده ينطلق من الراديوم معروف وخواص كل نوع من أنواعه الثلاثة معلومة أيضاً وهي ليست فوتونات كما نوّه الأستاذ . فأشعة « الفا » هي دقائق عنصر الهيليوم . وأشعة « بيتا » . وهذه أيضاً دقائق مادية هي الـكترونات ، وأما أشعة « غما » فليست كأختيها جسيمات مادية وإنما هي أشـعة من قبيل أشعة أكس . وهذه هي الضويئات » انتهى .

فما هي أشعة أكس ؟ بل ما هي أية أشـعة لا ترى كالأشعة الفوق بنفسجية والتحت حمراء والأشعة الـكونية الخ . والظاهر ان حضرة الأستاذ يخلط بين النور والأشـعة في الاصطلاح العلمي والأشعة Rays هي حاصل الاشعاع Radiation وللاشعاع ستون طاقاً أو سلماً Octav كالسلم الموسيقي . ونحن لا نرى منها إلاّ سلماً واحداً . والبقية أي الـ ٥٩ لا ترى

(١) Extra pharmacopæia, published 1943

ومع ذلك تسمى أشعة Rays لأن الرؤية ليست خاصة من خواصها بل هي خاصة في جهازنا العصبي البصري في المقلة .

وأعود فأسأل ما هي الأشعة ؟

هي تموجات أثيرية (إذا صحّ وجود الأثير . وله بحث طويل لا محل له هنا) أو هي « جسيمات متموّجة » كما سماها السير تجايمس تجينز وبعض زملائه العلماء wavecle مختصرة من wave particle .

وإذا لم تكن الأشعة المنظورة وغير المنظورة مادية فماذا تكون أروحية هي أم ملائكية ؟ ونحن لا نعرف في الوجود إلاّ المادة وما هي أشعة اكس ؟ وما هي الضويئات؟ (الفوتونات) أروحية أيضاً أم مادية ؟ .

لكيلا يلوح في بال الأستاذ اني متمحّك أنقل له ما كتبه العلامة الكبير الحجة السير تجايمس تجينز في كتابه « الكون الغامض » في صفحة ٧٠ من طبعة كمبردج سنة ١٩٣٠ . حيث كان يتكلم عن انحلال المادة أو بالأحرى الذرة قال « ... يمكننا أن نتصوّر بوضوح الجسيمين الكهربيين (البروتون والالكترون) مندفعين معاً بفعل تجاذبهما المتبادل بسرعة فائقة الى أن يتحدا أخيراً فتتنافى تعبئتاهما الكهربائية (أي تُفني كهربة كل منهما كهربة الآخر) فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة اشعاع — هي الفوتون » .

فالفوتون إذن مادة تصحبها قوة بشكل حرارة ونور . والعبرة بالحرارة لا بالنور . الحرارة هي الطاقة والنور ظاهرة في الجهاز العصبي البصري كما قلت آنفاً . وفي مكان آخر يقول تجينز ان الالكترون ينحل حينئذٍ الى عشرة آلاف فوتون . وفي أماكن كثيرة من كتابه هذا وبعض كتبه الأخرى ينص على ان الطاقة هي في الفوتون أو هي مصاحبة له أو هو يحملها .

فالفوتون الذي انحلّ اليه الالكترون والبروتون والنيوترون أيضاً ، هو مادة ولكنه بلا شحنة كهربائية .

والنور المنظور الذي نراه — نور الشمس والنجوم ونور الكهرباء وكل نور منظور ، هو تدفقات فوتونية مصطحبة طاقة بشكل حرارة ونور . والحرارة هي الطاقة بعينها .

وأشعة « جما » هي فوتونات مادية ، لا سالبة ولا موجبة ، لأنها إذا مرّت بين قطبين مغنطيسيين أو كهربيين لا تميل لأحدهما خلافاً لأشعة « الفا » التي تميل الى القطب السالب وأشعة « بيتا » التي تميل الى القطب الموجب. وكلا الفريقين ليسا أشعة نورانية. وأشعة « الفا » هي نواة الهيليوم من غير الكترونيه لأنها إيجابيـة . وكل بروتون يدعى « الفا » أيضاً لهذا السبب . وأشعة « بيتا » هي الـكترونات انفصلت عن ذرة الهيليوم فتركت أشعة الفا وحدها . وإلاّ فمن أين أتت ؟

فالنور والحرارة اللذان يُلحظان في تشعع الراديوم هما أشعة جما فقط (فوتونات) وأما أشعة الفا وبيتا فليست أشـعة نور وحرارة البتـة إلاّ إذا التحم الفريقان فيما هما صادران من كتلة الراديوم وتنافت كهربيتهما وتحوّلا إلى فوتونات .

والغريب أن حضرة الأستاذ يوافق على قولي إن النور الذي نشاهده في الراديوم ليس إلاّ فوتونات وأما « الفا » و « جما » فما هما نور بدليل قوله معقباً على قوله المذكور سابقاً . « ولا أدري كيف يجوز لنا أن نقول إن جسيمات مادية لها وزنها الخاص كالهيليوم أنها ضوئيات » .

من قال إنه يجوز ؟ حقًّا ليست ضوئيات. وما هي إلاّ نوى عنصر هيليوم تجرّدت من الـكتروناتها . على ان الذي يصدر من الراديوم بعضه هيليوم صرف وهو متعادل الشحنة الـكهربية . وبعضه نوى الهيليوم مجردة من الـكتروناتها . وبعضه الالـكترونات التي انفصـلت عن مجموعة الذرة . والبعض الآخر وهو الاكثر هو فوتونات تشظت اليهـا ذرات الهيليوم .

كان كوكرفت وولطن قد حوّلا ذرة عنصر الليثيوم مع ذرة هيدروجين الى ذرتي هيليوم هكذا :

ثقل كتلة الليثيوم	٧،٠١٧٠	
ثقل كتلة الهيدروجن	١،٠٠٨١	
المجموع	٨،٠٢٥١	
ثقل ذرتي هيليوم	٨،٠٠٦٨	
اطرح . فالنقص	٠،٠١٨٣	فأين ذهب ؟

فترى أنه في تحوّل الليثيوم والهيدروجين الى هليوم ضاع من المادة ما وزنه ١٨٣ ، ٠٠ فأين ذهبت هذه المادة ؟ لم تضع بل ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات .

فبناءً على هذه الظاهرة التي استغربها العلماء قال اينشطين ووافقه بعض زملائه أن المادة قوة والقوة مادة كلاهما شيء واحد .

ولأن اينشطين علاّمة عظيم يؤخذ قوله على علاته فيضلل طلاّب العلم البسطاء أمثالي ، ويحيرهم لأنهم يشعرون أن المادة شيء وان القوة شيء آخر . لذلك لا ينبغي أن نأخذ قوله على علاّته ، بل يجب أن نقبله بتصرف فيه .

المادة كما نعلم نقلاً وعقلاً لا تفنى بل تتنافى كهربياتها الموجبة والسالبة وتنطلق ضويئات مادية في الفضاء لا كهربية فيها . ماذا جرى بكهربتيها الموجبة والسالبة ؟

ذهبت أمواجاً كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) في البحر الأثيري كأمواج اللاسلكي

وإذن فقول اينشطين المادة والقوة شيء واحد لا يؤخذ على علاّته . ولا بدّ له من هذا التفسير .

نحن نفهم جيداً ما هي المادة لأنها ملموسة ونسلّم بقول علماء الطبيعة وبالمنطق العقلي أن المادة لا تذهب الى العدم ، لا تفنى ، بل تتحول من صورة الى صورة . ولكننا لا نفهم ما هي القوة أو الطاقة ؟ كل ما نفهمه منها انما هو أثرها ، وهو الحركة . فكلما رأينا جسماً يتحرّك قلنا هناك قوة تحركه . ولكن أين هي ؟ لا نرى . واذا عمدنا الى تأثر هذه القوة رجوعاً الى مصدرها عن طريق المحركات من محرّك الى محرّك نصل أخيراً الى قوة الجاذبية — جاذبية الأجرام وجاذبية العناصر (الألفة الكيماوية) وجاذبية الكهارب والكهيربات

فأصل القوة جاذبية بين ذرات المادة وذريراتها . المادة شيء والقوة شيء آخر . وانما المادة خلقت (ووجدت وبها سجية الجذب والانجذاب والمداورة والدوران بعضها حول بعض . التجاذب والتداور طبيعة في المادة . واذا لم تكن لها طبائع أو سجايا فهي إذن عدم . ولا كلام لنا في العدم ولا صورة له في اذهاننا .

نقولا الحداد

أبو عثمان المازني

أوّل من حرّر مسائل علم الصرف وجمعها

في كتاب واحد جامع هو خير كتب هذا العلم

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عَدِيّ بن حبيب أحد بني مازن بن شيبان وقيل مَوْلى بني سَدُوس ونزل في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم ، وكان أبوه نحويًّا قارئاً . وقد نشأ المازني ودرس وارتقى في العلم وتمّ نضجه في البصرة في القرن الأوّل العباسي (١٣٢ ـ ٢٣٢) وأدرك نحو خمس عشرة سنة من أوّل القرن العباسيّ الثاني وهي مدة خلافة المتوكل (١٣٢ — ٢٤٧) إذ ورد في وفاته أقوال هي سنوات ٢٤٩ و٢٤٨ و٢٤٧ و٢٤٦ فأوسطها جميعاً نحو سنة ٢٤٧ وهي السنة التي قتل فيها المتوكل . أما ما قيل من أنّ المازني مات سنة ٢٣٠ هـ فغير صحيح لأن الروايات متضافرة على أنه جالس المتوكل، والمتوكل تولى الخلافة بعد سنة ٢٣٠ وهي سنة ٢٣٢ .

وامتاز القرن الأول العباسيّ بتحرير المسائل العلمية وبتكوّن العلوم واستقلالها وارتقائها ومنها علوم اللغة العربيّة فقد ازدحم هذا القرن بتدفق الناس من عجم وعرب ومن بدو وحضر على موارد اللغة العربية ألفاظها وأساليبها وما يتصل بها وبآلها من نوادر وأخبار وأنساب وعلوم يتصيدون شواردها ويحررون مسائلها ويتدارسونها وينشرونها .

وكانت البصرة والكوفة حينئذٍ وهما على حدود البادية ملتقى الحضارة والبداوة وعش العلماء والطلاب ومهبط فصحاء العرب من أهل البادية والآخذين عنهم وعن أئمة اللغة من أهل الحضر وما كان عشاق اللغة والأدب يقنعون حينئذٍ بمن يلقون من فصحاء البادية في البصرة والكوفة فكانوا يبدون للاستزادة من العلم والرواية .

وقد بلغ تنافس الرواة والعلماء في الرواية والدراية أقصى حدوده لأمور كثيرة منها

(١) — أن العلم باللغة والأدب أصبح مصدراً خصباً للرزق للطالب والمطلوب إذ كان حفاظ اللغة من أهل البادية يؤجرون على الرواية والدراية . وكان رواة الحضر وعلماؤه في جاهٍ عريض وعيش رغيد بما يروون ويبينون

(٢) — وما كان من شيوع الجدل والمناظرة والمحاورة بين الرواة والعلماء في المجالس العامة والخاصة والحرص على الفوز والانتصار فيها.

(٣) — الخلاف في الرواية والدراية وتعصب كل فريق لروايته ودرايته ومذهبه اللغوي وحرصه على تأييده وقد بلغ الخلاف بين البصريين والكوفيين أقصى حدوده .

(٤) — الرغبة الصادقة في دراسة اللغة دراسة جيدة وإدراك حقائقها وأسرارها إدراكاً صحيحاً لأنها الوسيلة لفهم النصوص الدينية القرآن والحديث والعروة الوثقى بين العرب والعجم

(٥) — حبّ أكثر الخلفاء التسعة الأولين من بني العباس الذين ولوا الخلافة في القرن الأول العباسي (١٣٢ — ٢٣٢) العلم والعلماء وفتحهم أبوابهم ومجالسهم وصدورهم وخزائنهم لدراسة العلم وتحقيقه وترقيته وعنايتهم بذلك أكبر عناية عرفت في التاريخ .

وقد تجمعت سيول اللغة العربية وآدابها وعلومها المعروفة الى ذلك العهد أول ما تجمعت في بحر خضم واسع الارجاء بعيد الغور هو أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري المتوفى سنة ١٥٤ هـ . وكان من أشراف العرب ووجوههم وأحد القرّاء السبعة المشهورين فكان أعلم أهل زمانه وكانت دفاتره ملءَ بيته الى السقف وأخذ عنه كثيرون من العلماء في مقدمتهم .

١ — أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البصري التميمي مَوْلى بني تيم من قريش المتوفى سنة ٢٠٩ هـ .

٢ — أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب القيسيّ الباهليّ البصري المعروف بالأصمعيّ المتوفى سنة ٢١٤ هـ .

٣ — أبو زيد سعيد بن ثابت الانصاري البصري المتوفى سنة ٢١٥ هـ .

وقد آلت زعامة اللغة وآدابها وعلومها ورياستها في البصرة الى هؤلاء الأقطاب الثلاثة .

وعن هؤلاء الثلاثة أخذ صاحب الترجمة أبو عثمان المازني البصري علوم العربية وآدابها وأخذ عن غيرهم كأبي الحسن الأخفش وأبي عمر الجَرْميّ وأخذ عنه كثيرون في مقدمتهم أبو العباس المبرّد والفضل بن محمد اليزيدي ومنهم عبد الله بن سعد الورّاق والحارث بن أبي أسامة وموسى بن سهل الحرفي وأختا والدنيوري وغيرهم . وفي أخذه عن الأخفش خلاف

ومن العلوم التي تكوّنت في هذا القرن علم الكلام فقد أقبل هذا القرن والمسلمون فرق سياسية ودينيّة كثيرة متنابذة بما توالى عليهم من أحداث جسام مقتل عثمان وحرب علي ومعاوية ومقتل علي واضطهاد الأمويين العلويين وسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وازداد هذا الافتراق حدّةً وعنفاً وتشعّباً بما كان من اضطهاد العباسيين الأمويين والعلويين وبما كان من اسلام كثير من علماء المجوس والنصارى واليهود وغيرهم من أرباب الأديان المختلفة ومحاولتهم الجمع بين عقائدهم والعقائد الاسلامية وبما كان من دراسة المسلمين العلوم

والفلسفة اليونانية ومحاولتهم التوفيق بينها وبين العقائد الاسلامية وبما كان من عناية أعيان الدولة بهذا العلم وبآراء الفرق المختلفة وعقدهم مجالس المناظرة لها وانتصارهم لمذاهب منها .

وأظهر الفرق الاسلامية حينئذٍ فرقتا الشيعة والمعتزلة وبينهما اتفاق وافتراق ومن أقطاب المعتزلة النظام المتوفى سنة ٢٢١ هـ وتلميذه الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وكلاهما أعلى أئمة علم الكلام والأدب كعباً ومن أقطاب الشيعة علي بن اسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار وهو أول من تكلم في مذهب الشيعة الامامية وعلى رأسهم علي الرضا بن موسى الكاظم أحد أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشر ومن أعلى المسلمين كعباً في العلم والصلاح .

فليس بغريب وهذا شأن الفرق الاسلامية والمذاهب المختلفة أن يكون أبو عثمان المازني كغيره من العلماء والخلفاء وأعيان الدولة معتنقاً مذهباً من هؤلاء المذاهب فقد كان من الشيعة الامامية ومن المعتزلة أخذ التشيع عن علي الرضا وعن علي بن ميثم .

يدل على تشيعه قوله : بينا أنا قاعد في المسجد اذا صاحب بريد قد دخل وهو يسأل عني ويقول أيكم المازني فأشار الناس اليَّ فقال : أجبْ : قلت : ومن أجيبُ ؟ : قال : الخليفة : فذعرت منه وكنت رجلاً فاطميًّا فظننت أن اسمي رفع فيهم :

ذلك أن الأئمة الأحد عشر الذين يعتقد الشيعة أمامتهم مع علي أعاهم من ذرية فاطمة الزهراء . وأما نسبته الى الارجاء فلعلها من الافتراء فالشيعة الامامية تبرأ من المرجئة . كما قال بعض مؤلفي الشيعة .

ويدلّ على أنه من المعتزلة القدرية أنه سئل : لم قلّت روايتك عن الأصمعي ؟ : قال : رُميتُ عنده بالقَدَر والميل الى مذاهب الاعتزال فجئته يوماً وهو في مجلسه فقال لي : ما تقول في قول الله عزّ وجلّ : إنا كلَّ شيء خلقناه بقدَر : قلت : سيبويه يذهب الى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاستعمال الفعل المضمر وأنه ليس ها هنا شيء بالفعل أولى : ولكن أبت عامّة القرّاء إلاّ النصب ونحن نقرؤها كذلك اتّباعاً لأنّ القراءة سنّةٌ فقال لي : فما الفرق بين الرفع والنصب في المعنى ؟ فعلمت مراده فخشيت أن تُغرَى بي العامة فقلت : الرفع بالابتداء والنصب باضمار فعل وتعامَيْتُ عليه :

يقول العلماء : إن الرفع بالابتداء أقوى من النصب على المفعوليّة لأن الرفع لا يُحوجُ الى تقدير محذوف والنصب يُحوجُ الى تقدير فعل محذوف يفسّره المذكور . وإنما عدل القراء السبعة بالاجماع عن الرفع الى النصب لسرّ لطيف وهو أنّه لو رُفع لفظ كلّ لوقعت الجملة التي هي : خلقناه : صفة لشيء ووقع قوله بقَدَرٍ خبراً عن كل شيء المقيدة بالجملة الصفة ويكون الكلام على تقدير : إنّا كل شيء مخلوق لنا بقدر : وهذا

التقدير يفيد أنّ هنــاك مخلوقاً لغير الله ليس بقدر ولو نصب لفظ كل لصار الـكلام : إنّـا خلقنا كل شيء بقدرٍ : فيفيد عموم نسبة كل مخلوق الى الله .

فقراءة كل بالرفع ليس فيها تقدير محذوف غير أن فيها خللاً في المعنى . أما قراءة النصب فع ما فيها من تقــدير فعل محذوف المعنى فيها تام واضح كفلق الصبح غـير أن المعتزلة يؤثرون الرفع لأنهم يقسمون المخلوقات الى مخلوق لله ومخلوق للبشر . ويقولون بزعمهم هذا لله وهذا لنــا . لذلك سأل الأصمعي المازنيّ عن معنى هذه الآية . ولذلك فرَّ المازني من الجواب عن هذا السؤال .

ومما يذكر بمناسبة ذكر الاصمعي وانكاره القول بالقدر على المازني أن أبا زيد سعيد ابن ثابت الانصاري أحد شيوخ المازني كان يرى رأي القدر وأن المازني قال : رأيت الأصمعي وقد جاء الى حلقة أبي زيد سعيد بن ثابت الانصاري فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة !

وكان أبو عثمان المازني جيد الفهم جيد الحفظ حاذقاً كل الحذق كثير الجد والبحث والاستقصاء وما زال مشتغلا باللغة وبعلم الـكلام درساً وتدريساً ومناظرة حتى برع براعة فائقة فيهما فصار إماماً في اللغة والنحو والأدب واسع العلم دقيق الفهم عالي الشأن فيها واليه والى رفيقه وشيخه أبي عمرُ الجرمي آلت الصدارة في البصرة فكانا عمدتي النحو فيها حينئذٍ بل كان المازني هو شيخ أهله فيها . وصار علماً من أعلام علماء الـكلام .

وكان قوي الحجة ثقة نافذ البصيرة ، غلاّباً في المناظرة ما ناظر أحداً الاّ أفحمه وغلبه وقد ناظر بعض شيوخه فأفحمهم .

قال فيه تلميذه الامام الجليل أبو العباس المبرد : لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان المازني : وقال النجاشي فيه : كان سيد أهل العلم بالنحو والغريب واللغة في البصرة ومقدمهم المشهور : وقال ابن الأثير : أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي الامام في العربية : وقال ابن خلـكان : كان امام عصره في النحو والأدب : وقال غير واحد : انه عالم ثقة : وقد وصفه شيخه أبو عبيدة : بالمتدرّج النقار ولعله يريد المترَقي البحاثة .

وأنا وإن لم أجد لمولده تاريخاً فيما بين يديّ من الـكتب أستطيع أن أقول إنه أدرك من خلفاء الدولة العباسية هارون الرشيد وأولاده الأمين والمأمون والمعتصم وولدي المعتصم الواثق والمتوكل لانّـه في بعض الروايات قدم بغداد وهو عالم وكان قدومه على عهد الامين وقيل المعتصم وقيل الواثق ولم يروَ أنه جالس من الخلفاء إلاّ الواثق والمتوكل .

فيكون قد أدرك الدولة العباسية وهي في قمة مجدها حضارة وعلماً وقوة وأدركها وهي

تهم بالانحدار من هذه القمة الى مهاوي الانقسام السياسيّ والعصبي بما كان من ايثار المعتصم الجند من الترك على الجند من الفرس والعرب وما تلا ذلك من فساد واضطراب في بغداد حاضرة الدولة وما كان من سوء أثره في الأقاليم .

فقد انتهى عصر المعتصم والأندلس للأمويين والمغرب الأقصى للادارسة وافريقية للأغالبة واليمن للزيادية وخراسان لآل طاهر والفرس والعرب حربٌ للدولة يكيدون لها المكايد ويتربصون بها الدوائر .

ويكون قد عاصر طائفة جليلة من أقطاب العلوم والآداب والفنون المعروفة الى عهده في الأمصار الناهضة كالبصرة والكوفة وبغداد منهم شيوخه أبو عبيدة والأصمعيّ وأبو زيد وأبو الحسن الأخفش وأبو عمر الجرمي ومنهم السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥) والنضر بن شميل (٢٠٤) والهروي (٢٥٥) ومحمد بن سلام الجمحي (٢٣٢) وأبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣) وهشام الكلبي (٢٠٦) وقطرب (٢٠٦) وثعلب (٢٠٠—٢٩٤) والنظّام والجاحظ والصولي (٢٤٣) والكسائي (٢٠٧) والفراء (٢٠٧) وابن الاعرابي (٢٣١) وابن السكيت (٢٤٤) والشيباني (٢٠٦) والبخاري (٢٥٦) وابن حنبل (٢٤١) ومنهم أبو نواس (١٩٨) ومسلم ابن الوليد (٢٠٨) وأبو العتاهية (٢١١) وأبو تمام (٢٣١) ودعبل (٢٤٦) وعلي بن الجهم (٢٤٩) وحسين بن الضحاك (٢٥٠) وابن مناذر (١٩٨) والعتابي (٢٢٠) والعكوك (٢١٣) .

وقد كان له بين هؤلاء العلماء الأجلاء والأدباء الأفذاذ في هذا العصر العلمي المزهر مقام رفيع ، فمن أخباره معهم ما يأتي :

في طبقات الأدباء لابن الانباري : قال أبو العباس المبرد سمعت أبا حاتم يقول : قرأت كتاب سيبويه على الأخفش مرتين وكان حسن العلم بالعروض واخراج المعميّ وقول الشعر الجيّد ولكن لم يكن بالحاذق في النحو وكان إذا التقى هو والمازني تشاغل أو بادر خوفاً أن يسأله المازني عن النحو . وروي هذا الخبر عن المبرد أيضاً في السجستاني نفسه لا في الأخفش

وقال المازني : كنت عند أبي عبيدة فساله سائل : كيف تقول : عُنيت بالأمر : قال : كما قلتَ عُنيتُ بالأمر : قال : فكيف آمُرُ منه : قال فغلط وقال : أعْنُ بالأمر : فأومأتُ الى الرجل : ليس كما قال : فرآني أبو عبيدة فأمهلني قليلاً ثم قال : ما تصنع عندي ؟ : قلت : ما يصنع غيري : قال لست كغيرك لا تجلس اليّ : قلت ولمَ ؟ : قال : لأني رأيتك مع انسان خوزي (نسبة الى مكان) سرق مني قطيفة : قال : فانصرفت وتحمّلت عليه بإخوانه فلما جئته قال لي : أدّب نفسك أولاً ثم تعلم الأدب :قال المبرد : الأمر من هذا

باللام لا يجوز غيره لأنك تأمر غير من بحضرتك كأنه لِيُفْعَلْ هذا (تقول ليُعْنَ زيدٌ بالأمر) .

وقال المازني : كنت عند أبي الحسن سعيد بن مَسْعَدَة الأخفش أنا والفضل الرياشيّ فقال الأخفش : إنّ مُنْذُ : إذا رفع بها فهي اسم مبتدأ وما بعدها خبرها كقولك ما رأيته مُنْذُ يومان : فاذا خفض بها كقولك : ما رأيته مُنْذُ يومين : حرف معنىً ليس باسم فقال الرياشيّ : فلم لا يكون في الموضعَيْن اسماً فقد نرى الاسماء تخفض وتنصب كقولك هذا ضاربٌ زيداً غداً وهذا ضاربُ زيدٍ أمس فلِمَ لا تكون بهذه المنزلة ؟ فلم يأت الأخفش بمقنع . قال أبو عثمان فقلت له لا يشبه مُنْذُ ما ذكرت لأنا لم نرَ الأسماء هكذا تلزم موضعاً واحداً إلاّ إذا ضارعت حروف المعاني نحو أينَ وكيفَ فكذلك مُنْذُ هي مضارعة لحروف المعاني فلزمت موضعاً واحداً : قيل فقال ابن أبي زرعة المازني أفرأيت حروف المعاني تعمل عملين مختلفين متضادين ؟ قال المازني : نعم كقولك قام القومُ حاشا زيدٍ وحاشا زيداً وعلى زيدٍ ثوبٌ وعلا زيدٌ الفَرَس فتكون مرّةً حرفاً ومرةً فعلاً بلفظ واحد .

وقال المازني : حضرت أنا ويعقوب بن السكيت مجلس محمد بن عبدالملك الزيات وأفضنا في شجون الحديث إلى أن قلت : إنّ الأصمعي يقول بينا أنا جالس إذ جاء عمرو : فقال ابن السكيت : هذا كلام الناس : قال : فأخذت في مناظرته عليه فقال محمد بن عبد الملك : دعني حتى أبيّن له ما اشتبه عليه ثم التفت إليه وقال : ما معنى بينا : قال : حين : قال : أفيجوز أن يقال : حين جاء عمرو إذ جاء زيد : قال : فسكت .

أما سبب مجالسته الواثق فهو أن مغنيّاً غنى الواثق هذا البيت :

أظلومُ إنَّ مصابكم رجلاً   أهدى السلام تحيةً ظُلْمُ

فلحّنه قومٌ وصوبه آخرون فسأل الواثق عمن بقي من رؤساء النحويين فذكر له فأمر بإزاحة علله وبحمله اليه من البصرة الى سرّ من رأى . فلما أدخل عليه أكرمه وسأله عن البيت فقال : صوابه : إن مصابكم رجلاً : قال : فأين خبر إنّ : قال : ظلم : والبيت كله متعلق به ، ولا معنى له حتى يتم بقوله : ظلم : ألا ترى أنه لو قال :

أظلومُ إن مصابكم رجلاً   أهدي السلام تحيةً : فكأنه لم يُفِدْ شيئاً حتى يقول : ظلمُ : ولو قال أظلومُ إن مصابكم رجلٌ * أهدى السلام تحيةً : لما احتاج الى ظلم ولا كان له معنى إلاّ أن تجعل التحية بالسلام ظلماً وذلك محال ويجب حينئذٍ :

أظلومُ إن مصابكم رجلٌ   أهدى السلام تحية ظلما

ولا معنى لذلك ولا هو لو كان له وجه مراد الشاعر: فقال: صدقت: ثم سأله عن أهله وحاله واستبقاه ثم كلفه أن يمتحن معلمي أولاده فامتحنهم ولم يجدهم صالحين. ولما أدركوا ذلك خافوه فقال لهم: لا بأس على أحد منكم: ولما سأله الواثق: كيف رأيتهم؟: قال: يفضل بعضهم بعضاً في علوم ويفضل الباقون في غيرها وكل يحتاج اليه: فقال الواثق: إني خاطبت منهم رجلاً فكان في نهاية الجهل في خطابه ونظره: فقال: يا أمير المؤمنين: أكثر من تقدم منهم بهذه الصفة وقد أنشدت فيهم:

إنَّ المعلمَ لا يزال مُضَعَّفاً ولو ابتنى فوق السماء سماء
من علَّم الصبيان أصبوا عقله مما يلاقي بكرة وعشاء

فقال له لله درُّك كيف لي بك ورغب في أن يقيم معه دائماً فاعتذر.

وقال المازني كنت بحضرة الواثق يوماً فقلت لابن قادم أو ابن سعدان وقد كابرني: كيف تقول نفقتك ديناراً أصلح من درهم؟. فقال: دينار بالرفع. فقلت: كيف تقول: ضربكَ زيداً خير لك فتنصب زيداً؟ فطالبته بالفرق بينهما فانقطع

(والفرق بينهما أن نفقة اسم مصدر والضرب مصدر. والمصدر هو الذي يعمل عمل فعله لا اسم المصدر وذلك على مذهب البصريين لا الكوفيين فانهم يجيزون عمله كالمصدر واسم المصدر ثلاثة أنواع علم مثل فجار ويسار وهذا لا يعمل اتفاقاً ومبدوء بميم وهذا يعمل اتفاقاً ومنه (إن مصابكم رجلاً) كالمصدر من فاعل وغير هذين هو محل الخلاف) وكان ابن السكيت حاضراً هذا المجلس فقال الواثق للمازني: سله عن مسألة فقال:

ما وزن نَكْتَل من الفعل؟ فقال: نفعل: فقال الواثق: غلطت. ثم قال: فسره: فقلت: نَكْتَلْ تقديره نفتعل وأصله نَكْتَيِلْ فانقلبت الياء ألفاً لفتحة ما قبلها فصار لفظها نكتال فأسكنت اللام للجزم لأنه جواب الأمر فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فيكون الوزن نفتل: فقال الواثق: هذا هو الجواب لا جوابك يا يعقوب: فلما خرجنا قال لي يعقوب: ما حملك على هذا وبيني وبينك المودة الخالصة؟ فقلت: والله ما قصدت تخطئتك ولم أظن انه يعزب عنك ذلك.

ولما أراد المازني العود الى البصرة أمر له الواثق بخمسمائة دينار وقيل بألف وكتب الى والي البصرة أن يجري عليه كل شهر مائة دينار فكان يجري عليه هذه المائة كل شهر حتى مات الواثق فقطعت عنه.

قال المازني: ولما ذكرت المتوكل أشخصني اليه فلما دخلت عليه رأيت من العدد

والسلاح والأتراك ما راعني والفتح بن خاقان بين يديه وخشيت إن سئلت عن مسألة ألا أجيب فيها فلما مثلت بين يديه وسلمت قلت : يا أمير المؤمنين أقول كما قال الاعرابي :

لا تقلُواها وادلواها دَلْوَا إنّ مع اليوم أخاه[1] غدْوَا

فلم يفهم عني ما أردت واستبردت وأخرجت ثم دعاني بعد ذلك واستنشدني أحسن مرثية للعرب فأنشدته قصيدة ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجّع والدهر ليس بمعتب من يجزع

حتى أتيت على آخرها . ثم قصيدة نويرة اليربوعي :

لعمري وما عمري بتأمين هالك ولا جزعٌ مما أصاب فأوجعا

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة كعب الغنوي :

تقول سليمى ما لجسمك شاحباً كأنك يحميك الشراب طبيب

حتى أتيت على آخرها ثم قصيدة ابن مناذر

كل حيّ لاقي الحمام فمودى ما لحيّ مؤمَّلٍ من خلود

حتى أتيت على آخرها . وكان كلما فرغت من قصيدة من هؤلاء القصائد قال : ليست بشيء : ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبد الصمد بن المعذّل . قال : فأنشدني له : فأنشدته أبياتاً له (وهي أبيات هزلية سقيمة التركيب) فاستحسنها واستطابها واستطار لها وأمر لي بجائزة فكنت من ساعتئذٍ حريصاً على أن أحفظ أمثالها وأنشده إياها إذا وصلت اليه فيصلني .

وحكي أنَّ أبا عثمان المازني سئل في حضرة المتوكل عن قوله عزَّ وجلَّ : وما كانت أمه بغيًّا : فقيل له : كيف حذفت الهاء وبقي فعيل وفعيل إذا كان بمعنى فاعل لحقته الهاء نحو فتيّ وفتيّة : فقال : إنّ بغيًّا ليست بفعيل وإنما هي فعول بمعنى فاعله لأن الأصل فيهما بغويٌ ومن أصول التصريف : إذا اجتمعت الواو والياء والسابق منهما ساكن قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء كما يقال شويت شيًّا وكويت الدابة كيًّا والأصل فيهما شوْيا وكوْيا فعلى هذه القضية قيل بغيٌ وواجب حذف التاء منها لأنها بمعنى باغية كما يحذف من صبور بمعنى صابرة .

وقيل ان هذا السؤال كان منه هو لعلماء الكوفة في حضرة الواثق الذي طلب منه أن يسألهم .

(١) قلاها ساقها سوقاً شديداً — ودلاها ساقها سوقاً رفيقاً .

وقال المازنيّ سألني الأصمعي عن قول القائل

يا بئرُنا بئرَ بني عَـدِيّ   لاينزحنّ قعرك بالدلِيّ

حتى تعودي أقطع الوليّ (١)

فقلت حتى تعودي قليبا أقطع الوليّ وكان حقُّـه أن يقول قطعاء الولي لقوله: حتى تعودي:
ومما يدل على جودة فهمه ما رواه المبرد قال: سمعت المـازني يقول: معنى قولهم إذا لم تستح فاصنع ما شئت: إذا صنعت ما لا تستحي من مثله فاصنع منه ما شئت وليس على ما يذهب إليه العوام؟ قال المبرد: وهذا تأويل حسن.
أمّا أدلّـة اتساعه في الرواية فمنها قصـائد الرثاء التي قرأها للمتوكل ومنهـا ما قاله: لم يصح عندنا أن عليًّ بن أبي طالب عليه السلام تـكلم من الشعر بشيء غير هذين البيتين:

تلـكم قريش تمنّـاني لتقتـلني   ولا وجدّك ما بروا وما ظفروا

فإن هلـكت فرهنٌ ذمتي لهم   بذات رَوْقين لا يعفو لها أثر (٢)

وقال: قرأت على أبي وأنا غلامٌ: ترى الودق يخرج من خلاله: فقال أبو سوار الغنوي وكان فصيحاً: يخرج من خلله. فقال أبي: من خلله قراءة: فقال أبو سوار: أما سمعت قول الشاعر:

يثير بغمزة يخرجن منها   خروجَ الودق من خلل السحاب

قال أبو عثمان: خلل وخلال واحدها مصدران. وقال: حدثني أبو زيد قال: سمعت رؤبة يقرأ. فأما الزبدُ فيذهبُ جُـفالاً. قال: قلت جفاءً. قال: لا أما الريح تجفله أي تقلعه:

وقال حدثني رجل من بني ذهل بن ثعلبة قال شهدت شبيب بن شبّـة وهو يخطب الى رجل من الاعراب بعض حُـرَمه وطوّل وكان للاعرابي حاجة يخاف أن تفوته فاعترض الاعرابي على شبيب وقال له: ما هذا إن الكلام ليس للمتكلم المكثر ولـكن للمقل المصيب وأنا أقول: الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين أما بعد فقد أدليت بقرابة وذكرت حقًّـا وعظمت مرعيًّـا فقولك مسموع وحبلك موصول وبذلك مقبول وقد زوجناك صاحبتك على اسم الله وفي رواية وعظمت مَرْغباً.

---

(١) القليب البئر. الولي المطر بعد الوسمي سمي ولياً لانه يلي الوسمي والوسمي مطر أول الربيع نزح البئر أخرج ماءها. (٢) الروقان القرنان وداهية ذات روقين عظيمة.

وسئل المازني عن أهل العلم فقال : أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة والشعراء فيهم هوج والنحاة فيهم ثقل وفي رواية الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه .

ولأبي عثمان المازني شعر قليل منه :

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما   رأي النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فإنهن عواهر   وأخو الصبا يجري بغير عنان

ومنه ما رواه المبرد قال : عزّى المازني بعض الهاشميين ونحن معه فقال :

إني أعزيك لا أني على ثقة   من الحياة ولكن سنة الدين
ليس المعزّى بباقٍ بعد ميته   ولا المعزّي وإن عاشا الى حين

أما ورعه وأخلاقه فكانا في الذروة العليا فما يدل على ورعه ما رواه المبرد قال : إن يهوديًّا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه فأبى فقيل له : لِمَ امتنعت مع حاجتك وأهلك ؟ ! قال : إن في كتاب سيبويه ثلثمائة وكذا وكذا آيةً من القرآن ولست أرى أن أمكّن منها ذميًّا غيرةً على كتاب الله وحميَّةً له : قال المبرد : فلم يمض على ذلك مُديدة حتى طلبه الواثق وكان معه من أمره ما كان .

ومما يدل على سموّ نفسه وترفعه عن الصغائر أن عبد الصمد بن المعذّل كان قد وجد عليه من شيء أنكره المازني وكلام تكلم به فيه فقال أبياتاً يهجوه بها وأفحش .

أولها : بنت ثمانين بفيها لثغة   شوهاء ورهاء كطاين الردَغة

وآخرها : فاطو حديثي دونه أن يبلغه   هممت أعلو رأسه فأدْمَغَه

فبلغ ذلك أبا عثمان فلم يزد على أن قال : قولوا لهذا الجاهل بِمَ نصبت فأدمغه ؟ لو لزمت مجالسة أهل العلم كان أعود عليك .

***

ويتضح من الألفاظ التي دارت حولها المساءلات والمناظرات السابقة أن علم الصرف كان حينئذٍ في طور النشوء والارتقاء والاستقلال فلم يكن الى ذلك العهد قد وضع فيه كتاب على حدةٍ وكان أبو عثمان المازني معنيًّا به كل العناية يفكر في مسائله ويدارس العلماء فيها ويناظرهم لتحريرها وضبطها وهم لعنايته هذه بها يسألونه وما زال كذلك حتى أفضى به ذلك

الى افراد هذا العلم بمصنف هو أول ما ألف فيه سماه المنصف ويعرف بتصريف المازني وقد كانت بحوث علم الصرف قبل المنصف تذكر في خلال بحوث علم النحو .

وقد جاء هـذا الـكتاب وهو الأول من نوعه خير الـكتب القديمة والحديثة في علم الصرف باجماع العلماء وأدل دليل على ذلك أن ابن جني وهو أعلم العلماء بالصرف وفي مقدوره أن يؤلف فيه كتاباً مستقلاً يكون خير كتاب فيه آثر أن يشرح تصريف المازني لجلالة قدر الـكتاب وقدر مؤلفه ثم صار هـذا الشرح هو الآخر درة في تاج المؤلفات العربية باجماع العلماء .

وقد سألت الامام العلامة اللغوي الجليل محمد بن محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي نزيل القاهرة رحمه الله أيام كانت دار الـكتب المصرية في درب الجماميز قبـل أن تنقل الى مبناها الجديد بباب الخلق وكنا منصرفين منها والتقينا عند جامع الحين بالقرب من ميدان باب الخلق : ما خير كتاب في علم الصرف ؟ : فقال رضي الله عنه : الشافيـة لابن الحاجب وخير منها شرح ابن جني على تصريف المازني ولا يوجد إلاّ عندي : فلما اختاره الله لجواره ونقلت كتبه الى دار الـكتب سارعت الى الاطلاع على هذا الـكتاب فاذا به مكتوب بخط مغربي سقيم يتعسر الانتفاع به ولما توفى الى رحمة الله تعالى احمد تيمور باشا ونقلت كتبه هو الآخر الى دار الـكتب وجدت فيها نسخة من هذا الـكتاب منقولة عن نسخة الشنقيطي ولـكنها بخط جميل فاذا به في الذروة العليا .

ولأبي عثمان المازني من الـكتب غير كتاب المنصف المذكور كتاب في القرآن كبـير وكتاب في علل النحو صغير وكتاب في تفسير كتاب سيبويه وكتاب ما تلحن فيه العامة وكتاب الألف واللام وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب الديباج في جوامع سيبويه وهو كالفهرس لمطالبه وكل مؤلفاته جيـّد .

وكان يقول : من أراد أن يصنف كتاباً كبيراً في النحو بعد كتابه سيبويه فليستح . ولعلّ هذا الاعتقاد هو الذي صرفه عن التأليف في النحو الى التأليف في الصرف ولو أنـه ألف في النحو لجاء بأعجب العجب فقد قرأ كتاب سيبويه درساً وتدريساً مرات كثيرة .

هذا ما وسعه الوقت والجهد من ترجمة هذا العلامة الأجلّ الحبيب . وأرجو أن أوفق لـكتابة ترجمة شارح كتابه المنصف وهو أبو الفتح عثمان بن جني .

عبد الله امين

حكم الارهاب — Reign of Terror

في التاريخ الفرنسي :

هو الطور الاول من أطوار الثورة الفرنسية الذي استولت فيه فئة خاصة من الزعماء على السلطة ، وأخضعوا البلاد لإرادتهم ، وقد رسموا لسياستهم خطة قتال كل من يأنسون فيه الميل الى مقاومة مبادئهم ، رجلا كان أو امرأة ، شيخاً أو صبياً .

وقد بدأ هذا العصر في شهر مارس من سنة ١٧٩٣ عندما ألفت المحكمة الثورية (Revolutionary Tribunal) ، وانتهى في شهر يوليه من سنة ١٧٩٤ ، بسقوط «روبسبيير» وأنصاره . وقد يسمى « الارهاب » (The Terror) من غير أن يذكر لفظة « حكم » Reign فتدل كلمة « الارهاب » على ذلك العهد خاصة . وقد يطلق هذا الاصطلاح على كل عصور الحكم التي يكون فيها شبه من حكم الارهاب في فرنسا .



٢ – السيكومتري

Psychometry

تقصي الأثر في لوحة الفضاء والزمن



كيف يتم الاتصال بحوادث ماضية

وقد يسأل سائل فيقول: إذا كانت وظيفة السلعة هي أن توجد صلة فبأية طريقة إذاً تتم الصلة بحوادث تمت في الماضي السحيق ؟ فمثلاً في التجارب السيكومترية الكثيرة التي أجراها العلامة وليم دنتون W. Denton وكان الوسيط فيها ولده حصل دنتون على بيانات تفصيلية هامة عن فترات جيولوجية وتاريخية ماضية . وكان وليم دنتون هذا أستاذاً للجيولوجيا ، أغرم بها من جهة وبظاهرة السيكومتري من جهة أخرى ، فقدم للفحص السيكومتري عينات جيولوجية ، وحصل على نتائج مدهشة وهامة . ولكن كانت توجد نقطة ضعف واحدة هي أن ما حصل عليه من تفصيلات لحوادث ما قبل التاريخ كان مطابقاً لما أقرته البحوث العلمية ودونته الكتب. على أن مما زاد في غرابة الأمر أن الوسيط كان في معظم الحالات لا يعرف شيئاً عن طبيعة العينة المقدمة ، ومع ذلك كان يدلي بوصف بالغ غاية الدقة . وفي بعض الأحيان كان يعطى الوسيط قطعة من حجارة إحدى الخرائب ، فكانت الأنباء والمعلومات التي يدلي بها تتفق تماماً والواقع . وكانت التحريات فيما بعد تثبت صدق الوسيط فيما إذا حدث شك أو اختلاف لما كان يتوقع . فمثلاً حينما كان شيرمان Sherman ابن الأستاذ وليم دنتون نفسه يتقصى الأثر من قطعة حجر جيري استاجميتي من جبل طارق جعل يصف هجوماً على جبل طارق فقال : أنه يرى « قنابل محمرة من الحرارة تخترق جانب سفينة » . ولم يكن أحد من الحاضرين إذ ذاك يعلم أن الأساطيل الفرنسية والاسبانية كانت قد هاجمت جبل طارق سنة ١٧٨٢ ، وأن المدافعين كانوا يطلقون قنابل احمرت من شدة الحرارة . ويراجع في ذلك كتاب « روح الأشياء The Soul of Things » لمؤلفه الأستاذ وليم دنتون .

وتكون مناظر الأحداث الماضية بالنسبة لوسطاء السيكومتري واضحة وضوح الأحداث

العادية التي يدركونها في حاضرهم بحواسهم العادية . بل ان الرؤية تكون من الوضوح بحيث يستعمل الوسطاء الفعل المضارع لا الماضي . سأل مرّة مستر دنتون ولده بصدد أحد هذه المناظر قال : « أمستطيع أنت أن ترى نفسك هناك ؟ » فأجابه ولده «بالطبع أستطيع أن أرى نفسي في وضوح كأي شيء آخر أراه بعيني . وتبدو يداي لناظري أنظف مما هي الآن (ولاحظ الأستاذ دنتون أن يدي ولده كانتا قذرتين إذ ذاك) . بل إني أحس بهما قذرتين كذلك . . . ويكون شعوري بهما كشعوري بشيئين مختلفين في آن واحد . فأنا هنا أحس بملابسي ، وبعدئذٍ أكون هناك فلا أحس بشيء » .

وإذاً يكون هناك إحساس بشخصيتين أو شخصية مزدوجة . ولكن في بعض الأحيان تكون للوسيط شخصية معينة إزاء ما يرى من مناظر ، ويبدو لنفسه كأنما يعيش بين الحوادث وكأنها جارية الحدوث بالفعل . فهو يشعر بالنسيم يهب عليه ، ويحس بالحرارة وبالبرودة ، ويسمع الناس يتكلمون ، ويشاهد المناظر وكأنما يشهد مناظر حقيقية واقعية . فهو مستطيع أن يجوس خلال شوارع مدينة اندثرت من الوجود المادي وهو مشاهد وجوه الناس وجسومهم ، مقدر النظام المعماري في المباني ، منغمر في المناشط المحيطة به ، حتى لكأنما هو يعيش فعلاً في مدينة أخرى ووسط آخر. وكل هذا يتم نتيجة لحمله سلعة في يده أو وضعها على جبهته أو مقابل ضفيرته الشمسية . فكيف تستطيع سلعة أن تجعل وسيطاً يرى مناظر ليس لها أثر في الوجود المادي ؟ أيمكن أن يكون هناك سجل تنقش فيه الأحداث الماضية جميعها ؟ ان الحقائق التي بسطناها تؤدي الى هذه النتيجة . وان السلعة المقدمة هي سبيل الوصول الى هذه المناظر والرؤى .

ولقد مرَّ بنا كيف أن الوسيط يمضي متخطياً السلعة الى الأشخاص الذين لمسوها ، ولكن في تلك الحالات التي توصف فيها أحداث وأشخاص ماضية ما الذي يمكن الاتصال به ما لم يكن سجلاً أو ذاكرة ؟ ان سير آرثر كونان دويل في كتابه « حافة المجهول » يشبه الانطباعات السيكومترية في الفضاء والزمن بالظلال فوق ستارة هي في نظره أثير الكون ، ونراه يقول « ان الكون المادي كله مطمور في تلك المادة الماكرة التي تتخلله كذلك ، والتي هي من الرقة واللطف بحيث لا يؤثر فيها الهواء ولا أية مادة أخرى أخشن منه » .

ويجيء بعد ذلك مسألة الزمن فحسنا بالزمن وقف على تتابع الأحداث وتسلسلها ، فهو مضمر في ادراكنا الحسي للظواهر ، فهل ينتقل الادراك يا ترى من دولة زمنية الى دولة أخرى ؟ لا يخفى انه في بعض حالات الوعي الشاذة تتم في بضع دقائق الأحداث التي تستغرق في العادة سنين ، والأحلام مثل توضيحي لذلك . والظاهر أن الوعي يمكن أن يمتد فيشمل

مجالات إدراك واسعة المدى ، وربما كانت الحوادث تمر في كل مجال بسرعات تختلف وحسنا الزمني فتعدل سنة مثلاً في أحد المجالات لحظة في مجال آخر . وقال الله تعالى في كتابه العزيز «وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقال « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

ولكن مع كل هذا كيف تتكون الحوادث الماضية من جديد فيراها الوسيط ؟ هل هناك شريط سينمائي أثيري يعرض في هذه الحالات السيكومترية فلا يراه الا الوسطاء ؟ إن ظاهرة السيكومتري تدفع بنا الى ذلك دفعاً . ترى هل يمكن اقتناص أشعة الضوء المنبعثة من حادث مضى فتمثل لنا الحالات من جديد ؟ تقول نظرية النسبية ان فضاءنا متناهٍ على الرغم من أنه غير محدود ، فشعاع الضوء المنبثق من أي نجم يسير قدماً حول الكون ويعود ثانيـة الى النقطة التي بدأ منها مرة في كل الف مليون سنة . وقد علق على هذا الرأي العلامة الاستاذ ادنجتون فقال : —

« يستغرق إذاً كل شعاع ضوئي منبثق من الشمس ما يقرب من الف مليون سنة لـكي يسبح حول الـكون كله . وبعد هذا السفر الطويل تتلاقى الأشعة كلها كما كانت عند نقطة الابتداء ، ثم تتباعد ثانية لتجول جولة ثانية ثم أخرى وأخرى ، فتلاقي هذه الأشعة يعطينا كل مرة شبحاً للشمس له جميع ميزاتها من حيث الضوء والحرارة . وكل ما في الأمر أن الجسم المادي الأصلي يكون غير موجود . وعلى ذلك يكون للشمس مجموعة أشباح تشغل الأماكن التي وجدت فيها الشمس يوماً ما منذ ألف أو ألفي أو ثلاثة آلاف مليون سنة . وهكذا

« ومن ثَمَّ كان لنا أن نتصوَّر هذا التصوُّر الجميل وهو ان سجلات الحوادث الماضيـة للـكون النجمي تعود فتظهر من تلقاء نفسها في مواضع النجوم الأصلية ، وربما كان واحداً أو أكثر من السدم اللولبية الكثيرة الموجودة في السموات بمثابة أشباح لمجموعتنا النجمية . وقد يكون عدد من النجوم التي نراها في السموات أجساماً مادية على حين يكون العدد الباقي منها أشباحاً ضوئية عادت لزيارة مرابضها القديمة »

ألا يمكن في ضوء هذا التفسير أن نقول إن الوسيط يطرح طرحاً واعياً روحه التي تنطلق بسرعتها التي تفوق سرعة الضوء بمراحل ، فتدرك ـ مستهدية بالأشعة الضوئية المنبعثة من السلعة ـ الأشعة الضوئية الأخرى الممثلة للحوادث الماضية ، وتتلقاها في نقطـة ما من الفضاء والزمن ، فترى الحوادث وكأنها تجري من جديد ؟ على أنه اذا أردنا ألاَّ نحتمي ببعض الآراء المبنية على نظرية النسبية فيتحتم علينـا أن لا ننسى أن العقل يتخطى بصوره

حدود الزمان والمكان ، وأنه ليس مقيداً بالمخ . ولكن لما كان الشعور مرتبطاً بالأعضاء المادية فانه يصعب على الماديين كثيراً أن يدركوا وجود عقل غير مجسد أو شخصية غير مجسدة .

فوق شاشة الفضاء والزمن

لا شيء أعجب ، ولا أصدق في الوقت ذاته ، من أن الحوادث الماضية قد تتركز أو تنطبع في مكان ما ، فيتأثر بها العقل الحساس ويحس بها وكأنما هي تجري من جديد . ونرى أمثلة لذلك منشورة في الكتب الروحية ، وأخرى يتندر بها الناس في كل زمان ومكان . وقد حدثتنا التلغرافات الخارجية بما تم في بلدة هيروشيما اليابانية التي دمرتها القنبلة الذرية ، وكيف رأى الناس أشباحاً للجسور والمباني المهدمة تقام ثم تختفي هي ومن حولها من الناس ! وكل ذلك ولا شك رؤى سيكومترية يلعب فيها المكان دور السلعة . وفيما يلي حادثة يصح اعتبارها فذة في هذا الصدد . وقد نشرت لأول مرة في كتاب ظهر سنة ١٩١١ واسمه « خادثة An Adventure » ألفته سيدتان انجليزيتان لم تفصحا في طبعاته الأولى عن اسميهما ولكنهما أعلنتا اسميهما في الطبعات التي ظهرت أخيراً وهما مس آن . أ . موبرلي ومس اليئور ف . جوردين Miss Eleanor F. Jourdain . فأما الأولى فهي ابنة الدكتور موبرلي الذي كان عميداً لكلية ونشستر Winchester ثم فيما بعد أسقف سالسبوري Salisbury ، وكانت مسز موبرلي نفسها رئيسة كلية سان هيو .St. Hugh بأكسفورد . وأما الثانية فهي ابنة القس فرانسيس جوردين ، وهي حاصلة على درجة ماجستير .M. A في الآداب . وعلى الدكتوراه كذلك من جامعة باريس ، وكانت وكيلة كلية سان هيو ثم رئيسة لها فيما بعد لما استقالت مس موبرلي . ويكفي هذا المختصر التاريخي للدلالة على أن السيدتين راويتي ذلك الحادث الفذ من الفضليات المثقفات ، وان ثقافتهما تؤكد لنا أن الحادث صحيح صادق غير مختلق .

ففي أغسطس سنة ١٩٠١ زارت مس موبرلي ومس جوردين البتي تريانون Petit Trianon في فرساي ، وسارتا فيما ظنتاه الطريق العادي ، واذا بهما تريان أو خيل اليهما أنهما تريان معالم المكان التاريخية المادية . ومع أن السيدتين لم تدركا طبيعة الحدث غير العادي الذي يجري أمامهما فانهما كانتا في حالة وعي شاذة لأنهما شعرتا في فترات كأنهما تريان شيئاً غير حقيقي . فمس جوردين تقول : « أحسست كأني أمشي وأنا نائمة » . وتقول مس موبرلي : «وحتى الأشجار بدت وراء البناء كأنها منبسطة ولا حياة فيها فكأنما هي صورة غابة نقشت فوق نسيج موشي . ولم تكن هناك ثمة تأثيرات للضوء والظل حتى ولا نسيم يحرك الأشجار »

وحدث بعد ذلك بسنتين أن زارت إحداهما ثانية البتي تريانون فأدهشها أن ترى للمكان معالم غير تلك التي كانت رأتها هي وزميلتها سنة ١٩٠١ ، وقد دلها البحث على أن السيدتين رأتا البتي تريانون في مظهره أيام الملكة ماري انطوانيت . ويمكن تقدير قيمة البينة التي يقدمها هذا الحادث من قراءة الكتاب الذي ألفته السيدتان .

تقول مس جوردين : « رأينا الى اليمين بعض مباني مزرعة بدت خاوية مهجورة ، ورأينا هناك آلات زراعية ومن بينها محراث . ووقف هناك شخصان في ملابس رسمية (خضراء اللون) وقد طلبا الينا أن نسير قدماً . وأذكر اني أعددت سؤالي لأنهما أجاباني بشكل يكاد يكون آلياً . ورأيت كذلك كوخاً قائماً بمفرده . ووقفت في الممشى المؤدي الى الباب امرأة وفتاة ، وقد لفتت ملابسهما نظري بنوع خاص ، فقد تدلى من حزام كل منهما منديل أبيض معلق ، وكان جلباب الفتاة طويلا بلغ الكعبين مع انها كانت في حولها الثالث أو الرابع عشر . ورأيت المرأة تناول الفتاة ابريقاً . وبلغنا ممشى يقطع طريقنا ، ورأينا أمامنا بناءً مسقوفاً ذا أعمدة . وجلس على السلم رجل على كتفيه عباءة سوداء ثقيلة وفوق رأسه قبعة مسترخية . وأدار الرجل في تؤدة وجهه الينا فرأينا فيه ندوب الجدري ، وكان الوجه شديد السمرة ، تنم ملامحه على الشر ، فاستشعرت شيئاً من النفور منه . وفجأة شعرنا برجل يجري وراءنا وينادينا قائلاً سيدتي ، سيدتي . فلما التفتنا اليه طلب الينا أن نسير في الاتجاه الآخر ، وكان كلامه بلهجة غير مألوفة . وكان الرجل ينتعل حذاء ذا مقبض (ابزيم) فسلكنا طريقاً ضيقاً الى أن اعترضتنا فجأة الحديقة الانجليزية التي تواجه البتي تريانون . وكان الطريق خالياً . ولكن لما اقتربنا من الافريز أذكر أني سحبت ذيل ثوبي كأني أفسح الطريق لشخص بجواري . وبينما نحن فوق الافريز خرج علينا صبي من باب بناء آخر في نفس الشارع ، وما زال يرن في أذني صوت إغلاق الباب في عنف ، وقد أشار علينا أن ننعطف الى الممر الثاني . فلما رآنا نتردد ابتسم ابتسامة الساخر وعرض علينا أن يدلنا على الطريق » .

وكتبت مس موبرلي بياناً آخر مستقلاً تصف ما رأته في زيارتها البتي تريانون، واتفقت مع مس جوردين فيما روته وزادت انها رأت سيدة . وتقول مس موبرلي عن هذه السيدة « إنها رأتنا ، ولما مررنا بالقرب منها وعن يسارها التفتت الينا وحدقت فينا ، فتبينت وجهها كله ، فاذا به لم يكن وجه شابة . ومع انها كانت جميلة فانها لم تجذبني اليها » .

وفي ضوء البحوث التي أجريت بعد ذلك ظهر ان هاتين السيدتين قد رأتا فعلاً البتي تريانون في عهد ماري انطوانيت .

ومن هذا يتضح أن سيدتين استطاعتا في وضح النهار وهما في صحة جيدة وحالة عادية أن يشهدا بأن هذه الأحداث قد تمت كأمر واقع لا كصور ذهنية انتقلت من شخص لآخر ، لأن ما رأته إحداهما لم يتفق مع ما رأته الأخرى في جميع التفصيلات والوجوه . وعدا هذا فان ما رأتاه من الأحداث يتصل بشخصيات مشهورة في التاريخ ، وانه يمكن التأكد من صحة الوقائع بالرجوع الى البينات التاريخية المدوّنة . ولم تكن تلك البينات قد اضطربت أو تغيرت منذ أن جمعتها الجمعية الوطنية إلى أن بحثت فيها مس جوردين سنة ١٩٠٤ فأزالت الأربطة التي كانت لصقت بالملفات لطول الزمن وقلة الاستعمال .

وقد علق سير آرثر كونان دويل على تلك الحادثة في كتابه « حافة المجهول » فقال « إن كل من يدقق فيما روته هاتان السيدتان ، ويلاحظ أوجه الشبه كما يلاحظ كذلك أوجه الخلاف الهامة لا يستطيع إلاّ ان يحكم بصدقهما ، وإلاّ ان يعترف بأن ما ترويانه ليس خيالاً ولا ايحاءً ولا تصوراً كاذباً (اي هلوسة) . أما كيف تمّ هذا وبأي انكسار روحي قد سقط سراب هذا الماضي على لوحة الحاضر فمسألة عسيرة الحل » وهي طبعاً عسيرة الحل في ضوء المادية التي تطغى على بعض العقول . ويخيل الينا ان هذه الحادثة سيكومترية مع فارق واحد هو ان السلعة التي استخدمت في هذه الحالة كانت سكناً أو مكاناً .

وتدفعنا دراسة هذه الحادثة ومثيلاتها الى القول بان العنصر المكاني مهم من حيث أنه العامل المسبب لهذا النوع من الرؤية . وكما هي العادة في الحالات السيكومترية من وجوب وجود سلعة ، فان السيدتين ما كانتا تريان ما رأتا لو لم تزورا هذا المكان بالذات . وفي أوائل التعقيب الذي ختمت به ترجمتي لكتاب « على حافة العالم الأثيري » ذكرت قصة فرنسيين ضلاّ الطريق في ذلك المكان فبدت لهما مشاهد ذلك الماضي القديم ، وقالا إنهما رأيا سيدة على جانب كبير من الجمال جالسة في منزل أنيق وسط حديقة تشبه حدائق العصور الوسطى في نظامها وتنسيقها . وأنهما رأيا كذلك رجلاً أسمر الوجه يلبس معطفاً . ثم اختفى المنظر فذعرا وما زالا سائرين حتى اهتديا الى الطريق العام بعد تعب شديد . ويؤكد هذان الرجلان أن السيدة التي رأياها هي الملكة ماري انطوانيت نفسها ، وأن ذلك الرجل هو الكونت دي فودفيل .

ومما يؤيد وجود حالة خاصة لهذا المكان الذي نحن بصدده ما ذكر في تذييل أضيف في الطبعة الرابعة لكتاب « حادثة » سالف الذكر . فقد حدث لرجل وسيدة وولدهما الفنان سنة ١٩٠٨ في فرسايل نفس ما حدث لكلٍّ من مس موبرلي ومس جوردين ، ولم يكن أفراد هذه الأسرة قد عرفوا إذ ذاك شيئاً مما روي في كتاب « حادثة » لأنهم لم يقرأوا

ذلك الكتاب إلاَّ سنة ١٩١١ ولا تفسير لهذا الحادث وأمثاله إلاَّ بأنه إما أن يكون هؤلاء الذين شاهدوه تنطرح أرواحهم من جسومهم ، وهم لا يفهمون هذا الطرح ، فيرون جزءاً من عالم الروح . وإما أن مكان عالم الروح هؤلاء يبعثون بالتلبثي صوراً فيلتقطها الوسطاء الموهوبون من روّاد هذا المكان الذي كان مسرحاً لحوادث خاصة . وهؤلاء الوسطاء أنفسهم قد لا يعلمون أنهم وسطاء .

السيكومتري والروح

يرى الأستاذ بوزانو Prof. Bozzano أن التفسير الروحي للسيكومتري هو أقرب التفاسير الى العقل ومنطق الامر الواقع . وهو يستشهد على ذلك بمثلين ذكرهما في كتابه « تأثير غير المتجسدين في حياة الانسان » وقد أصدر معهد لندن الدولي للبحوث الروحية هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ وفيما يلي خلاصة ما ذكره في المثلين وما استخلصه منهما : —

(١) فأما المثل الأول فهو تلك التجربة الشهيرة التي أجراها الدكتور أوستي Dr. Osty مع الوسيطة مدام موريل Mme. Morel بصدد اختفاء رجل عجوز يدعى ليرازل Lerasle في ضياع البارون جوبرت Joubert وقد ذكرها الدكتور أوستي في كتابه « القوى غير العادية في الانسان » .

وخلاصة الحادثه أنه في يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٤ كتب ناظر مزارع البارون جوبرت الى الدكتور أوستي يخبره باختفاء هذا الرجل منذ يوم ٢ مارس ، ويقول انهم لم يعثروا عليه مع ما بذل من بحث طويل مجهد . وقد جيء للدكتور بوشاح للرجل فناوله الى مدام موريل طالباً اليها البحث عن صاحب الوشاح . فقالت وهي في نومها المغناطيسي « أرى رجلاً ملقى مغمض العينين كأنه نائم ولكنه لا يتنفس ... انه ميت ... انه ليس في فراشه بل فوق الأرض ... والأرض رطبة ندية جدًّا . منبسطة غير مزروعة . . . أرى ماء غير بعيد . . . وشجرة كبيرة ... وشيئاً آخر كبيراً جدًّا قريباً منه ... شيئاً كالأدغال ... انه غابة ...» وتلا ذلك وصف للطريق الذي سلكه الرجل ، ثم لمظهر الرجل نفسه ولشكله . قالت « انه أصلع طويل الأنف ... وفوق أذنيه شعر أبيض قليل وكذلك في مؤخر رأسه ... انه يلبس رداءً طويلاً وقميصاً ناعماً ... يداه مطبقتان ... أرى إصبعاً من أصابعه وقد أصيب ... الرجل متقدم في السن كثيراً وهو مجعد البشرة ... شفتاه متدليتان ، وجبهته مجعدة وعريضة ... انه ينام على جنبه الأيمن وقد انثنت ساقه تحته » . وقد كرّرت وصف الساق المنثنية تحته ثلاث مرّات .

ووجدت الجثة فعلاً في المكان الموصوف ، وكانت الأرض منبسطة ولكنها كانت في هذه الجهة منحدرة الى جدول هو الوحيد في ذلك الجزء من الغابة . أما ذلك الشيء الكبير فقد كان صخرة ضخمة غطاها العشب . وكان وصف الجثة صحيحاً كذلك ما عدا قولها « انه ينام على جنبه الأيمن وقد انثنت ساقه تحته » . ويقول الأستاذ بوزانو انها ذكرت ثلاث مرّات ، وانها في المرة الثانية قالت كذلك « انه لم يسر في الغابة مسافة طويلة . انه يشعر بألم . أراه ينام على الأرض ثم يموت .. »

هذا الخطأ الذي وقعت فيه الوسيطة ثلاث مرّات متتاليات مضافاً اليه الجملة الأخيرة يلفت النظر ، فاذا نحن قلنا ان التقصي تمّ بظاهرة الرؤية البعيدة المدى أو الرؤية عن بعد فاننا لا نستطيع التعليل لغلطة الوسيطة التي وقعت فيها ثلاث مرات متتاليات ، وهي الغلطة الخاصة برؤيتها الجثة راقدة على جانبها الأيمن وقد انثنت إحدى الساقين تحتها ، على حين انها كانت منبطحة على ظهرها والساقان ممدودتان . وتقطع هذه الغلطة بأن الحالة لا يمكن البتة أن تكون حالة رؤية بعيدة المدى أو رؤية عن بعد . وللسبب عينه يتحتم استبعاد مسألة طرح الجسم الروحي للوسيطة ما دامت قد وصفت الجثة في وضع ينافي الواقع ، فهي من ثمّ لا تكون قد رأتها بعين الروح المطروحة . وللسبب عينه كذلك لا بدّ من استبعاد فكرة انطباع الحوادث في السلع ، وخاصة لأن الحادث وقع والوشاح بعيد عن صاحبه . ولا بد من استبعاد حدوث تلبثي من الاحياء الموجودين من أصدقاء الرجل المتوفى وأقاربه لأنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مصيره .

لم يبقَ إلاَّ أن يكون هذا الوشاح قد مهد السبيل لايجاد نوع من الاتصال بين روح المتوفى وبين الوسيطة ، ولا يبعد أن يكون الروح قد أثر بالتلبثي في عقل الوسيطة فطبع فيها صوراً يراد منها كشف مأساته المحزنة لكي يعثروا على جثته . واذاً تكون غلطة الابصار التي وقعت فيها الوسيطة ثلاث مرات قد استحالت برهاناً قاطعاً يؤيد التفسير الروحي لهذه الوقائع ، لأنه اذا سلمنا بأن مخبر الوسيطة بالوقائع هو روح المتوفى استقام كل شيء ، وأدّى بنا المنطق الى القول بأن الصورة المخطئة التي رأتها الوسيطة قد انتقلت حقيقة من المتوفى باعتبارها آخر ذكرياته في اللحظة الخطرة حين اضطجع بجانبه الأيمن على الأرض فنام فمات . وهذا معقول ومنطقي للاعتبارات الآتية : فأولاً لأن النوم على الجانب الأيمن هو الوضع الطبيعي الذي يختاره أي شخص يستعد للنوم . وثانياً لأن حركات الاحتضار التشنجية قد تدفع الجسم الى الاستلقاء على الظهر ، أي الى الوضع الذي فيه يكون الجسم في حالة الاتزان الثابت التي تقول بها قواعد علم الميكانيكا . وحدث أن تيبس الجسم وهو

ذلك الوضع بعد تلك الحركات التشنجية . ولا شك أن الرجل كان في حالة إغماء وهو يحتضر فلم يعِ ما تمّ لجسده عند انسلال روحه ،ولذلك لم يطبع في ذهن الوسيطة الا صورة لجسمه وهو نائم على جانبه الأيمن وساقه منثنية تحته ، أي انه أرسل صورة صادقة لآخر مشاعره وذكرياته الأرضية . وإذا نحن قبلنا هذا التفسير للوقائع فان غلطة الوسيطة التي تكررت ثلاث مرات تكون قدانقلبت برهاناً يؤيد الرأي القائل باحتمال تدخل خارجي في كثير من الحالات السيكومترية . —

هذا هو ما استخلصه العلامة بوزانو من هذه الحادثة . على أننا من جهة أخرى لو أخذنا بالرأي القائل بالطرح الروحي لأمكن أن نقول ان الوسيطة لما انطرحت روحها وهي في الغيبوبة المغناطيسية متقصية أشعة الضوء في الفضاء والزمن ، وقف تقصيها عند نقطة سقوط الرجل على الأرض وانثناء ساقه تحت جنبه الأيمن .

(٢) وأما المثل الثاني الذي ذكره الأستاذ بوزانو ليدعم به الرأي الروحي لحادث أثار ضجة كبرى عند حدوثه . وراويه هو رجل المال الاسترالي الشهير مستر هيو جونور براون Mr. Hugh Junor Browne الذي مني بفقد ولديه حين غرق بهما يختهما خلال نزهة بحرية حول شواطىء ملبورن . وخلاصة هذا الحادث أنه لما تغيب الولدان جزع أبواهما جزعاً شديداً ، فقصدا الى الوسيط الروحي المعالج الشهير جورج سبرج G. Sprigg يطلبان مساعدته في العثور عليهما . وفيما يلي بيان مستر براون عن الذي تمّ قال : —

«قبل الثامنة صباحاً بقليل حضر مستر سبرج . ولما وقع في الغيبوبة تناول يد زوجتي وسألها إن كانت ذهبت الى البحر فأجابته بأنها لم تذهب فقال إنه يخيل اليه أن ما يعتريها من كآبة له علاقة بالبحر ، وانه حين يخيم الليل بهدوئه على السكون ينتابها الحزن والضجر وأنها تطلق الدمع مدراراً . (وقد كان هذا صحيحاً لأن زوجتي حين لم يعد ولدانا في ميعادهما المنتظر توجست شرّاً) ومضى الوسيط يقول ان المسألة كلها تتعلق بالبحر .

«ولأول مرة أشرت اشارة طفيفة الى ما يشغل أذهاننا فسألته عما اذا كان مستطيعاً أن يحدثنا عن خسارة حدثت لنا في البحر . فقال وهو في غيبوبته إنه لا يستطيع أن يبحث عنهما في عالم الروح ولكن اذا أعطي شيئاً يستطيع منه أن يتقصى أثرهما فقد يصل الى معرفة شيء عنهما .

« وعندئذٍ جئت بمذكرتي الجيب لولديّ ووضعتهما في يد الوسيط فقال على الفور انه يراهما في قارب صغير . وان لقاربهما قلعاً كبيراً وآخر صغيراً ... (وكان هذا صحيحاً) ...»

ومضى الوسيط يدلي ببيان دقيق يتضمن وصف ما حدث للقارب حتى غرق بمن فيه .

وتحرّى الوالد دقائق هذا الوصف فيما بعد فاتضحت له صحتها . ثم هيمن روح أحد الولدين على الوسيط الواقع في الغيبوبة وتحدث بفمه مدلياً بتفصيلات أخرى لهذه المأساة ، ذاكراً بين ما ذكر حادثاً محزناً هو التهام أحد كلاب البحر ذراع أخيه . وقد تحقق هذا الحادث بشكل عرضي غريب . ذلك أنه قد وجد في جوف أحد كلاب البحر المصيدة في تلك الجهة تلك الذراع المبتورة مع قطعة من قماش صدرة الغريق وساعته وبعض النقود . ووجدت عقارب الساعة واقفة عند التاسعة ، وهي الساعة التي قال الوسيط إن كارثة الغرق قد وقعت فيها .

تلك هي خلاصة المأساة . ويلاحظ أن الوسيط حين أمسك بيدي مسز براون ، أم الغريقين ، لم ينجح في تعرف أي شيء يخص ولديها إلى أن أعطي مذكرتي الجيب . ومن ثمّ يتضح أن عمل السلعة التي تعطى للوسيط ينحصر في إيجاد جوّ من التوافق الروحي بين الوسيط وبين صاحب السلعة حيًّا كان أم ميتاً . وتدحض هذه الحادثة رأياً طالما ردّده النقاد وهو الرأي القائل بأن الوسطاء يستخلصون بالتلبثي من عقول الأهل والأقارب والأصدقاء والمعارف ما يكون فيها من معلومات ، فيتصوّر الوسطاء خطأً أنهم قد اتصلوا بالموتى . فالحادث المروي هنا يدحض هذا الرأي دحضاً تامًّا ، لأنه إذا كان الوسيط حتى بعد إمساكه يد مسز براون (الأم المنكوبة) لم يستطع البتة كشف شيء خاص بولديها فان هذا يدل على أنها لم تكن عرفت شيئاً عنهما ولا عن ظروف مأساتهما ، لا بالتلبثي ولا بغير التلبثي ، ولكن الوسيط كشف كل شيء بمجرد لمسه مذكرتي الجيب ، فكيف وصل الوسيط إلى تلك المعلومات ؟

لو أننا مضينا نتحرّى الأمر بالأسلوب العلمي الذي تنمحي فيه بالتدريج الفروض غير القابلة للتدعيم لوصلنا إلى الآتي : —

إذا سلمنا بأن الوسيط لم يستخلص باستخدامه مذكرتي الجيب دقائق تلك المأساة التي حدثت « بعد » أن ترك الشقيقان منزلهما آخر مرة ، وبالتالي « بعد » أن استعملا المذكرتين آخر استعمال ، وإذا سلمنا بأن ملابسات الحال تدل على أن الوسيط ما كان يمكنه أن يستخلص هذه الحقائق من عقلي الأبوين ، وإذا سلمنا كذلك بأنه لا يستطيع استخلاص ذلك من عقل أي انسان حيّ لأنه لم يرَ أحد غرق القارب — إذا سلمنا بكل هذا فالنتيجة المنطقية الوحيدة هي أن مذكرتي الجيب قد ساعدتا على خلق جوّ من التوافق الروحي بين الوسيط وبين الشخصين غير المتجسدين اللذين استعملا يوماً ما وهما متجسدين تينك المذكرتين . ويؤيد ذلك ما فاه به الوسيط وهو في غيبوبته ، وما قاله أحد المتوفيين بفم الوسيط لما هيمن عليه .

ولا يفوتنا أن المعلومات المعطاة بعد هذه الهيمنة تضمنت أحداثاً هامة ، أهمها قضم كلب البحر ذراع احدى الجثتين .

في ضوء هذين المثلين الأخيرين وما يشابههما من مثل كثيرة نستطيع أن نقول إننا اذا حللنا ظاهرة السيكومتري تحليلاً دقيقاً فانه لاشك منته بنا الى نسبة هذه القوى فوق المدركة الى أصل روحي ، وذلك فضلاً على انعدام أية وسيلة أخرى مادية يمكن بها تفسير هذه الظاهرة .

احمد فهمي أبو الخير
مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف

الفرنجة — Franks

(١) ذكر الفرنجة أولا الكاتب الروماني « أميانوس مرقلانوس » Ammianus Marcellanus سنة ٣٥٨ . ويطلق اسم الفرنجة على كل القبائل الجرمانية . وقد حقق أنها كانت تتكلم لهجات متشابهة ، وخضعت في أنظمتها لعادات متشابهة . وكانت كل قبيلة مستقلة استقلالا سياسياً .

وفي أوائل القرن الخامس انقسمت هذه القبائل خمس فرق أشهرها « الخاتية » Chatti و « الرفوارية » Ripuarian و « السالية » Salian or Salic واستمرت الفرقة الثالثة أراضي الرين السفلى ، وقضت بقيادة كلوويس Clovis على النفوذ الروماني في بلاد الغال ، وأقامت هناك ملكا عظيما ، وأطلق اسم القبائل على البلاد فسميت فرنسا France

(٢) في الحروب الصليبية سمي العرب والشرقيون الاوربيين الذين زحفوا على البلاد المقدسة « الفرنجة » تعريباً للفظ Frank بغير تمييز .

الحياة والذرة

أو

الخلود الجديد

فتحت أبحاث الذرة للشاعر آفاقاً جديدة فتساءل . .. ترى هل
يكون البعث بعد الموت بالتقاء ذرات الاجسام مرة ثانية ؟ !

أنا حيٌّ في رحاب العيش أحيا بكياني
فإذا حان مماتي خالدٌ طيَّ الزمانِ

في نطاق القبر أحيا جيفةً . . لا من هوان
من صديد الجسد البالي مضى في سريان
وبخار النَّتن المكروه ثاو في المكان
وحُطام الجثة الملقاة شوهاء المعاني
أبعث الدود وأغذوه دمائي وجناني
وهو ينمو مثلما يُنْمِي جنيناً أبوان
إن للدود حياةً . . . إن للدود أماني !

فترة . تمضي دهورٌ وشهورٌ وثوان
فإذا الكلّ توارى وتلاشى بأوان
لا حياةٌ لا رفاتٌ لا دمٌ في شريان
قد تلاشت رمةٌ تُفرَى ودودٌ ثمَّ جان
كل شيء فيَّ أوصالٌ وقلبٌ ويدان
مسحت كفٌّ عليه بفناء غير فان . . . !

لكنْ انظر . . . بشعاع العلم فضّاح المعاني
ها هنا بضع ذُرَيراتٍ تصدَّتْ للزمان
هائماتٍ في رحاب الكون ما بين الرّعان
تلكم الذرات أحياءٌ توارت عن عيان

بل هي الذرة أشواقٌ وأحداثٌ ثُماني
ولها قلبٌ معنًّى أبداً في خفقان
ثامهُ صبٌّ عميدٌ حوله في دوران
من لظى الوجد استطارت كهرباءٌ في الكيان
هي مَوَّارُ شعاعٍ مستفزٌّ العنفوان
كتَّمتْ نار جواه في فؤادٍ غير وان
إنْ تقصَّدْهُ بسهمٍ هبَّ مستَشرى الجنان
نافثاً هولاً رهيباً . يا لهول البُركان !

صُدِّعتْ أركانه ما بين لمحٍ وثوان
وقضى إلاَّ شظايا لحُطامٍ من دِنان
مَرَقتْ وسْط رحاب الكون رعناء العنان
تبتغي قلباً من الذرات دفَّاق الحنان
لتعيد الحب عهداً ويجَنَّ العاشقان !

هذه ثَمَّ حياتي أتراني جِدُّ فانِ ؟ !
إنني أفنى فناءً هو بعثٌ ليَ ثان
ثم أقضي ثم أحيا هائماً في ثوَران
أترى هذا خلودي ؟ أم تُراه في الجنان ؟
وتُرى البعثُ التقاءٌ بين ذرات الكيان
مثلما آب غريبٌ أو تلاقى النازحان ؟

***

إنْ يكُن هذا ... أو استرجعتُ أكوابي وحاني
فأنا في ظل هذا العيش أحيا بكياني
فاذا حان ممَاتي خالدٌ طيّ الزمان ...

القاهرة محمد فهمي

علم الاجنة

من الوجهة الاجتماعية

من المعلوم أن التناسل وكثرته يسببان ازدياد عدد السكان مما يؤدي إلى التزاحم والتطاحن على كسب الرزق بل يؤدي الى الحروب، إذ أن هذه ترد غالباً الى أسباب اقتصادية أساسها كثرة السكان وافتقارهم إلى الحاجيات. ومما لا شك فيه أن العلاقات النوعية بين الذكور والاناث مردها حب الابقاء على النوع، وطالما أدت هذه المسائل وما يتفرع عنها إلى صعوبات للأفراد والجماعات وثمّ مسائل أخرى عظيمة القيمة من الوجهة الاجتماعية سنتناولها هنا بوجهٍ عام.

(١) شرعية الاجهاض — كثيراً ما تلجأ الأم بمفردها أو بمساعدة ذويها أو غيرهم إلى إحداث الإجهاض وانهاء عمر الجنين قبل موعد ميلاده ويرجع السبب في ذلك إما إلى الفقر أو سوء الصحة وعبء العمل المنزلي أو الى الخلاف بين الزوجين أو لعدم شرعية الاتصال النوعي الذي أدّى الى الحمل، وما الى ذلك من أسباب. وهناك من الدوافع ما يجيز للطبيب احداث الاجهاض فيكون إذ ذاك شرعياً. ولكن هناك من الأسباب ما لا يقتنع بها الطبيب. ولقد قيل إن هناك من أولي الرأي من يرون شرعية الاجهاض طالما لم تسمع دقات قلب الجنين! وتتهدم هذه الحجة أمام ضوء العلم ولا تقوى على الثبات إذ المعلوم أن قلب الجنين يدق في الاسبوع الرابع منذ بدء الحمل وعندئذٍ تكون الأم في شك من أمرها اللهمَّ إلاّ ما يخامرها من مخاوف، كما أنه ليس من السهل الاصغاء إلى دقات قلب الجنين إلاّ في وقت متأخر من الحمل. وفوق ذلك فإن مجرد حصول الاخصاب ينتج لنا مخلوقاً جديداً له كل الحق في الحياة كأي فرد آخر. وما الفرق بين ذلك المخلوق وبين البالغ إلاّ عدم اتاحة الفرصة لأولهما لاستعمال المواد الغذائية التي يبني منها جسمه لينمو ويتباين، إذ أن الجوهر الاساسي كامن في

البويضة المخصبة . فالاجهاض في أي مرحلة من الحمل غير جائز إلاّ لانقاذ الأم . أما ما عدا ذلك من أسباب فواهٍ لا يقام له وزن . كما أن الاتصال النوعي الذي لا يعضده نسل أو لا يكون ذلك قصده الأول ، عمل لا تقره القوانين الطبيعية .

(٢) الأخصابْ الآلي — ليست فكرة الأخصاب الآلي بحديثة فقد مارسها القابلات من زمن إذ كثيراً ما يلجأنَ إليها فتعطى المريضة قطعة قطن (صوفة) ويطلب منها وضعهـا في المهبل بشرط أن تكون دافئة كما هي ولا تحوي هـذه القطعة سوى سائلاً منويـًا لأحـد معارف القابلة. وهنَّ يقمنَ بذلك العمل بعد أن يتقنَ من أن العيب عيب الرجل وليس للزوجة دخل في احداث العقم الذي تشكو منه. وإذا حصل الحمل وقد يحصل، كان الوليـد غريباً عن رب العائلة ويقوم بعض الأطباء بهذه العملية في حالات خاصة لا يستطيع الزوج فيها اقرار السائل المنوي داخل المهبل فيقومون بحقنه في عنق الرحم مباشرةً . ولقد قاموا أخـيراً في انجلترا يدعون الى الاخصاب الآلي إذا كان الزوج عاجزاً عن القيام بمهمته وذلك بأن يأخذوا سائلاً منويـًا من شخص آخر بعد موافقة الزوج ، ويدخلونه في رحم الزوجة وقد عززوا ذلك بقولهم إن مثل هذين الزوجين الجديين سيضطران إلى أن يتبنيا طفلاً لقيطاً غريباً عن كليهما ولا يؤدي ذلك الى ازدياد عدد السكان وهو المشكلة الأساسية. ثم أنهم يغرون النساء بقولهم إن الطفل من لحمهنَّ ودمهنَّ وأنهنَّ يستطعنَ أن يحصلنَ على أطفال ذوي صفات خاصة وذلك باختيار الرجل الذي سيؤخذ منه السائل المنوي كأن يكون أزرق العينين أصفر الشعر طويل القامة الى غير ذلك من صفات. ولهذه المسألة قيمتها الاجتماعية ولا ندري المدى الذي ستتطوّر اليه وقد حبذها البعض كما عارضها البعض الآخر .

(٣) تحديد النوع قصداً — كتبوا كثيراً في هذا الموضوع وقالوا كثيراً مما يستند حيناً الى العلم أو تكسبه الخرافة ثوب الحقيقة. والواقع أن المسألة معقدة ويبدو أن حلها ليس سهلاً وتكمن أهميتها في استدراج البسطاء وغير البسطاء والتغرير بهم في سبيل الحصول على نوع معين قد يرغبون فيه ويتوقون اليه . والمعروف أن خلايا الانثى النوعية تنتمي كلها الى فصيلة واحدة إذ أن بها (٢٣+س) من الأجسام الملونة وس هو الجسم الملون المحدد للنوع وذلك بعد عملية الاختزال المؤدية الى الانضاج . أما خلايا الذكر فعلى نوعين يحوي أحدهما

(٢٣ + س) من الأجسام الملونة بينما يحوي الآخر (٢٣ + ي) من هذه الأجسام بعد نفس العملية المشار اليها . وتتحكم الصدفة في نوع الحيوان المنوي الذي يحالفه النجاح فيخصب البويضة وربما توقف ذلك على ما يحيط به من ظروف وعلى حالة صاحبه الصحية . ويبدو أن هذا الفرق هو الأساس الذي يؤدي الى اختلاف نوع النسل . غير أن للهرمونات أثراً بعيداً في الباس هذه المسألة ثوبها النهائي. فقد نجحوا في تحويل الانواع تجريبيًّا في بعض الحيوانات كما يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن الجنين غير مميز في غدته النوعية في أول الأمر كما أنه يحمل في جعبته الأنسجة اللازمة لتكوين الأعضاء التناسلية الثانوية لكلى النوعين .

قيل ان هناك نوعاً من الحيوانات المنوية يتجمع على القطب السالب وآخر يتجمع على القطب الموجب، إذا ما مر تيار خلال السائل المنوي ، كما قيل أن تفاعل المسار التناسلي في الانثى ذو أثر فعّال في تحديد النوع فان كان حمضيًّا أحدث أناثاً وان كان قلويًّا أحدث ذكوراً . وقيل أن بويضات المبيض الأيمن تحدث نوعاً ما وبويضات الأيسر تحدث النوع الآخر . وهكذا من الاختلافات التي لا حصر لها .

يجب التفريق بين مسألتين مختلفتين أولها احداث النوع قصداً وهذا أمر مشكوك فيه . وثانيهما التعرف على ما قد حدث بالفعل ابان الحمل قبل حلول الميلاد. وقد ورد في بعض البرديات أن قدماء المصريين عرفوا ذلك من أثر بول المرأة الحامل على سرعة نمو بعض الحبوب . ويعزون ذلك الآن الى أثر الهرمونات التي توجد في البول والتي يقال إنها تختلف في الذكر عنها في الأنثى. ويبدو انه لاداعي للاهتمام بهذه النقطة إذ أن ما استقرّ لا يمكن تغييره ثم أن الولادة ستحل إن آجلاً أو عاجلاً. ونعلم اذ ذاك علم اليقين ما هنالك من نوع . أما ما قد يخالج الأم والأقارب من فزع لاحتمال فقدان بعض ثروة ضخمة اذا لم يعقب مورثها ذكراً ، فمسألة سهلة الحل إذ ضمن الشرع حقوق الجنين بما أسماه الحمل المستكن .

***

ويحسن بنا الاشارة الى رأي أبي موسى الأشعري في توريث الخنثى إذ قال «اتبعه حين يبول» وفسروا ذلك بأن البول اذا سال من نهاية الحشفة ورث الشخص كذكر ، أما اذا

خرج من نقطة أخرى ما بين النهاية ومركز العجان ، فانه يرث كأنثى. والواقع أن هذا لا يتمشى مع العلم إذ أن الخنثى الحقة تكاد لا تعرف في الانسان، وفوق ذلك فقد يقع خطأ تكويني في قناة مجرى البول يجعل فتحتها في الذكر ذي الخصية مستقرة في أي بقعة من مركز العجان الى ما قبيل نهاية الحشفة. وبالاجمال يجب فحص كل حالة خنثى على حدتها وتمييز ظروفها مع الالمام التام بالتاريخ التكويني للأعضاء التناسلية ، حتى لا يضيع حق أو يُظلم أحد .

(٤) شرعية الطفل — تتحكم في هذه المسألة عوامل كثيرة وللطب الشرعي الكلمة الأخيرة فيها . غير أن هناك بعض النقط التي تجذب علم الأجنة الى هذا الحوار وأهمها علاقة تاريخ الحيض بموعد حدوث البيض (خروج البييضة الناضجة من المبيض) ومدى بقاء البييضة صالحة للاخصاب المهيء للتكوين ، ثم مدى بقاء الحيوان المنوي صالحاً للقيام بوظيفته (الاخصاب) داخل المسار التناسلي للأنثى. وهناك من يقول إن الحمل يحدث عند أي طور من مدى الدورة الطمثية . ولكن الرأي الأرجح يقول بحدوث البيض حوالي اليوم الرابع عشر من الدورة الطمثية . وأن حياة البييضة أو على الأقل مدى صلاحيتها للقيام بعملها قصير جداً لا يتعدى يوماً أو يومين . وهكذا ينتظر حدوث الاخصاب حوالي اليوم الخامس عشر من دورة الطمث . والرأي المسلم به أن البييضة لا تستطيع الانتظار أكثر من يومين وأن الحيوان المنوي لا يستطيع البقاء صالحاً ليؤدي وظيفته إلاَّ أياماً قلائل. ويؤكدون أن الخلايا النوعية لا يمكن أن ينتظر بعضها البعض. وتتعقد المسألة بعامل آخر هو مدى مدة الحمل فالمعتقد أنها تتراوح بين ٢٢٠ الى ٣٣٠ يوماً ولو أن الأغلبية العظمى من الحالات تقع بين ٢٧٠ الى ٢٧٣ يوماً من تاريخ الاخصاب أو الجماع المثمر ، وتبلغ حوالي ٢٨٠ يوماً من تاريخ آخر يوم في آخر حيض . والحيض في ذاته متقلب . وهكذا نرى أن الموضوع محتاج لبحث .

دكتور يوسف حسن الاعسر
أستاذ التشريح بكلية الطب بجامعة فاروق الاول



نبات الرامي

أو أنجرة الصين — أو الصوف النباتي



قرأت في حداثتي منذ أربعين سنة النبذة المقتضبة الآتية على نبات الرامي ، وذلك في مجلة المباحث العلمية الانكليزية العامة المؤرخة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٦ بعنوان « وبر نباتي صيني نادر لصنع الثياب » فأعجبت بخصائصه الطريفة وتوقعت له مستقبلاً حسناً ورواجاً عظيماً في عالم المنسوجات . وتمنيت حينئذٍ أن يطيل الله حياتي حتى أشاهد هذا النبات ذا الوبر العجيب مزروعاً في وادينا الخصيب . فأراد القدير سبحانه وتعالى ، تحقيق أمنيتي تلك ، في شيخوختي إذ غدوت في مطلع العقد السابع من العمر ، قضيت أكثر من أربع حلقات منها مشغوفاً بالمباحث العلمية على تباين أغراضها . ولكل امرئٍ من دهره ما تعوَّد . وكنت في خلال تلك الحقبة المديدة كثيراً ما أناجي نفسي قائلاً : —

« هل زرعت مصرنا القديمة أو الحديثة هذا النبات النافع ، وحتّامَ تتقاعد عن مجاراة الأمم الأخرى في الحصول على النباتات الاجنبية للانتفاع بها اقتصاديًّا لأن هذا الأمر من أوجب واجباتنا نحن معشر الوطنيين المصريين الناهضين لنحذو حذو أجدادنا في دولة الفراعين التي أثبت التاريخ أنها كانت مهد العلم والحضارة . وهي العريقة في المدنية التي علمت العالم ، قواعد المدنية وأصولها ونشرت عرفانها في عالم حالك الظلام ، غارق في دياجير الجهل والهمجية والفوضى « كما قال حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا في خطابه في دائرته الانتخابية في كفر الدوار يوم ٢٦ ابريل سنة ١٩٤٦ » والحمد لله فقد تحققت الأماني . واليك ما قالته المجلة الانكليزية المشار اليها في وصف الرامي : —

« علمنا أن المدارس الصناعية ومدارس النسيج المشهورة التي تديرها السيدة إرنست هارت في دونيجال من أعمال إرلندة ، قد انتجت من وبر الرامي بعضاً من المنسوجات الفاخرة التي تصلح للاغراض الطبية والجراحية . ومنها قماش متقن ، لا ينضح الماء . ولا شك

أنه سيصير أصلح للمستشفيات والاستعمالات الشخصية من الشراشف « الملاءات » المطاطية المألوفة الآن . وثمة صنف جديد يصنع أيضاً من وبر الرامي ونعني به الكلل (الناموسيات) التي لا تتمزق . وهي نافعة للاستعمال في المناطق الحارة ، وذلك لأنها تمكث زمناً أطول من مثيلاتها القطنية ، وتظل أقل منها تعرضاً لتشقق منافذها (عيونها)

« والرامي فصيلة من فصائل نبات القُرَّاص الضخم « بضم القاف وتشديد الراء مع فتحها » عشب ذو وبر حاد يقرص من مسّه . والواحدة قُرَّاصة كما جاء في معجم المنجد » ووبره يتولد تحت لحائه الخارجي مباشرةً ويصلح للنسج، إما وحده وإما مخلوطاً بالصوف أو القطن فيكسب القماش الذي يدخل في نسيجه صقلاً حريريًّا جيـلاً . والرامي من حاصلات بلاد الصين حالياً ، حيث تزرع به مساحات كبيرة جدًّا . ومن خصائصه أنه متى زرع ، ظلّ في تربته منتجاً غلته ، اثنتي عشرة سنة . وحالما يُقرط منه نتاجه الناضج في إبانه ينمو غيره مرة أخرى ، وهلمّ جرًّا » .

***

وجاء في معجم تشمبرس الانكليزي أن الرامي ، Ramee و Ramie هو حشيشة الصين واسمه باللسان النباتي Bœhmeria nivea بهمريا نيڤيا أو Rhea ريا وهكذا يسمى وبره . وهو نبات مستعمل في الشرق منذ زمن بعيد لصنع الحبال والأمراس «الساب أو حبال المراكب» ومنه ينسج الصينيون واليابانيون ثياباً .

وورد في المعلمة الانكليزية : «لنلسن» الراميُّ نباتٌ وبَريٌّ ذو نوعين، وهو من فصيلة الأورتيكاسيا Urticaceae . وأحدها بهمريا نيڤيا والآخر بهمريا نيڤيا تيناسيسيما tenacissima ويزرع كثيراً في بلاد الهند والأقطار المجاورة لها . وهو ذو منافع اقتصادية عظيمة إذ يُعدُّ وبرهُ من أمتن الأليـاف وأنعمها في المنسوجات ويمتاز بميزات كثيرة غريبـة مثلها في صوف الغنم »

ثم قرأت في أحدث ما ورد عليَّ من المجلات العلميـة الانكليزية نبأً كان من بواعث سروري ، ولا غرو فقد جاء فيه ، « أن قدماء المصريين عرفوا الرامي في عهدهم واستعملوه

في تكفين كثيرين من موتاهم وفي لف جثث محنطة جمة » فقلت عندما انتهيت من مطالعة هذا الخبر « انه قد ينفي الاعتقاد السائد حتى الآن ، وهو أن الجثث المحنطة التي يكشفها علماء الآثار بين الفينة والأخرى ، ويقولون انها ملفوفة جميعها بالكتان ، هي ليست كذلك لأن أكثرها ملفوف بالرامي وهو أمتن من الكتان بعدة مرات » .

حفزني ما وقفت عليه من هذه المعلومات القيمة ، قديمها والحديث ، كما أسلفت ، على مواصلة استقصاء الموضوع حتى أقف على الحقيقة برمتها . فآثرت زيارة قسم البساتين التابع لوزارة زراعتنا في ضاحية الجيزة ، ابتغاء الاستعلام عن الرامي ، وهل هو معروف في مصر ويزرع في أرضها ؟ وصحت عزيمتي فيممت شطر ذلك القسم في صباح يوم ١٠ ابريل سنة ١٩٤٦ حيث تشرفت بمقابلة حضرة رئيسه المفضال صاحب العزة يوسف بك ميلاد ، فما إن أطلعته على رغبتي حتى تفضل فوجهني الى حضرتي الأستاذين سليم افندي نظيف وأبي زيد افندي خليفة جابر وهما المشرفان على زراعة الرامي . فأتاحا لي مشاهدة ذلك النبات العجيب في مستنبتاته وحقل تجربته وأعطياني نموذجاً من وبره الناعم الحريري الملمس ، كما قدّم لي حضرة المدير ميلاد بك ، ساقاً جافة بأليافها .

وقد أخبروني أن ولاة الأمور يهتمون به كل الاهتمام ، وذلك نتيجة اختراع آلة اميركية ، لتقشير ألياف الرامي عن سوقه تقشيراً متقناً عاجلاً . وقالوا ان التقشير اليدوي كان حائلاً يحول دون إقبال الزراع على زراعته للانتفاع بوبره المتين جدًّا ، في المنسوجات والحبال ، ثم صرحوا بأن وزارة الزراعة قد أقرّت في الميزانية العتيدة تخصيص عشرين فداناً من أطيانها في تفتيش سخا ، لزراعة الرامي ، لتصير نواة لغيرها ، فاغتبطت بهذه البشرى التي زفوها إليّ وودّعتهم شاكراً لهم حسن صنيعهم واعداً إياهم بكتابة هذا البحث في مجلة المقتطف تنويراً لأذهان من يعنون به . ومن حسن الحظ اني عندما شرعت في إعداد هذا المقال ، وكاشفت بنيتي حضرة الصديق الأستاذ اسماعيل مظهر رئيس التحرير لقيت منه تشجيعاً أدبيًّا عظيماً إذ أرشدني الى كتاب زراعي قديم طبع في القاهرة منذ نحو ٨٠ سنة فاقتبست منه الفصل التالي على الرامي ، وهو كل ما ينشده القارئ الزراعي في العهد الحالي :—

أجرة الصين

نقلاً عن الجزء الثاني من كتاب حسن الصناعة في علم الزراعة — تأليف المغفور له الأستاذ احمد بك ندى . معلم علم المواليد الثلاثة بالمدرسة الطبية ومدرس علم الزراعة بالمدارس الحربيـة — (وهو سفر نفيس طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر في عهد المغفور له الخديوي اسماعيل باشا) .

اعلم أن النباتات التي تصنع منها المنسوجات ، صعبة التعود على الأقاليم التي يراد ادخالها فيها . ومتى حصل النجاح في إدخال نوع جيد منها ، تحصلت منه أرباح عظيمة . وانتشاره في الزراعة قد يساعد كثيراً على ثروة الممالك .

فالقطن الذي أدخلت زراعته في القطر المصري ، في عهد المرحوم جد الخديو الأعظم ، قد اكتسب منه الزراعون مبالغ جسيمة من الدراهم . لـكن هـذا النبات معرّض كغيره للمصائب التي تتلف محصولات الزراعة ، فانه قد أصيب منذ سنوات بدودة تتلف كثيراً من مبايضه أثناء التزهر . وتدخل في الجوز متى كان ليناً فتمنع تكون القطن في باطنه .

ومرض القطن يحصل منه إتلاف عظيم في زراعة الديار المصرية ، إذا لم يتنبه له الزراعون، كما حقق ذلك جناب أندرية بك الاجزاجي الـكيماوي بالمحروسة فقد شـاهد منذ سنين أن انتشار هذه الحشرات آخذ في الازدياد دائماً ، وأعلن في شأنها جملة رسالات مهمة في أوربا. وذكر جملة وسائط لمنع تكاثرها وانتشارها .

وشجر الـكرم الذي هو ثروة بلاد كثيرة يصـاب بنبات خفيّ الزهر يسمى باللسان النباتي (أويديون) ويحدث فيه أتلافاً عظيمة كل سنة .

وقد أصيب البطاطس أيضاً في البلاد الأجنبية منذ زمن طويل بمرض لم يمكن تخلصـه منه الى الآن (وقد سبق ذكره في الخضراوات)

فمتى استوطن نبات أجنبي وانتشر في بلدة وابتدأ أن يساعد على انتشار الثروة ، ظهرت له في الغالب آفات أو حشرات متلفة ينشأ عنهـا ضرر عظيم في المزروعات . فكأن المراد بذلك إلجاء الزراعين الى البحث عن إدخال نباتات أجنبية جديدة تقوم مقام النباتات القديمة

التي تغيرت في أرض لم تكن وطنها الأصلي او ماتت بالأمراض أو بالحشرات . ولذا شرعوا في أوربا الآن في البحث عن استبدال البطاطس الذي أتلفه المرض زيادة فزيادة بانيام الصين الذي لم يصبه أدنى مرض الى الآن .

والمأمول انتشار زراعة أنجرة الصين بالديار المصرية مع زراعة القطن . وقد استنبتت في الأعصر الخالية ، ويظهر أن قدماء المصريين كانوا يعرفونها .

وأنجرة الصين تسمى بالافرنجية (أورتى دوشين) وباللسان النباتي (أورتيكا سيننسيس) أو (أورتيكا أوتيليس) أي النافعة كما تسمى أيضاً (أورتيكاتينا سيسيا) أي ذات الألياف المتينة جداً . وهي صنف من الأنجرة الناجية ، لها ساق أرضية في غلظ الاصبع سمراء من الظاهر ، بيضاء من الباطن ، يخرج منها عدة سوق قائمة ، متينة ، طول الواحدة منها من متر الى متر ونصف ، ذات نخاع كثير ضارب للحمرة . وهي ملساء نحو أسفلها وَبَرية في باقي طولها .

وهذه السوق الارضية إذا زرعت بالشروط الموافقة لزراعتها ، أمكن أن تعيش في الارض وتتحصل منها سوق زمناً طويلاً . والسوق القائمة تصير خشبية إذا لم تقرط ، فتحمل فروعاً أفقية مُزَيَّنة بأوراق متوالية ذنيبية عريضة قلبية ، مسنّنة ، منشارية ، خضراء دكناء ، خشنة السطح العلوي ، وسطحها السفلي ضارب للبياض مع انه أبيض جداً في الأنجرة الثلجية . ولهذه الاوراق ثلاثة أعصاب قاعدية وهي مغطاة بوبر كثير ومصحوبة بأذينين . والأزهار عنقودية متراكمة تخرج من آباط الاوراق من نصف النبات الى جزئه العلوي . وقد أهداها طبيب الجناب الخديوي الأعظم حضرة (بورجير بك) الى حديقة الجزيرة فنجحت نجاحاً عظيماً .

وأنجرة الصين الكثيرة النفع ، قد استنبتت في أرخبيل الهند وفي اليابان وبلاد الصين وأهل الصين يزرعون هذا النبات في بيوت صغيرة ، بالأراضي الرطبة التي بقرب الانهار . وبعد قرط سوقها ، تنزع أوراقها ثم تحال السوق الى حزم ، وتعطن في الماء زمناً يسيراً ، ثم تزال بشرتها بسكين .

وألياف هذا النبات من ألطف الألياف المعروفة وأحسنها فهي بيضاء صدفية ، ناعمة

الملمس جداً . وبهاتين الصفتين تتميز عن ألياف الانجرة الناجية فان لونها ضارب للخضرة وملمسها خشن . والأقمشة والحبال التي تصنع من أنجرة الصين ، تمكث زمناً أكثر من التي تصنع من الكتان أو التيل ، ومتانتها عظيمة. ويتكاثر هذا النبات بالبزور وبتجزئة الجذور

فالتكاثر بالبزور صعب جداً ، وبه تصير الانجرة معرضة للتغير . والسوق التي تتولد منها لا تصل الى قوتها ولا تصير صالحة للقرط إلاّ بعد سنتين .

وأحسن طريقة لتكاثرها تجزئة جذورها . فبهذه الكيفية يتأتى قرط السوق مرتين في السنة الأولى . وأربع مرات في الثانية ببلاد الصين . ومثل ذلك يحصل في الديار المصرية .

وكيفية تكاثر أنجرة الصين بتجزئة جذورها ، أن تكشف تلك الجذور ثم تجزأ ثم تزرع خطوطاً في أرض مجهزة بحيث يكون البعد بين كل قطعة والأخرى ٦٠ سنتمتراً من جميع الجهات . وأحسن الفصول لزراعتها بالديار المصرية ، فصل الربيع ومع ذلك فقد زرعت في فصل الخريف ونجحت .

وفي أثناء نمو السوق تسقى الأرض بكثير من الماء في فصل الصيف . ولا بأس بقرط الفروع لاكتساب السوق قوة . وما يزرع منها في فصل الربيع تتحصل منه جملة محصولات في صيف وخريف السنة عينها .

واعلم أن البعد الذي يجعل بين النباتات له تأثير في حالة الألياف . فاذا أريد الحصول على ألياف ثخينة ، زرعت النباتات على بعد ٧٥ سنتيمتراً . واذا أريد الحصول على ألياف دقيقة زرعت النباتات على بعد ٥٠ أو ٦٠ سنتمتراً ، فتستطيل السوق حينئذٍ وتصير أليافها دقيقة كثيرة .

والنباتات المتولدة من البزور لا تبلغ في خريف السنة الأولى من ٦٠ الى ٨٠ سنتمتراً ولا يتحصل منها محصول الاّ في السنة الثانية ، مع أن النباتات التي تتحصل من تجزئة الجذور ، تتولد لها سوق يبلغ طولها متراً ونصفاً ، ويتحصل منها محصولات في السنة الأولى . ولأجل قرط السوق لا ينبغي أن ينتظر نضج البزور ، بل ينبغي قرطها متى ابتدأت أن تكتسب قواماً خشبيّاً نحو قاعدتها . وذلك يكون قبل التزهر بزمن يسير .

وقد ذكر حضرة جاستينيل بك نبذة لطيفة في شأن هذا النبات وهاك نصها : —

اعلم أن أنجرة الصين (التي اعتادت على أهوية القطر المصري، في عصرنا هذا واشتهرت بمحصولاتها الجيدة . وهي التي تصنع من أليافها الأقمشة الضرورية للانسان ، في كل اقاليم جديرة بالتفات الزراعين اليها . ولا يخفى أن أليافها التي في قشرة ساقها ، تكون متلاصقة ما دامت المادة الضامة لها موجودة وهذه المادة مكونة من شمع وراتينج وصمغ ، وبيكتين وسكر ومادة زلالية ومادة ملونة .

والطريقة السهلة الجارية ببلاد الصين أن تقرط سوق النباتات صباحاً حالة كونها مبتلة بالندى . ثم تفصل القشور بالشق ثم تحك السوق بسكين لتنفصل منها الألياف ثم تغمر تلك الألياف والقشور زمناً يسيراً في الماء المغلى ثم تجفف في الشمس ثم تضرب بالعصى لتصير لينة ثم تمشط .

فاستبان مما ذكر أن القشور المنفصلة من سوقها لا تعطن في الماء . وقد ظهر لنا بالتجارب أنها اذا عطنت في ماء درجة حرارته ٣٢ + مدة يومين ، تبدد ما فيها من المنسوج الخلوي وانفصل بسهولة عن الألياف بواسطة فرشة . ثم اذا غسلت بماء كثير ، انفصل عنها ما يبقى فيها من المنسوج الخلوي بالكلية .

وهذه الألياف تكتسب ابيضاضاً عظيماً إذا عرضت زمناً لتأثير الندى والشمس .

قال وقد ذكر المعلم (رامون) في رسالة ألفها في أنجرة الصين أن التجارب التي أجريت على هذا النبات ، تثبت انه لا يستدعي أرضاً خصبة . وانما يستدعي رطوبة ودرجة حرارة مرتفعة . وهو يصلح الأرض فيصيرها نافعة للمزروعات الأخر . وهذه المنفعة لا توجد في التيل ولا في الكتان فانهما يستدعيان أرضاً خصبة وينهكانها . وأيضاً هذان النباتان سنويان . مع أن أنجرة الصين معمرة وقوة انباتها لا تستدعي الاهتمامات التي يقتضيها النباتان المذكوران . وضف الى هذه المنافع كثرة محصولها لطول سوقها وسهولة انفصال قشورها التي تتبدد بسرعة وسهولة مع أن التيل والكتان يستدعيان تعطيناً أوليًّا طويل المدّة مضرًّا بالصحة .

وهناك سبب آخر يوجب انتشار زراعة أنجرة الصين بالديار المصرية ، وهو أنها تتحصل منها ألياف أجود من ألياف كل من الكتان والتيل لطولها ، وبياضها ولمعانها الصدفي

ومتانتها فهي أشبه بالحرير . وقد حقق صناع أوربا في هـذه الألياف ، سهولة عظيمة في اكتساب الألوان اللطيفة . وتختلط بكل من القطن والصوف والحرير بسهولة فتتكون من ذلك أقمشة جامعة المتانة والبهاء . ولاشك أن زراعة أنجرة الصين في جزء متسع من أرض الديار المصرية ، يتحصل منها ربح عظيم .

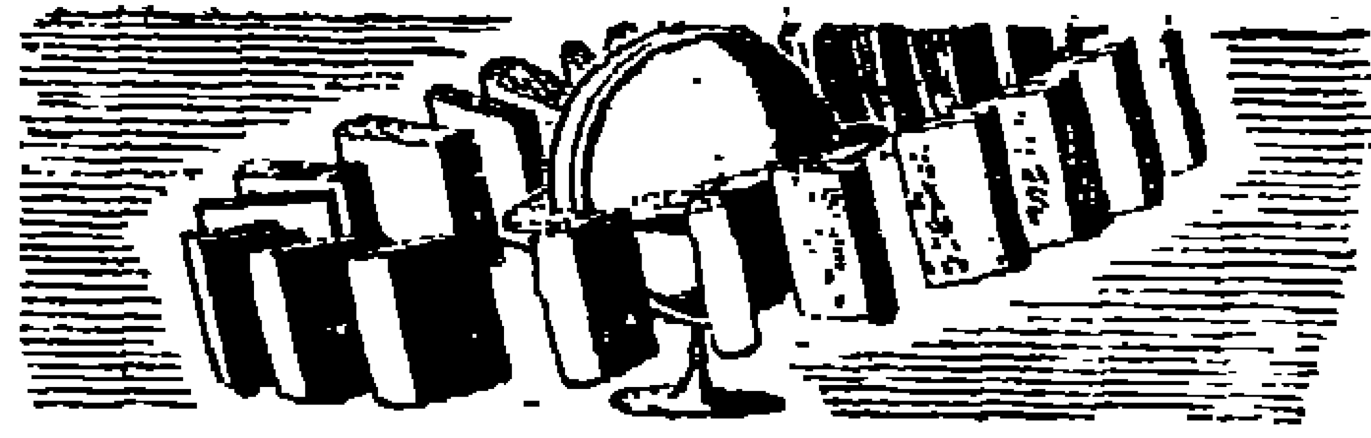
الكلام على زراعة الأنجرة المعتادة او الكبيرة

تسمى بالافرنجية (جراندورتي) وباللسان النباتي (أورتيكاديوتيكا) أي ذات المسكنين واذا استثنينا الفقراء الذين يجمعون الانجرة من الغيطان ليطعموها لأغنامهم وجدنا أن سائر الناس لا يعتني بهذا النبات ، بل يبغضه لأنه متى لمسه يستشعر منه بأكلان محرق ناشيء عن سائل يرشح من طرف الوبر الذي يغطي سطح الأوراق والسوق . ولهذا السبب يسمى هذا النبات في العرف ، بالقريص . فاذا قطعنا النظر عن هذا الضرر الخفيف رأينا أن الانجرة الكبيرة نافعة فان سوقها اذا أحرقت تحصل منها كثير من البوتاسا . واذا عطنت كالتيل استخرجت منها ألياف ان لم تقرب من ألياف التيل في الجودة تقرب منها في الرقة والبياض والاحالة الى أقمشة بسهولة . وقد صنع منها ورق لطيف جداً في بلاد النمسا وأهل قمشتقا (بحيث جزيرة في الجهة الشمالية الشرقية من آسيا) يصنعون منها حبالاً متينة وشبكات لصيد السمك وخيطاً للخياطة . وقد حققت جمعية الزراعة التي في آنجيه (مدينة في فرنسا) جميع هذه الخواص في الأنجرة وأوصت بزراعتها . تمّ بحروفه

* * *

وبعد كتابة ما تقدم أبلغني حضرة رئيس التحرير خبراً يؤيد معرفة قدماء المصريين للرامي منذ زمن بعيد اذ قال: « ان في بلدة شبرا شندي من اعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية حوضاً زراعياً يسمى الى اليوم بالراميّة . وان هذه التسمية ترجع الى العصر الذي كان يزرع فيه ذلك النبات المشهور بتلك الجهة . وظل معروفاً في الديار المصرية الى عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير جد الأسرة الملكية المصرية وخلفائه »

عوض محمد جندي



مكتبة المقتطف

(١) عبد الله فكري : عصره ، حياته ، أدبه

للاستاذ محمد عبد الغني حسن — ١٢٨ صفحة من قطع المقتطف
طبعته شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

كل ما كنّا نعرفه من ترجمة عبد الله فكري باشا ناظر المعارف والأديب الجليل بضعة أسطر تتناقلها كتب التاريخ الأدبي للجيل الماضي ، ولم يكن ذلك بالذي يشفي غلة الباحث في هذا التاريخ ، وظلت ترجمة حياة هذا الاديب الكبير مجهولة لم توفق الى الباحث المدقق بالرغم ان رجالاً من عصره ظفروا بالكثير من البحث والدرس ، ولا يرجع ذلك الى علوّ كعب هؤلاء ، ولكن يرجع الى أن حياة هؤلاء كانت قد اتصلت بتاريخ سياسي ودور من أدوار الحركات القومية ، فكان الاهتمام من هذه الناحية أكثر من الاهتمام بالناحية الادبية ، ولم يبحث أدبهم إلاّ في ضوء أثرهم السياسي .

ولقد حمل الاستاذ محمد عبد الغني حسن عن الجيل الحاضر هذا الواجب فنهض به وأدّى الرسالة عنه . وكان مجلياً في هذا النهوض ، فدراسته عن عبد الله فكري دراسة استوفت كل شرائط البحث العلمي ، فهو يصوّر لنا العصر الذي شبّ فيه المترجم له تصويراً رائعاً نحسُّ انه قد نقلنا اليه وقد ألمّ بدقائقه إلماماً جعل للتأريخ روح الرواية والقصة فهو حين يحدثنا عن طفولة عبد الله فكري ونشأته العلمية لم ينسَ أن يعطينا الصورة الواضحة عن أساتذته الذين كان لهم الأثر القوي في حياته ، وهو حين يتحدث عن عصامته لم ينسَ أن يذكر لنا كيف كان مجلس النواب وقتذاك يهتم بالنهضة التعليمية ، وهو حين يتحدث عن رحلاته لم ينسَ أن يعرض علينا صورة جميلة لمؤتمر المستشرقين الذي حضره المترجم له ولبعض شخصياته . ثم ينتقل بعد ذلك في بحثه من درس خلق الرجل الى صلته بالثورة العرابية وموقفه في ذلك الصراع وتبرئته مما اتهم به من الاشتراك فيها ولكن وطنيته لم تكن يوماً مناراً للشكوك ، ثم تنتهي الى بحث أدبي في عصر الشاعر من الناحية الأدبية في الشعر والنثر

يخلص به الى درس آثار فكري درساً رائعاً في العرض رائعاً في التحليل . وان هذه الدراسة لتعتبر من الدراسات القوية التي ظفر بها الأدب الحديث عن صفحة للأدب الماضي كانت في حاجة الى أن تجلى له في مثل ما جليت بقلم هذا المؤلف المدقق .

(٢) محمد بن عبد الوهاب

للاستاذ احمد عبد الغفور عطار — ٢٠٠ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاستقامة

الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار من أدباء الجزيرة العربية المبرزين ، ومن شعرائها الذين يضعون أسس النهضة الحديثة للشعر هناك ، فأسلوبه قائم على دعائم من قوة الفكر وحلاوة التعبير ودقة التصوير ، زاخر بالأخيلة والمعاني المستحدثة ، وقد أراد أن يخدم وطنه في الناحية التاريخية فأخرج للعالم العربي دراسة عن مؤسس الدعوة الوهابية المصلح الكبير محمد ابن عبد الوهاب فلم يكن المؤرخ فحسب ، بل كان أول من وضع في الأدب الحجازي أول كتاب في فن التراجم واستطاع بأسلوبه الجميل أن يصوّر لرجل الأدب كما يصوّر لرجل الدين حياة المصلح الديني الكبير في إطار من الفن رائع ، فهو يعرض للقارىء صورة عن الحياة الدينية في نجد في القرن الثاني عشر للهجرة ليخلص منها الى الأثر الذي نقل هذا القطر من اضطراب الى استقرار بعد النهضة الوهابية التي وجدت نصرتها في يد أسرة منيعة حازمة بسطت سلطانها بحكمة وعزيمة اجتمعت كلها في ملك جعل للجزيرة العربية شأن وأي شأن ذلك هو العاهل العظيم عبد العزيز آل سعود ، وقد صوّر لنا المؤلف الحياة السياسية والاقتصادية كذلك أدق تصوير ، ثم سرد سيرة محمد بن عبد الوهاب في الصورة الفنية الرائعة التي أشرنا اليها انتهى منها الى الكلام على جوهر الدعوة الوهابية من صرف جميع أنواع العبادة لله وحده الى منع التوسل والاستعانة والاستغاثة لغير الله الى غير ذلك مما دعت اليه من تحريم البدع . وقد أحسن المؤلف إذ ختم هذه الدراسة ببحث في آل سعود الذي وجد محمد بن عبد الوهاب في جد تلك الأسرة محمد بن سعود ما لم يجده في الأمراء والحكام الآخرين من المعونة والحماية لأنهم لم يكونوا روّاد حق وطلاّب خير كما كان ابن سعود الذي لم تدنس صفاته الكريمة عناصر الشرّ والرذيلة .

هذه الدراسة النفيسة التي كتبها مؤلفها في دقة العالم المتمكن وفي أسلوب الفنان المقتدر جديرة بأن تقرأ في كل قطر عربي لأن فيها كشفاً عن حقيقة ذلك الاصلاح الذي دعا اليه مؤسس الوهابية ليخلص الدين من عوامل الوثنية التي كانت تتغلغل في نفوس الناس ولا صلة لها بالدين.

حسن كامل الصيرفي

الملامتية والصوفية

وأهل الفتوّة

تاليف الدكتور أبو العلا عفيفي استاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول ، والكتاب حلقة من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ١٢٨ صفحة من القطع الاوسط

الموضوع طريف في اللغة العربية فلأول مرة يخرج فيه كتاب يلم أطرافه في لغة الضاد ومن قلم استاذ نعرف فيه دقة البحث وتقصي الأسباب ؛ ودقة الحس التاريخي . ولقد ألمّ الأستاذ في تصدير الكتاب بعجالة تاريخية تظهر الباحث على حقيقة هذا المذهب الصوفي ونشأته ، وقد يستشف منها القارىء الملم بشيء من تاريخ تلك المذاهب أن الملامتية مذهب يمت الى الصوفية الشرقية أكثر منه الى الصوفية السكندرية التي نشأت في الغرب ، وان كان من المتعذر حقيقةً على أي باحث أن يضع حدوداً معينة تفرق بين نزعات الصوفية وآرائها ويقول عن يقين أن هذه نزعة شرقية وتلك نزعة غربية .

والكتاب مبوّب تبويباً علميًّا دقيقاً وآراؤه معروضة أحسن عرض في أبسط أسلوب.

خليفة ابليس

تأليف يوسف ملك في ٢٦٨ صفحة من القطع المتوسط طبع ببيروت سنة ١٩٤٥

هو كتاب من الكتب القليلة التي تخرج بين حين وآخر عند ما تهب عواصف الجدل في أشياء تتعلق بالنواحي العاطفية من النفس . حاول مؤلفه التنديد بحياة رجل صاحب دعوة جديدة هو دكتور داهش أو بالتفصيل « سليم موسى الياس العشي الأزخي».

يروي أنصار دكتور داهش عنه روايات خارقة لكثير من الأشياء المألوفة . وقد زارنا الاستاذ حليم دموس في ادارة المقتطف وأخذ يبدي عن داهش ويعيد حتى لقد رفعه الى صف الأنبياء المرسلين برسالات عامّة لجميع البشر ، ووصلنا كتاب خليفة ابليس فاذا به ينتقد جميع ما روى لنا مناصرو الدكتور داهش . حتى يصعب عليك أن تكشف شيئاً من الحقيقة تأييداً أو اثباتاً .

على انني لا أعلم كيف وبأي عامل من العوامل النفسية والطبيعية تجد بعض الدعوات العاطفية التي تظهر في مثل عصرنا هذا مؤيدين تبلغ بهم الحماسة مبلغ الجنون ومعارضين تبلغ بهم الحماسة أيضاً مبلغ التطرف الشديد . أما هذه الظاهرة فهي عندنا في عالم الحياة أشبه بحركة الريح الزوبعة التي تهب فتثير نقعاً ، ثم لا تلبث أن تزول وشيكاً ، ويسميها العامة « فسوة العفريت » .

المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية

تأليف محمد يوسف موسى نشرته دار الكتب الاهلية بمصر : ١٩٤٦ : ٢٣٠ صفحة من القطع المتوسط ترجمة عن ليون جوتيه الدكتور والاستاذ في الفلسفة الاسلامية

يسرنا كل السرور أن يكون هذا الجهد العلمي من قلم أستاذ في الأزهر يدرس بكلية أصول الدين فان ذلك دليلاً قاطعاً على اتجاه جامعتنا العجوز اتجاهاً أخذ يخرجها من النطاق الحديدي الذي ضرب عليها ألفاً من السنين .

والكتاب مبوّب تبويباً تطابقيّاً حسناً فبدأ مؤلفه بالكلام عن العقلية السامية والعقلية الآرية ، واني لا أعتقد أن هذا التفريق حقيقي ، بل هو أمر خلافي يمكن رده الى أشياء قد تتغير لا بتغير المكان ولكن بتغير الزمان . ثم تكلم في الفلسفة الاغريقية ثم في الدين الاسلامي وتطرّق من ذلك الى نتائج عامة وبحوث في بعض نظريات الفلاسفة المسلمين وفي التوفيق بين الدين والفلسفة على رأي ابن رشد .

***

وقد أحسن المترجم إذ عقب على الكتاب بمعجم شامل عن جميع المصطلحات والعبارات الاصطلاحية التي عرضت في الكتاب فوفى بذلك أمانة النقل . ولكن هذه الحسنة قد طاحت بها ست صفحات من الخطأ والصواب ذيل بها الكتاب . ولا شك أن ذلك من جهل صنّاع الطباعة وتفريطهم وسوء أدبهم فان في تلك الأخطاء ما يترفع أن يقع فيه تلميذ في المدارس الابتدائية فكيف بها تصدر عن أستاذ يجيد العربية والفرنسية إجادة ، ويحرص على آثاره أن تكون دائماً على وجه من الكمال المستطاع .

قصة الكفاح

بين روما وقرطاجنة

بقلم الدكتور توفيق الطويل نشرته مكتبة الآداب بالجاميز بمصر : ١٩٤٦ الطبعة الثانية
٢٦٤ صفحة من القطع المتوسط

قصة هذا الكفاح من أروع قصص التاريخ القديم ، بل هي قصة الروح التسلطية التي ورثها العالم الجديد عن العالم القديم ، وقصة تنازع المصالح بين الشعوب والأجيال على مدى الأزمان . بل هي صورة من تنازع السلالات على السيادة في العالم القديم ، وأشباهها في العالم الجديد لا تقع تحت حصر . فيها تقرأ صفحة من عالمنا وقعت حوادثها في الأزمان القديمة ، فليست العبرة فيها بالحوادث ولكن العبرة فيها بما تنم عنه الحوادث وبما يقع خلالها من تفاصيل تفصح عن ان الروح الانساني لا يزال كما كان في تلك العصور البعيدة .

نهضة العراق الادبية

في القرن التاسع عشر

محمد مهدي البصير — ٣٦٧ صفحة من القطع الوسط — مطبعة المعارف في بغداد

هذا الكتاب الذي وضعه الدكتور محمد مهدي البصير حلقة من حلقات التاريخ الادبي في قطر من أقطار العربية ، وهو خير معين للباحثين في النهضات الأدبية ، وقد سجل فيه حقبة لم تؤرخ . وهو دراسات لبعض رجال الأدب في القرن الماضي في العراق مهد له ببحث في نشأة النهضة الادبية هناك في ذلك القرن ثم ختمه ببحث عن قيمة الأدب العراقي وقتذاك. وعنده أنه أكبر شأناً في ذلك القرن منه في القرن الأول للهجرة من الناحية الشعرية ، وأقل قيمة وخطراً من القرنين الثالث والرابع ، ولكنه يساوي القرن الثاني للهجرة وقد يفوقه بعض الشيء

والمؤلف — من دراساته وآرائه — بصير بالتيارات الادبية ، متمكن من بحثه ، متوافرة له كل أسباب البحث .

أقاصيص الغروب

للاديبين الآنسة أماني فريد وميشيل تكلا — ٨٤ صفحة من القطع الوسط — مطبعة الاخاء بمصر

هذه مجموعة من القصص الجميل الذي يجمع بين خيال مبتدع وحقيقة واقعية ملموسة في أسلوب رفيق فيه نفحات شعرية عطرة . فأسلوب الآنسة أماني فريد في القصص الأربع التي ضمتها هذه المجموعة أسلوب شعري رقيق وتصويرها للاحاسيس تصوير بليغ وخيالها يبشر بمستقبل زاهر في عالم القصة . وقد ضمَّ الاديب الاستاذ ميشيل تكلا الى هذه المجموعة قصتين بديعتي الفكرة والاسلوب . والكاتبان تنبىء قصصهما عما هيىء لهما في عالم القصة من مركز ملحوظ .

الصرف والنحو بأسلوب حديث

للاب جبرائيل ابو سعدى — جزءان ، الاول في الصرف وصفحاته ٢٠٨ والثاني في النحو وصفحاته ٢٧٨ من قطع المقتطف — طبع بمطبعة الارض المقدسة بالقدس

من يتصفح هذا الكتاب النفيس يشعر بالجهد الذي بذله المؤلف في خدمة اللغة العربية وقواعدها الأب المفضال جبرائيل ابو سعدى أستاذ الآداب العربية في المدرسة الصلاحية في بيت المقدس ، وهو عالم جليل وأديب طليّ العبارة . ولقد توفر على وضع هذا الكتاب فأخرجه لطلبة الصفوف الثانوية العليا وافياً بالغرض المنشود منه فهو خالٍ من التعقيد ميسّر للمنتفعين به وقد أحسن صنعاً في استشهاده بشواهد من آثار الشعراء المحدثين

وقد ذكر المؤلف انه لم يشأ في هذا الكتاب أن يمد اليد الى جوهر القواعد فيحوّر ويبدّل منتظراً الاقدام على ذلك من غيره ، غير أنه لم يهب من أن يجدد بعض التجديد في عرض القواعد غير منتبهٍ الى مماحكات الصرفيين التي لا تجدي التلاميذ نفعاً ، بل تزيدهم تشويشاً وبلبالاً . فنثني على حضرة الأب جبرائيل ابو سعدى على جهوده الطيبة في خدمة العلم والأدب .

المنهل

أصدر الاديب العربي المعروف الاستاذ عبد القدوس الانصاري مجلة شهرية بهذا الاسم تقوم بتأييد الحركة الادبية في المملكة العربية السعودية ، وهي حركة مباركة تبشر بنهضة طيبة ، وقد انضمَّ الى أسرة تحرير هذه المجلة الفتية فريق من ألمع الكتّاب العرب ، يمدّونها بنفثاتهم ويزيدونها بأقلامهم ، فنرجو ان تسد هذه المجلة الفراغ الذي نحن في حاجة اليها ، وأن تقوم صلة فكرية بين الأقطار الشقيقة تنقل اليهم أبدع آثار ادباء الجزيرة العربية.

فهرس الجزء الاول

من المجلد التاسع بعد المائة

الحق

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم

عصام الدين حفني ناصف

لواحق المقتطف الشهرية
يونيو ١٩٤٦

موسكو
برلين لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم
عصام الدين حفني ناصف

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

الثورة البلشفية

وحرب التدخل

كان الناس من قديم يشكون الجهل والخوف والفاقة والعبودية ، ويتلمسون قبساً من النور يبدّدون به ما يكتنف حياتهم الاجتماعية — الاقتصادية من ظلام . وكان مفكروهم يحلُمون بمجيء عهد فيه تفيض الأرض بالخيرات ويخف فيه عناء العمل ويَسعَد الناسُ بالرفاهة والهناءة والأمن ، فلما بدا أولَ مرة في تاريخ البشر أن تحقيق هذا الحُلم اللذيذ أصبح في متناول اليد فزع خفافيش الناس وهبّوا يُعولون ويولولون وينادون بالويل والثبور، ويُهيبون ببني جنسهم أن هذا الذي يحسبونه نوراً وهاجاً ليس إلاّ ناراً حِراقاً . وتآزرت مصالح الرأسماليين ونفعية السياسيين المحترفين وفساد ذمم الصحفيين وتعصب رجال الدين ، وتضافرت مع كل أولئك شتى عناصر الشر على أن تبلبل أذهان الشعوب وتغشى على أبصارها بغشاوة الجهل المطبق والتعصب الذميم ليظلّ أبناؤها مستكينين السُخرة يديرون طواحين السادة المالكين ، فيظل السادة ينعَمون بما تدرّه عليهم من الخيرات .

ضاق الشعب الروسي ذرعاً بمفاسد قيصره وأمرائه الطغاة وأغنيائه السادرين في غَوايتهم فأطاحهم وأطاح حكومتهم الفاسدة المتعفنة . وشكل كِرنْسكي حكومة ديمقراطية عاجزة ما عتّم الروس أن علموا أنها ألعوبة في يد بعض الدول وأنه ليس في عزمها ولا في مقدورها أن تنتشلهم من وهدة الحرب وأن تحبُوَهم السلامَ والخير ، فهبّوا في وجهها . وسَرعان ما برزت من خلال دخان المدافع شخصية زعيم منقطع النظير، وأعلنت روسيا أنها قد رضيت لنفسها الشيوعية نظاماً . فإذا بالفريقين المتقاتلين يتألّبان عليها وقد أعماها الحقد والفزع ، فاندفع جنودها يفتِكون ويقتلون ويحرقون . وقد أجزلا الأموال والأسلحة والأوسمة للعناصر الرجعية والقواد القيصريين من أمثال دِنكين وكُلْتشاك ويودِنِتْش وفْرَنجل ليعيدوا سلطان الحكم القيصري . وهبطت جيوش الحلفاء

مُرْمَنْسك وتوغلت كتائب اليابانيين في شرق سيبِرْيا حتى بحيرة بَيْكال ، وأرسلت فنلاندا ، التي منحتها حكومة السوفييت استقلالها ، تدعو ألمانيا في مارس ١٩١٨ أن ترسل جيشاً الى أراضيها ليزحف منها في سهوله الى الاتحاد السوفييتي فيَقمع ثورته ، فاتصل القائد الألماني فون دِرْجُوتْز بالجنرال مَنَرْهايم ، وزحفت جحافل الهون على أكرانيا ، وافتتحت كييف وأُدِسّا . وعانى الشعب السوفييتي من الحلفاء ودول وسط أوربا ما لا سبيلَ الى توفيته حقه من الوصف . وقد قُوِّم ما أصاب مناحي الثروة في بلاد السوفييت من الخسائر بما لا يقل عن ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من الجنيهات . وناهيك بما انتزعه الحلفاء منها من الولايات الهامة مثل إستونيا ولاتفيا ولِتوانيا ، التي جعلوا منها دويلات البلطيق ، والجزء من أكرانيا وروسيا البيضاء الذي أدمجوه في بولونيا ليجعلوا منها دولة كبيرة عدد أفرادها ٣٥ مليوناً (بعد أن كان ١٥ مليوناً) وبسارابيا التي ألحقوها برومانيا : ذلك الحبل من الدويلات التي خلقوها من العدم ليضيّقوا به الخناق على الاتحاد السوفييتي حربيّاً وتجاريّاً وسياسيّاً أو التي أسماها كليمنسو في وقاحة كلبية « الحاجز دون الوباء » cordon sanitaire

وعرَف البلاشفة الثائرون كيف يوقِعون الهزيمة بأعدائهم « البيض » مرة بعد أخرى . وطالت « حرب التدخّل » وضجّت شعوب الحلفاء من أعمال حكوماتها وجأرت بالشكوى من تخلّف أبنائها المجنّدين عن العودة الى أوطانهم ، وامتنع حمّالو ميناء لندن من شحن الذخائر الى بولونيا ، وقام العمال بسلسلة من الاعتصابات وهدّدوا بالإضراب العام ، فلم يبق أمام الحلفاء إلاّ أن يُسرّحوا جنودهم وهكذا انتهت الحرب العسكرية . ولكن المهاجمات العَدائية لم تنقطع ، وقد صرّح لويد جورج رأس الحكومة في ذلك الوقت بأن دولته قد بذلت من المال والجهد لتأييد النظام القيصري على الثورة الشيوعية أكثر مما بذل غيرها من الدول .

فماذا كانت نتيجة هذه المحاولة ؟ لقد أحصى بعضُ ما خرب في جبهات القتال البالغ طولها ٨٠٠٠ كيلومتر ، فإذا هو يشمل ٣٦٠٠ جسر عاديّ و ٣٦٧٠ جسر من جسور السكك الحديدية و ٤٣٠٠ محطة تلغرافية و ٨٧٠٠٠ ميل من الأسلاك البرقية . ونقصت مساحة

الأراضي التي زرعت حبوباً سنة ١٩٢٠ — ٢٣ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩١٦ ، ومساحة الأراضي التي زرعت قطناً وتبغاً وما الى ذلك ٥٦ في المائة ، وهبط محصول الفدان الى ٧٠ في المائة عن محصوله قبل الحرب . أما الصناعة فقد تقهقرت كثيراً إذ هبط صُنع الزُبد من ١٠٠ في المائة سنة ١٩١٣ الى ٧٧ في المائة سنة ١٩١٧ الى ١٨ في المائة سنة ١٩٢٠

يمكن تلخيص هذه الخسائر على النحو الآتي : نزلت المحصولات الزراعية في آخر الحرب العالمية الأولى الى ٨٨ في المائة عما كانت عليه قبل الحرب ثم نزلت في آخر الحرب الأهلية الى ٦٢ في المائة . وهبطت الصناعة الى ٧٧ في المائة في آخر الحرب العظمى ثم الى ١٨ في المائة في آخر الحرب الأهلية .

الاتحاد السوفييتي يستجم

كان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته يَنشُد السلام ، ويرغب في التعمير لا في التدمير ، وقد خرج من الحرب العالمية والحرب الأهلية والمجاعة أكثرَ حرصاً على السلم وأقوى تمسكاً به إذ أصبح عليه أن ينظف بلاده من أنقاض الهدم وأن يحوّلها من مجموعة مزارعَ سيئة الأدارة الى دولة صناعية حديثة وأن يشيّد مدناً عظيمة ذاتَ مساكنَ صحية مبهجة ومنشآت عامة فأعلن أساطين الحكم البلشفي أنهم لا يريدون « قيد بوصة من إقليم خارجي » وأن دولتهم تبغي أن تعيش مع الدول الرأسمالية في وئام وأنهم راغبون عن فرض نظامهم على أي شعب راغب عنه ، إذ أنهم يعتقدون أن الثورة لا تُفلح في بلد حتى تتهيأ فيه عواملها وملابساتها ، ولا يكون هذا التهيؤ إلاَّ عن تطور في حياة هذا الشعب . قال لنين في حديث له مع آرثر رنسوم عن الدعاية الشيوعية في البلدان الأجنبية « قل لهم أن يجعلوا على كل بلد من بلادهم سوراً كسور الصين وأن يسخّروا مَن عندهم من عمال الجمارك والحدود وخفراء السواحل وأن ينفوا مَن شاءوا من البلاشفة . إن نشوب الثورات لا يقوم على الدعاية ، وليس ثمة ضربٌ من ضروب الدعاية يستطيع أن يعجل قيام ثورة لم تتوافر عواملها ولا أن يؤخرها إذا توافرت لها تلك العوامل » .

انتهت الفترة الأولى من تاريخ ا.ج.س.ا. (اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية)

U. S. S. R. (Union of Soviet Socialist Republics) وهي فترة حرب التدخل (١٩١٧ ـ ١٩٢٢) عند ما زايلت الجنود اليابانية ميناء فلاديفستك في أكتوبر ١٩٢٢ ، وانتهت معها شيوعية الحرب ، أي سياسة تخصيص كل ما في الدولة من الممتلكات والمرافق الاقتصادية لكسب الحرب دون نظر إلى أثر ذلك في الأفراد المالكين لها أو المنتفعين بها. واستبان للبلاشفة ضرورة تجميع بعض المواد الاحتياطية في يدي الدولة لكي يكون الإنتاج في الصناعة على نطاق متسع المدى يسمح بتجهيز الجيش بالعدة وتزويد الزراعة بالآلات اللازمة لادارتها طبقاً للنظام الاشتراكي ، فأعلنوا السياسة الاقتصادية الحديثة ، N. E. P. (New Economic Policy) ومنحوا أصحاب رؤوس الأموال الأجانب بعض الامتيازات موقتاً واستعانوا بالخبراء الأجانب على اختلاف أجناسهم ولم يضنوا بالأثمان المرتفعة في شراء الآلات من الخارج ، حتى زعم البعض أن هذه السياسة إن هي إلا عودة إلى الرأسمالية . وقد احتفظ الاتحاد السوفييتي بالهدوء المستمر إزاء ما كانوا يرمـون به في الصحف ومن فوق المنابر من الشتم البذيء المستمر .

بيد أن ذلك لم يطفىء لظى السخيمة المتأججة في صدور الدول الأخرى ، فبينما اعترفت الحكومة البريطانية بالحكومة المؤقتة التي وليت الحكم بعد انهيار الحكم القيصري في روسيا ولما يمض على قيامها أسبوع واحد ، إذ مرت سبع سنوات قبل أن ترسل حكومة العمال البريطانية الى الاتحاد السوفييتي سفيراً (غير مزود بسلطة كاملة) ومع ذلك فإن هذه الحكومة القصيرة الأجل لم تكد تسقط من فوق منصة الحكم نتيجة للرسالة المزورة التي استعملها خصومها لإثبات تدخل الكومنترن Commintern (مكتب الدولية الشيوعية Communist International) في بعض الشؤون البريطانية ، حتى خلفتها وزارة من المحافظين أوشكت أن تقطع العلاقات بين الدولتين . وكان ممثلو الاتحاد السوفييتي يعاملون أينما ساروا معاملة الأعداء ، فاغتيل ڤويكوف سفيره في بولونيا ، اغتالوه في جنيف ، وقتل اليابانيون موظفاً من موظفي السكة الحديدية بمنشوريا ، ونهبت دار البعثة السوفييتية في شنجهاي ، وأخذت شتى الحكومات ترسل الى الاتحاد السوفييتي إنذاراتها ، بل إن بعضها قطع علاقته به ولم يعد الى وصلها إلا خضوعاً للرأي العام .

في سنة ١٩٢٢ أعلن وزير بريطانيا الى الوفد السوفييتي في المؤتمر المجتمع في جنوا للنظر في تعمير ما خربته الحرب، أن دولتهم تستطيع أن تظفر بالمعونة التي ترغب فيها لتعمر ما أتلفته الحرب والحرب الأهلية، على أن تتخلى عن خطتها الاشتراكية وعلى أن تعيد اليها الرأسمالية. وهنا أثبت ساسة السوفييت مقدرتهم على الانتفاع بما بين مصالح الدول الرأسمالية من تباين وتضارب في تقوية مركزهم، فقد استطاع تشرين أن يتفق مع مندوبي ألمانيا وأن يعقد معهم معاهدة رابلـو التي تقرر فيها إعادة العلاقات السياسية كاملة وإعادة العلاقات التجارية المشربة بروح الود بين الدولتين، فكان لذلك أثر ملموس في القضاء على التدخل. وقد أثار إمضاء تلك المعاهدة في صفوف الحلفاء من السخط والشعور بالمرارة ما أثاره إمضاء ميثاق عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتي وألمانيا بعد ذلك بـ ١٧ سنة.

وفي سنة ١٩٢٣ أرسل مركيز كرزون الى الاتحاد السوفييتي إنذاراً في مسائل تتعلق بصيد السمك وما اليه من أمور قليلة الخطر.

وكثر التهديد في سنة ١٩٢٤ عند ما خط رمزي ماكدونالد كلمة فوق الرسالة الحمراء المزورة (وإن مزوري الخطوط ليجدون دائماً في أركان وزارتي الخارجية والداخلية سوقاً نافقة لوثائقهم المزورة)

وأفاض سير وليم هكس في الحديث عن «الخطر الأحمر» ثم جرّد حملة من الشرطة على وكالة السوفييت التجارية «أركوس» مما أدى الى انفصال العلاقات السياسية، وهذا ما يكون في كثير من الأحيان نذيراً بالحرب. وفي الحق أن هذه الإغارة كانت بمثابة إعلان بعزل الاتحاد السوفييتي وتأليب الدول لمقاتلته.

وفي سنة ١٩٢٥ بعد أن قضى وزير الخارجية البريطانية سير أوستن تشمبرلن شهر العسل في البحر المتوسط مع بنيتو موسوليني، عقدت معاهدة لوكارنو، فهللوا لها على أنها ضمان للسلم بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا وتشكوسلوفاكيا وبلجيكا. ضمان من من؟ هذا ما أجاب عليه مستر أورمسبي جور (لورد هارلش) إذ قال في حديث له: «إن تضامن المتمدنين بالمدنية المسيحية ضرورة لإيقاف أعظم نمو مشئوم ارتفع في تاريخ

أوربا . . . وقد كان النضال في لوكارنو ، في رأيي، هو هذا : هل ترى ألمانيا أن مستقبلها مرتبط بمصير الدول الغربية العظمى ، أم هي سائرة في طريق العمل مع روسيا لتدمير المدنية الغربية . . . إن لوكارنو تعني أن المانيا ، ما دام أمرها بيد هـذه الحكومة ، قد تخلت عن روسيا وألقت بحظهـا مع الفريق الغربي » .

وفي سنة ١٩٢٧ تحـدَّث سير أوستن تشمبرلن (والد نفيل تشمبرلن) بلهجة إنذارية حادّة عن صورة كاريكاتورية نشرتها صحيفة سوفييتية ورأى فيها غضّـا من مقامه الموقّـر .

وفي سنة ١٩٢٩ قام المارشال الصيني تو ـ تشون حاكم منشوريا بالهجوم على حدود الاتحاد السوفييتي . فأرسـل الوزير الأمريكي ستيمْسُن مذكرة الى فرنسا لتخاطب الحكومة السوفييتية في شأن سكة حديد منشوريا التي تُعد « مصلحة أممية » (لم يكن يستطيع مخاطبة ا . ح .س . ا . رأساً لأن العلاقات السياسية بين الدولتين كانت مقطوعة)، فلما نكّـل البلاشفة بالجيش المعتدي وألحقوا به هزيمة نكراء ، سحب الوزير الأمريكي أنفه من الموضوع .

وفي سنة ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ استولى اليابانيون على منشوريا ، فلم يزل سير جون سيمون وزير خارجية بريطانيا ، بعصـبة الأمم حتى أغضت عن ذلك الاعتداء ، مما جعلها تذوي وتزدهف نحو الفناء ، وجعل شركات صنع الأسـلحة تنتعش إذ توقعت أن يؤدي استيلاء اليابان على منشوريا الى غزوها ولايات الشرق الأقصى السوفييتية .

وفي سنة ١٩٣٣ هاج هائج هذه الوزارة القومية إذ ألقت الحكومة السوفييتية القبض على بعض المهندسين البريطانيين لأنهم كانوا يتجسسون في بلادها ويخرّبون ، كما جاء على لسان واحد منهم ، وطالبت باخلائهم ، في لهجة أشبه شيء بتلك التي تخاطب بها مشايخ القبائل في مناطق نفوذها ، فلما أعرضت الحكومة السوفييتية عن تلبية طلبها شرعت هذه تقاطع تجارتها (على حين أنها لم تعمد الى شيء من ذلك عندما قبض اليابانيون بعد ٤ سنوات من ذلك الحادث على عدد من الرعايا البريطانيين وجرّدوا بعضاً منهم من سراويلهم على قارعة الطريق وضربوا الشرطة البريطانيين ضرباً مبرّحاً وعندما حبسوا ملحقاً حربيّـا بريطانيـا وصبّـوا مقذوفات الرشاشات على سفير بريطاني وأطلقوا نيران مدافعهم على سفن يخفق عليها علم بريطانيا) .

ولكن الحكومة السوفييتية أبت أن تنساق لهذا الاستفزاز المستمر ، إذ كان عليها أن تجد « مهلة تنفس » طويلة تستجم فيها ، مهما يكن الثمن ، وقد كان من حظها أن الدول المتاخمة لبلادها ، هي وغيرها من الدول ، كانت قد نهكتها الحرب حتى أصبح من خرق الرأي أن تخوض غمار حرب أخرى تتعرض فيها لحرب بين الطبقات المختلفة في داخلها .

ظلت الدول المتحالفة بعد إخفاق حرب التدخل متألبة على الاتحاد السوفييتي ، بل إنها ما أنشأت عصبة الأمم إلا للقضاء عليه وعلى الامبراطوريات المنافسة لها ، وهذا ما أوضحه في مارس ١٩٣١ مستر لويد جورج الذي كان رأس الحكومة البريطانية وأبرز رجالات مؤتمر فرساي إذ قال في رسالة بعث بها الى ذلك المؤتمر « إذا أردنا أن نهب لاوربا بديلا من البلشفية وجب أن نجعل من عصبة الأمم حامياً للشعوب التي لديها استعداد لمعاملة جيرانها معاملة منصفة ومهدداً لأولئك الذين يعتدون على حقوق جيرانهم ، سواء أكانوا أمبراطوريين استعماريين أم شيوعيين استعماريين » .

واستمر الرأسماليون الدوليون ، مع ما بين دولهم من تباغض وتحاسد ، يحيكون مؤامرة عالمية لينزلوا بالشيوعية — قبل فوات الأوان — ضربة ساحقة ، قال ونستون تشرشل لمستر ا . ج . كوك : « لقد كان من الخير أن نهشم البيض البلشفي قبل أن يفرخ بدل أن نجد أنفسنا مرغمين على الجد في اصطياد الفراخ البلشفية من جميع أصقاع الأرض »

كان الحلفاء قد طرحوا ألمانيا بعيداً عن عصبة الأمم وعاملوها معاملة المنبوذين . وناء الشعب الألماني بالأعباء التي ألقتها معاهدة فرساي على كاهله ، وأخذ يقتنع بأنه لا منجى له مما يكتنفه من البؤس إلا أن يتخذ الاشتراكية له نظاماً وأخذ ينجرف في تيار الصداقة السوفييتية والمبادىء البلشفية . على أن الحزب الشيوعي في ألمانيا كان حديث النشأة وكان يعوزه زعماء من طراز لنين ورفاقه . فأرسل البلاشفة اليه بعثة على رأسها كارل رادك لتقدم الى الثوريين الألمان ما هم في حاجة اليه من صالح المشورة ، ففزع الحلفاء وعملوا على إصلاح الخطأ الذي أوقعهم فيه قصر النظر ، فمدوا يد المعونة الى الرأسمالية الألمانية وأقرضوا ألمانيا قروضاً كبيرة . وقد وقعوا بذلك في مأزق ضيق لقوا فيه القصاص الطبيعي، إذ أن إصلاح الاقتصاد الألماني أحيا مطامع الطبقة الحاكمة في ألمانيا ، فانتبذت هذه معاهدة فرساي وتبوأت من جديد مركزها تحت الشمس .

أوربا الديمقراطية

تمالىء الفاشية

وحمل هتلر لواء الاستعمارية الألمانية الناقهة . وأخذ النازي بيده أعنّة الحكم ، فلاً الطرب جوانح تشمبرلن ودلاديه ومن لفّ لفهما ، فقد كانوا يرون في الهتلرية حاجزاً منيعاً دون البلشفية ، وقد طرقت مسامعهم صيحات النازيين لانتزاع أكرانيا من الاتحاد السوفييتي وقصرت أبصارهم عن رؤية الحرب النازية المقبلة على بلادهم فهللوا لهتلر ومجّدوه، ومن ذلك ما كتبه لويد جورج في جريدة التيمس الصادرة في ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ إذ يقول : « إذا أفلحت الدول في محق النازية في المانيا ، فما الذي سيكون بعد ، إنه لن تكون ثمّ حكومة محافظة أو اشتراكية أو حكومة من الأحرار ، بل حكومة شيوعية متطرفة . ولا يمكن أن يكون هذا هو الغرض الذي ترمي اليه هذه الدول ولا ريب » .

تغير الموقف في أوربا تغيراً تامًّا ، وكذلك تغير الموقف في الشرق الأقصى نتيجة لذلك ، فان اليابانيين الذين كانوا في حرب التدخل آخر من جلا عن الأراضي السوفييتية ، عثروا في ألمانيا على الحليف الذي كانوا ينشدونه ليكرهوا الاتحاد السوفييتي على القتال في جبهتين ، فتتابعت حوادث الحدود ، بين الفصائل اليابانية والسوفييتية ، وبدأت فترة الاعتداء . وأصبح من العبث أن تستمسك الحكومة السوفييتية بسياسة فترة ولّت وانقضت ، ولذلك استبدلت بسياسة مواثيق عدم الاعتداء الفردية سياسة مقاومةٍ جماعية تنتظم الدول المهدّدة ، لأن السلم لا يتجزأ ، ونادى مكتب الدولية الشيوعية بـ « الجبهة الشعبية لمكافحة الفاشية وصون السلام » . وانتظم الاتحاد السوفييتي في سلك عصبة الأمم في سبتمبر ١٩٣٤ وأصبح مركز الثقل في عالم السياسة ، وبلغت السياسة السوفييتية في مسايرة الواقع والصلابة في الحق ورعاية أصول الخلق الدولي شأواً بعيداً لا سبيل معه الى الموازنة بينها وبين سياسة غيرها من الدول ، تلك السياسة التي عبّدت لألمانيا السبيل الى شنّ الحرب .

تعطّف الاتحاد السوفييتي رداء عصبة الأمم وأدحض مفتريات النازية والفاشية وأوضح أنهما أعظم خطر يتهدد الحضارة ودعا إلى التدرع بـ (الضمان الجماعي من الاعتداء) فأبت الدول الرأسمالية أن تنظر الى الأمر من ناحيته الموضوعية ، وأخذ أعداء الثورة يصخبون بأن هذه الأحداث والتطورات إن هي إلاّ نُذُر شرٍّ بأحداث مشئومة .

ويحسن أن نذكر هنا للدلالة على الروح الذي كان يهيمن على تفكير ساسة الغرب ما أورده دُدْ سفير أمريكا في برلين في مذكراته بتاريخ ٦ مايو ١٩٣٥ : « كتب إليّ لورد لوذيان في ذلك رسالة تلقيتها اليوم . . . وقد أبدى في جلاء أنه يودّ أن تتحد الديمقراطيات لصدّ أية حركة توجه نحوها ولتحويل اتجاه النشاط الألماني نحو الشرق . ويبدو أنه لا يكرُبه كثيراً أن يؤدي ذلك الى نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا ، بل يبدو أنه يرى في نشوبها حلاً حسناً للمصاعب التي فرضتها معاهدة فرساي على ألمانيا . ومشكلة الديمقراطيات في رأيه هي أن تجد لليابان ولألمانيا مكاناً أمكن في إدارة شؤون العالم ، وهو ما تؤهلهما له قوتهما وتقاليدهما ، وهو يأمل أن يكون في الوسع القيام بذلك دون أن تبذل الامبراطورية البريطانية أية تضحية وبأقلّ ما يمكن من خنق الحرية الانسانية »

كان على رأس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت سياسيّ صوّر له نظره القصير أن أعين النازيي مسددة نحو المشرق فبعث ذلك فيه الرضا فقصّر في تسليح بلاده ، منتظراً في بلادة واطمئنان أن تستعر نار الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي فيكفيانه أنفسهما بأهون الطرق ، بل إنه في الواقع أخذ يمالئ دول المحور ويُغضي عن اعتداءاتها المتوالية وما فتئ يُفسد آلة السلامة الجماعية ويقيم العقبات في سبيل الاتحاد السوفييتي كلما سعى الاتحاد الى صون السلام .

فعندما عقد الاتحاد السوفييتي وفرنسا في سنة ١٩٣٥ ميثاق التساعد على المعتدي وسجلتاه في عصبة الأمم أبت بريطانيا أن تشارك في ذلك وحملت صحفها على الميثاق حملة منكرة .

وفي تلك السنة نفسها عقدت بريطانيا وألمانيا ميثاقاً خاصاً بأسطوليهما البحريين ، وأباحت لها فيه أن تبني من الغواصات ما تشاء دون التفات الى مصالح فرنسا ومع ما في ذلك من نقضٍ للوعد الذي قطعته على نفسها للعصبة ومن دلالة على أنها غيرُ جادّة في مكافحة الفاشية وغير راغبة في أن تصير العصبة قوة حقة .

حرب الحبشة

وسرعان ما أعقب ذلك وثوب ايطاليا على الحبشـة في ٣ أكتوبر ١٩٣٥ فأعلنت الحكومة السوفييتية أنها مستعدة لتنفيذ كل ما تتخذه العصبة من قرارات لمساعدة الحبشة غير أن سائر دول العصبة ، وفي مقدمتها بريطانيا ، أظهرت كل ما استطاعت أن تظهر به من عجز عن معاقبة الدولة المعتدية عقاباً إيجابيـّاً رادعاً كإقفال قناة السويس في وجهها أو عقاباً سلبيّـاً ناجعاً كمقاطعة صادراتها مقاطعة تشل اقتصادياتها المرتبكة ، والامتناع من إرسال زيت الوقود اليها ، وهو ما كان يؤدي على الأرجح الى أفول نجم موسوليني سريعاً وانهيار النظام الفاشي وهذا ما لم تكن تريده الحكومة البريطانية في ذلك الوقت .

وقد بسط مستر تشرشل أخيراً موقف بريطانيا من حرب الحبشة في النداء الذي وجهه في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٠ الى الشعب الايطالي يدعوه الى نبـذ موسوليني والى اتباع بيت سافوا ، قال :

« إننا في حرب معكم ، فيالها من كلمة غريبة مروّعة ! من كان يظن قبل الأعوام المؤلمة الأخيرة أن الأمتين البريطانية والايطالية تحاول كل منهما أن تقضي على الأخرى ... كيف كان هذا ولِمَ كل هذا ؟ أيها الايطاليون، سأصارحكم بالحقيقة : إنما هذا كله من أجل رجل واحد ... أما أنه رجل عظيم فاني لا أنكر ذلك . كذلك لا ينكر أحد أنه بعد ١٨ عاماً تمتع فيها بالسلطان المطلق قاد بلادكم الى حافـة الدمار الرهيب ...

فما هو الدفاع الذي قُـدّم تسويغاً لهـذا العمل ؟ هو ولا ريب تلك المشاحنة حول العقوبات ومسألة الحبشة ، فلننظر في ذلك ...

جاءت الحبشة وقرعت الباب طالبة الاندماج في عضوية العصبة فقدّمنا نحن نصيحتنا بألاّ يكون ذلك ، فقـد كنا في شك من وصول الأحباش الى مستوى من التقدم يسوّغ ضمهم الى مثل هذا الميثاق الخطير ، ولـكن كان سنيور موسوليني هو الذي أصرّ على أن

تكون الحبشة عضواً في العصبة ... وإنني لأصارحكم بأنه لم يحدث شيء في تلك المشاحنة الحبشية يمكن أن يكون سبباً أو مسوغاً لهذا الكفاح الرهيب . . . »

وهذه هي الرسالة التي أرسلتها الى سنيور موسوليني : الآن وقد توليتُ رياسة الوزارة ووزارة الدفاع ، أصارحكم بأني لم أكن في يوم من الأيام عدوًّا للعظمة الايطالية ولم أكن في قلبي عدوًّا لايطاليا . . . » الخ

أجل ، علت في انجلترا صيحات شعبية كثيرة تندّد بالاعتداء الايطالي ، بيد أن الحكومة البريطانية لم تقاوم هذا الاعتداء ، بل لقد بذلت ما في وُسعها لمعاضدته وفقاً لاتفاق سنة ١٩٢٥ . وتأثرت الكاي دور ساي (وزارة الخارجية الفرنسية) وزارة بريطانيا في الاقتصار على معارضة موسوليني معارضة صورية ، بل هي قبلت أن تحمل تبعة الفشل والتهاون فأتاحت للوزارة البريطانية أن تتبدّى في صورة الملك البريء الذي يريد أن يعمل ولكنه يُلفي نفسه عاجزاً عن العمل . لقد كانت فرنسا تأمل بتهاونها المزري في المسألة الحبشية أن تجد من موسوليني نصيراً على هتلر ، ولكنه ما كاد ينتهي من ازدراد الحبشة حتى انتبذ فرنسا كما ينتبذ الإنسان ليمونة معصورة ، فعادت من جديد إلى الارتماء بكلّيتها في أحضان بريطانيا . وقد اضطرت الوزارة القومية قبيل انتخاب مجلس العموم الى أن تُحل سير صمويل هور محل سير جون سيمون الذي كان قد أسخط الشعب بتأييده ايطاليا. وقد طلب صمويل هور ولافال أن تدمغ العصبة ايطاليا بالمعتدية وأن تعيّن لجنة من الخبراء ترسم الخطة الصالحة لمعاقبتها عقاباً رادعاً ، فاستقرّ رأي الخبراء على أن تمسك الدول عن إصدار الألومنيوم إليها ، وهو المعدن الذي تستنبطه إيطاليا من مناجمها وتُصدر منه الى الدول ما يفضُل عن حاجتها . بيد أن الانتخابات ما كادت تنتهي في مصلحة الوزارة القومية حتى أعلن مشروع هور — لافال في ديسمبر ١٩٣٥ وهو يمنح موسوليني قسماً كبيراً من الحبشة ويجعل الباقي منطقة للنفوذين البريطاني والفرنسي . وقد أثار هذا المشروع سخط الشعب البريطاني حتى لقد طرد صمويل هور من الوزارة .

لقد كان في وُسع الوزارة البريطانية أن ترسل الى أهالي الحبشة ما يحتاجون إليه من مال وعتاد بدلاً من تركهم للايطاليين يجندونهم لمقاتلة البريطانيين وإجلائهم عن الصومال

البريطاني . وكان في وسعها ، وهي المسيطرة على مدخل البحر الأحمر ، أن تمنع الأمداد عن أولئك الـ ٤٠٠٫٠٠٠ من قطّاع الطرق وعمال الطرق بدلا من أن تتركهم يقطعون عليها طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن إثارتهم العرب عليها ليقطعوا الطريق البرية التي تبدأ من الخليج الفارسي الى قناة السويس مارّة بالعراق وشرق الأردن وفلسطين .

وهكذا استمرّت الحرب الظالمة التي لم يُرد أحد منعها ، حتى فتح الجيش الايطالي العاصمة أديس أبابا في ربيع ١٩٣٦ . وقد قال مستر إيدن وزير الخارجية ، في مجلس العموم في ١٨ يونيو ١٩٣٦ « يجب علينا أن نعترف أن الغرض الذي قصدنا اليه من فرض العقوبات لم يتحقق ، وليس من الضروري أن ندلي بتفصيلات عن أسباب ذلك ، ولكن أحد تلك الأسباب أن ذوي الرأي من رجال الحرب في معظم الدول أساءوا التقدير إذ حسبوا أن هذا النزاع سيدوم أطول كثيراً مما كان ... » . ومعنى هذا أن الذين فرضوا العقوبات لم يكونوا يريدون بها وقف الحرب الاعتدائية ، بل كانوا يبغون بها إطالة أمدها . وقد أجاد أحد الصحفيين إذ كتب متهكماً أن مستر إيدن قد شكا من « أن هؤلاء الزنوج الملعونين خانوا واجبهم نحو الإمبراطورية لكي ينقذوا عصبة الأمم » .

حرب إسبانيا

وما أسرع ما انكشف الستار عن مأساة إسبانيا التي لعب هتلر وموسوليني أهم أدوارها . لقد استورت نار الحرب الأهلية في تلك البلاد في يوليو ١٩٣٦ فقد تذمر ضباط الجيش من الإصلاحات التي قامت بها الحكومة الجمهورية التي تلت دكتاتورية بريمو دي ريفيرا ووجدوا في ذلك غضا من مركز أسرهم في المجتمع . إذ كان الضباط في العهد الملكي يختارون من أبناء الأشراف الأقطاعيين وكبار الملاك والصيارفة . فارتمت هذه الطائفة من أصحاب الامتيازات — كما هي العادة — في أحضان مستعمر أجنبي ، في أحضان موسوليني الذي لم يكن قد تكشف بعد عن طبل أجوف . وقام الضباط العصاة بالفتنة فانبرى لهم عمال المناجم والمصانع متسلحين بما استطاعوا أن يحصلوا عليه من السلاح

ودافعوا عن وطنهم وطبقتهم أمجد دفاع ، وناهيك بما ألحقوه بالايطاليين من الهزيمة التاريخية في وادي الحجارة .

وقد كان ثمَّ خطرٌ أن تحتلَّ جيوش هتلر وموسوليني جبال البرانس ، حتى لقد طالب أركان حرب الجيش الفرنسي ببناء خط ماجينو في البرانس ، كما كان احتلال الجنود الايطالية لجزائر البليار يهدد طرق فرنسا البحرية الى مستعمراتها في إفريقيا . ومن الواضح أن ايطاليا لم تنفق وحدها ٤ ملايين من الليرات دون أن تكون لها أطماع خاصة (كان سعر المائة ليرة إذ ذاك ١٠٥ قرش ، أما الآن فهي لا تساوي كثيراً) . ولكن وزارة الخارجية البريطانية القابضة على دفة السياسة الخارجية الفرنسية ، كانت تنظر في سرور الى هذا العصيان المسلح ، فكلما فشا الدمار في اسبانيا أصبح جبل طارق أقل تعرضاً للهجوم عليه من البر الأسباني ، وكانت تأمل أن تسيطر على اسبانيا فيما بعد بما تستطيع أن تبذل لها من قروض يعجز موسوليني عن بذل مثلها ، فهي تترك دافعي الضرائب الايطاليين يدفعون نفقة ذلك العصيان المشئوم لكي تجني هي ثمرته وأرباحه بمهارة الصيرفيّ القدير ، ولذلك أعلنت بريطانيا وفرنسا أنهما لن تتدخلا في النزاع (دون أن تأبه بريطانيا لما نال بعض رعاياها من اعتداء وما أصاب تجارتها من كساد) وهذا الإمساك عن التدخل يذكرنا بإمساك الشيطان « مفيستو فيليس » عن التدخل في المبارزة بين فاوست وشقيق عشيقته مرجريت [1] . ولما تدخّل الاتحاد السوفييتي في الأمر بعد ذلك لمصلحة الحكومة التي انتخبها الشعب ، أبدت حكومتا بريطانيا وفرنسا تضجرهما من هذا التدخّل . وقد شرح ستالين سياسة الدول الديمقراطية في الامتناع من التدخّل ، فقال « قد يفسرون سياسة عدم التدخّل على النحو الآتي : فلندع كل دولة تذود عن نفسها قدر استطاعتها فليس هذا من شأننا ، وسنتّجر مع المعتدين وضحاياهم على السواء . إن هذه السياسة ، من الناحية العملية ، إن هي إلاّ إغضاء الطرف عن الاعتداء وإرخاء العنان للحرب ، ومن ثمَّ تحويل الحرب الى حرب عالمية » .

وقد لاذ ستالين بالدّعة ، رغبةً منه في ألاَّ يفسد سياسته مع الغرب ، ولم يحرّك ساكناً إلاّ بعد أن صار من الجليّ أن ايطاليا وألمانيا تتدخلان في الأمر . وكان يعلم أن انتصار الفاشيين

(١) في رواية « فاوست » تأليف جوته

في اسبانيا يعرّض حليفته فرنسا للأخطار، فشرع يرسل الخبراء الحربيين السوفييتيين إلى الجيش الجمهوري. وأخذ الشيوعيون يكتّبون الكتائب من شتى الأمم لمقاتلة البغاة، فأبدى سادة انجلترا وفرنسا استياءهم من هذه اليقظة السوفييتية وأعلنوا اقتناعهم بأن ألمانيا وايطاليا إنما تقاتلان ذياداً عن الحضارة الغربية. وهكذا اندفع حكام الدول الديمقراطية يخدمون أبعد أغراض خصومهم عن الديمقراطية.

وبينما كان الجمهوريون الاسبانيون ينادون أن افتحوا الحدود وساعدونا بالعتاد، كانت السيتي City (دوائر أصحاب رؤوس الأموال في لندن) تبدي عطفها على فرنكو صراحةً، وكان الرجعيون الانجليز والفرنسيون، وفي مقدمتهم تشمبرلن وبونيه، يتحرّقون رغبةً في أن يروا ذلك الدفاع المفعم بالبطولة قد انقضى. وقد دأبت الصحف الرجعية في بريطانيا وفرنسا تحض الجمهوريين على إلقاء السلاح وتذيع أنباء خلافات تزعم اضطرام نارها بين رجال الحكومة الجمهورية، وكانت في بعض الأحيان تلتمس من الحكومة البريطانية أن تسعى بالوساطة بين الفريقين.

وسار هتلر في طريقه قُدُماً فانقضّ بجيوشه على الجمهورية النمسوية. فلما اقترح الاتحاد السوفييتي بهذه المناسبة في ١٧ مارس ١٩٣٨ أن تعقد الدول غير المعتدية مؤتمراً يعمل على توطيد السلام، أبت ذلك بريطانيا وفرنسا.

وانتقل مسرح المأساة إلى تشكوسلوفاكيا، فألقى هتلر في مؤتمر النازيين بنورمبرج خطاباً حمل فيه على تلك الجمهورية الصغيرة حملة منكرة وتهدد الدول الضامنة لها وأعلن أنه قد اعتزم «حماية» السوديت (الذين نزح أسلافهم من ألمانيا الى الجنوب) وكان ذلك الخطاب إشارة الهجوم، فهبّ السوديت يهاجمون مسالح الشرط ودور البريد ومحطات السكك الحديدية ويطلقون الرصاص على أبناء الشعب الذي آواهم فأحسن مثواهم، وطفقوا يلوّثون الأبنية برسم الـ «سفاستكا» (الصليب المعقوف) وأبى زعيمهم هنلاين قبول ما اقترحته براج من مشروعات يراد بها تنظيم حقوق الأقليات، ودأب يثير الشغب، ممثلاً في تشكوسلوفاكيا الدور الذي مثله فرنكو في اسبانيا وسايس إنكوارت في النمسا.

وسنت الحكومة التشكوسلافية الأحكام العرفية، ووقعت بتأثير الرأي العام في بلادها

وفي العالم موقفاً حازماً فالتاث الأمر على هتلر .

ولم يسع نفل تشمبرلن أن يقف ساكناً في هذا المأزق الذي زجّ بنفسه فيه ، فبادر بالرحيل الى مقر « الزعيم » في برشتسجادن ليقبل عثرته وليقر إجراء استفتاء بين التشيك .
لقد كانت سياسة انجلترا ، وسياسة فرنسا تبعاً لها ، قائمة على التسليم للمعتدين ، تسليم تشكوسلوفاكيا لألمانيا ، وتسليم فلسطين للصهيونيين ، وتسليم الاسكندرونة لتركيا ، وتسليم مقاليد بلادهما للرأسماليين . وقد كان هتلر على علم بذلك وكان يعتمد على ضعف الروح المعنوية في الحكومات الرأسمالية الديمقراطية أكثر مما يعتمد على قوته الحربية .

وقد أعلن الرفيق كالنين رئيس الاتحاد السوفييتي في ١١ مايو ، وأعلن سفير الاتحاد السوفييتي في الولايات المتحدة الامريكية في ٢٥ أغسطس ١٩٣٨ أن الاتحاد السوفييتي غير ناكل عن تنفيذ عهوده لفرنسا وتشكوسلوفاكيا بنصها وروحها ، ولكن هذا القول لم يلقَ أذناً واعية . فلما استغلظت الأزمة بعد ذلك في النصف الأول من سبتمبر ، اقترح الاتحاد السوفييتي في جنيف أن يقوم هو وبريطانيا وفرنسا بعمل مشترك لمصلحة التشك وأن تطبق المادة ١١ من ميثاق عصبة الأمم ، بيد أن بريطانيا وفرنسا وقَرَت آذانهما عن استماع هذا الصوت مرة أخرى .

مؤتمر ميونخ

وعقدت ألمانيا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا مؤتمراً رباعيًّا في ميونخ ، مغفلين دعوة الاتحاد السوفييتي اليه ليحبطوا بذلك سياسة التعاون بينه وبين الدول الغربية ، وقد داست بريطانيا وفرنسا على عهدهما لتشكوسلوفاكيا وأبتا أن تحاربا من أجلها متآزرتين مع الاتحاد السوفييتي . وطابت أنفسهما أن يقدما ، عربوناً لصداقة المانيا المنشودة ، حليفتهما الصغيرة التي كانت بجبالها البوهيمية وتحصيناتها الحديثة وتسليحها الكامل ، سياجاً منيعاً يحول بين المانيا والتقدم نحو الشرق .

وتسلمّ الجيش الالماني خط التحصينات العظيم المشيد على صورة خط ماجينو واطلعوا

فيه على كل أسرار خط ماجينو . قال موريس توريز في خطبة له «إن يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ سيكون في التاريخ ذكرى مخجلة لأفظع خيانة للشعب الفرنسي ، ارتكبتها حكومة جمهورية تحوه ونحو السلام والديمقراطية .... إن أولئك الذين كانوا يصلوننا نار الحرب ونحن نقاوم أخطاء معاهدة فرساي وما يمكن أن ينجم عنها من أخطار قد راحوا اليوم يؤيدون هتلر ويقرّون مطالبه . إن تشمبرلن يريد أن يجعل من هتلر حارساً لأوربا الرأسمالية الجديدة في وجه الطبقة العاملة والاتحاد السوفييتي . ألا فاسمعوا ما تقوله جريدة لجور ، تقول : إن مزية هذا الاجتماع الأساسية هي أن الاتحاد السوفييتي قد حرم حقّ الاشتراك فيه ، ولن يكون أكثر من هذا العمل لأبعاد الاتحاد السوفييتي عن أوربا ورجعه الى آسيا والى نضالاته الداخلية » .

لقد تردّت فرنسا في حضيض الخزي والاستكانة إذ أظهر وزير خارجيتها بونيه استعدادها للتخلي لألمانيا عن نفوذها في شرق أوربا وأقرّ فون ربنتروب على أن الاتفاق الذي عقدته هي والاتحاد السوفييتي إن هو الاّ « استمرار لسياسة فرساي التطويقية» . أما بريطانيا فقد كانت ما تزال في غفوتها سعيدة بحلمها اللذيذ أنّ هتلر لا يريد أكثر من أن يعيد سائر أبناء «شعب السادة» Herrenvolk الى أحضان بلاده ، يسيطر عليها اعتقادها المريح بأن « السلم يسود وقتنا هذا » . وهكذا ألفى الاتحاد السوفييتي نفسه في خريف ١٩٣٨ بلا حلفاء ، وكان الخطر محدقاً به ، فلم يستطع أن يفعل لتشكوسلوفاكيا شيئاً .

وحرّكت « ميونخ » شهية ألمانيا إلى أن تزدرد دولاً جديدة ، واحدة بعد أخرى ، على أن يسوى الأمر في ميونخ ثانية وثالثة ، فأخذت ترفع الصوت عالياً مطالبة بما كان لها من مستعمرات وطفقت تتحدث عن أكرانيا وتبذل نشاطاً خبيثاً بين الأكرانيين الذين أقيظتهم الثورة الى برلين . بل إن إيطاليا نفسها ملأت الجو بعواء «أبناء آوى» تطالب بأن تمنح إقليم سافوا وجزيرة كورسيكا وتونس وامتيازات في قناة السويس، وبأن تنزل فرنسا لها عن سكة حديد أديس أبابا — جيبوتي . على أن الأمر لم يقف بالألمان عند حد الأحاديث ، فقد تحرّك الجيش الألماني في منتصف مارس ١٩٣٩ واجتاح ما كان قد بقي من دولة التشك ، فبدّد ضجيج دباباته في براج أحلام الناعمين في لندن وباريس . حتى إذا ما أتم الفيرر Führer ابتلاع

تشكوسلوفاكيا افتضح الميونيخيون الذين كانوا يتشدّقون بأن الحل الذي جادت به ميونخ ظفرٌ لسياسة « المنطق والروية » ، فأخذوا يعصرون أعينهم ويجاهرون بأن عهود هتلر إن هي إلاّ قصاصات من الورق لا وزن لها ولا يصح بعد أن يركن اليها . ومع ذلك وقف سير جون سيمون ، أسوأ من ولي وزارة الخارجية البريطانية ، في مجلس العموم يوم ١٥ مارس وهو اليوم الذي اغتصبت فيه براج ، وطفق يندد بسياسة الضمان الجماعي الذي كان هو الخلاص الوحيد مما وقعت فيه أوربا الديمقراطية . ولم يدع هتلر الوقت يمر سدًى، بل وجه الى رومانيا إنذاراً بأن تبيع من ألمانيا كل ما تنتجه من زيت الوقود ومن المواد الغذائية، على أن تأخذ في مقابله مصنوعات ألمانية ، ويطلب اليها أن تقصر جهودها على إنتاج المواد المطلوبة منها وأن تتخلى عن كل مسعى لأن تكون دولة صناعية ، ويعدها في مقابل قبول هذه الطلبات بأن « يضمن حدودها » ، وذلك يعني في لغة المغتصبين أنها إن أبت أضحت حدودها بلا ضمان .

وذهب سفير بريطانيا لدى موسكو في ١٨ مارس ١٩٣٩ يبلغ الحكومة السوفييتية أن لدى دولته من البواعث ما يحملها على الخوف من أن تهاجم ألمانيا رومانيا ويسألها ما عسى أن يكون موقفها بإزاء هذا التهديد ؟ فكان جوابها أن قدّمت مقترحاً يشبه المقترح الذي قدَّمته عقب غزو ألمانيا للنمسا في مارس ، والذي لو قبلته بريطانيا وفرنسا لما كان ثَمَّ ميونخ ، كما أنه يشبه المقترح الذي قدَّمته عند ما احتدمت الأزمة التشكوسلافية فكان نصيبه الردّ . كذلك اقترح الاتحاد السوفييتي في هذه المرة أن يعقد ببخارست في الحال مؤتمر سداسي يضم ممثلي بريطانيا وفرنسا وبولونيا ورومانيا وتركيا والاتحاد السوفييتي للنظر في الأمر والبتّ فيه .

لو أن هذا المقترح ظفر بالقبول لما كانت الحرب في تلك السنة لأن هتلر كان مصرًا على أن يتجنب الحرب في جبهتين كما ثبت ذلك من تصرفاته التالية ، إذ أنه لم يشن الحرب على الاتحاد السوفييتي إلاّ بعد أن سدّ الطريق اليه بافتتاح البلقان وكريت وبالاتفاق مع تركيا . وقد استمرّ بعد ذلك يحارب في جبهة واحدة هي الجبهة الروسية ، فاذا حدث بعد ذلك أن وقعت حرب في جبهة ثانية فسيكون ذلك نتيجة شيء واحد هو سوء تقديره لقوة الاتحاد

السوفييتي) ، ولـكن مستر تشمبرلن كان ما يزال راغباً في إطلاق يد المانيا في الشرق ، فلم يقبل هـذا المقترح زاعماً أن المؤتمرات تستغرق وقتاً في حين أن الأمر يحتاج الى سرعة في العمل ، ولذلك اقترحت بريطانيا أن تدلي هي وفرنسا والاتحاد السوفييتي وبولونيا بتصريح مشترك . فماذا كان يتضمنه ذلك التصريح ؟ لقد كان يتضمن — على ما نشرته التيمس في ٢٣ مارس — « اتفاقاً على المشاورة إن حدث ما يدعو اليها » وهو تصريح رنّان ولـكنه لا معنى له ، بل هو يعني إعلان أن بريطانيـا لا تنوي أن تفعل شيئاً . ومع ذلك أبدى الاتحـاد السوفييتي رغبته في أن يوقع على هذه الوثيقة رؤساء الوزراء ووزراء الخارجية ، بيد أن الحكومة البولونية ، أبت أن يوقع ممثلوها على أية وثيقة تحمل توقيعات زعماء الحـكومة السوفييتية ، وهكذا اخترم الموت هذا المسعى ساعة ميلاده . وذاقت بولونيا ثمار حماقتها بعد أشهر معدودات .

وقد رأت الحـكومة السوفييتية أن تحاول التفاهم مع الدول الديمقراطية مرة أخرى ، فاقترحت في ١٧ أبريل أن تعقد هي وبريطانيا وفرنسا ميثاقاً ثلاثيـاً لمقاومة الاعتداء حيث يكون ، فتجاهلت بريطانيا هذا المقترح .

ورأت المانيا أن تدعم مركزها بالعودة موقتاً الى سياسة ڤيمر الذهبية(١)، سياسة التعاون مع الاتحاد السوفييتي في الشؤون الاقتصادية والسياسية ، وانصرفت عن التغرير ببولونيا وحفزها الى اقتطاع قسم من أكرانيا . وعرضت على الاتحاد السوفييتي في أوائل سنة ١٩٣٨ أن تعقد معه معاهدة تجارية تقرضه بمقتضاها ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠٠ مارك فأبى ، فأعادت المانيا اليه مقترحها معدلاً في أواخر تلك السنة .

وأراد الاتحـاد السوفييتي أن يحـذّر بريطانيا وفرنسا التحذير الأخير فأعلن مفوض الشعب للشؤون الخارجية أمام مجلس السوفييت الأعلى (البرلمان) في ٣١ مايو ١٩٣٩ أن بلاده على وشك أن تدخل مع المانيا في مفاوضات . ولـكن الدولتين الرأسماليتين لم تستطيعا أن تتصورا أن هتلر سيوجه اليهما ضربته الأولى ، وحسبا أن البلاشفة يقومون بمداورات يبغون بها رفع ما يتقاضون من ثمن ، فوضعا أصابعهما في آذانهما وأصرّا على تجاهل دعوة الاتحاد السوفييتي إياهما الى محالفته ، كما أنهما لم ييأسا من إمكان التفاهم مع المانيا وايطاليا .

(١) وهي المدينة التي وضع فيها الدستور الالماني بعد الحرب العالمية الاولى

مفاوضة بريطانيا

والاتحاد السوفييتي

بيد أن الشعب الإنجليزي ثارت ثائرته وأكره وزيره الأول على أن يفاوض الاتحاد السوفييتي لتنظيم جبهة سلام عملية في وجه الاعتداء. على أن الوزير لم يكن يريد أن يصل الى نتيجة، ولهذا اختار لتمثيل بلاده موظفاً صغيراً وزوّده بأسوأ النصائح والإرشادات. اقترح ممثلو الاتحاد السوفييتي إقامة جبهة منه ومن بريطانيا وفرنسا وكذلك من بولونيا إن أمكن، على أن تقدم كل من هذه الدول مساعدتها الأخريات. فأما بريطانيا فقد تحامت الإشارة الى المساعدة المتبادَلة وطلبت الى الاتحاد السوفييتي أن يبادر الى إنجاد بريطانيا وفرنسا إذا اشتبكتا في حرب تحقيقاً لضمان استقلال بولونيا ورومانيا، دون أن تشير الى أنهما هما أيضاً تقومان بمساعدة الاتحاد السوفييتي إذا اشتبك في حرب تحقيقاً لضمان استقلال دول أوربا الشرقية، وبذلك، كما قالت صحيفة إزفستيا، « نرى أن الاتحاد السوفييتي لن يكون — نتيجة للمقترح البريطاني — على قدم المساواة مع بريطانيا وفرنسا. وهنالك أمر على جانب كبير من الخطر، ذلك أن الرد على الاعتداء سيكون منوطاً بقرار من بريطانيا وحدَها، أو من فرنسا وحدَها، مع أن الاتحاد السوفييتي — بسبب وضعه الجغرافي — هو الذي سيتحمل عبء العمل في هذا الرد ».

***

وقد نشرت صحيفة برافدا في ٢٩ يونيو مقالاً هامًّا بقلم زدانوف Zhdanov رئيس لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان السوفييتي والسكرتير باللجنة المركزية للحزب الشيوعي، تضمن إنذاراً صريحاً لحكومات الدول الديمقراطية الغربية، وقد أوضح فيه أن البريطانيين والفرنسيين ليسوا خالصي الرغبة في عقد ميثاق بالمساعدة المتبادَلة ومقاومة الاعتداء الفاشي مقاومة حقة، وذكر أنه من بين الخمسة والسبعين يوماً التي استغرقتها المفاوضات ١٦ يوماً

قضاها الاتحاد السوفييتي في إعداد أجوبته ومقترحاته في حين أضاع الفرنسيون والبريطانيون ٥٩ يوماً . واتهم حكومتيهم بأنهما تريدان عقد ميثاق ذي ناحية واحدة ، يلزم الاتحاد السوفييتي بمساعدتهما عند الحاجة دون أن يقيدهما بتقديم أية مساعدة في مقابل ذلك «وهو ميثاق لا يمكن أن توقع عليه دولة تحترم نفسها » .

***

وقد علّق لويد جورج في جريدة سنداي اكسبريس على سير المفاوضات ، فقال في عُرض كلامه « تسير مفاوضاتنا مع روسيا منذ ٤ أشهر متلكئة ، وهي تبدو الآن بعد هذا الزمن الطويل أسوأ مما كانت حين ابتدأناها ... والحقيقة التي أراها أن مستر تشمبرلن ولورد هليفكس وسير جون سيمون يكرهون الاتفاق مع روسيا . ولولا ذلك لما أشخصوا للمفاوضة كاتباً من كتبة وزارة الخارجية . وقد كان على مستر تشمبرلن أن يقصد بنفسه الى موسكو لعقد الاتفاق، وإنه لموفور النشاط جم الحركة، سافر قبلُ ٣ مرات الى مينوخ وتوجّه بالزيارة مرة الى موسوليني ليبشره بالاعتراف بفتحه للحبشة وليطمئنه على مصير إسبانيا ، فلِمَ لا يسافر بنفسه الى روسيا ولِمَ لا يسافر لورد هليفكس أيضاً ؟ » .

وقد اقترح البلاشفة على بريطانيا أن ترسل اليهم بعثة حربية ، وكانت أزمة دانتسيج تتفاقم باطراد وكانت سائر الأحوال والملابسات تجعل إرسال هذه البعثة في التو أمراً لا مندوحة عنه ، غير أن البعثة لم تخفّ للسفر الا في ٥ أغسطس ثم إنها انتخبت لرحلتها أطول الطرق حتى إذا ما ألقت رحالها تبين أنها لا تملك حق البت في أي أمر ، ومن ثمّ كان عليها أن تتصل بحكومتها في كل ما يعرض لها ثم تنتظر تعليماتها .

وانتهى الأمر بأن أبت حكومة بولونيا أن تقبل أي ميثاق يُبيح للجيش الأحمر أن يساعدها فوق أراضيها ، وأعلنت الحكومة البولونية أن بولونيا مستعدة وقادرة على أن تقاوم أي اعتداء ألماني دون مساعدة السوفييت .

***

بذل الاتحاد السوفييتي حتى ربيع ١٩٣٩ كل ما وسعه في سبيل السلم ، لا يثنيه عن

ذلك ما تواجه به مساعيه من ردٍّ مهين وجحودٍ شائن . لقد رزئت الدول الديمقراطية (أو البلوتوديمقراطية كما كان يسميها هتلر إشارة الى أنها محكومة برأس المال) في السنوات السابقة للحرب بساسة حمقى وغيرت صدورهم على الاتحاد السوفييتي فطمست السخيمة على قلوبهم فقصروا عن إدراك مرامي الفاشية وكلّت أبصارهم عن رؤية الخطر الزاحف على بلادهم فلبثوا يشهدون في شبه غيبوبة مصرع الديمقراطية في أوربا ، ويرون في هدوء جمهوريات النمسا وتشكوسلوفاكيا وإسبانيا تسقط صريعة تحت أقدام أولئك الطغاة ، العاملين على بسط سلطانهم على العالم أجمع .

***

تفاقم قلق الكرملين في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فإن الميثاق الذي عقدته ألمانيا واليابان في نوفمبر ١٩٣٦ قد انتظم ايطاليا أيضاً في السنة التالية ، وظلّ الداعون الى مصادقة المحور يزعمون أن هذا الحلف لم يبدّل من حالة أوربا شيئاً ، ويصمّون آذانهم عما أنذرهم به البلاشفة من أن هذا الميثاق المعادي للكومنترن ينطوي على تحالف مناوىء لبريطانيا وفرنسا . وقد استبدلت بوزارة الجبهة الشعبية في فرنسا وزارة راديكالية . وأخذت معركة الصين تدور في غير مصلحة حليفة الاتحاد السوفييتي . وقد سعى مستر تشمبرلن في ميونخ ، هو ومن معه من أنصار التهدئة ، لا في أن يقهروا التهديد الألماني، بل في أن يحوّلوا اتجاه مجراه من الغرب الى الشرق ، وفي أن يمهدوا السبيل لاشتراك بريطانيا في شنّ الحرب على الاتحاد السوفييتي الى جانب ألمانيا ،

***

وقد أبى البلاشفة أن يحالفوا النازسي على الدول الديمقراطية ، فأما هذه فانفكت تأبى العمل مع البلاشفة وتسعى الى إحباط جهودهم في سبيل الضمان الجماعي ، وظلت مستمسكة باعتقادها أنها تستطيع أن توجّه جيوش الفاشيين نحو الاتحاد السوفييتي بعد انتهائها من ابتلاع الشعوب الصغيرة . ولم يكفّوا عن مكاشفة الاتحاد السوفييتي بالعدوان حتى بعد أن كبت النازسي عواطفه وسارع الى الاعتراف بحدود الاتحاد السوفييتي .

ميثاق عدم الاعتداء

يئس الاتحاد السوفييتي من الحلفاء بعد أن ظلوا يقابلون مقترحاته بالزراية والاحتقار وعلم أن الاستمرار في اتباع سياسة الضمان الجماعي التي لاقت خيبة مستمرة من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٣٩ ، يعرّضه للاصطلاء بنار حرب صليبية يقف فيها وحيداً ويتألب عليه الجميع ، فلم يجد بدًّا من اهتبال الفرصة الأخيرة للتنكب عن طريق الحرب في هذا الطور من التاريخ الذي كانت الحرب الاستعمارية فيه موجهة الى الدول الديمقراطيـة التي أبت في إصرار أن تبسُط يدها اليه ، ولاتقاء خطر تحويل سكة حديد الحرب الى بلاده . لذلك أقدم على مفاوضة ألمانيا ، وكانت مفاوضـة سهلة يسيرة قوي فيها مركزُه بوجود وفد بريطانيا في موسكو . ولم يكن الألمان يريدون من الاتحاد السوفييتي غيرَ الحياد ، وكان الاتحاد السوفييتي منذ نشأته على استعداد لعقد مواثيق بعدم الاعتداء مع كل دولة ترغب في ذلك . وهكذا أمضت الدولتان ميثاق عدم الاعتداء في ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ وبذلك بدأت فترةٌ جديدة في حياة الاتحاد السوفييتي .

وارتجت الدول الرأسمالية الديمقراطية من هول الصدمة ، وهبت من سباتها وقد طرقت الحرب عليها الأبواب لتذيقها ثمار سياستها .

وقد أوضح مولوتوف الموقف في ٣١ أغسطس ١٩٣٩ بين يدي مجلس السوفييت الأعلى إذ كان يطلب اليه إقرار ذلك الميثاق ، فقال « ولما كانت المفاوضات (مع الحلفاء) قد أظهرت استحالة قَبولهم عقد ميثاق للمساعدة المتبادَلة ، لم يسعْنا إلا أن نبحث عن وسائل أخرى ممكنـة لتأمين السلم ولإزالة خطر اشتباك ا . ج . س . ا في حرب مع ألمانيا ، فإذا كانت حكومتا بريطانيا وفرنسا تأبيان الاعتراف بذلك فهما وشأنهما . أما نحن فواجبنا أن نفكر في مصالح ا . ج . س . ا ولاسيما أننا مقتنعون اقتناعاً راسخاً بأن مصـالح ا . ج . س . ا تطابق مصالح شعوب البلدان الأخرى » .

لم يتخلَّ الاتحاد السوفييتي بعقده هذا الميثاق عن شيء من مبادئه الماركسية — اللنينية ،

كما أنه لم يحد بالتزام الحياد الدقيق عن خُطته في تأييد الشعوب التي يُعتدى عليها (كما أيد الأسبانيين الجمهوريين على الألمانيين والايطاليين وصنائعهم) وكما أيد الصينيين على اليابانيين ولم يكفّ عن تأييدهم حتى بعد أن عقد مع اليابان ميثاقاً بعدم الاعتداء ، وكما أبدى استعداده لتأييد التشك على الألمان إذا وفت فرنسا بالتزاماتها نحو تلك الحليفة الصغيرة) .

ولا يدل وضع مولوتوف على رأس مفوضية الشعب للشؤون الخارجية في المكان الذي كان يشغله لتفينوف — على الانثناء عن الاتجاه السياسي السابق ، فليس الاتحاد السوفييتي كالدول الرأسمالية يستطيع كل وزير أن يجري فيها على سياسته الخاصة أو سياسة الكتلة التي ينتمي اليها ، بل إن مفوضيـة الشعب للشؤون الخارجيـة تتبع السياسة التي تضعها الحكومة السوفييتية والحزب الشيوعي . وإنما كان هذا الحياد أمراً عارضاً اقتضته الملابسات السياسية الطارئة وحاجة البـلاد الى « مهلة للتنفس » فهو لا يعني الأخلاد الى السلم بل لعله أن يعني التأهب للحرب . وإنه لمن الخطأ أن يُقال إن الاتحاد السوفييتي قد شايع ألمانيا بعقد هذا الميثاق ، كذلك كان من الخطأ أن يقال إنه كان يشايع بريطانيا حين كان ينشد الضمان الجماعي وإنما الحق أنه كان ولا يزال يشايع شعبه ومبادئه وحدها .

لقـد أظهر عقدُه هذا الميثاق يقظة السياسة السوفييتية وحماقة الساسة الديمقراطيين ، أولئك الذين أبوا أن يحالفوا الاتحاد السوفييتي متجافين عن كل ما لهذا التحالف من المزايا التي اهتبلها منافسوهم الفاشيّـون .

وقد تجرّم منذ عُقِـد هذا الميثاق سنوات عِدّة، ففي مقدورنا الآن أن نحكم على نتائجه حكماً منزهاً عن الهوى :

(١) ربح الاتحـاد السوفييتي بقاءه بعيداً عن لظى الحرب ١٨ شهراً ، ولولا انهيار فرنسا وحلفائها ذلك الانهيار السريع الذي لم يكن يتوقعه أحد ، لامتدّ وقوفه بعيداً عن الحرب زمناً بعيداً . وقد أكمل الاتحاد السوفييتي في هذه الفترة تأهّبه لملاقاة الغزو الألماني ، فان ميثاق عدم الاعتداء لم يُزحزح الجيش الأحمر عن شعاره « كن دائماً على أهبة ؟ » .

وقد زاد الاتحاد السوفييتي عدد ساعات العمل اليومي واختزن ما يحتـاج اليه من المواد ولا سيما ما يستورده من الخارج ، ونظم اقتصاده تنظيماً أكثر ملاءمة لأوقات الحرب .

—٤—

(٢) أحسنت القيادة الحربية السوفييتية مراقبة الأسلحة والخطط الحربية الحديثة التي استخدمها الجيش الألماني في غزو بولونيا والأراضي الواطئة وفرنسا ، فأعدّت من الخطط الدفاعية ما يصلح لإحباطها (وذلك على نقيض ما فعل الجيش الفرنسي الذي لم يقتبس علماً من غزوة بولونيا ، وركن الى الزعم بأن انهيار بولونيا إنما كان من فساد الجيش البولوني وانحلاله لا من تقدم الفن الحربي الألماني وارتقائه .

(٣) ضمن ا. ج. س. ا. اضطرار أمريكا الى خوض غمار الحرب في زمن مبكر بعض الشيء حتى لا تضيع الفرصة الأخيرة لإنقاذ بريطانيا كما أضاعتها مع فرنسا . وضمن أن تكون سائر الديمقراطيات في صفه عندما يحين لألمانيا أن تنتهك حرمة الميثاق المعقود بينهما وتنقضّ على بلاده .

ولو أنه أبى أن يعقد هذا الميثاق لبدأت ألمانيا بحربه ، فقد كانت الحرب ضرورة ماسة لهتلر ، وكان من الميسور له في تلك الحالة أن يظفر بمحالفة الدول الديمقراطية ، تلك الدول التي ظلت ٥ سنوات تأبى أن تعقد ميثاق الضمان الجماعي من المعتدي ، والتي أثبتت في كل فرصة أنها تتربص بالاتحاد السوفييتي شرًّا . ويجب ألاّ ننسى كذلك أن الحرب في الجبهة الغربية قد ظلت بعد انهيار بولونيا ٨ أشهر في فترة هدنة حقة كان من الميسور لهتلر والدول التابعة له أن يحاربوا خلالها . ا . ج . س . ا . وحده في حين يظل كل شيء هادئاً في الميدان الغربي .

(٤) وقد انتهز الاتحاد السوفييتي فرصة خلوّ الدول العظمى للحرب وتوطد نية ألمانيا على ألا تحارب في جبهتين ، فأزال حاجز كليمنسو الصحي الذي ضربه الحلفاء حوله ، واسترد الولايات ذات الخطر الاستراتيجي العظيم ، فتلقت عنه الصدمة الأولى المباغتة بدل أن تتلقاها لنينجراد ، وموسكو ، وستالينجراد ، فكانت تلك الولايات رصيفاً تكسرت عليه أمواج الهجوم الألماني الخاطف ، كما انها منحت الاتحاد السوفييتي بعض الوقت اللازم لاتمام التجنيد العام ، وأتاحت له فوق ذلك أن يعيد الى أحضانه ٢٣٫٠٠٠٫٠٠٠ من أبنائه المشردين ليحاربوا معه بدل أن يساقوا الى محاربته .

غرب أكرانيا

لا شرق بولونيا

وينبغي لنا بهذه المناسبة أن نوضح ما قد يكون ملتبساً على بعض الناس في هذا الشأن:

ما كاد الجيش الألماني يجتاح بولونيا الأصلية ويقضي القضاء المبرم على جيشها ويلجىء حكومتها الى التأهب للفرار ، تلك الحكومة نصف الفاشية التي أبت في عناد أن تقبل أية معاونة من الجيش الأحمر، حتى بادر الجيش الأحمر في ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ فاستعاد منها أكرانيا الغربية وروسيا البيضاء الغربية ، وهما اللتان كانت قد اغتصبتهما من بلاده ، كما أعاد الى لاتفيا البلاد التي كانت بولونيا قد اغتصبتها منها .

وسكان هذين الإقليمين من الروس البيض والأكرانيين (وبينهم عدد كبير من اليهود) لا تربطهم ببولونيا رابطة جنسية أو لغوية أو دينية، ولا تسمح العدالة ولا حق تقرير المصير بضمهم اليها، ولا يقر الضمير الإنساني الحر إبقاءهم في ربقتها . وقد استولت بولونيا على معظم هذه البلاد عقب الحرب مع الجمهوريات السوفييتية (وهي الحرب التي اعتصب فيها حمالو ميناء لندن عن شحن الباخرة جورج الفكه jolly George بالأسلحة التي أريد إرسالها الى الجيش البولوني بمقتضى معاهدة ريجا التي عقدت في مارس ١٩٢١ . وظل سكان تلك البلاد ١٨ عاماً يتحملون — بوصفهم أقليات قومية — الإرهاق والعسف من حكومة نصف فاشية ويتعرضون للسلب والنهب من الإقطاعيين البولونيين الذين هم أجانب عنهم . وقد ذكر لويد جورج في كتابه « الحقيقة عن معاهدات الصلح » الصادر سنة ١٩٣٨ أن مذابح البولونيين قد بلغت في جاليسيا الشرقية سنة ١٩٣٠ (على أثر اشتداد أزمة سنة ١٩٢٩) — ولا سيما في اليهود — مبلغاً أثار ثائرة الشعب البريطاني ، وأن المذابح قد استغلظت بعد موت مارشال بلسودسكي في مايو ١٩٣٥ . وكتبت صحيفة منشستر جارديان في ١٠ أكتوبر ١٩٣٨ تقول : « تجري تهدئة pacification أخرى في أكرانيا البولونية منذ أوائل الربيع

المبكر . ففي خريف ١٩٣٠ هدّأت أكرانيا البولونية بسريّات من الخيالة البولونيين والشرطة الراكبة كانوا ينتقلون من قرية الى أخرى فيلقون القبض على الفلاحين ويضربونهم ويدمرون ممتلكاتهم . وبلغ عدد من ضربوا هذا الضرب آلافاً عدّة . أما في هذه المرة فإن التهدئة تتخذ طرقاً أخرى ، تتخذ صورة حملة عامة مستمرّة على التشكيلات الأكرانية السياسية والتعليمية والاقتصادية » .

***

وقد ظلّ الاتحاد السوفييتي مع هذا كله لا يحرّك ساكناً ، حتى امّحت بولونيا من الوجود ، فتقدّم لاستعادة بلاده المغتصبة المعذبة . وإن « قانون الضرورة » الذي طالما استندت اليه الدول الأخرى في تسويغ أعمالها ، ليسوّغ للمرء أن يدخل بيت جاره لإطفاء النيران قبل أن تلتهم بيته هو أيضاً ، أما هذه الولايات فلم تكن ملك جاره لأنها أقاليم روسية أكرانية، ولأن ذلك الجار كان قد فارق الحياة . وهذا ما سلّم به ونستون تشرشل ، وكان وزيراً للبحرية ، في حديث أذاعه بالراديو في ٢ اكتوبر ١٩٣٩ إذ قال : « . . . أما الحادث الثاني في هذا الشهر فهو إثبات روسيا لمقدرتها ، فأنها قد اتبعت سياسة المنفعة الخاصة . . . ولكن وقوف الجيوش الروسية على هذا الخط كان بالبديهة ضرورياً لتأمين روسيا من التهديد النازي . وعلى أية حال فها هو ذا الخط الروسي هناك . تقوم عليه جبهة شرقية لا يجسر الألمان النازيون على اقتحامها .

. . . عند ما دعي فون ريبنتروب الى موسكو في الأسبوع الماضي كان ذلك لكي يفهم ويقبل الحقيقة التي هي أن خطط النازي المرسومة في بلاد البلطي وأكرانيا قد قضى عليها أن تضمحل وتزول . . . ولا يمكن أن يتفق مع مصلحة روسيا وسلامتها ترسيخ المانيا النازية لقدمها على شواطىء البحر الأسود ولا اجتياحها دول البلطي وإخضاعها الشعوب الصقلبية في جنوب أوربا الشرقي . وهكذا . . . أعلن في هذا المساء اقتناعي بأن الحادث الكبير الثاني في أول شهر من أشهر الحرب هو أن هتلر وكل ما يمثله هتلر تلقى إنذاراً واضحاً بالابتعاد عن شرق أوربا وجنوبها الشرقي » .

ولقد اختار الجيش الأحمر أصلح الساعات للعمل ، فلو أنه تقدّم ولو ٢٤ ساعة ، لكان

في ذلك مساعدة محسوسة للجيش الألماني ، ولو أنه وَنَى ولو ٢٤ ساعة لسبقه الجيش الألماني الى الاستيلاء على تلك البلاد وتاخم حدود أكرانيا التي ما أكثر ما تغزّل فيها هتلر في كتابه « كفاحي » .

ولقد كان في حرمان الجيش الألماني من خيرات تلك البلاد ومن سواعد أبنائها نفع عظيم لبريطانيا وحلفائها ، بيد أن وزارة تشمبرلن أعلنت تحالفها مع حكومة بولونيا المهاجرة في الوقت الذي كانت فيه هذه الحكومة تصرّح أنها في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي .

***

ومن المدهش أن عدداً من أبناء الامبراطورية التي تكوّنت من ضم الأراضي اليها ، أولئك الذين ما فتئوا منذ ٢٠ عاماً يقرفون الاتحاد السوفييتي بكل ما يخطر بالبال من التهم ، قد كشفوا فجأة أنه يختطف الأراضي ويتعامل على نمط الدول الرأسمالية ، وأنهم زعموا أن استرداده لما سلب منه قبلاً إنما هو وليد تواطؤ شامل بينه وبين ألمانيا . فهل هذا حق ؟ لنقرأ البرقية التالية :

« لندن في ١٣ أكتوبر ١٩٣٩ : تنشر الصحف الألمانية اتهامات عن ارتكاب الروس فظائع بالجملة في المناطق التي احتلها السوفييت في شرق بولونيا ، إذ يزعمون أن مئات من القسس قتلوا وأن ألوفاً من المستنيرين وأصحاب الأطيان أهلكوا .

وتقول رسالة من أمستردام أن لهجة جميع الصحف الألمانية تشف عن العداء لروسيا وأن انزعاج الألمان من توغل الروس نحو الغرب يزداد بسرعة وبصورة جلية واضحة » .

لا ريب أنه قد أصبح من الواضح أن هتلر قد صدم صدمة قوية إذ وجد أول مرّة في حياته قوة لا ترهبه ولا تخشاه بل تستطيع أن ترغمه على أن يتجافى عن قسم من أرباحه ومطامعه . ومع ذلك فقد عرفت الإذاعة الألمانية كيف تستغل الحالة لإلهاب مخاوف البريطانيين من أن يكون لميثاق عدم الاعتداء ملحق سري يجعل منه محالفة عسكرية ، فتمادى أعداء الاتحاد السوفييتي في بريطانيا وفرنسا يشنون التهم على رأسه .

الاتحاد السوفييتي يصحح حدوده

الحرب الفنلندية

ولم يلبث الاتحاد السوفييتي دون أن سوّى مسألة دويلات البلطي على نحو مسيء جدًّا لألمانيا ، التي وجدت نفسها مكرهةً على أن تجلب رعاياها من هذه الدويلات لتخليها للدولة التي تنافسها في حلبة السياسة وتعاديها في ميدان النظام الاجتماعي .

وقد كان انضمام هـذه الدويلات الى الاتحاد السوفييتي سلميًّا شرعيًّا ، إذ ظفرت الأحزاب الشيوعية فيها بكثرة أصوات الناخبين وشكلت حكومات أعلنت النظام الشيوعي بموافقة المجالس النيابية ، ثم قدّمت طلبات بأن تنتظم في سلك الاتحـاد السوفييتي فوافق الاتحاد . أنظر البرقية التالية :

« لندن في ٢٢ يوليو ١٩٤٠ : تقول الأنباء الواردة من تالين وكَو ْناس وريجا إنه قامت مظاهرات حافلة تأييـداً للقرارات التي اتخذتها المجالس النيابيـة في إستونيا ولتوانيا ولاتفيا بالانضمام الى الاتحاد السوفييتي » .

ومع أن الحـكومة البريطانية قد أبت قبلُ أن تكفُـلَ اسـتقلال هذه الدويلات (من الخطر الألماني) ومع أنه لم يكن لها فيها نفوذ يُـذكر ، فقد رأى تشمبرلن أن ينتهز الفرصة فيستصفي ما في بلاده من ذهب هذه الدويلات وسفنها . ولم يَـجُـل بخَـلَـد الحـكومة البريطانية أن تعدل عن هذا الموقف إلاّ منذ ٢٢ اكتوبر ١٩٤٠ إذ قدم سفيرها لدى موسكو سير ستافورد كريبس مقترحات معتدلة بعض الاعتـدال ، إلاّ أنه ما كاد يقدمها حتى استصفت الحـكومة البريطانية ١٣ سفينة سوفييتية أخرى .

ويمّم الاتحاد السوفييتي بعد ذلك شَـطر الحـكومة الفنلندية يخاطبها في أمر حدودها المشتركة التي فُـرضت عليه حين نهكته الحرب والمجاعة ، تلك الحدود التي تهدد ميناءه العظيمة ومركز صناعته الهامّ لنينجراد تهديداً خطيراً لقرب ما بينهما . وقد أشار مولوتوف في بيانه الذي ألقاه في ٢٠ مارس ١٩٤٠ أمام مجلس السوفييت الأعلى الى قول التيمس في سنة ١٩١٩

« إذا ألقينا نظرة على المصوّر الجغرافي وجدنا أن خير منفذ الى بتروجراد هو من البحر البلطي وأن أقصر السبل وأيسرها هو من فنلاندا التي لا تبعد تخومها عن عاصمة روسيا إلاّ ٣٠ ميلاً ، ففنلاندا هي مفتاح بتروجراد وبتروجراد مفتاح موسكو »

على أن فنلاندا التي تُربي رؤوس الأموال الأجنبية فيها على أربعة أمثال رؤوس الأموال القومية ، والتي لم تكن هي في واقع الأمر أكثر من مستعمرة لشتى الدول المعادية للاتحاد السوفييتي وبخاصة لألمانيا التي يفرض أسطولها سيطرته على البحر البلطي ، فنلاندا التي استعانت سنة ١٩١٨ بالجيش الألماني على سحق الثورة في بلادها والتي دعت ذلك الجيش الى أن يتخذ من بلادها متبوأً للزحف على أراضي الاتحاد السوفييتي . والتي أظهرت أنها لا تتورّع عن إعادة تمثيل هـذه المأساة كلما تاحت لها الفرصة ، فنلاندا التي ما فتئت تسيّر سياستها الخارجية وفق هوى فلهلم شتراسه (١)

فنلاندا التي أثبتت محاكمةُ بعض الجواسيس أن سفارتها لدى موسكو كانت بريداً لهؤلاء الجواسيس ، تنقل رسائلهم في حقيبتها السياسية الى مراكز الجاسوسية في بلادها ، تلك المراكز التي أنشأتها بعض الدول لتدير منها أعمال التجسس والتخريب الصناعي والاقتصادي في بلاد الاتحاد السوفييتي ، فنلاندا هـذه أخذت تمطل وتمطل في المفاوضة حتى نالت من الدول الحامية لها بعض المعونة الحربية وحتى حلّ الشتاء بزمهريره القارس في تلك الأصقاع القطبية التي يتخللها ما لا عداد له من البحيرات الصغيرة والمستنقعات والغابات مما يتعذر معه قيام الحركات الحربية في ذلك الفصل من تلك السنة ذات القُرّ الذي لم تسجّل المراصدُ مثله من قبل . وتقدّمت الحكومة السوفييتية آخر الأمر الى قائد منطقة لينينجراد بأن يدمّر خط مَنَرْهيم وأن يحتل برزخ كاريليا والأراضي اللازمة لتأمين سكة حديد مُرْمَنْسك . وقد كان يراد بهذا العمل اتخاذ الأهبة للدفاع عن بلادها اذا ما هاجمتها ألمانيا غدراً كما حدث

على أن الميثاق الذي كان الاتحاد السوفييتي قد عقده مع ألمانيا قد يسّر للعناصر الرجعية في الدول الرأسمالية الديمقراطية أن يُبرزوا حملة فنلاندا في صورة عمل مناوىء للحلفاء ، فطفقوا ينفخون في أبواق دعايتهم مظهرين الاتحاد السوفييتي مظهر الدولة المعتدية ،

(١) الشارع الذي فيه وزارة الخارجية الالمانية

مذيعين الأحاديث المستفيضة عن جشع السياسة السوفييتية وتحلل الجيش الأحمر الذي زعموا أنه لا يحسن إدارة الآلات الحربيـة التي اشتراها وأنه يبيع أسلحته من العدوّ بثمن معلوم لكل نوع منها .

لقد وجـد الرجعيون المساكين ولاسيما الفرنسيين منهم ، في تلك الحملة فرصـة ذهبية أرسلتها العناية الالهية لتحويل سير الحرب من كفـاح بينهم وبين ألمانيا الى كفاح بينهما معاً وبين الاتحاد السوفييتي ، فلما انتصر الاتحاد السوفييتي وعقد مع فنلاندا صلحاً كريماً لم يأخذ منها بمقتضاه إلاَّ ماكان قد طلبـه منها قبلُ ، كان من المدهش حقّـاً أن تظل بريطانيا فترة متحفظة في الاعتراف بهذا الصلح ، كما ترى في البرقية التالية :

« لندن في ٢٩ مارس : خطب الرفيق مولوتوف في البرلمان السوفييتي بحضور ستالين وفوروشيلوف فقال : لقد كثرت الأمثلة خـلال الخمسة الأشهر الماضية على عَـداء فرنسا وبريطانيا للاتحاد السوفييتي ... إن حربنا لفنلاندا لم تـكن محضَ كفاح للقوات الفنلاندية إذ أنّـا لم نـكن نحارب القوات الفنلاندية وحدها . بل كنا نحارب قواتٍ استعماريةً مشتركة لطائفة من الدول بينها بريطانيا وفرنسا .

ولقد أعلن مستر تشمبرلن في مجلس العموم يوم ١٩ مارس أسفَـه الشديد على ما أصابهم من خيبة في منع انتهاء الحرب الفنلاندية ، وبذلك كشف العـالم كله عن روحه الاستعماري المحب للسلم »

والواقع أن اهتمام بريطانيا بفنلاندا كل هـذا الاهتمام ، مع أنه ليس لهـا فيها مصالح مباشرة ، مما يحمل على الظن بأنها كانت تفكر حقّـا في استخدامها ذات يوم لأغراض معادية للاتحاد السوفييتي .

وفي ٢٩ مارس ١٩٤٠ : تحدّث مولوتوف الى مجلس السوفييت الأعلى عن « مسألة بسارابيا التي لم يُـقر الاتحاد السوفييتي قط استيلاء رومانيا عليها » .

وقد سلّمت رومانيا مذعنة للإنذار السوفييتي ، فأصلحت الخطأ الذي اقترحته من قبل وسمح لأبناء بسارابيا المنتشرين في أرجاء رومانيا بالعودة الى موطنهم اذا شاءوا ، فتزاحمت الألوف المؤلفـة من العمال الرومانيين أنفسهم على محطـات السكك الحديدية للمهاجرة الى

بسارابيا تخلصاً من عسف الدكتاتورية الرومانية ، فلم يكن من رجال الشرطة الا تهنئتهم بإطلاق الرصاص عليهم .

وهكذا وسع الاتحاد السوفييتي رقعته الى حدوده القديمة على الدانوب ، وأصبح بذلك من الدول التي يحق لها أن تشترك في الإشراف على شؤون هذا النهر المنحدر من أواسط أوربا ، ومن ثمّ فإنه على رغم أنف الألمان الذين تجاهلوا أنه قد أصبح من دول الدانوب أرسل ممثليه الى المؤتمر وأبى أن يسمح للألمان باتخاذ قاعدة بحرية لهم على البحر الأسود الذي يغسل نحو ألف ميل من شواطيء بلاده والذي تصب فيه أربعة من أكبر أنهار بلاده .

وكان من المدهش أن يثور ثائر حكومة تشمبرلن لاشتراك الاتحاد السوفييتي في هذا المؤتمر، وأن تزعم أنه بهذا الاشتراك قد أخلّ بالحياد.

***

وقد طفقت هذه الإساءات الى دولة العمال تتوالى الى ما قبيل غزو هتلر لليونان ، إذ عمل تشرشل (وقد خلف تشمبرلن في ١٠ مايو ١٩٤٠) على أن يجتذب تركيا وسائر الدول البلقانية والاتحاد السوفييتي الى صف بلاده .

***

كان على رأس الدول البلقانية رجال مشايعون للنازيين وان كانوا يؤثرون ألاّ يشتركوا في الحرب ، وقد حاول الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٤٠ أن يعقد محالفات مع هذه الدول ، فأبت بلغاريا ذلك وتحوّلت الى شبه مستعمرة لألمانيا ، فوجه اليها الاتحاد السوفييتي إنذاراً شبه رسمي وأعلن ميثاق صداقة مع الحكومة اليوجوسلافية القصيرة العمر ، تلته الثورة على حكومة البرنس بول المشايعة للنازيين ، ولم يكن ذلك الاّ مظاهرة سوفييتية في وجه تهديد النازيين لمصالحهم .

— ٥ —

حماقة تشمبرلن ودلاديه

كان الأجدر أن تخفف محنة الحرب من تجني المتجنين على الاتحاد السوفييتي وهو يحارب من أجل بلادهم أيضاً . لكنهم أخذوا يندِّدون بالميثاق الذي كانوا هم السبب في عقده ببقائهم ٥ سنوات متتالية يرفضون فكرة الضمان الجماعي ، وزعموا أن الاتحاد السوفييتي قد غدا تابعاً لألمانيا، وأن الحياد السوفييتي إن هو الا تحالف مقنّع ، وهذا ما لم يقرفوا به إسبانيا الفاشيّة التي ظفر رجال الحكم فيها بكراسيهم بفضل جيوش هتلر وموسوليني ، ولا السويد التي استمرّت تبيع ألمانيا كل عام ٦ ملايين طن من الصلب الذي يصلح لصنع الأسلحة . وفي الحق أن مسلك وزارة تشمبرلن نحو الاتحاد السوفييتي هو الذي أضفى على حياد الاتحاد السوفييتي ثوب التشيع للمحور . وقد زعموا أن من الإجرام أن يبيع الاتحاد السوفييتي ألمانيا بعض ما كان يفضل من حاجته ، مع أن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية قد لبثتا حتى الهجوم على بيرل هاربور تبيعان سلعهما الى اليابان حليفة ألمانيا .

لقد كانت سياسة تشمبرلن ودلاديه هذه ممعنة في الحماقة، فقد أوغرت صدور الشيوعيين في بلاد الحلفاء على حكوماتهم فجعلتهم في الأشهر الأولى من الحرب يتراخون في معاونتها، إذ أن حكومتي تشمبرلن ودلاديه كانتا تحاربان الألمان متكرهتين ، ولأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يشفقون أن ينقلب اتجاه سير الحرب فيتنامى الحلفاء ما بينهم وبين المحور ويلتمسون الخلاص من ورطتهم بمؤازرته في محاربة الاتحاد السوفييتي ، وبذلك تكون جهود العمال في المصانع الحربية قد سخرت لتحطيم الاتحاد السوفييتي الذي يعُدّه الكثيرون منهم وطناً روحيًّا وضماناً ماديًّا لهم . ولم يكن الشيوعيين مخطئين في هذا التخوف كل الخطأ ، فاذا كان انهيار فرنسا وحلفائها هذا الانهيار السريع العجيب لم يتح لها فرصة للانضمام الى المانيا ، فليس معنى ذلك أن رجال المال والحكم فيها لم يكونوا راغبين في هذا الانضمام . واذا كانوا قد حالفوا هتلر على أوطانهم وسهلوا لجيشه اجتياحها كي يقضي على الحركة الشيوعية فيها ويعصمهم من أن تصير ممتلكاتهم ممتلكات قومية فإنهم لم يكونوا ليتردّدوا لحظة في محالفته على الاتحاد السوفييتي حصن الشيوعية العالمية ومبعث الخطر الدائم على ثرواتهم وامتيازاتهم

سقوط أوربا الغربية

كان التفكير الميونيخي قد أوهن بناء الدول الديمقراطية فما كاد هتلر يأمر جيوشه بمهاجمتها حتى أخذت تتهاوى كما يتهاوى رماد لفيفة التبغ ، دولة تلو أخرى . وتعوّد الناس أن يقرءوا أمثال هذه البرقيات :

وارسو في أول سبتمبر ١٩٣٩ : بدأت الحرب في منتصف الساعة السابعة صباحاً على جميع الحدود الألمانية البولونية وعلى الحدود السلوفاكية أيضاً .

برلين في ٢٧ سبتمبر ١٩٣٩ : أصدرت القيادة الألمانية العليا بلاغاً رسميًّا جاء فيه أن قائد القوات البولونية في وارسو قد عرض تسليم المدينة والحامية .

بروكسل في ١٠ مايو ١٩٤٠ : اجتازت القوات الألمانية الحدود (في بلجيكا وهولاندا)

لندن في ١٥ مايو ١٩٤٠ : أذاع القائد العام الهولاندي منشوراً يدعو فيه الجنود الى وقف القتال .

لندن في ٢٨ مايو ١٩٤٠ : قال مستر تشرشل في مجلس العموم « ليعلم المجلس أن الملك ليوبولد ملك بلجيكا أرسل أمس رسولاً الى القيادة الألمانية طالباً وقف القتال في الميدان البلجيكي ... وكفّ الجيش البلجيكي عن مقاومة الغزو في الساعة الرابعة من صباح اليوم .

باريس في ٩ ابريل ١٩٤٠ : جاء من نيويورك أن محطة اذاعة كولومبيا قطعت برنامجها في الدقيقة المتممة للأربعين بعد منتصف الليل لتذيع أن الألمان اجتاحوا الدانمارك .

لندن في ٩ أبريل ١٩٤٠ : يقول نبأ من امستردام إن ملك الدنمارك أصدر بياناً . . . دعا فيه الشعب الى الهدوء .

أوسلو في ٩ ابريل ١٩٤٠ : أذاع راديو أوسلو أن القوات الألمانية نزلت الى المواني النروجية في الساعة الثالثة من صباح اليوم .

لندن في ١٠ يونيو ١٩٤٠ : أعلن رسميًّا أن القوات الفرنسية والبريطانية انسحبت من شمال نروج . وقد وصل ملك نروج ورجال حكومته الى بريطانيا .

برلين في ٥ يونيو ١٩٤٠ : أذاع هر هتلر منشوراً أعلن فيه وقوع هجوم ألماني جديد فقال إن الفرق الألمانية وأسراب الطائرات استأنفت القتال صباح اليوم .

روما في ١٠ يونيو : أعلن راديو روما بعد ظهر اليوم أن كونت تشيانو سلّم التبليغ التالي الى سفير فرنسا « إن جلالة الملك الامبراطور يصرح بأن ايطاليا تعدّ نفسها في حرب مع فرنسا ابتداءً من غدٍ ١١ يونيو .

باريس في ١٣ يونيو : أُلصقت على جدران المنازل في باريس إعلانات جاء فيها أن عاصمة فرنسا مدينة مفتوحة وأن جميع التدابير اتخذت لتأمين سلامة السكان وتموينهم .

لندن في ١٧ يونيو ١٩٤٠ : أذاع مارشال بتان اليوم رسالة الى الأمة الفرنسية قال فيها « وإني أخبركم اليوم بقلب محطم كسير ، أنه لا بدّ من وقف القتال . ولقد خاطبت العدو ليلة أمس لأسأله هل هو مستعد لأن يبحث معي الوسائل التي تضع حدّاً للقتال » .

لندن في ٢٣ يونيو ١٩٤٠ : تقول وكالة الأخبار الرسمية الألمانية أنه أمضيت شروط الهدنة بين فرنسا وألمانيا في غابة كومبيني في الساعة السادسة والدقيقة المتممة للخمسين من مساء أمس .

وهكذا انهارت بولونيا قبل مضي شهر، وهولندا قبل أسبوع ، والدنمارك قبل ساعة ، من الهجوم عليها ، وفرنسا قبل أسبوعين ، فرنسا التي كانت تعدّ نفسها ويعدّها معظم الناس أصرم دول الأرض وأقواها بأساً ، والتي تحصنت بخط ماجينو أمنع حصون العالم وأكثرها حظاً من مستحدثات فنون البناء العسكري .

هذه الهزائم الماحقة التي منيت بها مختلف الدول الرأسمالية الديمقراطية في أوربا هي ثمار ما غرسته أيدي تشمبرلن ودلادييه ومن افّ لفهما . وهنالك خمسة عوامل تآزرت هي وغيرها في إنزال هذه الهزائم بها ، وهي :

١ — مظاهرة الحكومات الديمقراطية لهتلر في استلحاقه النمسا ، وغزوه تشكوسلوفاكيا ، وقد كان ذلك رغبةً منها في حمله على الاتجاه باعتداءاته نحو الشرق .

٢ — تقصير تلك الحكومات في تسليح بلادها اتكالاً على أنه يزمع محاربة أوربا الشيوعية لا أوربا الرأسمالية ، مع أن قراءة كتاب « كفاحي » بتمعن ومراقبة الحوادث

من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٩ يريان بوضوح أن الحرب كانت آتية على بريطانيا لا ريب فيها .

٣ — تجافي الحكومات الديمقراطية عن سياسة الضمان الجماعي ، مع أن هتلر كان يسعى الى تدويخ العالم طرًّا ، فكان الواجب أن يجتمع العالم لمقاومته .

٤ — مناصرة رأسماليي البلدان الديمقراطية لهتلر لينصرهم على الأحزاب الشيوعية التي كان يطرد نموها في بلادهم .

٥ — فشوّ الاعتقاد في فرنسا وبلجيكا وغيرهما بأن انجلترا تتبع معهم الأساليب التي تتبعها مع مستعمراتها ، وأنها تضحي بآخر جندي من جنودهم في حين هي تضن بأي جندي من جنودها فلا ترسل منهم الى حومات الوغى غير عدد قليل ثم لا تلبث أن تستردّهم اذا ما جدّ الجدّ

وهكذا سقطت القارة الأوروبية بين مخالب النّسر الألماني ، فأما الانجليز فقد قبعوا خلف النفق الإنجليزي (بحر المانش) مطمئنين الى أن هتلر لو أراد أن يغزوهم في عقر دارهم لاحتاج الى ١٠ أطنان من السفن لكل جندي من جنود الغزو ، ولما كان لا يملك هذا القدر من السفن فقد اجتزأ بمحاصرتهم بألغامه وغواصاته ومغازلتهم بطياراته . ودام ما يسمى معركة بريطانيا بضعة أسابيع قتل الألمان فيها ألوفاً من الأطفال والنساء ، فصبّرت بريطانيا على هذا العبث ، ولم يكن في وُسعها إلاَّ أن تصبر ، وتحملت في صمت ما أصابها من خسارة ، عالمة أنها تربح الوقت والوقت يلد العجائب . وقد كانت الأعجوبة أخيراً ، فقد حمل الرأسماليون الألمان ، هتلر على أن يوقّع على الأمر بالانقضاض الغادر على الاتحاد السوفييتي ، فكان ذلك بمثابة التوقيع على أمرٍ بموته وتحطيم طغيانه .

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسه

وتنفّس الانجليز الصعداء

إذن فقد كان كذباً ما زعمه أعداء الاتحاد السوفييتي من أن الميثاق السوفييتي الألماني ينطوي على نصوص سرية تجعل منه تحالفاً لامحضَ ميثاق بالإمساك عن الاعتداء ، وإذن فقد كان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي قد استعاد ما استعاد من أراضيه المغتصبة ، برضا الألمان وموافقتهم والتواطؤ معهم ، وكان كذباً ما زعموه من أن الاتحاد السوفييتي

قد عدَّل حدودَه مدفوعاً بشهوة الفتح والاستعمار ، لا تأميناً لبلاده من حرب مبيّتة لم يكن أمرها بخافٍ على فطنته .

وإذن فقد كان كذَّاباً ذلك الطيارُ الجريء في الكذب ، لِنْدْ برْج ، الذي اعتمد تشمبرلن أيامَ ميونخ على تقريره القائل ـ بضئالة قوة الطيران السوفييتي ـ في مخادعة الشعب البريطاني ، وإقناعه بحكمة إبعاد الاتحاد السوفييتي عن مؤتمر المتآمرين ، وبتسليم تشكوسلوفاكيا إلى ألمانيا، وقد فضح نفسه حين قال في أول يوليو ١٩٤٠ أي عقب الانقضاض الألماني الغادر على الاتحاد السوفييتي « لقد كنت أوثر مائة مرة أن أرى بلادي في حِلْف مع ألمانيا !!! على أن أراها تحالف القسوة والألحاد والبربرية التي في روسيا » .

الاستعماريون والفاشيون

في بريطانيا

وقد ألقت الحكومة البريطانية القبض في أول الحرب على سير أُزْوَالد موزلي الذي كان قد رُشّح لأن يلعب دور كويسلنج في بريطانيا ، ثم أطلقته أخيراً . وما تزال بريطانيا تعِجّ بفريق من الرأسماليين ذوي النفوذ وأُجَرائهم ، يرتسم حب المال في نفوسهم المريضة في صورة كراهة الاتحاد السوفييتي كراهة تتجاوز كل حد وتحجب كل شيء ، تحجب مصلحة الوطن وخير الجنس البشري ، فهم يشعرون أنهم رأسماليين أكثر منهم بريطانيين وأناسي ؛ وهم يرَون أن انتصار النازية على بلادهم أهون من صيرورة ألمانيا الى الشيوعية . لذلك ظاهروا الرجعية على التقدم في كل ما شهد العالم من أحداث ، فلم تكن ثمة مشكلة من مشاكل الشؤون العالمية لم يكن مسلكهم بأزائها مثيراً للخجل والاشمئزاز . وقد أخذوا في عمامهم ورعونتهم يدفعون ببلادهم الى روما ، ثم الى ميونخ وبرشتسجادن ، ثم الى الحرب التي كان من الميسور لهم اتقاؤها بمحالفة الاتحاد السوفييتي قبل سنة ١٩٣٩ ، أولئك هم مرضى القلوب الذين قفز البهلوان « هِسْ » من طائرته لينزل بين أحضانهم حاملاً رسالة عبيد العجل الذهبي في ألمانيا الى عبيده في بريطانيا . ونذكر في طليعة هؤلاء الرجعيين « جماعة السياسة الامبراطورية » Imperial Policy Group التي تكوّنت سنة ١٩٣٣ من بعض أعضاء مجلسي

الوردات والعموم وغيرهم ، وهي تصدر صحيفة تدعى صحيفة الشؤون العالمية Review of World Affairs كانت هذه الجماعة قبيل نشوب الحرب تطالب بإلغاء المادة الخاصة بالعقوبات من عهد عصبة الأمم .

وفي أغسطس ١٩٣٩ (أي قبل الحرب ببضعة أيام) أنكرت هذه الجماعة إمكان أن تستعر حرب في أوربا ، وقالت « إن الإنتاج البريطاني للطائرات هو على الأرجح أعظم إنتاج من نوعه في العالم »

وعند ما أشفت فرنسا على السقوط طفقت هذه الجماعة تكيل المدح لفيجان وبتان . فلما سقطت فرنسا تلك السقطة المنكرة طفقت الجماعة تكيل القدح لحكومة الجبهة الشعبية التي كانت تحكم فرنسا قبل الحرب . ومما جاء في صحيفتها «ليس ثمة شيوعي بارز إلا وهو معروف جيداً أنه أجير للألمان » .

وفي خريف ١٩٤٠ نشرت تلك الصحيفة في مكان بارز وبعناية ظاهرة عرض هتلر للصالح ونوّهت بقلة خطر القارة الأوربية فيما يتصل بمصالح بريطانيا الهامة . وأبدت رجاءها أن يعامل هتلر البلاد المقهورة بكرم وفطنة .

وظلت بين الفينة والفينة تنصح بإعادة العلاقات الودية مع فيشي وتبدي أسفها على اعتراف بريطانيا بديجول (في ديسمبر ١٩٤٠)

وكانت تقول إن الاتحاد السوفييتي ، وهو يضم نحو ٢٠٠ جنسية ويجمع شتيتاً من اللغات والأديان ، سينهار تحت وقر الضربة الأولى ، وأن الجيش الألماني سيمضي فيه مضيّ السكين في الزبد .

فلما وقف الجيش الأحمر هجوم الألمان في سمولنسك في أغسطس ١٩٤١ زعمت تلك الصحيفة أن الألمان هم الذين وقفوا ذلك الهجوم بمحض اختيارهم ليتفرغوا الى عزل لنينجراد وفتح أكرانيا

وقالت في أكتوبر ١٩٤١ «يجب ألا نعبأ كثيراً بسياسة الأرض المحروقة فإن ما يقال بشأنها مبالغ فيه كثيراً » .

وكتبت في أواخر نوفمبر ١٩٤١ تعزو فترات الوقوف في التقدم الألماني الى « المسائل الفنية المتصلة بالمواصلات » .

ومن قولها : «إن موسكو وروستوف ستسقطان ولا ريب » فلما استعاد الجيش الأحمر روستوف وصدّ الألمان عن موسكو ، وتقهقر هؤلاء في ديسمبر ، تحدّثت الصحيفة عن «الثمن الفادح » الذي دفعه الروس ، فلما اطّرد تقدمهم في يناير ، زعمت انهم أحضروا قوات احتياطية من سيبيريا .

وفي يونيو ١٩٤٢ نشرت الصحيفة حديثاً تقلل فيه من شأن محالفة بريطانيا وروسيا . فمن قولها : « قد يطرد الروس من الفولجا والأورال ويفقدون اتصالهم بالقوقاز في الجنوب وبمرمنسك وأركنجل في الشمال وفلادفستك في الشرق دون أن يكون في ذلك هزيمة لبريطانيا وأمريكا » واستمرت الصحيفة في أضاليلها التي لم تؤيدها ببرهان ، فقالت « وروسيا — مع كل المزاعم القائلة بعكس ذلك — متوقفة كل التوقف على ما يصلها من الأمداد الخارجية التي لا سبيل اليها الاّ من ثلاث طرق» مهددة بالبديهية . هذا ما زعمته تلك الصحيفة بعد سنة من اشتراك الاتحاد السوفييتي في الحرب ، في وقت كان ينتج فيه من السلاح والعتاد مقادير هائلة ولا يتلقى من الخارج الا الشيء الطفيف الذي يبدو أنه وضع قسمًا منه في المخازن ليكون احتياطيًا فلم يكن هو العامل الأول فيما ظفر به الجيش الأحمر من انتصار على هتلر وعلى أوربا الرأسمالية معه . وقد نشرت الصحف في ٢٠ اكتوبر ١٩٤٣ أي بعد مرور أكثر من عام على ذلك الوقت ، البرقية الآتية :

« لندن في ١٩ أكتوبر : جاء من استانبول أن ضابطاً عسويًا وصل الى تركيا أخيراً قال ما خلاصته : أن ٩٨ في المائة على الأقل من غنائم الحرب التي استولى عليها الألمان من الروس خلال الستة الأشهر الماضية ، من صنع الروس أنفسهم . لذلك يعتقد الضباط الألمان أن الروس لا يستخدمون الأسلحة البريطانية التي حصلوا عليها بموجب قانون الإعارة والتأجير ، بل يحتفظون بها لغرض غير معروف ، ولا يبعد أن يكونوا قد اختزنوها للشتاء » .

وقد دأبت هذه الصحيفة على التهوين من قوة الاتحاد السوفييتي الحربية وعلى إطلاق الشاعة ذات الهوى عنه ، كحديث خرافة القائل بأن الفصائل السوفييتية انما تساق الى الحرب سوقاً ، فقد نشرته على النحو الآتي : « علمنا ان التشكيلات السياسية قد وضعت خلف

الصفوف الروسية ، وقد عهد اليها بأن تعمد الى العمل المباشر في الجنود أو الوحدات التي يبدو عليها أقل رخاوة أو عجز أو تردد » .

وتحدثت الصحيفة كذلك عن ٠٠٠ ر ١٥٠ أكراني قد انتظموا في جيش يقاتل الروس تحت قيادة أمير الاي وصفته بأنه من دعاة التحرير الأكراني . ويعلم العالم أن الاتحاد السوفييتي هو الدولة الوحيدة التي لم يكن فيها طابور خامس . أجل ، كان في برلين وغيرها من العواصم الاوربية مهاجرون من الحرس الابيض الأكراني ، وكانوا على اتصال بالأوساط الرجعية في لندن . وقد أريد منهم أن يقاتلوا الاتحاد السوفييتي توفية لما أنفق عليهم من المال ، ولكن هؤلاء كانوا على قلة عددهم ، غير جديرين بأن يسموا أكرانيين . أما الأكرانيون الحقيقيون فقد باروا الروس في مقاتلة العدو .

وهنالك صحيفة مشئومة أخرى . إلاّ أنها أوسع انتشاراً من الريفيو ، أخذت تحمل على المعاهدة الانجلو سوفييتية حتى بعد عقدها ، تلك هي « كاثوليك هرالد » ، انظر الى قولها في يناير ١٩٤١ في تعليل بطولة الجنود الحمر في حرب الشتاء « إن الانقياد لسلطة صارمة وللملابسات العنيفة التي تكتنف حملة الشتاء لما يرحب به الروح الروسي على أنه ضرب من التقشف الذي يشاكل حبه للتعذب » . فهي ترى أن أبناء الاتحاد السوفييتي يستلذون الجوع والشظف والجراح والخَصَر حتى الموت (قرس البرد) .

وهذه الصحيفة ، التي سكتت عن جرائم ايطاليا وألمانيا في بلادهما وفي أوربا ، وعن دعايتهما الخبيثة في انجلترا ، كانت لا تفتأ تعيد الى الذاكرة حوادث قديمة مزعومة وتتحدث عن : النزاع الذي لا يقبل صلحاً بين المسيحية والشيوعية التي أوحاها اليهودي الألماني كارل ماركس .

وهنالك جماعات وأفراد شتى لم ينفكوا عن تسويء سمعة الاتحاد السوفييتي والتشكيك في مقدرته الحربية ، فأخذوا يشكون من أن الوفدين البريطاني والأمريكي في موسكو لا يمنحان كل ما يحتاجان اليه من معلومات وبيانات ، مستدلين بذلك على أن الاتحاد السوفييتي غير أهل لأن يعوّل عليه ، ثم أخذوا يحتجون على ما يسمونه تغلب الجناح الأيسر في الإذاعة البريطانية ، لأن هذه الاذاعة كانت تدعو شعوب أوربا الى الثورة على مستعبديها .

ومن ذلك قول صحيفة إيفننج ستاندرد في ٢٩ مايو ١٩٤٢ « يجب ألاّ نضع جميع بيضنا في السلة الروسية » .

هؤلاء القوم لم يكونوا أعداءً للاتحاد السوفييتي وحده ، بل للشعب البريطاني كذلك ، بل هم أعداء الانسانية جمعاء وأعداء المعاني الانسانية السامية جميعاً ، وهم بمحاولتهم أن يفتّوا في عضد الاتحاد السوفييتي قد أظهروا الرأسمالية البريطانية بأنها لا تقل عن الفاشية خطورة ، وبخاصة بعد أن أوشكت الفاشية الألمانية أن تختفي من الوجود الى حيث لا رجعة .

خذ مثلاً موقفهم من مسألة الجبهة الثانية فقد ظلوا يمانعون في فتح تلك الجبهة تصريحاً وتلميحاً راغبين في ترك الشعب السوفييتي يتحمل وحده عبء الضغط الألماني ، بل لقد طلبوا اليه أن يعلن الحرب على اليابان وأن يمسك عن الزحف الى البلقان . لقد قدّموا اليه من المطالب أكثر مما قدّم اليه من الأسلحة .

نشرت سنداي تيمس في ١٩ يوليو ١٩٤٢ تقول « ليس ثمة شيء في محله مثل فتح الجبهة الثانية إذا — ولكن فقط إذا — أمكن جعلها متسعة النطاق ناجحة ، وإلى أن يكون ذلك، قد يكون من الممكن حقاً سحق الروح المعنوي الألماني بغارات تدمير بالجملة».

يسمع البلاشفة هتلر يسخر علناً من تهديده بجبهة ثانية ويرونه يسحب خيرة فرقه الفتية من فرنسا وبلجيكا وغيرهما ليقذفهم بها ، ويعلمون أن بريطانيا قد احتفظت في جزائرها « خوف الغزو الألماني » بملايين من الجند يتلقون منذ قرابة ٥ سنوات أكمل تدريب وأوفر تسليح ، وهم يعلمون أن عهود بريطانيا ومصلحتها الخاصة كانت تحتم عليها أن تفتح الجبهة الثانية قبل نهاية عام ١٩٤٣ ، ثم يسمعون رجال الطابور الخامس في انجلترا ينصحون بالتريث في فتحها ، فيتساءلون : اذا كان هذا الجيش اللَّجِبُ لا يتحرك لمقاتلة الألمان فمن عسى أن يقاتل ؟ إن للدول المتحالفة ، التفوق التام على الألمان في الجو ، وبخاصة بعد أن قضى الاتحاد السوفييتي على معظم أسطولها الجوي ، ولها السيادة في البحر ، وبخاصة بعد أن ألقى الأسطول الايطالي إليها بالمقاليد ، ولها في أوربا المحتلة بالألمان ملايين من الشيوعيين والوطنيين متأهبين لمناصرتها على الفاشيين ، وهذا ما برهن عليه بدمائهم أولئك

الخمسمائة من الرجال والنساء الذين ضحوا بأرواحهم في دييب عند ما حسبوا غارة الكوماندو عليها غزواً جديّاً للقارة .

ألا ما أقسى ما سيحكم التاريخ على أولئك الذين يثبطون الهمم في الأوقات العصيبة ، فاذا كان حكم التاريخ لا يهمهم فما أشدّ ما سيعصف بهم حكم الحوادث .

نجاح الاقتصاد السوفييتي

بذل الاتحاد السوفييتي في السنوات الأخيرة جهده في دعم السلام العالميّ . ومن البديهيّ أن يحرص الاتحاد السوفييتي على استتباب السلام وأن يتكالب أعداؤه على الحرب ؛ لأنه ينال في السلم ما لا يطمحون الى نيله إلاّ بالحرب ، فهو ناجح في أعماله ، ولديه الكثير من أسباب النجاح ، وهم مخفقون متورّطون في الضيق ، وقد خصوا جميع السبل وحاولوا ما استطاعوا فلم يوفّقوا لحلّ معقول ولم يهتدوا الى بصيص من نور ، فالخيبة محتومة عليهم ما استمسكوا بطرقهم الاقتصادية العتيقة .

فالإنتاج الموحّد الواسع النطاق الذي ينظّم — على ضوء الاحصاءات — وفق خُطط مرسومة لا يراعي فيها إلاّ مصلحة المنتجين ، والذي ينفّذ بأقل الكُلَف تحت قيادة أمهر الإخصائيين ، هذا الإنتاج المنظم في الاتحاد السوفييتي لا يقابله في البلاد المعادية إلاّ فوضى من الإنتاج المتقهقر الكثير الكُلَف لا تراعى فيه حاجة المستهلك بمقدار ما يراعى جشع المنتج .

ولذلك نجد الاتحاد السوفييتي يزيد كل عام من أجور عماله وموظفيه في حين يخفضها أعداؤه ، صراحةً أحياناً وتحت ستار تضخم النقد وخفض سعر العملة في أحيان أخرى .

ولا نجد فيه متعطلاً من الأغنياء ، ولا من الفقراء ، فإن لكل فرد من أفراده حقّ العمل وعليه واجب العمل . والحال على عكس ذلك في أوربا وأمريكا ، إذ قد بلغ عدد المتعطلين فيهما قبل الحرب زُهاء ٣٧ مليوناً كانوا يعانون أشد الآلام ويتحملون أشق المتاعب .

ولا نجد فيه مكاناً للجهل والأمية ، فإن عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا فيه يُربي على مجموع ما في أوربا الرأسمالية . ولا يعزُب عنا أن هتلر قد أمر بنقص الطلبة في الجامعات

الألمانية الى نصف ما كانوا عليه في السنوات التي مضت .

ثم هو لا يَشغَل أبناءه التعصبُ الديني والحزازات الجنسية وفوارق الطبقات وما إلى ذلك ، بل هم يشتغلون جميعاً رجالاً ونساءً ، مسلمين ونصارى ، كأنهم أسرة واحدة ترفرف عليها السعادة ، على حين تعجّ البلاد الأخرى بالتباغض والتحاسد والتمرد والانتقاض .

مشروع خمس السنوات الثانية

وقد لخصت صحيفة موسكو التي تصدر بالانجليزية ، في يوم ٦ فبراير ١٩٣٩ نتائج برنامج خمس السنوات الثانية (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٧) ومنه يؤخذ أنه :

بلغ الإنتاج الصناعي الجماعي (الذي تديره الدولة والهيئات التعاونية) في نهاية سنة ١٩٣٧ — ٩٩٫٨ في المائة من إنتاج الاتحاد السوفييتي كله ، وبلغ الانتاج الزراعي الجماعي ٩٨٫٦ في المائة ، وكان ٩٠ في المائة من جرّارات الحرث وما اليها ، مما أنتجته البلاد في خلال برنامج خَمْس السنوات الثانية . وقد نجح هذا البرنامج نجاحاً لم يكن مقدّراً له ، وذلك على الرغم من المخرّبين الذين ألحقوا بالإنتاج أضراراً بليغة .

وقد ازداد عدد العمال والموظَّفين في خلال السنوات الخمس ١٧٫٦ في المائة عما كان ، وارتفع مجموع الأجور ١٥٠ في المائة ، وازداد ما تنفقه الدولة في خدمة الجمهور (التعليم والصحة الخ) من ٤٫٠٠٠ مليون روبل الى ١٤٫٠٠٠ مليون وارتفعت أجور الفلاحين الجماعيين ٣٥٠ في المائة في ٤ سنوات (من سنة ١٩٣٣ الى ١٩٣٧) . وبلغ إنتاج السلع الاستهلاكية ضعفَي ، وفي بعضها ٣ أضعاف مثله من سنة ١٩٣٢ ، وازداد عدد التلاميذ في المدارس الأولية والثانوية من ٢١٫٣ مليوناً الى ٢٩٫٤ مليوناً وبلغ عدد طلبة الجامعات والمعاهد العالية ٥٥٠٫٠٠٠ طالب .

ويشير التقرير الى أن الاتحاد السوفييتي قد أصبح مستغنياً في الشؤون الاقتصادية ، وهو يزوّد اقتصاده القومي وقواته الدفاعية بكل ما يلزمهما من الضروريات .

وقد بلغ إنتاج الصناعة في سنة ١٩٣٧ — ٣٧١ في المائة بالقياس على ما كان عليه سنة ١٩٢٩ . أما الصناعة التي تُنتج على نطاق واسع فقد بلغت ٧ أمثال ما كانت عليه قبل الحرب العالمية الأولى .

خمس السنوات الثالثة

كان ثمن المنتجات الصناعية في سنة ١٩٣٧ (مقدَّرة بحسب أسعار سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ٥٠٠ر٩٥ مليون من الروبلات). وقد وضع برنامج السنوات الخمس الثالثة على تقدير أن يرتفع هذا الرقم الى ٠٠٠ر١٨٠ مليون أي بزيادة ٨٨ في المائة أي بمعدل ٥ر١٤ في المائة سنويًا

ونذكر على سبيل المثال أنه كان المقدر أن يصل إنتاج المواد الآتية في سنة ١٩٤٢ الى المقادير الآتية :

وسائل الإنتاج	٠٠٠ر١١٢ مليون روبل			أي بزيادة ١٠٣ في المائة عما كان عليه سنة ١٩٣٧		
سلع للاستهلاك	٠٠٠ر٦٨	»	»	» ٦٩	»	»
المواد الكيميائية	٤٠٠ر١٣	»	»	» ١٢٧	»	»
الفحم	٢٣٠	مليون طن متري		» ٨١	»	»
(الحديد) الزهر	٢٢	»	»	» ٥٢	»	»
الصلب	٢٧½	»	»	» ٥٦	»	»
أسياخ الصلب rolled	٢١	»	»	» ٦٢	»	»
الأسمنت	١٠	»	»	» ٨٣	»	»
السكر المكرر	٣½	»	»	» ٤٤	»	»
الأحذية الجلدية	٢٣٥	مليون حذاء		» ٤٣	»	»
مأكولات محفوظة	٨٠٠ر١	»	علبة	» ١٠٦	»	»
القوة الكهربائية	٠٠٠ر٧٥	»	كيلووطساعة	» ١٠٦	»	»

ويرى من ذلك أن صناعة (بناء) الآلات قد أعطيت من العناية أكثر في الجملة مما أعطيت الصناعة في مجموعها ، فكان المقدر أن يزداد إنتاج الطوربينات في الخمس السنوات الثالثة ٣٨٠ في المائة والمراجل البخارية ٣٦٠ في المائة ، كما أنهم كانوا يعملون على إيجاد « باكو » أخرى لاستغلال حقول زيت الوقود بين نهر الفولجا وجبال الأورال أحسن استغلال مع تزويد البلاد بمخازن للزيت وأنابيب لتوصيله إليها . أما الصناعات الكيميائية فكان المقدَّر أن تكون من أعظم الصناعات شأواً ، حتى أصبح من الممكن أن يسمى مشروع السنوات الخمس الثالثة بمشروع السنوات الخمس الكيميائي ، فقد روعي فيه زيادة حمض الكبريتيك ، وحمض النيتريك والأمونيا التركيبية والألياف الاصطناعية زيادة جسيمة .

وكان من المقدّر أن تزداد قيمة الإنتاج الزراعي من ١٩٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٣٠٫٢٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة ٥٣ في المائة، وأن يصل معدّل المحصول السنوي من الحبوب الى ١١٥ مليون طن (أي نحو ٧٧٥ مليون أردب) بزيادة ٢٧ في المائة عن معدّل السنوات الخمس الثانية، وأن يبلغ إنتاج السكر ٣٠ مليون طن أي بمعدّل ٢٠ طنًا في الهكتار (والهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع أي ما يقرب من ٢ ½ فدان) وإنتاج القطن الخام ٣٫٣ مليون طن بمعدّل ١٫٩ طن في الهكتار من الاراضي التي تروى بالآلات (وليس بالمطر) وألياف الكتان ٨٥٠٫٠٠٠ طن بمعدل ٠٫٤٦ طن في الهكتار وأن يزداد عدد الخيل ٣٥ في المائة والأبقار ٤٠ في المائة والخنازير ١٠٠ في المائة والغنم (الضأن والماعز) ١١٠ في المائة، وأن تكمل إدارة الزراعة على نمط صناعي الى أقصى ما يستطاع وأن تمد خطوط جديدة في السكك الحديدية طولها ١١٫٠٠٠ كيلو متر، وأن يزدوج ما طوله ٨٠٠٠ كيلو متر من الخطوط المفردة وأن تدار السكك الحديدية إلى حدٍّ كبير بالكهرباء وأن يكمل مد الخدمة التليفونية الى القرى والمزارع الحكومية ومحطات الجرارات الزراعية وأن يدخل التليفزيون في عدّة مدن كبيرة.

* * *

وكان من المقدّر أن يزاد عدد العمال والموظفين ١٧ في المائة ومعدّل الأجور ٣٥ في المائة وأن يزاد ما تنفقه الدولة على التأمين الاجتماعي والتعليم والصحة وما اليها من الخدمات الاجتماعية من ٣٠٫٨٠٠ مليون روبل في سنة ١٩٣٧ الى ٥٣٫٠٠٠ مليون في سنة ١٩٤٢ أي بزيادة تقرب من ٧٠ في المائة. وإنما يزداد دخل الفلاحين الجماعيين نتيجة لازدياد الانتاج، لازدياد غلة المحاصيل ونتاج الحيوان.

وكان من المقدّر أن يزداد عدد طلبة الجامعات والمعاهد العليا الى ٦٥٠٫٠٠٠ وأن يزاد عدد دور السينما ٦ أضعاف وأن تزاد المنتديات والمكتبات والمستشفيات وملاعب الرياضة البدنية، وأن يُبنى من المنازل والمنشآت الصناعية ما مساحته ٣٥ مليون متر مربع، وأن يزاد حوانيت البيع بالتجزئة المملوكة للدولة والهيئات التعاونية ٢٦ في المائة.

وكان من المقدّر أن يزداد الدخل القومي نحو ٨٠ في المائة.

الاستعداد الدفاعي

هذه صورة مصغرة من النجاح الذي بلغه الاتحاد السوفييتي في شؤونه الاقتصادية . ومنها نرى أنه يسير باطراد الى الأمام ثابت القدم راسخ اليقين متخطياً جميع العقبات ، لا يرغب في أكثر من أن يخلو الى مرافقه المختلفة فينميها ويهذبها ليكفل الهناءة لأبنائه وحفدته . وهو أبعد الدول نزوعاً عن محاربة مخالفيه ، ولا سيا أنه يؤمن بأن نظامهم الاقتصادي عتيق هرم يزدهف الى الموت ازدهافاً ولا مفرّ له من مواجهة نهايته المحتومة في وقت قريب . على أن السلام الذي يبتغيه الاتحاد السوفييتي إنما هو سلام «لاميونيخي» إذ أن السلام عنده شيء آخر غير البله . وهو وإن لم ينتج المدافع بدل الزُبد ، لا يستغني بالزُبد عن المدافع، وفي الحق أنه كان الدولة الوحيدة التي استطاعت أن تنتج وفراً من الزُبد والمدافع . وهل كان في إمكانه أن يغفل عن التأهب وهو يرى شعوب المحور تجنّد اقتاله وهو يسمع الفاشيين المجذوبين يكشحون له بالعداوة ويتهدّدونه في صيحاتهم الهستيرية ويرى مهرّجي نورمبرج(١) يستنفرون سائر قوات العالم الرأسمالي لمؤازرتهم عليه ويسألون الحلفاء أن يتغاضوا عن جرائمهم الاستعمارية ثمناً للحرب الصليبية المنتظرة .

لقد طالما سمع البلاشفة بذاءة النازي وأشياعه ، وكانوا يعلمون أن تشمبرلن ومعيّته يبغضونهم ويعملون على عزلهم وتأليب الدول عليهم ، وأنهم إذا كانوا لا يتواقحون معهم تواقح النازيين فليس ذلك إلاّ لأن أسلوبهم يباين أسلوب النازيين . وكان رد الاتحاد السوفييتي على هذه البذاءة وتلك البغضاء أن أمعن في التسلح واقتطع جانباً كبيراً من أمواله وجهوده لتقوية منشآته الدفاعية لكي يكون على الذين تحدثهم أنفسهم بالاعتداء أن يفكروا طويلاً قبل التورّط فيه وأن يكونوا على ثقة أنه « لن يسمح للخنازير أن تدنس حديقته » . فهذا الاستعداد الحربي ليس دليلاً على نية الغزو والاعتداء ، بل هو دليل على الرغبة في التجرد للتقدم السلمي ، وهو كذلك دليل على مدى السموّ الذي ارتفع اليه العلم السوفيتي والفن السوفييتي والصناعة السوفييتية .

(١) البلد الذي كان النازيون يعقدون فيه مؤتمرهم كل عام

هتلر ينطح الصخر

ولو أن هتلر كان يعلم اذ ذاك ما علمه بعد فوات الوقت لما أقدم على نطح تلك الصخرة الصلدة

كناطح صخرةً يوماً ليوهيها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعِلُ

ولـكنه كان يجهل ويتجاهل . وقد أكثر من مخادعة الناس حتى خدع نفسه ، فحفزه طمعه الأشعبي في نشوة انتصاره على الدول الغربية المتفسخة ، الى أن يتجه نحو مشرق الشمس ، فأعدّ غزوته الغادرة بمثل النذالة التي أعدّ بها الايطاليون غزوتهم لبلاد اليونان . واختار يوم ٢٢ يونيو للبدء بها تشبهاً بنابليون وتحدياً له ، فما وافت الساعة الرابعة صباحاً حتى فغرت المدافع الألمانية أفواهها واجتازت الدبابات ، التخوم وطفقت أرسال اللوفت ڤافه Luftwaffe ترود في سماء أكرانيا والقريم ولتوانيا وهي تمطر شآبيب الموت والدمار. فلما بلغت الساعة منتصف السادسة دعا جراف (كونت) فون شولنبرج سفير ألمانيا لدى موسكو مفوض الشؤون الخارجية الرفيق مولوتوف ليدلي اليه بأن دور روسيا قد أتى . وهذه هي الحرب الخاطفة Blitzkrieg .

وبلغت سرعة الغزاة أول الأمر حدًّا أدهش عالماً تعوّد أن يدهش من خوارق أعمالهم واصطنع الألمـان في إذاعة انتصاراتهم أسلوباً شعريًّـا خياليًّـا أشبه بالملاحم الإغريقية وصرّح الـكثيرون من رجال النازي بأن تدويخ روسيا لن يستغرق أكثر من أسبوعين، أو ثلاثة أسابيع . ثم أعلنت الدعاوة الألمانية أن عدد القتلى والأسرى من البلاشفة قد ناهز الملايين وأن الجيش الأحمر قد تفانى وأن السلاح الجوي الأحمر قد أصبح لا وجود له .

وقد جرى في حسبان هتلر أن حربه للاتحاد السوفييتي ستجلب تحت لوائه جماعات المهدئين Appeaser من أبناء البلدان الديمقراطية جميعاً ، وكأنما هو تاجر ماهر يلف سلعه بأوراق مكتوب عليها « الحرب الصليبية على الشيوعية » آملاً أن يكون لهذه الـكلمة السحرية من الأثر ما يفقد الناس آلام المخمصة والسخرة والإرهاق ويحجب عن أبصارهم الاختلاسات المتكررة وأسلاك معسكرات الاعتقال ومدافع الجستابو الرشاشة ، ولـكن ساحر برشتسجادن لوّح بعصاه هذه المرة وتمتم بألفاظه السحرية فلم يخرج من برنيطته ولا أرنب واحد .

وقد أثار شن تلك الحرب الغادرة شعوب البلقان على ألمانيا فأعلنت بلغاريا أنها لاتقاتل الاتحاد السوفييتي وأنشأت شعوب يوجوسلافيا ثلاث جمهوريات سوفييتية تشن الحرب على الألمان وصنيعتهم الجديد ميخايلوفتش وتجليهم عن البلاد قرية قرية ، واحتج جوليو مانيو رئيس حزب الفلاحين في رومانيا على استمرار الرومانيين في القتال وراء الدنيستر معلناً أنه يرى في ذلك دلالة على أنهم ليسوا إلاّ مخالب قطط تلتقط الكستناء للألمان ، وأبت الشعوب المحتلة أن تسلم طوعاً ما عندها من معادنَ وحاجٍ الى الألمان وعمد عمالها الى التخريب ونسف المناجم والمصانع والقطارات متشجعين بمقاومة الجيش الأحمر .

الجيش الاحمر يكتسح أعداءه

لقد انتصب أمام الطغيان الهتلري في هذه المرة شعب من نوع آخر ، شعبٌ ذو مِرّة (عزيمة) يعرف ما يريد ويفعل ما يريد ، شعبٌ لم يتردّد ولم يهنُ ولم تذهب نفسه شعاعاً حين هبط عليه بالمهابط شياطين الموت الذين كانوا في أوربا الغربيـة ينشرون الذعر والهلع حيثما هبطوا ، ولم تتهافت أعصابه وهناً حين انقضّت عليه طائرات ستوكا حتى كانت لتكاد تلمس رؤوس أبنائه ، شعبٌ لم تجدِ معه الأسلحة النفسية التي أرهقت الفرنسيين من طبول تُقرع وأناشيدَ للنصر ترتفع بها العقائر على حين تُرنّق فوقهم الطائرات الصخبة مساقطة عليهم قنابر صافرة .

أجل، تقهقر البلاشفة رَدَحاً من الدهر ، حتى تمّ تجنيد الشعب الذي يحوي عُشر سكان الأرض في سدس مساحتها ، ولكن هذا التقهقر على خلاف ما شاهدنا في البُلدان الأخرى كان خُطة لا هزيمة . ولم يضنّ البلاشفة بأية تضحية تجول بخلد انسان ، فنقلوا — وهم يتقهقرون — الى المؤخرة كل ما استطاعوا نقله من آلات وعتاد ودمروا كل ما لم يستطيعوا نقله . على أنهم لم يتخلوا عن قطعة من الأرض قبل أن يغطوا ثراها بأشلاء جنود الألمان ودباباتهم . وقد استغلوا تهوّر النازيين وإسرافهم في الأرواح والعتاد فأنزلوا بهم خسائر فادحة . وقد كان إسراف النازيين في غرب أوربا ضرباً من الاقتصاد يبلّغهم المراكز

الحيوية وييسر لهم القضاء على المدافعين أما الاتحاد السوفييتي فقد ضاعف النازيون إسرافهم مثنى وثلاث دون أن يتيسر لهم إضعاف الروح المعنوية في البلاشفة . وهكذا دفعوا في ما افتتحوه من الأراضي السوفييتية ثمناً باهظاً من الجند والعتاد والروح المعنوية ، أصبح معه ذلك الافتتاح انتحاراً لا انتصاراً .

وسرعان ما انبثقت الدبابات السوفييتية من تحت الأرض كأنما قد جلبها سحر ساحر ، وبدأت البلاغات النازية تشكو ظهور « جيوش جديدة وعتاد جديد » . وتحطمت على صخرة المقاومة الصلدة أوامرُ التقدم مهما يكن من ثمن ، ولم تغنهم الفرق الجديدة الفتية يستبدلون بها الفرق القديمة الممزقة حيناً بعد آخر . وأخذ البلاشفة يكيلون لهم لطمة بلطمة ليست هذه حرباً خاطفة بل هي حرب إبادة طويلة الأمد . لقد ماتت الحرب الخاطفة وقبرت في ثلوج الاتحاد السوفييتي .

***

وانكفأ النازيون يهبطون بعد أن تسنموا الذروة من الانتصار ، وتفانى أملهم في الظفر السريع وأخذوا ينزفون قواهم على حين ما فتىء عدوهم الجبار يزداد قوة على قوة ، فقد أراقوا ما عندهم من البترول حيث أرادوا الحصول على البترول . ودمر البلاشفة لهم حقول الزيت الرومانية ومعامل تكريرها في بلويشتي دون أن يُرووا ظمأ دباباتهم من آبار باكو . وهبطت منتجات الصناعة الحربية في ألمانيا سنة ١٩٤١ بمقدار ٢٠ الى ٣٠ في المائة عما كانت عليه سنة ١٩٣٩ وهبط إنتاج الفحم ١٠ الى ١٥ في المائة والصلب ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولم يزل الهبوط يزداد سرعة حتى أوشك أن ينفد ما ادخر هتلر للحرب من مواد ، فأصبحت دزوع الطائرات الألمانية عارية من النيكل ، بل إن أهم أجزاء آلاتها قد أصبحت خالية منه ، ولم يستطع الفيرر أن يحصل على المعادن الناقصة التي يحتاج اليها — من (الخردة) كما كان القيصر يفعل في الحرب العالمية الأولى ، إذ أن ألمانيا كانت قد استنفدت خردتها قبل الحرب . أما مزارع أكرانيا الخصبة فقد وجدها مهجورة من الفلاحين خالية من المواشي والآلات التي سبقتهم نحو الشرق فكان ما أقلته القطُر الى مطاحن ألمانيا من القمح أقل مما أقلته الى مستشفياتها من الجرحى .

وهكذا خاب فأل هتلر وأخطأ حسابه في كل ناحية ، حربيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا ونفسيًّا ، وكان خطؤه عظيماً عظم التأهب السوفييتي لسحق هجومه . وقد قال في خطاب له في قصر الألعاب الرياضية في ٣ اكتوبر يعتذر من كثرة الموتى « لقد أخطأنا خطأً واحداً ، هو أننا لم نعلم مدى جبروت التأهب الروسي لكفاح ألمانيا »

المراجع

1 — . T. Murphy : Russia on the march

2 — D. N. Pritt : Light on Moscow

3 — Victor Gollancy : Russia and ourselves

4 — Barbara Ward : Russian foreign policy

5 — Lucien Zacharoff : "We made a mistake"...

6 — Reginald Bishop : Russia's enemies in Britain.

7 — Maurice Edelman : How Russia prepared

8 — Gaetano Salvemini : Italian fascsism

9 — Illustrierte Geschichet des Bürgerkrieges in Russland 1917 - 1921

10 — جريدة صوت الشعب (البيروتية) تعليقها على السياسة الخارجية في سنة ١٩٣٩

11 — برقيات الصحف المصرية اليومية

فهرس الكتاب

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ١٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة المصرية

في صيدا نقولا افندي حربجي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

عن سنة

١٢٠ في القطر المصري والسودان

١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }



المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التاسع بعد المئة

١ يوليو ١٩٤٦ ٢ شعبان ١٣٦٥

مَثَلُ العرَب كمثل جَمَلٍ أَنِفٍ اتَّبع قائدَه، فلينظر قائدُه حيث يقوده. أمَّا أنا، فوربِّ الكعبة لأَحملنَّكم على الطريق.

عمر بن الخطاب

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد التاسع بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٦ ٢ شعبان سنة ١٣٦٥

ألبرت أينشتين
واستخدام الطاقة الذرّية في الحروب

ولد ألبرت أينشتين في مدينة « أولم » بألمانيا سنة ١٨٧٩ . ونال جائزة نوبل للبحوث الفوزيقية سنة ١٩٢١ ، واضطر الى أن يذهب المنفى باختياره عند ما تسنم هتلر أوج القوة في المانيا ، فوفد الى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٣٣ ، حيث عين عضواً مدى الحياة في معهد الدراسات العليا في جامعة برنستون ، ونال الرعوية الامريكية سنة ١٩٤٠ ، وفي الثاني من اغسطس سنة ١٩٣٩ ، وقبل أن تشتعل نار الحرب العظمى الثانية بشهرين، كتب اينشتين كتاباً يعد الآن من وثائق التاريخ . كتب الى الرئيس روزفلت يقول : « ان بحوثاً حديثة قام بها الاستاذ « فرمي » Fermi والاستاذ زيلارد Szilard ، وقد وصلتني نسخة مخطوطة منها ، جعلتني أعتقد أن عنصر « الاورانيوم » قد يمكن تحويله الى منبع للطاقة ذي أهمية كبيرة في المستقبل القريب» . ومضى أينشتين يقول:« ان هذه الظاهرة الجديدة قد تؤدي الى صنع قنابل شديدة الفتك عظيمة القدرة، وان قنبلة واحدة من هذه القنابل اذا حملتها سفينة وقذفت بها ميناء ، من الممكن أن تحطمه تحطيماً مع جزء كبير مما يحيط به . ونحن ننقل هنا حديثاً لاينشتين عن استخدام الطاقة الذرية بعد أن أصبحت حقيقة واقعة وعن احتمالاتها القريبة .

— ١ —

ان اطلاق الطاقة الذرية لم تخلق مشكلة جديدة ، بل أنها خلقت ضرورة جديدة لا غير ، هي ضرورة حل مشكلة قديمة كانت قائمة بالفعل . على هذا نستطيع أن نقول إننا تأثرنا بها « كمّاً » لا « كيفيّاً » . فانه ما دام في الدنيا أمم كبرى تسود العالم وبها قوة ، فان الحرب لا بدّ واقعة حتماً . ولا نقول هـذا القول لنحدس متى تقع الحرب ، ولكن لنقول بأن

الحرب لا بدَّ آتية . إن هذه الحقيقة كانت ماثلة للناس قبل اكتشاف القنبلة الذرية ، أما الذي تغيّـر فهو نتائج الحرب من حيث التخريب والدمار .

اني لا أعتقد أن الحضارة سوف تفنى إذا ما قامت حرب أساسها التراشق بالقنابل الذرية . يحتمل جدًّا أن ثلثي سكان الارض سوف يموتون ، ولـكن سيبقى بعد ذلك قدر منهم ، فيهم القادرون على التفكير ، وبين أيديهم من الـكتب ما يستأنفون به العمل ثانية في سبيل الحضارة لتقوم مرة أخرى .

ولا أوصي بأن يُفْضَى بسر القنبلة الذرية الى مجموعة الامم المتحدة ، كما أوصي بأن لا يعطى هذا السر الى الاتحاد السوفيتي . ان كلا الأمرين مثله كمثل رجل عنده رأس مال أراد أن يشرك آخر معه في مشروع ، فبدأ باعطاء نصف رأس ماله لشريكه هبة بغير مقابل، فأخذه هذا ، ومضى ينفذ مشروعاً آخر ينافسه به ، في حين أن الهبة كانت لتحقيق التعاون لا المنافسة .

ان سر القنبلة الذرية ينبغي أن يعهد به الى حكومة عالمية ، وينبغي لحـكومة الولايات المتحدة الامريكية أن تعلن فوراً استعدادها بأن يُفْضَى بهذا السر الى هذه الحكومة العالمية إذا أُلّفت . أما هذه الحـكومة فتتألف من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا العظمى — وهي الدول الثلاث التي في مستطاعها الآن أن تشن الحرب ، على أن تضع هذه الدول كل قوتها الحربية تحت تصرف هذه الحـكومة وتجعلها خاضعة لها دون غيرها من السلطات . وحقيقة أن في العالم ثلاث دول يتقاسمن القوة الحربية في العالم ، أمر يجعل تأليف مثل هذه الحكومة أمراً هيناً غير عسير .

ولما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى هما صاحبتا سر هذه الطاقة، فعليهما أن يكلفا حكومة الاتحاد الروسي وضع مشروع هذه الحكومة والقواعد التي يقوم عليها . على ان هذه الخطوة من شأنها أن تخرج من روع روسيا كثيراً من الشك الذي يبديه الروسيون من جراء الاحتفاظ بسر الذرة وطريقة استعمالها في الحرب . ولن يكون أول مشروع تضعه روسيا نهائيًّا ، ولـكن الواقع أن ذلك يجعل روسيا تحس أن هذه الحـكومة العالمية يمكن أن تحقق سلامتها .

وانه لمن العقل أن يعهد ببحث هذا المشروع الى ثلاثة رجال، أمريكي وانجليزي وروسي. ولا بد لهم من نصحاء ومشيرين، ولكن هؤلاء ينبغي أن يظلوا بعيدين عن لب البحث الاّ إذا طلب اليهم الافضاء بآرائهم. اني لأعتقد أن ثلاثة رجال يكفون لوضع دستور عملي تقبله الدول الثلاث. أما إذا زاد عدد الذين يقومون بوضع المشروع على هذا العدد، الراجح أن يفشل المشروع ولا يقوم.

بعد أن تضع الدول الثلاث الكبرى أصول هذا المشروع وتتمه، تدعى الدول الصغرى الى المشاركة فيه، فتصبح هذه الدول أعضاء في الحكومة العالمية، لهم حسناتها وعليهم مسئولياتها. على أنه ينبغي أن تكون لهنّ حرية الاختيار في الاشتراك أو في البقاء خارج هذا النظام. وبرغم اعتقادي أنهنّ سوف يشاركنَ فيه، فانهنّ سوف يشعرنَ بالأمن والطمأنينة اذا لم يشتركنَ. ومن الطبيعي اذا دعينَ أن يكون لهنّ حق ابداء ملاحظاتهنّ على المشروع بعد أن تعده الدولات الثلاث الكبريات. ولكن الدول الكبرى ينبغي عليهنّ أن يقدمنَ على تأليف هذه الحكومة العالمية، اشترك الصغريات فيه أم تنحينَ عنه.

من الطبيعي أن يكون للحكومة العالمية حق السيطرة على كل القوى الحربية، مضافاً الى ذلك حق آخر، هو حق التدخل فيما اذا نشأت أقلية في بلد من البلدان واستبدت بالأكثرية وعملت جاهدة في بذر أصول الحرب. فالات مثل تلك الحالات القائمة في اسبانيا والأرجنتين ينبغي التدخل فيها. يجب أن يقضى قضاء تامًّا على مبدأ «عدم التدخل». ذلك بأن القضاء عليه ضمان ضروري للسلم.

إن مشروع تأليف الحكومة العالمية لا يجب أن يظل معطلاً حتى تتعادل كفّات النظام الحر في الدول الكبرى. فانه بالرغم من أن روسيا لا تزال الى الآن محكومة بأقلية دكتاتورية، فاني لا أتصور أن يكون النظام الداخلي في أية أمة من الأمم مهدداً للسلام العالمي. وكذلك يجب أن نعي أن الشعب الروسي لم يمارس التعليم السياسي مدة طويلة، والتغيرات المطلوبة لتحسين الأحوال في روسيا، ينبغي أن تقوم عليها أقلية، ذلك بأنه ليس هنالك من أغلبية تضطلع بها. ولو انني ولدت روسيًّا إذن لعملت على أن أهيء نفسي لقبول هذه الحال.

وليس من الضروري في تأليف نظام حكم عالمي من خصياته أن يحتكر السلطة الحربية ، أن تتغير الأوضاع الداخليـة القائمة في كل من الدول الثلاث الـكبرى . فعلى الثلاثة الذين يختارون لوضع قواعد هـذا النظام ، أن يراعوا ظروف كل دولة ويصبون النظام في قالب يحقق تضامنهنّ جميعاً .

— ٢ —

هل لي أن أخشى استبداد هذه الدول الثلاث بأمور العالم ؟ طبيعي جـدًّا أن أفعل . ولـكني أشد خشية من وقوع حرب أو حروب أخرى .

إن أية حكومة مهما كان شكلها هي بذاتها شر إلى حد محدود ولـكن حكومة عالمية مهما كانت شرورها هي أهون عنـدي من شر الحروب ، وبخاصة بعد أن تبين لنا مدى قدرتها على التحطيم والهدم والتخريب . وان حكومة عالمية إذا لم تتألف اختياراً وبمقتضى الاتفاق بين الدول ، فاني أعتقد انهـا سوف تؤلف برغم ذلك ، ولـكن بطريقة بالغة الخطر ذريعة النتائج . ذلك بأن حرباً أو حروباً إذا وقعت أدَّت حتماً الى تسوّد دولة بعينهـا وتسلطها وتفردها بالقوة الحربية تفرداً يشمل العالم كله .

أما وقد حصلنا على سر الذرة، فلا ينبغي لنا أن نفقده، كما لا ينبغي لنا أن نخاطر بالافضاء به الى هيئة الأمم المتحدة أو الاتحـاد السوفيتي . ولـكنه يجب علينا الى جانب هـذا أن نوضح للعالم وفي أقرب وقت، اننا لا نحتفظ بسر الذَّرة لنتخذ منه سبيلاً الى القوة والقهر، بل ابتغاء تأليف حكومة عالمية تحافظ على السلام ، واننا سنعمل بأقصى ما يصل اليه جهدنا الى جعلها حقيقة واقعة .

اني أَقـدِرُ رأي أولئك الذين يقولون بالتدرج في تأليف حكومة عالمية بأن نجعلها الهدف الغائي لأعمالنا وسياساتنا . أما الخطر الذي أراه في الأخذ بطريقة التدرج فينحصر في أنه في مدى الفترة التي نتدرّج فيها نحو تحقيق ذلك الهدف الغائي ، سنضطر الى الاحتفاظ بسر الذرة ، من غير أن نقنع غيرنا ممن لا يملـكون سرها بحسن نيتنا . وهذا وحده كافٍ لخلق جو من الخوف والريبة ، وهو ولا شك يؤدي الى انتكاس خطر من علاقات الدول الـكبرى إذ تظل في حالة تنافس وتنابذ مستمرين . وبذلك يخطىء الذين يتخيلون أنهم يضعون أساس

السلم العالمي ، لأنهم بتهاونهم وتقاعسهم في هذا الشأن انما هم يعملون على تمهيد السبيل الى حرب تالية . وليس لنا من وقت نضيعه سدًى الآن . فاننا إذا أردنا أن نتجنب الحرب ، وجب علينا أن نعمل مسرعين .

على اننا سوف لا نتفرد بسر الذرة طويلاً . واني لأعرف أن كثيرين يعتقدون أن غيرنا من الأمم ليس عندها ما يكفي من المال لتنفقه في سبيل الوقوف على سر القنبلة الذرية، وان ذلك وحده يكفي للاقتناع بأننا سوف نحتكر سرها زمناً طويلاً . على انه من أكبر الأخطاء الشائعة في هذه البلاد أن نقيس الأشياء بمقتضى ما تتكلف من مال . على أن غيرنا من البلاد التي تملك المواد والرجال في استطاعتها أن توجه جهدها الى اكتشاف سر الذرة وأن تستكشفه إذا هي عقدت العزم على ذلك . فان المواد والرجال والارادة هي العوامل الأولى في النجاح ، لا المال .

إني لا أعتقد أني الأب الروحي لاطلاق الطاقة الذرية . إن أثري في هذا العمل جاء بطريق غير مباشر . وكذلك أقول إني لم أتوقع أن تطلق تلك الطاقة في زماني . وكل ما خيل الي في هذا الأمر أن اطلاق هذه الطاقة ممكن نظريًا . ولكنه أصبح واقعاً بطريق المصادفة ،وبمقتضى حقائق طبيعيةلم أتصورها .وقد استكشفها «هاهن»في برلين ، ولكنه أساء تفسير ما استكشف . أما الذي فسرها التفسير الحقيقي فهو « ليز ميتنر » Lise Meitner وقد هرب من ألمانيا ليفضي بالسر الرهيب الى « نيلز بوهر » Niels Bohr

***

لا أعتقد أننا مقدمين على تحقيق عصر العلم الذري اذا نحن عهدنا بالبحث إلى جماعات كبيرة من العلماء على غرار الاتحادات الكبرى القائمة الآن ، ان الانسان في مستطاعه أن يفعل ذلك في شيء تمَّ استكشافه ، ولكن أن تستكشف شيئاً جديداً فليس ذلك سبيله . ان الفرد الحر وحده هو الذي يستطيع أن يقع على كشف جديد . نعم : ان هنالك طريقة لتنظيم العمل ، ولكنها غير طريق الجماعات ، بل هي طريق الأفراد بأن يعطوا من الحرية ويهيئوا بحالات تجعلهم قادرين على العمل والبحث . فأساتذة العلم في أمريكا مثلاً ، ينبغي أن يتفرغوا بعض الشيء من مهام التدريس ليمكنوا على موالاة البحث والاستمرار فيه .

فهل لك مثلاً أن تتصور أن جماعة من العلماء في مستطاعهم أن يصلوا مجتمعين الى مثل الكشوف التي وصل اليها شارلز درون ؟

وبالاضافة الى ذلك أشك في فائدة تلك الاتحادات الكبيرة في الولايات المتحدة لحاجات هذا العصر . فان زائراً من سيار آخر لو أنه هبط على هذه البلاد ، أفلا يدهش من القوة التي تتمتع بها هذه الاتحادات من غير أن يكون عليها من المسئولية قدراً يناسب تلك القوة؟ أقول هذا لأثبت ضرورة أن تحتفظ الحكومة الأمريكية بسر الطاقة الذرية ، لا لأن الاشتراكية أمر غير مرغوب فيه ضرورة ، بل لأن هذه الطاقة قد استكشفتها الحكومة، ومن الحمق أن يعطى هذا الشيء وهو ملك عام للشعب الاميركي أو الى أي فرد أو أي مجموع من الناس . أما من حيث الاشتراكية ، فانها اذا لم تكن دولية الى حد العمل على تأليف حكومة عالمية تأخذ في يدها كل القوى الحربية، ففي الغالب تكون أداة أكثر تسبيباً للحرب من الرأسمالية ، ذلك بأن الاشتراكية تمثل نظاماً أكثر تركيزاً للقدرة في أيدٍ قليلة .

أما أن أقدّر متى تصبح الطاقة الذرية مطبقة في الحاجات والأغراض الانشائية ، فذلك مستحيل . إن ما هو معروف حتى الآن ينحصر في كيفية استعمال كمية كبيرة من الاورانيوم. أما استخدام كميات صغيرة منه بحيث تكون كافية للعمل لتسيير سيارة أو طائرة، فأمر مجهول حتى الآن . واني لا أشك في أن ذلك سوف يكشف حجابه ، ولكن من العسير أن يتنبأ انسان متى يكون ؟

كذلك لا يستطيع انسان أن يتوقع متى يمكن توليد الطاقة الذرية من مادة أكثر ذيوعاً من الاورانيوم . وبديًّا أقول أن المواد التي يمكن أن يحصل منها على الطاقة الذرية ، لابدّ من أن تكون من بين العناصر الثقيلة ذوات الوزن الذري الكبير . وهذه العناصر قليلة نسبيًّا ، لأنها أقل ثباتاً من غيرها . على أن أكثر هذه المواد ربما تكون قد زالت وفنت بسبب ما فيها من النشاط الاشعاعي . واستخدام الطاقة الذرية ، ولو انه سوف يكون نعمة سابغة على النوع البشري ، فان ذلك سوف يتأخر بعض الوقت .

واني لأعجز عن أن أعبر تعبيراً جيداً عن الحاجات السريعة والمشكلات التي تواجه النوع البشري الآن . وكذلك فاني أحيلهم الى كتاب « إمري ريڤز » Emery Reves الذي عنوانه:

The Anatomy of Peace فانه كتاب مختصر مفيد واضح الأغراض ، وفيه عرض شائق لما أدعو اليه من نظام الحكومة العالمية .

***

بالرغم من أني لا أعتقد أن الناس سوف ينعمون قريباً بما سوف تهديهم اليه الطاقة الذرية ، فاني أقول انها في هذا العصر داهية دهياء . فانها قد تحول دون السلالة البشرية أن تصل الى نظام مّا في المسائل الدولية ، ما لم يأخذ الخوف والفزع بخناق الشعوب

المجلس القومي

National Assembly. — Assemblée Nationale (fr.)

في التاريخ الفرنسي :

أول الجمعيات الثورية ، وقد ظل مسيطراً على فرنسا من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٧٩١ ويتلخص تاريخه في أن « مجلس الطبقات States-General انتخب في سنة ١٧٨٩ وافتتح في ٥ من مايو ، وفي شهر يونيه طغت الطبقة (Estate) الثالثة على الطبقتين الاخريين ، أي العامة ، على النبلاء ورجال الدين ، وتسمت باسم « المجلس القومي » وانحصر عملها في وضع الدستور فسميت « المجلس التأسيسي » (Constituent Assembly) .

وهناك جمعيتان فرنسيتان دعيتا بهذا الاسم . الاولى : الجمعية التشريعية التي ألفت في فرنسا بعد ثورة سنة ١٨٤٩ ، والثانية : الجمعية التي التأمت سنة ١٧٨١ بعد سقوط القيصرية الثانية .

خريف

للشمس خلف مطارف السُحُب صورٌ تثير مكامن الرِيَب
فكأنها والغيم يحجبها عينٌ مسهدةٌ من الوصب
وشعاعها ذوب النضار همى أو صَيِّبٌ من عارض اللهب
ينساح صوب النور منهمراً ويفيض في الآفاق عن صبب
والغيم لجٌّ ضاقَ ساحله فأغار كالمحموم عن غضب

***

نشر الصباحُ دفين ما كتمت في صدرها الدنيا من الكُرَبِ
فانزاح ستر الليل عن صور شتى وعن أشجان منتحب
يا هولَ ما تخفي الحياة من الـ أحزان خلف مطارف قُشُب
ما أشرقت شمس على بلدٍ الاَّ وضجَّ القومُ بالحرب

***

هتك الخريفُ غلالة عجباً من نسج ما نظمت يد السحب
ومضى يفحُّ بكل رابيةٍ من كل داء غير مرتقب

فارتاعت الأفنان واصطفقت عن رعشة من صدر مضطرب
وتناثرت أوراقها بدداً كمدامع من جفن مغترب
تتساقط الاوراق عن فننٍ كمهيض جنح حطَّ من لغب
أو كالفراشة آنست قبساً في ليلة ظلماء عن كثب
فهوت ترامى بالجناح على قبسٍ من النيران ملتهب
للغصن من شجن اذا عصفت ريح به أشجان مكتئب
تترنح الاغصان مائلة كترنح السكير من وصب
وتمدُّ فوق شتيت ما نثرت من نورها الارواح كفَّ أب
أوراقها فوق الثرى بدد وعلى الربى نهب لمحتطب

***

آمالنا ورق تقاذفُه يد عابثٍ في لجة الحقب
وشبابنا الفينان فاكهة لكنها نهبٌ لمغتصب
أسفاً : أكل شبيبة سمقت تجتذ دوحتها يدُ العطب ؟

دمشق عدنان مردم بك

ساروجيني نايدو

شاعرة الهند وروحها الحائر

في الهند ألوف من النساء كلهنَّ باسم « ساروجيني » ، فانه اسم محبب عند الهنود . ولكن في الهند « ساروجيني » واحدة ، هي القيثارة الربانية التي يقف عندها جميع اهل الهند ينصتون إذا ما انطلقت بألحانها الشجية .



ساروجيني نايدو

هذه القيثارة « ساروجيني نايدو » من أسرة برهمية قديمة من شرقي بنكاله . استقرَّ المقام بأبيها دكتور « شاتُو بدْهايا » وأسرته في « حيدر اباد » بمقاطعة « الدَّكن » ، وهناك ولدت « ساروجيني » في الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكانت أمها امرأة عاقلة عطوف ، فنشأت شاعرة المستقبل في طفولة هادئة سعيدة وسط أسرتها الكبيرة المؤلفة من عدَّة اخوة وعدَّة أخوات .

كانت « ساروجيني » أوَّل نشأتها فتاة لامعة الذهن ذكية الفؤادُ نشيطة الحركة ، ولقد لبسها شيطان الشعر وهي في أوليات سنيها . فلما كانت في الحادية عشرة من عمرها ، تغنت بأول أشعارها ، وكأنها كانت تنطق بلغة شاعر عربي حديث إذ يقول :

للحب أول أشعار هتفت بها   وللجمال بها أولى رسالاتي (١)

---

(١) البيت للشاعر علي محمود طه والبيتان السابقان هما :

جددت ذاهب أحلامي وليلاتي   فهل لديك حديث عن صباباتي
يا كعبة لخيالاتي وصومعة   رتلت في ظلها للحسن آياتي
للحب أول أشعار هتفت بها   وللجمال بها أولى رسالاتي

وبدأت في الثالثة عشرة تنسج قصيدة مطولة على غرار قصيدة سير « وولتر سكوت » : سيدة البحيرة : "Lady of the Lake" ، وأخذت تكتب « مأساة » قصيرة : ووفدت الى انجلترا في سنة ١٨٩٥ ، ودرست في كلية « كنجس » بلندن ، وفي كلية « غرتون » بكمبردج ولكن سوء صحتها حملها على القفول ثانية الى الهند بعد ثلاث سنوات .

***

ابتعدت « ساروجيني » عن ان تطرق الموضوعات « الغربية » ، وانطوت على الهند تستلهمها الوحي وتستمد منها مادة القوافي . فأخذت تكتب عن أسواق الهند وعن أعيادها وعن مناظر أرضها الأولى وخلجات نفسها تتجه نحو كل ما هو هندي ، فصاغت في لغة أهل التاميز مجموعة من الأشعار فيها كل نبضات الشرق الحزينة المتوثبة نحو الكمال ، فحلقت بها تلك الأنغام الشجية الى سماوات أفعمت سماء الغرب كله . أما الجمال الذي تخلعه أشعارها على مجالي الهند ، فمن الأسباب الأولى التي طيرت اسمها في آفاق الخلود .

وظهر للشاعرة ثلاثة كتب : الاول « العتبة الذهبية » : The Golden Threshold ، والثاني « طائر الزمان » : The Bird of Time ، والثالث : « الجناح الكسير » : The Broken Wing

***

في سنة ١٨٩٨ تزوجت « ساروجيني » من دكتور « نايدو » من نابهي أهل « حيدر اباد » فاستولدها أربعة أولاد قالت فيهم قصيدتها المشهورة « الى أولادي » : To my Children ، فوصفت ابنها الأول « جايا سوريا » بأنه سوف يكون « شمس الأغنيات والحرية » . وقالت في ابنتها « بادميا » — « أنها عذراء تفيض بالطعوم الحلوة ، بريئة كزهرة النيلوفر » . ووصفت إبنها « راناد هيرا » — بأنه « رب المعارك » ، وتمنت لو أنه يجاهد جهاد بطل مغوار في معركة الحياة . أما ابنتها « ليلاماني » فهي عندها — « دُرّة المرح » وتمنت لو أنها تظل ما عاشت « محررة من الحزن فائقة بالغبطة » .

***

أما بيتها في حيدر اباد فسمته « العتبة الذهبية » بعنوان قصيدتها التي أشرنا اليها آنفاً

وفيه عاشت عيشاً هنيئاً رغداً ، وحييت حياة منتجة خصبة ، ومن جنباته قادت الحياة الاجتماعية والثقافية في تلك المدينة الصاخبة .

***

وفي سنة ١٩٢٠ اقتحمت « ساروجيني » ميدان السياسة القومية ، ورأست « مؤتمر الهند القومي » ، وأصبحت الساعد الأيمن لمهاتما « غاندي » ، وكانت في طليعة الحركة النسائية فرأست « مؤتمر النساء الهندي » .

وفي سنة ١٩٣١ هبطت انجلترا مع مهاتما «غاندي» عضواً في مؤتمر «المائدة المستديرة». ذلك بأن فيها من صفات الجد والعقل ونزاهة النفس ما أهلها لأن تكون من الزعيمات المبرزات في ميادين الحياة العليا .

وبالرغم من أنها كرست حياتها لمشكلات بلادها القومية ، وصرفت في سبيلها كل ما وهبتها الطبيعة من قوة ، فانها الى جانب هذا كبيرة الاهتمام بالمثاليات الأممية ، مثاليات الدولية العالمية ، القائمة على تعاطف الشعوب وتبادل المنافع واحترام الحقوق العامة للبشر أجمعين .

***

وهي فوق ذلك تتصف بالمرح وسعة الأفق ، فتقول : « إن أعظم ما وهبتني الحياة من الهبات ، أو بالحري ما وهبني مزاجي منها ، هو الضحك ، وليس عندي في الدنيا مايساويه قيمة » . كذلك هي بروحها ومزاجها هذا من المتحمسات اللواتي يشعن في جوهن الاقدام ويبعثن قوة الخيال والوحي فتتقد وتزكو ، فلا تخبو .

***

إن « ساروجيني نايدو » هي « سحبان »[1] الهند ، وكروانها الفرد . هي خطيبة في مستطاعها أن تحمل سامعيها على جناحيها وتطير بهم في آفاق مديدة قصية ، إذ تأخذهم بلاغتها ، وتختلبهم بفصاحتها واتساق معانيها وألفة عباراتها وخيالها الشعري ومنطقها الهادىء الرصين .

(١) خطيب جاهلي يقال انه أخطب العرب

ان روح هذه الشاعرة الشرقية العظيمة قد انصبّ جميعاً في شعرها ، وحياتها الغالية الثمينة تمثلت جميعاً فيه . وننقل هنا مثلاً من شعرها تهب فيه نوافح القوّة والبكاء على وطنها ، فترثيه ، ولكنها في الوقت نفسه تستعديه على الزمن وعلى الأقدار .

To India

" O young through all thy immemorial years !
" Rise, Mother, rise, regenerate from thy gloom,
" And, like a bride high-mated with the spheres,
" Beget new glories from thine ageless womb !

* * *

" The nationas that in fettered darkness weep
" Crave thee to lead them where great mornings brake...
" Mother, O mother, wherefore dost thou sleep ?
" Arise and answer for thy children's sake !

* * *

" Thy Future calls thee with a manifold sound
" To crescent honours, splendours, victories vast ;
" Waken, O slumbering Mother, and be crowned,
" Who once wert empress of the sovereign Past.

* * *

هذه الروح لا يدركها الاّ شاعر ، وحرام أن ينقلها الى العربية غير شاعر ، نثراً أو شعراً .

خرافة تاريخية

سيدة ثورميدور ومصرع روبسبيير

أذكر أن مجلة الهلال كانت قد نشرت منذ سنوات مقالاً عن انقلاب ثورميدور في أيام الجمهورية الفرنسية الأولى . ذلك الانقلاب الذي أدى الى مقتل روبسبيير وازالة حكم الارهاب . وقد ذكر الأديب الفاضل صاحب المقال أن تالبين النائب الارهابي النزعة، عشق تريزا كاباروس التي كانت تسمى مدام فونتني قبل أن تطلق من زوجها الأول ، وأن هذا العشق صقل نفس تالبين وألهمه الرحمة والعدل والاعتدال وكان مندوباً للحكومة الثورية ومجلس النواب للبطش بالرجعيين في بوردو وحوض الجارون . فلما رأى روبسبيير أثر ذلك العشق، سجن تريزا كاباروس، فأرسلت الى صاحبها تالبين الرسائل من سجنها تحثه على اسقاط روبسبيير، كما أرسلت اليه خنجراً كي يقتله فيخلصها ويخلص الشعب منه ، فأدركت تالبين الحماسة والشهامة، فقام في مجلس النواب وحثهم على اسقاط روبسبيير وازالة حكم الارهاب فانقاد له النواب وأسقطوا روبسبيير . وهذه القصة تخالطها أغاليط تجعلها أشبه الاشياء بالخرافة . وهي مؤسسة على اشاعة شاعت بين الجمهور الجاهل عقب مصرع روبسبيير ، ثم زينها لامارتين الشاعر المؤرخ بخياله ، وان كان خياله في بعض الأحايين موضحاً للحقائق كالمنظار المكبر، ولكنه كان في بعضها خيالاً يطغى على الحقائق . ثم عمقها المؤرخ أرسين هوسي بأسلوبه الخطابي وهو يعترف أنه أخذ القصة عن إحدى بنات تريزا كاباروس .

أما أن تالبين عشق تريزا فصحيح ، وصحيح أن روبسبيير قضى بسجنها ، وصحيح أن تالبين كان من المؤتمرين به وانه رفع خنجراً في مجلس النواب، ولكن كل ما عدا ذلك باطل للأسباب الآتية :

أولاً — إن روبسبيير كان يدافع عن الأرهاب من غير شك، ولكنه كان يكره ما كان يفعله كثير من زعمائه من اتخاذه وسيلة لنيل مآربهم واختلاس الأموال وقبول الرشاوي

والمتاجرة بأوامر العفو عن المتهمين واتخاذ الرشوة سلاحاً معلقاً فوق رؤوسهم ، من دفعها نجا، ومن لم يدفع أعدم.وقد اتهم تاليين بهذه التهم ومن أجل هذه التهم استدعى الى باريس.

وقد اتهمت تريزا كاباروس عشيقته بأنها كانت من وسائط تلك المتاجرة بأوامر العفو وقبول الرشاوي وانتهاب الأموال ومن أجل ذلك لم تذكر اسم تاليين عند استجوابها بعد القاء القبض عليها كأنها ما كانت تعرفه .

هذا التجاهل كان خطتها وخطته في ذلك الوقت قبل سقوط روبسبير وهي خطة معقولة سليمة مسلمة لتجنب خطر تلك التهم . ولكنها تخالف القصة الخرافية التاريخية المعروفة .

ثانياً — إن الأوراق التي خلفها روبسبير وشكاوى تاليين من مراقبته تثبت أن رقابة شديدة كانت مفروضة عليهما فما كانا يستطيعان تبادل الرسائل وعشيقته مسجونة .

ثالثاً — كان السجانون يفتشون المسجونات عن مخبآت ، وقد كانوا في بعض الأحايين يبالغون في ذلك فيفتشون عوراتهن فما كان من المستطاع أن تخبيء تريزا خنجراً . وكانت المسجونة تنزع عنها ثيابها كلها عند دخولها السجن وتفتش ثيابها وأعضاء جسمها أمام عدد كثير من الشرطة .

رابعاً — لو فرضنا جدلاً انها كانت تستطيع أن تخبيء خنجراً فما كانت تستطيع أن تبعث به الى تاليين مع الرقابة الخاصة المفروضة عليها وهي لو استطاعت، فانها ما كان يبلغ بها الحمق هـذه الدرجة إذ أي رسول كان يؤتمن على تحريض على القتل يؤدي الى اعدامها بلا تردد . وهي تريد النجاة لا الهلاك .

خامساً — كان هم تاليين قبل الائتمار بروبسبير أن يزيل من ذهنه أثر صلته بتريزا التي كانت من أسباب استدعائه واتهامه في نزاهته فكانت خطته أن يقطع صلته بها ويسترضيه .

سادساً — بالرغم من دفاع روبسبير عن الارهاب فانه كان يهاجم أي مندوب في المقاطعات بلغه مبالغته في القتل بغير حق كما هاجم فوشيه ، وقال له ان الجريمة مكتوبة على وجهه . ويكفي أن نقارن بين حكم كوتون صديقه في مدينة ليون وبين حكم فوشيه وكولودربوا، لنعرف أن أعداءه زعماء الارهاب الذين دبروا الائتمار به لم يفكروا في تعطيل الارهاب عند ائتمارهم به . ويحسن أن نذكر أن المعتدلين من النواب وكانوا أكثر الأعضاء تردداً

قبل أن ينضموا الى ذلك الائتمار خشية انتقال النفوذ الى من هم أشنع منه . إلاَّ أن نفوذ روبسبيير في جمعية اليعقوبيين وسيطرته على المجلس البلدي في باريس جعلته خطراً أعظم . وكانت تلاحقه عداوة اتباع من حثَّ على قتلهم كما انه أخطأ في مخاصمة أكثر زملائه من أعضاء مجلس السلامة وبتهديد النواب تهديداً حسبه كل نائب موجهاً اليه . وعند ما رفع تالين خنجره كان يعرف أن الارهابيين والمعتدلين مجمعون على اعدامه ولولا ذلك ما اجترأ على رفع الخنجر .

سابعاً — ان انتصار الجيوش الفرنسية ودفع خطر الغزاة عن فرنسا كانا أهم سبب من أسباب سقوط روبسبيير ، إذ لم يعد هناك داعٍ يسوّغ بقاء الارهاب الذي كان بمنزلة أحكام عرفية شديدة الوطأة قبلها الفرنسيون وخضعوا لها في أوقات الخطر الداهم من الخارج . ولكن إذا كان لانسان فضل في تدبير الائتمار فالفضل في ذلك لفوشيه الداهية الذي كان يعمل في الخفاء كي يؤلف بين الأحزاب ونسب الفضل الى تالين لأن الجمهور لم يكن يعرف أسرار ذلك الائتمار وراعته اشارة تالين بالخنجر .

ثامناً — كان روبسبيير قد أغرى النواب بوضع حدّ أعلا للأجور لا يتعداه عامل أجير . وكانت الأجور قد ارتفعت ارتفاعاً كبيراً خشي منه أن يعطل الاعمال وكان ارتفاع الأجور بسبب تجنيد كثير من العمال وارسالهم الى الحدود للدفاع عنها . وكلما قلّ عدد العمال ارتفعت الأجور . ولكن الأوراق المالية كانت قد انخفضت قيمتها وارتفعت أثمان الحاجات . ولعلَّ وضع حد لارتفاع الأجور كان من أهم أسباب انصراف رجال الثورة في باريس — وكان أكثرهم من العمال — عن روبسبيير عند ما اعتصم بالمجلس البلدي، فتمكنت جنود الحكومة من القبض عليه مرّة ثانية ثم أعدم وانتقل النفوذ الى المعتدلين في جمعية النواب .

تاسعاً — ان تاريخ تالين وتريزا كاباروس بعد مقتل روبسبيير يكذب أيضاً تلك الأسطورة . انه تزوجها كي يستثمرا سياسيًّا وأدبيًّا أسطورة الحب المطهر القاهر الذي غلب روبسبيير . ولكن تالين كان مضطرباً في سياسته يخون الحكومة سرًّا . وبالرغم من وعده بالدفاع عن أسرى حملة كيبيرون من النبلاء يسلمهم للقتل وما زال يتخبط حتى فقد

نفوذه . أما تريزا فقد انتقلت الى عشاق مثل بارًّا واوفرار وطلقت منه ، بعد أن أسرفا وبذرا الأموال التي جمعاها .

والخلاصة اذاً هي أن عشق تاليين تريزا كاباروس لم يكن له أثر في سقوط روبسبيير وانتهاء حكم الارهاب، وان تاليين كان أداة في يد غيره من أمثال فوشيه، وان الحب لم يطهر قلبه ، وان قصة إرسالها الرسائل والخنجر من السجن كي تحث تاليين على اسقاط روبسبيير وقتله قصة خرافية، وأن تاليين كان يدافع عن حياته عندما اشترك في الائتمار به بعد أن حاول استرضاءه وخاب ، وبعد أن تذلل له فلم يكن اشتراكه في الائتمار بسبب حبه تريزا، وان الارهابيين الذين رأسوا ذلك الائتمار ما كانوا يفكرون في ازالة حكم الارهاب بل كانوا يريدون بقاءه ما دامت الحرب قائمة لأنه كان بمنزلة أحكام عرفية . وإنما زال بالرغم منهم عند ما ابتعدت أخطار الحرب وأبى الشعب أن يظل قائماً .

ع . ش

أتقضى معي إن حَانَ حَيْني تجاربي
وما نِلْتها إلاَّ بطول عناء

وأبذل جهدي في اكتساب معارف
ويَفنى الذي حصَّلته بفنائي

ويَحزُنني ألاَّ أرى ليَ حيلة
لإعطائها من يستحق عطائي

إذا وَرَّثَ الجهَّال أبناءَهم غنىً
وجاهاً ، فما أشقى بني الحكماء

« من شعر المرحوم حفني بك ناصف »



أدب البحر

عند العرب والفرنجة



لم يأنس العربي بشيء في يوم من أيام حياته إيناسه بناقته ، فهي عروس الصحراء يتغنى بها ويشدو ، ويريق عليها روائع الوصف وبدائع الوشي ، وهي الى هذا كله ملاذه الأمين ، إذا عطش شرب من ضرعها ، أو جاع نحرها ، أو ارتحل امتطاها ، مثل هذه الناقة عزيزة على العربي ، كان يضرب بها في مشارق الأرض ومغاربها وفي بعض الأحايين يقف أمام شيء أزرق لا حدود له ولا نهاية ، فتهزه روعة هذا الشيء العظيم ، ولما كانت طبيعة الصحراء هي الحاكم المطلق في نفس العربي ، لذلك رأيناه يبتعد جهده عن البحر ، هـذا البحر الذي قال عنه لوتي : (الحلقة الزرقاء والوحدة القاتمة العميقة ، لا شيء يمر ولا شيء يتغير) . يرتد العربي عن البحر ، وفي قلبـه تطلع الى ارتياد آفاقه ، ولـكنه يعلم حق العلم وحدته في دنيا البحر ، فكل شعوب الأرض لها آلهة ، وهذه الآلهة تتولى كل حرفة برعايتها ، وكل صنعة بعنايتهـا ، فالاغريقي مثلاً يؤمن بـ (بوسيود) إله اليمّ ، ويعتقد فيه اعتقاداً عميقاً قويـًا حتى انه كان لا يتورَّع عن تقديم ضحايا بشرية له ، مقابل بسط سـلطان رحمته عليه . أما العربي فلم تكن له آلهة بحر تحميه من شرّ اليمّ ، لا بل انه قلما ارتاد البحار وجاب آفاقها وهو إذا طرق باب الهند فقد كان يلزم سيف الشاطىء في معظم الأحايين ، وهكذا لم نجد في الأدب العربي القديم شيئاً يطلق عليه اسم أدب البحر ، ذلك الأدب الذي يصوّر لنا حياة الخضمّ و (افروديت) منبثقة من زبده الأبيض الناصع ، وأسطول (آغامنون) ومغامرات القرصان وانطلاق الروّاد في مجاهل البحـار لاكتشاف الرقاع الجديدة ، كان كل هذا مصـدر أدب وجداني طريف ، طالعنـاه في شعر (أندره كانتل) ، وآثار (كاميل فالو) الذي يعتبر من

أكبر كتاب البحر ، و (رامبو) في (سفينة السكري) والكاتب القصصي (ستيفان زديك) في حكاية (ماجلان) وأخيراً (بودلير) يطلع علينا بأروع شعر عن البحر ، يطلع علينا بقوله : (ما من أحد يعرف ثروتك ، كم أنت غيور على كتمان أسرارك) ويتابع بودلير قصيدة (الرجل والبحر) على هذا النحو من التنظيم الذي خص به وانفرد به دون غيره من الشعراء ، ومن ثمّ (بيرلوتي) وكلود فارير يصفان البحر وصفاً منثوراً لا يجاريه وصف.

ولكن شعراء وكتّاب الانجليز فاقوا غيرهم في هذا الباب ، فقد كان البحر مادة حياتهم الأولية ، منه انطلقوا ومنه ذهبوا في الآفاق ، ومنه شادوا امبراطوريتهم من سفينة الصيد البدائية حتى أحدث سفينة عصرية ، تحمل فوقها شعراء مغامرين كما حدّثنا (مايكل لويس) في كتابه (البحرية البريطانية ورجالها) — هؤلاء الشعراء وصفوا شيئاً أعظم من البحر أيضاً ، وصفوا معارك البحر ، كما فعل الشاعر (كامبل) حيث نمّق معركة (الارمادا) ثم الطرف الأغر أحسن تنميق .

***

نشأ العرب نشأة بدوية ، لذلك عزّ عليهم مفارقة المفاوز الى غيرها من سبل هذه الحياة الدنيا ، فكانت معظم رحلاتهم التجارية برية ، رحلتي الشتاء والصيف ، ولم يغامروا فوق سطح البحر وراء ما قال عنه الشاعر بول كالك .

[سل أيّ بحّار كان ، لماذا تطوّف فوق البحر ، أجابك كيما أشاهد بلداناً جديدة] لأن المدينة ذاتها لا تستهويهم .

***

وهكذا ظلّ الأدب العربي مفتقراً الى هـذا الضرب من الأدب حتى مكن الله لهم في الأرض واضطروا تحت تأثير عوامل دفاعية في أول الأمر الى بناء أسطولهم البحري ولم يتم ذلك إلاّ في عهد معاوية ، ذلك لأن معاوية طلب من الخليفة عمر بن الخطاب السماح له بانشاء أسطول بحري يرد به عدوان أسطول الروم عن السواحل الشامية ، إذ كان الروم يغزون البلاد الساحلية بحراً ثم يولون في البحر بعد إمعانهم في أهلها قتلاً وإيغالهم في رزقها

نهباً ، ويقف جيش معاوية أمام هذا العدو الذي لا سبيل إلى مقارعته إلاّ بنفس سلاحه ، فيقرّر معاوية انشاء أسطول بحري .

***

بدأ طلب انشاء الاسطول العربي البحري في عهد معاوية إبان كان والياً ، فدرس الخليفة عمر الطلب ، فارتأى معرفة رأي عمرو بن العاص والي مصر في ذلك الحين ، فلما عرف عمرو ابن العاص أن معاوية سيضيف قوة بحرية إلى قوته البرية ، خوّف الخليفة عمر بن الخطاب من البحر ، برسالة تعدّ من أروع رسائل أدب البحر عند العرب ، فما كان من الخليفة إلاّ أن قال (لا تجعلوا بيني وبين المسلمين بحراً) .

ولكن تطوّر العرب التاريخي الناهض ، كان يسير بسرعة فائقة ، بحيث لم يكن في مقدور أية قوة في العالم وقف زحفه ، فقد دخلت الامبراطورية العربية في عهد جديد ، بعد تقلد معاوية الخلافة ، إذ دخلت في عهد الامتداد ، ومثل هذا يتطلب لا حماية السواحل العربية فحسب ، بل انشاء السفن التي تحمي هذه السواحل وتغير على بلاد الأعداء أيضاً.

وكان أول أسطول عربي أسطول (الأمير عبد الله الفزاري) وكان شعاره (الغمرات ينجلينا) ، ولما كان معاوية يدرك موقف العرب من البحر وكرههم له ، لم يشأ حملهم بالقسر على الجهاد في غمراته بل جعله موقوفاً على المتطوعين الذين ينهدون اليه من تلقاء أنفسهم . وقد كان معاوية من الذكاء بحيث أنه ضاعف أعطيات هذا النفر من الناس الأشاوس ، ولما كانت البلاد الشامية على اتصال وثيق بالبحر منذ العهد الفنيقي ، لذلك نهدت الشام إلى إعداد الأسطول ، معدة إياه من أرز لبنان العظيم .

لم يكد الأسطول العربي يجهز ، حتى علم معاوية بغارة بحرية على سواحله ، فأرسل أسطوله في إثره ، وهو أسطول صغير يعوزه التدريب البحري ، ومع هذا فقد هزم أسطول الروم ، وبذلك كشف العرب عوار الروم البحري ، وأدركوا أنهم ليسوا في البحر أمنع منهم في البر ، وهكذا راحوا يغيرون على سواحل الأعداء تحت قيادة (الفزاري) غير حافلين بأعباء البحر ، ولكن (الفزاري) مات ميتة ماجدة وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، فقد تنكّر ونزل الى مدينة رومية تقوم على رابية حتى يتسنى له ، وهو أمير البحر

معرفة مواضع الضعف في المدينة ومهاجمتها ، غير أن سوء حظه دفعه الى افتضاح أمره ، فقد عرفته امرأة رومية بالرغم من تنكره الشديد ، إذ سبق له أن أغار على بلدتها ، فأغرت به الأهلين وتصايحوا من كل حدب وصوب ، ثم تألبوا على الأمير العربي الشاب ، الذي ظلّ يحارب حتى مزقته السيوف والرماح ، بعد أن قتل من الأعداء مقتلة عظيمة .

من هنا يتضح لنا أنه بظهور الأسطول العربي ظهر الى جانبه تاريخه ، فالهجوم على القسطنطينية برًّا وبحراً هو جماع تحف وصفية عن معارك البحر نطالعها منثورة في كتب (الطبري والمسعودي وابن قتيبة) وخاصة فيما يطلق عليه اسم (المغازي والفتوح) ، ولكن ما كتب هؤلاء لا يعدو التاريخ ، إذ ظلّ ينقصه ذلك الشيء الوجداني الذي يتطلبه الأدب . كان البحر عند العرب في أول الأمر ، مركب دفاع عن السواحل ثم تطوّر الى مركب هجوم ، ولما أثرى العرب بدأ الفن يعمل عمله في حياة العرب البحرية ، ذلك لأن الإنسان لا يقنع بالطبيعة، بل يعمد الى الفن ليضاعف به الحياة، ومن هنا نشأت الزخرفة في الأسطول العربي وأدب البحر عند العرب وعند الفرنجة .

***

قضي على الدولة الأموية في الشرق فقامت دولة أموية أخرى في الغرب ، وكانت هذه الدولة أكثر عناية بالأسطول من كل دولة عربية أخرى فقد كان عليها أن تصد عادية الفرنجة كما كان عليها أن تصد عادية (العبيديين) فكانت المعارك بين الطرفين مطردة مستمرة ، وبالرغم من هذا التناحر القائم بين أبناء القوم الواحد فقد تمكن العرب من بسط سلطانهم على البحر المتوسط والاستيلاء على قسم كبير من سواحله وجزره (الاستراتيجيكية) بحيث نستطيع القول أن العرب في القرون الوسطى كانوا على حق إذا قالوا عن البحر المتوسط : هو بحرنا .

ولما كان الظفر يقابل عادة بالبهجة فقد تأثر الشعراء العرب به وصاغوه شعراً ثم اندفعوا الى أبعد من هذا الحد فوصفوا البحر وصفاً فنيًّا ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء : (ابن هاني الأندلسي وعلي بن محمد الأيادي التونسي وابن قلاقس الاسكندري وابن حمديس ...)

كان الواحد من هؤلاء الشعراء إذا طرق باب أدب البحر وحاول وصف السفن قال عنها :

(رب جوار ٍ منشئاتٍ طوائر بين السماء والماء ،
إذا نشرت أجنحتها روض ونور ،
فهي ذات هدب من المجاذيف خال ،
وهي في نفس الوقت هدب باك لدمعه اسعاد
غير أن هذه السفن الجارية على البحار
تحمل فوقها حمم شواظها من لهب ،
فكل من ترسل إليه يغدو رماداً
الكماة على ظهورها وبطونها دائماً وأبداً حذرين
وإذا انطلقت كان انطلاق السحاب المندق ،
والعجب العجاب في أمرها إن يحمل الأسد الضواري زورق .
والذي أروع من هذا أنها ذات زئير وهي صوامت ،
وتزحف زحف موكب في زورق ، فهي ترمي ببروج إذا ظهرت للعدو ، وبنفط
يخاله الانسان ماء يذكي السكان.
وهي شواني طائرة ومدن بنيت على الماء ،
ذات بروج شاهقة تقذف بالحمم) .

***

هذه نتف منثورة من أدب البحر عند العرب ، لم يقتصر أمرها على أدب الأندلسيين والفاطميين وغيرهم من سكان شمالي أفريقيا ، بل شمل وحي البحر العباسيين أيضاً ، فقد كانت سفن الأسطول العباسي مثل سائر سفن الأساطيل في القرون الخالية ، أي أنها كانت تجارية وحربية في وقت واحد ، إذ لم يتم التفريق بينهما إلا في عهد (هنري الثاني) لذلك كان على الذي يرتاد البحار أن يكون مغامراً ، ومن هنا نشأت تلك الأقاصيص العظيمة الرائعة عن (السندباد) وغير السندباد . وكانت قصة (الف ليلة وليلة) تؤلف جزءاً غير يسير من أدب البحر .

ولـكن الغرب إذا أبدع محمد بن هاني الأندلسي فقد أبدع الشرق النواسي هذا الشاعر الذي وصف سفينة الأمين ، وهي تشق عباب دجلة ، وقد نحتت على شكل أسد ، والأهلون مصطفون على الضفتين يشاهدون هذا الموكب الرائع حيث الفتيان تغني فوق السفينة .

***

ويقول صاحب الأغاني إن الخلفاء العباسيين ألفوا البحر وأحبوه ، فكانوا يركبون دجلة ويقضون فوق مائه ميرهم وأنسهم ، حتى أن الأمين كان لا يسمع غناء الملاّحين إلاّ في الزلالات الفخمة الأنيقة .

***

حيال كل ما تقدم لا يسعنا إلا التساؤل :

أيقوم أدب أمة بدون أدب بحر ؟

لا ريب أن الجواب على هذا السؤال يرجع الى عاملين خطرين :

الاول : مركز البلاد الجغرافي وقربه وبعده من البحر .

الثاني : حضارة الامة وامتداد سلطانها .

فالمركز الجغرافي البحري يساعد مساعدة تامة على بعث ادب البحر ، وقد ينطبع عصر بكامله بطابع هـذا الأدب كما كان الحـال في انكلترا إبان القرن الثامن عشر ، والحضـارة وامتدادها من شأنهما خلق شرائط اجتماعيـة أقل ما يقال فيها إنها توحي بأشـياء غنية موفورة ، فالشاعر المعاصر (مايستفيلد) لا يصوّر أدب البحر تصوير القدماء ، بل يصوّره تصويراً نفسيًّا يخاطبـه ويتحدَّث اليه ، ويناجيه ويبثه شكواه . وهكذا تمتد ذات الشاعر الوجدانية كلما تقدمت الحضارة ، لأن الحضارة في جوهرها امتداد لفردية الانسان ، والشاعر وحده أكثر الناس تصويراً لهذا الامتداد .

سوريا — دمشق : نسيب اروشيام

المتنبي

شغل الناس في كل عصر

في (نفح الطيب) :

« تباحث المعتمد بن عباد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره :

أزورهم وسواد الليل يَشْفَع لي   وأَنْثَني وبياض الصبح يُغْري بي

فقال : ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها الا أنّ فيه نقداً خفيّاً ففكروا فيه ، فلما فكروا قالوا له : ما وقفنا على شيء . فقال : الليل لا يُطابَق الا بالنهار ، ولا يطابق بالصبح ، لان الليل كُلّي والصبح جزئي . فتعجب الحاضرون ، وأثنوا على تدقيق انتقاده .

قال الصفدي : ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع أبي الطيب لانه قال (أزورهم وسواد الليل يشفع لي) فهذا محب يزور أحبابه في سواد الليل خوفاً ممن يشي به ، فاذا لاح الصبح أغرى به الوشاة ، ودلّ عليه أهل النميمة ، والصبح أول ما يغرى به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلاً ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفاً من الرقباء ، ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث الى أن يتوضح النهار ، ويمتلىء الافق نوراً . فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار .

قلت : كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي ومن خطه نقلت ما صورته : هو ما انتقد عليه

المعنى انما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح ، فان ذلك فاسد . فحمدت الله على هذه الموافقة .

قلت : يقول ابن رشيق في (العمدة في صناعة الشعر ونقده) :

« ... ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ... » .

والمتنبي يقول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

(شواردها) قصائده السائرة في البلاد (جراها) من أجلها .

في (الايجاز والاعجاز) للثعالبي :

« كان أبو بكر الخوارزمي يقول : أمير الشعراء العصريين أبو الطيب ، وأمير شعره قصيدته التي أولها (من الجآذر في زي الاعاريب) وأمير هذه القصيدة قوله (أزورهم) البيت » .

قلت : قد يرى غير الخوارزمي أن أمير شعره قصيدته (على قدر أهل العزم) وأمير الأمراء ... بيته (ومن نكد الدنيا)

في (الصبح المنبي) :

« قال أبو علي الفارسي : قيل للمتنبي : على من تنبأت ؟

قال على الشعراء

فقيل لكل نبي معجزة ، فما معجزتك ؟

قال هذا البيت :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ، ما من صداقته بدُّ

السنرهمي

الرأي العام الاجتماعي

ليس فيما نشره الأستاذ سلامة موسى في المقتطف عن الرأي الاجتماعي ولا فيما ردَّ به عليه الأستاذ محمد الديب، تحديدٌ للرأي العام أو للرأي الاجتماعي أو تعريف لهما. ولكي يعلم القارىء ماذا يريد كلٌّ منهما بالرأيين أو بأحدهما إذا كانا يعنيان معنىً واحداً ، أرجو أن لا أكون متطفلاً أو فضوليًا اذا استأذنتهما أن أقول كلمة في هذا الموضوع ، فان لم ترق لهما أو للقراء فليعرضوا عنهما كما يعرضون عن كثير من كتابات الكتَّاب التي لا تصادف استحساناً عامًّا .

الرأي العام أو الرأي الاجتماعي قول مبهم بعض الابهام كما سيظهر في سياق هذا البحث.

لا يخفى أن أكثر العموميات كالشعور المشترك والرغبات العامة والاحساس الأدبي والرأي المنتشر وإرادة الأمة أو الجمهور ونحو ذلك ، إنما هي عناصر « العقل الاجتماعي » أو « التفكير الاجتماعي » . وهو معلوم أن نتيجة الاجتماع الأولى هي نشوء العقل الفردي ثم تطوره . والنتيجة الثانية نشوء العقل الاجتماعي أو العقل العام .

العقل العام هو أن يشترك الجماعة في تفكير واحد ويتلقوا أو يعلموا معرفة واحدة ، ويتفقوا من غير تواطؤ اتفاقاً واحداً في الآداب والعقائد والعادات ، ويخضعوا جميعاً تحت تأثير قوانين واحدة . وبموجب هذا التوحيد يسلكون سلوكاً واحداً في عمومياتهم من غير تعمُّل أو تصنُّع .

ولا يجوز الخلط بين « العقل الاجتماعي » و « الوعي الاجتماعي » الدارج على أقلام الكتَّاب في هذه الأيام . فهم يعنون « بالوعي » الوجدان . وما هما بمعنى واحد . فما الوعي إلاّ حفظ الشيء ماديًّا كان أو عقليًّا . والوجدان أشمل وأعمق وأعمّ من العقل ، فهو إدراك الانسان نفسه وإدراك انه يدرك وإدراك ان مدركاته الباطنة والظاهرة صادرة منه . فلا يصلح لفظ « الوجدان » للوجدان الاجتماعي » . ولا نرى أن للاجتماع وجداناً إلاّ في الجماعات

العريقة في التفكير كالجمعيات السياسية والعلمية ، ونحوها ومع ذلك يكون وجدانها ضئيلاً .

دعنا ضمن دائرة « العقل الاجتماعي » : الرأي العام الاجتماعي بواسع معناه واطلاقه هو من مواليد العقل الاجتماعي . فاذا شرّحناه تشريحاً عقليًا اجتماعيًّا لا نجد رأياً اجتماعيًّا عامًّا بتاتاً . بل نجد رأياً اجتماعيًّا خاصًّا لا عامًّا .

كل ما اصطلح عليه القوم أو معظمهم من عادات وعقائد وآداب ومعاملات نسميه رأياً اجتماعيًّا عامًّا على ان كثيراً من هذه المصطلحات متقادمة العهد كالعقائد الدينية أو القوانين المدنية أو الآداب العمومية فنسميها تقاليد Traditions ونحسبها آراء عمومية ولا داعي لنعتها « بالاجتماعية » مع نعتها بالعمومية لأنه لا يكون الرأي عموميًّا إلاّ وهو اجتماعي . وكلما كانت متقادمة الزمن كانت تقاليد مستحجرة أي انه يتعذر نقضها أو تنقيحها بل يكاد يستحيل . وإذا نشأت الى جانبها عقيدة جديدة أو عادة حديثة واردة من خارج البلاد حدث بينهما صدام ونزاع قد يؤدي الى حرب . والغالب ان القديم المستحجر ينتصر في النزاع . كم مرَّ من ألوف السنين على أديان المصريين القدماء . فما تقلقلت إلاّ بعد أن طغى على البلاد الغزاة الأجانب من الغرب من اغريق ورومان .

وكم مرَّ على اليهودية من مئات السنين وكم هاجمتها العقائد الجديدة النصرانية والاسلام فضؤلت ولكنها لم تزل باقية متمسكة بقديمها .

واكتشف منذ مئات من السنين أن الحساب الشمسي مغلوط وبقي معمولاً به لأنه تقليد قديم الى أن تجرَّأ أحد أحبار النصارى وصححه وأجرى التصحيح بسلطة تقليد أقوى منه وهي السلطة الدينية . فجرت عليه الكنائس الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية وبقيت الكنائس الشرقية الارثوذكسية مصرَّة على الحساب القديم المغلوط مئات من السنين وما قبله بعضها إلاّ حديثاً .

كانت العمامة غطاء الرأس عند الأتراك وقد أخذوها من العرب . فلما اتصلوا بالاغريق أخذ السلاطين الطربوش عنهم فأخذه معظم الشعب العثماني من قبيل تشبه الشعب بحكامه . ولكن جانباً كبيراً منهم لا يزالون يعتمّون الى اليوم . وبقي الطربوش شعار العثمانية حتى الآن على الرغم من أن الاغريق نبذوه . وبقي هذا الميراث الاغريقي عندنا في مصر والشام على

الرغم من أن الأتراك نبذوه مكرهين بحكم الحاكم بأمره مصطفى كمال الذي اتخذ اتاتورك اسماً له نابذاً الاسم العربي كرهاً في كل ما هو عربي.

وعلى الرغم من أن مصطفى كمال أمر بقوة استبداده أن تكتب التركية بالحرف اللاتيني لا يزال الأتراك يئنون استهجاناً لهذا الحرف الذي لا يلائم لغتهم لأنها تحتوي على ٦٥ في المئة من الكلمات العربية وأكثر اشتقاقاتها عربية أيضاً فيفضل أن يكون حرفها عربياً.

ونحن كلما هممنا أن ننبذ الطربوش لأنه أقل صلاحية من القبعة في هجير الصيف نكصنا الى الوراء لأن التقليد القديم مستحجر لا يلين لمكسر.

وهناك ألف شاهد وشاهد على أن التقاليد كلما تقاربت تحجرت وصعب جداً تنقيحها بما هو أفضل منها أو تعديلها بمقتضى تطور البيئة الاجتماعية.

انظر الى لغتنا العربية كم عبر عليها من الأجيال والقرون فتطورت ببطء كلي على مدى هذه الأحقاب، حتى انها لم تبتعد كثيراً عن شقيقتيها السريانية والعبرية، مع انك لا تكاد تفهم الآن كثيراً من أشعار الجاهلية والموغلين في قدمها. ومع ذلك لا تقدر الآن أن تنقح شيئاً من صرفها أو نحوها مما يخالف المعقول والاقتصاد في التعبير والقراءة والكتابة والزمان. فما زلت لا تجسر أن تنصب جمع المؤنث السالم بالفتحة قياساً على قاعدة النصب العامة بل يجب أن تنصبه بالكسرة وإلا كفرت باللغة. ولا تجرؤ أن تجر الاسم الممنوع من الصرف بالكسرة حسب قاعدة الجر العمومية، بل يجب أن تجره بالفتحة كابرهيم مثلاً. لماذا هذا وذاك! لا تدري. وإن أعطيت سبباً كان تمحلاً لا يسوغ هذا الاستهجان. وقس على ذلك كثيراً من قواعد اللغة التي لا تنطبق على منطق سليم ولا هي من المحاسن والمحامد بل بالعكس هي من المستنفرات كالمستشزرات. فمنها نون التوكيد المشددة والمخففة التي تضعضع عقل الطالب لتنوع قواعدها ولا لزوم لها مع وجود أساليب أخرى للتوكيد المنوع للذهن مثل إن واللام والقسم.

ومن هذا القبيل قواعد النسبة التي لا ترتكز على أساس. وقاعدة فعول وفعيل وقاعدة تخالف العدد والمعدود الى غير ذلك مما لا يحصى من عيوب قواعد اللغة التي لا يمكن أن تحفظ وتستذكر وليس فيها تسهيل للكلام وفهم الكلام. كل هذه تقاليد مستحجرة.

هذا هو الرأي العام اليابس الصلب الأصم الذي لا تستطيع أن تعارضه أو تقاومه . فاتركه للزمن يعمل فيه عمله .

هذه التقاليد المستحجرة التي لا تعد ولا تحصى هي آراء عامة تسلسلت الينا من الأزمنة المتقادمة ولا ريب انها تطورت ببطء كلي بمقتضى سنة التطور . عانت كثيراً في تطورها أو ان ذويها عانوا جداً في تطويعها بمقتضى تطورات الزمن . وكان كلما أصبح تقليد غير صالح للزمن قام أناس يرتئون تنقيحه فلقوا من أهله عنتاً واضطهاداً يصدهم عنه. ولذلك كانوا يستفزون أنصاراً لهم بالاقناع والدعاية ومع ذلك قد ضحوا في سبيل دعوتهم . فيسوع صُلب ، ومحمد اضطهده قومه ، وسقراط سممه قومه، وغاليليو عاقبوه ، ولولا إذعانه مكرهاً لقتلوه . كل يوم يجد القوم عقيدة قديمة لم تعد صالحة لزمنهم فيهبون لتعديلها أو تنقيحها أو نبذها وابدال غيرها بها . فيكون تجديدهم رأياً جديداً . لا يصح أن نسميه رأياً عاماً لأن هناك أنصاراً للقديم يقومون ضدهم . هذا هو منشأ الأحزاب . ومتى قُلت «أحزاب» «فلا تقل» رأي عام . لأن التحزب يعني انقسام الآراء وتضادها وتعددها .

الرأي الذي يصح أن يسمى رأياً عاماً يشترك فيه سواد القوم هو التقليد القديم المستحجر . الاسلام هو رأي عام . النصرانية هي رأي عام . كذلك البنطلون والسترة والقبعة رأي عام . الخلق الأدبي أو الأدب الخلقي الذي تتخلق به أمة من الأمم هو رأي عام . تناول الطعام بأصابع اليد عند البدو هو رأي عام .

ومتى قامت الى جانب كل عقيدة أو عادة أو أي تقليد قديم بدعة جديدة تنازعه مقامه يأخذ ذلك القديم يتداعى ويضعف الرأي فيه ، كلما استفحلت البدعة الجديدة . هكذا البروتستنتية تجاه الكثلكة . الحكم الملكي المطلق رأي عام كان واسع الانتشار . فلما قامت الديموقراطية الى جنبه صار يتداعى ونشأت آراء اجتماعية جديدة . فالرأي العام هنا تقلص أو بالأحرى تفكك الى آراء متعارضة لم يبقَ رأي يقال انه رأي عام . متى تفتت التقليد المستحجر أفل الرأي العام . ونشأت آراء غير عامة . فالرأي العام بكل معنى الكلمة غير موجود . التقليد القديم المستحجر هو الرأي العام الأثري المحفوظ في المتحف الاجتماعي

كفى ما تقدم من تبيان حقيقة الرأي الاجتماعي العام . فلننعطف الآن الى الرأي الاجتماعي

غير العام وهو ما أظن أن الاستاذ سلامة موسى والاستاذ محمد الديب يعنيانه .

وهذا أيضاً غير موجود بتمام معناه . لأن سواد الامة لا يعرفه وان كان يدّعيه . عندنا الآن رأي اجتماعي ويمكنك أن تسميه عامًّا أيضاً . وهو رأي « الاماني القومية » يمكنك أن تقول لي ان جميع أفراد الامة يدّعون هذا الرأي كما يدّعون الاسلام مثلاً أو الحكم النيابي أو قدسية مناسك الحج . ولكن هل يمكنك أن تقول لي كم واحد في الامة من السبعة عشر مليوناً يفهمون ما هي هذه الاماني القومية ؟ وهل الذين يفهمونها يتفقون على معانيها ونصوصها ؟ وهل هم متفقون على كيفية تحصيلها ؟ لعلّ واحداً في الألف يفهمون هذه الاماني . وواحداً في المئة ألف يتفقون على صيغتها ، وواحداً في المليون لهم أساليب مختلفة في كيفية تحصيلها . فانظر إذاً كم حزب في رأي الاماني القومية . بل كم رأي تفرّع من هذا الرأي . وكم عدد المنتمين لأي رأي فيها . فأين هو الرأي الاجتماعي (العام أو غير العام) في هذه المسألة أو في غيرها .

هنا تقول لي نلجأ الى استفتاء الامة عن طريق مجلس النواب عن أي الآراء أصح أو هو المطلوب دون سواه ، على اعتقاد أن الامة كلها متعلمة ومتنوّرة كالامة الاميركية مثلاً .

نعني اننا نعود الى اشتراط شرطي الاستاذ سلامة موسى للحصول على رأي أكثرية الامة أي أن يكون أفراد الامة جميعاً قادرين على تحصيل الثقافة الكافية للحكم بين الجيّد والسيء . وثانياً أن تكون لهم حرية الكلام في اختيار الرأي الذي يستحسنونه .

جميع الامم العربية (ولا يهمنا غيرها) غير حاصلة على أي شرط من هذين الشرطين لا المعرفة ولا الحرية . لأن النظام الديموقراطي عندنا صوري لا حقيقة له لسببين : أولاً لأن الجهل يسود الجانب الأكبر من هذه الامم، وثانياً لأن الأخلاق ضعيفة جدًّا . وكلا العيبين مستفحلٌ والله أعلم بالوسيلة الناجعة في علاجهما .

حتى في البلاد الراقية ثقافة وأخلاقاً لا تضمن وجود رأي اجتماعي عام تحسبه هو رأي الأغلبية الساحقة حتى ولا رأي الاكثرية لكي تسميه تجوزاً رأياً عامًّا . لأن هناك عوامل كثيرة تفسد الرأي العام الاجتماعي وتنقض الحرية . كفى بالقوة الرأسمالية إفساداً وقتلاً للحرية . وأخيراً أرجو المعذرة من حضرة الكاتبين الاديبين اذا كان في مقالي ما لا يروق لهما .

نقولا الحداد

صيرورة سوريا
في التفكير السوري

في هذه الحقبة من التاريخ التي ألقي فيها السلاح ، وأقفرت الميادين من الجنود ، وخلا الفضاء من الطائرات ، وسكت المدفع ، وانتزعت الأمانة الكبرى من عنق الجندي ووضعت في عنق دهاقين السياسة ورجال الفكر ، في هـذه الحقبة من التاريخ التي تهتم فيهـا الأمم بمصائرها ، وتسعى سعياً حثيثاً للفوز بتسوية مشاكلها الداخلية والخارجية ، ما هو المصير الذي نهدف اليـه نحن السوريين المنتشرين في جميع بقاع الوطن السوري الطبيعي ، بعد ما نالت بعض أجزاء وطننا استقلالاً سياسيـًا نسبيـًا وانخرطت في مؤسسة شـبه دولية هي « جامعة الدول العربية » وساهمت في عضوية « جامعة الأمم المتحدة ؟ » اننا قطعنا شوطاً بعيداً في مضمار الاستقلال السياسي مهما يُقل في الأسباب التي أدّت الى هـذا الاستقلال ، ومهما يُعزَ من الفضـل الى الظـروف المواتيـة والملابسات السياسية التي أسـفرت عن هذا الاستقلال .

من الطبيعي والمألوف أن يقع اختلاف في الرأي بين أبناء الوطن الواحد حول قضـية أو نظرية في شؤون الاقتصاد أو الاجتماع أو أنظمة الحـكم أو شكل الحـكومة ، أو شؤون العمل وحق العمال وما شابه ذلك . وكثيراً ما يكون الاختلاف محمود العاقبة في مثل هـذه الأحوال . لـكن السوريين تضاربت آراؤهم حول الوطن وحدوده ومقوّماته الجغرافيـة والتاريخية والقومية . هناك من يعتقد أن الوطن السوري ، بوصفه الطبيعي ، ليس كلاً قائماً بذاته ضمن الاطار العربي ، وليس له مقوّمات ذاتيـة البتة ، بل يراه جزءاً لا يتجزأ من أمبراطورية عربيةمترامية الأطراف تمتد من الخليج الفارسي شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً . فسوريا جزء من هذا الوطن الضخم كما أن حيـًا من الأحياء في مدينة جزء من تلك المدينة . وكذلك قل عن مصر والعراق والحجاز ... وغيرها من الأقطار العربية اللسان ويعتبرون

جميع الشعوب التي تقطن هـذه الأقطار تؤلف أمة واحدة لها جميع المقوّمات الجغرافيـة والتاريخية والأثنولوجية بالاضافة الى التراث الديني ، وان تعددت مذاهبه وتنوّعت فرقه ، والتراث اللغوي وان اختلفت لهجاته وتلوّنت ثماره . فجامعة الدول العربيـة التي تمخضت عنها الحرب الأخيرة ينظر اليها السوريون نظرتين جدّ مختلفتين : فالغلاة منهم يرون فيها نواة صالحة لنشوء الدولة الواحدة ، يشمل سلطانها وقوانينها وأنظمتها جميع الأمم العربية اللسان. وفريق آخر يراها خطوة محمودة ، جليلة الفائدة، عظيمة الخير نحو اتحاد عربي أقوى وأمنع وأبعد مرمى ، يجعل من أقطار العالم العربي المتضامنة حصناً منيعاً يقيها شرور المطامع الأجنبية الاستعمارية ، دون أن يزيل الاستقلال الذي يتمتع به كل قطر من أقطار الأسرة العربية . وأصحاب هذا الرأي لا يعزب عن فكرهم ثقل الرباطات السياسية الدولية وقوّتها وجشع الاستعمار الذي يسعى جاهداً ليحول دون تحقيق تلك الأمنية الحلوة .

مما لا مشاحة فيه ، ان العالم العربي في حالته الراهنة ليس أمة واحدة استوفت جميع الشروط والخصـائص التي تكوّن الأمم ، بل هي مجموعة أقطـار مختلفـة ، تتخللها حواجز طبيعية ، يقطنها أقوام اختلفت أجناسهم وميزاتهم وخصائصهم النفسية والفكرية وغير ذلك من الفوارق الاجتماعية والجسدية . بيد أن سكان هذه الأقطار يكادون يجمعون على الايمان بدين واحد ويتكلمون لغة واحدة . فهل يخفق العلم الواحد فوق كل بقعة يرن فيها اللسان وتنتشر فيها العقيدة الدينية ؟ أي هل تتمدَّد الدولة بقدر ما تنتشر اللغة والدين ، وأن الأمة تتبع الدولة في حال تقلصها وامتداد نفوذها ؟ اننا بذلك نخرج الأمة عن المصطلح العلمي لنجعلها غير خاضعة لتعريف على الاطلاق . فالعالم العربي اليوم يتكوّن من أمم عربية تقطن شبه الجزيرة العربية ، وأمم مستعربة تقطن خارج شبه الجزيرة العربية . ولا تختلف العلاقة بين الأولى والثانية عن العلاقة القائمة بين الأمة الانجليزية مثلا والأمبراطورية البريطانية . فالأمة الانجليزية هي مجموعة أفراد الشعب الذي يعيش فوق الجزر البريطانية منذ أقدم العصور حتى الآن : وانها في اتساعها وتضخمها ونموها لم تشمل وتتمثل جميع الشعوب التي تخضع لها والتي ترتبطها بالتاج البريطاني علاقات سياسية أو لغوية أو دينية أو استعمارية .

ويقيني، أن الباعث الذي يحدو ببعض السوريين الى نشدان دولة لاتنحسر حدودها عن التخوم التي بلغتها أمواج الفتح العربي عند ما انطلق العرب من جزيرتهم في القرن السابع للميلاد لغزو العالم ، هو أن أمبراطورية اسلامية عربية عاشت ردحاً من الزمن وبسطت سلطانها على هذه الأقطار جملة ، فلماذا لم يعد في الامكان في هذا العصر السعي لتكوين دولة أخرى على غرارها ؟ ووجه الخطأ في هذه النظرية الاجتماعيـة التاريخيـة النفسية هي أنهـا تستوحي ذلك المبدأ الفاسد الذي يزعم أن التـاريخ يعيد نفسه . فالتاريخ لا يعيد نفسه كما يعاد النظر في التجارب العلمية مهما تغيرت الأزمنة والأمكنة . والنقطة الجوهرية التي لم يفطن إليها دعاة الأمبراطورية العربية من السوريين هي أن اتحاد هذه الاقطار لم يكن تلقائيـاً ، بل كان ثمرة الفتوحات ، وأن شعباً باسلاً طموحاً ، ليس لطموحه حد ، اكتسح هذه الأقطار وأزال عنها ظل شعوب أعرق منه في الملك . فأين لنا تلك القوة العسكرية والعزم الفتي والايمان المتوهج بالحق في الحياة حتى نبلغ ما بلغه العرب القدامى ؟

ولنا أن نسأل : « هل من الخير أن تتنازل جميع الأقطار العربية عن استقلالها الذاتي وتندغم جميعها في دولة واحدة ؟ وإذا قدّر لهذه الوحدة السياسية أن تتحقق ، فأين عسى يكون مركزها ، وكيف يكون شكل الحكم فيها ، ومن عساه أن يكون ذلك الملك أو الرئيس أو ما شئت من الألقاب والرتب ؟ أرى يومئذٍ أن سكان العالم العربي سينصرفون عن الكفاح ضد الاستعمار ويتنكبون سبل الرقي والحضارة ، ليلهوا بسياسة العروش ويجعلوا من أنفسهم بخوراً يحرق في مجمرة الأنانية والمآرب .

إنه كفر بحق العرب والعروبة أن نضع نصب أعيننا الممالك التي دوّخوها والعروش التي ثلوها ونبكي ملكاً مضاعاً ونصم الآذان بمفاخرهم وأمجادهم ونأبى أن نلقح أنفسنا بذلك العزم البكر والبطولة الأسطورية التي ظفرت بالمجد والكرامة والخلود . إنه غرور أن نتخيل إمبراطورية شاسعة وبلادنا مجزّأة ، مقطعة الأوصال والأجنبي جاثم على صدورنا ولا حول لنا ولا طول . إنه تهرّب من الواقع وجريمة بحق سوريا أن نستنكف عن النظر إلى القيود التي تكبلنا والحواجز المصطنعة التي قضت بها الشهوات الاستعمارية الطامحة إلى النفوذ والاستغلال والسيطرة . إنه ضعف وانحطاط أن لا نجعل مخيلتنا إلاّ بالامبراطوريات ونحن

لا نزال مضطرين إلى قوة تصون استقلالنا وترعى وحدة وطننا وتقضي على النزعات الأقليمية التي ترتكز على أصول مذهبية أو عنصرية أو لغوية .

وفي الزمن الذي تصرَّمت فيه الحبال بين الدين والعلم ، والدين والسياسة في سائر البلاد المتمدنة الراقية ، سواء كان الباعث على ذلك مقتاً للدين واعتباره عقبة كؤوداً يجب إزالتها كي يتسنى للمواكب البشرية أن تسير سيراً مطرداً بدون تلكؤ ، أو حرصاً على الدين وصيانته من أدران الدنيا وإعادته إلى الحقل الذي خلق ليعمل فيه ، في هذا العصر الذي قضي فيه على الدين أن يقصر عمله على شؤون الروح ويتخلى عن شؤون الدنيا من سياسة وغيرها ، نرى جماعة من السوريين العاملين في الحقل السياسي يفكرون تفكيراً لاهوتيًّا ويرون انه لا بدَّ من إقحام الدين ورجاله في شؤون السياسة . ويقولون ويؤمنون بالدولة الدينية ، ليتدرَّجوا منها فيما بعدُ إلى القول والعمل في سبيل الجامعة الدينية . كان هذا الأمر ممكناً ومقبولاً عند ما كانت الفكرة الدينية وحدها مستولية على العقول والقلوب، وكان الناس يؤمنون أن الملك ظلّ الله فوق الأرض . يرى الأستاذ إسماعيل مظهر ، رئيس تحرير هذه المجلة « إن الإسلام فكرة جامعة . انه دين ودولة ، ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ومهما حاول البعض أن يخرج عن الإسلام هذه الصفة ومهما قيدت نظامات الحكم، فسيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الإسلام مهما تفرّقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات » .

إننا إذ نقول بوجوب فصل الدين عن الدولة لا نتحدَّى الدين في رسالته السماوية التهذيبية ، ولا نعمل بوحي من الإلحاد يغمر أفئدتنا ، بل إننا نحدد تحديداً واضحاً الحقل الذي لا يجب أن يتعداه الدين كي لا يثير مشاكل وانتقادات . ان دمج الدين في الدولة أمرٌ ممكن في كل دولة تدين رعيتها بدين واحد ، وليس ثمت ضرر عظيم ينشأ عندئذٍ من الجمع بين النظام الديني والدنيوي على صعيد واحد . لكن بلاداً ، كالبلاد السورية مثلاً تضم أشتاتاً من الطوائف المتكتلة ، المتدابرة ، المتطاحنة ، المتنازعة . كيف تستطيع أن تحيا بهناء في ظل نظام يستنزل أعماله من معتقدات طائفة معينة، ويستضيء بنور عقيدتها المذهبية ؟ وهل تنظر بقية الطوائف بعين الرضى إلى الطائفة التي تتبوأ مركز الحكم وتصبغ كل

أعمالها بصبغتها الدينية ؟ إن القول والعمل بالمبدأ الديني يذكيان الخلافات وما أكثرها ، ويوغران الصدور بالأحقاد وما أحدها ، ويدفعان إلى الدس وسوء الظن ، ويحدوان بالطوائف الأخرى أن تتكتل وتتراص وتعيش عيشة انعزالية لا تشاركها فيها طائفة أخرى ، وتتولد سدود وحواجز بين رغبات الأفراد الطبيعية في الاجتماع والحياة المشتركة في مختلف النواحي . وقد برهنت الأيام ودلت الوقائع على استحالة نشوء مجتمع بشري قوي على دعائم من التفرقة والتباغض والتنابذ بدلاً من التآخي والمحبة والتعاون . وليس ثمت ضمان يكفل ديمومة الاتحاد القومي واطراد نموه ، يجمع عند ما تتشتت الأهواء ، ويحزب حين تتوزع الكلمة ، إلاّ نزع الحواجز بين الطوائف في كل بلاد تعاني شر التفرقة التي تنبثق عن الطائفية . لأن هدم الحواجز المصطنعة المزيفة المغايرة لقانون الطبيعة والحياة يؤدي إلى نشوء القربى ، واتصال الأرحام ، وانبلاج فجر المحبة والأخوة . ولا تقدر الحياة الطويلة المستقرة القوية لأية دولة ترسو أصولها على الجامعة الدينية ، لأنها تحمل في طياتها عنصر الضعف والفناء . فالجامعة العربية ، مثلاً ، ينضوي تحت لوائها شعوب من أمم شتى ، اختلفت لغاتها ومنازعها وغاياتها ، وتباعدت بلدانها وتنافرت مصالحها وتباينت أذواقها وأفكارها فلا تقر مبدأً واحداً ولا تتفق على السعي نحو غاية واحدة .

إننا استيقظنا من سباتنا الطويل منذ أمد قصير ، فهالنا التقدم الذي أحرزه الغرب المسيحي في جميع ميادين الحياة ووجدنا أنفسنا مكبلين بقيود قيدتنا بها دول مسيحية ، تخيل الينا أن سياسة الغرب قائمة على الرابطة الدينية لا النزعة القومية والمصالح المادية ، وإننا لا نستطيع أن نرفع الحيف وندفع الكيد الاّ إذا تعلقنا بأهداب جامعة دينية . ويقيني أن البلاد العربية إذا عنّ لها أن تلوذ بالجامعة الاسلامية تهوّل بها على دول اوربا أو أميركا المسيحية لتدفع الظلم والسيطرة تشبه مروّض الثيران banderillero الذي يلوّح بخرقته الحمراء كي يهيجها .

***

أحقّا ، التبست علينا الأمور وتشابهت المسالك وتعذّر علينا أن نصيب شاكلة الصواب؟ مما يثلج الصدور ويبعث الأمل في النفوس ، أن فئة من السوريين الذين اتصلوا بالغرب ، وتثقفوا

بثقافته وفقهوا سر نهوضه ورقيه وتقدمه بدأوا يفكرون تفكيراً قومياً ويعرضون الحلول القومية لمشاكلنا الخاصة . ومما لاجدال فيه ، أن القول والايمان بالقوميات في العالم العربي في الآونة الحاضرة ، جرأة عظيمة ونهج جديد في مضمار الحياة . وعلة ذلك أن فكرة الوطن patrie لما تتبلور في أذهان السوريين كافة ، وأننا لم نعتد التفكير القومي الصحيح على نحو ما نرى في ديار الغرب . ويرى الكثيرون من أبناء العالم العربي أن نشوء القوميات في بقاعه آيات تفكك وضعف وانقسام كما ينقسم البيت على نفسه . وأن القول والعمل في سبيل أية قومية كانت ، سورية أو مصرية ، أو عراقية .... محاولة أثيمة ترمي إلى إخراج ذلك القطر من حظيرة العروبة والتنكر لها . وفي الحقيقة ، أن القول بالقومية السورية ، مثلاً لا يخرج سوريا من مجموعة البلدان العربية ، بل إنه يوضح شخصيتها ويميزها كما تتميز شخصية الأخ بين إخوته وأخواته . ولعلّ العالم العربي يفيد من هذه الأقطار وهي مستقلة استقلالاً ذاتيًّا وتحيا متعاضدة، متساندة ، أكثر مما لو كوّنت دولة واحدة . وهل الجرم جرمنا إذا استوحينا الواقع ، وفكرنا تفكيراً قوميًّا، والطبيعة قد كوّنت أقطار العالم العربي تكويناً ذاتيًّا، وفصلت بين قطر وآخر بحدود طبيعية منيعة ، فالجبال الشاهقة ، والبوادي الشاسعة الواسعة التي ينعدم فيها العمران وأسباب الحياة ؟ ولقد أجاد الشاعر السوري إلياس فرحات إذ استطاع أن يعبر عن حدود سوريا الطبيعية بلغة شعرية :

موطني يمتد من بحر المياه ممعناً شرقاً الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه بجمال فائق حدّ الجمال

وإن للحدود الجغرافية شأناً عظيماً في حياة الشعوب وخلق شخصية الأمة ومميزاتها . إذ أن ضمن هذه الحدود يتم تفاعل الأقوام والجماعات ، ويسهل اندغامها ، وتتولد بين جزيئاتها الروابط القومية الشديدة التي تنبثق عن الاتصال اليومي، والاحتكاك الدائم، والاشتراك العقلي في المصالح المادية المتشابكة . حقًّا إن رقي المواصلات قلل من شأن الحدود الجغرافية ، ويسّر سبل الاتصال ، وإن الأسلحة الحديثة سخرت من المعاقل الطبيعية ، لكن كل وسائل العلم والرقي لا تقضي على شخصية المصري ولا تميت خصائص البيئة المصرية التي لن تنفك تمصّر كل من يستوطنها . فهاهم السوريون الذين نزحوا إلى مصر سواء في القرن التاسع عشر أو في مطلع هذا القرن ، ماذا بقي لهم من خصائصهم السورية ؟ وإن كل وسائل

العلم والمدنية لا تمسخ مقومات السوري ومشخصاته ما دام يعيش فوق أرض سوريا . ثم إن مبدأ القومية السورية لا يرسو على وحدة الجنس والمميزات البدنية والسلالية بل على الواقع الاجتماعي في بيئة طبيعية . فهي تتجاوز النظرية السلالية التي ثبت بطلانها وفسادها والتي لا تتجلى إلاّ في الشعوب المنكمشة في أوطانها ، المنطوية على نفسها . وما من شعب ساهم في بناء صرح المدنية استطاع أن يحافظ على نقاء دمه ، وأصبحنا اليوم نرى في امتزاج السلالات الراقية سبباً من أسباب نشوء العبقريات . يقول إميل لدفج في كتابه « الألمان » في معرض حديثه عن شارلكان : « ليس الجمال أو الذكاء اللذان يبهرانك ، بل العرق . ولما كان دمه خليطاً من سبع أسر حاكمة عرّقت فيه ، أصبح من الجلي أن الانسان يكرم عرقه إذا ساهمت في تكوينه سلالات كثيرة » فالقومية السورية ، كالقومية المصرية ، ترسبت خلال قرون عديدة من اتحاد الأقوام واحتكاك الجماعات التي هبطت سوريا واستوطنتها وتركت آثاراً متفاوتة . إن هذه النظرية تقضي على تفاخر العصبيات السلالية التي تنخر جسم الأمة ، وتئد تناكر المذاهب وتنابذها ، وتستهدف خلق الروح التعاونية بين جميع الطبقات والأجناس . إن مبدأ القومية السورية ليس مجرد نظرية أو مذهب ، بل هو أقرب ما يكون إلى الثورة .

والغاية من السيادة القومية هي الحرية التي تستشعرها الأمة في اتباع الأساليب المثلى لمعالجة المشاكل الناشبة ضمن حدود الوطن . لأن هذه المشاكل قد توجد في قطر وينعدم وجودها في قطر آخر ، وتتطلب صوغ قوانين تشريعية تناسب المرحلة من التطوّر التي بلغتها الأمة . وكثيراً ما تتنوّع المشاكل وأنماط الحياة بنسبة قابلية الأمة للتفتح وتنوّع التيارات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمر بالأمة واختلاف البيئة الطبيعية والموقع الجغرافي . فهل يدور بخلد المصري : مثلاً ، إن الأمة السورية تشكو داء التفرقة الذي نشأ عن تعدد المذاهب وتناكرها وأنها تتعطش للاتحاد القومي الذي لا يتأتى إلاّ عندما تصبح الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة ؟ وهل يعلم الحجازي أننا نعاني شرّ رقّين كلاهما وليد الاقطاعية : أحدهما اجتماعي ، عشائري ، ربيب المظالم والمفاسد وآخر اقتصادي ، طبقي ، تحدر إلينا من العهد التركي ، وهو ثمرة طبيعية لحالة سياسية سيئة ولحياة اقتصادية فاسدة ؟

ان طبقة قليلة العدد ، عظيمة الاهمية ، تملك معظم الاراضي السورية ، بينما توجد طبقة تؤلف الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب تعيش على حساب الأخرى في حالة لا توصف من البؤس والجهل والهوان فباتت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية عظيمة بين الطبقة التي أتخمها الملك والطبقة المعدمة . ومن مساوىء هذه الحالة ، أنها تكون مصدراً للقلق والشكوى ، وسبباً لرجات اجتماعية فجائية ، وبيئة ممتازة لنمو مبادىء متطرفة كالشيوعية التي تلهب مخيلة الفلاح الساذج والعامل البسيط بما تعد من ألوان النعيم الذي تغذى به الأوهام وتتقاضى ثمنه الحافز الانساني والحرية في النهج في مضمار الحياة . ومن حق الفرد على الدولة الذي يعيش في كنفها ويؤلف جزءاً من كيانها ، أن تؤمن له سبل الحياة الهنيئة الشريفة. فهل يسعد المجتمع السوري ما دام النظام الاقطاعي الفاسد قائماً ؟ وهل تقوى أسرة الأمم العربية وتخلو من كل عيب إذا لم تتفرَّغ كل منها للعناية بترقية أحوالها والاهتمام بأمورها الخاصة في جوّ من التعاطف والتعاون والتشاور والتسمح ؟ .

إن النبع إذا ما انبجس من الأرض غزيراً تعدَّدت مجاريه وتشعبت ، وتعالى هديره ، وتكدَّر ماؤه ، وكثيراً ما يجرف التراب ويقتلع الأشجار والصخور . لكن لا بدَّ لقياده من أن يسلس بعد شماسه ، ولمائه أن يصفو بعد كدره ، وأن يقل بعد طغيانه، ويكثر خيره بعد ضرره . ومن خصائص الأمم التي تستيقظ بعد سبات ، وتنهض بعد كبوة ،وتحس دبيب النهضة في مفاصلها كما تحس الحبلى الجنين يتململ في أحشائها ، أن تتعدَّد فيها المذاهب وتتباين المعتقدات وتحترب الآراء . لكن الأيام والحوادث في غربلتها الدائمة للأفكار والعقائد لا تستبقي منها إلاّ الصالح ولا تدخر غير القادر على البقاء . إن هذه الأمم التي تنهض بعد عثارها تشاهد ركب الحضارة قد تقدَّمها كثيراً ، فتحار في أمرها وتتساءل عن السبل التي تؤدي إلى اللحاق به . وعندئذٍ لا مفر لها من الوقوع في القلق والحيرة والاضطراب فهي لا تبغي التخلف عن الركب ، لكنها لا تنفك تتساءل عن أفضل الطرق المؤدية إلى الموكب الذي يسير في الطليعة . فلا بدع أن نرى القلق وتباين الآراء وتعدُّد المذاهب تستحوذ على عقول السوريين الذين بدأوا يدركون أن لهم في الحياة حقًّا وأن للحضارة عليهم واجباً لا تتلكأ في تقاضيه من الشعوب التي تبغي السؤدد والرفعة . ويجب

أن يكون القلق والاختـلاف والتردد من أهم خصائص السوري . ولا شرف في ذلك ولاغضاضة . لأن هذه المساوىء المترسبة في أعماق نفسه هي ما ندعوه تركة التـاريخ . وللتاريخ تركة ثقيلة سيئة في نفوس السوريين قلّ أن يضاهيهم فيها شعب من شعوب الأرض. لأن شعباً يطوي قروناً تلو قرون ، خاضعاً للفاتحين ، تتسرَّب الى نفسه سيئاتهم وحسناتهم، وجهلهم وعلمهم ، وبرهم وشرهم ، كما تتسرب مياه الأمطار والسيول الى طيات الأرض وما تحمل من الطهارة والقذارة ، لا بد لهذا الشعب الذي أرهقته عوادي الزمان من أن تذهب خصائص رجولته، وتضمحل مواهبه، وتقل آثاره في متحف الحضارة، وتتبدد مآثره في موكب الغزاة الفاتحين ، كما يضيع الجدول في خضم النهر الهادر . فسوريا التي تسعى اليوم جاهدة الى الاتحاد ، لم تتم لها الأيام أن تكوّن متحداً واحداً ، رغم ان الطبيعة كوّنتها رقعة واضحة المعـالم ، بارزة الحدود ، لا تتخللها الحواجز ، وحباها الزمان منذ ثلاثة عشر قرناً لساناً واحداً . فمنذ أن تكوّنت الدول ، وما يلازمها من شهوة الفتح والمجد، وزهوة النصر ، وسوريا لم تنفك تتلقى جحافل الغزاة . فلم يقدر لها أن تحيا مستقلة، وتستريح من عناء الفتح ومتاعبه ، وتستشعر زهو السيادة والسلطان ، وينتشر اسمها في العالم القديم . ويتوارثها ملوك يحكمون باسمها ، إلا في زمن الدولة السلجوقية السورية . ولو قدّر لسوريا الحديثة رجل كمحمد علي ، يلم شعثها ، ويوحّد أجزاءها ، ويذكي في قلوب أبنائها الروح القومية ، ويلقح حياتهم بالكيان السياسي الموحد ، ويجند منهم جيشاً يسير به للحرب والفتح والمغانم قائد كابراهيم لو خلوا سبيله لبلغ مدًى لا يصح التنبؤ عنه ، لأن ذلك كفر في ذات العبقرية والعزم الفتي والطموح البكر والمجـد . أقول ، لو قدّر لسوريا ما قدّر لمصر ، لما كنا نختلف على كياننا الوطني والقومي . ولو لم تُمنَ الحركة التي قام بهـا فخر الدين المعني (١٥٨٥ — ١٦٣٥) ضد العثمانيين بالفشل ، لكان شأننا غير ما هو عليه اليوم . لـكنه ناء تحت وطأة المحـالفة التي كوّنتها الدولة العثمانيـة من الأمراء السوريين المستـتركين الذين كانت تبضّ لهم . وان المصلحة الذاتية ، هذا الداء المتمكن من نفوس بعض السوريين كتمكن العروق في الأجساد ، أعمـى هؤلاء المأجورين عن نبـل غايتـه البعيـدة ، فتألبوا عليـه وأفسدوا خطتـه ووأدوا طموحه .

ولن أذهب في الظن بعيداً فألقي على كاهل الفتوحات والسياسة تبعة الخلاف في وجهة نظر السوريين إلى قضيتهم القومية ، وضعف الحس الوطني ، وكل الصفات الملازمة للشعوب التي رضخت للاجنبي فتفنن في استغلالها وتسخيرها لقضاء مآربه وانتزع من أعماقها روح اليقين بالكفاءة والرجولة وصرفها عن جوهر الأمور إلى عرضها . بل أن هناك عاملاً آخر لم يفطن إليه أحد قبل اليوم . فالآداب العربية القديمة في قسميها : تلك التي صدرت عن العرب الجاهليين ،أو التي تحدرت بعد ظهور الاسلام ، وليست عربية الروح صرفاً ، قد اتخذناها أساساً لثقافتنا التقليدية . وان هذه الآداب خلت خلواً تامًّا من فكرة الوطن بمقدّماته المعهودة اليوم ، ولا أثر فيها للوطنية patriotisme ، التي تكللا هذا الوطن . كان العربي قبل الاسلام تائهاً في خضم القبيلة والحي والعنصرية ، فأصبح بعد الاسلام ذرّة لا شأن له أكثر من غيره ، ولا فضل له على غيره مهما كان لونه وجنسه ، في عالم فسيح هو العالم الاسلامي . ويرى الوطن يتمدّد بقدر ما تنشر العقيدة الدينية ، ويعم اللسان . وما اتخاذ العواصم خارج الحجاز ، الوطن الطبيعي للعرب ، إلاّ دليل صادق على أنّ العقل العربي لم يكن قد تفتح بعد على فكرة الوطن والوطنية . ويسيء التخريج والتعليل والتفسير ، ويخضع التاريخ والحقيقة لنزوات طارئة طائشة ، من يظن أن كل البلاد العربية اللسان ، التي يتكوّن منها العالم العربي اليوم ، كانت قبل الفتح الاسلامي عربية في التربة التي تدوسها الأقدام ، والدم الذي يجري في العروق ، والكلام الذي تلوكه الألسنة ، والثقافة التي تصقل العقول وتهذّب الطباع والأذواق ، والدين الذي يعتنقه الشعب ويكوّن تراثه الروحي والخلقي ، وان العرب لم تتحرّك جحافلهم ، وتلتمع أسنتهم ، وتتململ أسيافهم في أغمادها ، الاّ لينصروا ويحرّروا من نير الفرس والروم اخواناً لهم في العراق ومصر وسوريا والمغرب . . . فالنزعة التي تؤثر عن العرب وتتسم بها الآداب العربية هي نزعة التفردية individualisme . وهي وان تكن من مميزات الشعوب البدائية غير أنها عند العرب ثمرة البيئة الطبيعية التي يأهلونها . فالجزيرة العربية لا يتصل عمرانها اتصالاً مطرداً ، بل تتخللها مفاوز سحيقة ، وفلوات واسعة ، لا أثر للعمران البشري فيها على الاطلاق .

ولذا نبتت في رأسه فكرة القبيلة التي تكوّن متحده الاجتماعي وتربطه بها روابط

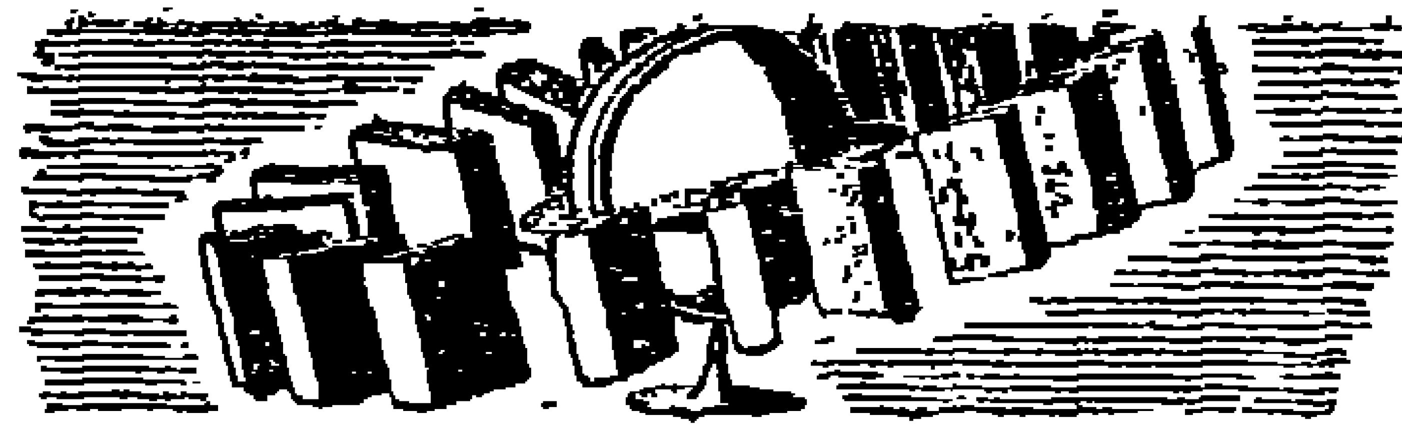
سلالية ، وألف نظره المحلي تلك البقعة المحدودة التي تكوّن واقعه الاجتماعي .

وللموقع الطبيعي سهمٌ وافر في تكوين النفسية السورية التي تتسم بالتفتح والقلق والبعد عن الاستقرار . فامتدادها الطويل من حدود مصر والحجاز جنوباً حتى جبال طوروس شمالاً وموقعها بين البحر المتوسط والصحراء ، ذاك يحمل اليها الروح الخاصة بحوض المتوسط وهذه تحمل اليها روح الحضارة العربية — الأسلامية . هذا الموقع الفريد أخضعها لقوتين تتجاذبانها وسوف تظلان تتجاذبان « ثوبها العصي » الى ما شاء الله من الزمن . أضف الى ذلك نشوء المعاهد العلمية الأجنبية — الى جانب المعاهد الوطنيـة — من أميركية تبث الثقافة الانجلوسكسونية ، وفرنسية تبذر بذور الثقافة اللاتينية ، قد لقحت عقول السوريين بلونين مختلفين من ألوان الثقافة . لكن هـذه المعاهد العالية أتاحت لفئة من السوريين أن يطلعوا اطلاعاً مباشراً على جميع مناحي الحياة والنشاط الفكري في الغرب . وهناك فريق آخر تثقف بالآداب العربية فقط ، عزف عن هذه الثقافات كلها ، وأكبّ على الـكتب العربية القديمة يوليها عنايته وتفكيره واهتمامه . ولذا لا يتملـكنا العجب إذا رأينا فريقاً من السوريين ييمم وجهه شطر المشرق والجنوب ويتعلق بالثقافة الاسلامية العربية لا يرضى عنها بديلاً ، ونرى فريقاً آخر يستوحي الثقافة الغربيـة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة والفنون والآداب والعلوم .

* * *

كالطبيب الذي يقبل على معالجة العضو الوجع ولا ظلَّ للجبن في قلبه ، ولا أثر للتردُّد في يده ، ورائده الخير والسلامة والعافية ، بسائق من هذا الروح كتبنا هذا المقال لنعالج مشاكلنا القومية المتعدّدة ، ويقيننا ان الشعوب القوية في جوهرها ، لا تتلاشى حيويتها بل تظل مكبوتة طيلة عهود الشدة والمحنة والانحطاط . وعند ما تواتيها الظروف وتوائمها الأحوال ، تتفتح هذه الحيوية وتتألق ، فلا بدع عندئذٍ أن تنجب الأمة أفراداً يتخطون عصرهم ويقودون أمتهم قدماً الى مراقي السؤدد والمجد والـكرامة .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب



مكتبة المقتطف

القانون الدبلوماسي

تأليف محمد حسني عمر بك سكرتير عام وزارة الخارجية — المطبعة الاميرية — ٢٩٨ صفحة

التمثيل الدبلوماسي في مصر حديث العهد بدأت البلاد تمارسه منذ اعلان استقلالها ، فكان من ثمَّ علماً على نهضتها وايذاناً بتبوئها المكانة الجديرة بتاريخها الحافل وكفاية أبنائها وثروتها.

ولقد شاهدت وزارة الخارجية في غضون الثلاث والعشرين سنة الماضية تقدماً عظيماً تجلى في اتساع أعمالها . فاستحدثت فيها أدارات جديدة تعنى بالمسائل الاقتصادية والثقافية والشئون العربية. الى جانب أخرى للمسائل السياسية والادارية . وانتشرت الهيئات الدبلوماسية المصرية من سفارات ومفوضيات وقنصليات في كافة أنحاء العالم تؤدي رسالتها في خدمة المصالح المصرية ، السياسية والاجتماعية والثقافية .

وأدَّى انتشار التمثيل الدبلوماسي المصري ورعاية منشئه المغفور له الملك فؤاد الأول وخليفته من بعده جلالة الملك فاروق الأول ، الى سن التشريعات ووضع القواعد الدبلوماسية واقتباس ما يتفق والتشريع المصري من العرف الدبلوماسي الأجنبي . وهكذا نشأ قانون دبلوماسي مصري عني حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد حسني عمر بك سكرتير عام وزارة الخارجية بجمعه مع دراسته دراسة تحليلية في كتاب فريد هو الأول من نوعه باللغة العربية ضمَّ بين دفتيه كافة القواعد والأسس الدبلوماسية المصرية مع المقارنة بمثيلاتها في البلاد الأخرى .

وفضلاً عن الناحية القانونية والنظرية للكتاب ، لم يغفل النواحي العملية الدبلوماسية وان مجرَّد تصفح الكتاب يظهر مقدار ما بذله مؤلفه الفاضل من جهد وعناية . إذ جمع الى

طرافة الموضوع ودقة البحث ، سلاسة الأسلوب واتزان التفكير .

فبحث في صفحاته الأولى مراسم البلاط مثل التبليغ عن اعتلاء العرش والهدايا والرتب والنياشين وحفلات التتويج والاستقبال والزواج وتبادل التهاني ونظام الأسبقية في الدعوات. وتكلم في بابه الثاني عن وزير الخارجية وصفاته ومؤهلاته واختصاصاته وعن وزارة الخارجية المصرية .

وفي فصوله التالية درس منشأ التمثيل الدبلوماسي وحق التمثيل واختيار الممثل والقيود الموضوعة على هذا الاختيار ودرجات الممثلين الدبلوماسيين وموظفي الهيئة الدبلوماسية وعن الوظائف الدبلوماسية في السلك الدبلوماسي المصري . . . الى غير ذلك من الموضوعات الدبلوماسية الأساسية .

والكتاب في الواقع سفرٌ جامع سدَّ فراغاً في المكتبة العربية وله فائدته الجليلة لرجال السلك الدبلوماسي ومن في حكمهم ، في مصر وفي البلاد العربية التي أخذت حديثاً تتبادل التمثيل الدبلوماسي مع الخارج وتعوزها مراجع في الفقه الدبلوماسي ، وهو لغير الدبلوماسيين متعة وفائدة واطلاع . ولقد وضع المؤلف بكتابه أسس القانون الدبلوماسي المصري الذي سيأخذ — بلا ريب — مكانه قريباً بين فروع القانون الأخرى بفضل تعهد واضعه ورجال السلك الدبلوماسي المصري له ، مهتدين بدراساتهم وتجاربهم .

(١) ثورة سنة ١٩١٩

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ — جزءان : الاول في ٢٠٧ صفحات والثاني في ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

خلال سني الحرب أصدر مؤرخ مصر الحديثة الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي بك حلقة من حلقات سفره الخالد عن تاريخ الحركة القومية ، وهو كتابه « مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال » الذي تناول فيه تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨ وقد شئتُ يومئذٍ الكتابة عنه فلم يقدَّر لكلمتي عن ذلك الكتاب أن ترى النور لأن الظلام الذي ساد العالم حينذاك امتدَّ إلينا في رقابة غشوم ، وكانت الحجة في عدم نشر الكلمة أن وقتها لم يكن مناسباً لأن موقف انجلترا وقتئذٍ كان مما لا تحسد عليه ، وكان أعداؤها على أبواب وطننا . فسكتُّ أمام ذلك على مضض ، وكم سكت كاتب ، وكم خفتت أقلام !

واليوم ، يخرج لنا الأستاذ الجليل بقية هذا التاريخ الجليل ، صفحات قريبة الآثار إلى

أبناء هذا الجيل ، صفحات سطرت بدماء الشهداء الأبرار هبّوا يطالبون بحق هذا الوطن المقدّس . ولقد أحسن الرافعي بك حين أخرج للجيل الحديث الناشىء هذا السفر من تاريخ وطنه في هذا الوقت الذي بدأ فيه كل مصري يطالب بحق وطنه ... فالصورة واحدة ، والظروف واحدة ، والمأساة واحدة . وعودٌ تخلف ، وأطماع تبدو جشعة نسيت كل ما كانت تعلنه على الملأ من مبادىء تقرير المصير وحرية الشعوب . فصدور كتاب كهذا ليس دعوة إلى ثورة وانما هو تنوير للاذهان وتذكير بالماضي ليبنى الحاضر على أساس سليم. فقد مضت فترة من الزمن بين تلك الثورة ، وما زلنا الآن كأننا لم نتقدم في حدود الزمن إلاّ مدًى يسيراً وما جنته البلاد من هذه الثورة في نواحٍ يكاد يطغى عليه المطلب الاسمى الذي كانت تهدف اليه البلاد حين هبت وقتئذٍ ، وتهدف اليه في وقتنا الحاضر . ولكنها من الثورات التي تحتلّ في الحركات القومية مكانة جديرة بأن تسجل لمصر المجد ولأبنائها الفخر .

والرافعي بك في خلقه وترفعه هو الرافعي في أسلوبه ونظرته لحقائق الحوادث : نزاهة وبعدٌ عن الغرض وتسامٍ عن الحزبية ، ونظرٌ إلى الغاية التي رسمها لنفسه حين أراد أن يسجل للاجيال القادمة تاريخ وطنهم في أشد مراحله القومية . ومن أجل ذلك كان التقدير الذي حظي به كتابه عن الحركة القومية .

وقد تناول تاريخ هذه الثورة في ستة عشر فصلاً ، أطلعنا فيها على حالة الوطن خلال الحرب العالمية الأولى ثم كشف الستار عن الأسباب الحقيقية للثورة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وجلا الحوادث التي تطوّرت منذ انتهاء تلك الحرب الى أن اندلعت شرارة الثورة ، وعرض للقارىء صوراً للثورة لم يشأ أن يمرّ بها دون أن يسجل فيها أسماء من ضحوا بأرواحهم فيها من الشهداء المجهولين ، ومن ذلك يتضح مقدار الجهد الذي عاناه في سبيل هذه الغاية ، ثم تناول بعد ذلك ما فعلته بريطانيا للتخفيف من حدّة تلك الثورة ولكن الثورة استمرت فتتبع ذلك سياسة الاعتداء والاعتقال والمحاكمات ثم وصول لجنة ملنر لتحقيق أسباب تلك الثورة ولتبحث عن الوسائل التي تكفل ملافاة أسبابها في المستقبل ثم استشارة الأمة في مشروع ملنر ، وانتهى المؤلف الجليل بعد ذلك الى بحث قيم في الثورة وهل نجحت وما هي النواحي التي نجحت فيها ثم أعاد نشر الوثائق التاريخية التي تعهدت فيها انجلترا بالجلاء عن مصر .

***

هذا عرضٌ سريع لما انطوت عليه صحائف هذا السجل الرائع لحقبة من تاريخنا القومي

يجب أن نعمل على أن يقرأه كل مصري ليعرف الصورة الحقيقية للثورة المصرية التي نعيش في ظلال مجدها و نرى آثارها واضحة ونشهد من عاصروها ومن اكتووا بنارها ، وانها لصفحات خطّها المؤرخ النزيه ، والوطني الصادق ، والباحث الذي لا يضنّ بجهد في سبيل غاية وطنية وأي غاية أسمى منها !

(٢) السيد احمد الفيض أبادي

١٠٣ صفحات من القطع الوسط — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

تناولت في العدد الماضي من هذه المجلة كتاب « محمد بن عبد الوهاب » على أنه أول كتاب صدر في الحجاز من أدب التراجم ، وقد قدّر لي بعد ذلك أن أقرأ الكتاب الثاني من هذا الفن في أدب الحجاز ، وهو حلقة من سلسلة يقوم بوضعها الأديب القدير الأستاذ عبد القدوس الانصاري من أدباء هذا القطر الشقيق العاملين على رفع منار الأدب الحديث هناك بمجلته الناهضة « المنهل » التي تتلاقى على صفحاتها أقلام كبار الكتّاب. وهذه السلسلة هي دراسات عن بناة العلم في الحجاز الحديث . فكانت الحلقة الأولى منها عن السيد أحمد الفيض أبادي مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة التي أخرجت تلاميذ أصبحوا عماد الحركة العلمية هناك والمتزعمين قيادتها .

والأستاذ عبد القدوس أحد تلاميذ السيد أحمد الفيض أبادي الأوفياء ، وآية وفائه هذه الترجمة الرائعة التي ألفها عن حياة هذا الراحل الكريم . وقد تفنن في وضع هذه الدراسة واستطاع أن يصوغها صوغاً قصصياً جذاباً يمتلك حواس القارىء وإعجابه .

ولا غرو فالأدب الحجازي الحديث له من مقومات الحياة والنهوض ما يدعو الى الاعجاب. فقد أخذت النهضة الأدبية هناك تخطو خطى سريعة في مضمار التقدم ، وذلك برعاية العاهل العربي العظيم جلالة عبد العزيز آل سعود وأمراء سعود المعظمين ، ففي هذا الظل الكريم تنهض حركة مباركة في فنون الأدب والعلم تبشر بمستقبل زاهر للجزيرة العربية يعيد اليها عهدها الغابر ، وفي هذا الظل الكريم تخرج آثار روائع تبعث على الاعجاب والتقدير ، ومن هذه الروائع هذه الحلقة الأولى من تلك السلسلة التي نرجو أن يعمل الأستاذ الانصاري على إخراجها كاملة في أقرب وقت .

حسن كامل الصيرفي

تغريدات الصباح

نظم محمد الاسمر — نشرته دار المعارف بمصر — صفحاته ٢٤٠ من القطع الوسط

الطابع الذي تنفرد به المدرسة الحديثة في الشعر يبدو جليًّا في ذلك الولع باطلاق الخيال في أودية لم تكن مراحاً لاستباق قرائح الشعراء . ولا مسبحاً لخواطرهم. ولقد تعود وفي أسلابها ما يروع القلب قسماته، ويسبي الطرف جماله، ويغرى بترداد النظر بهاؤه، ولكن سرعان ما يجنى على روعته ، ويتحيف جماله هلهلة الثوب وتواضع الأسلوب ، فالعناء في مذهب تلك المدرسة والكد وراء التعابير ، والعنى في صقل الأساليب، أيسر من أن يبذل فيه كل هذا الجهد ، وهو أهون من أن يستحق هذا الاحتفاء . فما الشعر في نظرها إلاّ تلك المعاني والخواطر ، تربط بينها وحدة الفكر، ويسلسلها سياق المنطق، ثم تعرض في أي معرض فلا يغض من جمالها ، ولا يطامن من عزتها إن أعوزتها زخارف الصناعة الفنية . أما المدرسة القديمة فهي تؤمن بأن المعاني والخواطر أقل شأناً من أن تستغرق نشاط الشاعر بل هي تكاد تكون تحت متناول اليد أو هي ملقاة في الطريق على رأي القدماء. أما تفاوت الشاعر وتبريزه ، وامتياز فنه، فبقدر ما يوفق في حوك الحلل التي تخطر فيها معانيه، وجمال الأسلوب الذي تشرف من خلاله. فاذا ما تهيأ للشاعر هذا الوضع فقد شارف ما يشرئب اليه الطامع . وهذا الديوان يمثل تلك المدرسة القديمة تمثيلاً قويًّا رائعاً فلا تروعك معانيه — على جمالها وفتنتها — بقدر ما تأخذ بمجامع قلبك رصانة أسلوبه ، وروعة بنائه ، وجلال فنه الهندسي. دولة المعاني فيه معهودة لك فهي تمت بأقوى الصلات الى تلك البيئة البغدادية في أوج عظمتها الأدبية. وليس هذا يطامن من شأن الشاعر، أو ينتقص من جلاله ، ويتحيف شاعريته، ولكنه وفى لبيئته وسليقته، واستجاب لطبعه، فهو سليل بيئة عربية دينية هي البيئة الأزهرية، ترى أثر هذه البيئة العربية الخالصة في متانة أسلوبه، واشراق ديباجته ، وتحس أثرها أيضاً في روحه من مجافاة التهويم في أجواء ينفر منها الخلق ويقشعر من التحليق فوقها الضمير الحي . وقد خلص الديوان خلوصاً بعيد المدى من المسحة الدينية التي تلقيها عادةً طول الدراسة الدينية، وحسبك من دراسة تبلغ بصاحبها منزلة صاحب الفضيلة وهو ثمرة ناضجة من ثمار تلك المدرسة ونموذج صادق لهذا النوع من الشعر الذي يطربك جرسه ، وتهزك نغماته ، ويثير اعجابك نصاعة أسلوبه . وان كانت لا تبلغ منك في كل الأحيان كل هذه المنازل معانيه ، ولا تستوقفك الوقفات الطوال مأخوذاً مشدوهاً، فهي من ذلك النوع الذي نعجب به، ولكنه العجب الذي نملك معه الزمام ، ونحتفظ بكثير من الهدوء والسكينة، وان كان

فنه الأدائي يبلغ بنا في كثير من المواطن مبلغ الاكبار له ،والشوق لترداد نغماته ، واستعادة ألحانه ، والنشوة لأغاريده .

هلمَّ بنا أيها القارىء نتنقل بين أعطاف هذا الديوان بعد أن أجملنا الخصائص التي تطبع فنَّـه لنتبين تلك المشـاهد التي قدمنا بين يديك وصفها ، ولنعبر في غير مهل ذلك الجانب منه القائم على المناسبات، لأن سماءه قلَّ أن تصفو لقرائح الشعراء،وتحليقهم في آفاقها مضنٍ عسير وقنائصها لا تستهوى الذوق . ولعلَّ الاخفاق المتوالي من جبابرة هذا الميدان يمهدُ العذر للشاعر فلنتخطاه مسرعين ،فلا طائل من طول المكث في ظلال فن المناسبات، ويكفي أن نقف على تلك الينابيع التي هي مجال الشعر ومصدر العواطف . فاليك قصيدته في الحنين .

وطال حنيني حين طالت بي النوى فياليت شعري ما يفيد حنيني
إذا غرَّدت ورقاء أو لاح بارق ذهلت وسالت بعد ذاك شئوني
يقول أُناسٌ أنت تمجن في الهوى وكيف بدمعي في الهوى ومجوني
سعادُ أما لي نحو أرضك رجعة وقد جنَّ من شوق اليك جنوني
يراك فؤادي والديار بعيـدة فياليت شعري هل تراك عيوني

ويقول في طلائع الشيب :

أقول والشيب في رأسي طلائعه يا شيب ويك أناس أنت أم عجل
قد راعني منـه بضع ما أبينها فـكيف بي حين أغدو وهو مشتعل
نزعتهـا فتبدَّت بعد ما نزعت وكيف نقلي شيئاً ليس ينتقل
يا لحمة الفاحم الغربيب من شعري كيف الأمان وقد حلت بك الشعل

هذه المعاني والصور التي يعرضهـا الشاعر من تلك الميادين التي تعد الميـادين الأصيلة لاستباق القرائح الأدبية والـكنز الذي لا تنفد صوره وأخيلته ولـكن الشاعر كان مقتصداً قانعاً ، ولعلَّ ولعه بجمال الصناعة وتصيد الجزالة نأى به عن تلك التهاويل والصور التي تعد الهدف الأول للمدرسة الحديثة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

فهرس الجزء الثاني

من المجلد التاسع بعد المائة

لحق

لواحق المقتطف الشهرية

يوليو ١٩٤٦

فلسفة التفاحة

او

جاذبية نيوتن

Newton's Gravitation.

بقلم

نقولا الحداد

الثمن ١٠ قروش صاغ

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

فهرست الكتاب

اصلاح اخطاء

نرجو من القارىء ان يصلحها بقلمه

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١	١١	احدى	أحدث
٥	١٤	قرأت	قُرئت
٥	٢٣	استنبطها	استنبطه
٩	٩	اكتشاف	اكتشف
١٣	٩	لما	كما
١٦	١٤	Seclor	Fector
١٧	٥	$\frac{٣٠}{٣٩}$	$\frac{٢٠}{٣٩}$
٢٠	١٠	مُلّ	مَلّ
٢٠	١٥	٦٥و٢٤	٦٥،٢٤
٢٠	١٩	الدورات	الدوران
٢٦	٣	المنحدرة	المنحدر
٣٠	٧	عن الآخر	عنه
٣٢	٢٣	تنحل	تنحل الى
٣٦	١٨	منها	عنها
٤٣	٦	لتحصيل	لتحليل
٤٥	١١	$(١٠)^{٧٩}$ الخ	$١٨٤ \times (١٠)^{٥} \times (١٠)^{٧٩}$
٥١	٢١	Symetry	Symmetry

مقدمة

هذا كتابٌ في موضوع علمي خاص — جاذبية نيوتن الفيلسوف الطبيعي العظيم الذي يعد في قمة علوم الطبيعة منذ القديم الى اليوم . وقد كُتب بأسلوب بسيط جداً سهل الدراسة يفهمه العامة المتعلمون تعليماً بسيطاً . ويجد فيه الخاصة بحثاً وافياً في سنّة الجاذبية من جميع نواحيها ، وكشفاً لأعمق أسرارها وحلاً لجميع ألغازها . وقد اُفتُتح بسيرة نيوتن نفسه كاشف أسرار الطبيعة وضابط قواعدها ونواميسها .

وقد أضيف الى هذا الكتاب ملحق رياضي لبرهنة القضايا المهمة في الجاذبية لكي يستفيد به فريق القراء الذين لا يستصعبون القضايا الرياضية بل يستلذونها ، ولعله يكون حافزاً للقرّاء الذين قلّت معرفتهم الرياضية ، أو هم لا يريدون أن يُعنتوا أذهانهم في تفهّم تلك القضايا ، وممارستها

وقد استعنت في تصنيف هذا الكتاب بإحدى المؤلفات العصرية لأساطين العلم ومنهم السير جايمس جينز والسير ادينغتون واينشطين وبرتراند رصل وغيرهم ، وبمتن الفلك لكبار الفلكيين الاميركيين الأساتذة الثلاثة رصل ، ودوغان ، وستيورت ، الذين نقحوا كتاب الفلك المشهور لسلفهم الفلكي الكبير يونغ ، ودائرة المعارف البريطانية .

نقولا الحداد

الفصل الاول

من هو نيوتن

---

١ — ملاحظة التفاحة

روى پمبرتون صديق نيوتن الحميم، وقد وقف على الطبعة الثالثة من كتاب المبادىء لنيوتن :-

«كان نيوتن جالساً ذات يوم تحت شجرة تفاح يفكر كعادته حين يكون منفرداً ، فرأى تفاحة سقطت من الشجرة من تلقاء نفسها — لعلها تجاوزت دور النضج — فحوّلت تفكيره الى سبب سقوطها، وقال في نفسه ، ما الذي أسقط هذه التفاحة الى الأرض ».

وكان قد عرف نظرية طيخو براهي عن مسارعة الأجسام الساقطة . فتراءى له ان التفاحة سقطت متسارعة — تراءى له تسارعها على الرغم من ان سقوطها لم يتجاوز ثانيتين وهي مدة لا تكفي للملاحظة المسارعة . فاستطرد يقول لنفسه : وما الذي جعلها تسقط متسارعة . وما هي القوة التي تُهبط الأجسام من أعلى الى أسفل — من الشجرة ومن الجو ومن رأس الجبل ومن البرج الخ . ألا يمكن أن تكون هذه القوة هي نفس القوة التي تفعل بالقمر فيدور حول الارض، بدل أن يندفع في خط مستقيم وفقاً لما نعلمه بالبديهة . ألا يمكن أن تكون هذه القوة في الارض نفسها ، قوة تجذب ما حول مركزها اليه ؟ ألا يمكن أن تكون نفس القوة التي تُحرج السيارات أن تدور من حول الشمس .

وما عتم أن شرع يفكر في سنة طبيعية توجب على الأجسام أن تدور من حول مركز . ولأنه كان رياضيّاً بالفطرة وقد نبغ في الرياضيات منذ حداثته شرع يبحث في خطة هذه القوة . لا بدَّ أن يكون ثمت نظام حسابي لهذه القوة تسير فيه على قاعدة واحدة مهما اختلفت الأجسام حجماً وتباعدت مسافة أو تفاوتت زمناً .

الغاية الرئيسية من هذا الكتاب بسط سنّة الجاذبية كما اكتشفها هذا الفيلسوف العظيم نيوتن في جميع ظروفها ومقتضياتها . ولكن البحث في هذه الغاية يستلزم البحث في حياة نيوتن نفسه .

هذه السنة التي برزت من ذلك الدماغ الذي بقيت أليافه تلمع لمعات الذكاء برهة ثلاثة أرباع القرن حتى انها أضاءت عالم العلم منذ مولد ذلك الفيلسوف الطبيعي الى اليوم والى الأبد — هذه السنّة فتحت باب أسرار الطبيعة للعلماء الحديثين فانجلت لهم حقائق عديدة عن الكون المادي .

منذ عهد نيوتن الى الآن انجلى من أسرار الكون ما يعادل الف ضعف مما استجلى الانسان منها من قبل .

قال أحد المدركين قيمة عمل نيوتن العلمي « كانت نواميس الطبيعة غامضة وفي ليل حالك من الجهل الى أن قال الله : « ليكن نيوتن » . فضاءت المعرفة وأنارت الكون كله »

قبل البحث في موضوع الجاذبية ينبغي ان نرفع الغطاء عن مشعال الذكاء الذي كشف القناع عن الجاذبية — ينبغي ان نجمل للقارىء سيرة حياة نيوتن الملقب بحق فيلسوف الطبيعة وزعيم فلاسفتها

٢ — نشوؤه

ولد اسحق نيوتن في ٢٥ من ديسمبر سنة ١٦٤٢ في منزل وضيع في وولتروب قرب جرانثام من ولاية لنكشير في انجلند . وقيل انه من نسل السير جون نيوتن . وكان أبوه قد توفي في اكتوبر السابق . وفي سنة ١٦٤٥ تزوجت أمه برنابا سمث قسيس نورث وهام من ليستشر . وبعد زواجها الثاني عاش اسحق مع جدته مسز اسكوف من وولتروب ايضاً . ولكنها استعادته اليها بعد ترملها الثاني

وكان في اول عمره نحيفاً ضعيف البنية لم تُرْجَ له الحياة، يقال لأنه ولد قبل موعد الولادة ولازم نحو سنتين المدرسة الابتدائية في جرانثام اذ كانت تحت رعاية المستر ستوكس . ومنذ دخل المدرسة بدت عليه مخايل الذكاء . بيد انه لم يتفوّق بل كان نجاحه قليلاً . ولعلّ السبب انه كان يلهو بالألعاب وصنع أشياء منها . وقد ورد في كتاب أعلام المقتطف : « قيل انه لم يكن ليلتذ مهتمّاً بمعاشرة رفاقه التلاميذ وملاعبهم بل كان ينفرد عنهم ويلهو بالألعاب الميكانيكية وتقليد ما يراه منها ، فاصطنع بيده منشاراً وقدوماً ومطرقة وسائر أدوات الصناعة بحجم صغير يناسبه . وكان يستعملها بحذق غريب . فصنع بها ساعات يديرها الماء المنحدر . فكانت بغاية الضبط والاتقان .

« وفي ذات يوم أنشأوا في المدرسة مطحنة هوائية كانت لذلك العهد غريبة عجيبة فما زال يدرسها حتى فهمها وصنع مثلها . وزاد عليها أن جعل الطحان فاراً يطحن الدقيق ويأكله » (باختصار) .

وأولع أيضاً بالرسم والتصوير وبنظم الشعر فانصرف عن درسه بهذه الألعاب والفنون الى أن تفوّق أحد رفاقه عليه في إحدى المنافسات . فأثار الأمر في نفسه حماسة المناظرة وما لبث أن صار رأس فرقته .

وكان يستلذ مراقبة نجوم السماء . فلا بدع أن يُغرق بعدئذٍ في التفكير في الجاذبية التي تربط أجرام السماء .

في الرابعة عشرة من عمره سنة ١٦٥٦ أخرجته أمه من المدرسة لكي يساعدها في الحقل . وهل المخلوق لكي يفلح السماء يطيق أن يفلح الأرض ؟ طبعاً لم ينجح في هذا العمل لأنه كان لاهياً في العمليات الرياضية حين كان يجب أن ينشغل في الزرع والقلع والحرث والعزق . وكانت أمه ترسله الى سوق جرانتهام لكي يبيع غلة الحقل ومعه خادم مسنّ . فكان يحيل أمر البيع في السوق إلى هذا الخادم ويجنح الى الصديق كلارك الصيدلاني حيث يطالع فيما عنده من كتب علمية وكيماوية .

ولما رأى خاله وليم ايسكوف قس بورتون كوكجل والعضو في كلية الثالوث (ترينتي) في جامعة كمبردج ميله الى الرياضيات والعلم نصح لأمه أن ترده الى المدرسة لكي يستعد لجامعة كمبردج . وكان ذلك ١٦٦٠ وفي سنة ١٦٦١ استتمّ استعداده للدخول في كلية الثالوث . وفي سنة ١٦٦٥ نال شهادة بكلوريوس علوم . وفي سنة ١٦٦٧ أختير معلماً في الكلية المذكورة .

٣ — اكتشافاته الرياضية

وفي سنة ١٦٦٥ اكتشف النظرية الرياضية المسماة « الكميات الثنائية » وهي عبارتان جبريتان تربطهما علامة الايجاب أو علامة السلب . وما لبث أن استنبط الفن الرياضي المسمى « حساب التكامل والتفاضل » Calculus وقد سماه Fluxions وترجم المقتطف الكلمة

« فن السيالة » ولهذا الفن شأنٌ عظيم جدًّا في العلوم الرياضية النظرية والعملية كالهندسة الميكانيكية وهندسة البناء الخ .

وفي مايو من السنة التالية دخل في الطريقة العكسية لهذا الفن وهي طريقة حساب المنحنيات وأحجام المجسمات . وقال : « وفي تلك السنة ١٦٦٦ جعلتُ أفكر في قوة الجذب (أو في الثقل) الممتدة الى فلك القمر . وأخذت أقابل القوة اللازمة لحفظ القمر في فلكه بالقوة الجاذبية التي على سطح الأرض .كان ذلك في سنتي ١٦٦٥ و ١٦٦٦ .و ذلك أول شبابي»

٤ — اكتشافه سر الالوان

ومنذ ذلك الحين جعل يبحث في البصريات وأسباب الألوان. وفي ١١ من ينا ير سنة ١٦٧٢ أرسل شرح اختباراته الى الجمعية العلمية الملكية . وفي تلك السنة عينها اختير عضواً في الجمعية مع لقب أستاذ ، وفي الحال شرع يرسل رسائله الى اوكدنبرج كاتب السر في الجمعية لكي تتلى فيها .

ومما كتبه حينئذٍ : « سأبذل جهدي أن أبدي شكري للجمعية بتقديم ما تستطيع مجهوداتي المتواضعة أن تؤثره في ترقية البحث الفلسفي » .

وقرأت نظريته عن النور والألوان في ٨ من فبراير في المجمع العلمي الملكي أي الجمعية المذكورة آنفاً . وأظهرت العمليات التي شرحها أن النور مؤلف من مجموعة من الأشعة مختلفة الانكسار . أي انها إذا مرَّت في موشور (أصبع من بلور مثلث الزوايا) خرجت أشعته ملونة منكسرة على زوايا مختلفة مع الشعاع الأصلي . ومعنى ذلك أن الألوان ليست صفات للنور المنعكس عن الأجسام الطبيعية كما كان يظن ، بل هي خواص أصلية في النور نفسه تختلف باختلاف الأشعة المنكسرة . أي إن اللون ليس في الجسم الذي يعكسه بل في النور نفسه الذي انعكس عليه .واختلاف الألوان يتوقف على اختلاف زوايا الأشعة المنكسرة كما نعلم نحن الآن . ونعلم أن زوايا الانكسار هذه تختلف باختلاف أحوال الموجات الضوئية وذبذباتها . والتي تُحدث في شبكية العين نفس الاختلاف . والدماغ يتصوَّر لكل ضرب من الموجات لوناً خاصًّا أو هو استنبطها

وفي المدة التي كان فيها منشغلاً في هذا البحث وفي تحقيق نظريته عين أستاذاً للرياضيات ،

إذ استقال سلفه الأستاذ بارولكي لكي يحل هو محله . ومن ثمّ كانت السلسلة الأولى من محاضراته عن البصريات مؤيدة بالمعادلات الرياضية . وهذا ما حمله على الاستمرار في البحث والاختبار التجريبيين بواسطة الموشور المشار إليه الذي اشتراه في معرض ستوبوردج سنة ١٦٦٦ إلى أن بلغ بحثه قمّتَهُ في رسالة إلى الجمعية (أي المجمع العلمي الملكي) سنة ١٦٧٢ حيث قامت قيامة المناقشات الحادة بين العلماء الطبيعيين في هذا الموضوع ، على ان المجمع أثنى عليه باحترام كلي وشكر له بحثه العظيم الشأن وأبلغه ان المجمع عُني به عناية خاصة .

٥ — مناظرة العلماء له

وحاول روبرت هوك مع «وارد» مطران سالسبوري وروبرت بويل أن يتمادوا في البحث تخطئةً لنظرية نيوتن . وهوك في كتابه ميكروجرافيا وصف عملية تجريبية بالموشور . ولكنها لم تعد بتأييد رأيه . وجميع انتقادات هؤلاء الثلاثة انتهت بتأييد رأي نيوتن

وكان في التلسكوب (المقراب) في ذلك الحين عيب لوني . فعانى نيوتن في اصلاح هذا العيب الى حدٍّ ما . وصنع التلسكوب المُصْلَح لاول مرة سنة ١٦٦٨ . ثم صنع تلسكوباً ثانياً وأرسله الى المجمع الملكي في ديسمبر سنة ١٦٧١ .

وتطاول البحث والنقاش في البصريات بينه وبين العلماء سنة ١٦٧٥ وكتب في تلك السنة: « لقد تعبت جدًّا في هذه المباحث التي دارت حول نظريتي في النور حتى أني لمتُ نفسي أخيراً لحمقي في هجر نعمة راحتي لكي أعدو وراء خيال أو ظل » .

على ان هذه المباحث كانت ذات فوائد جمة لأنها أدَّت به الى تحقيق تأثيرات اللون الأخرى ، والى البحث في سبب صدور النور ، والذهاب الى ان النور ذريرات تصدر من الجسم المنير وتنطلق في الفضاء الخالي بسرعة فائقة . وقد حسبها حينئذٍ ١٩٠ الف ميل في الثانية وهي الآن بالتحقيق ١٨٦ الف ميل ، فاضلّ كثيراً على الرغم من فقر عصره بالآلات الفلكية والعلمية .

ثم انه تبسط في أسرار انعكاس النور وانكساره كما هو معلوم الآن في علم الطبيعيات . وعاد هوك يتصدّى إلى نقده في هذا الموضوع في كتابه ميكروجرافيا ١٦٦٤ اذ استند على نظرية هوجنس Huyghens في أن النور قوة تنتقل بحركة موجية في الايثير المالىء الفضاء . ولكنه لم ينجح في تطبيق هذه النظرية على الانتشار (المتعامد) لكل الجهات والانعكاس

والانكسار الى غير ذلك من خواص النور . ومع ذلك كان نيوتن مضطراً في تعليل هذه الظاهرات إلى فرض ان النور المنتشر ذريرات من الجسم المنير تنطلق متموجة في الاثير .

ومضى زمن بعد نيوتن كان يعتقد فيه العلماء ان النور أمواج اثيرية لا ذرية . ولكن بعض علماء هذا العصر عادوا الى نظرية نيوتن بتنقيح كثير فيها . وقد سمى السير تجايمس تجينز أمواج الذرات النورانية Wavicles وهي نحت من كلمتي Wave-Particle

وكانت عبارة نيوتن الأخيرة فيهذا الموضوع سنة ١٦٧٥ « أظن أن النور ليس أثيراً ولا أمواجاً اثيرية بل هو شيء آخر ينتشر من الجسم المنير » . ويظن أيضاً «أن النور والأثير يتفاعلان الواحد مع الآخر »

على أن شهرة نيوتن لا تتوقف على هذا البحث ولا تقف عنده بل على اكتشافات علمية أخرى تخلد اسمه الى الأبد وأهمها « ناموس الجاذبية » .

٦ — قوة الجذب

وفي سنة ١٦٦٦ حين عاد الى وولتروب بسبب انتشار الطاعون فيكمبريدج، جعل يفكر في قوة الجذب الممتدة الىفلك القمر الى أن اكتشف ناموسها . ولكن لمَّا لم يصح تطبيق هذا الناموس على القمر الدائر حول الأرض . لم يشأ أن ينشر شيئاً بشأنه مدة طويلة لظنه انه خطأ وأن الفكرة سخيفة .

والغريب أن يظن نيوتن ان لوقوع الجسم على الأرض ودوران القمر حولها ناموساً. أليس غريباً أن يعتقد نيوتن ان القوة التي اجتذبت التفاحة الى الأرض هي نفس القوة التي تدير القمر حول الأرض .عجباً اذن ! لماذا لايسقط القمر على الأرض كما سقطت التفاحة وكما يسقط كل جرم . وأعجب من ذلك أن يدرك نيوتن هذا السر وهو غريب على الأذهان وبعيد عن الأفهام (١) . وبناءً على فهمه هذا السر عمل حسابه فضلاً لأن المعلومات التي بني عليها كانت ناقصة كما سيرد بيانه . وكما سيعلم القارىء السر الذي أدركه نيوتن .

في ذلك الحين كان بعض أعضاء المجمع العلمي يخمنون تخمينات مختلفة فيما لاح لنيوتن

---

(١) سترى تفسير ذلك في ٤ و ٥ من الفصل الثاني .

من قبيل قوة الجذب التي تجذب الأجسام نحو المركز والسيارات نحو الشمس والقمر نحو الأرض الخ . وكان منهم رن ، وست وارد مطران لسبوري ، وروبرت بويل ، وهوك ، وهالي ، الى أن التقى هالي بهوك ورن يوم الأربعاء من يناير سنة ١٦٨٤ . فقال رن انه اكتشف البرهان على نواميس الحركات الفلكية . أما هالي فاعترف بجهله . وانبرى حينئذ السير كريستوفور مشجعاً البحث في الموضوع وقال انه يهدي كتاباً بأربعين شلناً لمن يجد حلاً لمسألة دوران السيارات في أفلاكها . وأمهل المشتغلين بها شهرين .

بقيت المسألة بلا حل حتى شهر أوغسطس حين زار هالي نيوتن في كمبريدج وقال له : وصل إليَّ انك توفقت الى الحل لهذا السؤال : وهو ان تأثير قوة مركزية على جسم متحرك تختلف كمربع البعد . فكيف ذلك وما البرهان ؟

فوعده نيوتن بأن يبحث عن نسخة البرهان التي أهملها منذ ١٨ سنة لعدم ثقته بصحته . على ان نيوتن لم يجد النسخة فأعاد كتابة البرهان من جديد وأرسله الى هالي في نوفمبر من تلك السنة . وعاد هالي الى كمبريدج وألحَّ على نيوتن أن يقدم البرهان للمجمع .

وفي العاشر من ديسمبر سنة ١٦٨٤ أبلغ هالي الى المجمع ان نيوتن أراه رسالة مستغربة وانه ألحَّ عليه أن يرسلها الى المجمع لكي تسجل فيه . فأرسلها نيوتن . وسُجِّلت بالفعل في فبراير سنة ١٦٨٥ وعلى حاشيتها تاريخ صدورها في ١٠ ديسمبر سنة ١٦٨٤

ولكن في أوائل سنة ١٦٨٥ أدَّت حساباته بهذا الشأن الى اعتبار ان كلاً من الشمس والسيارات كأنها نقطٌ متجمعة في مراكزها أي ان الجرم كله كتله مضغوطة في مركزه ، وفي هذا المركز مقرّ القوة الفاعلة . ولكن أحقيق هذا ؟ أم ان الجرم مهما كان كبيراً أو صغيراً يعتبر كله مركزاً إذا قورن بالمسافة السحيقة بينه وبين الجرم الآخر ؟ . وما هي هذه القوة التي تستطيع بها الشمس مثلاً أن تجتذب جرماً خارجاً عنها .

ومن ثمَّ جعل نيوتن يحسب حساباته على فرض ان كل ذرة في الشمس تجذب كل ذرَّة في الجسم الآخر البعيد عنها بقوة مناسبة لحاصل ذرَّات هذا مضروبة بذرَّات ذاك وبنسبة مربع البعد بينهما .

ولما خرج نيوتن بناموس الجاذبية نتيجة لحساباته سنة ١٦٦٥ رأى ان دوران القمر

أسهل نموذج لاختبار صحة الناموس . فحسب حسابه على اعتبار أن القمر يبعد عن الأرض نحو ٦٠ مرَّة طول نصف قطر الأرض . فكانت النتيجة خطأً . وبعد مدة من الزمن ظهر ان قطر الارض أطول مما كان يظن . فعمل حسابه على اعتبار الطول الجديد فصحَّ وثبتت السنَّة التي اكتشفها .

(وسيأتي شرح ذلك فيما بعد في الملحق الثالث القسم الثالث)

وبعد ذلك تجرَّأ نيوتن أن يعلن ناموسه وأن يجاهر به بثقة عظيمة ثم طبَّقه على جميع دورانات السيارات . ثم صار يطبقه على كل حركة فلكية وكونية مهما كانت عظيمة وشاسعة وبعيدة أو صغيرة أو كبيرة .

وبواسطة قانون الجاذبية اكتشاف تسطيح الارض عند قطبيها . وسبب تغير الثقل بتغير الارتفاع عن سطح الارض . وبها فسَّر مبادرة الاعتدالين وسير المد والجزر . وقال بامكان معرفة حجم السيارات بواسطة معرفة جذبها بعضها لبعض واضطراب حركاتها . وتعليل تقدم نقطة الرأس في الفلك الأهليليجي الى غير ذلك من الحركات الفلكية .

الناموس الطبيعي لا ينقض بوجه من الوجوه . هو أساس النظام الثابت .

٧ — فلسفة المبادىء الطبيعية

عاد نيوتن بعد ذلك الى كمبردج وشرع يؤلف كتابه المشهور العظيم الشأن « المبادىء » Principia سنة ١٦٨٦ وقد سماه فلسفة المبادىء الطبيعية الرياضية Philosophae Naturalis Principia Mathimatice وأتمه في ثلاثة مجلدات وطبعت في ١٦٨٧ .

وكانت الجمعية (أي المجمع العلمي) في ذلك الحين فقيرة فأخذ هالي نفقات الطبع على عهدته . وكان يزيل كل ما يستطيع من الصعوبات من امام نيوتن لكي يتم هذا العمل العظيم . وما عتمت هذه المؤلفات الثلاثة النفيسة ان انتشرت في كل اوربا . ونشرت معها شهرة عظيمة له . وبقيت المرجع العظيم الشأن لعلماء العصر الى اليوم . ومعظم نظريات علم الاكوان والافلاك تستند الى المبادىء التي قرَّرها نيوتن .

٨ — مرضه وتفوقه الرياضي

في سنة ١٦٨٩ انتخب نيوتن عضواً في الجامعة ثم انتخب ثانيةً في سنة ١٧٠١ وفي سنة ١٦٩٠ عاد الى كمبردج واستمرَّ في مباحثه الرياضية ، وما عتم أن انتابه داء الأرق بين سنتي ١٦٩٢ و ١٦٩٤ . وقيل انه أصيب باضطراب عصبي حتى باختلال عقلي أيضاً

وحينئذٍ كتب هيغن الى بستر : « لا أدري ان كنت قد علمت بما حدث للفاضل المستر نيوتن . وهو انه أصيب بالتهاب دماغي دام ١٨ شهراً . وقيل ان أصدقاءه عالجوه بأدوية مختلفة . وحجزوه ومنعوه من الخروج » .

وقد حاول أصدقاؤه مرة أن يردوه الى عمله في سنة ١٦٩٥ ومنهم رن وصديقه تشارلس مونتاجو ولورد هاليفاكس الذي كان سابقاً أستاذاً في كلية الترينتي، ثم وزيراً للمالية بعد ذلك. وعرضوا عليه وظيفة مراقب مصلحة سك النقود. فقبل الوظيفة وبقي أستاذاً في كمبردج . وبعد ٤ سنين صار مدير المصلحة . وفي تلك السنة انتخب واحداً من الثمانية الأجانب لعضوية الأكاديمية الفرنساوية في الفرع العلمي .

في سنة ١٦٩٦ نشر جون برنولي الرياضي السويسري رسالة على رياضيي أوربا يقترح فيها عليهم حل قضيتين رياضيتين، وأمهلهم ستة أشهر. وفي ٢٩ من يناير ورد لنيوتن في فرنسا نسختان مطبوعتان من هذه الرسالة . وفي اليوم التالي أرسل نيوتن حلهما الى مونتاجو الذي كان حينئذٍ رئيس المجمع العلمي الفلكي . فأرسل الحلاَّن بلا توقيع الى برنولي ، ولكن برنولي لما اطلع على الحلين وهما بلا توقيع قال : « عرفته كما يعرف الأسد بجبروته . هو نيوتن » .

وقضى لبنتز المنافس لنيوتن في الرياضيات ستة شهور يفكر في المسألتين ولم يوفق الى حلهما .

وفي سنة ١٧٠١ استقال نيوتن من الأستاذية في الترينتي (كلية الثالوث) وانتقل الى لندن وبقي قائماً بواجباته كأستاذ ذي انتاج ممتاز الى أن توفي سنة ١٧٢٧

وكان في سنيه الأخيرة ذا مقام عظيم يذكر له . ففي سنة ١٧٠٣ كان رئيساً للمجمع العلمي الملكي . وبقي ينتخب لهذا المنصب كل سنة الى آخر حياته .

٩ — مقامه

زارت الملكة حنة كمبردج سنة ١٧٠٥ ونزلت ضيفاً على الدكتور بنتلي رئيس كلية الثالوث وهناك منحت نيوتن وسام فارس ولقب سير .

وفي ذلك الحين ابتدأ النقاش بينه وبين لبنتز بشأن حساب التكامل والتفاضل . وقد نشرت إحدى المجلات مقالاً بلا امضاء يزعم فيه كاتبه ان نيوتن اقتبس فكرة فن السيالة Fluxion من لبنتز . ولكن من يصدق ان ذلك الدماغ العظيم تتدنى نفسه الى اقتباس نظرية رياضية من غيره وهو رب الرياضيات .

واستمرت المناقشة بينه وبين لبنتز سنتين الى أن مات لبنتز سنة ١٧١٦ ولكنها استمرت بين الرياضيين الآخرين نحو قرن .

ومات نيوتن بعلة الحصاة في ٨ مارس من سنة ١٧٢٧ ودفن باحتفال عظيم يليق بعظيم مثله في دير وستمنستر .

١٠ — نبوغه

لم يقتصر نبوغ هذا العبقري العظيم على ضرب واحد من ضروب العلوم والمعارف ، بل شملها جميعاً . كان رياضيًّا بالفطرة . لم يسبقه أحد في إدراك الرياضيات العليا كأنها سجية في عقله ، فلا يُعنت فكره في فهم قضاياها، فكان اذا رأى شكل قضية هندسية واطلع على نص القضية يفهم البرهان من غير أن يدرسه أو يطلع عليه ، واستنباطه لحساب التفاضل والتمام الذي تحل به معضلات العمليات الرياضية يدل على ان عقله كان من درجة أسمى من مستوى عقل البشر . وله مصنفات في الجبر والمعادلات وفي الهندسة .

كان أيضاً عالماً كيماويًّا . وله في الكيمياء كتاب بحسب ما كان علم الكيمياء في عصره وربما توفق لزيادة على ما كان .

وأما في العلوم الطبيعية فمباحثه في النور وفي نواميس القوة والحركة كما هي محصية في كتابه « المبادىء » لا تزل الى اليوم مستند أهل العلم الطبيعي . وله مصنفات في الفلك والنظام الشمسي .

ومع كل دراساته العلمية التي أحاطت بكل العلوم في الطبيعة والكون كان عالماً في

اللاهوت وله مباحث في العقيدة بوجود الله . ولكنه لم يكن يعتقد بالتثليث — وكيف يمكن ذلك العقل المنطقي الرياضي أن يقتنع به .

١١ — أخلاقه

كان دمث الأخلاق لا يغضب ولا يعادي ولا يحقد ، حتى انه إذا قسي عليه في جدال عدل عن الموضوع تحاشياً للنفار والجفاء . ولذلك لم يكن له أعداء بل أحباء معجبون .

وعلى سمو عقله واتساع دائرة علمه كثير التواضع لا يفخر ولا يدعي ولا يتبجح .

وحين كان صحبه حوله يعجبون بسعة علمه وسمو عقله كان يقول : «أراني طفلاً يلهو على شاطىء من أوقيانوس المعرفة حتى إذا عثرت على صدفة أخذتها . وهل يفرغ البحر من الأصداف » ؟

وعاش عزباً . ويقول انه قلما شغل قلبه الحب . ولعله لم يحب . ومن كان مشغول اللب دائماً لا يبقى عنده وقت للحب .

قيل انه ترك ثروة تقدَّر بنحو ٣٢ الف جنيه . ولم يكن مسرفاً وانما كان محسناً جواداً يعمل الخير ليس لذويه فقط ، بل لكل من يعرف بفاقته وبؤسه .

لا يزال أساطين العلم منذ عهده الى اليوم وبعد اليوم يضعونه في مقام الملك في دولة العلم ، أو الجبل الشامخ المشرف على روابي المعرفة .

قال لابلاس : إن كتاب « المبادىء » الذي صنّفه نيوتن أعظم نتاج عقلي ظهر في العالم

وسألت ملكة بروسيا ذات يوم لبنتز (خصمه) رأيه في نيوتن . فقال : إن كل ما أنتجه العقل البشري منذ بزوغه الى اليوم من الفنون الرياضية وأساليبها لا يساوي ما انتجه نيوتن .

وكان كبار العلماء من معاصريه مثل هوك ، وهالي ، وبويل في انكلترا ، وهوجنس في هولاندا ، وتورنلي في ايطاليا ، وباسكال في فرنسا يشاركون الفيلسوف لبنتز الألماني عقيدته في عبقرية نيوتن .

وفي عصرنا قال تجايمس تجينز عنه إنه أعظم العلماء على الاطلاق . وقال اينشطين : « ان ما جاء من النظريات العلمية الطبيعية بعده لم يكن الاَّ نمواًّ طبيعيًّا لنظرياته » . ولذلك لم ينقض اينشطين رأي نيوتن في الجاذبية كما ظنَّ البعض . بل هو زاد على تلك الدوحة غصناً ، كما انه لم ينقض هندسة اقليدس بل زاد مداها .

الفصل الثاني

القوة القصوى

---

١ — البديهيات

متى شرع الطفل يستوعب شيئاً من الاحداث التي تطرأ عليه يشرع أيضاً يسأل عن أسباب بعضها مما يراه مستجداً أو مغايراً لما تكرّر له وألفه. يسأل مثلاً لماذا لا يخطف الكلب الجبن عن المائدة وهو يعهد الكلب يأكل الجبنة اذا رآها على الأرض. ولماذا ليس له وشم في يده كما في يد آخر رآه لأول مرة وهو يظن ان الوشم خلقة في اليد. أو لماذا ليس لأبيه أسنان من ذهب كما لجاره. ونحو ذلك. أعني أنه منذ يسعى يشرع يظن أن لكل شيء سبباً. ولهذا تكثر على الطفل الأسئلة لما هو معلوم.

ولكنه لا يسأل البتة لماذا تطلع الشمس كل صباح من وراء أفق الشرق وتغرب وراء أفق الغرب. ولا يسأل لماذا لا يستطيع أن يرفع حجراً كبيراً وهو يستطيع أن يرفع حصاة. ولا يسأل لماذا العصفور يطير وهو لا يطير.

ان ما وعى له أولاً وهو يراه كل يوم لا يسأل عن سبب له لاعتقاده انه أمرٌ طبيعي، فكأنه بديهي عنده، وأما ما يستجد لادراكه وشعوره يود أن يعرف له سبباً.

ما أكثر البديهيات عند الطفل. فطلوع الشمس وغيابها. واحراق النار وألمه، والجوع والعطش والنعاس الى غير ذلك مما لا يحصى — كلها بديهيات عند الطفل. ولكن عند الناضجين ولا سيما المثقفين فلكل هذه أسباب أو لا بدّ من تعليلها وتفسيرها وتبيان علل لها. حتى لطلوع الشمس كل صباح وغيابها كل مساء أسباب كما هو معلوم مهما تراءيا بديهيين.

وقد تطوّع بعضهم الى انكار كل بديهية حتى البديهيات الرياضية كقولك: «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين». و«الخطان المتوازيان لا يلتقيان». و«العددان اللذان يساوي كل منهما عدداً ثالثاً هما متساويان». والحقيقة ان هذه الاوليات ليست بديهيات وانما هي تعريفات. فاذا قلنا الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين عنينا ان الناس

اصطلحوا على تسمية أقرب مسافة بين نقطتين بالخط المستقيم : فكأن الكلمة وتفسيرها مترادفان. وكذلك سموا الخطين اللذين كيفما امتدا في سطح واحد لا يلتقيان خطين متوازيين. وقضية الخطوط او الكميات الثلاثة المتساوية كل منهما يساوي كلاً من الخطين الآخرين أو الكميتين الأخريين هي تحصيل حاصل، كما ان الأربعة تساوي ٢ و٢ هي تحصيل حاصل والنكتة في التعبير .

ومعنى ذلك انه ليس ثمت شيء بديهي بالمعنى الذي نقصده . العقل لا يعرف شيئاً بالبديهة كما نظن وانما يعرفه بتكرار الملاحظة حتى يعتقد انه شيء طبيعي لا يحتاج الى برهان. فسماه « بديهية » . ولا شيء أشد بداهة من قولك لا يوجد شيء في مكانين في وقت واحد معاً . ولكن بحسب ناموس النسبية هذا ممكن لشخصين راصدين في مكانين مختلفين .

واذا سألت العامي : لماذا المياه تجري من اعالي الجبال الى أسافل الاودية ثم الى البحر دهش لسؤالك هذا وقال : « ويكَ أتريد أن تصعد المياه من الاسافل الى الاعالي ؟ » .

تقول له : « لِمَ لا ؟ » .

يزداد دهشة واستغراباً ويقول « هذا مستحيل »

— « قل لي . لماذا هو مستحيل ؟ ماذا يمنع ان تصعد المياه من الأسافل الى الأعالي ؟ ماذا يرغمها ان تنزل ولا تصعد ؟ » .

حتى اذا تحير ولم يحر جواباً لجأ الى ما وراء الطبيعة وقال : « هكذا خلقها الله . خلقها تنزل ولا تصعد » .

وإذا سألته : لماذا تسقط التفاحة عن الشجرة إذا تقادم نضجها ؟ لماذا لا ترتفع في الفضاء ؟ استهجنك لهذا السؤال لأنه لا يرى سبباً لهذا الشيء المألوف عند جميع العقول منذ آدم إلى اليوم، وهو أن الأشياء تسقط إلى تحت ولا ترتفع إلى فوق من تلقاء نفسها أو إذا لم تقذف قذفاً بقوة، وأخيراً مصيرها أن تهبط إلى تحت . هذا أمر بديهي عنده كما أن طلوع الشمس صباح غد وموج البحر الخ كل هذا بديهيات عنده .

ولكن نيوتن لم يسلم أن سقوط التفاحة شيء بديهي . بل قدَّر له سبباً وجعل يفكر في السبب . وعبرت القرون على الكرة الأرضية والعقول حتى الفلسفية منها تعتقد أن سقوط التفاحة وانحدار الماء وغير ذلك من أشكال السقوط إنما هي أحداث طبيعية . أي

هي من سجايا الوجود . ولا سبب لها ولا تحتاج إلى برهان . فقال هذه بديهية .

لم يخطر لأحد أن يبحث عن هذا السر العجيب الغامض . ولكن نيوتن لم يقتنع بهذه البداهة . فرام أن يفهم لماذا سقطت التفاحة أمام نظره من تلقاء نفسها ولم ترتفع إلى فوق . ففكر كل حياته ومات وهو لم يفهم ذلك السر، ولا فهمه أحد آخر إلى الآن ، وإنما خمنوه تخميناً . ولذلك اضطرّ العقل البشري أن يرضخ لحكمة الطبيعة الغامضة ويقول : ليس هناك سر . فما ذلك إلاّ إرادة الطبيعة . كذا أرادت الطبيعة وكذا يكون . واللاهوتي يقول : هنالك يد الله تعمل .

على أن نيوتن إذا لم يعرف ذلك السر العميق الخفي فقد عرف بتفكيره البعيد الغور ناموس ذلك السر ومقتضياته . وحسبه هذه المعرفة وكفى

اكتشف أن لذلك السقوط سنة سرمدية نظامية رياضية. وظهر بعدئذٍ للعلماء أن جميع سنن الطبيعة رياضية كأن الطبيعة نفسها أستاذ رياضي ، أو بالأحرى إن الله تعالى البارىها عالم رياضي أعلى وقد برأ الكون كله على قواعد رياضية . وكذلك لسقوط الأجسام من أعلى إلى أسفل ناموس طبيعي رياضي . وهو ما جعل نيوتن يفكر ويبحث عن هذا الناموس .

٢ — اكتشاف نيوتن السر

ولما كان نيوتن قد علم من كتابات كوبرنيكس وبعض أسلافه من العلماء إن الأرض كرة تدور حول نفسها وتطوف حول الشمس في مدار (فلك) واسع أدرك أن الأجسام تسقط في اتجاه واحد نحو المركز نخمن أن في مركز الأرض قوة غير منظورة تجذب الأجسام نحو المركز .

لما رأى نيوتن أن التفاحة أو أية مادة أخرى أينما كانت فوق سطح الأرض تسقط سقوطاً متجهاً الى الارض ، أي انها تتجه حتماً الى مركز الأرض ، تنبه الى أن هذه القوة الجاذبة نحو المركز منتشرة في جميع الجهات بالتساوي . يؤيد ذلك ما علمه من ناموس الأجسام الساقطة الذي اكتشفه جاليليو (١) ان الجسم كلما تقدم نحو المركز كان أسرع هبوطاً.

(١) مات جاليليو يوم ولد نيوتن . وكأن علم الفلك شرع يجري من عالم التنجيم ويتسلسل سلماً نقياً منذ عهد كوبرنيكس، فكبلر، فجاليليو ، فنيوتن الخ

(انظر تفسيره في الملحق الأول في آخر الكتاب)

وعلم نيوتن ورأى أن هذه القوة تشتد كلما قرب الجسم الساقط الى المركز . فهي إذن في أشدها عند المركز وأضعفها كلما ابتعدت عن المركز ، ولكن على أي حساب تقوى وتضعف ؟ أو ما هي قاعدة استقوائها وضعفها ؟ .

وكان طيخوبراهي قد سجل لعدة سنين مدارات (أفلاك) السيارات التي كانت معروفة لعهده مستعيناً بالمقراب (التلسكوب) الذي اخترعه جاليليو . ثم جاء بعده كپلر ودرس أرصاد طيخوبراهي هذه درساً دقيقاً . فلاحظ أن هذه السيارات لا تسير في الفضاء اعتباطاً بلا نظام ، بل هي تسير في دوائر على أبعاد مقررة من الشمس . وليست مداراتها مستديرة تمام الاستدارة بل هي اهليلجية الشكل قليلاً والشمس في أحد محترقي الاهليلج . ولاحظ أيضاً ان سرعاتها متناسبة وبالتالي مدات دورانها متناسبة أيضاً بالنسبة الى أبعادها عن الشمس . فاكتشف لحركاتها ثلاثة نواميس ثابتة لا تتغير .

١ — جميع أفلاك السيارات اهليلجية كثيراً أو قليلاً (الفلك هو المدار الذي يدور فيه السيار حول الشمس . والاهليلجي منه هو البيضي الشكل أي دائرة مستطيلة Oval) .

٢ — خط القوة Radius Sector في كل سيار يمسح في أوقات متساوية مساحات متساوية (خط القوة هو الخط الوهمي الممتد من مركز الشمس الى السيار يطول أو يقصر حسب ابتعاد السيار عن الشمس أو قربه منها في فلكه الاهليلجي) .

٣ — نسبة مربع المدة التي يقضيها السيار الواحد الى مكعب بعده عن الشمس كنسبة مربع مدة أي سيار آخر الى مكعب بعده [1] .

٣ — الناموس أو القانون

ثم جاء نيوتن فدرس ملاحظات كل من كوبرنيكس ، وجاليليو ، وطيخو براهي ، وكپلر درساً دقيقاً فاستنتج منها ناموس القوة التي تجذب الأجسام نحو المركز ، إذ ثبت له أن مركز الشمس يفعل في السيارات التي حولها كما يفعل مركز الأرض في القمر وفي الأجسام التي عليها . أما ما هي هذه القوة الفاعلة فلم يدرِ . وإنما درى ان هناك قوة ، وأن لها نظاماً

(١) ترى شرح هذا في الملحق الرابع

رياضيًّا ، فسماها جاذبية واستخرج نظامها الرياضي وهو الناموس الذي نحن بصدده :

ان القوة التي تجذب الاجرام أو الاجسام نحو المركز تنقص كربع البعد عن المركز .

مثال ذلك إذا كان الجرم المنجذب نحو المركز على بعد مقياس واحد (قل ميلاً أو فرسخاً أو ما شئت) يزن ٢/١ وزنة (وأحسب الوزنة رطلاً أو طنًّا أو ألف طن كما تشاء) فعلى بعد مقياسين يزن ٢/٤ وعلى بعد ٣ مقاييس ٢/٩ وعلى بعد ٤ مقاييس يزن ٢/١٦ وعلى بعد ٥ يزن ٢/٢٥ وهلمَّ جرًّا .

هذا هو ناموس الجاذبية [1] الذي اكتشفه نيوتن ورأى انه يصدق على جميع حركات السيارات وأقمارها . فالسيارات كلها تدور من حول الشمس بحسب هذه السنَّة . والقمر يدور من حول الأرض حسب هذه السنة أيضاً.

(وسترى تتمة الناموس في الفصل الثالث) .

وأخيراً رأى علماء الفلك الطبيعي Astrophysics ان جميع الأجرام أفراداً وجماعات تجري في الفضاء في أفلاك (مدارات) حول مراكز معينة حسب هذه السنَّة أيضاً .

وفي يقين العلماء الآن ان سنة الجاذبية هي سنة تحرّك الأكوان على الاطلاق .

٤ — سر الدوران

وهنا لا بدَّ من أن يعترض القارىء اعتراضاً وجيهاً قائلاً : ان دوران القمر من حول الأرض ودوران الأرض وسائر السيارات من حول الشمس، ودوران مجموعات الأجرام من حول مراكزها، ودوران الأكوان العظمى من حول مركزها الواحد[2] — جميع هذه الدورانات ليست كسقوط التفاحة على الارض ولا كانحدار المياه من الأعالي الى الأسافل ولا كتساقط الشهب الى غير ذلك. تلك الأجرام تدور من حول مراكزها والتفاحة تهبط الى جهة المركز حيث تستقر على السطح الذي يحول دونها ودون المركز . فكيف يطبق ناموس سقوط الاجسام على

(١) انظر شرحه في الملحق الثالث في آخر الكتاب

(٢) الكون مجموعة مجرات كمجرتنا المسماة درب التبان وكلها تدور من حول مركز واحد . ويقال ان عددها نحو مليوني مجرة.

دوران الأجرام في أفلاك — ليس بين نوعي الحركة المذكورين من تماثل أو تشابه ، حتى يصدق عليهما ناموس واحد (١) .

هذا هو الظاهر في الحقيقة ، ولكن لا بدّ له من تفسير يتضح منه أن نوعي الحركة المذكورين يخضعان لناموس واحد ، الأمر الذي انتبه له نيوتن جيّداً . وهو يدلك على سموّ عقل هذا الذي لا تكفي لوصفه كلمة عبقري .

ان حركة الدوران حول المركز نتيجة فعل قوتين متعامدتين ، الأولى اندفاع الجرم في الفضاء بقوة خاصة (سنفرد لها نبذة خاصة بعد أن نفرغ من هذا التفسير الذي نحن بصدده — النبذة الخامسة التالية) . والثانية جذب المركز له بقوة جاذبية نيوتن — نسميها « جاذبية نيوتن » تمييزاً لها عن أية قوة أخرى محركة كما سيتضح فيما بعد .

لو كان الجرم يندفع في الفضاء بقوة واحدة فقط لكان يندفع في خط مستقيم. هذا أمر بديهي إذا شئت أن تعتقد في البداهة وإلاّ فعليك بالاختبار. وإذا كان لا يسير في خط مستقيم فلأي ناحية يميل وما الذي يميله ؟ ـ ليس له طريق طبيعي الاّ الطريق الذي يندفع فيه وهو الطريق المستقيم .

ولكن إذا طرأت عليه قوة أخرى في خط اندفاعه زادت سرعة اندفاعه في خط سيره. واذا طرأت عليه في خط معاكس لخط اندفاعه ردّته الى الوراء ان كانت أقوى من القوة التي دفعته أولاً ، أو اذا كانت أضعف ارتدّت هي ولكنها تنقص من سرعته بقدرها . ولكن اذا طرأت عليه قوة في خط معارض لخط اتجاهه حوّلت اتجاهه الى اتجاه آخر بين اتجاه القوتين معاً كما هو واضح في كتب الطبيعيات ويعلمه جميع طلبتها .

فاذا قذفت أية قذيفة في الفضاء بقوة يد أو قوة منجنيق أو قوة مدفع وكان الجو خالياً من الهواء الذي يقاومها ، وجب أن تنطلق في الفضاء في خط مستقيم الى ما لا نهاية له ، لولا أن قوة جاذبية الأرض تعترض خط اندفاع القذيفة فتستميله نحوها . وحينئذٍ تتجه القذيفة في خط ثالث هو نتيجة خطّي القوة المتعارضين وَفقاً للقاعدة التي ذكرناها آنفاً .

(١) انظر الملحق الثاني . قانون المسارعة الدورانية .

ولما كانت قوة الجاذبية نحو المركز أقوى، فلا بدَّ من أن تسير القذيفة الى مركز الأرض. فنرى خط سيرها ينحني الى أن تسقط على سطح الأرض أخيراً. ولو كانت الأرض غازية لطيفة رقيقة المادة، لانحدرت القذيفة الثقيلة الى مركز الأرض.

ما انحنت القذيفة في سيرها الاَّ لأن قوة الجاذبية نحو مركز الأرض أقوى من القوة التي دفعتها إلى الفضاء.

لو كانت القوة التي دفعتها في الفضاء في خط أفقي فوق طبقة الهواء تستطيع أن تقذفها بسرعة ٤ أميال وتسعة أعشار الميل في الثانية، لما سقطت هذه القذيفة الى الأرض بتاتاً، بل لبقيت تدور حول الأرض كقمر صغير حولها الى أبد بعيد جدًّا، لأن القوة التي دفعتها في تلك المنطقة حول مركز الأرض تعادل قوة جاذبية مركز الأرض لها [1] في تلك المنطقة. أي أن القوتين متعادلتين فتسير القذيفة في خط متوسط بين خطي القوتين وهو بينهما عند ٤٥ درجة لكل منهما كما هو معلوم للرياضي الطبيعي (انظر قانون المسارعة في الملحق الثاني)

٥ — القوتان المتعامدتان

وهنا يبدر الى ذهن القارىء هذا السؤال:

فهمنا ان القوة التي كانت تستميل القذيفة نحو المركز بحيث تسير في خطٍّ منحنٍ هي قوة جاذبية مركز الأرض، وكذلك هي نفس القوة التي تحني خطوط جميع السيارات من حول الشمس. فهمنا ذلك. ولكن ما هي القوة الأخرى التي قذفت بالقمر وبالسيارات أولاً فاندفعت في الفضاء ثم لاقتها قوة الجاذبية فاستمالتها وحنت خطوط اندفاعها؟.

هذا سؤال وجيه أيضاً. وله تفسير لا نقول إنه بسيط، ولكن يمكننا ان نقول انه تفسير بديع.

هذا البحث يردنا الى: أولاً، كيفية انبثاق السيارات من الشمس. وانبثاق القمر من الارض. بل يردنا ثانياً الى كيفية تكوُّن الاجرام. وهذا نرجئه الى الفصلين الثامن والتاسع.

(١) البرهان في الملحق السادس في آخر الكتاب

وأما انبثاق السيارات والاقمار . فهو انتثار هذه الاجرام الصغيرة من أمهاتها بأسباب اختلف عليها فقهاء الفلك . ونحن نعبأ بأحدثها وأصوبها وهو ما شرحه العلامة الكبير السير تجايمس تجينز . ولا محل لشرحه هنا بالأسهاب وانما نشير الى مجمل النظرية .

وهو ان الأجرام تتجاذب فيا بينها بحكم سنّة الجاذبية . فاذا تقارب جرمان في سيرهما وهما في الحالة الغازية ارتفعت من سطوحهما أكوام بفعل الجذب كما ترتفع مياه البحر عندنا بفعل جاذبية القمر ، فيحدث ذلك على الشاطىء جزراً ثم مداً بعد ابتعاد القمر . هذا نفس ما حدث للشمس حين اتفق اقترابها من جرم آخر . فكلاهما فعل في الآخر مثل ما يفعل القمر في بحار الأرض . والأكبر يفعل بالأصغر أكثر مما يفعل هذا به .

سُلّ ذلك الجرم من جرم الشمس كومةً عظيمة تفتتت بعد تباعد الجرمين — الشمس والجرم الآخر الأكبر — وكان الفتات هذه السيارات .

وعلى هذا النمط ولد القمر من الارض .

ان بيان ميلاد السيارات والاقمار ليس الجواب المباشر لسؤال القارىء الآنف الذكر، بل هو توطئة له

اذا كنت ملمّاً بشيء من علم الفلك، فانك تعلم ان جرم الشمس ككل جرم يدور على محوره، ويتم الدورة كل ٦٥ و ٢٤ يوماً تقريباً . واذا علمت ان محيط الشمس الاستوائي أي محيط منطقتها الوسطى ، نحو ٢،٧١٥،٧٤٣ ميلاً تقريباً علمت ان سرعة ذلك المحيط نحو ٩٣و٠ من الميل في الثانية . في حين ان سرعة محيط الارض أقل من ثلث ميل في الثانية .

وندرك حينئذٍ ان الكتل التي تنتثر منها تنتفض بمثل هذه السرعة أو سرعة فائقة على كل حال . ولكنها تنقذف بنفس اتجاه الدورات . لانه معلوم طبيعيّاً بالملاحظة والاستقراء (وبالبديهة اذا شئت) ان الجسم يأخذ دائماً نفس حركة الجسم الذي انفصل عنه ونفس سرعته .

إن جميع الأجرام تدور كالشمس على محاورها في اتجاه واحد على الاطلاق . ثم إنها تسير دائرة من حول مركز عام لها في نفس ذلك الاتجاه، كأنها موكب حافل عظيم يطوف في الفضاء

من حول ذلك المركز العام بسبب سنّة الدوران أيضاً [١] .

الجرم الذي مرَّ بقربة من الشمس أو هي مرّت بقربة منه وهو أضخم منها جداً كان يجذب كتلة الشمس كما تقدم القول في نفس اتجاه دوران الشمس على محورها واتجاه مسيرها واتجاه سيره هو أيضاً في اتجاه واحد ، فاتخذت تلك الكتل المنتثرة من الشمس بفعل ذلك الجرم الغليظ الذي كان والشمس يتقاربان وهما في اتجاه واحد أيضاً ولكن أحدهما أسرع من الآخر — إتخذت تلك الكتل اتجاهاً أفقيًّا بالنسبة إلى الشمس فكان ذلك الاتجاه هو الخط المعامد أو المعارض لخط قوة جاذبية الأرض .

ولما تباعد ذلك الجرم والشمس بقيت تلك الكتل السيارة تجري في الفضاء بعيدة عن سطح الشمس ، ولكنها لم تستطع أن تشرد في الفضاء لأن قوة جاذبية الشمس كانت لا تزال تكبحها وتمنع شرودها ولا سيما لأن ذلك الجرم شرع يفارقها وتناقصت قوة جذبه لها وضعفت جدًّا .

ولا يخفى عليك أن مثل ذلك حدث في الجرم الذي سطا على الشمس وارتفعت منه كتل. ولكنها لم ترتفع أكثر مما يرتفع الماء عندنا في حالة المد ، لأنه أكبر من الشمس جدًّا ، فلا تؤثر الشمس فيه أكثر مما يؤثر القمر على أرضنا .

وهنا ملاحظة أخرى لا بدَّ من انتباه القارىء لها وهي أن الشمس كانت أكبر حجماً منها الآن ، وكانت ألطف كثافة وكانت سرعة دورانها المحورية أشد . فالأجرام المنتثرة منها أخذت تلك السرعة القديمة .

ذلك هو مصدر « القوة الخاصة » التي أشرنا اليها في نبذة سابقة (٤) القوة التي كانت تدفع الكتلة المشتقة في خط معارض لخط جاذبية الشمس الذي كان يحنيه . هذه هي القوة التي تعاونت مع قوة جاذبية المركز في الزام السيارات أن تدور حول الشمس .

فترى ان مصدر القوتين واحد . الجاذبية — جاذبيتان من جرمين مختلفين حجماً وسرعة تعاونتا في احراج جرم أن يدور حول مركز .

---

(١) بعض أقمار السيارات تدور في اتجاه مخالف للاتجاه العام . والى الآن لم يعلل الفلكيون هذا الشذوذ تعليلا مقنعاً

ثم هنالك نتيجة أخرى لانسلاخ كتل من جرم وبقائها تطوف من حوله كما حدث في انسلاخ السيارات من الشمس . وهذه النتيجة هي أن الكتلة المنسلخة من الجرم (الشمس مثلاً) تكتسب منها حركة الدوران على محورها . إذ هو معلوم أن جميع كتل الشمس في بدنها في ثورات دورانية عنيفة تتقلب ملتفة حول أنفسها . فاذا أفلتت من الشمس بقيت لها هذه الحركة الالتفافية . ولهذا ترى أن السيارات كلها تدور على محاورها ، حتى القمر الذي لا يرينا الا وجهاً واحداً منه يتم في الفضاء دورة واحدة على محوره كلما أتمَّ دورة من حول الأرض. أي كل شهر قمري .

يكفي ما تقدم بياناً لتسبيب الجاذبية حركة الدوران من حول المركز ومن حول المحور . وقد ظهر منه بوضوح ان التفاحة الساقطة على سطح الأرض لم تدر حول الأرض كالسيار لانه ليس ثمة قوة أخرى معامدة لخط قوة الجاذبية كافية لـكي تحرجها الى الدوران . وكذلك القذيفة التي قذفتها اليد أو البندقية أو المدفع ، فانها سقطت أخيراً على سطح الأرض لأن القوة القاذفة لم تكن مكافئة لقوة الجاذبية لـكي تمنحها حركة الدوران .

بقي بحث خطير الشأن في تعميم سنة الجاذبية على كل جرم وكل جماعة أجرام . وكل جزء من أجزاء الجرم وكل ذرَّة من ذرَّاته وذريراته . وسنفرد له فصلا خاصًّا فيما يلي .

الفصل الثالث

شمول ناموس الجاذبية

١ — تجاذب الكتل

أشرنا فيما سبق الى أن ناموس الجاذبية الذي ذكرناه لنيوتن ليس إلاَّ إجمالاً للناموس فهو غير كامل كما ضبطه نيوتن . وقد أشرنا الى ذلك في نبذة ٣ من الفصل السابق . وقد ضبطه نيوتن هكذا : —

«كل ذرَّة من كل جرم تجذب كل ذرَّة من ذرَّات الجرم الآخر بنسبة مربع البعد بينهما بالقلب»: يعني أن الأرض والشمس تتجاذبان بحاصل ضرب عدد ذرَّات كل منهما بعدد ذرَّات الآخر بنسبة مربع البعد بينهما هكذا :

$$\text{الجاذبية} = \frac{\text{الارض} \times \text{بالشمس}}{\text{مربع المسافة بينهما}}$$ وبعبارة رمزية

$$ج = \frac{ض \times ش}{م^2}$$ باعتبار ان ج رمز الجاذبية وض رمز الارض وان ش رمز الشمس و م رمز المسافة

وستتضح هذه المعادلة البسيطة جيِّداً في الملحق الثالث قسم ثان في آخر الكتاب .

ان تجاذب الأجرام هو بالحقيقة تجاذب ذرَّاتها من جرم الى جرم بنسبة مربع البعد بينهما. ولا يخفى عليك ان الثقل هو عبارة مرادفة للجذب . وبالتالي هو مقدار الجذب نفسه . فثقل القنطار مثلاً على الارض هو مقدار جذب ذرات الأرض لذرَّات القنطار بنسبة بُعد مركز الأرض . وإذا روعيت كتلة كل من القمر والأرض ونصف قطر كل منهما كان القنطار على سطح القمر يزن ٦ قناطير على الارض .

ومن حيث البعد عن المركز ترى ان الجسم يزن بالميزان الحلزوني على قمة الجبل أقل مما يزن على شاطىء البحر ، لأن هذا أقرب من ذاك الى مركز الأرض .

٢ — توازن الاجرام حول المركز

وهو معلوم في علم الطبيعيات ان الجسم مهما اختلف شكله الهندسي واختلفت كثافة كتلته ولطافتها فلابدَّ من أن يكون له مركز تتوازن جميع أجزائه من حوله. ويسمى هذا المركز

« مركز الثقل » . مثال ذلك : اذا كان عندك علبـة مستطيلة من خشب وقد طوّقت بعض حدودها بالحديد ووضعت في جانب منها رصاصاً وملأت باقي فراغها بالورق والقطن فلابدّ أن تكون في ناحية منها نقطة تتوازن من حولها جميع أجزائها ومحتوياتها حتى اذا علقت بحبل في تلك النقطة المركزية كانت متوازنة فلا تميل الى جانب دون آخر . هذه النقطة المذكورة هي مركز الثقل .

والقمر والأرض باعتبار انهما جرمان متلازمان كجرم واحد ومتجاذبان ، فمركز الأرض يختلف باختلاف موقع القمر من الأرض . ويكون دائمـاً أقرب إلى ناحية القمر وأبعد عن المركز الأصلي لأنه هو المركز المشترك بينهما .

كذلك المركز المشترك للشمس وسياراتها يتغير كل دقيقة بحسب تغير مواقع السيارات من حولها لأنها وسياراتها تعتبر كجرم واحد وتشترك جميعاً بمركز ثقل واحد .

وإذا اتفق في دهر من الأدهار ان جميع السيارات كانت في خط واحد من ناحية واحدة من نواحي الشمس أصبح مركز الثقل في الشمس أبعد عن مركزها الأصلي عدة أميال . ثم يعود فيقترب إلى المركز الأصلي تدريجيـاً كلما تشتتت السيارات من حول الشمس. وفي نفس ذلك الوقت تتغير مراكز السيارات أنفسها أيضاً حسب نسبة مواقعها بعضها إلى بعض وإلى الشمس.

٣ — تفاعل القوى الجاذبة

وتقارب السيارات بعضها من بعض يقوي التجاذب بينها وقد يقاوم جاذبية الشمس مقاومة زهيدة ، فتتغير سرعتها بسبب هذا التجاذب كما لاحظ الفلكيون ذلك جيداً

ولهذا السبب كان السيار أورانوس في بعض الازمان يختلف ميقاته وتختلف ايضاً سعة فلكه (أي مداره) وموضعه . فدرس هذا الاختلاف بعض الفلكيين وبينهم ليمونيه درساً دقيقاً طويلاً الى أن قرّر هذا ان هناك سياراً آخر يؤثر عليـه فضلاً عن تأثير زحل جاره . وما لبثت المراصد ان اكتشفت السيار نبتون بحسب نبوءات ليمونيه وزملائه .

وبمثل هذا السبب وهذه الملاحظات الرصدية حُكِم بوجود السيار بلوتو الاخير ثم أكتُشف كما تُنُبِّئ به وكان المتنبئون يعوّلون في تنبوءاتهم على تأثير الجاذبية في الاجرام المتقاربة والمتباعدة . وحساباتهم الدقيقة كانت تكشف ليس عن مواقع السيار المتنبّأ به فقط بل عن بعض خواصه أيضاً كمقدار كتلته وحجمه وكثافته الخ .

وحاصل القول ان اكتشاف نيوتن لناموس الجاذبية مهّد الطريق لاكتشافات علمية عديدة فلكية وغير فلكية . وأثبت ان كل حركة في الكون انما هي تتجه بقوة الجاذبية . الجاذبية قوة القوى . القوة القصوى .

الفصل الرابع

مصدر القوى

١ — ظاهرات الجاذبية

الجاذبية مصدر كل قوة في الوجود على الأطلاق . ولايضاح ذلك نشرح ظاهرات القوى العاملة على الارض .

نأخذ أبسط هذه الظاهرات أولاً .

أقدم ما عرفنا من الآلات لإستخدام المياه المنحدرة المطاحن أو الطواحين المائيسة التي يُدار فيها حجر الرحى بقوة المياه المنحدرة من علٍ في شبه بئر يجري اليها الماء ثم يندفع من كوّة في أسفلها بزخم شديد مساوٍ لارتفاع البئر أي عمقها . فتصدم المياه أضلاع دولاب موضوع وضعاً دقيقاً ومحوره متصل في غرفة الطاحن بحجر الرحى فوقه . فيدور هذا الدولاب ويدور به حجر الرحى على حجر آخر ثابت ويرسل القمح من ثقب كبير في الحجر الأعلى الى ما بين الحجرين فتسحق الحنطة بينهما

أما الدولاب الذي نحن بصدده فهو قرمة غليظة من الخشب مستديرة غرزت في محيطها الاضلاع التي أشرنا اليها آنفاً على أبعاد متساوية متقاربة وعرضها مائل نحو ٣٠ درجة على الأفق والمحور العمودي المار بالقرمة والمثبت فيها مركَز على حفرة صغيرة مستديرة مقعرة لكي يدور عليها ، حتى اذا تدفقت المياه على الضلع الواحدة دفعتها فحلت محلها الضلع التي وراءها فيدفعها الماء فتأتي التي وراءها الى محلها . وهكذا دواليك فيدور الدولاب ويدور به حجر الرحى .

هذه أقدم عملية آلية تتحرك بقوة اندفاع الماء . ولا نعلم متى اخترعت ، ولا من اخترعها وكيف تنبه لها القدماء وأدركوا أن للمياه المنحدرة قوة يمكن استخدامها والانتفاع بها .

على نفس هذا المبدأ تستخدم الآن المياه المنحدرة لادارة الدينمو لتوليد الكهرباء .

وأظن أن أول ما استعملت المياه المنحدرة لهذا الغرض بقوة كبيرة كان في شلالات نياغرا

في أميركا حيث تولد قوة نصف مليون حصان . والآن قد شاع هذا النمط لتوليد القوة في كل بلد في أميركا وأوربا حتى في لبنان أيضاً .

فكأن قوة الماء المنحدرة قد تحولت إلى قوة كهربائية كما لايخفى . وهذه القوة تمتاز على القوة المائية بامكان نقلها إلى مسافات بعيدة بواسطة الأسلاك ، وامكان توزيعها بمقادير مختلفة حسب مشيئة الانسان ، واستعمالها لادارة الآلات المختلفة الأغراض، وتحويلها إلى نور وحرارة وإلى أمواج كهرطيسية كأمواج الراديو مثلاً وإلى أغراض أخرى عديدة

فمن أين هذه القوة التي في المياه المنحدرة وقد أدارت حجر الرحى والدينمو (المحرك الكهربائي).

هي ثقل الماء الهابط . والثقل معادل للكتلة الهابطة.وسبب الثقل هو جذب كتلة الأرض للماء نحو مركزها . الماء هابط بفعل الجاذبية . إذن فالذي يدير الرحى هو الجاذبية . والذي يدير الدينمو هي ، أيضاً بفعل الماء الهابط ، الجاذبية .

ومن أين جاءت المياه المنحدرة .

من المطر الذي يسقط من الجو ويتغلغل في أتربة الجبال وشقوق صخورها ، والثلج الذي يهبط من الجو في الشتاء ثم يذوب في الصيف وينحدر بفعل الجاذبية .

ومن أين ماء المطر والثلج ؟

من بخار الماء الذي كان أخف من الهواء فتصاعد في الجلد ثم برد هواء الجلد فتقلص وانعصر ماء البخار منه فهبط مطراً أو ثلجاً . فالبخار كان وهو يتصاعد يعاكس فعل الجاذبية ، لأن الهواء أثقل منه فيرسب . فلما برد ثقل وهبط فكأنه كان بصعوده يختزن قوة الجاذبية . فلما هبط ردّ قوة الجاذبية التي كان يختزنها .

وما الذي بخّر الماء ؟

حرارة الشمس.فكأنها فعلت فعلاً مضاداً لفعل الجاذبية الأرضية وخزنت بالبخار هذه القوة . وسترى ان الحرارة فعل جاذبي أيضاً .

قد يقول القارىء هناك دينمو يدور بقوة الآلة البخارية.وحجر الرحى يمكن أن يدور بقوة البخار. وكثير من الآلات تدور بها أيضاً . فمن أين قوة البخار هذه التي تدير الآلات ؟

هو معلوم ان قوة الآلة البخارية ناتجة من تمدد البخار المائي . وهذا التمدد ناجم عن الحرارة التي تبعد الذرات بعضها عن بعض والصادرة من إحراق الفحم والحطب والبترول أو أي شيء يحترق . والحرارة حركة نشطت من الاشعاع الشمسي والحركة حاملة قوة . فالحرارة إذن قوة أيضاً.

ومن أين جاءت الحرارة للفحم حين كان يحترق مع إنه كان بارداً قبل الاحتراق .

كان الفحم وسواه نباتاً في الأصل والنبات نبت ونما بفعل حرارة الشمس ونورها. فبينما هو ينمو كانت الحرارة تخزن فيه ، أي الحركة كمنت . فلما أحرق اتحد الأكسجين مع ذرات الفحم وغيره مما يحترق . وأثار الحركة ثانية بصورة حرارة . فالحرارة قوة أيضاً .

ومن أين حرارة الشمس ؟ .

حرارة الشمس ونورها أيضاً شكلان لإشعاع واحد يسمى شعاعاً كهرطيسيًّا ، أي كهربائيًّا مغنطيسيًّا . وهو تموج من صنف تموج الراديو — كهرطيسي .

وما هو مصدر التموج الكهرطيسي ؟ .

٢ — تركب الذرة

هنا نرانا مضطرين أن نأتي باختصار وبكل بساطة على تركيب الذرة ، أي الجوهر الفرد Atom لكي نتأثر مصدر الكهرطيسية . وهو بحث طويل جدًّا يستغرق مجلداً فننوه به تنويهاً باختصار كلي .

الجوهر الفرد هو الجزء الأول للمادة لأنه لا يتجزأ كيمويًّا . ولكن العلماء رأوا أخيراً أنه يتجزأ كهربائيًّا . هو الجزء الذي تتألف منه أجسام المادة من حجر وماء وشجر ولحم والى ما لا يحصى مما يرى من أشكال المادة . والجواهر الفردة أي الذرات ٩٢صنفاً كماويًّا تختلف باختلاف اعداد العنصرين أي الذريرتين اللتين تتألف منهما الذرة (الجوهر الفرد) وهما الأُوَيِّل (البروتون) والكهيرب (الالكترون) .

نواة الذرة تؤلف من بروتونات مفردة في الهيدروجين ومتعددة في ما سواه الى أن تبلغ ٩٢ بروتوناً في الأورانيوم جد الراديوم يصحبها ١٤٦ نيوتروناً . ولكل بروتون

كهيرب يقابله دائراً حول النواة في فلك كالسيار حول الشمس . والقوة التي تدير هذه الكهيربات من حول نفسها أولاً ثم من حول النواة في أفلاك ثانياً ، هي نفس قوة الجاذبية التي تدير الأرض حول محورها ثم حول الشمس .

دورانات النواة والكهيربات على محاورها ودورانات الكهيربات من حول النواة كلها في اتجاه واحد كدورانات السيارات حول الشمس .

فالذرة صغيرة كالهيدروجين أو عظيمة كالأورانيوم تعتبر نظاماً جاذبيًّا قائماً بذاته كالنظام الشمسي تماماً .

وهنا أتخيلك تتعمق في التساؤل عن أصل هذه القوة العظمى ، أمّ القوى ، أو عن مصدرها الأول — ما هو مصدر هذه القوة ؟

— إذن يجب أن نتعمق في البحث عن أصل المادة — الهيولي . فاليك البيان .

٣ — الهيولي

الهيولى، أي ذرات المادة (الذرات الأصلية الأولى) هي أدق الذرات. هي أصغر من الكهيرب.

إن ١٨٤٠ كهيرباً تساوي بروتوناً . والكهيرب إذا طبق على البروتون انحلاً بلمعة شعاع الى فوتونات أي ضويئات .

ينحل الكهيرب الى عشرة آلاف فوتون. فالبروتون اذن ينحل الى ٠٠٠ر٤٠٠ر١٨ فوتون

والفوتون هو أدق أجزاء المادة . الى الآن لم يعرف إن كان الفوتون مؤلفاً من أجزاء أدق . يعتبر الآن هو المادة الأولى — الهيولى .

وجدت الهيولى او الفوتونات ، أو خلقها الخالق ، ولها ثلاث سجايا أو طباع أو خواص:

١ — خاصية الامتداد الثلاثي : الطول والعرض والسُّمك .

٢ — متحركة : تتحرك حركة دورانية على نفسها . دورة محورية . وجميعها في اتجاه واحد.

٣ — متجاذبة — يجذب بعضها بعضاً الأقرب فالأقرب . والأقرب أقوى من الآخر الأبعد بالنسبة لواحد آخر بينهما

هذه خواص ذريرات المادة الأولى

اذا لم تكن لها هذه الخواص الثلاث ولا سيما الأولى فماذا تكون ؟ اذا لم تكن ذات امتداد فهي عدم وليس للحيز نفسه وجود . إن الذي أوجد المكان أوجد المادة فيه . ولولا وجودها لما كان المكان وجود . تصور الفضاء خالياً من المادة فهل تستطيع أن تتصور وجوداً . ينعدم المكان بانعدام المادة التي تشغله [1]

وأذا لم تكن متحركة فما هي موجودة أيضاً . تصور أجزاء المادة أو ذراتها أو ذريراتها أو فوتوناتها أو مجموعاتها ثابتة غير متحركة . تصورها هكذا . فما الفرق بينها وبين العدم وكيف نحس بوجودها . بل قل لي كيف تتصور العدم . كيف تتصوره غير هذا الجمود المطلق . واذا لم تكن ثمت حركة فكيف يكون ثمت زمان . الزمان مقياس الحركة .

واذا لم تكن متجاذبة فكيف تتجمع في كتل وأجرام الخ . تصورها غير متجاذبة . تبقى ساكنة في أماكنها وحينئذٍ تكون كالعدم أيضاً .

نذهب الى أن لذريرات المادة الأولى هذه الخواص الثلاث الرئيسية ، لأن علماء الفلك الطبيعي والرياضي تحققوا ان لجميع الأجرام دورانات محورية في اتجاه واحد وان مجموعات الأجرام تدور من حول مراكزها في اتجاهٍ واحد أيضاً .

وكذلك علماء الجوهر الفرد — أي الذرة — لاحظوا ان ذريراتها الكهيربات (الكترونات) والبروتونات تدور على محاورها وتلك تدور حول هذه في اتجاه واحد أيضاً . ودورانها خاضع لسنة الجاذبية تمام الخضوع .

فمن هذه الملاحظات نستنتج ان جميع أجزاء المادة وجماعاتها من ذريرات وذرات وكتل وأجرام وجماعات أجرام سائرة في هذا الفضاء العظيم مواكب مختلفة ومسرعات مختلفة بحسب البعد عن المركز . ولكنها كلها في اتجاه واحد . والعامل الوحيد في هذا السير هو الجاذبية . الجاذبية بين الذريرات وبين الذرات وبين جماعات الذرات وكتلها الخ [2] . . .

وأخيراً لك أن تقول ان كل حركة في هذا الكون الأعظم هي نتيجة قوة الجاذبية .

---

(١) تجد في كتابنا « هندسة الكون — النسبية » فصلا ضافياً بهذا المعنى تحت عنوان « الزمكان » (الزمان المكان)

(٢) تجد بحثاً في جاذبية ذريرات الذرة في كتابي « علم الذرة » الذي سيصدر قريباً ان شاء الله

٤ — ناموس السرعة

فهمت مما تقدم ان الجاذبيــة قوة، والقوة تحدث حركة. وللجسم المتحرك سرعة بعدة معينة. فقدار السرعة اذن من فعل الجاذبية. وله ناموس مشتق من ناموس الجاذبية نفسه.

وقد علمت ان قوة الجذب تنقص كمربع البعد عن المركز، وكذلك مقدار السرعة ينقص بنسبة البعد عنه على هذه القاعدة: وهي نسبة مربع سرعة الجرم الواحد في الثانية الى مربع سرعة الجرم الآخر كنسبة بُـعد الآخر الى بُـعد الأول. وبعبارة رياضية أخرى أبسط.

مربع مقدار سرعة الواحد مضروب في مسافة بُـعده عن المركز تساوي مربع مقدار سرعة الآخر مضروبة في مسافة بُـعده عن الآخر.

وقبل التمثيل على هذا القانون نلفت نظر القارىء الى اصـطلاح العلماء على الأقيسة في النظام الشمسي. فقد اتفقوا على جعل بُـعد الارض عن الشمس أي طول المسافة بينهما مقياساً للابعاد أو المسافات الفلـكية فحسبوه متراً فلـكيًّا واحداً (مع انه ٩٣ مليون ميل او ١٤٩٫٤٥ مليون كيلومتر) والأفضل ان نسميه « المقياس الفلـكي ».

فاذا قلنا أن نصف قطر فلك المشتري ٥٫٢ مقياس فلـكي عنينا ان متوسط بُـعد المشتري عن الشمس خمس مرات وعُـشر ان كبُـعد الارض.

(وكذلك سموا السنة الأرضية مقياساً زمنيًّـا لدوران السيارات حول الشمس)

فبناءً على قانون السرعة المشار اليه إذا كانت سرعة الأرض في فلـكها ١٨½ ميل بالثانية فيجب أن تـكون سرعة المشتري ٨٫١ ميل في الثانية، لأننا إذا طبقنا هذه القاعدة على هذه النسبة كان لنا.

مربع سرعة الأرض (١٨ ½) ٢ × بعدها بالقياس الفلـكي وهو واحد = مربع سرعة المشتري (٨٫١) ٢ × (٥٫٢) بعده عن الشمس هكذا (١٨ ½) ٢ × ١ = (٨٫١) ٢ × ٥٫٢ امتحن ذلك.

(لبرهنة القانون انظر الملحق الخامس بآخر الـكتاب).

الفصل الخامس

سر التجاذب

١ — نظرية الايثر

أول عقبة قامت أمام نظرية الجاذبيـة هي الإجابة على السؤال الآتي : ما هي الوسيلة التي تنتقل عليها أوفيها أو بها هذه القوة من ذريرة الى ذريرة ومن جرم الى جرم ؟ — لأنه إذا كانت الذريرات كالأجرام تدور بعضها حول بعض بفعل قوة الجاذبية فاذاً بينها فراغ تحيط به أفلاك (مدارات) فكيف تعبر تلك القوة هذه المدارات . وباصطلاح العلماء كيف يمكن أن يكون الفعل عن بُعد — عن مسافة ؟

تشاهد هذا الفعل السري أو الغامض إذا كنت تدني مسماراً مثلاً الى نضوة مغنطيس. فترى ان المغنطيس اجتذب المسمار قبل أن تقربه اليه وبينهما في نظرنا فراغ ، فما في هـذا الفراغ من الواسطة أو الوسط لنقل هـذه القوة من المغنطيس الى المسمار ، ومن الأرض الى القمر ومن الشمس الى سياراتها ؟

مثل هذه العقبة السرية المحيرة قامت في سبيل انتقال نور الشمس وحرارتها الى الأرض — أو انتقالها على الاطلاق — أيضاً .

أما من حيث انتقال النور والحرارة معه فقد زعم نيوتن أن النور ذريرات Corpuscles تنطلق من الجسم المنير بسرعة ١٩٠ ألف ميل في الثانية (والسرعة التي تقررت أخيراً ١٨٦ ألف ميل) ولـكن رئي أن النور يسير أمواجاً ، فقالوا إن الزعم الأصح ان تفرض مادة خفيفة جداً جداً مالئة الفضاء ، سموها ايثراً ، وان النور حركة صادرة من الجسم المنير تصدر أمواجاً في هذا الفضاء الايثري . ولا يزال فرض الأيثر بين الشك واليقين إلى اليوم . ولـكن بعض أساطين العلماء مثل تجينز ولودج وغيرهما يرجحونه واينشطين لا ينقضه ، ولـكن يقول إن نظريته النسبية تستغني عنه .

هذا من جهة انتقال النور، وأما من جهة انتقال الحرارة فهي ضلع من النور مصاحبة له.

وأما من جهة انتقال قوة الجاذبية فلم يقل نيوتن شيئاً بل لم يقل كيف يحدث التجاذب عن بعد بتاتاً . فبقي هذا سرًّا غامضاً الى اليوم .

على ان اينشطين المغرم بنظرية « الزمكان » (اندماج الزمان بالمكان) ينسب للفعل الجاذبي زماناً . وبهذه النسبة نقح جاذبية نيوتن . فاذا كانت قوة الجاذبية تستغرق وقتاً في انتقالها فهي اذن كالنور تموج ايثري، أي أن حركات ذرات الجسم الجاذب تحدث أمواجاً جاذبية في الأيثر ، فتصدم الجسم المجذوب وتحدث فيه حركة الدورانين : الدوران المحوري والدوران المركزي ، من حول المركز .

٢ — لغز الجاذبية

اكتشف نيوتن ناموس الجاذبية وطبقه على جميع السيارات حتى على جميع الأجرام المتحركة . ولكنه لم يقل لنا ما هي الجاذبية أو ما هو سرها . أو بعبارة أصح ما هو سبب دوران السيارات حول الشمس بسرعات متناسبة مع أبعادها عن الشمس .

وما زال العلماء حتى اليوم حيارى في هذا السر ، حتى اذا كلُّوا عن فهمه قالوا لماذا نحسب الجاذبية سرًّا . لماذا لا نحسبها طبيعة في المادة ؟ لماذا لا نقول إن المادة مخلوقة يجذب بعضها بعضاً ؟ فلا سر هناك. وانما نحن اختلقنا لها سرًّا وجعلناه مجهولاً أو مستحيل التفسير، في حين أن المسألة بسيطة لا تحتاج الى إعمال فكر. الجاذبية صفة من صفات المادة كما ان الألفة الكيميائية صفة من صفات الذرات ، والتبلُّر صفة من صفات الجزيئات Molecules والذوبان صفة أخرى وهلمَّ جرًّا . (والحقيقة ان لهذه جميعاً أسباباً طبيعية ليس هنا محل بيانها)

ولكن لو كانت الجاذبية تجاذباً فقط بين جسمين لاكتفينا بتفسيرها بأنها خاصية من خاصيات المادة ، ولكنها ليست مجرد تجاذب فقط ، بل هي مع ذلك دوران جسم حول مركز بسرعة مقيدة ببعد الجسم عن المركز . هذه أهم ظاهرة من ظواهر الجاذبية . وغرضنا هنا كشف هذا السر في صميمه إن أمكن .

٣ — ضلدا الجاذبية

إذا حللنا ظاهرة الجاذبية رأيناها تنحل ظاهرتين : الأولى التجاذب بين جسمين

في خط مستقيم الى ان يتصل احدهما بالآخر كتجاذب المغنطيس والحديد وسقوط التفاحة من الشجرة الى الأرض .

الظاهرة الثانية دوران جرم صغير حول جرم كبير كدوران القمر من حول الأرض ، أو دوران الأرض وسائر السيارات من حول الشمس ، أو دوران جرمين غير متفاوتين بالحجم والكثافة المادية Mass كثيراً ، حول مركز التجاذب بينهما ، كدوران فرعي النجم المزدوج Binary star المتباعدين حول نقطة التجاذب بينهما .

في الظاهرة الثانية يدور الجرم الدائر حول المركز بسرعة مناسبة لبعده عن المركز . وهذه النسبة بين السرعة والبعد ، خاضعة لناموس الجاذبية كما تقدم بيانه في الفصل السابق ، حتى اذا اختلت نسبة السرعة هذه سقط الجرم الى المركز ان كان أبطأ أو شرد عنه ان كان أسرع من القدر القانوني (راجع نبذة ٤ من الفصل الثاني) .

فيظهر مما تقدم ، أولاً : أن الجرم الدائر (كالقمر من حول الارض أو الأرض من حول الشمس) واقع تحت سلطة قوتين [1] القوة الواحدة تسوقه في خط سيره المستقيم ، والقوة الأخرى تستميله نحو المركز فتجعل خط سيره منحنياً في دائرة حول المركز . ولاننا نرى جميع الأجرام ، سيارات وغير سيارات ، تدور من حول مراكز خاصة بكل منها ، وما من جرم شارد عن مركز ولا جرم هابط الى مركز — نفهم من هذا ان القوتين المسيطرتين على الظاهرتين الاثنين نحن بصددهما متكافئتان ، أو انهما متعاضدتان ، أو انهما صادرتان من مصدر واحد [1] .

ويظهر أن الجاذبيـة تشتمل على حالتين من الحركة أو بالأحرى على قوتين متعامدتين تنتجان حركتين متعامدتين أيضاً : حركة الجذب نحو المركز وحركة الشرود عنه . والحاصل من تسلطهما على جرم واحد هو الدوران حول المركز — لا اقتراب ولا شرود . أي ان هذه الحالة تحول دون هبوطه كما ان تلك تحول دون شروده وهما : —

١ — قوة الانجذاب نحو المركز Centripetal Force

٢ — قوة الابتعاد عن المركز Centrifugal Force فلنبحث في كل منهما بحثاً تعليليـاً .

(١) راجع نبذة ٥ من الفصل الثاني

الفصل السادس

الجاذبية والدافعية

١ — قوة الانجذاب نحو المركز

نبتدىء من مذهب ان التجاذب بين الذرات خاصة من خواص المادة (كما سبق هـذا القول في نبذة ٣ فصل ٤) او طبيعة من طبائعهـا . أي ان المادة كذلك خلقت ، ذرات يجذب بعضها بعضاً ، أو اذا شئت فقل إن من طبيعة الذرات أن تقترب كل واحدة الى أقرب ذرة اليها من غير دافع خارجي عنها يدفع كلاً منهما الى الأخرى، الاَّ اذا طرأت عليهما قوة تفرّق بينهما فتتباعدان مرغمتين ، كما لو مرت ذرة ثالثة في نقطة أقرب الى إحدى الاثنتين فتتجاذب هاتان دون تلك . وحاصل القول ان الذرة لا تستطيع العزلة أو الانفراد .

وقد قلنا إن هذه هي طبيعة كل ذرة في الكون — فالبروتونات الأويلات والكهارب والفوتونات الضُّوَيئات والكتل المتجمعة منها والأجرام — كلها خاضعة لحكم هذا التجاذب . فاذا تصورنا جميع الذرات التي تألفت منها الأجرام منفرطة العقود ومشتتة في الفضاء المطلق ، فهل يكون غريباً عن تعقلنا أو عجيباً لأذهاننا ان يتقارب بعضها الى بعض .

قد نتساءل لماذا تتقارب ؟

هب انها لم تتقارب بل بقيت مبعثرة أفلا يخطر لك أن تسأل لماذا هي مبعثرة هكذا ؟ لماذا لا تتجمع . فتجمعها ليس أدعى للاستغراب من تشتتها . وربما كان العقل يرتاح الى تقاربها أكثر منه الى بقائها مشتتة .

٢ — سر التقارب

لنفرض أن تقارب الذرات بعضها الى بعض (كما هو الواقع) أو ثباتها في أماكنها من غير تقارب ، سيان عند العقل المنطقي ، أو أن لهذا التقارب سبباً نجهله ، أو أن هناك قوة أجنبية عن المـادة تحدثه (قوة الله) ، على أن هذا التقـارب حادث فعلاً . وما دمنا

لا نكتشف له سبباً فلنعده خاصة من خواص المادة (الله خلقها بهذه الطبيعة) ولنسمِّه نزعة مادية . أي أن كل جسم مادي ، ذرة أو مجموعة ذرات ، ميَّال أو نزوع الى الاقتراب لأقرب جسم آخر اليه . فمن هذه النزعة نبتدىء في تفسير سر الجاذبية .

بالبديهة نعلم أن كل ذرتين متعادلتين كتلة تتقاربان في المكان والزمان بالتساوي . أي أن كلاًّ منهما تقترب الى الأخرى مسافة واحدة في مدة واحدة ، كقولك مثلاً إن كلاًّ منهما تدنو نحو الأخرى سنتيمتراً في ثانية واحدة . فاذا تفاوت الجسمان في عدد الذرات كان تقارب كل منهما يجري على هذه القاعدة البديهيــة ، أي أن اقتراب الجسم الواحد الى الآخر يكون بقدر ما في الآخر من الذرات بالنسبة الى ما في الأول منهما .

لنفرض ذرة واحدة تبعد ١١ سنتيمتراً عن مجموعة تحتوي على عشر ذرات ، فحينئذ نتصور الذرة المفردة ميَّالة للاقتراب الى كل ذرة من الذرات العشر سنتيمتراً واحداً ، كما ان كل ذرة من الذرات العشر ميَّالة للاقتراب اليها . فاذاً كلما اقتربت الذرات العشر سنتيمتراً واحداً كان على الذرة المفردة أن تقترب اليها في نفس الوقت عشر سنتيمترات لكي توفي كلاًّ من العشر حقها من التقارب .

على هذا النحو : مجموعة ذات ٥ ذرات تقابل مجموعة ذات ٣٠ ذرة وبينهما ١٤ سنتيمتراً تقترب تلك ٦ سنتيمترات كلما اقتربت هذه سنتيمتراً واحداً . وفي آخر الثانية الثانية تلتقيان عند السنتيمتر الثاني عشر لأن ٥ × ٦ × ٢ = ٣٠ × ١ × ٢

وهذا يطابق الضلع الأول من قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن وهو ان الجاذبيــة هي حاصل ضرب كتلة الجرم الواحد بكتلة الجرم الآخر (والمراد بالكتلة مجموع عدد الذرات) ولكن الجاذبية ليست هذا الضلع وحده بل هي نسبة هذا الى ضلع آخر وهو مربع المسافة بين الجرمين ، وهذا يؤيد نبذة (١) من الفصل الثالث .

والضلع الثاني أهم من الاول وفيه معظم السر .

لو اقتصرت الجاذبية على الضلع الاول ، أي تقارب الذرات ومجموعات الذرات بعضها الى بعض ، لانطبقت جميع ذرات الكون وجميع أجرامه وسُدُمه بعضها على بعض بحيث لا يبقى أقل فراغ بينها ، وكان ضغطها بعضها على بعض في شدة لا يتصورها عقل . ولكن الضلع

الثاني يتدارك هذه الكارثة الكونية ويجعل للكون أنظمته التي نعلمها .

الضلع الاول يسمى القوة الجاذبة الى المركز وقد انتهينا منه . والضلع الثاني يسمى القوة الدافعة عن المركز وهو الذي نعلله فيما يلي :

٣ — قوة الابتعاد عن المركز

قلنا آنفاً إن من خواص المادة تقارب الذرات أو بالأصطلاح العلمي تجاذبها . وبالتالي تجاذب الذرات وتجاذب مجموعاتها وأجرامها وسُدُمها . وهنا نقول : ان من خواصها أيضاً الدوران المحوري Rotation أي ان كل ذرة وكل جسم (مجموعة ذرات) مستقل في حيزه يدور على نفسه — على محوره — هذه ظاهرة طبيعية عامة مشاهدة في الكون — الشمس والأرض والسيارات والأقمار كلها تدور على محاورها . كذلك النجوم ومجموعات النجوم والمجرة والسدُم تدور على محاورها ، حتى أدق أجزاء المادة — الفوتون الضوئية والكهيرب والذرة المؤلفة منها تدور على محاورها . فكأن المادة مخلوقة ولها هذه الخاصة — خاصة الدوران .

ولكن هذا الدوران المحوري ليس النوع الوحيد بل هناك دوران آخر هو الدوران المركزي Revolution أي الدوران حول مركز عن بُعد . كدوران الأرض والسيارات من حول الشمس فضلا عن دورانها على محاورها . والدوران الأول هو سبب الدوران الثاني ، وهو أيضاً سبب القوة الدافعة عن المركز ضد القوة الجاذبة الى المركز .

وهنا لا بدَّ أن يسأل القارىء كيف يكون ذلك ؟ وكيف يمكن أن يؤثر دوران جرم مركزي كالشمس في جرم آخر كالأرض على بعد سحيق بينهما ، بحيث يجعلها تدور من حول الشمس بسرعة مقرَّرة لا تتعداها ، ولا تقصر منها لتتم الدورة في سنة كاملة ؟ فما هي واسطة الاتصال التي تنتقل بها القوة من الجرم المركزي الدائر على نفسه الى الجرم البعيد عنه لكي تضطره أن يدور حوله ، فلا تتركه يهبط الى المركز ولا تدعه يشرد عنه ؟

هنا تنبري وظيفة الايثر الى الميدان لحلّ اللغز . وهنا تتضح علاقة الجاذبية بالأيثر . وهنا يتضح الدور الذي يلعبه الايثر في الضلع الثاني من الجاذبية ، واليك البيان :

تصوَّر الشمس ، مثلاً ، وهي تدور على محورها مع ما فيها من نتوءات وأغوار ،

وتصوَّر ما فيها من ذرّات وجزيئات تدور على نفسها وكهيربات تدور حول بروتونات . وكل ذرّة تصدر سلسلة تشعّعات Radiations — تصور جميع هذه تصادم البحر الأيثري مصادمات متساوقة متتابعة في اتجاه واحد لأن دوراناتها متجهة اتجاهاً واحداً — تصوَّر هذه المصادمات محدثة أمواجاً مسوقة في اتجاه تلك الدورانات المحورية ، وهي تنتشر بشكل حلزوني . وكلما ابتعدت الموجة تحدّدت دوائر الشكل الحلزوني وضعفت قوته حسب قانون الانتشار ، ورقت الموجة أي قصر عرضها بين الارتفاع والهبوط ، ولكن الموجة لا تزال تسرع مبتعدة عن المركز بالسرعة التي صدرت بها لأن السرعة تتوقف على دقة ذرات الوسط المتموّج (الأيثر) وعلى كثافته . وهنا نظن القارىء يسأل : لماذا تنتشر التموجات بشكل حلزوني .

٤ — الدوران الحلزوني

يمكنك أن ترى شبهاً لهذه الحركة الحلزونية إذا ملأت « طستاً » واسعاً ماءً ووضعت في وسط المسافة بين مركزه ومحيطه فلينة. ثم وضعت أصبعك في المركز وحرّكته حركة رحوية حول المركز . وإذا جعلت بدل أصبعك خشبة بعرض سنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات وسماكة سنتيمتر واحد وطفقت تديرها بسرعة ترى الموج يتولد من هذه الحركة بالشكل الحلزوني ، ولا تلبث أن ترى الفلينة سائرة ببطء حول المركز في اتجاه الدوران الذي أنت محدثه . وإذا لم ترَ دوران الفلينة منتظماً فلأن الموجات ترتد من محيط الطست مفسدة نظام الموجات الواردة من المركز والمصدومة بها .

تصور هذه الأمواج الحلزونية صادرة ، ليس من دوران الشمس على محورها فقط ، بل من بلايين الذرات التي تتألّف الشمس منها ، وهي تدور على نفسها بنفس اتجاه الدوران الشمسي . فهذه البلايين من الامواج المنتشرة بشكل حلزوني من المركز الى اللانهاية هي ما يسمى « الجوّ الجاذبي » .

والآن لكي تفهم هذه الصورة التالية جيداً تصوَّر الشمس وهي تدور على محورها وتصوَّر نتوآتها الذرية التي لا تحصى تصدم الايثر صدمات عرضية أي معامدة لنصف القطر ، فتحدث أمواجاً عرضية متتابعة لا يحصى عددها ، تنتشر من حول الشمس انتشاراً

حلزونيًّا في اتجاه دورتها المحورية . ولتسهيل التصور نقتصر على تتبع الامواج التي يحدثها نتوء واحد كل هنيهة . فترى ان الموجة الواحدة التي يحدثها النتوء لا تتم دائرة حول الشمس بل تلتف التفافاً من حول الموجة التي تليها . فاذا تصورت ان نبرات الشمس في دورانها المحوري تحدث بلايين الأمواج في البحر الايثري على هذا النحو ، أمكنك أن تتصورها ملتفة بعضها على بعض بالشكل الحلزوني وهي تصدم الايثر أمامها صدماً عرضيًّا معامداً لانصاف أقطار الدائرة

ثم تصوَّر الارض على بعد من الشمس وهذه الأمواج تصدمها على نحو ما تصوَّرناه آنفاً فلابدَّ من أن تتصوَّر أن الامواج تسوقها أمامها سوقاً ، أو تتصوَّر ان الأرض ، وهي قاصدة أن تقترب الى الشمس ، لا تستطيع الاقتراب لأن الأمواج تمنعها فتضطر ان تتدحرج أو تتزحلق على متون تلك الامواج في خطٍّ منحنٍ يتم في دائرة . فكأن الأرض تحت تأثير قوتين : قوة الانجذاب نحو مركز الشمس . وقوة الأمواج الصادمة لها في خط معامد لخط الانجذاب المذكور . ونتيجة القوتين المتعامدتين اتجـاه السير في خط دائري — حول الشمس — هو الفلك (المدار) الذي تدور فيه الأرض من حول الشمس . ولولا هذه الأمواج الحلزونية الأيثرية لسقطت الارض على الشمس . هذه هي « الدافعية » أي القوة الدافعة عن المركز ،

ولعلك تظن انه ما دامت الأمواج تسوق الأرض أمامها وهي حلزونية فلا بدَّ أن تسير الارض في خط حلزوني أيضاً فتبتعد عن الشمس مع ابتعاد الامواج الحلزونية الدافعة لها .

نعم كان يجب ان تتباعد الأرض عن الشمس بفعل هـذه الامواج لولا ان هناك قوة التجاذب (او التقارب) بين الجرمين التي شرحناها آنفاً . وهذه القوة تقاوم قوة الأمواج العرضية وتوازنها ،

ولعلك تسأل : اذا قذفنا حجراً أو قنبلة قذفاً أفقيًّا ، فلماذا لا يستمر دائراً من حول الأرض كما يدور القمر من حولها . أو لماذا لا يسقط القمر الى الأرض كما يسقط الحجر اليها ؟

أقول ان الجواب على هذا السؤال هو لباب ناموس الجاذبية لأن هذا الناموس لا يقتصر على تجاذب الجرمين فقط ، بل يشتمل على ناموس سرعة الدوران — دوران الواحد من حول الآخر . فالسرعة هي أهم ضلع في الناموس ، لأن مقدارها المناسب للبعد عن المركز هو الذي

يقي الأرض من الهبوط الى الشمس ، كما أنه يعصمها من الشرود عنها ، وهو الذي يقي القمر من الهبوط الى الأرض أو الشرود عنها .

لو أمكننا أن نقذف قنبلة بسرعة $\frac{٩}{١٠}$ أربعة أميال في الثانية لجعلت تدور من حول الأرض كسيار أو قمر حولها . ولو أمكننا أن نقذفها بسرعة خمسة أو ستة أميال في الثانية لشردت عن الأرض وتاهت في الفضاء . والسهم الذي زعموا أن الأستاذ جودارد الأميركي يبتغي قذفه الى القمر لا يمكن أن يبتعد عن الأرض اذا لم ينقذف بسرعة تزيد على خمسة أميال في الثانية . فأين القوة الأرضية التي تستطيع أن تحدث هذه السرعة ؟ كذلك القمر لو أبطأ معدل سرعته ولو بعض الميل في الثانية لهبط الى الأرض لا محالة ، ولو طرأت عليه قوة من عالم الغيب تزيد معدل سرعته لشرد في الفضاء .

بقي أن القارىء يستغرب أن ذلك الأيثر الذي حسبنا لطفه جزءاً من ملايين جزء من لطف غاز الهواء تستطيع موجته أن تدفع أمامها الأرض التي هي أكثف من الهواء عشرات المرات . ولكن اذا تصوَّرت أنه ليس في البحر الأيثري قوةٌ أخرى غير قوة أمواج الأيثر تتسلط على الأرض من أية ناحية البتة ، فمهما كانت قوة هذه الموجة ضعيفة في تصوُّرنا ، فهي ذات قوة كافية لأن تدفع جرم الأرض معها ما دام ليس هناك قوة ضدها .

الفصل السابع

الجو الجاذبي

١ — الامواج الايثرية

هذا البحر الأيثري المتموج الذي يوجب دوران الأجرام حول مركز كما رأيت هو ما يسمى « الجو الجاذبي » أو « المجال الجاذبي » Gravitational Feild

وكان فارادي أول من نبّه إلى الجوّ الجاذبي فقال ان الحديد الممغنط يحدث حوله جوًّا جاذبيًّا يوجب الحديد الآخر أن ينجذب نحوه . وكذلك الشمس تحدث حولها جوًّا جاذبيًّا يحتم على السيارات أن تنجذب نحوها ، أي أنها تلتوي في سيرها أو تنحني انحناءً يرسم دائرة حول الشمس .

هذه الأمواج الأيثرية التي يحدثها دوران الذريرات والذَّرات وسائر الأجرام تنتشر بسرعة واحدة في الفضاء أو البحر الأيثري على سنّة « مربع البعد » أي انها كلما بعدت ضعفت قوتها .

كلها تسير بسرعة واحدة . ولكنها تختلف بعددها (عدد الموجات) في الثانية . أي عدد الذبذبات Frequency وتختلف أيضاً بسعتها بين الموجة والموجة . وهذه السعة هي ما يعبرون عنه بطول الموجة (كما تعلم في اصطلاحات الراديو)

إذا ضربت عدد الموجات في الثانية في طول الموجة كان الحاصل ٣٠٠ الف وهو عدد ثابت لا يتغير ، وهي سرعة الأمواج مهما كان نوعها — نوريّة أو موجات راديو أو أشعة سينية أو أشعة ما فوق البنفسجي أو ما تحت الأحمر الى آخره .

يتوقف هذا الاختلاف في عدد الموجات وطولها على اختلاف مصادرها . ولا متسع هنا لشرح هذه النقطة .

في الطبيعة عددٌ كبير من أصناف الموجات من حيث الطول وعدد الذبذبات . وهي

مرتبة ترتيب درجات السلم الموسيقية السبع . أي ان كل درجة من سلم أعلى تكون ذبذباتها مضاعف ذبذبات درجة تقابلها في سلم أدنى منه، وانما يكون طولها نصف طول هذه.

ونحن لا نشاهد منها إلاَّ السلَّم النورانية التي تنحل بالمطياف الى الألوان السبعة . وغيرها لا نرى كموجات الراديو أو الموجات السينية أو موجات ما فوق البنفسجي وما تحت الأحمر والأمواج الكونية الخ . ويبلغ عدد هذه السلالم أو الطبقات أو الطقوم الموجية نحو ٦٩ أو ٧٠ طاقاً .

القوة التي رفعت المياه بخاراً من البحر والبر ، والقوة التي خُزنت في أعضاء النبات والحيوان الخ صادرة من الشمس وقد حملتها هذه الأمواج التي نحن بصددها .

هذه الأمواج هي ما نسميها الأمواج الكهرطيسية أي الكهربائية المغنطيسية Electro-magnétic Waves ولا محل هنا لزيادة التفصيل .

٢ — الفوتونات

ظهر معنا أن القوة المحركة في الكون هي هذه الموجات التي تصدر من دوران ذريرات المادة وذراتها ومجموعات ذراتها .

ولكن هذه الموجات الدورانية ليست كل ما ينقل القوة من الذرات بل هناك شذرات تنتثر من الذرات وتمضي مع تلك الموجات وبسرعتها . واليك بيان أمرها : —

إذا أطبق كهيرب (الكترون) على بروتونه أفنى كل منهما الآخر كما يفنى الموجب والسالب اذا تلاقيا — يفنيان في لمعة موجية تنتشر في الفضاء — يعني انهما لا يبقيان بروتوناً ذا شحنة ايجابية وكهيرباً ذا شحنة سلبية، بل يتفتتان الى شظيَّات تسمى فوتونات (ضويئات) لا شحنة كهربائية فيها . وانما لها القوة التي كانت كامنة في الذرة . فتنطلق هذه الفوتونات في الفضاء بسرعة الموجات الكهرطيسية التي نحن بصددها .

هذه الفوتونات هي القوة المحمولة في الموجات ، أو لك أن تقول هي نفسها الموجات الكهرطيسية

متى أطبق الكهرب على البروتون لأي سبب (ولا محل هنا لشرح الأسباب) انحلَّ

الى عشرة الاف فوتون. ولما كان البروتون يزن ١٨٤٠ مرة وزن الكهيرب كان ينحل بنوبته الى ١٨٤٠٠٠٠٠ فوتون (ضُوَيئة).

النور والحرارة اللذان نحس بهما هما من هذه الفوتونات. وكذلك سائر أمواج الراديو وما شاكلها. وهذه الفوتونات هي التي يقع قسم منها على أرضنا بشكل حرارة ونور وما وراء البنفسجي الى آخره. هي القوة التي تخزن في عالمي الحيوان والنبات وتعود فتظهر بإحراقهما بالأوكسجين وبوسائل أخرى لا محل هنا لبيانها.

ويمكننا أن نقول إن العنصر الحيوي في الحيوان والنبات من مفعول هذه الفوتونات. والذين يتعرَّضون لنور الشمس وحرارتها بغية الحصول على أمواج ما وراء البنفسجي في أبدانهم قد لا يخطئون الاَّ بأنهم يفرطون في هذا الأمر الى حد الأذى، وقد يكون شديداً. وقد يكون قاتلاً إذا تجاوز الحدود.

وتلك الموجات الكهربائية المغنطيسية التي تحملها أو تصطحبها هي التي تولد تيارات كهرطيسية أخرى في الكروموسوم (الصِّبْغيّ) في الخلايا الحية. وهي سر الحياة بحسب نظرية لاخوفسكي التي ظهرت حديثاً. وقد نشر المقتطف لي مقالة في شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ في هذا الموضوع.

تفقد الشمس بصدور هذه الفوتونات منها كل دقيقة ٣٦٠ طنًّا من مادتها.

وفي رأي بعض العلماء ومنهم العلامة تجايعس تجنز ان هذه الفوتونات هي ذريرات أيثرية أي إن البحر الأيثري هو فوتونات. كأن الاجرام والأجسام تولدت من هذه الفوتونات فلما فنيت عادت إلى بحر الفوتونات. « من الفوتون وإلى الفوتون تعود »

الفصل الثامن

نشوء الذريرات والاجرام

يحسن بنا هنا أن نبحث في كيف نشأت الذريرات والذرات والاجسام والأجرام بقوة الجاذبية أو بعمل خواص المادة الثلاث التي مرّ ذكرها في نبذة ٣ من الفصل الرابع

١ — اصل السدم

شكراً للنور وللآلات البصرية التي اخترعها العلم لتحصيل النور واستكشاف نواميسه وخواصه — شكراً له ولها لانهما جميعاً وَضعت تحت بصرنا كتاب الطبيعة المادية Cosmophysics مشتملاً على صور العوالم المادية من ملايين السنين الى اليوم. فهو يكشف لنا طبيعة مجموعات العوالم في عصور مختلفة ومتباعدة أكثر مما تكشف لنا الاحافير عن طبقات الارض

تصوَّر التلسكوب (المقراب) والسبكتروسكوب (المطياف) يجلوان لك كثيراً من ظاهرات سديم [1] يبعد عنا مئة مليون سنة نورية أو أكثر. يعني ان نوره يقضي هذا العدد من السنين لكي يصل الينا. فهو بعد مضي هذه السنين لم يبق كما نراه الآن سديماً غازياً بل لا بد انه أصبح كمجرتنا. وقد تجمعت أجزاؤه في اجرام من شموس ومجموعات شموس (كوكبات) وربما كان بين شموسه شموس ذات سيارات كشمسنا. فبُعده السحيق عنا حفظ لنا في الفضاء صورته كما كان منذ مئة مليون سنة او مئات الملايين. فاذا وجهنا مرصدنا العظيم بمطيافه الى النواحي المختلفة في الفضاء او بالأحرى في الحيّز الكوني، نرى سُدُماً مختلفة الأبعاد وبالتالي مختلفة المظاهر تبعاً لاختلاف أبعادها. فنرى بعضها في الحالة الغازية الصرفة كأنها لهيب مندلع، وبعضها كأنها ضباب محترق، وبعضها ضباب يشتمل على عقَل أكثف من

---

(١) السديم مجموعة مادية عظيمة جداً كمجموعة مجرتنا، ولكنه في الحالة الغازية

الضباب . وبعضها نجوم ومجموعات نجوم . وأقربها الينا اكثر مشابهة لمجرتنا وأبعدها غازي صرف . فكل هذه الظاهرات الواصلة الينا على أجنحة النور اذا أدخلنا أبعادها المختلفة في الحساب تدلنا على انه لو كان في امكان عقلنا أن ينتقل بينها بأسرع من النور ألوف المرات أو فجأةً لكان يراها كلها متقاربة في النضوج الى مجرتنا . وربما كان بعضها أنضج منها

ومن ذلك نفهم أن كل جرم أو مجموعة أجرام أو كل مجرة كمجرتنا كانت في الأصل سديماً غازيًّا لطيفاً جداً . ثم جعلت ذراته تتجمع بعضها إلى بعض ، فتتكوَّن منها جماعات فجماعات أكثر من الأصل عدداً . ثم جعلت أجزاء كل جماعة منها تتجمع في جماعات أخرى أكثف منها فتتكوَّن مجموعات الأجرام الى أن بلغت مثل ما نرى في مجرتنا .

فلا شبهة في أن جميع العوالم كانت في الأصل سدُماً غازية لطيفة جدًّا . ثم تقلّصت وتجمدت أجراماً . والمطياف (السبكتروسكوب) يقول لنا ان جميع هذه السدم متشابهة المادة تشابهاً كليًّا . مثلاً يريك في كل منها عنصر الهيدروجين أو عنصر الهيليوم وكثيراً من العناصر التي عندنا في أرضنا منها . بل يريك صفات البروتونات والكهيربات فيها جميعاً . ولا يخفى ما في هذه الظاهرات من الدليل الجازم على ان السُّدُم جميعاً متكونة من أصل واحد أي من ذرات مادية متماثلة . فاذا كانت تلك الذرات ؟

لا يحتاج الجواب إلى تكهُّن أو الى تخرص . نحلل أية ذرة من الذرات المادية التي عرفناها . فما تنحل اليه نهائيًّا فهو الذريرة التي تألفت منها السدم بل تؤلف السديم الأعظم الذي انشقت منه السدم وانفصلت بعضها عن بعض . فقد علمنا فيما سبق ان آخر جزء تنحل اليه الذرة هو الفوتون (الضوئة) . ولا نعرف ذريرة أدق من الفوتون أو أن الفوتون ينحل الى أجزاء أدق منه، حتى اننا لاعتبارات علمية اعتبرنا الايثر بحر فوتونات . (وتجيز يظن هذا الظن) وربما كان بحر ذريرات أدق من الفوتونات والله اعلم .

٢ — البحر الفوتوني أو الضوئي

هب أن ذريرة الايثر أصغر من ذريرة الفوتون وان الفوتون مؤلف من ذريرات ايثرية فمهما تمادينا في تجزئة المادة فلا نستطيع أن نتمادى بلا تناهٍ . لأن عدم التناهي خارج عن منطقة العقل البشري فلا يتطوَّح العقل اليه ، ولأن المادة خاضعة لتصوّر العقل

فلا بدّ أن تكون متناهية التجزئة . ولأن الفوتون آخر أجزائها كما نعلم حتى الآن ، فلنا أن نفرض أن السديم الاعظم الذي اشتقت منه جميع السدُم كان بحر فوتونات . وإذا شئت أن تتصوَّر بحر ذريرات اثيرية أدق من الفوتونات فلا بأس . وإنما لكي نجعل حدًّا لبساطة المادة ودقتها نفرض الفوتون الذي لم نعرف حتى الآن ذرَّة أبسط منه وأدق — نفرضه أصلاً لمادة الكون (الهيولى) . هو عنصر البحر الايثري والمادي.

في هذه الحالة نتصوَّر الحيز الكوني المتناهي (لا الفضاء الخالي اللامتناهي الذي نعتبره عدماً) في البدء مملوءاً فوتونات منتشرة فيه على مسافات متساوية تمام التساوي . وقد حسب بعض العلماء ذرات أو جزيئات جميع المجرات والسدم الكونية فاذا هي ٧٩ صفراً عن يمين الواحد أي هي عشرة مضروبة بنفسها ٧٩ مرة . وتكتب بالاختصار هكذا $(١٠)^{٧٩}$. وإذا كانت أصغر ذرة — الهيدروجن مثلاً — تنحل إلى نحو ١٨ مليون فوتون تقريباً (١٠٠٠٠) × (١٨٤٠) فيكون عدد فوتونات الكون $(١٠)^{٧٩}$ + ٥ × ١٨٤ أي ١٨٤ وأمامها ٨٤ صفراً . هذا ما عدا ذريرات البحر الأيثري التي يمكن استخراجها بحساب آخر ليس هنا متسع له .

ثم حسب بعض العلماء نصيب كل جزيء من الحيز الكوني إذا تشتتت أجزاؤه بالتساوي فيه فاذا هي من ٢ إلى ٣ يردات مربعة أي إنه بين كل جزيء وكل واحد من جيرانه نحو ٢ إلى ٣ يردات . وبناءً على هذا الحساب يكون نصيب الفوتون الواحد من الحيز الكوني نحو سنتيمتر مكعب ، أي ان كل فوتون يبتعد عن جيرانه نحو سنتيمتر . هذا اذا انحلت ذرات الكون كله الى فوتونات وتشتتت هذه في الحيز الكوني .

أضف الى هذا الحساب الذي لا يستطيع العقل تصوره ان النور يقضي نحو ١٠ آلاف مليون سنة لكي يقطع الحيز الكوني من جنب الى جنب . وثمَّ تصور ما شئت من سعة هذا الكون .

حساب آخر . وقد حسب هوبل رئيس مرصد جبل ويلسن (أعظم مرصد في العالم الآن) في أميركا أنه لو انتشرت ذرات جميع الأجرام والسدم وتوزعت في الحيز الكوني توزعاً متعادلاً لبلغت كثافتها فيه ١٥ جزءاً من ٣١ صفراً الى يمين الواحد من كثافة الماء . وتكتب

للاختصار هكذا : ٥ر١ × (١٠)^{٣١} . وبعبارة أخرى أن سنتيمتراً مكعباً من الماء يصبح حينئذٍ ١٥ الى يمينها ٣١ صفراً سنتيمترات مكعبة .

٣ — نشأة الكون الهيولي

تصوَّرنا الحيز الكوني المتناهي في بدئه مفعماً بفوتونات أو ذريرات ايثرية متماثلة وموزعة فيه على نسبة واحدة ، أي أن كثافتها فيه واحدة في أي منطقة في ذلك الحيز .

وهنا يقاطع القارىء حديثنا بالاسئلة التالية :

١ — من أين جاءت هذه الفوتونات (أو الذريرات الايثرية ؟ أو كيف وجدت مرتبة هذا الترتيب ؟

الجواب إن هـذا السؤال استفزاز للعقل لـكي يثب من دائرة المتناهي الى دائرة اللامتناهي . وهو عاجزٌ عن هذا الوثوب .

إذا بحثنا عن سبب وجود فوتونات المادة ، أو إذا فرضـنا لوجودها سبباً أو موجداً انبرى أمامنا سؤال آخر ، وهو كيف وُجد ذلك السبب أو الموجد ؟ وعلى هذا النحو نستمر في سلسلة فروض لا نهاية لهـا . والعقل متناهٍ . فلا يستطيع أن يشمل اللامتناهي . فخيرٌ للسائل أن يكف عن هذا السؤال المحير لانه لا يستطيع أن يجد فيه مزيلاً لحيرته . فان كان يرتاح الى نظرية وجوب وجود الله موجداً للمادة ، فذلك خير ما يعتقده ويريح باله . اللهمَّ إذا كان لا يجد بدًّا من السؤال « من أوجد الله » . وحينئذٍ فافتراض ان المادة وجـدت هكذا وجوباً يغنيه عن هـذا السؤال . لان افتراض ان المادة وجدت هكذا وجوباً هو كافتراض وجود الله وجوباً . إذن فلنقل ان المادة وجدت فوتونات مرتبة هكذا بكيفيـة يستحيل أن ندركها أو أن نخمنها . وجدت والسلام . أو أن الله الواجب الوجود أوجدها وهو منظمها ومدبرها والبحث في أصل وجودها عقيم .

٢ — متى وجدت فوتونات المادة ؟

الجواب ان الزمان ليس شيئاً قائماً بذاته . بل هو تعبير عن حركة المادة . فاذا كانت المادة ساكنة بلا حركة — ان كانت قد وجدت ساكنة — فلم يكن ثمت مرور زمن إذ لا نجد أثراً في الـكون له . ولذلك لا نستطيع أن نعين لبدء وجودها زمناً . وانما نعين لبدء

حركتها زمناً سواء أكانت الهيولى أزلية أو حادثة. ولا يستحيل علينا أن نستنتج بدء ظهور حركتها ، أي منذ كم من الزمن ابتدأت تتحرك . أي متى صارت الفوتونات تتألف في كهيربات وبروتونات ؟ فان كانت قد وجدت متحركة فنعلم بدء حدوثها أو وجودها من معرفتنا بدء حركتها . وانما نبقى جاهلين كيفية ذلك الحدوث كما تقدم القول . فمهلاً بهذا السؤال الذي يمكن الجواب عليه وازالة الحيرة فيه . وحينئذٍ يعلم القارىء أن لا أزل ولا أبد . بل هناك بداية للكون المادي الذي نحن فيه الآن وكما نعرفه وله نهاية على الأرجح (أنظر الفصل العاشر)

٣ — كيف نعلم ان المادة وجدت فوتونات أولاً ثم تألفت من الفوتونات ذريرات فجزيئات وتجمعت منها سدم وأجرام ؟ ولماذا لا نقول إنها وجدت جزيئات تامة التركيب كما نراها في شمسنا وأرضنا ؟ ولماذا لا نقول إنها وجدت ذريرات أصغر من الفوتونات وهذه الفوتونات تألفت منها ؟ .

والجواب . أننا نرى في السدم المترامية جميع درجات التركيب من الفوتونات إلى البروتونات والكهارب إلى الجزيئات الخ ولم نشاهد أو نعثر على ما هو أدق من الفوتونات فان كان هناك ما هو أدق منها فالى الآن لم نكتشفه . ولا كلام فيما نجهله جهلاً مطلقاً . وفي أرضنا نرى خليات حيوية مؤلفة من جزيئات أيضاً . وكل ذلك يدلنا على أن التركيب حادث في المادة بعد وجودها . فلا يمكن أن تكون قد وجدت هكذا كما نراها مادمنا نرى تركباً وانحلالاً . نرى في درجات السدم دلائل التكاثف والتركب واضحة كالنهار . فنتأكد أن التركب طبع في المادة . واذن ابتدأ التطور منذ كان الحيز الكوني بحر فوتونات فقط.

٤ — بالبرهان على أن الحيز الكوني الذي كان مملوءاً فوتونات فقط ومتوزعة فيه بالتساوي ، كان متناهياً أي له حجم مقرَّر . ولماذا لا يقال أنه غير متناهٍ ؟

الجواب : ان العلم مكننا من ارتياد الكون وأقنعنا بانه متناهٍ ، وان الحيز الذي يشغله محدود الحجم . وعلمنا أو اكتشافنا محصور في هذا الحيز المحدود، وبعده لا ندري شيئاً إذ لا وسيلة لاتصالنا بما بعده كما لنا وسائل الاتصال بجميع نواحي حيزنا هذا . ولكن جهلنا بما بعده لا ينفي نفياً قاطعاً امكان وجود حيز أو حيزات كونية أخرى لا وسيلة عندنا

الاتصال بيننا وبينها فهي بالنسبة الى عقلنا في حكم التخيل الظني فقط اذ لا تأثير لها على عقليتنا . فكأنها من مستنبطات عقلنا فقط . ولذلك من السخف ان نفرض أو نزعم أو نعتقد بما ليس له صلة بحواسنا أو عقلنا أو تعقّلنا .

إذن نحصر بحثنا في حيز كوننا المادي فقط لأن لنا اتصالاً حسيًّا بنواميسه ، ولأن هذا الاتصال ينتهي عند حدود نستطيع أن نقيس أبعادها بالتقريب .

٥ — هل وجدت المادة متحركة أو ان الحركة طارئة عليها ؟

الجواب : ليس لأي من الأمرين جواب يرتاح اليه العقل أو يزيل الحيرة . فقد يمكن انها وجدت متحركة . ولا جواب للسؤال « كيف وجدت متحركة » إلاّ الجواب الذي بسطناه للسؤال الأول . وقد يمكن أن تكون الحركة طارئة عليها بعد وجودها . وحينئذٍ يتصدر السؤال التالي : —

٦ — إذا كانت الحركة قد طرأت على المادة بعد وجودها فما هي القوة التي أحدثتها ؟

والجواب على هذا السؤال من رتبة الجواب على السؤال الاول . فيستحيل على العقل البشري أن يتصوّر قوة مستقلة قد حرّكت المادة أو أثارتها فتحركت . لانه في الحال يقوم أمامه سؤال آخر وهو : ما هي هذه القوة . أو إذا كان يعتقد انه ليس هناك شيء قائم بذاته يسمى قوة ، بل ان ما نعنيه بالقوة وما عرفناه منها انما هو حلقة من سلسلة حلقات الحركة — اذا كان العقل البشري يعتقد هكذا فلا بدّ أن يسأل ما هي الحركة السابقة التي أحدثت حركة الفوتونات . وهكذا يدخل في سلسلة غير متناهية من الأسئلة .

فاذن نترك البحث في اللامتناهي لأنه عقيم ونبحث في تطور المادة كما رأيناها منذ بدء تحركها، سواء أكانت قد وجدت ساكنة فطرأت عليها قوة فحرّكتها . أم وجدت متحركة فشرعت تتطوّر.

الفصل التاسع

تطور الـكون

١ — وجوب وجود المادة متحركة

نعود إذن إلى تصور الحيّـز الـكوني مفعماً فوتونات فيها نزعة طبيعية إلى التقارب بعضها الى بعض ، ونزعة أخرى وهي الدوران المحوري الذي أشرنا اليه مراراً فيما سبق ومن هنا نعتبر بداءة تطورها .

نزعم أنها ابتدأت بتطورها من حالة كونها موزعة فوتونات في الحيز الـكوني بالتساوي. لاننا نرى دلائل التصور في سُدُمها واضحة كالنهار كما قلنا ، فلا بدَّ أن تكون هـذه الحالة من درجات تطورها ان لم تكن أولى درجاته . فصار السؤال الآن كيف شرعت تتطوَّر من بعد وجودها في هذه الحالة .

نراها الآن بواسطة المراصد كما كانت منذ ملايين السنين : مجموعات سُدُم غازية متفاوتة الـكثافة ، مختلفة الأشكال بعض الاختلاف ، متقاربة الأحجام . وكلها تدور على محاورها . فاذاً، كيفية نشوئها واحدة ، كما ان المادة التي تكونت منها واحدة (الشكل والطبع) . فكيف نشأت متنوعة ؟ وما هي أسباب بعض الاختلافات في أشكالها وأحجامها وأوزانها .

والجواب الاجمالي انها نشأت بكيفية التـكاثف في البحر الفوتوني . فـكيف حدث هذا التـكاثف ؟

نتصوَّر هذا البحر الكوني الفوتوني كـكرة عظمى يحيط بها العدم . ونتصوَّر حركته أول أمرين أو كليهما معاً . الأول أن في كل ذريرة (فوتون) نزعة طبيعية للاقتراب الى أقرب فوتون اليه . والأمر الثاني . كل فوتون يدور على نفسه دورة مغزلية (على محوره) حتى اذا تحرك في اتجاه محوره كان يمر في الفضاء كالبرغي في الخشب . فرضناه هكذا لأن بعض العلماء مثل تجينز يعتقد أن الفوتون ينتشر من الذرة مندفعاً وهو يدور على نفسه

(على محوره) مارقاً في الفضاء بحركة حلزونية . هذا اذا تحرك محوره .وقد يتحرّك في اتجاه دورانه ، فتكون حركته كأنه يتدحرج في الفضاء كالعجلة .

يحتمل أن يكون الفوتون أو الذرية الايثرية الأولى قدابتدأت بالتحرك بحركة التقارب فقط، ثم جاءت حركة الدوران بعدئذٍ كنتيجة للتطور . أو يحتمل أيضاً انها ابتدأت بالتحرك بالحركتين معاً أي حركة الدوران وحركة التقارب .والحركتان معاً نتيجتا التطور وإنما هنا يتعذر على العقل السليم أن يتصوَّر أن حركة الدوران نزعة طبيعية لحركة التقارب . ولا بدّ إذ ذاك من التشدُّد في السؤال : أية قوة دفعت الفوتونات في هذه الحركة . وحينئذٍ نعود فندخل في دائرة اللامتناهي التي ينصرع العقل فيها حتى ولو فرضنا ان القوة المحركة للفوتونات قوة إلهية . لأن هذا الفرض ليس أقرب الى العقل من نسبة الحركة لطبيعة الفوتونات نفسها. ولأنه لا ينقذ العقل من ورطة اللامتناهي ، لأنه لا يستطيع أن يتملص من سؤال آخر وهو : من أين جاءَ ذاك المحرك الاول بالحركة ؟ أو من أين استمد قوته ؟ فان فرضنا محركاً آخر قبله مَنَحَهُ هذه الحركة درجنا في سلسلة اللامتناهي التي لا يخرج منها ولا يستقر فيها العقل مقتنعاً راضياً . فاذا لم يكن بدٌّ من فرض قوة واجبة الوجود كأصل أو علة لوجود الكون متحركاً أو لتحرك المادة فماذا يمنع أن تكون المادة المتحركة هي نفسها واجبة الوجود ؟ ولماذا نقدّم عليها قوة لا مزية لها وليس فيها اقناع للعقل أكثر مما في وجوب وجود المادة نفسها ؟ .

على أي حالٍ القارىء حرٌّ في تعليل وجود المادة متحركة . ونحن نبتدىء في شرح تطور الكون المادي من وجود بحر فوتونات لها على الأقل نزعة التقارب

٢ — ناموس التكاثف

في هذه الحالة نرى بعين العقل كل فوتونة بين ست فوتونات من حولها في الجهات الست وهي ميّالة للدنوّ الى كل واحدة منها، أو بتعبير الاصطلاح الجاذبي كل واحدة راغبة في استدعاء أية واحدة من اللواتي حولها اليها . ولأنهنّ جميعاً على مسافات متساوية بينهنّ فلا تستطيع الواحدة منهن أن تختار واحدة دون الأخريات حتى ولو كانت لهنّ خصلة الدوران المحوري .

فاذا فرضنا ان الكون غير متناه بل هو ممتد من جميع النواحي الى ما لا نهاية له ، وهو أمر يستحيل تصوّره فتكون الذرات الأيثرية أو الفوتونات في وضعها الذي تصورناه متوازنة فيما بينها . وليس ثمت من داعٍ أو عامل لتحريكها بعضها نحو بعض. بل تبقى كذلك الى أبد الآبدين . أو الى ان تطرأ عليها قوة أجنبية تحركها وتخل توازنها هذا فتشرع في تطورها تجمعاً وتفرقاً . فأين القوة الأجنبية

وانما نحن علمنا أن الحيّز الكوني متناهٍ أي محدود الحجم حوله فراغ نعتبره عدماً . وليس عندنا دليل قط انه انشقّ من كونٍ أعظم غير متناهٍ ، وان كان هذا لا يستحيل حدوثه ، إلاّ عند عقلنا الذي لا يستطيع تصور اللامتناهي .

فلنبقَ على فرضنا الأول وهو أن كوننا المادي وحيدٌ فريدٌ. وقد وُجد منذ الأزل بحر فوتونات بشكل كروي يحيط به الفراغ المطلق أو العدم . وحينئذٍ نرى الفوتونات متوازنة فيما بينها إلاّ في قشرة سطحه الكروي . فهناك نرى كل فوتون منجذباً الى خمس فوتونات من جهات خمس دون الجهة السادسة ، وان التوازن في القشرة السطحية مختل . واذن فوتونات القشرة تدنو الى ما بين الخمسة بحسب قانون تعدّد القوات المتسلطة على جسم واحد واختلاف جهاتها كما هو معلوم في علم الطبيعة . وحينئذ تصبح فوتونات الطبقة التي تحت القشرة أكثر عدداً وتقارباً فتجذب فريقاً من الطبقة التي تحتها ويحدث تجمع في قشرة جديدة فتختل الموازنة في الطبقة الرابعة وتهبط الى طبقة تحتها ويحدث تجمع آخر قد يكون أعظم من التجمع الأول أو أقل .

ولا يخفى انه اذا اختلّ التوازن في ناحية اختلّ في جميع النواحي ، وحينئذٍ يطلق العنان لحركة التقارب والتباعد في كل ناحية . ولا يمكن تصوير كيفية ذلك بانتظام . فهو في نظر العقل البشري سلسلة مصادفات لا ضابط لها . وهكذا تحدث تجمعات متوالية تتعاضد بينها قوات تقارب مختلفة . ومهما كانت الطبيعة منظمة ومحافظة على التشاكل Symetry فلا بدّ أن يزداد اختلال التوازن من كل ناحية .

وفيما نحن نتصور التجمع في طبقات غضضنا النظر عن اختلال التوازن في الطبقات الكروية نفسها الأمر الذي يمزقها الى تجمعات صغيرة . وهذا التمزق محتمل جداً بل هو

منتظر اذا كان عدد فوتونات القشرة وتراً لا شفعاً ، أو وتر الوتر بحيث يستحيل أن تنقسم القشرة الى جماعات متساوية العدد من غير فضلة ، فالفضلة وحدها إما أن تكون مجموعة أصغر أو ان تنضم الى مجموعة أخرى أكبر. وهذا التفاوت في أحجام المجموعات واختلاف المسافات بينها يزيد في اختلال التوازن وينشىء اضطراباً في بحر الحيّز الكوني الفوتوني . وحينئذٍ نستطيع أن نتصور ذلك البحر الايثري اللطيف يتحوّل رويداً رويداً الى جماعات غيمية هنا وهنالك بتناسب قليل وهي ما يسمونه سُدُماً (جمع سديم)

يمكنك أن تتصوّر هذه الدرجة الأولى في نشوء الكون المادي وتصوّره اذا ملأت اناء حليباً ثم عصرت عليه ليمونة حامضة . يكفي أن تهزّ الاناء قليلاً فترى زلال اللبن تكتل كتلاً متقطعة . واذا ساعدت حركة التكتل بان تحرّك اللبن بملعقة لكي يتوزع فيه حامض الليمون رأيت الكتل متوزعة في مصل اللبن الصافي هنا وهناك . ولولا جاذبية الأرض لما كنت تراها ترسب متجمعة بل تبقى متوزعة في كل ناحية من المصل وتبقى في حركتها الدورانية التي أحدثها التحرك بالملعقة الى الأبد .

على هذا النحو نشأ التكاثف الأول في بحر الحيز الكوني وتولدت التكاثفات Condensations المتعددة التي هي السُّدُم الأولى. وهي الدور الثاني من ادوار الكون المادي.

٣ — ناموس الدوران

هذا التكاثف استلزم الحركة — حركة الانتقال في الحيز من نقطة الى نقطة — وقد فرضنا انها طبيعة في الفوتونات ومتبادلة بين بعضها والبعض على قاعدة ان الأقرب يقترب الى الأقرب . والعدد الأكثر يستدني العدد الأقل .

فاذا فرضنا ان جميع فوتونات الطبقة السطحية تهبط الى الطبقة التي تحتها (نعني الى جهة المركز) وكلتاهما الى ما تحتهما كانت النتيجة تقلص البحر الفوتوني وتكاثفه في كرة أصغر الى أن يصبح أخيراً جرماً واحداً عظيماً كثيفاً جداً . وأكثفه في مركزه بحيث لايستطيع العقل تصور مقدار كثافته . ولا حركة دورانية فيه بل يكون بجملته ساكناً وأجزاؤه ساكنة بنسبة بعضها الى بعض . ولكن المشاهد في تعدد السدم يخالف هذا الفرض الذي ترفضه طبيعة الحال وينقضه قانون التجمع والتكاثف كما رأيت . فقد رأيت ان الاختلال في

التوازن بين الفوتونات يجعل حركات التجمع مختلفة الاتجاه الى جميع الجهات . ولذلك تحدث عدّة تكاثفات .

ولذلك إذا تصوّرنا أن حركة التقارب بين الفوتونات وبين جماعاتها المتكونة حديثاً غير متجهة كلها اتجاهاً واحداً نحو مركز الحيز الكوني ، بل بعضها معامدٌ وبعضها معارضٌ على زوايا مختلفة وبعضها معاكس ، فحينئذٍ نقدر أن نتصور التكاثف مبتدئاً بحركة دورانية منذ بدأ تكاثف الطبقة الخارجية الاولى .

وبعدئذٍ نتصوَّر كل تكاثف آخر مجارياً للتكاثف الأول في اتجاه دورانه . وحينئذٍ نرى البحر الكوني كله دائراً حول مركزه بسرعات مختلفة في مناطقه بعضها أسرع من بعض . وبعضها أبطأ من بعض وانما كلها تدور في اتجاهٍ واحد .

وإذا صحّ افتراضنا هذا وعزّزته الظاهرات وهو أن للفوتون حركة طبيعية أخرى أي حركة الدوران المغزلي مع حركة التقارب كان ثمت سبب آخر لتكون التكاثفات دائرة على محورها . وهو اكتساب هذا الدوران من دوران الفوتونات .

نرى شاهداً على هذا في الجيروسكوب فانه يدير معه الوعاء الذي هو فيه إذا لم تمنعه قوة أخرى. فاذا تصوَّرت الفوتونات كلها تدور على محاورها في اتجاهٍ واحد سهل عليك أن تتصوّر مجموعاتها متخذة هذه الحركة نفسها وفي نفس الاتجاه . فالحركة الدورانية Angular Momentum التي يكتسبها الكل من أجزائه هي سنة طبيعية منطقية . ومن هذا القانون نشأ قانون بقاء الحركة الدورانية أي دوامها Conservation of Angular Momentum وتوزعها من الكل على الأجزاء التي تفرعت منها كما هي مشروحة في متون علم الميكانيكيات. فاذا تشبع ذهنك بهذا القانون جيداً سهل عليك أن تتصور دوران السدُم وأجزائها كأنها موروثةمن أصل واحد وهو دوران البحر الكوني منذ اختلال توازنه وبدء اضطرابه .

وكلما استقلَّ تكاثفٌ أو سديمٌ (كما هو مصطلح على تسميته) بنفسه ورث حركة الدوران هذه من الأصل الذي اشتقَّ منه وجعل يدور على نفسه بنفس الاتجاه . وان وجدت بعض السدُم تتحرَّك أو تدور باتجاه مخالف للاتجاه العام فبسبب شيء من فوضى التكاثف والاشتقاق التي أحدثها اختلال التوازن كما تقدم القول . لأنه في بحر عظيم كهذا مؤلف من ذرات صغيرة بالنسبة الى عظمه وحركتها زهيدة بالنسبة اليه لا يمكن أن يشرع بتحركه الدوراني كمجموع تحركاً تام الانتظام والتشاكل بين أجزائه Symmetrical . فلا بدَّ من حدوث شواذ زهيدة بين حركات أجزائه . فهذه النتيجة أي دوران متجمعات الفوتونات هي ما نراه في السدم الموجودة الآن والتي نرصدها ونرى نماذجها في أدوارها المختلفة .

نراها جميعاً تدور على محاورها بسرعات متفاوتة من شبه السكون الى سرعة مئات الأميال بالثانية حسب موقعها في المجموع ، وبعدها عن المركز .

٤ — بدء عمل الجاذبية وقانون التكاثف

متى شرعت مادة الحيز الكوني تتكاثف على نحو ما شرحناه يشرع ناموس الجاذبية يتضح لنا جذباً فدفعاً . لأنه حالما يبتدىء التكاثف يبتدىء أيضاً تكون البروتونات والكهارب اذ لا يوجد مانع يمنعها من التكون ما دامت موادها موجودة والحركة اللازمة لها حادثة . وحينئذٍ نرى الذريرات تتكوّن من الفوتونات والذرات من الذريرات والجزيئات تتألف كيماويّاً ونرى بقيات باقية من ذريرات البحر الفوتوني أو ذريرات البحر الايثري إن كانت غير فوتونية تنصدم من دوران البروتونات ودوران الكهارب حولها.

وبالاختصار نقول ان قانون الجاذبية العام جذباً ودفعاً يشرع عمله بوضوح . وعليه فعملية التكاثف تكون خاضعة : — أولاً لقوة الجاذبية . وثانياً اسرعة الأجزاء التي يتكوّن منها التكاثف بحيث لا يزيد السديم المتكوّن عن حجم محدود ولا ينقص عن حجم آخر محدود والاّ فلا يثبت . أي انه يجب أن يكون توازن بين قوة الجاذبية فيه وسرعة دوران أجزائه حول مركزه . وإلاّ فهو مقلقل مزعزع (راجع قانون المسارعة في الملحق الثاني) .

ولا يخفى ان قانون بقاء قيمة الحركة الدورانية أي دوامها Cons ıvation of the Angular Momentum يقضي بأن لا تتلاشى قيمة الحركة الدورانية بل هي ككل حركة يمكن أن تنتقل من جسم الى آخر أو تتوزع الى أجسام في الحيز حسب اتساعه . وبموجب هذا الناموس كلما تقلص جرم أو سديم وصغر حيزه ازدادت سرعة دورانه لأن قيمة حركته الدروانية لم تنقص بنقص حجمه . جميع حركات الدوران على الأرض متمشية على هذا القانون . والمشاهد من حركات السدم والأجرام الدورانية يطابق هذا المبدأ والقانون كل المطابقة .

***

بقيت أبحاث أخرى في تناسب المتجمعات الكبرى للصغرى . ونشوء المجموعات الكروية المسماة « الكوكبات العنقودية globular clusters التي كل كوكبته منها تدور على محور واحد كأنها كتلة واحدة متصلة بعضها ببعض مع أن بينها أبعاداً شاسعة . وهناك اعتبارات لم يعد يسع المقام الاسترسال فيها . (تراها في كتابنا نشوء الكون وتطوره المعد للطبع) .

الفصل العاشر

تمدد الكون وتقلصه

رأينا في الفصل السابق ان عناصر المادة تتحول تدريجيًّا من ذرات الى فوتونات تتفانى في بحر الأثير بسبب ان الأحداث المختلفة في الطبيعة تفضي الى اطباق الكهرب على البروتون فينطلقان فوتونات في أشعة كهرطيسية في ذلك البحر الايثري كما علمت . فمادة الكون إذن تتناقص تدريجيًّا بسبب هذا التشعّع .

وقد حسب العلماء الأخيرون ان الشمس تنقص بهذه التشععات المتوالية كل ثانية ٤ ملايين طن من وزنها تقريباً أو نحو ٢٥٠ مليون طن كل دقيقة فبعد ملايين السنين تذوب الشمس (وكل جرم) ذوبان قطعة الجليد في ماء البحر . وهناك من يقول ٣٥٠ طنًّا في الدقيقة . والعلم عند الله .

ولا يخفى انه كلما نقصت مادة الشمس وخفّ وزنها ضعفت قوة جاذبيتها . لأن الجاذبية تتوقف على حاصل ضرب ذرات الجرمين المتجاذبين كما علمت في فصل قانون الجاذبية . وبالتالي تتباعد سياراتها عنها . وقد حسب تجينز ان الأرض تبتعد في فلكها عن الشمس بهذا السبب نحو يردة كل قرن من السنين . وعلى هذا القياس تتباعد السيارات عن الشمس . وتتباعد الاجرام بعضها عن بعض لهذا السبب عينه . فتنتفخ المجرة لتباعد أجرامها وكوكباتها . وعلى هذا النحو تتباعد المجرات أيضاً . فالكون كله ينتفخ رويداً ويتسع حيّزه .

ليس هذا الانتفاخ الكوني مجرد تكهن أو تخرص او تفلسف . وانما هو حقيقة واقعة مشاهدة . فقد شاهد هوبل مدير مرصد ويلسن (أعظم مرصد في العالم اليوم) في كاليفورنيا أن الاجرام السحيقة تتباعد بسرعات مختلفة لا تكاد تصدق .

فهذا الكون العجيب العظيم الذي تجمعت فيه ملايين المجرات مصاب بمصيبتين : الأولى انه يتشتت بسرعة في الفضاء الفارغ . وعلى التمادي يملأ حيّزاً أكبر، يضاعف أضعاف حيزه الحالي . والثاني انه يضمحل تدريجيًّا في امواج كهرطيسية حاملة فوتونات الى ان تمتزج فوتوناته في البحر الايثري ، وتلتبس فيه كمادة منهُ .

وجينز يقول انه بعد هذا الاضمحلال النهائي على هذا النحو تعود الذريرات الفوتونية الايثرية تتجمع في كهارب وبروتونات فذرات فجزيئات فكتل أجرام وجماعات اجرام الخ — تعود تتجمع بقوة التجاذب بينها كما فعلت اولاً على نحو ما شرحناه في الفصل السابق. فكأنَّ الكون يعيد رواية نشوئه وتطوره من جديد. والله أعلم كم أعاد هذه الرواية قبلاً وكم يعيدها بعدُ. ذلك هو الأزل. وهذا هو الأبد — السرمد الذي تقف عنده الافهام حائرة ذاهلة.

أجل ان الكون الأعظم ينشأ ويتطوَّر ويشيخ ويضمحل مرة بعد مرة الى ما لا نهاية له كما كان لا بداية له . فهو تطور دوري يطوي في كل دور ملايين ملايين الأدهار والأحقاب.

وكان اينشطين قد قدر بحسب نسبيته ان للكون الأعظم الشامل ملايين المجرَّات قدراً معيناً من المادة يشغل حيّزاً معيناً من الفضاء بشكل بيضة فارغة لا زلال فيها ولا مح . أي ان مادة الكون تشغل قشرة البيضة فقط . وضمن هذا الحيز البيضي فراغ مطلق وحوله فراغ مطلق أيضاً . وقال ان حجم الكون هذا وشكله ثابتان لا يتغيران . ومجال الحركة فيه مقتصر على هذه القشرة .

ولكن لما أعلن هوبل أرصاده عن تباعد الأجرام والمجرات قام دي ستر ودرس أرصاد هوبل وبرهن ان الكون الأعظم آخذ بالانتفاخ ، أي انه ليس ثابت الحجم كما قال اينشطين . ثم حسب دي ستر سرعة الأجسام أو الأجرام المتباعدة ومعدل الانتفاخ . ولكنه لم يقل متى ابتدأ الانتفاخ أي لم يبين الحالة التي كان عليها الكون حين ابتدأ ينتفخ .

وكان الأب ده لامتر العالم البلجيكي انه لما اطلع على نظرية اينشطين نشر رسالة في احدى المجلات الحقيرة (لأنه لم تتكرم مجلة معتبرة بنشر رسالته) فحواها ان الكون كما وصفه اينشطين ، واستنتج حجمه وشكله من نظريته النسبية لا بد انه ابتدأ صغيراً جدًّا ثم جعل يتمدد حتى صار كما هو الآن . والاَّ لما اقتضى أن يكون فارغاً في داخله . ان تفرُّغه الداخلي دليل قاطع على انه كان كتلة كثيفة متجمعة حول المركز ثم صار ينتفخ كانتفاخ فقاعة الصابون اذا نفخت فيها .

فلما ظهرت أرصاد هوبل وأبحاث دي ستر عاد العلماء الى رسالة الأب لامتر التي لم يعيروها سابقاً أقل اعتبار ، وقالوا كما قال ، ان الكون يتمدد باستمرار . فالأب لامتر عرف بالمنطق والحساب ما اكتشفه هوبل بالرصد.

الكون ابتدأ كما برهن الأب لامتر .

وهو الآن كما برهن اينشطين .

ومستقبله كما برهن دي ستر .

أما اينشطين فلما سمع بخبر أرصاد هوبل ذهب الى أميركا ونظر بنفسه الأرصاد ورصد مع هوبل فاقتنع بنظرية التمدد ونقح نظريته في شكل الكون وتمدده .

***

وهنا يرى القارىء أن الجاذبية تلعب دورها في هذا التمدد كما لعبت دورها في التجمع .

وقد علم القارىء أن الجسم أو الجرم المندفع يأخذ بالطبع في سيره خطًّا مستقيماً . ولكن قوة جاذبية المركز تلويه نحوها . أي انه لولا جاذبية المركز لبقي مندفعاً في خط مستقيم .

ولذلك إذا كانت قوة الجاذبية تضعف قرب المركز بسبب نقص مادتها فلا بدَّ أن يضعف إحناؤها لهُ . وبالتالي يبتعد خط الانحناء أي انه يميل الى خط الاستقامة ما استطاع ، كالقضيب المرن إذا لويته يظل يميل الى الاستقامة بقدر ما تخفف قوتك في إمالته . وهكذا الجرم يميل الى خط الاستقامة ما استطاع أو بقدر ما تطلق له قوة الجذب الحرية للعودة نحو خط سيره الأصلي (المستقيم) .

وقد نسبوا هذا الشرود عن المركز الى قوة النزوع الى الاستقامة على نحو ما قلنا هنا. وسموها قوة الدفع الكوني Cosmic Repulsive أي ان للجسم المندفع نزعة طبيعية الميل الى الاستقامة .

لدى هذا التطور الكوني العظيم يقف العقل البشري مدهوشاً ذاهلاً .

ولماذا هذا الذهول . أليس ان العقل نفسه هو الذي غلغل في أعماق هذا الكون وأدرك هذه الحقائق .

فما باله يدهش مما اكتشف وعرف .

أجل ، يذهل لانه يرى نفسه حقيراً لدى عظمة هذا الكون العجيب .

لا . لا تستصغر نفسك أيها العقل الأعجب والأعظم .

« أتزعم انك جرمٌ صغيرٌ . وفيك انطوى العالم الأكبر »

الخاتمة

تلك هي الجاذبيــة التي فتح الفيلسوف الأكبر اسحق نيوتن بضبط سننها بوابة حقل الطبيعة . ودعا رجال العلم منذ عصره الى اليوم لـكي يدخلوا الى ذلك الحقل الواسع الأرجاء ويطلعوا على ما فيه من كنوز عرفانية باهرة .

لاريب أن الفتح العلمي الذي فتحه نيوتن كشف عن معظم أسرار الطبيعة، وبدَّد دياجير الجهل وعفا ظلاله، وفتح البصائر المنيرة لرؤية خبايا قوات الطبيعة واعتقالها لنفع المجتمع الانساني.

منذ عهد نيوتن الى اليوم تقدّم العلم النظري والعرفان العملي عشرة أضعاف ما كان قبله .

وكان انه انقضى نحو ألفي سنة من عمر العلم الذي انتهى به عصر الجهل المطبق والعلمـاء ما زالوا يتخبطون في دياجير الخرافات والترهات ويبنون على أضاليلهم عقائد فاسدة ويعتسفون طريق الهدى في مسالـكهم العملية الى أن جاء نيوتن .

وما خبَّ الانسان خبَّـه المتسارع في الاكتشاف والاختراع وفي العلم خاصة إلاَّ بعـد اكتشاف نيوتن سنَّـة الجاذبية وانتشار نظرياته في المبادىء الطبيعية التي تبسَّـط فيها في ثلاثة مجلدات إذ أصبحت القواعد الأساسية التي يبنى عليها كل علم حديث تقريباً .

ففي عوالم الفنون الهندسية وفي الصناعات والزراعات وسلك البحور وفي الاختراعات التي لا تحصى ، النافعة والتي أسيءَ استعمالها كالأسلحة المختلفة — تجد السنن والمبادىء الطبيعية التي كشفها نيوتن ظاهرة في صلبها جميعاً ناتئة في حواشيها مالئة بطونها .

حتى في الاقتصاديات والسياسيات وسائر الاجتماعيات تجد ، إذا غلغلت فيها ، سنن نيوتن ومبادئه الطبيعية عاملة فيها.

فلا ريب ان العصر منـذ عهد نيوتن الى اليوم يعد سيد العصور الأعظم في العـلم والاختراع . فهو على رأس العصور السالفة كالهرم البـاذخ الراسخ بين هضاب الصحراء .

وذلك الفيلسوف العظيم بين الفلاسفة العظماء منذ عهد طاليس الى اليوم هو كالشمس بين السيارات والنجوم التي تختفي تحت سطوعه .

ان جاذبية نيوتن ومباحثه في النور وطيفه ومبادئه في الطبيعـة أنارت الطريق أمام أساطين العلم مثل هرتز وهولمز وفاراداي ومكسول وميكلسون واينشطين وعشرات غيرهم ممن غابوا عن الذهن الآن .

لا ريب ان العقل البشري اتسعت تصوراته وعمقت تبصراته بعد نيوتن أضعاف ما كان شأنه قبل ظهور ذلك العَـلَمَ المفرد . اذا كان في اللغة أبلغ من كلمة عبقري فهي لنيوتن وحده. والاَّ فهو العبقري الأوحد وغيره ممن نلقبهم بالعباقرة متنبّئون .

انتهى

الملحقات الرياضية

لمن يشاء الاطلاع على البراهين الرياضية للقوانين الواردة في هذا الكتاب .

الملحق الاول

ملحق نبذة ٢ من الفصل الثاني

قانون جاليليو لسرعة الاجسام الساقطة

لاحظ جاليليو ان الجسم الساقط يتسارع بسقوطه . ووجد بالاستقراء والاختبار ان سرعة سقوطه تزداد كلما اقترب الى الارض . فعلى سطح الأرض يهبط الجسم في نهاية الثانية الاولى ٣٢ قدماً . ولأن سرعته في أول الثانية صفر وفي نهايتها كلها ٣٢ فيكون متوسط سرعته $\frac{٠ + ٣٢}{٢}$ = ١٦ قدماً في الثانية الأولى .

وفي الثانية الثانية يكون ١٦ + ٣٢ = ٤٨

وفي الثانية الثالثة يكون ٤٨ + ٣٢ = ٨٠

وهلمَّ جرًّا . وإذا أردت مجموع السقوط في عدد من الثواني فاستعمل القاعدة التاليـة لقانون المسارعة ، أي تزايد السرعة هكذا :—

نرمز عن المسارعة بحرفي مس وعن مدة الثواني بحرف ث. فمعدل (أي متوسط) سرعة الجسم الساقط اذن $\frac{مس \times ث}{٢}$ في المثل الأول

فاذا ضربنا هذا المتوسط بعدد الثواني ث التي يقضيها في الهبوط كان مقدار المسافة التي يهبطها في عدد معين من الثواني مساوياً = $\frac{مس \times ث^٢}{٢}$

بهذه العبارة الرياضية يمكنك أن تحسب كم من الاقدام سقط الجسم في أثنـاء عدد من الثواني. وذلك بأن تضرب مربع عدد الثواني بالعدد ٣٢ وتقسم الحاصل على ٢ ، احفظ هذا ببالك:—

مسافة الهبوط = $\frac{مس ث^٢}{٢}$ (معادلة اولى)

جدول الامثلة

على قانون المسارعة

مربع الثواني بـ ٣٢ مقسوم ÷ ٢ = ١٦	مجموع أقدام السقوط في الثواني كل ثانية	المجموع معا سبق	معدل السرعة كل آخر ثانية	السرعة الاضافية	عدد الثواني
	١٦				الاولى
(٢)^{٢} × ١٦ =	٦٤ =	١٦ +	٤٨ = ١٦ +	٣٢	الثانية
(٣)^{٢} × ١٦ =	١٤٤ =	٦٤ +	٨٠ = ٤٨ +	٣٢	الثالثة
(٤)^{٢} × ١٦ =	٢٥٦ =	١٤٤ +	١١٢ = ٨٠ +	٣٢	الرابعة
(٥)^{٢} × ١٦ =	٤٠٠ =	٢٥٦ +	١٤٤ = ١١٢ +	٣٢	الخامسة
(٦)^{٢} × ١٦ =	٥٧٦ =	٤٠٠ +	١٧٦ = ١٤٤ +	٣٢	السادسة
(٧)^{٢} × ١٦ =	٧٨٤ =	٥٧٦ +	٢٠٨ = ١٧٦ +	٣٢	السابعة
(٨)^{٢} × ١٦ =	١٠٢٤ =	٧٨٤ +	٢٤٠ = ٢٠٨ +	٣٢	الثامنة

وهلمَّ جرًّا الى آخره

الملحق الثاني

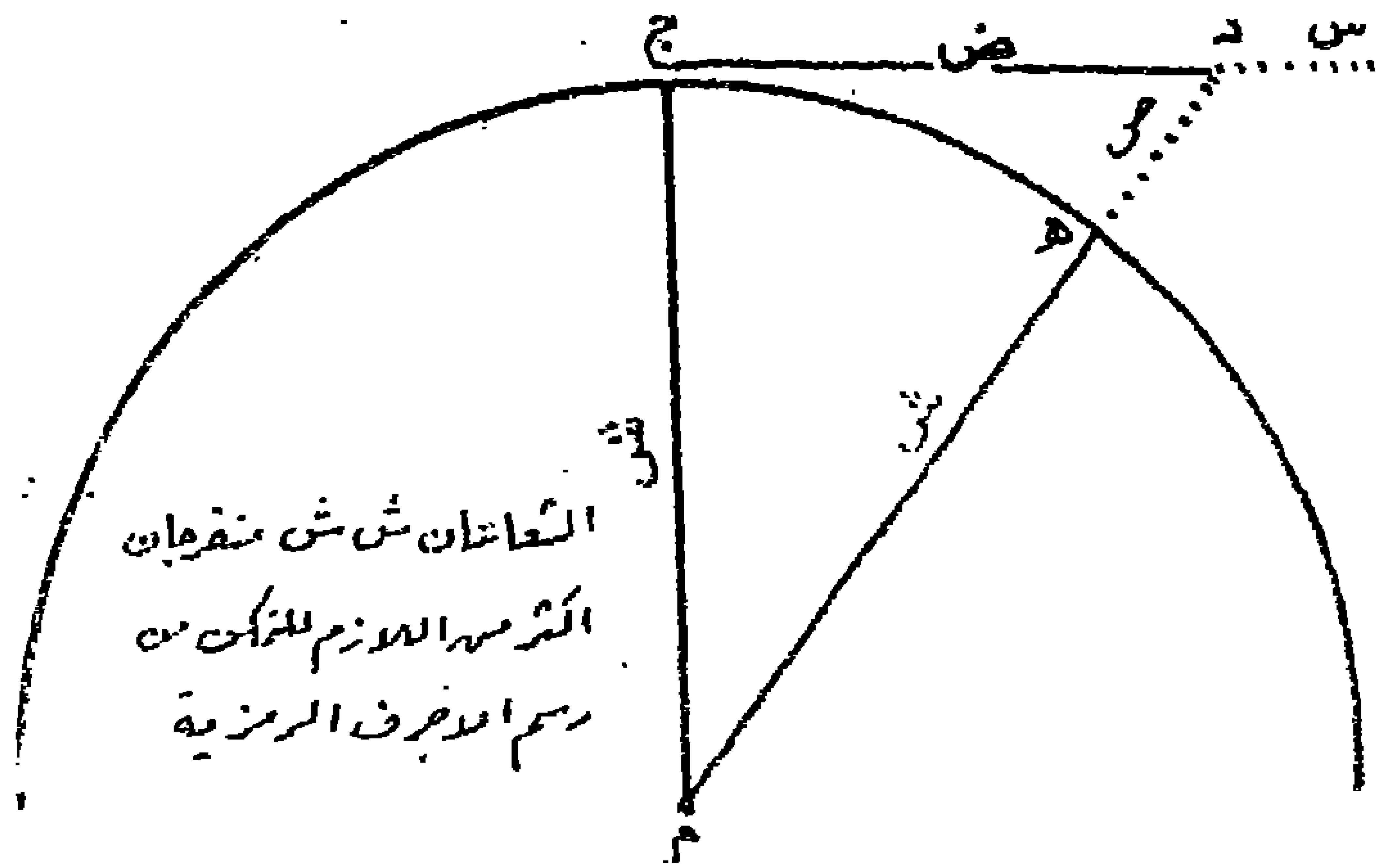
قانون المسارعة الدورانية (١)

ذلك ناموس الأجسام الساقطة . ولكن الاجرام السائرة بسرعة وبقوة تعادل قوة الجاذبية لا تسقط سقوطاً وإنما تنحني انحناءً نحو المركز فتدور حوله كالقمر حول الأرض . فاليك قانونه : —

في ما يلي اكتشاف النسبة الثابتة بين سرعة الجسم اللازم لفلك دورانه (أي مدارهِ) حول المركز ومسافة بُعده عن المركز — أي النسبة التي تساوي انحناء الجسم في دورانه عن خط اتجاه انقذافه المستقيم كما يتضح من الرسم التالي :

---

(١) ملحق نبذة ٤ من الفصل الثاني



الشكل الاول

لنفرض أن الجسم عند ج مندفع بسرعة س (قل أمتار أو أميال أو ما تشاء) فاذا لم يكن ثمت سلطة أية قوة أخرى عليه سار في اتجاه اندفاعه بخط مستقيم الى د وإلى ما لا نهاية له.

ولكن إذا كان ثمت قوة أخرى مركزية كالنقطة م مثلاً (القوة الجاذبة) انحرف عن اتجاه ج د الى اتجاه ج هـ المنحني. وبدل أن يصل في ثانية الى د يصل في الثانية الى هـ. فكأنه هبط من مستوى ج د في القوس ج هـ بعد أن ابتعد عن ج قدر س (وهو مسافة ج هـ) السرعة بالثانية أمتاراً أو أميالاً. فما هي مسافة هبوطه في الثانية؟ وبأي قيمة نعبر عنها؟.

لا وسيلة للتعبير عنها الاّ بقيمة النسبة الثابتة بين س (السرعة) و ش الشعاع نصف القطر أي مسافة بُعد ج عن المركز. فكم تساوي المسافة د هـ؟ من هذه النسبة؟ فلنرَ.

لا يخفى ان الخط ج د مماس للدائرة التي حول المركز — الدائرة التي يدور فيها. وخط المسافة من ج الى م هو الشعاع. فاذاً الخط ج د معامد للشعاع ج م والزاوية عند ج قائمة.

ارسم الوتر م د. وهو مؤلف من ش الشعاع والخط الآخر ص (المسافة بين (د هـ) وهي مسافة الهبوط. فلنا اذن مثلث قائم الزاوية. ج م د

بحسب قضية فيثاغورس مربع وتر هذا المثلث يساوي مجموع مربعي ساقيه أي (ج د)

و (ج م) فلنعبر عن ج د بحرف واحد ض وعن ج م بحرف واحد هو ش $_{2}$ الشعاع. هكذا.

$(\text{ش} + \text{ص})^{2} = \text{ض}^{2} + \text{ش}^{2}$ بالجبر

$\text{ش}^{2} + 2\,\text{ش ص} + \text{ص}^{2} = \text{ض}^{2} + \text{ش}^{2}$

احذف ش^{2} من الجانبين واستغنِ عن ص^{2} لأن قيمتها زهيدة جداً لا يعتدّ بها يبقى

$2\,\text{ش ص} = \text{ض}^{2}$ أو

$$\text{ص} = \frac{\text{ض}^{2}}{2\,\text{ش}} \qquad (\text{معادلة } 2).$$

أي أن ص مسافة هبوطه من د الى هـ تساوي مربع سرعتهِ (من ج الى د) مقسوماً على مضاعف مسافة بعده عن المركز الذي استماله عن د الى هـ.

وهو معلوم ان المسافة ض تقاس بالسرعة مضروبة بالوقت هكذا ض = س ث (معادلة ٣) بحيث أن س رمز السرعة. و ث رمز الوقت (الثانية او الثواني).

وبما ان مسافة ص هي مقدار الهبوط المعبر عنها هكذا في المعادلة الاولى.

$$\text{ص} = \frac{\text{مس ث}^{2}}{2} \qquad \text{معادلة } (4).$$

ضع في المعادلة الثانية قيمة ض التي في المعادلة الثالثة وقيمة ص التي في المعادلة ٤ يكن لك:—

$$\frac{\text{مس ث}^{2}}{2} = \frac{\text{س}^{2}\,\text{ث}^{2}}{2\,\text{ش}} \qquad \text{أو}$$

$$\text{مسافة الهبوط مس} = \frac{\text{س}^{2}}{\text{ش}} \qquad (\text{المعادلة } 5)$$

الجاذبية علة المسارعة ولهذا اعتبرنا ج (الجاذبية) = مس

أي أن المسارعة التي هي نتيجة فعل قوتين إحداهما مركزية تساوي مربع السرعة الناتجة عنها مقسومة على مسافة البعد عن المركز. وبعبارة أخرى ان النسبة التي بين السرعة ومسافة البعد عن المركز (المساوية لمسافة الهبوط) هي مربع السرعة مقسومة على مسافة البعد.

هذه النسبة ثابتة Constant وبموجبها كلما بعد الجسم الدائر حول المركز صارت سرعته أقل. وكلما كان أقرب كانت سرعته أعظم بحيث تكون المسارعة دائماً مساوية $\frac{\text{س}^{2}}{\text{ش}}$

فاذا اختلت هذه النسبة بحيث تفوق سرعة الجسم على مسافة بُعده شرد عن المركز. واذا قلت سرعته بالنسبة الى مسافة بعده هبط الى المركز. وما دامت هذه النسبة محفوظة فهو دائرٌ في مداره حول المركز الى الأبد.

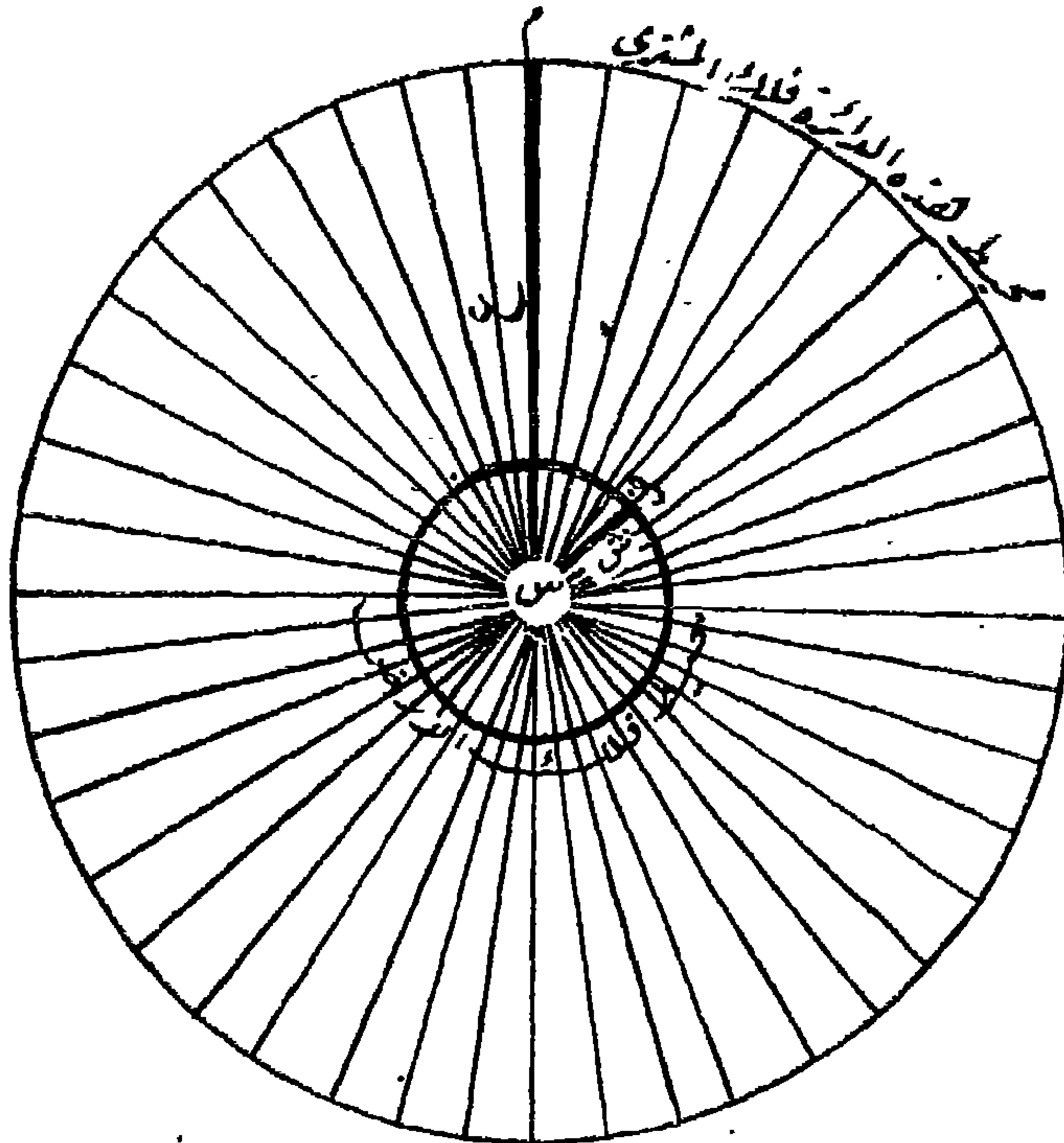
الملحق الثالث

قانون الجاذبية

(الملحق الثالث من الفصل الثاني)

قسم أول

اذا اعتبرنا الجو الجاذبي خطوط قوة منتشرة من المركز (مركز الشمس مثلاً) الى جميع الجهات بالتساوي فبالطبع يكون هذا الجو الجاذبي كثيفاً قرب المركز ولطيفاً كلما بعد عن المركز (كما ترى في الشكل الثاني) أي كلما كان أقرب الى المركز كان أقوى، وكلما كان أبعد كان أضعف ، فالسيار الذي يدور حول الشمس في فلك مقرَّر انما هو سابح في سطح كرة وهمية من



الخطوط الصادرة من مركز الدائرة (الشمس) هي خطوط القوة (الجاذبية)

الشكل الثاني

هذا الجو على بُعد واحد من المركز تقريباً . وهو تحت سلطة من قوة الجذب في هذا الجو مناسبة لبعده عن المركز، (أي نصف قطر تلك الكرة الوهمية التي نحن بصددها) فأينما كان السيّار في سطح تلك الكرة الوهمية كان تحت فعل قدر واحد من قوة ذلك الجو الجاذبي .

مثال ذلك ض (في الشكل الثاني) الأرض تسبح حول س الشمس في خط غير مموَّج على سطح كروي (والشكل قطاع الكرة) يبعد عن مركز الشمس بقدر الشعاع ش أي ض الى س ، وقوة الجاذبية منتشرة في ذلك السطح الكروي تساوي القوة موزعة على مساحة السطح الكروي (لا مساحة الدائرة) هكذا $\frac{ق}{٤ ب ش^٢}$

(حرف ب هنا هو (Π الحرف اليوناني باي) هو عبارة عن قسمة محيط أي دائرة على قطرها (الذي هو ٢ ش . أي مضاعف شعاعها) كما اصطلح عليه الرياضيون وهو يساوي $\frac{٢٢}{٧}$ تقريباً . وأما (٤ ب ش^٢) فهي مساحة سطح أية كرة كما هو معلوم عند الرياضيين) . وحرف (ق) عبارة عن قوة الجاذبية.

وكذلك م المشتري يسبح كالأرض حول الشمس في خط غير مموَّج على سطح كروي يبعد عن مركز الشمس بقدر الشعاع ع . (اي الخط م س)

فلنرَ الآن نسبة جذب الشمس للمشتري الى جذبها للارض على اعتبار ان المشتري يبعد عن الشمس خمس مرات كبُعد الارض عنها تقريباً (وبالتحقيق يبعد ٢ ، ٥ مرات)

$$ج (ض \times س) = \frac{ق}{٤ ب ش^٢} \quad \text{مساحة سطح الأرض} \quad (١)$$

$$ج (م \times س) = \frac{ق}{٤ ب ع^٢} \quad \text{مساحة سطح المشتري} \quad (٢)$$

بحيث ان: ج رمز الجاذبية ــ س كتلة الشمس ــ ض كتلة الارض ــ م كتلة المشتري ــ ق قوة الجذب ــ ش مسافة بعد الأرض عن الشمس (أي شعاع فلك الأرض) ــ ع مسافة بعد المشتري عن الشمس (أي شعاع فلك المشتري)

ناسب بين المعادلتين (١) و (٢) أي اقسم الواحدة على الأخرى

$$\frac{ج (ض \times س)}{ج (م \times س)} = \frac{\frac{ق}{٤ ب ش^٢}}{\frac{ق}{٤ ب ع^٢}} \quad \text{أبسط}$$

$$\frac{(ج) ض}{(ج) م} = \frac{\frac{١}{ش^٢}}{\frac{١}{ع^٢}} = \frac{ع^٢}{ش^٢} \quad (٣)$$

أي نسبة جذب الارض الى جذب المشتري كنسبة مربع شعاع فلك المشتري الى مربع شعاع فلك الارض هكذا : ض : م : : ع^{2} : ش^{2} (٣)

فاذا كان شعاع فلك المشتري (أي مسافة بعده عن الشمس) ٥ مرات شعاع فلك الارض (أي مسافة بعد الأرض عن الشمس) فبحسب المعادلة (٣) لنا .

$$\frac{\text{جاذبية الشمس للارض}}{\text{جاذبية الشمس للمشتري}} = \frac{٥^{2}}{١^{2}} = \frac{٢٥}{١} \quad \text{لأن ع = ٥ ش}$$

أي ان جاذبية الشمس للارض ٢٥ مرة جاذبية الشمس للمشتري :

قسم ثان

بقي علينا ان نبرهن نص نيوتن أي قوة الجاذبية $= \frac{\text{شمس} \times \text{ارض}}{\text{مربع المسافة بينهما}}$

من قوانين الطبيعيات ان القوة = تساوي كتلة الجسم مضروبة في مسافة الحركة أي قوة = كتلة × حركة . ومنها الحركة $= \frac{\text{القوة}}{\text{الكتلة}}$ أو بالرموز ش $= \frac{\text{ق}}{\text{ك}}$ باعتبار أن ش رمز مسافة الحركة وق رمز القوة وك رمز الكتلة

مثاله : قوة حصان يرفع جسماً وزنه ٥٠ رطلاً متراً واحداً في ثانية، أو جسماً وزنه ١٠٠ رطل خمسة أمتار بنفس الوقت . هكذا :

قوة حصان = ٥٠٠ × ١ = ١٠٠ × ٥ = ٥٠ × ١٠ أو ٥ $= \frac{\text{قوة حصان}}{١٠٠}$

بناءً على هذا القانون

مسافة حركة الجاذبية أي مسيرها من المركز الى المحيط وهو الشعاع ش) ش $= \frac{\text{قج}}{\text{ض}}$ أي $\frac{\text{قوة جذب الشمس الارض}}{\text{كتلة الارض (وزنها)}}$

ومثله شش $= \frac{\text{قج}}{\text{مي}}$ أي $\frac{\text{قوة جذب الشمس للمشتري}}{\text{كتلة المشتري (وزنه)}}$

ض تمثل كتلة الأرض — مي تمثل كتلة المشتري — ش تمثل بعد الأرض عن الشمس — شش تمثل بُعد المشتري عن الشمس — قج تمثل قوة الجاذبية

وبناء على هذا تكون معادلة الجاذبية السابقة (٣) هكذا : —

$$\frac{\text{قج}}{\text{ض}} : \frac{\text{قج}}{\text{مي}} :: \text{شش}^{٢} : \text{ش}^{٢} \ (\text{قوة الجاذبية})$$

$$\text{ومنها} \quad \frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}} = \frac{\text{شش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{مي}} \qquad (٤)$$

***

ولكننا في هذه المعادلة لم نحسب حساب المسافة بين الأرض والمشتري لأن التجاذب ليس بينهما بل حسبناها بين كل منهما والشمس باعتبار أن الشمس المركز الذي يجذب كلاً منهما وكل منهما يجذبها ..

وكذلك غضضنا النظر عن التجاذب الذي بينهما . واقتصرنا على نسبة كل منهما اليها . فاذا رمنا أن نحسب حساب هذا التجاذب كانت شم (كتلة الشمس) مركزاً بين جانبي هذه المعادلة هكذا :

$$\frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}} = \text{شم} = \frac{\text{شش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{مي}}$$

أي أن كتلة الشمس تقوم مقام كلٍ منهما هكذا :

$\text{شم} = \frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}}$ ومنها $\text{قج} = \frac{\text{شم} \times \text{ض}}{\text{ش}^{٢}}$ أي $= \frac{\text{الشمس} \times \text{الارض}}{\text{مربع البعد بينهما}}$ وهي معادلة قانون نيوتن كما تقدم نصها في أول الفصل الثالث .

بناءً عليه اذا ضرب كل من طرفي المعادلة (٤) بقيمة $\frac{١}{\text{شم}}$ (او اذا شئت $\frac{\text{قج}}{\text{شم}}$) هكذا.

$$\frac{\text{ش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{ض}^{٣}} \times \frac{١}{\text{شم}} = \frac{\text{شش}^{٢}\,\text{قج}}{\text{مي}} \times \frac{١}{\text{شم}}$$

تصبح كما يجب أن تكون هكذا

$$\frac{\text{شم} \times \text{ض}}{\text{ش}^{٢}} = \frac{\text{شم} \times \text{مي}}{\text{شش}^{٢}} = \text{قج}$$

وهي معادلة نيوتن بعينها ،

يعني ان قوة الجاذبية تساوي حاصل ضرب كتلتي جرمين مقسوماً على مربع البعد بينهما أينما كانا وعلى أي بعد كانا (بقطع النظر عن تداخل جرم ثالث على مقربة من احدهما أو من كليهما) وهذا هو معنى تعميم قانون الجاذبية على جميع الأجرام .

قسم ٣

امتحان القانون

لم يذع نيوتن القانون إلاَّ بعد أن امتحنه بتطبيقه وقانون المسارعة المشروح في الملحق الثاني على التجاذب بين القمر والارض .

المعلوم ان نصف قطر الأرض ٣٩٥٦ ميلاً وقد علمنا من الملحق الأول ان الجسم يسقط على سطح الأرض بمعدل متوسط ١٦ قدماً بالثانية كل ثانية . فعلينا أن نعلم معدل هبوط القمر نحو مركز الأرض وهو يبعد عنه ٢٣٨ ٨٥٧ ميلاً . والمعلوم ان سرعة القمر في الثانية ٣٣٥٠ قدماً أو $\frac{\text{٣٣٥٠}}{\text{٥٢٨٠}}$ من الميل (الميل = ٥٢٨٠ قدماً) .

وعلمنا من قانون المسارعة أن مس $= \frac{\text{س}^{\text{٢}}}{\text{ش}}$ والمعدل الأوسط لِ مس في الثانية هو $\frac{\text{١}}{\text{٢}} \times \frac{\text{س}^{\text{٢}}}{\text{ش}}$ ابدل الارقام بالحروف .

معدل مس $= \frac{\text{١}}{\text{٢}} \times \frac{(\text{٣٣٥٠})^{\text{٢}}\ \text{السرعة}}{\text{٢٣٨،٨٥٧} \times \text{٥٢٨٠}} = \frac{\text{٠،٠٠٨٩}}{\text{٢}} =$ ٠،٠٠٤٤٥ من القدم = (٠،٠٥٣٤) قيراط وهو متوسط هبوط القمر نحو الأرض بالثانية ، هذا حسب قانون المسارعة

فلنرَ الآن هل الحساب حسب قانون الجاذبية يطابق الحساب حسب قانون المسارعة هذا ؟

اذا قسمنا متوسط هبوط أي جسم على سطح الارض على معدل هبوط القمر نحو الأرض هكذا $\frac{\text{١٦ قدماً}}{\text{٠،٠٠٤٤٥ قدم}} =$ ٣٦٣٢ يعني كان لنا مقدار هبوط الاجسام على الأرض ٣٦٣٢ مرة كمقدار هبوط القمر

وبعبارة أخرى كان مقدار جذب الأرض للأجسام التي على سطحها ٣٦٣٢ مرة كمقدار جذبها للقمر . فاذا كان قانون الجاذبية صحيحاً وجب أن يكون مربع مسافة بُعد القمر عن مركز الأرض اذا قسناه بنصف قطر الأرض مساوياً لهذا القدر « ٣٦٣٢ » . فكم هو بعد القمر عن الأرض بمقياس نصف قطرها ؟ أي كم في هذه المسافة من أنصاف قطر الأرض

اقسم المسافة (بين القمر ومركز الأرض) على نصف قطر الأرض هكذا : —

$$\frac{\text{٢٣٨٨٥٧ مسافة بعد القمر عن مركز الارض}}{\text{٣٩٥٦ نصف قطر الارض}} = ٦٠،٢٧$$

أي أن مسافة بعد القمر عن مركز الأرض تساوي نحو ٦٠ مرة وكسور كنصف قطر الأرض

ربع هذا العدد $(٦٠،٢٧)^{٢} = ٣٦٣٢$

وهذا العدد هو نفس العدد الذي مرَّ بنا سابقاً . أي هو عدد المرات لمقدار جذب الأرض للقمر اذا قيس بجذبها للاجسام على سطحها كما رأيت آنفاً .

إذن فناموس الجاذبية صحيح لانه مطابق لناموس المسارعة الذي عرف بالاختبار . وهو نتيجة الجاذبية .

لما خطر لنيوتن ناموس الجاذبية رام أن يمتحنه بما لهُ من المعلومات عن دوران القمر حول الأرض وعن ناموس المسارعة هذا الذي نحن بصدده فعمل العملية السابقة . وكان معروفاً حينئذٍ بعملية زاوية اختلاف النظر Parallax ان مسافة بُعد القمر عن مركز الأرض يساوي ٦٠ مرة نصف قطر الأرض .

وكان معلوماً حينئذٍ إن الدرجة من محيط الأرض ٦٠ ميلاً . فعلى هذا الحساب يكون نصف قطر الأرض ٣٤٣٦ ميلاً وهو خلاف الحقيقة . والحقيقة هي انه ٣٩٥٦ . فلمَّا عمل نيوتن حسابه لم تأتِ النتيجة مطابقة لقانون المسارعة القمرية بل جاءت ٠،٠٤٤ من القيراط بدل ٠،٠٥٣٤ كما أبنَّا آنفاً . فلم يأخذه الغرور لكي يتسامح بهذا الفرق واعتبر ان نظريته خطأ . فعدل عنها من غير أن يفوه بكلمة عنها .

بعد ست سنين بلغ اليه أن بيكارد الفرنساوي قاس قوساً من الطول في فرنسا فوجد أن الدرجة تساوي ٦٩½ ميل (لا ٦٠ كما كان يظن) وان نصف القطر اذن ٣٩٥٦ (لا ٣٤٣٦ كما كان يُظن قبلاً) فأسرع نيوتن الى اعادة عمليته على اعتبار تصحيح نصف القطر .

ويقال أنه لشدة انفعاله لم يتمالك أن يعمل العملية الحسابية بنفسه — فكلف صديقاً له أن يسرع بعملها . فجاءت النتيجة نجاحاً باهراً . وثمَّ أذاع نظريته

الملحق الرابع

قانون كبلر الثالث

ملحق لـ (٢) من الفصل الثاني

قانون كبلر : نسبة مربع المدة التي يقضيها السيار الواحدمن حول الشمس الى مكعب مسافة بعده عن الشمس كنسبة مربع مدة أي سيار آخر الى مكعب مسافة بعده . هكذا : —

ت٢ : تت٢ : ش٣ : شش٣

باعتبار ان ت مدة دوران الجرم الواحد وتت مدة دوران الجرم الآخر . وش بُعد الأول وشش بُعد الثاني عن الشمس

مثال ذلك نصف قطر فلك الأرض ش (مقياس فلكي واحد) ، ونصف قطر فلك المشتري ٥،٢ خمس مقاييس فلكية وعُشْرين .

(اصطلح الفلكيون على اعتبار مسافة بُعْد الأرض عن الشمس مقياساً فلكيًّا واحداً أي متراً أو ذراعاً فلكيًّا . وسائر أبعاد السيارات تحسب بهذا المقياس (انظر ايضاً ٤ من الفصل الرابع)

فبهذا المقياس يبعد المشتري عن الشمس خمس مرات وعُشرين كبُعْد الأرض

والمشتري يتم دورته «تت» في ١١،٨٦ سنة أرضية والارض تتم دورتها في سنة واحدة.
فبناءً على معادلة كبلر ابدل الارقام بالرموز هكذا : —

١٢ : (١١،٨٦)٢ : : ١٣ : (٥،٢)٣ بالبسط

١ / ١٤٠٤٦ = ١ / ١٤٠٤٤ متساويان تقريباً

على هذا النحو يمكن القارىء أن يمتحن المعادلة في جميع السيارات فلا يجد فيها الاَّ خللاً زهيداً بسبب ان بعض الأرقام المحصاة تقريبية .

وبواسطة هذه المعادلة تستطيع ان تستخرج أي ضلع واحد مجهول فيها اذا كنت تعلم الأضلاع الثلاثة الأخرى مثال ذلك :

نبتون يبعد عن الشمس ٣٠ مرة كبعد الأرض تقريباً فكم مدة دورته ؟

$ت^٢ : تت^٢ :: ش^٣ : شش^٣$

$ا^٢ : ك^٢ = ١^٣ : (٣٠)^٣$

سنة

$ك = \sqrt{٢٧٠٠٠} = ١٦٤$ سنة تقريباً مدة دورة نبتون

وافرض أننا نعرف مدة دورة المريخ ١،٨٨ سنة . فكم بعده عن الشمس

$ا^٢ : (١،٨٨)^٢ = ا^٣ : ك^٣$

$ك = \sqrt[٣]{(١،٨٨)^٢} = ١،٥٢$ بُعده بالمقياس الفلكي

استخراج قانون الجاذبية

من معادلة كبلر

معلوم أن محيط الدائرة (الفلك) يساوي ٢ ش ب باعتبار أن ب = محيط الدائرة مقسوماً على القطر أي $\frac{٢٢}{٧}$ كما تقدم القول سابقاً

ومعلوم ايضاً ان الوقت ت يساوي المسافة مقسومة على السرعة فاذاً .

$ت = \frac{٢ ش ب}{س}$ للسيار الواحد

$تت = \frac{٢ شش ب}{سس}$ للسيار الآخر

ت رمز للوقت الواحد . وتت للوقت الآخر .

و ش بُعد الواحد وشش بُعد الآخر .

س سرعة الواحد وسس سرعة الآخر .

فاذا وضعنا القيمتين الآنفتين بدل ت وتت في معادلة كبلر كان لنا .

$$\frac{٤ ش^٢ ب^٢}{س^٢} : \frac{٤ شش^٢ ب^٢}{سس^٢} = ش^٣ : شش^٣$$

بالبسط لنا

$$\frac{١}{س^٢} : \frac{١}{سس^٢} = ش : شش$$

أو $\frac{س^٢}{سس^٢} = \frac{شش}{ش}$ (معادلة اولى)

وبحسب قانون المسارعة الدوراني الذي شرحناه في الملحق الثاني : —

المسارعة (أي قوة الجاذبية في فلك الارض) $ج = \frac{س^٢}{ش}$ او ج ش = $س^٢$

وقوة الجاذبية في فلك المشتري $قج = \frac{سس^٢}{شش}$ او قج شش = $سس^٢$

ناسب بين هاتين المعادلتين أي اقسم الواحدة على الأخرى .

$$\frac{ج\ ش}{قج\ شش} = \frac{س^٢}{سس^٢}$$

عبارة $\frac{س^٢}{سس^٢}$ الواردة هنا وردت أيضاً في المعادلة السابقة الأولى فعادل بينهما هكذا :

$$\frac{ج\ ش}{قج\ شش} = \frac{شش}{ش}$$

وبالجبر $\frac{ج}{قج} = \frac{شش^٢}{ش^٢}$

وهذه هي معادلة قانون الجاذبية بعينها

يمكن استخراج معادلة كبلر أيضاً من معادلة قانون الجاذبية . ولا محل هنا لهذا .

الملحق الخامس

التناسب بين السرعة والبعد

في عملية استخراج معادلة قانون الجاذبية من معادلة كبلر ظهرت أمامنا المعادلة الأولى هذه

$$\frac{س^٢}{سس^٢} = \frac{شش}{ش} \qquad (٢)$$

وفحواها أن نسبة مربع سرعة السيار الواحد الى مربع سرعة السيار الآخر كنسبة بعد الثاني الى بعد الأول

أو $س^٢ \times ش = سس^٢ \times شش$ (٣)

أي حاصل ضرب مربع سرعة الواحد بمسافة بعده كحاصل ضرب مربع سرعة الآخر بمسافة بعده .

مثال ذلك :— الأرض بعدها مقياس واحد وسرعتها ٥ر١٨

$(١٨،٥)^٢ \times ١ = ٣٤٢$

وزحل بعده ٩،٥٣٨٨ مقاييس وسرعته ٦ أميال

$٦^٢ \times ٩،٥٣٨٨ = ٣٤٢$ عدد ثابت بناءً على المعادلة الثانية أو المعادلة الثالثة لا فرق

$$\frac{س^٢}{مس^٢} = \frac{شش}{ش}$$

تستطيع أن تستخرج أي ضلع مجهول : افرض انك تجهل بعد المريخ وأنت تعرف سرعته ١٥ ميلاً بالثانية وتعرف سرعة الأرض ١٨،٥ ميلاً ، فلك

$$\frac{(١٨ ر ٥)^٢}{(١٥)^٢} = \frac{ك}{١} = ١،٥٢ \text{ مقياس فلكي}$$

الملحق السادس

ملحق لآخر (٤ً) من الفصل الثاني

اذا قذفت جسماً عن سطح الأرض قذفاً أفقيًّا لكي يستمر دائراً حول الأرض على مقربة من سطحها كأنه قمر آخر لها قريب منها . فكم يجب ان تكون سرعته لكيلا يقع عليها ولا يشرد عنها

علمنا أن مسارعة أي جسم على الأرض ١٦ قدماً بالثانية كل ثانية . بحسب معادلة قانون المسارعة في الملحق الثاني أي $مس = \frac{س^٢}{ش}$ بحيث ان س السرعة، ش البعد عن المركز، لنا

$$(مس) = ١٦ \text{ قدماً} = \frac{١}{٢} \times \frac{س^٢}{٣٩٥٦ \text{ نصف قطر الارض بالاميال}}$$

$س^٢ = ١٦ \times ٢٠٩٥٠٠٠٠$ بالأقدام

$س = ٢٥٨٨٠$ قدماً

$س = ٤،٩$ أميال

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الاستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي واولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين
Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا
Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

عن سنة
غرش

١٢٠ في القطر المصري والسودان

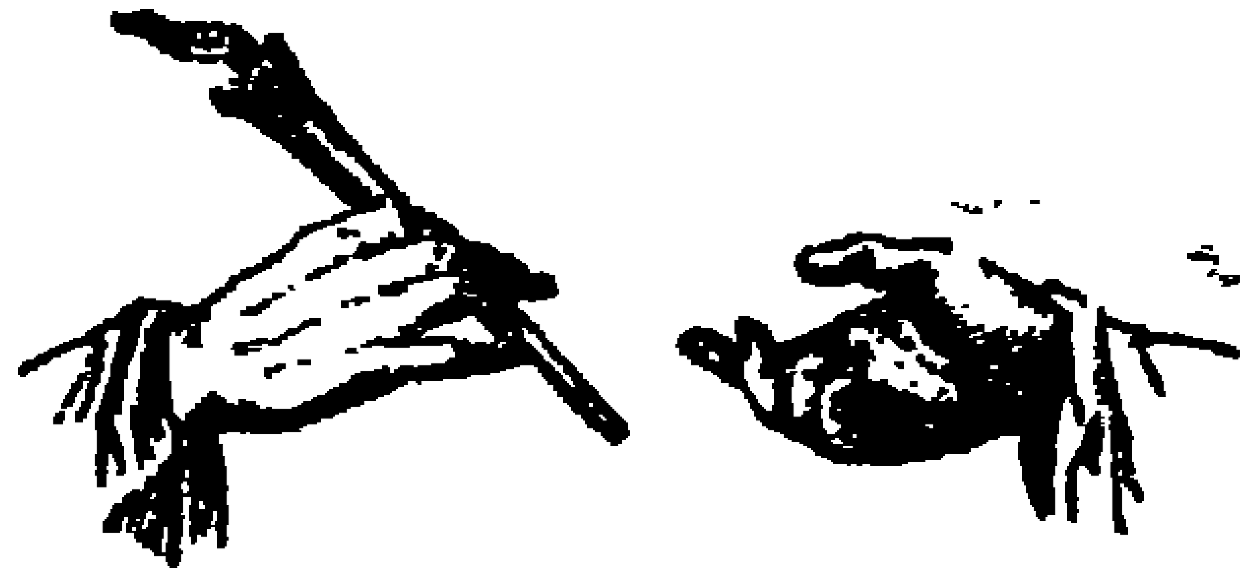
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق « بريد عادة »

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم }



المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع بعد المئة

١ اغسطس ١٩٤٦ ٤ رمضان ١٣٦٥

ما أورَدَ النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحتف إلاّ الأمل ، كلما قوَّمتها مناقف الحدود ، فتح لها أركان الرُّخص . كلما عقدت صومَ العزيمة ، أهداها طرف الغرور في أطباق « حتى وإذا ولكن وربما » فأفْرط القلب في تقليبها حتى أفطر .

لسان الدين الخطيب

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصريًّا وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصريًّا وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانكليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع بعد المائة

١ أغسطس سنة ١٩٤٦ — ٤ رمضان سنة ١٣٦٥

المرأة

في ظل الديموقراطية

— ١ —

المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة في بناء المدنية الحديثة. ولم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثراً منها في العصور المتأخرة. فالقبائل البدائية، وبخاصة تلك التي اتخذت عادات البدو في الارتحال من مكان الى مكان، والجماعات التي عاشت بالصيد، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم.

شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل، وأخذت بضلع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة، وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الانسان في بقاع من الأرض، لولا فضلها في العمل، وتدبيرها شئون الأسرة، لتعذر على الرجل وحده أن يدبّ فيها أو يكشف عنها. وكانت للرجل ولا شك سلاحاً من أمضى أسلحته، ودرعاً من أقوى دروعه، وحافزاً من أوّلى حوافزه، وكفاها أن تكون أول من أنشأ فلاحة الأرض، وأول من اكتشف كيف تنبت الحبة فتثمر في أزمان دورية. فكان هذا بداية الحضارة الزراعية في العالم القديم، وأساسها الاول في العالم الحديث. ولا ريبة في أن

اكتشاف النار ، ووضع أصول الزراعة ، سيان لولاهما لما نشأت المدنيات التي استقرت أول ما استقرت ، على شواطىء الأنهار العظمى .

قال ولز يصف حال الجماعات الاولى :

«على أن أكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الرجل البدائي لم يكن يفهم للشهامة ولا للنخوة او النجدة معنى . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الاّ أسلحتهم ، وهم على استعداد لدفع الطوارىء ، ولا شك في أن العناية بالأطفال ايضاً كانت من نصيب النساء » .

ثم قال : « كانت هذه الحال سبباً في أن يذهب البعض الى القول بأن النساء كنّ أول من بدأ في فلح الأرض . وهذا المذهب لا تنقصه المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الأكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لأن الرجال كانوا يخرجون دأئماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد أن يكون النساء هنّ اللائي لاحظنَ ان الحبوب تنمو في الأمكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الأرض قرباناً لآلـه من الآلهة عسى أن يعوض عليهم ما بذروا أضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في أن أول طور من الأطوار التي تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذرة الغير . فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرعاة » يرجح أن يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الأول » .

ولقد تابعت المـرأة خطى التطور الذي لازم الرجل في جهـاده الشاق نحو الكمال والمدنية . فاذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع ، والكشف عن أسرار المجهولات فقد ضحت المرأة بجهدٍ نفسي ، وأسرفت في الانفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها ، ما قد يتضاءل أمامه ما أنفق الرجل من جهد العمل والانتاج . واذا كان التاريخ على ما يقول « هيني » ليس سوى الأطهار الخلقة التي خلقها الروح الانساني على مرّ العصور ، فان في ثنايا تلك الأطهار من روح المرأة قدراً يساوي ما فيهـا من روح الرجل ، إن لم يكن أكثر ، اذا لم نخشَ المبالغة .

ولقد عانت المرأة من عنف الرجل طوال أحقاب لا يحصيها العدّ ، ما لو استطعنا أن نقدره ، لفاق جهدها في ذلك وحده ، كل ما نقدر للرجل من جهد العمل على إقامة دعائم المدنية والحضارة . فلو لم تخصّها الطبيعة بتلك الخواص النفسية الفذة ، وذلك الادراك العميق لمختلف نزعات الرجل ، وتلك القدرة العجيبة على اختيار مواقف الكرّ حيث يجدي ، والفرّ حيث يفيد ، والإقدام حيث يكون الإقدام نصراً ، والدفاع حيث يكون الإقدام هزيمة ، مدفوعة الى ذلك بغريزة فيها تدفعها الى حفظ ذلك النوع الذي يطلق عليه الاحيائيون اسم « الانسان العاقل » (١) اصطلاحاً ، لظل ذلك الكائن البدائي في جحوره المظلمة ، وكهوفه المرطوبة ، وغاباته الموحشة ، حيواناً لا يفرقه عن بقية الحيوان غير انتصاب القامة .

ذلك بأن الطبيعة قد وجهت غريزة الرجل الى العمل للحاضر وحده ، ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل . تحمل وتلد وترضع وتربي وتعلم ، وتحارب نزوات الرجل بالضعف إذا صلح ، وبالقوة إذا حزب الأمر ، موجهة كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئين : الأسرة والولد . الأسرة للحاضر ، والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنماً ولا ربحاً . ومن ثمّ كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية .

* * *

لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعي في العصر المصري القديم شيئاً يتيح لنا البحث في شئونها بحيث نحدد مكانتها في ذلك المجتمع تحديداً يرضي التاريخ الصحيح . ولكن يكفي أن نعرف انها بلغت من المكانة في ذلك المجتمع ما لم نرَ له مثيلاً في الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد بلغت في مصر القديمة رتبة الملك ، وكفى بذلك دليلاً على انها بلغت في مصر ، وفي فجر التاريخ البشري ، منزلة السلطة العليا في دولة استبدادية ، لا أثر للديموقراطية فيها . ولم تبلغ في الحضارة اليونانية من الأثر العملي ما بلغت في الحضارة الرومانية . ومن أعجب حقائق التاريخ ، أن تتبوأ المرأة أعلا مدارج المجتمع في حكومة استبدادية كحكومة مصر القديمة ، وتتوارى من أفق المجتمع كلية في بلاد اليونان ، التي ورثنا عنها النظم

(١) Homo sapiens

الديموقراطية الحديثة . ولا شك في انهـا كانت ذات أثر بالغ في حياة الرومان ، حتى لقد وجهت سياسة الدولة في عصر أوغسطوس ، أول قياصرة الرومان ، زمناً خصّ بأنه شهد نشأة الامبراطوريات العظمى في العالم .

وهكذا كان للمرأة أثر بيّن في تاريخ الانسان في عصور همجيته وفي عصور تمدينه ، وسوف يكون لها في المستقبل أثراً أعظم ، وتاريخاً أروع وأخلد .

* * *

لما سقطت الدولة الرومانية، وحطّمها الهمج الذين هبطوا أوربا من لجاج آسيا ، وورثت أوربا عنهم نظام القطائع ، انكفأت المرأة بغريزتها راجعة الى تلك الحدود التي لزمتها خلال عصور الهمجية الأولى ، ونزلت عن تلك المكانة السامية التي تربعت على عرشهـا في بعض المدنيات القديمة . ولقد ظلت المرأة على هذه الحال حتى كانت العصور الحديثة ، فأخذت في أوربا شيئاً من مكانتهـا التي بلغتهـا في مصر القديمة ، إذ تربعت على عرش الملك ، ورنّ صوتها الغرد في لجاج التاريخ مرة أخرى .

عندما أدركت أوربا الثورة الصناعية ، ولقّنتها مبادىء الحرية الديموقراطية ، وماهت المرأة الرجل في التعليم ، تطلّعت الى حقوقهـا السياسية ، وأخذت تعمل جاهدة في سبيل تحقيقها لتكمل بذلك ذاتيتها . فلئن كانت المرأة قد حققت ذاتها وأثبتت وجودها في ميادين كثيرة كالأمومة والزوجية والأسرة والجهاد والحرب والمُلك ، فإنها ولا شك تجنح اليوم إلى ان تكمل ذاتيتها بأن يكون لها في ميدان السياسة والاجتماع والعمل ، تلك الحقوق التي حرمتها خلال العصور الغابرة . تلك الحقوق التي لا ينكرها الشرع ولا تأباها الطبيعة .

* * *

ان الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية الأوربية . فبعد ان سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذي تربعت من فوقه في العصر الروماني ، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى ، فقبعت راضية ، حتى أدركتها العصور الحديثة ، فهبت من غفوتها تطالب بحقوقها السياسية ، تلك الحقوق التي بلغت في روسيا السوفيتية ، ولأول مرة في تاريخ الدنيا، مبلغ الحرية التي ساوت فيها الرجل مساواة تامة . أما بداية جهادها في سبيل ذلك ، فيرجع الى ما

قبيل الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، إذ بدأت تحتل مشكلاتها العالمية مكاناً في آداب الأمم الغربية .

غير ان جهاد المرأة في ذلك العصر كان جهاداً سلبيًّا ، دليلنا عليه أن كثيراً من نابهي الكتّاب والفلاسفة قد خصوها فيما كتبوا ببحوث وإشارات عبرت عن أن في جوّ المجتمع مشكلة هي مشكلة المرأة ، ومسألة معقدة هي مسألة الشطر الآخر من الجمعية البشرية .

ومن أعجب العجب ان « جان جاك روسو » ، على كثرة ما أشاد في كتابيه « العقد الاجتماعي » و «أميل» الذي كتبه في أصول التربية ، واستمساكه فيهما بنظرية أن الحرية حق طبيعي للانسان ، لم يذكر أن للمرأة حقًّا يقال له « الحق السياسي » . وجاراه في ذلك بقية الكتّاب الذين نحوا نحوه واتبعوا مذهبه . ذلك في حين أن مذهب هؤلاء جميعاً هو أن الحق السياسي حق طبيعي لا يسقط عن الانسان ولا يسلب منه حتى ولو تعاقد هو على حرمان نفسه منه ، بل قالوا ان التصويت حقٌّ عام لكل أفراد الجمعية ، وانه جزء متمم للحرية فلا يسلب ولا يتنازل عنه أو يحرم منه فردٌ ما من الأفراد ، ذلك بأن الحرية شيء طبيعي ، وكذلك تكون متعلقاتها وتوابعها .

أليس عجيباً أن أولئك الذين يقولون بتلك الحرية الواسعة ويقدّسونها ، وينزلونها هذه المنزلة ، التي لا شك في انها صحيحة من كل وجه ، هم بأنفسهم الذين يمضون في بحوثهم قانعين بأن يظل نصف الراشدين من مجموع الأمة عطلاً من هذه الحقوق ، وان يحرمن النصف الآخر من التمتع بها ، فيطغى على حقهنّ فيها ، فلا يجعل لهنّ نصيباً من الاشراف على التشريعات التي تتعلق بأموالهنّ وأحوالهنّ الشخصية ، بل هي قد تنصب على كل أقدارهنّ في هذه الحياة الانسانية ؟

لقد كتب «روسو» عن المرأة وفصل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر الى ذلك الدرك الذي انحدر فيه « روسو » اذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . غير انه عقب على ذلك بقوله :

« ينبغي أن يكون تعليمهنّ متصلاً بحاجات الرجل، فتكون له تسلية وفائدة ، وموضعاً لحبه واحترامه ، ولتربي أولاده صغاراً ، وتعني بهم كباراً ، ولتبذل لهم النصح ، وتنصحهم

بالعطف حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة . كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات ، يجب أن تتعلم المرأة من الصغر » .

بل أن « روسّو » قد ذهب في تقييــد المرأة إلى أبعد من ذلك . ذهب الى وجوب تقييدها دينيًّا ، فلم يجعل لها حق اختيار العقيدة التي تتصل من طريقهـا ببارئهـا ، وقضى بوجوب ان لا يكون لها دين غير دين زوجها ، فهي مقيدة به محصورة في حدوده . شأنه في ذلك شأن « فلوطرخوس » في العصر الروماني ، وقد قضى كلاهما بأن على المرأة أيضاً أن تعمل على غرس بذور دينها ، الذي هو دين زوجها ، في عقل بناتها ، وإلاَّ فإنها تكون قد قصرت في أداء واجب من أقدس الواجبات . قال :

« حتى ولو كان ذلك الدين زوراً محضاً ، فان طواعية المرأة وبناتها ، وخضوعهنَّ لذلك الشرع الطبيعي ، تكون عند الله وسيلة لغفران الخطيئات . ومن أجل ان النساء غير قادرات على ان يحكمنَ على الأشياء حكماً ذاتيًّا ، فعليهنَّ أن يخضعنَ لأحكام آبائهنَّ وأزواجهنَّ خضوعهنَّ لحكم الكنيسة » .

لم يشذّ عن هذه الطريقــة التي اتبعها كل كتَّــاب الثورة الفرنسية غير الفيلسوف « كوندورسيه » ، فقد ظهر في بعض كتابات ظهرت له سنة ١٧٨٧ ، وتكاد تكون من منسيَّات ما كتب ، إلى القول بأنه من المستحيل أن تستقر حقوق الانسان على قاعدة ثابتة ، ما لم يُعترف بهذه الحقوق للمرأة ، وإن كل الأسباب التي أدَّت إلى الاعتقاد بأن لكل رجل الحق في أن يكون له صوت مسموع في حكم بلاده ، هي الأسباب التي تحملنا على إضفاء هذه الحقوق على النساء . قال :

« وعلى الأقل للواتي هنَّ أرامل أو غير متزوّجات » .

ولو لم يقيّــد « كوندورسيه » رأيه بذلك القيد الذي هو أثر من آثار الفكرة السائدة في عصره ، إذاً لكان أول رائد دافع عن حقوق المرأة في العصر الحديث .

ولا ريب أن موقف كتَّاب فرنسا من المرأة في ذلك العصر كان فذًّا غريباً ، إذا تذكرنا « ماريا تريزا » والملكة « كاترين » في روسيا ، والمكانة العليا التي شغلتها كل منهما في سياسة بلادها خاصة وسياسة أوربا عامة . أضف الى ذلك المنزلة السامية التي احتلتها نساء موهوبات

في الاجتماع والأدب والبحوث العقلية وفي الحياة السياسية ، منذ انقضاء عصر لويس الرابع عشر . ناهيك بما كان للمرأة من موضع في إلهاب روح الثورة في فرنسا ، وما كان لها من تضحية فيها . وأية تضحية أعظم وأنبل من تضحية مدام « رولاف » و « شارلوت كورداي » وأولاها من الموهوبات في السياسة والادب ، والثانية من الفدائيات . كانت الأولى من أعضاء حزب « الجيروند » المبرّزين فيه ، وكانت الثانية من المضحيات اللواتي تذكرهنّ فرنسا الى جانب « جان دارك » ، وقد سقطتا على المقصلة مع رجال من أبرز رجال العصر .

ناهيك بما عليه كثير من المؤرخين الذين يعتقدون انه ما من كاتب استطاع أن يزن حوادث ذلك العصر بميزان أدقّ أو عقلية أرحب أو أفق أوسع من مدام « ده ستايل » . كذلك نعلم ان انساناً مّا من الذين عاصروا الثورة ، لم يستطع أن يلهب بمواقفه نيران الحقد والغضب استمساكاً بوجهة من النظر السياسي ، فكان أعنف وأصبر على مكاره ذلك الموقف النكد من الملكة « ماري انطوانيت » ، وهي بشهادة الجميع من أكثر اللواتي سقطنَ على المقصلة استنارة فكر واستقامة رأي وثبات جنان .

قيل إن نابليون قابل ذات يوم أرملة « كوندورسيه » وكانت من زعيمات الثورة فخاطبها محتدًّا وفي نبراته نغمة الآمر الذي لا ينتظر ممن يخاطب جواباً : مدام — إني لا أحب أن تتمحك المرأة في السياسة — فأجابته على الفور : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي في بلد تحتزّ فيه رءوس النساء ، أن يكون لهنّ الحق في أن يسألنَ عن السبب في ذلك !

ولا يجدر بنا أن نغفل في هذا المقام عن ذكر ما كان للمرأة من أثر في عصر النهضة في أوربا . ولنضرب لذلك مثلاً بما كان لتعليمهنّ من أثر في حياة ذلك العصر .

وأول ما نذكر منهنّ ، بل أول من نتخذ منهنّ مثالاً يحتذى وقدوة يتأسى بها « كاترينا سفورزا » (١٤٦٢ — ١٥٠٩) فقد نشئت بعناية جدتها الدوقة « بيانكا ماريا فسكونتي » . وكانت « بيانكا » من مشهورات أهل زمانها . ففي كل المعارك التي اشتبك فيها زوجها « فرنشسكو سفورزا » كانت مساعده الاول ونصيحه الامين ، بل كانت في بعض الأحايين قائداً مقداماً مرناً ، فقادت الجيوش في حومة الوغى وانحدرت بهم الى المعامع تناضل نضال النمرات . وكانت الى جانب هذا معبودة الجماهير لطهارة ذيلها وعفتها وحدبها

على المظلومين والضعفاء ، وحنوّها على الذين أخنى عليهم الظلم ، وفصل بهم الاستبداد . كانت حمامة السلام ورسول الشفقة ويد الرحمة ، كلما استعرت نيران البغضاء واستيقظت روح العداء ، وفشت الاخطاء وعمت التعاسة . وبهذه الصفات علّمت « كاترينا سفورزا » الحكم كيف يكون .

تلقت « كاترينا » من التعليم قسطاً وافراً ، على النهج الذي اتبع في ذلك العصر . وكانت التقاليد القديمة قد أخذت تنهار قبيل عصرها ، وتحل محلها تقاليد جديدة . فان نساء العصر الاول — أي عصر ما قبيل النهضة — كنّ محجوبات عن الاشتراك في معضلات الحياة العامة ، والأخذ بقسط في معالجة مشاكل العصر ، على كثرة ما كان فيه من مشكلات . فكان من حظ « كاترينا » أن يقضى قبل عصرها على هذا التقليد ، فيأخذ النساء بضلع وافر من الاشتغال بشئون السياسة والحرب ، وتدبير أمور الدويلات والاحتكام في نزر غير يسير من الظروف التي عدّلت وجه التاريخ الحديث .

بلغت العناية بأمر الثقافة النسوية في عصر « كاترينا سفورزا » أعظم مبالغها . فان سيدات ذلك العصر ، على ما يقول ثقات المؤرخين ، قد تلقينَ من العلم ومن أساليب التربية والتنشئة ما قد يندر أن يتهيأ لمثيلاتهنَّ من بنات عصرنا هذا . فقد برزنَ في الآداب القديمة وفي اللغتين اليونانية واللاتينية ، قراءة وكتابة وتفقهاً ، كما أعطين قسطاً وافياً من العلم بآداب عصرهنّ ، في بلادهنَّ وفي غيرها من البلاد ، وثُقّفنَ في الفن والعلم والموسيقى والرقص وركوب الخيل والألعاب الرياضية .

ومن مشهورات ذلك العصر « سيسيليا جونزاجا » و « إبولينا سفورزا » عمة كاترينا سفورزا ، وبعد ذلك بسنين قلائل اشتهرت « ايزابلاَّ دسطه » و « إليزابتا جونزاجا » ، وكل منهنّ مثال يحتذى في الثقافة الواسعة والقدرة الشاملة والعبقرية الكاملة . فقد نعلم ان « إبولينا سفورزا » وكانت في الثانية عشرة من عمرها ، قد ألقت خطبة من تأليفها باللغة اللاتينية ، ترحيباً بالبابا « بيوس الثاني » عند ما حلَّ ضيفاً على أبيها . وفوق ان « سيسيليا جونزاجا » كانت تكتب اللغتين ، اليونانية واللاتينية ، وتقرؤهما وهي في الثامنة .

(البقية في آخر باب المكتبة)

نور الدين الشهيد[1]

أيها السادة : ان كنتم قد سلكتم الى هذه القاعة ، طريق العصرونية قادمين من هنا ، أو على قبر صلاح الدين آتين من هناك ، أو مررتم على مدرسة التجارة ، أو جزتم سوق الخياطين ، فاعلموا أن في هذه المسالك التي سلكتموها ، والدروب التي جزتموها ، لأحاديث خالدات من سيرة الرجل الخالد الذي أقبلتم هذه العشية اسماع حديث عنه ، نور الدنيا ونور الدين .

ففي دار الحديث في العصرونية ، في جدرانها القائمة التي تحدّرت من أعاليها القرون الطوال، وفي ماضيها الفخم الرائع ، وفي مدرسة التجارة ، تلك التي كانت فيما مضى البيمارستان النوري أعني المستشفى العظيم والمدرسة الطبية الكبرى التي أنشأها نور الدين يوم كان الغرب يتيه في أودية الظلام ، وعلى قبر صلاح الدين خليفة ابن زنكي ، وعلى ذلك الجدث المحفوف بالهيبة والجلال ، الماثل في سوق الخياطين الذي يحدث وهو صامت حديث النبل والمفاداة والاصلاح والنصر المؤزر والبطولة النادرة والعبقرية والخلود ، في كل ذلك يا سادة محاضرات هي أبلغ وأجل مما أنا محاضركم به ، محاضرات كلما مرّ الزمان وتقادم العهد ازدادت عظماً وجلالاً لا يبلي جدّتها التكرار . ولا يذهب بهاءها كرّ الأعصار .

فيمَ أيها السادة تكون عظمة الرجال ؟ إن كانت في سموّ المواهب ونبل الخصال ، أو كانت في عظم الآثار وجلائل الأعمال ، أو كانت في فضائل النفس ونفاسة الخلال ؟ فإن نور الدين عظيم في مواهبه السامية ، وخصاله وآثاره الباقية وأعماله ، وفضائل نفسه ونفاسة خلاله ، عظيمٌ في السلم وفي الحرب ، عظيمٌ في العلم وفي العمل ، عظيمٌ في تواضعه ورفعته ، هو من طراز قلّ أن حظيت بمثاله أمم الأرض ، هو أحد الخمسة الذين لم تملك مثلهم أمة غير المسلمين ، ولم يملك المسلمون مثلهم . أبو بكر ، وعمر ، وابن عبد العزيز . ونور الدين ، وصلاح الدين ، رضي الله عنهم أجمعين .

(١) ألقيت في دار المجمع العلمي العربي بدمشق

أصله — ولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة من أصل تركي ، وهو ابن زنكي آق سنقر ، وكان جده آق سنقر هذا ، مملوكاً تركياً للملكشاه السلجوقي ، أحد سلاطين الدولة السلجوقية العظام ، حظي بثقته فأصبح من أمرائه المقرَّبين اليه . ومن خواصه الأثيرين عنده ، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته وزاد قدره علواً الى أن صار يخافه ويتقيه ، فولاه مدينة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عنه ويأمنه . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بلقب قسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها . ولم يكن ابنه عماد الدين زنكي أبو نور الدين ، بأقلّ منه ذكاءً وعلو همةً وشجاعةً وطموحاً . ويكفيه فخراً انه مؤسس الدولة الأتابكية ومن الأمراء المشهورين بالحزم والاستقامة ، وكان ذا يد طولى في محاربة الصليبيين والثبات أمامهم ودحرهم في كثير من الميادين ، وقد اشتهر بصفات كريمة كالعدل بين الرعية والوفاء والرحمة والشفقة وبُعد النظر في سياسة الملك ووفرة الذكاء والهيبة وحب الخير والصدقات . هذا الى جانب همته وطموحه ومعرفته قدر الرجال وحبّه للاصلاح وشجاعته وإقدامه في الحروب وساحات الجهاد ، ولقد تسلَّم زمام الحكم والأمر فوضى ، وبلاد الشام نهبٌ مقسّم بين عدَّة من الأمراء يتحاربون ويتقاتلون لينال أحدهم من الآخر قطعة من الأرض يضمها الى ملكه الصغير ، بينما كان الصليبيون يفتكون بالناس . ويفتحون المدن الاسلامية ويدمرونها ويذيقون أهلها أنواع العسف والجور والبلاء والعذاب ، فاستطاع زنكي بعقله الكبير ودهائه وحسن تدبيره أن ينقلب من أمير صغير للموصل الى ملك يحكم قسماً كبيراً من سورية الشمالية وينشىء جبهة منيعة أمام الصليبيين وأن يهاجمهم ويردهم عن كثير من المدن التي استولوا عليها ، ولولا همته وإخلاصه لكان من الممكن أن يجتاح الصليبيون سورية كلها ويثبتوا فيها وينتقلوا منها الى البلاد الاسلامية الأخرى . ولقد كان من حسن حظ الاسلام أن يخلف زنكياً ، بطل عظيم وملك كبير هو نور الدين الذي كانت سيرته وما تزال نبراساً يهتدي به المخلصون .

منشؤه — نشأ نور الدين في حجر أبيه وفي كنفه ، كما ينشأ أقرانه ولداته أبناء الأمراء ، فتعلم القرآن الكريم وحفظه ، وأتقن قواعد الفروسية والرمي ، وتلقى العلوم على مشهوري علماء عصره ، وقرأ تاريخ الأمم الاسلامية وسير أبطالها الخالدين ، وكان ذا ذكاء وافر ، وجلد على الدرس والتحصيل ، راغباً في معالي الأمور عازفاً عن وضيعها وسفسافها ، وكان يحضر مجالس أبيه ويصغي الى ما يدور فيها من توجيه لسياسة الدولة ويبدي فيها آراء صائبة يسر بها أبوه وتقر به عينه ، وكان أبوه ذا عناية خاصة به ، يطلعه على ما خفي عليه من أمور

الحكم ويبين له أقوم الطرق فيه، ويدربه عليه، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين وهو محاصر جعبر أخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وجمع جنوده وركب من ساعته الى حلب فملكها واستقرّ فيها، وفي سابع يوم من استقراره فيها بلغه أن بيمونت صاحب انطاكية خرج قاصداً حلب، وأغار على ضواحيها وعاث فيها فساداً وكان الناس آمنين، فقتل وسبى خلقاً عظيماً فأرسل اليه نور الدين جيشاً غلبه ودحره واستنقذ كثيراً من الأسرى، وهاجم بعض بلاد الصليبيين واستولى عليها، ولا ريب أن دفاع نور الدين هذا، في اليوم السابع من توليته، دلنا على بعد همته، وقوة عزيمته، واخلاصه في رفع شأن مملكته ورد من تحدثه نفسه بالنيل منها.

ولقد قضى حياته كلها وهو في حروب دائمة مع الصليبيين، كان النصر حليفاً له في أكثرها وأخافهم وطردهم من أكثر المدن الاسلامية التي استولوا عليها، ولا يسمح لنا الوقت يا سادتي بذكر كل وقائعه ووصف بلائه الحسن فيها لأن ذلك يحتاج الى مجلدات ضخام ولكني ذاكر لكم بعضها لتعرفوا مقدار شجاعته وقوة نضاله.

أشهر وقائعه — من أشهر وقائعه وقعة «آنب» التي كانت في صفر عام ٥٤٤ إذ حشد فيها الصليبيون حشداً كبيراً، فذهب اليهم نور الدين في ستة آلاف فارس وقاتلهم قتال الأبطال وهزمهم وصرع أميرهم البرنس وهو أبو بيمونت الذي سبق ذكره وكان مشهوراً بشدة البأس وقوة الحيل وكثرة السطوة وبغضه الشديد للمسلمين فقطع نور الدين رأسه وغنم غنائم عظيمة وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في هذه الوقعة على حداثة سنه ما تعجب منه الناس واستطاع نور الدين في واقعة أخرى أن يأسر جوسلين Jocelyn الذي كان من شياطين الصليبيين وأبطالهم وأكثرهم عداوة للمسلمين، وكان أسره من أعظم النعم على المسلمين، وأصيب الصليبيون بفقده — كما يقول العماد الكاتب — وعظمت المصيبة عليهم به وخلت بلادهم من حاميها وحافظها.

ومن أعظم وقائعه افتتاح دمشق والاستيلاء عليها، وقد استولى على حارم وبانياس بعد معارك هائلة أبلى فيها أحسن البلاء وافتتح حصون الفرنج الشمالية واحداً بعد واحد. ومن أعظم وقائعه فتح مصر أيضاً بعد حروب شداد. إذ أن جيوش الصليبيين هاجموا مصر وحاصروا القاهرة فدافع المصريون عنها دفاعاً مجيداً بعد أن رأوا ظلم الصليبيين وقتلهم الناس وسبيهم النساء. ثم صالحهم شاور صاحب مصر على مليون دينار خوفاً من نور الدين، وكان خليفة مصر العاضد قد أرسل في هذه الأثناء الى نور الدين يستغيث به ويطلب منه النجدة وأرسل اليه في الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائي يستغثن

بك فأرسل اليه نور الدين جيشاً جراراً غلب الصليبيين وقتل شاور واستولى على البلاد المصرية .

شجاعته — ولقد كان نور الدين في كل وقائعه وحروبه بطلاً مغواراً وفارساً مقداماً ، لا يعرف الجبن ولا الهلعة يقول عنه العماد الكاتب : كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ويقول عنه ابن كثير : كان أصبر الناس في الحروب وأحسنهم مكيدة لم يرَ على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه . وقال نور الدين عن نفسه : إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم – أي بالأعداء – قلوا أو كثروا، ووالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري. وقال عن نفسه أيضاً : قد تعرَّضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ، ولو كان فيَّ خيرٌ ولي عند الله قيمة لرزقنيها والأعمال بالنية . ولقد حدث في إحدى الوقائع أن تجمع الأعداء وزحفوا على المسلمين والتقى الجمعان فشغل بعض جنود الطليعة واندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع وانفضوا عن نور الدين فبقي ثابتاً في الميدان مع عدد يسير من الشجعان وأطلقوا على العدو السهام فقتلوا منه عدداً كثيراً فولى الأعداء منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من جيش المسلمين ، ونجا نور الدين وعاد إلى مخيمه سالماً . ومما يدل على شجاعته وجرأته أن مخاضة في دجلة اعترضته في إحدى حروبه فاستسهل خوضها ، قال راوي القصة : سار أمامنا دليل وكأني وهو يقطع دجلة ونحن وراءه كخيط واحد لا نميل يميناً ولا يساراً حتى اجتزنا الماء برحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا ، فاستعظم أهل تلك البلاد عملنا وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب فتكلموا في المصالحة .

ولقد كان نور الدين محبّـاً للجهاد في سبيل الله والذود عن بيضة الاسلام وإنقاذ المسلمين من شر الحملات الصليبيـة المتدفقة كالسيل ، وقد نذر حياته للجهاد والدفاع عن الاسلام وبلاده . نزل مرة بجسر الخشب وأرسل الى أمير تلك البلدة يقول : انني ما قصدت بنزول هذا المكان طلباً لمحاربتكم وإنما دعاني الى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد الصليبيين وكثرة المـال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي عجزكم عن حفظ أموالـكم . وسار مرَّة الى الموصل فأرسل له أميرها يقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك اليها . فأجاب الرسول قائلاً : قل لصاحبك انك قد ملـكت النصف من بلاد الاسـلام وأهملت الثغور وبليت أنا وحدي بأشجع النـاس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم

فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه إذ يجب عليّ القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين . وعاد من الموصل الى الشام بعد عشرين يوماً فسئل عن سبب إسراعه في العود فقال : يمنعني أنني هناك لا أكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد . وجرى في مجلسه مرة ذكر طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها فقال : إن حب الجهاد يسلبني عنها فما أرغب فيها .

إيمانه الصادق — وكان يجاهد بعزيمة لا تعرف النصب ، وهمة لا تدري معنى الراحة وإيمان راسخ واعتقاد بالله متين ، وكان يستعين كثيراً بهذا الايمان في جهاده ويعدّه السبب الأول في النصر والغلبة . يروى عنه العماد الكاتب انه لما التقى الجمعان في موقعة حارم ، انفرد تحت التل وسجد لربه عزّ وجلّ ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يا رب ، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، إيش فضول محمود — اسم نور الدين — في الوسط ؟ وقال أيضاً : اللهمّ انصر دينك ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتى ينصر ؟ وقد نصر في تلك الموقعة نصراً مؤزراً بجيش صغير . إذ أن جيشه كان في ذلك الوقت يهاجم مصر .

وأصيب أخوه نصرة الدين مرة بسهم أذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له : لو كشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى . وقرىء عليه مرة جزء من حديث كانت له به رواية ، وذلك حين نزل الصليبيون على دمياط في مصر ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتمّ السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج . وقال له اصحابه مرة إنّ لك في بلادك إدرارات كثيرة وأوقافاً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والقرّاء والمتعبدين ، فلو استعنت بها لكان أمثل فغضب وقال : إني والله لأرجو بأولئك النصر ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه اليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

ورعه وعبادته وتحنثه — ويظهر إيمان نور الدين في كثرة تعبده وتحنثه ، فقد كان يصلي كثيراً من الليل ، وكان من عادته أنه كان ينزل إلى المسجد بغلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح . قال أبو الفتح الأشتري : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام

شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . وقال عبد الله نوري — وهو أحد مماليكه — كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل ، وكان يرفع يديه إلى السماء ويتضرّع ويبكي ويقول : إرحم العشار المكاس . وكان متتبعاً للآثار النبوية حريصاً على فعل الخير ، وقام باصلاحات دينية كثيرة منها انه منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومنع إدخالها الى دياره ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، كل الناس عنده فيه سواء ، ولم يمكن أحداً من إظهار ما يخالف الدين وكان يقول في ذلك : نحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟. وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والتنسّك وكثر أتباعه ،أظهر شيئاً من التشبيه ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه وطاف به في البلد ونودي عليه : هذا هو جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق .

هيبته — ويروي المؤرخون انه لما أبطل حيّ على خير العمل في الأذان في حلب ، واستبدل بها حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، ومنع التظاهر بسب الصحابة ، عظم ذلك على الاسماعيلية وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذوة

حب الناس له — وقد أحبّ الناس نور الدين حبّاً عظيماً وتعلقوا به وانقادوا له حتى بلغ من حبهم له أن راحوا يفدونه بالأرواح : حدث مرّة أن الافرنج غافلوا المسلمين وهاجموهم من وراء الجبل ، فلم يطق المسلمون دفعهم فانهزموا ، ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر ، وقصدوا خيمة نور الدين فخرج عجلاً وركب فرساً وحده ، وكان في رجل الفرس شبحة ، فنزل رجل من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي ، ولولا تضحية الكردي بنفسه لقتل نور الدين . ولما عزم على فتح بانياس قدم دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر ، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين ، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير . وأصابه مرة مرض حادّ عام ٥٢ فقلقت النفوس وجزعت القلوب وتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال حتى شفي فاطمأن الناس وفرحوا بشفائه فرحاً عظيماً .

ولما عزم نور الدين على فتح حارم أرسل كتباً إلى الامراء يطلب منهم الاشتراك معه في الجهاد فلما قرأ فخر الدين قرا أرسلان كتابه قال له خواصه على أي شيء عزمت ؟ قال على القعود ، فان نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي بنفسه والناس معه

في المهالك ، فلما كان من الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه ، ما عدا مما بدا ؟ فارقناك بالامس على حال ونرى الآن ضدها فقال إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي . فقد كان زهادها وعبّادها والمنقطعون عن الدنيا يذكرهم ما لقي المسلمون من الفرنج ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليّ فلا بدَّ من إجابة دعوته .

وكيف لا يحبه الناس ويتعلّقون به ويفدونه بالغالي والنفيس وهو الذي أسس دولة وبنى ملكاً وشاد مجداً واستطاع بذكائه وإخلاصه أن يخلص البلاد الاسلامية من شر حملات كانت تتدفق على هذه الديار كالسيل الهادر ؟ وكيف لا يحبونه ويلقبونه بالملك العادل وهو الذي سار في الناس سيرة ذكرتهم بعهد العمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ونشر المساواة بينهم وأخذ للضعيف بحقه من القوي المعتدي ، وبذل قصاري جهده في سبيل الترفيه عن الرعية ونشر الأمن والرخاء والسعادة فيهم . لقد دعي بحق الملك العادل وإن سيرة عدله لتعد من أعظم سير الملوك وأروعها .

ورعه — وكان رحمه الله ورعاً ، فانه مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف فيما يخصه الاّ من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين : أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعده الى غيره .

قال ابن الأثير : حكى لي من أثق به أنه دخل يوماً الى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه فقيل له إن القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده وإعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله متولي الخزانة الى كمال الدين فرده الى الخزانة وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني إنه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً .

صدقاته وهباته — وكان كثير الهبات والصدقات ، يعطي من يتوسم فيه الخير والحاجة . حكي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يلتفت اليها ، وبينما الحاضرون معه في حديثها إذ جاءه رجل زاهد فأمر له بها . فقيل له إنها لا تصلح لهذا الرجل

ولو أعطي غيرها كان أنفع له ، فقال : أعطوها له فاني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار .

وحُسب ما تصدق به على الفقراء قبيل وفاته بأشهر قليلة فزاد على ثلاثين ألف دينار ، وكانت عادته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف اليهم صدقاتهم . وكان يصرف ما خصص له من المال في كل شهر في نفقاته وحوائجه ، وما زاد معه في آخر الشهر تصدَّق به على الفقراء .

وحضر صبي وبكى عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف فسأل عن حاله فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة الوقف وليس له قدرة على الأجرة ، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة . فسأل الملك العادل : كم أجرة السنة ؟ فقالوا : مائه وخمسون وذكروا سيرته وطريقته وفقره ، فرقّ له وأنعم عليه وقال : نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه الى الأجرة ويقعد فيها . وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس ، فوصل الى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه .

عدله — قال ابن الأثير : لقد كان نور الدين يتحرَّى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير . وان أخبار عدله وحوادثه كثيرة لا يمكن أن تحصى ، ولقد قرأت منها الشيء الكثير فامتلأت نفسي إكباراً له واعجاباً به . وبحسبي أن أورد لكم حادثة منها . قال العماد الكاتب : كان نور الدين بدمشق يلعب بالكرة ليروّض خيله ويمرّنها ، فرأى رجلاً يحدث آخر ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله فقال : لي مع الملك العادل حكومة ، وهذا غلام القاضي ، فألقى نور الدين الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضي وهو حينئذٍ كمال الدين الشهرزوري وأرسل الى القاضي يقول له : انني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت المُلك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . قال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المُلك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت أعلم انه لاحقّ له عندي وإنما حضرت معه لئلاّ يظن أني قد ظلمته . فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له .

وهذا كما يقول راوي القصة مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الزمان وتفرُّق الكلمة . أجل إنه لمستكثر ، وهل سمعتم في عصرنا هذا ، عصر المدنية والنور ، أن ملكاً أو أميراً أو وزيراً

وقف الى جانب خصم غير ذي مكانة أمام الحاكم أو القاضي .

ولقد قال نور الدين : انني أفكر في والٍ وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم ، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني ، وأخاف المطالبة بذلك ، ثم قال للعبدين الواقفين على رأسه : بالله عليكما لا تريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا أعلماني بها ، وارفعاها إليّ ، وإلا فخبزي عليكما حرام .

ولكثرة تحريه العدل بنى دار العدل بدمشق وعيّن لها موظفين ورسم لها ميزانية خاصة وصارت هذه الدار ملجأً للمظلومين من أقاصي البلاد ، وكان يقعد فيها في الأسبوع الواحد أربعة أيام أو خمسة لكشف الظلامات والنظر في أمور الرعية ، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً يرجعان الى خزانة ، بل كان يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله . وكان يأمر بحضور العلماء والفقهاء الى جانبه ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ليصل اليه الضعيف والقويّ والفقير والغنيّ . قال أبو الفتح الاشتري الفقيه : كانت تحضر مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول الى خصمها ولا التكلم معه فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله .

ومن أعجب ما ورد عن عدله انه عدل بعد موته ، وذلك أن رجلاً غريباً استوطن دمشق لما رأى من عدل نور الدين ، فلما توفي نور الدين اعتدى بعض الجنود على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقّ ثوبه وهو يقول : يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك ؟ وقصد قبر نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح ، فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك ، فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند قبر نور الدين يبكي والناس معه وطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين : ما يبكيك ؟ قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته . فقال صلاح الدين هذا هو الحق ، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه .

ودخل عليه غلامه مرة وأبلغه أن القاضي يطلبه الى مجلس الحكم للحكم بينه وبين تاجر ادعى عليه شيئاً . فقال نور الدين يُحضر فرسي حتى نركب إليه ، السمعَ والطاعة . قال الله تعالى إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى الخادم وقال له : إمض إلى القاضي وسلّم عليه ، وقل له إنني جئت إلى هنا امتثالاً لأمر الشرع وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان ، وهذا وكيلي يسمع الدعوى . وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شاء الله

تعالى ، فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجهت اليمين فقال : القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر . فلما بلغ نورالدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر الخصم وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه .

ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها بعض الملوك على الظنّة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته ، وآمنت بلاده على سعتها وقلّ الشر والفساد .

ودخل حلب ، في عهد نورالدين ، تاجر موسر ، فمات بها وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً . فكتب أحد الناس إلى نورالدين يذكر له أنه قد مات ها هنا تاجر موسر وخلّف عشرين ألف دينار ، وله ولد عمره عشر سنين وحسّن له أن يرفع المال الى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضيه منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة فكتب نورالدين على رقعته : أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فثمّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله !

وكتب بإسقاط المكوس والضرائب وقال والله ما أخذناها إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام ، يعتذر بذلك للناس عن أخذها ، ومنع ما كان يؤخذ من أهل دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وأذاع منشوراً طويلاً يبطل فيه جميع المظالم .

وخدم نورالدين الاوقاف الاسلامية خدمات جلىّ فرتبها ونظّمها وأشرف عليها ولم يدع درهماً واحداً يضيع منها ، وكانت الأوقاف في زمنه تسعة آلاف دينار في كل شهر كلها ملك صحيح شرعي ، وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فانه كان لا يتصرف في شيء منه بل إذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، فهل وجدتم نزاهة أعظم من هذه النزاهة ؟ أما المساجد والمدارس والبيمارستانات والقلاع التي شادها وبناها فأكثر من أن تحصى ، وإن دمشق اليوم لا تزال شاهدة على خدماته ناطقة بها ، ولا تزال المدارس والمساجد النورية قائمة في المدن السورية كحلب وحمص وحماة ومنبج لم تفنها يد الزمان بعد ، وقد كان البيمارستان ذا ماض زاهر وكثير الخرج وقفه نور الدين على المسلمين كافة ، وان الخانات التي نراها مبثوثة بين المدن السورية كانت ملجأً لكثير من المنقطعين والمسافرين ، وان الربط والخانقاهات والمدارس والأوقاف المخصصة لها أشهر من أن تذكر . وهو أول من بنى داراً للحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كبيرة ، وهي دار الحديث النورية التي لا تزال إلى اليوم قائمة في سوق العصرونية وقد كانت أوسع مما هي عليه اليوم بكثير .

وكان يجمع العلماء والشيوخ عنده ويقرّبهم ويدنيهم ويتواضع لهم . ويعظمهم ويوقرهم

ويطلب إليهم البحث والمناظرة ، فقصدوه من البلاد الشاسعة كخراسان وغيرها ، وكان أهل الدين عنده في أعلى محل وأرفع مكانة ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً قال لهم ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من تعد ذنوبه . ولقد كانت الشام خالية من العلم وأهله . وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية ، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس عنده بلا إذن بل يقفون بين يديه حتى يأذن لهم ، فإذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام لهم ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون. وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول : هؤلاء جند الله . وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فاذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة والفضل

وكان نور الدين حنفي المذهب ، حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب الدينية والعلمية وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له ، وله أقوال وحكم منها ما ذكره أحد أتباعه المختصين به قال : كنت معه يوماً في الميدان والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدمنا الظل ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا . فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي ؟ قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها .

هذا طرف من سيرة بطل الاسلام ، ولو رحت أعدد مناقبه وأخلاقه وأعماله العظيمة لأطلت ، ولقد صدق ابن الأثير إذ يقول : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا — فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحرياً للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف ببيت واحد ؟

وروى أبو الفتح الاشتري قال : بلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا القدس للزيارة حكايةً عن الصليبيين وأنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فانه يصلي بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو ، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا . قال : فهذا كلام الكفار في حقه .

رحمك الله يا نور الدين فلقد سطرت في سجل التاريخ الاسلامي صفحة ناصعة من صفحات البطولة والمجد ستبقى على توالي الأحقاب نبراساً يستضيء به المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها .

(دمشق) ناجي الطنطاوي

في الصيف

بين المصيفين من لا ينتفع بأيامه على الشاطىء .. لانه يسرف في اللهو . . ساهراً بين كؤوس الطلا .. مكباً على موائد الميسر . . صريعاً عند أقدام الغواني . . ناسياً أن أيام المصيف فترة استجمام .. ينبغي أن يهنأ المرء خلالها براحة تامة : نفسية ، وعقلية ، وجسدية.

وكيما تحصل على أوفر نصيب من الصحة .. ضع لعطلتك الصيفية برنامجاً اكتبه على ورقة ونفذه باخلاص وأمانة .. متخذاً أساساً لهذا البرنامج أن أيام الشاطىء هي فترة تختزن في أثنائها النشاط والقوة والصحة للعام بأكمله .

واليك نظاماً اذا راقك اتبعه .. وإلا فضع على غراره ما يناسبك :

١ — استيقظ مع الصباح عند الساعة السابعة .

٢ — بعد غسل أسنانك . . وشرب كوب من الماء على الريق .. تناول منقوع التين، والبلح ، والمشمش ، والقراصية ، والزبيب ، والخروب .

٣ — اذهب الى الشاطىء مشياً على الاقدام . . وتنفس تنفساً عميقاً في أثناء المسير .

٤ — قم على الشاطىء ببعض ألعاب رياضية ربع ساعة

٥ — اسبح ربع ساعة . ولا تخش برودة البحر لانه في الصبح أدفأ منه ظهراً

٦ — خذ حمام الشمس ربع ساعة أخرى ثم عد الى بيتك أو « كابينتك »

٧ — تناول طعام الافطار ، وليكن لبناً ، وفاكهة ، وبلبلة مجهزة بالعسل النحل والزبيب والبندق .

٨ — اذا شعرت بالنوم بعد الافطار .. فنم .. في المصيف يجب أن تنام ضعف ما تنام في حياتك العادية .

٩ — في وقت الظهيرة عد الى الشاطىء .. وخذ حمامك الثاني بحراً وشمساً .

١٠ — تناول طعام الغداء .. وليكن نوعين من الخضر ولحماً ، أو سمكاً ، أو بيضاً ، وسلاطة ، وفاكهة .

١١ — نم وقت القيلولة ما شئت .

١٢ — في المساء انس الجلوس في المقاهي . . وسر على الشاطىء حتى تحس التعب ثم عد الى بيتك . واياك أن تنسى التنفس العميق كلما مشيت

١٣ — تناول طعام العشاء : عيشاً مجروشاً من دقيق القمح بأكمله ، وجبنة ،ولبن زبادي، وفاكهة ، وقليلا من البندق

١٤ — نم اهجع عند العاشرة مساء .. وأنت ممتلئاً نشاطاً وسعادة وقوة .

فهمي عطا الله



قبر أنخوس آمن



عندما أشرفت بعثتنا من فوق ربوة تطل على سهول طيبة الجافة ، كان يتملكني إحساس قوي بأن هذا الركن المنعزل من صحراء ليبيا يخفي ما كنت ساعياً إلى كشفه منذ سنين عديدة — ألا وهو قبر الملكة (أنخوس آمن) قرينة الملك (توت عنخ آمن) .

وبعد عدة أشهر فتحنا مخدع الملكة المدفون في نفس ذلك اليوم المشئوم الذي غزا فيه هتلر بولندا ، فاضطررنا أن نسد اللحد بما يحويه من كنز ثمين ، وأرجأنا التنقيب في هذا القبر الكائن في وادي الملكات . والإرل (تانكارفيل) يمدنا بالمال اللازم خدمةً لمتحفين اثنين .

وكانت حملتنا الأثرية مؤلفة مني ومن مسَّاح ومصوّر وجيولوجي وطلاّب وخدم وأتباع ومن رفاقي الخواص وهم حسن وأحمد ملاحظ العمال واثنين من الأعراب الخبيرين الذين قمت معهم باستكشاف في الصحراء الكبرى وحبيب الطبّاخ وكانت مؤونتنا تشحن من الأقصر في قارب ثم تنقل الينا بالسيارة

واستكشفنا في أحد الأيام ما أثار دهشتنا حين بان لنا خاتم حجري قد نقش عليه اسم (أنخوس آمن) وذلك عندما كنت وحسن ننقب في المفاوز الغربية من وادي الملكات . فكان دليلاً قاطعاً على وجود القبر غير المكتشف . عندئذٍ مسحنا المكان مسحاً دقيقاً وثبتناه بالخرط بما فيه من صخور مبعثرة وأخاديد وأجراف وكذلك عثرنا على درج لم يظهر منه غير جزء لا يتجاوز الست عقد على حافة صخرة عاتية . ثم انحدرنا الى السهل أنا واحمد وحسن وعلي خادمي الشخصي وحبيب الطاهي ودلفنا الى مخيمنا لجلبنا الحبال والفؤوس والجارف والمناخل وغيرها من الأدوات وعدنا الى المكان فنزلنا عدة درجات أخرى بعد تعب شديد اكتشفنا على أثره ممراً منحدراً مليئاً بالأنقاض .

واستطعنا في اليوم الثاني أن نصل الى المدخل المقفل وان نحدث ثقباً في الجدار القديم

القائم بدون أن نخدش آثار الخاتم وآنسنا عند تسليط نور المصباح الكهربائي نحو تلك الفتحة ممرًا ضيقاً آخر قد كدّست فيه الأنقاض أيضاً .

ولم ينقض يومان حتى تمكنّا من ان نحفر حفرة لعمق أربعين قدماً أدّت بنا الى باب ثانٍ موصد ومختوم، ففضضنا الأختام جميعها وأدليت قنديلاً خاصًّا لأختبر احتمال وجود غازات سامة مميتة . فما كدت أفعل ذلك حتى تراقص لهب القنديل بتأثير خروج الهواء الحار الذي كان محبوساً نيفاً وثلاثة آلاف وأربعمائة سنة .

فهتف حسن بانشراح مؤكداً أن هـذا المكان لابدّ أن يكون المدفن الخفي الذي يضم كنوز الملوك .

وكانت مباغتة صفق لها قلبي فرحاً وسروراً عند ما شاهدت وأنا أسلط النور الى الغرفة الصخرية التي يبلغ طولها ٣٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً الكنز البرّاق، كنز عصر الملوك في مصر القديمة ، عند ذلك وسعنا الثغرة بالفؤوس بالمقدار الذي يسمح لنا أن نلج منه ووفاقي العرب خلال العمل يرتلون بعض الآيات القرآنية ويقرأون التعاويذ . ولقـد كان الحرّ شديداً لا يطاق والرمل الخشن يخمش وجوهنا . وأني لموجه نور المصباح ، إذا بي أشاهد آثار طبعات أقدام حافية عليه هي من غير شك طبعات أقدام الذين دفنوا الملكة في ذلك العصر .

وأما سرير الملكة الذهبي وكراسيها وتماثيلها وزهرياتها الرخامية وصناديقها المرصعة فكانت تزهو بألوانها وتلمع بطلائها العسجدي واللجيني . وبينما نحن ذاهلون من هذا المشهد الفريد ، إذا بنا نسمع صوتاً غريباً أشبه بالحفيف . فنزلنا ومعنا آلة التصوير ومضخة الرش لأني كنت على بينة مما سيحدث إذ علمتني تجربة فتح قبر الملـكة (تن هيتان) ما ينبغي عليّ تداركه . ان الهواء الجديد الذي اندفع من الخارج كاد يبدل جو الغرفة الميّت ، حيث أخذت المحتويات الثمينة بالتفسخ والتغيرات الكيميائية بالتزايد وأنا أصوّر الغرفة وأرش أوهن الودائع بالمادة الكيميائية المثبتة خشية أن لا يتكرّر ما حدث عنـد فتح مخدع الملك (توت عنخ آمن) إذ استحالت أثمن محتوياته تراباً حيث لم يكن العلم قد توصل في ذلك الوقت الى الحيطة لمثل هذه الطوارىء والحالات .

والمركّب الكيمائي الذي يتزوّد به كل عالم أثري يرشه على العاديات الواهنة فتتصلب في

الحال ولا يتغير ما فيهـا من ألوان وزخارف . وهذا ما فعلته في كل محتويات هـذه الغرفة الخالدة قبل أن يعتريها التلف أو يصيبها التفسخ .

ولبثنا يومين كاملين ونحن نعد الأشرطة اللاصقة وكميات كبيرة من محلول (الكلوديون) والبرافين والقطن لحفظ التحف الناعمة وطلبت الى علي أن يذهب الى الأقصر ليجلب باباً فولاذيًا وأقفالاً محكمـة لسد المدخل . وانقضت أيام كنا نسعى خلالهـا سـعياً حثيثاً ومتواصلاً حتى تمكنا في آخرها من فتح الغرفة الثانية المطمورة .

وكان أول ما حيانا فيها ونحن نسلط الانوار الكشافة منظر يخلب الألباب ويأخـذ بمجامع القلوب إذ شاهدنا ثلاثة أسرة مذهبة عاجية وكرامي صغيرة مطعمة بالذهب الابريز وزهريات رخامية قد زينت جميعها بصورة الملـكة الراحلة .

وقد عثرنا تحت المخدع على صناديق خاصة بالثياب وأخرى للحلي وكلها مرصعة بالأحجار الكريمة بشكل فني بديع . وقد صنعت من الذهب والفضـة والعاج وضمنها أحقاق لأحمر الخدود والشفاه ومساحيق للوجه وملاقط للشعر ومقصات فضية وسكاكين لتقليم الأظافر ودبابيس ذهبية للضـفائر ومرايا عسجدية ومجموعة من الحلي النفيسة كالأساور والخواتم والأقراط والقلائد وغيرها مما لا يمكن تقدير ثمنه قد حفظت بكل الاتقان .

وأخرجنا ثلاثة تيجان متفاوتة الجمال من أحد صناديق الحلي الذي كان موضوعاً بجانب التمثال النصفي للملـكة قد غطي تاجان منها بقبعتين تمثلان نسراً ناشراً جناحيه على جانبي الرأس وقبعة للتاج الثالث بهيئة الثعبان المقدس (كوبرا) التي كان يلبسها الملوك والملـكات والرهبان فقط كشعار قدسي خاص بهم .

غير ان أثمن ما اكتشفناه من هذا كله صندوق في داخله ملف اسطواني من البابيروس لمخطوط دوّن فيه تاريخ حياة الملـكة والذي سيقفنا على ما كنا نجهله عن بعض نواحي حياة الملك (توت عنخ آمن) حيث لم يعثر عند كشف لحده على مخطوط مماثل يعرفنا قصة حياته .

واستطعنا كذلك أن نخرج العربة الملـكية الذهبية وكانت الآثار الظاهرة على عجلاتهـا تدل على كثرة دورانها في شوارع مدينة طيبة الوعرة .

وأما ثياب الملكة (انخس آمن) فوجدناها بالشكل الذي وضعت به تفوح منها ومن

سائر ذخائر الزينة النسائية لذلك العصر روائح المسك والخزامى والياسمين . وانتهى بنا البحث الى اللحد المخفي تحت المخدع بستة عشر قدماً واستطعنا بعد لأي أن نخرم جوانب اللوح الصواني الذي وضع — كما يظهر — قصداً أمام مدخل قبو اللحد . وتمكنا بهدى الأنوار الكشافة أن نرى الناووس الملكي بغطائه الصواني الكبير وقد نثرت من فوقه الأزهار الزاهية.

الا أن الدهشة التي اعترتنا — ويا للأسف — من هذا المنظر المفاجىء أذهلتنا فأنستنا أن نختبر احتمال وجود غاز سام في جوّ القبو وقد فطنا اليه بعد فوات الأوان فكان اللورد تانكارفيل أول من ترنح فوقع على القطط المحنطة الجميلة وأعقبه كل من حسن وحبيب الذي كان يحمل المصباح بيده غير اني استطعت أن أمسك المصباح في اللحظة الأخيرة قبل أن يسقط وأن أحمل اللورد (تانكارفيل) المجروح الى الممر الخارجي بمساعدة أحد الاتباع بالرغم من تغلب الدخان المتصاعد الذي كان يضايق أنفاسي وقد سقط المصباح وأنا أقوم بهذا العبء فصرنا في ظلام دامس ونحن نتسلل الى خارج الحفرة بمشقة .

وكان جرح (تانكارفيل) بليغاً في جهة عينه اليمنى وأصيب العمال برضوض من تعثرهم بالناووس من شدة الرعب بما فيهم علي الجبار الذي كان يشق الطريق أمامنا ليبعدنا عن الجو المسموم .

ولم تكد تبزغ شمس اليوم الثاني حتى استطعنا أن نزيح غطاء الناووس فبان لنا صندوق المومياء المصبوغ ولم يكن في الدنيا أجمل أو أدل على الحياة من هذا التمثال الذي ظهر بعد اختفائه آلافاً من السنين وقد كانت نقوشه الموشاة بالذهب فنًّا قائماً بذاته . وثابرنا على العمل لفتح التابوت — ففتحناه وبدأنا نرفع الأربطة الكتانية بحذر شديد وهي معطرة بالمسك الزكي المصنوع بفن مجهول. فلما أسفر عن وجه الملكة رششنا الرأس الجميل بالمواد الكيميائية اللازمة حالاً وراعنا أن وجدنا أهداب الملكة وحاجبيها تنم عن الحياة وهي بالوضع الذي حنطت فيه وكانت قسمات وجهها ضاحكة .

ان الملكة (انخوس آمن) هي البنت الثالثة للفرعون (آمن حوتب) الرابع والملكة (نفرتيتي) ماتت وهي في الربيع السادس والثلاثين كما يرويه سجل البابيروس المكتشف في قبرها .

كان الوجه مقمعاً وملفوفاً باعتناء بشريط ملوّن ولا شيء أدل على مهارة أولئك الصناع وحذقهم من اظهارهم حتى ظلال الأهداب على الوجه وصنع الاقراط الذهبية بوضع نقطر قطرات عطرية على الكتفين عند أية حركة .

وكان اللورد (تانكارفيل) يصوّر كل مرحلة من مراحل فك أربطة المومياء وشرعت أرفع رباط العنق المزين بالجواهر وقطعتها عند الكتف الايمن . وبينما أنا في عملي هذا لاح لي خاتم في أصبع الملكة فيه شعار العين المقدسة انحنيت لأفحصه وأنا يتملكني العجب . واني لكذلك وقد بهرتني أصابع الملكة الرقيقة إذا باليد اليمنى تتحرّك فتوقفت أنفاسنا من روع الحادث وهوله ويد الملكة الجميلة مستمرّة في الارتفاع فأخذنا نتقهقر نحو الباب كالمجانين فانقلبت قوائم آلة التصوير على المومياء وخدشت جانب التابوت الثمين .

وتعلل حركة يد الملكة بتبدل جوّ القبر . وذلك عند ما لامس الهواء الجديد جسم المومياء المحتبس منذ آلاف سنين تحركت العضلات والمفاصل المتشنجة تبعاً لهذا التغير الطارىء وقد حدث مثل هذا لمومياء رعمسيس الثاني عند الكشف عنها .

ولما تلاشت قوى اللورد (تانكارفيل) من جراء جرحه في اليوم الثاني من فتح مومياء الملكة نقل الى الأقصر ومنها الى القاهرة وعدت فغطيت تابوت المومياء المخدش وأطبقت عليه غطاءه الصواني الذي يزن طنين والمخطوط بالهير وغليفية .

وأرجعنا محتويات اللحد الى مخبئها الاصلي وأحكمنا المنافذ بالأسمنت المسلح وختمنا المدخل السري وواريناه بالانقاض والتراب .

وقد مات كل من (اللورد تانكارفيل) واحمد من تسمم جراحهما الذي سببته على ما أعتقد جرثومة سامة كانت موجودة في جوّ القبر المسموم . ولو أن الناس هناك يعزون ذلك الموت الى انتقام الفراعنة كما سبق ان مات الإرل (كارنارفون) فى حالة مماثلة عند فتحه مومياء الملك (توت عنخ آمن) واذا ما عدنا الى وادي الملكات في المستقبل فسنتزوّد بعقاقير من السولفا والبنسلين لعلاج مثل هذه التسممات الطارئة . وأكبر ظني بعد ذلك أن العالم سوف لا يسمع بموت عالم أثري من جراء انتقام الفراعنة .

العراق . بغداد

فخر الدين العبيدي

المفتش في ديوان وزارة المعارف

حقيقة الضوئيات

— ١ —

جاء في عدد المقتطف الأغر الصادر في يونيو من سنة ١٩٤٦ مقالة عنوانها « ما هي الفوتونات » للاستاذ نقولا حداد . فأورد الأستاذ حقائق مشوّهة أردت أن يبينها .

ولست أدري من أي ناحية آخذ الاستاذ في مقاله ، أمن الناحيـة التي لم يقوَ بها على تفسير الضوئيات ، أم من عدم تمكنه من تفسير الـكميات الفيزيقية ، أم من اسناده لبعض العلماء أقاويل دون أن يكون لهمْ أي علم بما نسبه اليهم .

يسأل الأستاذ في مقاله « ما هي الأشعة » ؟. ويريد أن يفسر أشعة اكس وكل أشعة أخرى فيقول « هي تموجات ايثرية أو هي جسيمات متموجة » .

فالتموجات الايثرية لا وجود لها في الفيزيقا الحديثة وان هذه المادة المزعومة أصبح لا وجود لها اليوم سوى اسمهـا . فالأشعة — كما نعلم — نوعان إما أمواج كهرطيسية أو دقائق (جسيمات) كما ذكر الأستاذ . وقد نحصل على أشـعة اكس من أي مادة كانت اذا أطلقنا عليهـا قذائف من الالـكترونات بسرعة هائلة ، لأن الالـكترونات عنـد تصادمها بذرات المادة تشع .

أما الضوئيات فقد نقل الأستاذ قول جينز عنهـا في كتابه « الـكون الغامض » وقد استشهد الأستاذ بهذا الـكتاب غير مرّة مما يظهر انه المرجع الوحيد أو الأكبر الذي توصل اليه الأستاذ في تفسير الضوئيات .

السير جيمز جينز حجة وعالم كبير وله نظريات في العلم الحديث ندين له بها . ولـكن كتابه الكون الغامض لايستحق أن يكون المرجع الوحيد في تفسير تركيب الذرة وفعلها .
ان السير جيمز جينز كتب كتابه « الكون الغامض » لفئتين من الناس ، أولاً : للذين يدرسون الفلسفة ويريدون أن يطلعوا على العلوم الطبيعية الحديثة اطلاعاً مجملاً ، وثانياً المثقف الذي

يود أن يعرف عن أسرار العلوم الطبيعية الحديثة معرفة مجملة وبصورة مختصرة .

ولهذا فكتاب « الكون الغامض » قد غمض منه بعض الشيء على الاستاذ بدليل انه لم يفسر الجملة التي أوردها حيث قال منسوباً الى جينز .

« يمكننا أن نتصور بوضوح الجسمين الكهربيين (البروتون والالكترون) مندفعين معاً بفعل تجاذبهما المتبادل بسرعة فائقة الى أن يتحدا أخيراً فتتنافى تعبئتاها الكهربائية فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة إشعاع — هي الفوتون » .

أولاً — ان العلامة جينز لم يقل ، في آخر الجملة ، فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة اشعاع — لأن هذا القول ليس علمياً فكيف تكون القوة مركب المادة ؟ ولكن جينز قال « فتنطلق طاقتهما المشتركة كومضة اشعاع » .

ثانياً — لم يفسر الأستاذ ذلك التجاذب والتفاعل الذي أحدث ذلك الإشعاع . نحن نعلم أن المادة مركبة من ذرات وهذه الذرات أيضاً مركبة من الكترونات وبروتونات وبوزترونات، فلماذا لا نرى اشعاعاً في أكثر المادة ؟ إن جينز لم يفسر هذا القول معتمداً على الاختصار وعلى الفئة التي كتب لها . فالاشعاع الذي يحدث هو عن طريق تجربة خاصة وهي ، إذا أطلقنا قذائف من البروتونات أو الالكترونات بسرعة فائقة bombard على بروتونات أو الكترونات أخرى تتصادم تلك الكتل الصغيرة فتحول الى طاقة، ونحن نعلم إن الطاقة تعتبر حرارة أو قل إن الحرارة شكل من أشكال الطاقة [1] ، فلا يصح أن نقول — كما قال الأستاذ — الفوتونات مادة تصحبها قوة بشكل حرارة ونور ، لأن المادة شكل والقوة شكل آخر ، كما ان القوة نوع والحرارة نوع آخر .

ثم يقول الأستاذ معتمداً على « الكون الغامض »: « ان الطاقة هي في الفوتون أو هي مصاحبة له أو هو يحملها» هذا هو قول غير صحيح وحاشى أن ينسب الى علامة مثل جينز . إن كل عالم أو كل من يدرس العلوم الطبيعية يجب أن يعرف هذه الحقيقة وهي أن الفوتونات مقادير ضوئية . وقد عبر پلانك عن هذه المقادير الضوئية بهذه الصورة hv v (ني) عدد الاهتزازات في الموجة الضوئية و h هو ثابت بلا شك . وحسب نظرية پلانك فالطاقة

---

(١) قانون الثيرموديناميك الاول .

التي يرمز لها بحرف تساوي E تساوي $E = h\nu$ أي ان الفوتونات هي « طاقة» فلا حاجة لمثل هذا اللف والدوران وهذه التفاسير والفلسفات .

ثم أورد الأستاذ تجربة كوكرفت وولتن في تغيير ذرة الليثيوم مع ذرة هيدروجين أي ذرتي هيليوم ، فقال الأستاذ ان هنالك نقص قد حصل « فأين ذهب » ؟

ثم يقول « فترى انه في تحول الليثيوم والهيدروجين الى هيليوم ضاع في المادة ما قدره ٠١٨٣ ، ٠ فأين ذهبت هذه المادة ؟ لم تضع بل ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات ». ثم يقول الأستاذ « فبناء على هذه الظاهرة التي استغربها العلماء قال انشتين ، ووافقه بعض زملائه ، قال إن المـادة قوة والقوة مادة وكلاهما شيء واحد » ثم يقول « وانشتين يضلل طلاب العلم البسطاء أمثالي » — أي الأستاذ — ثم يدحض قول انشتين.

شيء مضحك أن ينسب الأستاذ حداد الى انشتين قولاً لم يقله ولن يقوله لأن انشتين أكبر علماء العصر الحديث، فلو صح هذا القول الذي نسبه اليه الأستاذ لاصبح انشتين أكبر مجانين العصر الحديث .

لست أدري من أين أتى بهذا القول وفي أي مكان أو زمان قاله انشتين « ان المادة قوة والقوة مادة وكلاهما شيء واحد » .

لنقف قليلاً ولنعد الى النقصان في التجربة المذكورة ، ونرى كيف يعلله الأستاذ حداد فهو يقول ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات .

ولـكن الأستاذ لم يعلمنا كيف حصلت هذه القوة أو الطاقة التي يذكرها . هل كان التحويل عن طريق الخلط أم الـكبس أم الذوبان أم عن طريق التحريك حتى نعلل ذلك النقص فنحكم له أم لانشتين . ولـكن الأستاذ حكم لنفسه .

انني لست متمحكاً ولـكن أريد الحقيقة . يظهر أن الأستاذ نقل هذه الحقيقة نقلاً دون أن يفطن الى التجربة وهي انه اذا أطلقنا ذرة الهيدروجين كقذيفة على ذرة الليثيوم بسرعة هائلة نتج عن ذلك عنصر له ميزة الهيليوم الـكيماوية وله نفس الوزن والعدد الذري. وأما النقص فليس كما ينسبه الى انشتين من ان القوة مادة والمادة قوة . نحن نعلم ان القوة هي Force والمادة Matter فـكيف يقول انشتين قولاً كهذا ؟ . فانشتين قال ان الـكتلة اذا

ضربت بثابت تصبح طاقة . هذا قوله الصحيح فمعادلته هي $E = mc^2$ و E هي الطاقة و m هي الكتلة c^2 هو الثابت وهو مربع سرعة الضوء .

وقد جاء انشتين بهذه المعادلة سنة ١٩١٥ بينما تجربة كوكرفت وولتن كانت سنة ١٩٣٢ فلم يعلل اينشتين ذلك النقص ، وانما قانونه في الطاقة قد ضم ما جاءت به تلك التجربة . فالنقص إذاً قد أصبح طاقة أو حرارة وليس قوة أو طاقة مصحوبة بفوتونات كأن القوة شكل من أشكال الطاقة وبالعكس ، أو كأن الطاقة تصحب الفوتونات وليست هي بعينها .

ان الكميات الفيزيقية هي كتركيب الدواء للمريض ، فيجب أن يكون الانسان دقيقاً في استعمالها الى درجة قوية ، يعرف تماماً ما يقول وأين يضع كل منهما . فاذا قال أحد ٢ + ٢ = ٤ أو ٥ فهذا يدل على أن المعرفة لم تكن واضحة في دماغه والأفكار ليست بيّنة .

لقد أنعم الله علينا بالعقل ، و أفضل ما عمله العقل لبني الانسان هو اختراع العلوم الرياضية التي بها يصح أن تقول ان الانسان قد شابه الخالق وبها قد فهم شيئاً من أسرار خلقه.

حسب نظرية پلانك الطاقة أو الفوتونات أو المقادير الضوئية هيّ $E = hv$ لا الالكترونات إذا تصادمت فكانت سرعتها فائقة تحولت الى فوتونات وهذا دليله . لنفرض أن زخم الفوتون $\frac{hv}{c}$ ولنفرض ان له كتلة هي m صفر وكتلة الالكترون m

حسب انشتين وپلانك فالطاقة $= \quad E = hv = mc^2 \ldots (١)$

$$m = \frac{E}{c^2} \ldots (٢)$$

$$c^2 = \frac{E}{m} = \frac{hv}{m}$$

وعند التصادم تكون المعادلة هكذا m صفر $= \frac{hv}{c^2}$

نضع بدل c^2 ال $\frac{hv}{m}$ نحصل

$$m = \frac{hv}{\frac{hv}{m}} = m \text{ صفر}$$ (١)

---

(١) . تذهب hv البسط مع hv المقام وتبقى m

اذاً تكون كتلة الالكترون بعد الالتحام مساوية لكتلة الفوتون المفروضة .

***

بقيت كلمة أخرى وهي تساؤله عن القوة فيقول «ما هي القوة أو الطاقة ؟ » كل ما نفهمه منهما انما أثرها وهي الحركة .. ! أين هي (أي القوة) لا ترى »

أولاً — كما نوهت سابقاً يجب أن يفرق بين القوة والطاقة ككميات فيزيقية فالطاقة شيء والقوة شيء .

ثانياً : فلو كنا في عصر أرسطو لما فهمنا من القوة أكثر مما تحدث عنها الأستاذ أي إنها شيء نحس فعله دون أن نراه . وأما اليوم فإننا نشعر بالقوة الفيزيقية لا بل نلمسها وذلك بنعمة الرياضيات التي بها أصبح العلم الطبيعي قادراً على أن يحل قوانينه . فنحن بهذه الواسطة نقدر أن نلمس أو نحس القوة . وهي الكتلة مضروبة بالايغاز أو الاستعجال Acceleration (١) أي $F = ma$ أو بشكل حساب التفاضل هي

$$F = m \frac{dv}{dt} = E \quad m \frac{d^2 3}{dt^2}$$

وأخيراً يظهر أن الأستاذ يعتمد على المطالعة في كتابة مقالات عن العلوم الطبيعية وليست تخصيصه الجامعي

القدس فؤاد جميعان

---

(١) تعمدت وضع الكميات بالرموز اللاتينية واليونانية لاني أدعو إلى كتابة الرموز العلمية على هذا الشكل . واذ لم يكن لديكم حرف (ني) أرجو تبديله بحرف n

وقد ترجم الدكتور مشرفه هذه الكلمة بـ « سرعة » كما أوردها في كتبه ونحن نعلم أن كلمة سرعة هي Velocity Acceleration هي استعجال أو ايضاح أو سرعة — الزمن

٢ – الضويئات

قرأت في مقتطف يونيو الماضي مقال الأستاذ نقولا الحداد ردًا على ملاحظاتي — الرقمية والتاريخية — السابقة فأشكر له صراحته واعترافاته ولا عجب فهذا خلق العلماء.

لقد قال الأستاذ بادىء ذي بدء بأن ملاحظاتي كانت رقمية وتاريخية ولو أنصف لم يقل ذلك إذ أنني لم أتعرّض في مقالي السابق للتعليق على تاريخ أو رقم اللهمّ إلاّ عمر الاورانيوم، وأظن أن الأستاذ يوافقني بأنه لا يوجد بأي شكل من الاشكال صورة نستطيع بها أن نعين عمر الأورانيوم إلاّ بالأرقام. أما إذا اعتبر حضرته ملاحظاتي كقولي « ان طومسون لا راذرفورد هو مكتشف الكهيرب» وقولي أيضاً « ان راذرفورد لا بوهر هو الذي أثبت أن كتلة الذرة موجودة في مركزها » وقولي « ان دقيقة ألفا تتركب من نيوترونات وكهارب وليس من كهارب فقط » قلت اذا اعتبر الاستاذ هذه الحقائق العلمية نوعاً من التاريخ والترقيم، فهذا بحث آخر.

ليتأكد الأستاذ قبل كل شيء انه عندما فكرت في كتابة ملاحظاتي الأولى لم يجل بخلدي على الاطلاق أن أتهجم أو انتقص من مكانة أستاذ جليل، ولكن الواعز الوحيد الذي دفعني اليها هو حب التعاون الصادق على تمحيص الحقائق في حدود الكياسة والنزاهة، والتنويه بأن القضايا العلمية وخاصة الحقائق الطبيعية والكيمائية لا تقبل التسرع ولا تحتمل السهو. وليس من المعقول أن يكون السبب في تعليقي على مسائل أولية بسيطة هو جهل أستاذنا بها، ولكنه لتصوير بشاعة السهو العلمي وخاصة من كبير كحداد نعده في الرعيل الأول من ثقاتنا ومراجعنا العلمية، وتعوّدنا أن نحسب أقواله في مثل هاتيك البحوث حجة لا تنقصها الدقة والتثبت ولا يعتورها السهو والتسرع.

قال الأستاذ انني ذكرت الجملة « ان بوهر برهن على ان الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها » وانني قد غضضت النظر عن بقيتها التي فيها ما أراد أن ينسبه الى بوهر، وهي « ان بعض الكهيربات تقيم معها أي مع الكهارب في النواة والبعض الآخر تدور من حول

النواة على بعدٍ منها في أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس » . ان هـذا واقع وهو ما أوردته بالذات . فقد قرر الاستاذ حقيقتين مستقلتين عن بعضهما تمام الاستقلال : الأولى أن بوهر برهن على أن الكهاب تتوسط الذرة كنواة في مركزها » والثانية انه — بوهر — برهن على أن للذرة نظاماً فلكيًّا ». أما الحقيقة الأولى فلم تكن صحيحة وقد علقت عليها في مقالي السابق . وأما الثانية فلم أتعرّض لها لتسليمي بها ، لأن بوهر برهن حقًّا حينما طبق نواميس كبلر الفلكية ونواميس الكونتم على الذرة ، على أن لهـا — للذرة — نظاماً فلكيًّا . ولا أدري كيف يريد الاستاذ أن يفرض عليَّ ويلزمني بأن أغالط وأنقد حقيقة أعترف بصحتها ليستقيم المعنى الذي أراده في الحقيقة الاولى مع ان كل منهما تعبر عن وجهة نظر خاصة ومعنى خاص . وعلى كل حال فالنظام الفلكي الذي قرره بوهر للذرة بنظريته ومعادلاته الميكانيكية، قد طرأ عليه كثير من التبديل والتغيير بل يعتبره لفيف من كبار العلماء على رأسهم هيزنبرج وبورن بأنه لم يعد يفي بالغرض المطلوب من وضعه ، لأنهم لاحظوا ان فيه — النظام — ثغرة واسعة لا يمكن سدّها بحـال مما اضطرهم الى ابدال الميكانيكيات البوهرية بأخرى جـديدة دعوها الميكانيكيات المتركسية Matrix Mechanics وربما وافينا القراء إذا سمحت الظروف ببحث خاص مفصل عن قصة الميكانيكيات الذرية .

لقد بان لي أن حضرة الاستاذ وافق على تعليقاتي إلاّ واحدة منها مهمة — المادة والأشعة الـكهرطيسية في أشعة الراديوم — والأخيرة « الأشعة الـكهرطيسية أو المـادة المتموجة » يتفرّع عنها بحوث واسعة دقيقة لم يستطع العلم إلى الآن البت في كثير منهـا والقطع بصحة خواصها وهي كما أسلفت في مقالي السابق أبحاث بكر تتضارب فيها الأقوال ولم يستقر رأي العلماء فيها على قرار حاسم ، وآراؤهم في ذلك مبتسرة أقرب الى النقاش الفلسفي العلمي منه الى البحث العلمي الصرف الذي يعتمد عادة على الأساليب التجريبية . ولـكي نتفهم جيداً نقطة الاختلاف بيننا نعود بالقارىء الى قول الأستاذ بهذا الشأن في مقاله الأسبق وما يلي نصه :

« لا يخفى ان الاورانيوم هو رأس العناصر ذات الاشعاع Radiation ويليه الثوريوم فالاكتينيوم فالراديوم . والأورانيوم يتحوّل إلى ذاك فذاك فهذا على التوالي وأخـيراً يتحوّل إلى رصاص . وعملية التحول هذه تحدث بأن يتناثر كل عنصر من هذه العناصر من

تلقاء نفسه تدريجيّاً كهارب وكهيربات على التوالي حتى تصبح ذرة العنصر الأعلى ذرة العنصر الذي تحته أي ان كل عنصر يذوب رويداً على هذا النحو . والكهارب والكهيربات تتناثر وتنطلق فوتونات أي ضويئات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم » اه .

إن الأستاذ يعترف هنا بأن الأشعة المنطلقة من الراديوم هي ضويئات . وقد فندت له في مقالي السابق أنواع هـذه الأشعة وقلت بأن النوع الأول وهو جسيمات ألفا — نوى الهليوم — لا يمكن أن نسميها بحال ضويئات ، وتساءلت حينئذٍ مستغرباً كيف يجوز لنا أن نقول عن أجسام مادية لهـا وزنها الخاص كالهيليوم إنها ضويئات . فكان جواب الأستاذ على ذلك « من قال انه يجوز ؟ حقّاً ليست ضويئات وما هي إلاّ نوى عنصر الهيليوم » فكأنه بذلك أنكر قوله السابق وراح يتنصل منه . اعترف أولاً بأن أشعة الراديوم هي ضويئات ثم سحب اعترافه عند ما رددت عليه وقلت بأن أشعة ألفا لا يمكن أن تكون ضويئات . ثم فندت له أيضاً النوعين الآخرين من تلك الأشعة وقلت إن النوع الثاني أشعة بيتا — الكترونات — هي أيضاً دقائق مادية وليست ضويئات وتصبح ضويئات عند ما تفنى شحنتها الكهربائية . وما دامت لها شحنتها السالبة فانها ليست بضويئات. وأما أشعة غما النوع الثالث فهي ليست دقائق مادية ، وإنما هي أشعة كهرطيسية من قبيل أشعة اكس وهـذه هي الضويئات فقط . فهل تدري ماذا كان رد الأستاذ على ذلك أيضاً ؟ قال ما نصه :

« والغريب أن حضرة الأستاذ يوافق على قولي أن النور الذي نشاهده في الراديوم ليس إلاَّ فوتونات » شيء عجيب حقّاً ! إنني لا أدري من أين جاء الأستاذ بهذا النص الذي زعم بأني قلته وأنا في الواقع لم أقله بل بالعكس كان همي دحضه كما هو واضح من مقالي السابق. ومن يدري ؟ فلعلَّ شيطان السهو عمل بيـده تشويهاً وقلباً لتلك الحقائق . ومهما يكن من شيء فإني لا أستطيع من باب الكياسة واللياقة ان أعيد للأستاذ تلك الكلمة النابيـة « يخلط » التي تجنى عليَّ بها دون ما حق أو مبرر لأنني لم أتصدَّ كما صرَّح حتى ولا بطريق التلميح إلى المقارنة بين الأشعة Rays والاشعاع Radiation

والغريب أيضاً انه في نفس الصفحة بل في نفس القطعة يعود الأستاذ فيناقض قوله هذا ويوافقني على رأيي في أشعة الراديوم ولـكن دون اعتراف صريح منـه فيقول ما نصَّه

« فالنور والحرارة اللذان يلحظان في تشعع الراديوم هما أشعة غمَّا فقط (فوتونات) وأما أشعة ألفا وبيتا فليست أشعة نور وحرارة البتة الاَّ اذا التحم الفريقان فيما هما صادران من كتلة الراديوم وتنافت كهربيتهما وتحولا الى فوتونات» . ومن يرجع للاحظاتي في المقال السابق يدرك بأنني استبعدت وأنكرت بأن تكون أشعة ألفا وبيتا ضويئات ، بل حصرتها في أشعة غمَّا فقط وهو عين ما أتى به الأستاذ في سبيل الرد عليَّ . وبما أنه وافق على قولي بطريق غير مباشر ولا يعنيني أن تكون الموافقة صراحة أو ضمناً ما دام هدفنا هو تمحيص الحقائق — أقول ما دام الأستاذ وافق على أن أشعة ألفا وبيتا ليست ضويئات فتصبح نقطة الاختلاف بيننا محصورة في تعريف أشعة اكس أو غمَّا أو كل أشعة كهرطيسية في الكون . وعلى هذا الاختلاف دار معظم مقال الأستاذ كما هو ملاحظ فيه .

قلت إن معظم رد الأستاذ كان يدور على نقطة واحدة وهي قولي « إن أشعة غمَّا ليست كأختيها دقائق مادية ، وانما هي أمواج كهرطيسية من قبيل أشعة أكس وهذه هي الضويئات » وهنا أرانا الأستاذ عرضاً سريعاً رائعاً للمادة وخواصها والأشعة وطواقها والطاقة وأصلها وتحولاتها من صورة الى صورة . وقد استهجن قولي أن أشعة غمَّا ليست دقائق مادية ، حقَّا إن أشعة غمَّا وكل أشعة (نورانية) سواء أكانت مرئية أم غير مرئية هي مادة ولكن الذي قصدت أن أقوله هو أن أشعة غمَّا ليست دقائق مادية بالنسبة الى المادة التي يفعل فيها المغنطيس فعله وبالتبعية بالنسبة الى الضربين الآخرين من أشعة الراديوم الفا وبيتا . فهذان النوعان من الأشعة مادة ، وأشعة غمَّا مادة أيضاً ، ولكي أقرّب الى الأذهان الفرق والتمييز بين صنفي المادة سقت الفرق الذي تقره الطبيعة الكلاسيكية — ولا يقره العلم الحديث — أي أن المادة في نظر الطبيعة الكلاسيكية هي التي تتأثر بفعل الجذب المغنطيسي والأشعة هي التي لا تتأثر به ، انني لا أدين بهذه الحقيقة لان الضويئة — أشعة غمَّا — هي مادة أيضاً خالية من الشحنة الكهربية ولكنني قلت ما قلت للسبب الآنف الذكر فقط . نعم أن أشعة غمَّا — الضويئات — أو الطاقة المتموّجة ، هي مادة بلا شك وأول من طبق نظرية الكونتم على الضوء هو الأستاذ العلاَّمة اينشتين Einstein سنة ١٩٠٥ ، وعلى ضوء الأبحاث التجريبية التي قام بها الأستاذ لينارد وغيره من العلماء في طبيعة الطاقة المشعة Radiant enegy والظاهرة المعروفة « بالفعل الكهرنوري Photo-electric effect أتحفنا اينشتين بنظريته المسماة نظرية الضوء الكونتمية light quantum hypothesis التي تقول بأن الضوء دقائق مادية واحدتها الضويئة Photon أيدها الأستاذان مير F. Meyer وجيرلك W. Gerlach بالتجربة والبرهان العملي بعد عقد من السنين تقريباً سنة ١٩١٤ . فعلى نواميس بلانك

الكونتمية وتجارب لينارد بنى اينشتين نظريته في الضوء فقال ان الفوتون — الضويئة — هو دقيقة وفوق ذلك وحدة الأشعة، فوافق بذلك بلانك القائل بأن الطاقة المشعة التي تطلقها المادة أو تمتصها ليست شيئاً متصلاً كما قررت ذلك الطبيعة الكلاسيكية ، ولكنها منفصلة وقوامها وحدات من الدقائق المادية . ومنذ ذلك الحين صارت الغلبة لرأي نيوتن على هوجنس أي أن الضوء ذرات أو دقائق وليس بأمواج. فاطمأن العلماء الى أنهم قطعوا بصحة إحدى النظريات العلمية العويصة، ولكن هذا الاطمئنان ما لبث أن تبدد فقد لاحظ العلماء أن ظاهرة التداخل النوري لا يمكن تعليلها بحسب نظرية الكونتم ، بل بحسب النظرية التموجية فدبت الفوضى في آراء العلماء فاكتنفتهم الحيرة المقلقة . وفي غمرة هذه الفوضى طلع الاستاذ دي برولي De Broglie بعد أن أنار له السبيل كل من دافسون Davisson وجرمر Germer سنة ١٩٢٧ باكتشافهم الفذ بأن دقائق المادة تتصرف كأمواج ، أقول طلع دي برولي على العلماء بنظريته الميكانيكيات الموجية Wave Mechanics التي تنص على ان دقائق الضوء — الضويئات المنطلقة في الفضاء — تصحبها سلسلة من الامواج . وبذلك وفق بل دمج نظريتي نيوتن وهوجنس في نظرية واحدة ما زالت المقبولة عند العلماء .

والآن وقد عرفنا بأن الضويئة دقيقة مادية يتبادر الى أذهاننا سؤال خطير وهو « ما هو المصير المحتوم للضويئة في الفضاء اللامتناهي ؟ وهل يحتفظ دائماً أبداً بماديته ؟ » .

ان العلم لا يزال حائراً وعاجزاً عن الاجابة الحاسمة والبت في هذا السؤال الخطير ، لأن مقتضياته بعيدة عن متناولهم ومختبراتهم وللعلماء في تعليل ذلك مذهبان ، فالجماعة الاولى ترى أن تلك الدقيقة المادية — الضويئة — هي المادة نفسها أي أن المادة والطاقة شيء واحد ويقولون أيضاً بأنه سيأتي يوم مهما طال وبعد تعود فيه الشحنة الكهربية للضويئة فيصبح مادة مشحونة وتذهب الجماعة الثانية الى أنه يوجد فرق بين المادة والضويئة ، أي أن المادة شيء والطاقة شيء آخر أو بعبارة أخرى أن الضويئة سوف تبقى مادة خالدة سرمدية ولكن لا شحنة لها وبعض نفر من هذا الفريق يزيد فيقول بأن المصير المحتوم للضويئة هو الفناء — العدم — مهما طال الزمان لأن تلك الضويئات تتسع دوائر أمواج طاقتها المصاحبة لها وتطول على مرور الأزمان ، وكلما طالت لطفت ورقت الى أن تتلاشى أخيراً وتنعدم .

فما تقدم يتضح لنا بأن العلم لم يجزم الى الآن في طبيعة الضويء ومصيره وعند ما قلت في مقالي السابق بأن هذه النظرية لا تزال لغزاً من ألغاز العلوم وانه لا يمكن الاعتماد عليها كبرهان على صحة ما يقال لأن ذلك — على الأقل الآن — سابق لأوانه ، كنت على حق .

السلط جريس الشرايحه

النسيم

ليت للدهر بعض لينك أنتا فبما رحمة من الله لنتا . .
قد ترنحت رافلاً في أريج من زهور صانت هواك وصُنتا
وسكنّا إليك لما تحرك ت عليلاً ، فهل إلينا سكنتا ؟
يقبح الشيء حين يعتلُّ ، لكن ك لما أن اعتللت حسُنتا
يارسول الزهور ، ألطف من بلّ غ عنها رسالة الطيب ، أنتا
أنت في وحدة ، ونحن مع النا س ، ولكن خفنا السرى وأمنتا
تمتطي صهوة الدجنة في التب ليغ عنها ، ولو وهنت لهنتا
يا أميناً على الهوى ، أغصنُ البا ن أبانت من الهوى ، وأبنتا
عانق الغصنُ في يديك أخاهُ واستعانا على الهوى فأعنتا
أعناقٌ بدون إذنك ؟ كلاً بل هما استأذنا ، وأنت أذنتا
يا غريباً لجّت به لجةُ الغر بة ، قل لي أكرمتها أم أهنتا ؟
يا حليف السرى أتبغي مقراً أم مفرّاً منّا الى حيث كنتا ؟

شاعر البرادى



نظرية النمو الذاتي

ونهضة إحياء العلوم في غربي أوربا



قبل أن يظهر غلاة العنصر النوردي ظهرت طائفة من المؤرخين تمجد القبائل التيوتونية التي طغت على الدولة الرومانية الغربية وأسست دول غرب أوربا الحديثة . وهذه الطائفة تؤكد نمو العقل في غربي أوربا نموًّا متصلاً متدرجاً قبل نهضة إحياء العلوم، وتعلله بأنه كان نموًّا ذاتيًّا وتشييدُ باستعداد هذه القبائل لتنمية الحضارة والثقافة . وقد يفهم القارىء من مؤلفاتها ان تلك النهضة لم تكن ثورة فكرية على الماضي ما دامت لها سوابق وحلقات متصلة أو منفصلة، وما دامت لها مراحل قبلها من نوعها، كما قد يفهم ان ذلك النمو الذاتي يقلل من أثر المؤثرات الخارجية . والحقيقة هي أن كل نهضة كبيرة في حياة الانسانية كانت نموًّا ذاتيًّا متدرجاً . ولكن عند حدّ معين تتعاظم المؤثرات وتتعجل نتائجها فتصير انقلاباً أو ثورة على الماضي كما إن النمو الذاتي لا ينفي عظم المؤثرات الخارجية ، فنمو الانسان الذاتي أو نمو الشجرة، لا ينفي إفادتهما من غذاء وماء وضياء ، وكلها أمور خارجة عن كيانهما . وإذا تتبعنا الثقافات والحضارات قديمها وحديثها وما يعتورها من تغير وانقلاب وجدنا أن النمو الذاتي ملحوظ في القديم منها والحديث ، ولكنه لا ينفي أن تكون مشتقة من ثقافات سابقة ولا ينفي أن تكون المؤثرات الخارجية السبب في كل مرحلة من مراحلها، كما كان الحال في نمو الثقافة في غربي أوربا من عهد العصور المظلمة إلى عصر نهضة الإحياء ، فتأكيد فكرة النمو الذاتي في تعليل نهضة الإحياء في غربي أوربا بصفة خاصة فيه شيء من المغالطة إذ مهما عظمت المؤثرات الخارجية ومهما عظم الإقتباس من الثقافات والحضارات الأخرى ، فلا بد لكل ثقافة من نمو ذاتي، لأن القائمين بالحضارة والثقافة مخلوقات حيّة نامية، وتورث نموها الثقافي . وهذا النمو الذاتي شأن الحضارات والثقافات، حتى المصطنعة المتكلفة القليلة الحيوية

فكيف لا يكون هأن الثقافات الكبيرة في الأمم العظيمة الاستعداد للنمو الثقافي . ولكنه مع ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن كل ثقافة مستمدة من ثقافة سابقة ، ومهما كان استعداد قبائل التيوتون التي أسست دول غربي أوربا لتنمية الثقافة، فانه من المغالاة في التعصب للعنصر والجنس تهوين المؤثرات الخارجية، وكأن غلاة العنصرية يريدون أن تشذ حضارة غربي أوربا عن القاعدة العامة . ولا شك أن النمو الذاتي في ثقافة غربي أوربا مدين للحضارة والثقافة الرومانية والاغريقية والعربية ، وكل ثقافة من هذه الثقافات مدينة لحضارات أمم كثيرة سبقتها ، فكان الاغريق أساتذة الرومان من عهد اتصال الرومان بهم في مستعمرات الاغريق في جنوبي ايطاليا الذي كان يسمى بلاد الاغريق العظمى (ماجناجريشيا) الى أن غزا الرومان بلاد الاغريق في البلقان والشرق . ومن أجل ذلك صارت الثقافة التي نشرها الرومان في غربي أوروبا تسمى الثقافة الاغريقية الرومانية (جريكو رومان) وقد قضت قبائل التيوتون في العصور المظلمة على الكثير من معالم هذه الثقافة. ولكن بقيت بقية ظلت تنمو الى عهد النهضة . فالاستعداد التيوتوني للثقافة لم يكن يعمل في فراغ من الثقافة والحضارة . وعندما أسقطوا الدولة الرومانية الغربية ظلت الكنيسة المسيحية قائمة تنشر دعوتها بينهم وكانت ثقافة علمائها اغريقية رومانية، فقد نشأت المسيحية أولاً بين اليهود في عصر سادت فيه الثقافة الاغريقية في الشرق . وكان علماء اللاهوت يعتمدون على الفلسفة الإغريقية في محاولة تقريب العقائد المسيحية الى الأذهان ولو أنهم كانوا يفسرون آراء فلاسفة الاغريق تفسيراً يطابق عقائدهم . وقد استحوذ علماء المسيحية على ارسطوطاليس ففسروا آراءه فيما وراء الطبيعة تفسيراً يناسبهم واتخذوا من منطقه أداة للمحاجة الدينية ، ولكن ذلك المنطق كان رياضة كبيرة للعقل، بالرغم من محاولتهم قصره على ما يوافق عقائدهم .

***

وبالرغم من أن ارسطوطاليس كان اغريقياً من العهود السابقة للمسيحية، فقد كاد يُعَدُّ الخروج على قوله حسب تفسيرهم حدثاً عظيماً، وقد خرج عليه أمثال روجر باكون الانجليزي

ولكنه خرج على ارسطوطاليس الباحث عما وراء الطبيعة لا على ارسطوطاليس الباحث عن خصائص الأشياء والأحياء ، وكانت لغة التعاليم اللاتينية . ولكن مادتها مشتقة من الثقافة الاغريقية ، وولوع روجر باكون بالبحث العملي مشتق أيضاً من ثقافة الاغريق وتلاميذهم من العرب . كل هذا يدل أيضاً على ان استعداد التيوتون الثقافي في غربي أوروبا لم يكن يعمل في فراغ ثقافي، وكانت أمم غرب أوروبا بين حضارتين : الحضارة البيزنطية الوارثة لثقافة الاغريق وكتبهم، والحضارة العربية الوارثة لثقافة الاغريق والفرس والهند . فكان غربي أوروبا تحتضنه حضارتان علاوة على مخلفات الرومان . وينسى الذين يحاولون تهوين المؤثرات الخارجية أثر هذا الاحتضان والاكتناف في جميع الثقافات من أقدم العصور كما يتناسون الأدلة اللغوية من أسماء تدل على اقتباس أهل غربي أوروبا الصناعات والفنون والعلوم ، ويتجاهلون الكتب التي كانت تدرس في جامعات غربي أوروبا في القرون الوسطى وأسماء مؤلفيها من الاغريق والعرب .

* * *

ومن الغريب انهم يفعلون ذلك بحجة الدقة في البحث العلمي والتمحيص، ولكن ليس من الغريب ذلك التناسي الذي يستوي فيه العالم والجاهل ، فانه من الحقائق المقررة في علم النفس ان النفس تنسى ما تود نسيانه ولو كان معروفاً ، وهذا أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يخشون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه ، وهذا أيضاً أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يخشون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه، وهذا أيضاً أمر مشاهد في الحياة . وليس بين المؤرخين من ينكر فضل جامعات القرون الوسطى أو المراحل التي سبقتها في تنمية ثقافة غربي أوربا، ولكن الذي ينكر حقاً تفسير نظرية النمو الذاتي تفسيراً يخالف الحقائق بتجاهل الحقائق وتناسيها بتهوين أثر المؤثرات الخارجية في نمو الاستعداد الثقافي في غربي أوربا . وقد ظل القليل من علماء غربي أوربا علاوة على ذلك يلم بعض الالمام باللغة الاغريقية أو الكتب القليلة

المنقولة عنها مباشرة قبل النقل عن العرب . وكان تجار مدن ايطاليا على اتصال بالثقافة الاغريقية القديمة في بيزنطية . وأغارت البندقية بجيش من الصليبيين على الدولة البيزنطية وأسست بها دويلات ما لبثت أن زالت . وقد بدأ انتقال أدباء بيزنطية بكتبهم الى ايطاليا قبل استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية . فالاتصال بين غربي اوربا وبين كتب الاغريق القدماء لم ينقطع انقطاعاً تامًّا لا في وقت السلم ولا في وقت الحرب. ومن المعروف أن بعض مشاهير غربي أوربا تعلموا في مدارس العرب ، وعندما استولى الفونس السادس ملك قشطالة على طليطلة وجد ثقافة عربية متصلة بالثقافة الاغريقية القديمة وكان يغتبط ويسر بأن يسمى حامي الثقافة وراعيها ، وذلك قبل عهد اضطهاد الاسبان للعرب . وقد ترجم ريموند رئيس أساقفة معهد الترجمة كتب الثقافة العربية وساهم اليهود في هذه الترجمة كما أن بعضهم انتقل إلى جنوبي فرنسا ونشر فيها الثقافة العربية . وعند ما ورث الأمبراطور فردريك الثاني مملكة النورمان في جنوبي ايطاليا وصقلية أسس جامعة في نابلي واعتمد في نشر الثقافة على عرب صقلية ويهودها ، وانتشرت الحركة الفكرية في بولونا وبادوا من جامعات ايطاليا وفي مونبلييه وباريس وجامعات انجلترة ، وكانت تدرس كتب ارسطوطاليس وبعض كتب افلاطون وأفلوطين وفرفوريوس الصوري وأبقراط وجالينوس وابن سينا والفارابي والرازي وابن رشد وابن باجة وغيرهم. ومن الظلم تهوين أثر الكتب الاغريقية بأن يقال إن البحث عنها يدل على نضج الذهن قبل الاستعانة بها، فراحل هذا النضج من أثرها. ومن الظلم تهوين أثر الثقافة العربية بأن يقال إن بعضهم أخطأ في فهم أو نقل بعض آراء الأغريق أو انهم اشتغلوا بمحاولة تحويل المعادن الى ذهب أو بالتنجيم فقد كشفوا في الفلك والكيمياء والطب وأدخلوا في الصناعات والزراعات أشياء كثيرة لا تزال أسماؤها العديدة في اللغات الأوربية مشتقة من العربية ، وغيرها وضعت لها أسماء جديدة . والخلاصة هي أن النمو الذاتي لاينفي عظم المؤثرات الخارجية ، وإنه أمر ملحوظ في كل نهضة ثقافية لا في غربي أوربا وحده ، وان نهضة الإحياء بالرغم من مراحل نموها كانت ثورة فكرية شديدة ولدت الهلع والرعب لبعض عواقبها .

ع . ش

فشل دعاة الانقلاب

يخطىء المصلحون الثائرون على النظم الاجتماعية أو الاقتصادية ، عندما يحملون معاولهم لهدم الأسس التي ينهض عليها النظام الاجتماعي القائم الذي اشتركت في اقامته ديانات ووراثات وعقول وأجيال ومدنيات مختلفة ومتباعدة ، حتى استقرت الأوضاع على القيم الموجودة الآن .

قد يكون بعض هذه القيم أو الأسس نتيجة أخطاء أو تكون هي في ذاتها قيماً معوجة. ولكن الحياة قد تفاعلت معها فألفتها وسارت وما زالت تسير عليها . فالحرب والشر والأنانية والأثرة وما إليها من الأسس التي لا يختلف إنسان في ضررها ، كل هذه شرور لا شك فيها ، ولكنها مع ذلك من أسس الحياة التي لا يمكن محوها من التكوين الاجتماعي مهما حاول البشر أن يتخلصوا منها ، بل ان العالم كلما حاول أن يتخلص أو يعمل على الفرار منها دفعته أنانيته وطبيعة تكوينه إلى الاقتراب منها والانغماس فيها .

فالمجتمع في وضعه الحالي، رغم ما فيه من أسس ونظم لا تطاق ، ورغم ما فيه من شرور واعوجاج ، ليس إلاّ آلة فيها من العيوب الشيء الكثير . ولكنها مع ذلك آلة تدور وتؤدي عملها . بل قد تكون هذه العيوب التي نراها من الأسباب الجوهرية لإدارة هذه الآلة .

فعلى الثائرين على نظامنا الاجتماعي أن يفكروا قبل أن يُفَصّلوا آلة الحياة ، وقبل أن يفككوا أجزاءها ، عليهم أن يفكروا جيداً وأن يتريثوا فيما هم مقبلون عليه من هدم لا بناء بعده ، عليهم أن يفكروا هل يستطيعون أن يعيدوا أجزاء هذه الآلة سيرتها الأولى ؟

من السهل أن يمسك الطفل آلة أو ساعة فيحل أعضاءها وتروسها . ولكن من العسير أن يعيدها ثانية إلى ما كانت عليه . فعلى المفكرين الثائرين وعلى قادة الرأي الثائرين الذين

حسبوا القدرةَ في أيديهم على إصلاح العالم بتغيير نظمه بما في رؤوسهم من أفكار هادمة ، عليهم أن يفكروا أولاً هل في استطاعتهم بناء عالم جديد ؟

نعم ان كل مفكر إنقلابي يستطيع أن يبني عالماً جديداً ولكن على الورق أو في خياله الحائر الثائر. من السهل أن تكون مصلحاً خلاّقاً تبعث النظرية تلو النظرية لخلق عالم جديد . ولكن من المحال أن تنفذ شيئاً من خيالك الخصب الحائر . ولقد أصيب هذا العصر الذي نعيش فيه بالحيرة والتردد نتيجة للدُّوار الذي أصاب الأمم بعد حربين فاتكتين وبعد انقلابات اقتصادية واجتماعية هزّت أركان الوجود . فالأمم الآن مصابة بدوار كما يصاب المسافر في البحر بدوار يشعره بالدنوّ من الهلاك .

***

فمن الخطر أن تستمع الأمم وهي في هذه الحال من الدوار والقلق والحيرة إلى الآراء الانقلابية الشاذة . من الخطر أن تضع الأمم حظوظها ومستقبلها وأمانيها وقيم مدنيتها تحت سيطرة قادة لهم نزعات انقلابية هي نتيجة تفكير مريض أو وحي شاذ أو تشاؤم هادم ، فهؤلاء القادة قد أصابهم ما أصاب العالم من دوار وقلق وحيرة وتشاؤم ، ولهذا فليس من البصيرة في شيء أن يستقبل العالم آراءهم إلاّ كما يستقبل آراء المجنون أو المريض.

ان الحياة لا تخضع لعمل الانسان . لأن الانسان إنما هو ذرَّة في كيان الحياة نفسها . وإذا كانت الطبيعة البشرية في تغيير مستمر ، فليس هذا التغيير في طبيعة الحياة أو في قوانينها وإنما هو في مظاهرها فقط فلا يلبث هذا التغيير أن يتراجع حتى يعود من تلقاء ذاته من حيث بدأ — فالطفرات الانقلابية التي جاءت نتيجة المبادىء العنيفة أثر حرب أو حيرة اجتماعية طارئة ، لا تلبث أن تخبو وتزول . ولكن بعد أن تترك آثاراً رجعية في الحياة الاجتماعية كالعاهات المستديمة التي تنشأ في جسم من يصاب بها في عراك عنيف .

***

لقد نشأت بعد الحرب العالمية الأولى نزعات سياسية واقتصادية عنيفة . فكانت البلشفية ثم النازية واستقبلتها الأمم وهي في حالة دوار أصابها بعد حرب طاحنة . فلم يكن للتفكير المادىء من سبيل إلى هذه الأمم ، فذهبت ضحيتها ، ما في ذلك من شك .

ولقد عشنا ورأينا انهيار النزعات النازية . لقد انهارت لا لأنها نزعات ضعيفة في مادتها ، ولكنها انهارت لأنها نشأت عنيفة هدّامة لنظم الحياة المستقرة في طبيعة الكائنات . انهارت لأنها قوية بمادتها ضعيفة بروحها . انهارت لأنها نتيجة تفكير أناني مريض . أليست النازية تنفيذ دعوة الفيلسوف فريدريخ نيتشه الذي بشر بفلسفة القوة والسيطرة ؟ أوليس هذا الفيلسوف رجلاً مريضاً لا ينكر أحد أنه عاش طول حياته متنقلاً في المصحات يقاسي الآلام ، حتى قرّر الأطباء أنه مجنون لا يرجى له من شفاء .

* * *

ولهذا كانت جميع آراء هذا الفيلسوف لا تخلو من أثر المرض والاعوجاج والشعور بالضعف ، فكانت وحي ألم وحيرة وحرمان . ولهذا جاءت تدعو الى ما حُـرم منه صاحبها من قوة وصحة وسيطرة . فنشأت النازية نشأة مريضة ، فدعت دعوة غير طبيعية الى السيطرة والعنف والأنانية . وجاءت والعالم في حالة دوار بعد الحرب العالمية الأولى . فلم يفكر الزعماء يومئذٍ تفكيراً هادئاً سليماً ، بل فكروا تفكيراً منقاداً لعوامل غير طبيعية ، فكانت كارثة إذ تقررت النازية نظاماً لأمة عتيدة من أمم الدنيا ، فسارت هذه الأمة سيراً منحرفاً عن طبيعة الحياة حتى اصطدمت بحقائق الحياة الجبّارة فانهارت انهياراً قاسياً عنيفاً .

وكذلك الحال في الفاشية ظهرت في الأمة الايطالية عقب انقلاب نفسي أصاب الشعب الايطالي من دوار الحرب الماضية . فكان نظاماً مغرراً لا يستقر على طبيعة الحياة في ايطاليا ، ولا يستقيم مع عقلية الشعب الايطالي ، بل أخذ هذا النظام ينفخ في الشعب الايطالي حتى أوجد منه جسماً مكبراً مملوءاً بالهواء لا يحتوي على شيء غير الوهم ودجل الزعماء . فذهبت ايطاليا ضحية قائد مجنون لم يعرف نفسية الشعب الذي يتولاه .

فمن الخطر على النظم الاجتماعية وعلى العدالة ذاتها أن تستقبل الأمم دعوة انقلابية جديدة وهي في حالة نفسية غير مستقرة . فالعالم الآن في حالة دوار نتيجة الحرب الأخيرة ، وفي حيرة وقلق وتردُّد وتشكُّك . فليس من العدالة للانسانية أن يبدأ دعاة الانقلاب ببذر مبادئهم تحت ستار النظريات الاقتصادية أو الاجتماعية الجديدة ، لأن العالم في هذه الفترة

التي نعيش فيها مصاب بدوار شديد ، وقلق مرير ، وحيرة مترددة ، فهو في حالة غير مستقرة لا يستطيع معها أن يتبصر الأمور أو يمتحن منها خيرها أو شرها .

فهؤلاء الدعاة الذين يسمون أنفسهم بما شاءوا من ألقاب ، فيدعون لازالة شرور الحياة من حرب وفقر ، انما هم في الحق قوم يدجلون ويغالطون الأمم ويتربصون بها وهي في حالات نفسية قلقة . لأنهم لن يستطيعوا محو الفقر والحرب لأن الخير والشر عنصران متلازمان في الحياة لا يمكن محو واحد منهما .

فالعيوب التي نراها في الحياة انما هي قوانين ملازمة لقوانين مضادة لها . فهي كالسلب يقابله ايجاب . أو بعبارة أخرى هي كالتيار الكهربائي لا بد لانتاجه من تفاعل بين شيئين متضادين . فاذا انفرد الخير في الحياة كانت الحياة أنشودة تعلو الى السماء لا نستطيع أن نسير على الأرض في ثبات وقوة . وكذلك اذا استبدَّ الشر بالحياة كانت الحياة جحيماً لا يطاق.

فمن العبث أن نحاول محو الحرب أو الفقر . ولكن من الواجب الانساني أن نصرف جهودنا وما فينا من نزعات للخير الى معالجة أثر الفقر وتخفيف ويلاته . وان نؤجل دائماً نزعات الحروب ونبعدها قدر الطاقة عن طريق الحياة . وان نثير في الناس عوامل الخير والمحبة، وأن نعمل على مقاومة الأثرة والأنانية . فواجب علينا أن نعالج أثر الفقر ، ولكن لن نضيع جهودنا في الادعاء بمحو الفقر ، فلن تستطيع قوة بشرية ازالة نظام طبيعي مقرر في كيان نظام الحياة . فالحياة لن تستطيع أن تسير إلاّ بتباين الطبقات واختلاف المواهب والمقدرة على الانتاج ، والتساوي في هذه الحال حكم غير بريء لا يتفق مع العدالة الاجتماعية نفسها .

* * *

وكذلك الحرب ويلٌ وشرٌ ومقتٌ وجوعٌ ودم وانتقام . ولكن لا مفر للحياة منها . قد رأينا وقرأنا أن العالم لا يكاد ينتهي من حرب حتى يتجه الى حرب جديدة تأتي من طريق الذين قاوموها وقاسوها . بل إن الدعوة الى السلام عملٌ شاذٌ في ذاته ، وان كان جميلاً في دعوته . ودعوة السلام قد تؤدي الى حرب ، لأنها دعوة لا تطيقها طبيعة الحياة المنطوية على الأنانية والسيطرة والحقد والأضداد جميعاً .

فالحياة مجموعة أضداد لا شك في هذا ، وهي تسير وفق التفاعل المستمر بين كل ضدّين. ولقد أصبحت هذه الأضداد شرائع تسير عليها الحياة ، فالذين يريدون أن يخلقوا من هذه الشرائع شريعة واحدة ذات صيغة واحدة ، انما يعالجون جانباً من الحياة دون جانب آخر . فالمصلح أو السياسي الذي يدّعي انه يعالج محو الاجرام أو الحرب أو الفقر ، انما هو رجل نظري أو فيلسوف لا أثر للحياة العملية في تفكيره إلاّ من حيث الشكل فقط .

* * *

فالذين يدعون الى محو الحرب يغالطون أنفسهم ويغرّرون بالناس جميعاً ، والذين بدءوا في أوروبا دعوتهم الاقتصادية المشتركة قد فشلوا وهم يسيرون الآن دون وعي منهم الى توطيد الملكيات الفردية وهدم ما قال زعماؤهم بالأمس، بل انهم يتكلمون في صراحة عن وحي لتفكير امبراطوري قائم على الغلبة والسيطرة . وهذا يتنافى مع طبيعة دعوتهم الاشتراكية الاولى التي بدءوها منذ أعوام . والذين يبشرون بزوال الحروب نراهم في قلق من دعوتهم فيدعون الى سلام مسلح ! . فاذا كان السلام لا يعيش على الارض إلاّ في حماية السلاح والدبابة والطائرة والغواصة والقنبلة الذرية ؟ فأي سلام هذا الذي يرفرف على الحياة ؟

* * *

فالعالم يعيش في هذا العصر في حالة حيرة وتردّد ودوار مما أصابه من ويلات حرب دامت سنوات طويلة . العالم الآن مريض يعاني الآلام المختلفة وقد أصاب سوء الظن جميع زعمائه فلم يعد واحد يثق في الآخر . ولم يعد واحد منهم يستطيع أن يتجرد من النزعات الانسانية التي بدأت بها الحروب الماضية . فهل من الخير للعدالة والانسانية أن يقوم نفر من الدعاة للتبشير بمبادىء جديدة لا يستطيع العالم الحائر المريض المتردد أن يفكر فيها، وان يفحص وجهي الخير والشر منها ؟ . ليس من شك في أن هؤلاء الدعاة هم أخطر المعاول التي بدأت تهدم في كياننا الاجتماعي وواجبنا أن نقاوم هذه الدعوات وان نعمل على علاج ما أصابنا من أمراض قبل أن يفتك بنا المرض ويتسع علينا الأمر .

محمود المجوسي

د . د . ت

الهالوك الجديث للحشرات

أو ، كاورو ـ ديفنيل ـ تريكلورو ـ إيثان

الهالوك ، في القاموس ، سم الفأر ،[1] ولذا اخترت هذا اللفظ علماً على المسحوق العصري السام الذي سأصفه في هذا المقال ، وهو خلاصة مما نشرته المجلات العلمية الأجنبية :—

كان أول نبأ قرأناه ، بشأن هذا الهالوك ، ما روته الجرائد في أوائل سنة ١٩٤٤ إذ شرعت قوات الدول المتحالفة في الحرب الحالية ، تعفر به أهالي نابولي ، من هامات رؤوسهم الى سيقانهم ، بغية إبادة القمل من أجسامهم ، وكان هذا الهالوك يجلب من أمريكا بالطائرات ليستعمل في تطهير الايطاليين . فطهروا به مليوناً وربع مليون منهم في ذلك الثغر وحده . فأتيح لهم بهذه الوسيلة قمع وباء حمى التيفوس ، الذي كان يهدد السكان جميعاً . وكان هـذا المسحوق السري الجديد المبيد للقمل يسمى د . د . ت . ولا جدال في كونه قد أتى بالفائدة المنشودة . وهـذا إلى جانب إهلاكه لحشرات لا تحصى ، مما يحيط بالناس ، فينغص عليهم عيشهم . فاذا ما رش امرؤ بعضاً من هـذا الهالوك ، على أي ذَرَى[2] مما يستذري به في مسكنه ، فانه يقتل كل ذبابة تمشي عليه . ويدوم هـذا المفعول ثلاثة أشهر ، ولو عالجت به بطانية صوفية فغسلتها ثم جففتها وكررت هذا العمل الثلاثي ، ثلاث مرات ، ثم جئت بخمس وعشرين عثة ووضعتها على شقة من البطانية عينها ، لا تزيد مساحتها على ثلاث عقد أصبع ، فانها لا تلبث أن تهلك بدلاً من التهامها وبر البطانية .

---

(١) تفضل بالاطلاع على هذا المقال حضرة الاستاذ محمد سليمان الزهيري بك مدير قسم الحشرات بوزارة الزراعة فقرر ان كل ما ورد به ، صحيح بحسب ما أسفرت عنه المباحث والتجارب المصرية

(٢) الذرى ، وزان الحصى — كل ما يستتر به الشخص . وتذريت بالشيء استترت به . ويقال أنا في ظل فلان وفي ذراه أي كنفه وستره ودفئه . واستذرى بالشجرة استظل بها وصار في دفئها . واستذرى بفلان التجأ اليه وصار في كنفه . ويسوغ أيضاً استعمال كلمة دريئة (دروة)

وإذا رششته في حديقتك مرّة واحدة ، قتل الخنافس اليابانية قتلاً يستمر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، واذا رششته على البق استأصل شأفته من الأثاثات القديمة جميعها ، وليس هذا فحسب ، بل قد يدوم تأثيره تسعة أشهر على الأقل فلا تظهر في الفراش أية بقة جديدة في خلال هذه المدة .

ويعتقد علماء الحشرات التابعين لحكومة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، الذين عهد اليهم في دراسة تأثيرات د . د . ت انه من أصلح المواد التي أثمرتها الحرب الحالية لأزمان السلم . وبلغ من إعجابهم بخطورة شأن نتائجه أن شبهوها بفوائد العلاج بعقاقير السلفانيلاميد والبنيسيلين .

ومما ينبغي ذكره إثباتاً للحقائق التاريخية والعلمية ، أن هذا المركّب المبيد للحشرات ، قد تمّ اختراعه في المانيا منذ سبعين سنة . ومخترعه شابٌ المانيٌ تخرّج في إحدى جامعات بلاده ، ولكن لم يكترث له الناس (أي الهالوك) من ذلك الحين حتّى حلّ فصل صيف سنة ١٩٤٣ . وكذلك لم يكن مخترعه يدري مبلغ ما سوف يجنيه الملأ من منافع مسحوقه في الجيل الحالي. وما يقال بشأن هذا المخترع ينطبق أيضاً على هتلر والشركة السويسرية التي تصنع المركب عينه ، وهي شركة جيجي المتحدة Geigy Inc التي نالت رخصة بصنعه في سنة ١٩٣٩ بصفة كونه مبيداً للعث والسوس بيد أنها لم تستطع استغلاله كما يجب . فحدث قبل سنة ١٩٤٢ أن قام كبير جرّاحي الجيش الامريكي، ووزارة الزراعة الامريكية ببحثٍ مستفيض بغية اختراع مهلك حشريٍّ جديد جداً فباءوا بالفشل . وما من شك أن الأوبئة كان لها فصل الخطاب ، في المعارك الحربية ، أكثر من قواد الحرب أجمعين في تاريخ العالمين بأسره .

ذلك أن جيوش أمريكا غدت تقاتل في ميادين حربية كانت أشد أرجاء المسكونة تلوثاً بالحشرات والأدواء على حين كان الروتينون Rotenon قد انقطع وروده من جزائر الهند الشرقية كما ضؤل الوارد من عود القرح فلم يرَ علماء حشرات وزارة الزراعة الأمريكية وكيميائيوها الباحثون مناصاً من اختراع تركيب عشرات من المساحيق القاتلة للحشرات ثم تجربتها . وكان بين هاتيك المساحيق المهلكة التي أتيح لهم الحصول عليها خاسة في أواخر اكتوبر سنة ١٩٤٢ رطل واحد من صنع شركة جيجي المهلك للعث والسوس ، وذلك من

سويسرا عن طريق السفارة الأمريكية تحت بصر هتلر ورغم أنفه .

وجربوه أولاً في إبادة خنافس الفول المكسيكية فلم ينجح . ثم اختبروه في إهلاك حشرات أخر فأحرزوا نتائج طيبة ، شجعت خبراءهم على مواصلة تجاربهم في أربعين مركزاً من مراكزهم الزراعية المنتشرة من سواحل الاطلنطي الى شواطىء المحيط الهادي ، فتمكنوا قبل حلول مايو سنة ١٩٤٣ من جعله هالوكاً فائقاً للقمل . وشرعت شركة ديبون في صناعته في مصنع جديد خاص أنشأته لأجله وأنفقت عليه نصف مليون دولار ، وذلك بعد حصولها على الترخيص اللازم من شركة جيجي .

ومن ذلك الحين قام الجيش الأمريكي بتوزيع هذا الهالوك توزيعاً مباشراً بطائراته في مدينتي نابولي والقاهرة وآفاق المحيط الهادي . وفرض على كل جندي حمل علبة تحتوي على أوقيتين منه ليعفر بها ثيابه قصد إبادة ما يعلق بها من القمل الكبير جميعه ، فيستمر مفعول الهالوك فيها ثلاثة أسابيع على الأقل . وكانت هذه الفترة كافية لقتل كل ما يتولد في خلالها من صغار القمل أيضاً .

وعند ما وصل مسحوق د . د. ت الى بلاد أفريقية في سنة ١٩٤٣ طفقت القوات الأمريكية تعفر به البدو وقايةً لهم من وباء التيفوس . والبدو كغيرهم من الخلق عرضة لهجوم القمل ما داموا لا يستحمون . ولا عجب فقد بلغ عدد الذين أصيبوا بحمى التيفوس من أهالي الولايات الفرنسية في شمال أفريقية وحده في سنة ١٩٤٢ أكثر من مائة الف شخص

ولما قام الجنود الأمريكيون بتعفير فوج من البدو بالهالوك المشار اليه جعلوا يشعرون بالارتياح إذ أصبحوا غير مضطرين الى خمش أجسادهم « هرشها » لأول مرة في حياتهم .

وبلغ من إغتباط أولئك الأعراب بنتيجة هذا المسحوق المبيد للقمل أنهم أشادوا به في أرجاء بلادهم ، فنال أحسن التقدير فأخذ القوم يهرعون طائعين مختارين زرافات ووحداناً الى مراكز التعفير والتطهير . فأمها أولاً الآباء وأبناؤهم ثم الأزواج وزوجاتهم . واشتد الأقبال عليها من النساء عامة حتى بلغ عدد الأعراب في أحد المراكز الخاصة بالتطهير ذات يوم ألف نفس . وكانوا يقفون صفوفاً طويلة حيث كان المرء يبصر كلاً منهم عاكفاً على حك بشرته قبل تعفيره .

ومن طبائع القمل أن يعمد مرتين في اليوم الى امتصاص الدماء من فريسته ، ليتغذى بها ، فاذا ظفر بأربه منها تمكن من نشر التيفوس في بيئته ، هذا اذا كان ملوثاً بجراثيم تلك الحمى من قبل . ومن دأب القمل أيضاً أن يحتشد حول آباط المرء وأربيته ، لأن ذينك المخبأين دافئان ليّنان . ولذلك أعدَّ الأمريكيون بما طبعوا عليه من الذكاء ، منافيخ ذات أذرع هي خراطيم من المطاط تمتد على ظهر الشخص وفوق أكمام ملابسه وفي بنطلونه وسرواله . فكنت تراهم حيث يجتمعون يتكأكأ حولهم الأعراب طالبين المناعة من القمل

ومما رواه شاهد عيان في هذا الصدد أنه رأى فرقة ابادة القمل تحل في بلدة أقيم فيها عرس بدوي نخم فوقفت الفرقة الحفل ريثما تؤدي عملها ، حيث اصطف المدعوون جميعاً وعلى رأسهم العروسان وحينئذٍ أدير منفاخ الهالوك وصار يقذف ذلك المسحوق على أجسادهم وثيابهم حتى انتهت عملية التعفير ، فانفرط عقد الاجتماع ، وأخذ العريس عروسه مطهرة من القمل .

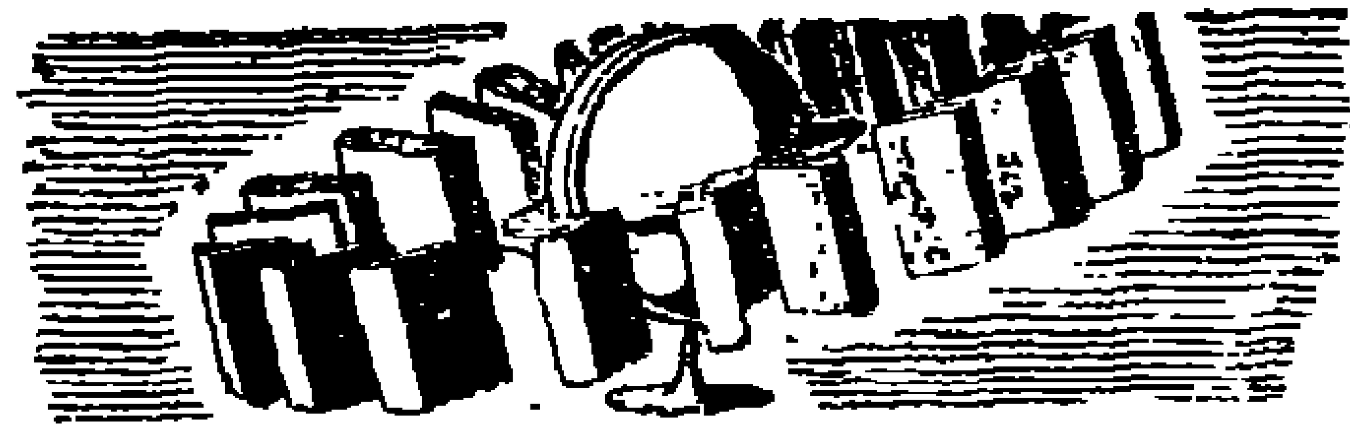
وتبين للخبراء الكيميائيين أن الهالوك الذي أخذ من أسرى الألمان ، كان أضعف مفعولاً من الهالوك الأمريكي ولذلك كان تطهير أولئك الأسرى من القمل أول واجب يقوم به الأمريكيون نحو أسراهم ويمتاز د. د. ت على غيره من الهواليك بدوام تأثيره زمناً أطول منها جميعاً . فساحيق عود القرح مثلاً المبيدة للحشرات تفقد خاصيتها بعد انقضاء يوم أو يومين . والروتينون يفقدها في ثلاثة أو أربعة أيام . على حين أن مركبات الزرنيخ والفلوريد انما تقتل الحشرات عند أكلها اياها لا غير . أما النيكوتين فيهلكها بمجرد رشها عليها رشاً مباشراً . وهذا بينما د. د. ت يبيدها في الحالتين كلتيهما ، سواء أكلته أو لمسته فلا يضطر مستعمله الى رشه رشاً مباشراً على الحشرات التي يحتاج الى اهلاكها ، بل حسبه أن يختلط الذباب الملوث بهذا الهالوك بغيره من السليم فيقضي عليه .

ولهذا السبب يبيد د. د. ت الحشرات الخبيثة ومنها سوس الفاكهة المعروف باسم السوس الشرقي الذي يلتهم الخوخ . أما السموم المعدنية القديمة التي كانت مستعملة لمقاومته فلم تجد نفعاً لأن تلك الديدان عندما تنقف ، لا تلبث أن تزحف نحو أعناق الفاكهة حيث تنقب

عجمها . أما السموم التي تؤثر باللمس فهي وقتية لأنه ينبغي وضعها في الميعاد الذي تنقف فيه الديدان حيث تشرع في الزحف . ولكن د . د . ت اذا رشّ في ذلك الموضع من قبل ، ظلّ مفعوله ثابتاً حتى اذا نقف الدود ، لقي فيه حتفه . ومن أشد الحشرات فتكاً بالزراعة دودة التفاح وهي حشرة صغيرة مجنحة سنجابية اللون تعلو جلدها بقع سمر جميلة ويخيل لناظرها أنها عادمة الضرر ولكنها تلد دودة بيضاء هي التي كثيراً ما يراها الانسان في باطن التفاحة حيث تفسدها فساداً يفضي الى كساد سوق التفاح فتبلغ خسائر زراعه ملايين الجنيهات سنويًّا .

وذلك أن فراشة التفاح تبيض بيضها على أزهاره فيفقس البيض أساريع . وعند ما تتكوَّن التفاحة في قاعدة زهرتها تلتهم هاتيك الأساريع قلبها ، فترى التفاح الذي تسطو عليه الأساريع يتساقط من أشجاره قبل نضجه بزمن طويل . ومتى نقبت قلب التفاحة غادرتها وجعلت تنسج حول نفسها شرانق من خيوط حريرية دقيقة تتعلق بها تحت لحاء أشجار التفاح . ثم تظل في هذا الدور من أطوار حياتها وهو طور الزيز نائمة مستكنة حتى تتحوَّل فراشاً . ويشاهد الطائر المسمى نقار الخشب يلتهم أفواجاً من هذا الفراش . وعندما يصير الزياز فراشاً ينطلق من شرانقه طائراً الى أزهار التفاح ليبيض عليها استعداداً للفقس التالي . ويبدأ ظهور الفراش في يونيو . ولإبادة الأساريع يرش زراعو الفواكه أشجارهم بمحلول أخضر باريس أو بزرنيخات الرصاص وذلك عند ما تبدأ الأزهار في التساقط . وقد حيّرت هذه الحشرة زراع التفاح في الأقاليم الغربية من الولايات المتحدة الاميركية . فيضطرون كل سنة الى رش بساتينهم من خمس الى تسع مرَّات بالمساحيق القتالة للحشرات وقايةً لمحصولاتهم من غوائلها . ولا يخفى ما يتطلبه ذلك الرش من فادح النفقات . وهذا يرجع الى كون زرنيخات الرصاص التي تستعمل لذلك القصد تزول عند ما يتساقط عليها الماء . وأما د . د . ت فهو على النقيض من ذلك يلتصق بها فتصبح حاجة الزرَّاع الى رشها به أقل منها بسواه . و د . د . ت يقتل النحل كما يفتك بغيره من الحشرات ولذلك يفرض على مستعمله اتخاذ الوسائل التي تفضي الى الانتفاع به واجتناب ضرره

عوض جندي



مكتبة المقتطف

الملك

لمحمود حسن اسماعيل — ١٩٠ ص من الحجم المتوسط — شركة فن الطباعة

ليس أحبّ الى المصريّ من اسم « الفاروق » ، وليس أقرب الى فؤاد كل من روى ظمأه بماء النيل من المليك الجليل الجالس على عرش مصر .

فقد وضع الفاروق — حفظه الله — مذ اعتلى أريكة العرش خطة لنفسه لا يزال يعمل جاهداً على تحقيقها . فجلالته يروم أن يسعد شعبه ليسعد هو ، ويبغي أن يرفع مستواه المعيشي والصحي لتقرّ عيناه ويبشّ وجهه . إن المليك أعلن الحرب على أعداء الوطن : تلك الجهالة الفاشية ، وذلك الفقر الضارب أطنابه ، وهذا السقم الذي يتسلل الى الابدان فيضعفها . شهر جلالته الحرب وحرص على تشجيع كل من يسهم في مكافحة تلك الادواء الثلاثة رغبةً منه في توفير الرفاهية لشعبه وتمكينه من أن يصبح في بحبوحة سابغة .

تلك المآثر الجليلة الحميدة التي يزجيها المليك الى شعبه موصولة غير متقطعة ، وهذه الرغبة الأكيدة في الأخذ بناصرة « الفلاح » رمز المصري ، وجدت صدًى من أصدائها الكثار في شاعرٍ رقيق العاطفة مرهف الحسّ ورد على العاصمة من الريف وفيه ميل وحب عظيمان للريف وأهله ، وعطف على آهليه من الفقراء والمعوزين ، فلم يسع الشاعر إلاّ أن يترجم تلك الأصداء في قريضٍ ينظمه ، وشعر ينشده . ومن تلك المنظومات يتألف ديوان « الملك » الذي أخرجه الاستاذ محمود حسن اسماعيل أخيراً .

وهل أجمل في التعبير عن مكنونات هذه العاطفة المتأججة من أن يقول محمود في إهداء كتابه للمليك :

« من القرية التي خُضت ظلامها وأسقامها حتى طرقت باب الكوخ بيمينك لتطمئن على حياة شعبك ، فشددت ساعد الفلاح والعامل ، ورقأت دمعة البائس والسقيم ، ونفضت غبار

الذلّ والمسكنة عن هؤلاء الذين طرحتهم عبودية الفقر والجهالة في كهوف النسيان ... »

« وهل أوقع في النفس من أن ينشد الشاعر :

كم بائسٍ كنت سلوانًا لكربته لولاك من دمعه يروى ويقتات
وكم شقيّ الثرى عاري الأديم مضت رفرافة منك تحييه السعادات
وكم خريفٍ على الأكواخ أهلكه نداك فهو رياحين وإيكات
عطفٌ وبرٌ وإحسانٌ ومرحمةٌ يا قوم من هنا تزكو العبادات »

ولو رغبنا في الاستدلال بكل ما سجله الشاعر عن برّ المليك بالمعوزين والمكروبين ، لأحوجنا نقل معظم ما اشتمل عليه الديوان . ولكن يكفي أن نجمل الاشارة فنقول إن الشاعر محموداً أخذ بكل عملٍ خيري نهض به الفاروق بوحي من عاطفته الواعية الرحيمة ، فسجل رعاية جلالته لمشروع مكافحة الحفاء ومشروع يوم المستشفيات وزيارته لمديريتي قنا وأسوان لمواساة المرضى وتوزيع المؤن عليهم وانقاذهم من ويلات الداء . واذا كانت آلة التصوير تنجح في تصوير تلك المآثر الملكية فان الشعر يفضلها في تصوير الدوافع النبيلة التي أوحت الى سيد البلاد بأن يعنى بأحوال شعبه ، تلك الدوافع التي لم يستطع المليك أن يكتمها أو يخفيها .

***

والشاعر لم يكد يرى المليك فاروقاً يرعى العروبة ويعتزّ بها وينصدّر الداعين اليها حتى سارع الى نظم انطباعات ذهنه بلغة الشعر التي يجيدها ، فسجل اجتماع رضوى بين أهلي مصر والجزيرة العربية قائلاً :

عودي واحكي لي عن نجوى همهمتها الريح على « رضوى »
لجراح الشرق غدت سلوى وحديثاً في الدنيا يروى
عن أول ضيف للعرب
لقيته جبالهُمُ كنبي
مجهول الزورة مرتقب
نجأ الصحراء بميعاد ما كان بخاطرها يُطوى
فاروق ! وأنت على العرب أحنى من قلب أخٍ وأب
جمّعت هواهمْ في سبب ووصلت به خطو الشهب
ولقد وحّدنا في البلوى

عهدٌ كالصخرةَ أو أقوى
تُطوى الأعمار ولا يطوى
وتمر جميــع الآباد وصداه يمــر على الحقب

وسجل عطف الفاروق على فلسطين المجاهدة الأبية ومناصرته لها في شدائدها وكفاحها للحصول على أمنياتها فقال :

هذي فلسطين تغلي في مراجلها كأنما قذفت في جوف بركان
تلفت القدسُ فيها شاكياً فمضت أنوار ملكك في عطف وتحنان
ترعى وترحم والأقدار شاهدة وفي يمينك الاسلام سيفان

وحيا الشاعر ملكي مصر والعراق لدى التقائهما من عامين وحمد للبنان الشقيق أرزته التي غرست في ساحة الفاروق رمزاً لعرى الصداقة الوثيقة والمودة الأكيدة بين القطرين .

ولم ينسَ الشاعر أن يسجل لجلالة الملك برّه بشطر النيل الأعلى ، فتحين مناسبة افتتاح خط التلفون بين القاهرة والخرطوم وتحادث الملك مع حاكم السودان العام ، ونظم قصيدة من عيون الشعر عنوانها « أصغى لك السودان » قال فيها :

بالسفح والقيعان
والدوح والأغصان
والموج والشطآن
أصغى لك السودان

واستوقف ناظري في ديوان « الملك » أن محمود حسن اسماعيل يكثر من مطالعة الكتب المقدّسة دون الاقتصار على واحد منهـا ، ويستشهد بها في كثيرٍ من شعره ، وهو في هذا شبيهٌ بالشاعر أحمد شوقي بك . ومن ذلك على سبيل المثال قوله :

كل الطبيعـة في الشطـين زامرة وأنت « داوودها » : لم تروك السيرُ
وقوله : قالوا : روى الموتُ بلواهم ! فقلت لهم ركاب « عيسى » يَرُدُّ الموتَ كذّابا
وقوله : بزورقٍ كنتَ « عيساها » وبي حذَرٌ لولا جلال الهدى أدعوك رحمانا !
وقوله : من أرضهم شمّت رسالة « أحمد » بالنور لا بالسيف عنه تناضل
وقوله : وناي « داود » من قديم يرنُّ في سفحه صداه
وقوله : وردّدتك « مزامير اً » قوافلها كأنما أنت « موسى » وهي « توراة »

والحق إن المحاولة التي قام بها الأستاذ محمود حسن اسماعيل في تدوين شعور المواطن المخلص إزاء المليك الجليل ، محاولة تستدعي الإعجاب ، لأنه نظم من بعض نفسه قلادة للفاروق ، ونسج من عواطفه طُرْزاً فاخرة ، « وسكب من دمه غناءً يفيض للدنيا بحب المليك والولاء له » . وليس هذا الشعور الصادق شعور مصري فحسب ، بل شعور كل عربي فجأتهُ مآثر الفاروق واستحوذت على إعجابه ، واغتصبت منه الحبّ أكيداً .

وديع فلسطين

الازهر بين الماضي والحاضر

تفضلت مجلة « المقتطف » الغراء الزهراء فنشرت في عددها الصادر في شهر أبريل من سنة ١٩٤٦م ملحقاً أدبيّاً تاريخيّاً عنوانه «الأزهر بين الماضي والحاضر» وقد كتبه فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور علي رجب أستاذ الأخلاق بكلية أصول الدين الإسلامي بالجامعة الأزهرية ، وبذلك أسدت مجلة المقتطف إلى الأزهر والأزهريين ، بل إلى الإسلام والمسلمين يداً بيضاء ، وجميلاً مشكوراً مذكوراً ، لأنها مهدت بنشر تلك الدراسة الواسعة عن الأزهر في ماضيه وحاضره السبيل لدراسة أحوال الأزهر ومعرفة ما يتعلق به وما يرجى منه وما يعلق عليه من آمال ، أمام أولئك الذين لم يتصلوا بالأزهر عن قرب ، ولم يعرفوا من أموره وأسراره شيئاً ذا بال ، ويزيد هذا العمل جلالة وقدراً حينما نذكر أن قرّاء المقتطف الغراء جمهرة كريمة من الأدباء والعلماء والمثقفين ، فهذا بلا شك نصرٌ كبير للأزهر ، وفائدة كبرى لنشر صفحات مطويات من تاريخ هذا المعهد العتيق !! . .

ولقد تحدّث فضيلة الأستاذ منصور علي رجب حديثاً حسناً محكماً عن الأزهر وتاريخه المادي والعلمي والتعليمي والديني ، وذكر أشهر الكتب التي تدرس في الأزهر ، وتحدّث عن مجلس الأزهر الأعلى ، وعن المعاهد الدينية ، وعن شيوخ الأزهر وطلبته وميزانيته وخريجيه ومكتبته ، والاتجاه الحديث للازهر ، وكيف ينبغي أن يكون ، تحدّث عن هذا وعن غيره حديثاً جذّاباً ، في عبارة واضحة وعرض أخاذ ، فله من أبنائه وإخوانه الأزهريين شباباً وشيوخاً أخلص الحمد والشكر على ما قدم من صنيع خالص لوجه الله ووجه الأزهر الشريف .
إلاّ أن لي بعض ملاحظات على هذا البحث النفيس أرجو أن يتقبلها الأستاذ الجليل بصدره

الرحب ، وليثق أنني لا أريد بهذه الملاحظات طعناً أو تقداً ، وإنما هي تعليقات سريعة بدت لي في أثناء المطالعة فرأيت أن أنشرها في المقتطف حيث نشر بحثه لتكون كخاتمة لما بدأ ، إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

١ — لقد أعجبت كثيراً بمقدمة الاستاذ الكبير اسماعيل مظهر رئيس تحرير مجلة المقتطف التي قدم بها هذا البحث ، إذ كان صنيعه مشكوراً مأجوراً حينما أثبت هذه الشوقية الرائعة الخالدة التي أرسلها أمير الشعراء لتردّدها ألسنة الدنيا ويكررها فم الزمان ، وكأن الأستاذ اسماعيل قد أراد أن يستدرك في لطف ورقة على الأستاذ منصور ، إذ ما كان يجوز له بحال من الأحوال أن ينسى في مقام الحديث المفصل عن الأزهر هذا القصيد المجيد ، فقصيدة شوقي في الأزهر قلادة فريدة يتيمة لن يزيدها كرّ الليالي ومرّ الأيام إلاّ ذيوعاً وانتشاراً ، وكيف ينسى الأزهريون قصيد شوقي في جامعتهم الكبرى وهو يقول :

واخشع مليًّا واقض حقّ أئمة طلعوا به زُهْراً ، وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالةً وأعز سلطاناً ، وأفخم مظهرا

ويقول مخاطباً الأزهر الشريف :

يامعهداً أفنى القرون جدارُه وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نورُه وأضاء أبيض لجّها والأحمرا

ويقول مخاطباً جموع الشباب الازهريين :

يا فتية المعمور سار حديثكم ندًّا بأفواه الركاب وعنبرا

. . . .

هزّوا القرى من كهفها ورقيمها أنتم لعمر الله أعصاب القرى !

٢ — لاحظت أن الكاتب قد ذكر في الصفحة الثامنة سلسلة المراجع والمصادر التي استقى منها بحثه ، وألاحظ أن بعض هذه المصادر لم يكن هناك داعٍ للتطويل بذكره ، إذ أنه لم يستفد منه إلاّ التافه اليسير ، وإذا كان المؤلف حريصاً على التدقيق في هذا فكان الأولى أن يذكر كل مرجع عند الاستفادة منه ، ولو في هوامش الصفحات ، حتى يكون القارىء على علم بما نقله الأستاذ من هذه المصادر !

٣ — نقل المؤلف في صفحة (٢٣) ذلك المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الظاهر برقوق والذي كان يقضي « بأن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي ، وترك موجوداً فإنه يأخذه المجاورون بالجامع » . وقد كنت أتمنى أن يقف المؤلف أمام هذا المرسوم وقفة طويلة ليستخلص منه عبرة وتذكرة يذكر بها إخوانه الأزهريين ، علَّ ذلك يكون باعثاً لجمع أشتاتهم وتوحيد صفوفهم ، وحبذا لو كان المؤلف قرن هذا بذكر العظات الاسلامية التي تتصل بهذا الموضوع كحادث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، فانه مما يصدع القلب ويرمض النفس أن تدب عقارب الشقاق والاختلاف بين صفوف الأزهريين وهم الأماثل الأفاضل ، فيكون لها خطير الآثار ! . .

٤ — في صفحتي (٢٥ و ٢٦) تحدَّث المؤلف عن الأروقة في الأزهر ، وذكر أسماء كثيرة لها ، بعضها معروف للناس وبعضها مجهول ، وقد كنت أحب أن يبين الاستاذ ما بقي من هذه الأروقة الى الآن ، وما زال منها أو اندثر أو تحوّل ، وحبذا لو أن الكاتب بنى حديثه عن هذه الأروقة على مشاهدة شخصية لها يقوم بها حتى يتعرف مواضعها وهيئاتها ، فيكون حديثه حديث رؤية وعيان .

٥ — في صفحة (٢٩) ذكر الأستاذ المؤلف طرفاً من ذكر الشيخ الجليل والمجاهد الاسلامي العظيم والداعية الصادق عز الدين بن عبد السلام ، ولكنه لم يذكر إلاَّ شيئاً قليلاً ولعزّ الدين مواقف كثيرة مشهورة ، حبذا لو عطر المؤلف بها بحثه النفيس ، وخصوصاً ما يروى عن عزّ الدين في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الحق ، وصدق الجهاد للباطل !.

٦ — ذكر المؤلف في صفحة (٤٦) وما بعدها الكتب التي تدرس في الأزهر ، ولم يبين لنا هل يريد بذلك الكتب التي كانت تدرس في الأزهر قديماً ، أو التي لا تزال تدرس الى اليوم ، وقد أوقعني ذلك في حيرة كبيرة ، لأن المؤلف قد ذكر كتباً ليست موجودة الآن ، أو لم توجد ، ونسي كتباً هي تدرس الآن ، فمثلاً لم يذكر في كتب النحو « أوضح المسالك » لابن هشام مع انه يدرس الآن في القسم الثانوي ، وفي الصرف لم يذكر كتاب « شذا العرف » ولا المذكرات الأخرى التي وضعها الأساتذة مثل « دروس التصريف »

للشيخ محيي الدين و « تصريف الأفعال » للشيخ عنتر و « تصريف الأسماء » للشيخ الطنطاوي وغيرها . وفي علوم البلاغة لم يذكر كتابي « زهر الربيع » و « حسن الصنيع »، وفي التفسير لم يذكر تفسير « الكشاف » مع انه مقرَّر في كلية اللغة العربية حرسها الله معقلاً للغة القرآن وأدب العرب ، وفي الحديث لم يذكر « صفوة صحيح البخاري » ، وفي الفقه لم يذكر كتابي « الاختيار » و « الهداية » . وقد ذكر في فقه الحنفية كتاب « كنز الدقائق » وهو غير موجود ، وشرح الحصكفي وهو غير موجود ، وكذلك كتاب « غرر الأحكام ». والكتب الأزهرية في الواقع باب واسع يحتاج الى بحوث وبحوث ، وحبذا لو فكرت مشيخة الأزهر الجليلة في اقامة معرض للكتب الأزهرية على غرار « معرض الكتاب العربي » الذي أقامته وزارة المعارف في شهر يونيه سنة ١٩٤٦ م ليستطيع هذا المعرض أن يقدم للناس صورة مفصلة عن الكتب الأزهرية وموضوعاتها وأشكالها وتطورها وما يتصل بها .

٧ — في صفحة (٥٥) قال المؤلف ما نصه : « بعد ذلك نعرض الأدوار التي مرَّت بالأزهر حتى وصل الى ما هو عليه الآن من نمو بفضل البذرة التي بذرها السيد جمال الدين الأفغاني ، وتعهدها من بعده تلميذه الامام الشيخ محمد عبده ، ويقوم الآن على حراستها وإنمائها تلميذه المخلص الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق » !! ..

وأين المراغي إذن أيها الأزهري المنصف ؟ .. ولماذا لم تذكر اسمه في هذه السلسلة ، وهو سابق على شيخ الأزهر الحالي ؟ .. الواقع الذي لا يجادل فيه أن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام المراغي — سقى جدثه الغيث — قد جاهد جهاداً كبيراً في اصلاح الأزهر ، فهو الذي سهر على الكليات الازهرية ، وهو الذي بعث البعوث ، وهو الذي ضاعف الميزانية ، وهو صاحب الدروس الدينية ، وهو مصلح الوعظ والارشاد ، وهو منظم البعوث الشرقية الى الأزهر . ولو كان المجال مجال الحديث عن المراغي لأفضت بتفصيل في تعداد مآثره ومفاخره ، ولكني أكتفي بأن أعتب عليك لأنك لم تخصه بمثل ما خصصت به مثله أو من هو دونه بالحديث والتقدير :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى   إني أخاف عليكم أن تلتقوا !

٨ — في صفحة (٥٦) بدأ الحديث عن مراحل التعليم في الأزهر الشريف ، وتحدَّث عن علوم القسم الابتدائي ، ولكنه لم يذكر ما يشترط في الطالب لقبوله في هذا القسم مثل حفظ القرآن الكريم وتجويده ، ومعرفة القراءة والكتابة ، والاحاطة بقواعد الحساب الأولية ، وتجويد الخط ، والاملاء .

* * *

وقد ذكر في هذه الصفحة نفسها العلوم التي تدرس في كلية اللغة العربية فترك منها المطالعة والمحفوظات والانشاء .

وذكر العلوم التي تدرس في كلية الشريعة فذكر بينها « آداب اللغة العربية وعلوم البلاغة » وهي غير موجودة الآن ، وفعل مثل ذلك أيضاً عند ذكر العلوم التي تدرس في كلية أصول الدين .

٩ — في صفحة (٥٧) تحدَّث عن الشهادة الثانوية الأزهرية فقال إنها « تمنح لمن أتموا دراسة القسم الثانوي ، وتخوّل صاحبها الاندماج في الكليات » وهو يقصد الكليات الأزهرية . والواقع أن هذه الشهادة لا تخوّل صاحبها هذا فقط ، بل تخوله أيضاً الدخول في بعض كليات الجامعة الفؤادية ككلية الآداب وكلية دار العلوم ، أو الدخول في مدرسة الصيارف ! .

١٠ — في صفحة (٦٤) تحدَّث عن الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر المتوفى سنة ١١٧١ هـ . ثم تحدث بعد ذلك عن ديوانه المليء بالغزليات والنسيب ، ثم أورد له تلك القصيدة التي تسيل رقة وعذوبة ، والتي ذاعت على ألسنة المغنين ، ومطلعها :

وحقك أنت المنى والطلب ‍ ‍ ‍ ‍ وأنت المراد وأنت الأرب

وكنت أتمنى أن يقف الأستاذ المؤلف أمام هذه القصيدة الغزلية الرقيقة التي ينظمها شيخ للأزهر وإمام للمسلمين ، ثم يستخلص من هذا درساً يعلم فيه الأزهريين أن الوقار لا ينافي الشعر ، وأن الأزهرية لا تناقض الأدب ، وأنه من الواجب على ولاة الأمر في الأزهر الشريف أن يعنوا كل العناية بالناحية الأدبية في الأزهر ، وذلك بتشجيع الأدباء ومساعدة المؤلفين ونشر الكتب الثقافية وتنظيم المحاضرات وإصدار المجلات في كل كلية

وكل معهد . فرأس مال الأزهري في الحياة هو لسانه وقلمه ولن يسلم اللسان ولن يستقيم القلم إلاّ بالأدب .

١١ — في صفحة (٦٦) ذكر من مشايخ الأزهر الشيخ أحمد العروسي ، وقال إنه من « منية عروس » وصحتها « منيل عروس » وهي بلد أخي الاستاذ زكي سويلم خريج كلية اللغة العربية حرسها الله معقلاً للغة القرآن وأدب العرب .

١٢ — ترجم المؤلف في صفحة (٦٩) للمغفور له الامام المراغي ترجمة وجيزة لا تليق بالمراغي العظيم الذي لم يخف المصاب فيه بعد ، وخاصة إذا قارنا هذه الترجمة بترجمة المؤلف للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر الحالي ، فقد أفاض في الأخيرة ، على الرغم من أن ذكر الشيخ مصطفى قد تردَّد خلال الكتاب أكثر من عشر مرات ، تارةً بإيجاز وتارةً بإسهاب!

١٣ — ألاحظ أيضاً أن المؤلف حينما تحدَّث عن مكتبة الأزهر ومحتوياتها لم يتحدَّث عما تحتاج هذه المكتبة من ترتيب وتنظيم وتيسير وبناء جديد ، حتى ينتفع بها الناس ، وكذلك لم يذكر عند حديثه عن الكليات أماكن هذه الكليات حتى يعرفها من لم يشاهدها ، وكذلك لم يتحدث بافاضة عن المدينة الأزهرية وما يجب أن تحتوي عليه من معاهد وملاعب ومساكن وقاعات ومرافق .

١٤ — في صفحة (٨٠) قال المؤلف : « وهنا لا أقصد أن يحرَّم على الطلاب الاشتغال بالسياسة فهذا حق من حقوقهم ... » . وكان الأجدر بالأستاذ أن يفصل هنا معنى السياسة التي يريدها ، لأننا في الواقع نختلف كثيراً حول تحديد معنى السياسة ، فان كان المراد بها هو خدمة الوطن والعمل لوجهه ، وإجابة داعيه حين يجد الجد وتتأزم الأمور فهذا حق بل هذا واجب مقدَّس على كل وطني ، وإن كان المراد بها هو المظاهرات والتحطيم والحزبية والتفرق والتشدق بالألفاظ والخروج عن الحدود ومجاوزة الاختصاص فهذا شرٌّ يجب التعوذ منه ، وهذا هو الذي دعا الشيخ محمد عبده الى أن يلعن السياسة والساسة ومادة ساس يسوس فهو سائس ومسوس الخ . .

١٥ — هذا وقد ختم المؤلف بحثه بالآمل التي يرجو أن تتحقق ، ولا مانع من اني

يجب اجراؤها كي ينتظم الأمر في الأزهر ، فهل يسمح لي الأستاذ المفضال أن أضيف الى ما ذكر أنه يجب أن ينظم التأمين الصحي وتنظم الوحدات الصحية العلاجية في الأزهر ، ويجب أن تقدم وجبة الغذاء للطلبة حتى تضمن لهم غذاءً صحيًّا ، ويجب أن تصرف للطلبة جميع الكتب والأدوات التي يحتاجون اليها كل عام ، حتى لا يحدث الاضطراب أو الاهمال في الواجبات المدرسية ، ويجب أن يكون لكل كلية مجلة ، بل لكل معهد ديني مجلة ، ولكل كلية نادٍ أدبي اجتماعي لائق ، ويجب أن ينظم الاتصال العلمي والثقافي بين الأزهر ، وجامعتي فؤاد وفاروق ، ويجب أن يكون لكل كلية ولكل معهد مسجد كبير تقام فيه الصلوات والجمع ، ويخطب فيه الأساتذة والطلاب ليمهروا فنون الوعظ والإرشاد ، ويجب أن يعنى داخل الكليات والمعاهد بالعبادات الدينية اليومية ، والمظاهر الإسلامية والتقاليد العربية الكريمة ، ويجب أن تحد من حرية الطالب فقد جعلته الظروف الأخيرة أشبه بمستبد لا يعرف له رادعاً أو واجباً ، وبالجملة يجب على الأزهر أن يعنى باستكمال المظاهر الجامعية ، دون اغفال الإصلاح المعنوي حتى يستطيع الأزهر أن يسير على طريق لاحب واضح ، فيؤدي رسالته ، ويشارك في توجيه العالم ! .

أما بعد ، فأكرر شكر الأستاذ الجليل منصور علي رجب على بحثه ، إذ هو أول أزهري فيما أعلم حاول التأريخ لجامعته الكبرى ، وأرجو أن يسارع إخوانه أساتذة الأزهر بالسير على منواله والاقتداء به فنرى منهم من يكتبون عن معاهدنا وكتبنا وشيوخنا وعيوبنا وحسناتنا وماضينا ومستقبلنا ، كما أرجو ألاّ يقتصر الأستاذ منصور على ما قدم ، فله من قلمه السيال وأسلوبه الجميل وعرضه الشائق ، وفكره الناضج ، ما يجعله أقدر من غيره على السبق والتبريز في هذا المضمار ! ! .

* * *

كما أكرر شكري للمقتطف الغراء ، ولمحررها الكريم ، ولأسرتها النبيلة ، فقد يسروا لأحد أبناء الأزهر أن يقول في معهده كلمة الانصاف في زمن قلّ فيه المنصفون ! ! .

احمد الشرباصي

المدرس بالازهر الشريف

نابليون

تأليف اميل لودفيج : ترجمة الاستاذ محمود ابراهيم الدسوقي : الجزء الاول ٣٥٢ صفحة
من القطع المتوسط : القاهرة ١٩٤٦

أول ما يمتاز به أسلوب اميل لودفيج في التراجم انه أسلوب حديث خالف به ذلك المؤلف النابه أساليب كتّاب التراجم منذ أن بدأ صموئيل جونسون يكتب تراجم العظماء في انجلترا في القرن الثامن عشر . قيل ، وقيل بحق ، ان جونسون أعظم من ترجم عن حياة العظماء من كتّاب العصر الحديث . وتراجمه في الشعراء من عيون الأدب العالمي . أما الفارق بينه وبين لودفيج وهو أعظم كتّاب التراجم اطلاقاً في عصرنا الحديث ان جونسون يستمد أسلوبه من العقلية الانجليزية ، وهي عقلية واقعية . أما لودفيج فيستمد أسلوبه من العقلية الألمانية ، وهي عقلية مثالية خيالية .

الابتداءات التي يبدأ بها لودفيج كتبه نامة عن ذلك . فاذا نظرت في كتابه عن جوته وكتابه عن المسيح « ابن الانسان » او كتابه عن نابليون أنست فيه أثر الخيالية البعيدة الممتدة الآفاق البعيدة الأغوار . بدأ كتابه عن نابوليون بفتاة مترملة ترضع طفلها وفي أذنيها وقر أصوات كأنها هزيم الرعد : أتلك أصوات المدافع لا تزال تتكلم بألسن النيران حتى بعد أن غابت الشمس ، أم تلك هي العاصفة ، لسان الأبد يتكلم ؟

أما ذلك الخيال الرائع فهو طريق لودفيج الى تصوير الحقائق . فليست أصوات المدافع بعد مغيب الشمس ولا العاصفة بأشياء متخيلة ، وانما هي وقائع من صميم السيرة التي يكتبها فهي إذن ليست خيالاً صرفاً وانما هي اداته الى طبع صورة تامة في ذهن قارئه . ذلك هو السر في عبقرية لودفيج .

***

كتبت عن لودفيج في العربية بعض أقوال ، ولخصت كتابه «ابن الانسان» في «العصور» ، ولكن لم ينقل من كتبه شيء الى العربية بمثل العناية التي بذلها الاستاذ مترجم هذا الكتاب . فالعناية بالمؤلف وبالكتاب ظاهرة جلية في جميع صفحاته . وهي أظهر ما يكون في أسلوب

الأداء وفي العناية بتفهم العبارات . فان الآفاق التي يسبح فيها لودفيج بعض الاحيان ، ترده عاجزاً بعض الشيء عن التعبير عما يرى فيها بلغة سهلة ، فيكتنفه الغموض . فاذا نقلت عباراته تلك كما خطها قلمه الى لغة أخرى خرجت شوهاء . أما عناية الأستاذ الدسوقي بأن يجلو ما صادفه في الكتاب من أمثال هذه العبارات ، فأمرٌ ينبغي أن يقابل بالشكر من كل عربي يُعنى بأن تكون الأمانة أول شروط النقل . فان المترجم الذي يقصر الترجمة على نقل الألفاظ دون المعاني ، أبعد ما يكون عن أمانة النقل وعن الفهم معاً .

***

كذلك قد مضى أكثرنا يعتقدون أن الترجمات التي ينقلها المترجمون الاوربيون عن غيرهم من الأمم ، هي من الكمال والضبط بحيث لا يتطرق اليهما الخطأ أو سوء الفهم أو الاهمال . غير ان المؤلف قد خالف هذه القاعدة فراجع الاصل على بعض الترجمات فوضح له أن بعضها أهمل نقل عبارات برمتها و بعضها أساء الفهم . وعندي ان ما قام به الأستاذ الفاضل مترجم هذا الكتاب من العناية بهذه المقابلات أمرٌ يستحق عليه كل مديح وثناء . وأول شيء نستخلصه من عنائه هذا انه ترجم الكتاب بروح اكاديمية بعيدة عما يزين لكثير لمن المترجمين حب العجلة واكتساب شهرة التأليف على حساب العلم والأدب .

***

جملة القول ان هذا الكتاب فريد في بابه ، نسيج وحده في الترجمة ، وصورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه الترجمة والمترجمون . ا . م

المرأة في ظل الديموقراطية

(تابع المنشور على الصفحة ١١٢)

ونقل الينا ان « كاترينا سفورزا » قد أنشدت أبياتاً من الشعر نظمتها باللاتينية ترحيباً بالكردينال « رياريو » عند ما نزل ببلاط أبيها ، وهي في العاشرة ، وعن « إليزابتا جونزاجا » انها كانت تغني أشعار « ڤرجيل » ، موقعةً بأناملها على القيثارة . وعن « إيزابلا دامـطه » انها كانت تقرأ ڤرجيل وكيكرون وهي ما تزال يافعة ، وانها والت درس الآداب ،

حتى بعد أن أصبحت مركيزة « مانتوا » . ولا شك في أن ذلك العصر ، عصر النهضة ، قد طبع بطابع الأدب العالي ، حتى لقد اعتقد أهل الطبقات العليا فيه ، أن تعلم الآداب القديمة من حاجات الحياة الأولى ، سواء للرجل أم المرأة ، وانه يزيد المرأة جمالاً وفتنة . فلم يكن هنالك من فارق بين تربية الفتى وتربية الفتاة .

نقتصر على هذه الصورة التي نقلناها عن عصر النهضـة في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي ، فنقضي بأن تعليم المرأة قد انحـدر وفسد ، والرأي فيها اضمحل وأسف ، من بعد ذلك . وشاهدنا على ذلك « روسو » قبيل الثورة الفرنسية.

ولـكننا اليوم عند رأي « كاستيلوني » الذي قال في المرأة الـكاملة :

«إن كل الايحاء انما يأتي من طريقها ؟ وانه من خصائص المرأة المثقفة أن تلهب في الرجل نار الشجاعة ،وتبعث في نفسه الأمل في حومة الوغى ، والنهى في قاعة المشورة ، والإلهام في عالم الفن ،والضرب في رحاب المعرفة ،والسمو في ميدان الفضيلة، والتقوى في مفاوز الدين».

لقد قام في أثناء الثورة الفرنسية بعض الذين حاولوا أن ينادوا بحقوق المرأة السياسية. ومنهم رجال آمنوا بأن انكار ذلك الحق على المرأة، فيه منافاة للعدل وانتهاك للفكرة الأساسية في الحرية، وأنها ملك مشاع لأبناء آدم وحواء، وانها حق أبدي أزلي لا يُسلب ولا يُلغى ، بل أنه حق ملازم للحياة الانسانية نفسها، وان الاعتداء عليه، مساوٍ تماماً للاعتداء على الحياة.

ولـكن بالرغم من كل هذا كان نصيب كل حركة فـكرية اتجهت هذا الاتجاه ، القمع السريع والـكبت العاجل بشدة وعنف . ومثال ذلك : أن حكومة الثورة قد حلت جميع الهيئات التي أقامها النساء . فـكل النوادي والجمعيات والهيئات السياسية التي أسسها النساء في فرنسا قد حلّـت وحظر بقاؤها ، وحرم النساء شهود اجتماع الهيئة الثورية، حتى لقد هددهن « شوڤيت » أحد رجال الثورة ، بأن تدخلهن في السياسة ، تجاوز لحقوق جنسهن ، واعتداء على الشرع الطبيعي .هنا نستطيع أن نقارن بين حال المرأة ومركزها الاجتماعي في طبقات المجتمع العليا في عصر النهضة الأوربية ، وحالها في عصر الثورة الفرنسية، لنحكم أيهما كان عصر النور والعرفان .

اسماعيل مظهر

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع بعد المائة

لحق مقتطف اغسطس

سنة ١٩٤٦

لواحق المقتطف الشهرية
اغسطس ١٩٤٦

الدعاية

قديماً وحديثاً

بقلم
سليم تاوضروس الاسيوطي

الثمن ١٠ قروش صاغ

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

فهرست الكتاب

صفحة

الدعاية

قديما وحديثا

الدعاية في مختلف أطوارها

توحي كلمة « دعاية » بكثير من المعاني ففي زمن الاصلاح الديني والاجتماعي في أوروبا تصدّعت الوحدة الروحية والوحدة الكهنوتية وفقدت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في العصور الوسطى سيطرتها على دول الشمال . وفي أثناء معركة الفناء والدمار التي تلت هذا بين قوات البروتستانتية ومعارضي الاصلاح وجدت الكنيسة نفسها إزاء إشكال الابقاء على سيطرتها بل وزيادة تلك السيطرة على الدول غير الكاثوليكية . وأرسل جورج الثامن بعثاً من الكرادلة في عام ١٥٧٢ : ١٥٨٥ أناط به نشر الكثلكة وتنظيم الشئون الدينية في أرض الهراطقة وبين الخارجين على الكنيسة أو الشعوب الوثنية ، وسرعان ما أصبح رئيس البعث الملقب بالبابا الأحمر رئيساً للدعاية وبعد مضي جيل من الزمان نشبت حرب « الثلاثين سنة » فجعل جورج التاسع في سنة ١٦٢٢ البعث دائماً وصار جمعية مقدسة للدعاية الرسمية وأسند اليها تنظيم البعوث الأجنبية ، وقوّمها بدخل تدرّه عليها ضرائب فرضت على كل من نصب كردينالاً . وبعد وقت قصير انتهى الأمر بأن تبلورت هذه المهمة وتركزت في كلية الدعاية التي تأسست لتعليم شباب القساوسة الذين سيلقى على كاهلهم أمثال هذه البعثات .

هذا المعهد الذي كان الأول من نوعه جماعة أنيط بها التقدم في نشر مجموعة من العقائد الدينية ، هذه الجماعة لم تكن ابتداعاً في ذاتها ولكنها كانت حدثاً جديراً بالملاحظة والنظر بسبب ما أحاط بها من الظروف التي رأت فيها النور وسرعان ما أصبحت كلمة « دعاية » تطلق على كل تنظيم يقصد به نشر عقيدة من العقائد وما لبثت أن طبقت على العقيدة نفسها التي

كانت تذاع بين الناس . وأخيراً طبقت على الوسيلة التي كانت تتبع في هذه الاذاعة وكانت ترتبط منذ البدء بالدين أعني بالعقائد التي تقوم على أساس ديني أكثر من قيامها على المنطق الانساني، بل وأكثر من ذلك صورة واحدة من الأديان الكاثوليكية الرومانية.وكانت معظم دول أوروبا تعارض بشدة الطرق التي التزمتها الكنيسة في هداية الناس أو في الاحتفاظ بهم في حظيرتها ، وبذلك صار لكلمة دعاية معانٍ أخرى رديئة بين دول أوروبا الشمالية . وهي الدول التي انشقت على روما بينما في الدول اللاتينية التي ظلت على تبعيتها وولائها لروما لم يكن لكلمة دعاية بينها هذه المعاني البغيضة ، كما انه ليس لها هذه المعاني حتى وقتنا هذا . وكان مما يدعو الى البغض والكراهة أن تلقب جماعة أو فرداً بالداعية في بريطانيا العظمى ولم يكن لهذا الوصف من الأثر في ايطاليا مثل ما له في بلاد الانجليز .

ومن القرن التاسع عشر الى القرن العشرين نسمع قليلاً عن الدعاية بالنسبة لما كنا نسمعه عنها ،وكان لهذا الاصطلاح استعمال محدود، ومع انه لم يكن محبباً الى النفوس فقد كان غير مألوف وغير معروف وفي أثناء الثورة البيورتانية وقفت الدعاية بالرسائل والخطابات الخبرية بجانب الحركات الحربية . وكان جيش كرمويل يعمل على نشر العقائد الدينية والسياسية كما عمل على النصر في ميدان الحرب والقتال . وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت حرب الاستقلال الأمريكية وحروب الثورة الفرنسية الكبرى وحروب نابليون ، حروب أفكار وآراء ومعتقدات ، وهدفها كهدف تلك الحروب التي ترمي إلى فتح البلدان تماماً . وكان يراد بها نجاح الثورة أو عرقلتها ،ولذا فقد وزع رجال حزب الجيروند نشرات بين قوات العدو يمنونهم فيها بالمنح، والفيء إذا هم تركوا صفوفهم وفروا من الجندية . وكتب ثات في كتابه «تاريخ الجندية» إن جماعات من الجنود الفرنسيين ظهروا مجردين من أسلحتهم في طلائع جيش العدو وأعلنوا ولاءهم .. وخلفوا وراءهم حزماً كبيرة من نشرات تضمنت الفوائد التي تعود على الفرنسيين والبروسيين سواء بسواء من انسجام مصالحهما، وقعوا ألحان الحرية والمساواة بلغة يفهمها الجند ويستسيغونها . وفي هذه الفترة من الزمان وقد ألهب الفرنسيون بروح الحماس الثوري بذوا الحلفاء في فن الدعاية الذي كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى كل مستحدث عصري غير مشرف .

ولم تتخلل حروب الثورات الفترة التي تبدأ بنهاية الحروب النابليونيـة والتي انتهت بثوران بركان الحرب الأوربية الـكبرى الأولى في عام ١٩١٤. ومن ثمَّ لم تكن هناك فرصة لازدهار الدعاية القوميّـة على مدى واسع ، وصارت الدعاية من الناحية التاريخيـة مرتبطة بفترات الهياج والشدائد التي كانت فيهـا المعارضة العاصفة للعقائد مصحوبةً باستعمال القوة. وبدا من المتعذر إمكان تطبيقها على الطرائق العادية للمعتقدات السامية التي تستعمل في زمن استقرار المجتمع وأمنه . لأن روح الدعاية التأثير على الأفراد كي يعملوا أعمالاً معينة ما كانوا ليفعلوها أو ليفكروا أفـكاراً خاصة ما كانوا ليفكروا فيها لو أنهم تركوا وشأنهم . وفي هذا المقام يختلف الداعية عن العالم أو الناس فهو لا يحاول أن يقنع نفسه بالبحث عن الحقائق أو اذاعتها وتركها تتكلم عن نفسها غير مهتم كثيراً أو قليـلاً بقبول دعوته أو رفضها . ولـكن على النقيض من ذلك فإن نجاح الداعية أو فشله يتوقف على هذا القبول أو رفضه، وليس صدق موضوع الدعاية محور الأهمية فيها ، ولـكن المهم هو جمهرة الناس الذين يراد التأثير عليهم وحملهم على التصديق والعمل كما يُوحى إليهم . ويُحكم على الدعاية بالوسيلة التي تتبع فيها ومدى ما تصل إليه من نجاح واستمرار هذا النجاح ، وليس بما يلازمها من عظمة ما يدعى إليه وخطره وأثره . وفي الحيـاة المثالية لا مدعاة ولا ضرورة للدعاية لأن الفرد فيهـا قادر على إدراك ما هو حق وما هو صالح له . وفي المجتمع المصري وبالأخص في الحالات المرضيـة في المجتمع . وفي أثناء الحروب والثورات، وزمن المصائب المادية، والمحن الاقتصادية، تبدو الدعاية ضرورة لازمة لحمل الناس على العمل قبل التفكير ،أو على الأصح قبل أن يجدوا متسعاً من الوقت ليتمموا عملية التفكير .وفي المجتمع الـكامل يكون الناس متساوين مستقلين اعتمادهم على أنفسهم . ولـكن في المجتمعات التي نألفها فالحاجة ملحة إلى ضوابط وحكومات من درجات متباينة تتدرّج من تنظيم أو إدارة ضرورية في ظل الحـكم الديموقراطي إلى المراسيم التي تصدر في دولة أوتوقراطية، ولـكنها تختلف وسيلة وقوة وتبلغ الحاجة إلى الدعاية أدناها بين أصحاب مذهب الفردية الذين تدرّبوا على أن يفكروا لأنفسهم وقد سبقوا غيرهم عقليّـا . ولذا يمكن القول وفي اطمئنان الواثق أنه كلما زاد استعمال الدعاية في قطر كلمـا زاد بعدها عن الدولة المثالية .

وفي الواقع ، حتى في الدولة التي بلغت شأواً عظيماً من المدنية والتقدم لم يسلح المواطن الفرد فيها التسليح الكافي ليكون سديد الرأي فيما يصدره من حكم على الأشياء وليتصرف تصرفاً قائماً على العقل والتجربة في صدد الشئون العامة . ولكن جُلّ ما يعلم من معارف تأتي إليه عن طريق غيره ويقول « فاينر » في كتابه « نظرية الحكم ومزاولته » إن هناك صلات الأسرة بالفرد وما يتشعب عنها من تجارب فهو يتعلم شيئاً بل أشياء كثيرة عن الخلق الانساني في شتى مظاهره المتباينة ، فعليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، المهن الشريفة والأديان والمساجد والمعابد ويكون له إلمام بالجيش والبحرية والطيران والأحاديث التي تتداولها الألسنة في الأسرة بل وفي المجتمع كله أو الوطن بأجمعه . أما في الأقطار التي تجند الجنود وتحشد الجيوش فتجيء المعلومات عنها بالعمل والاشتراك فيها ، اشتراكاً فعليًّا . ومعظم الناس يتصلون برجال الشرطة في وقت من الأوقات حتى ولو كان هذا الاتصال ضئيلاً واهياً لأن عمدة البلدة أو عضو مجلسها المحلي أو عضو البرلمان يصرح للناس أنهم محكومون أو أنهم ملك للقوة الحاكمة، ويدعونهم للقسم علانية ليؤدوا يمين الطاعة والولاء، أو أن تكون السلطات الرسمية مصدر إلمامهم ولهوهم البريء . فالبريد معروف منذ الطفولة وإدارة الضرائب ومكتب تقدير الأثمان تصير حقائق ثابتة . وفي القضاء يساعد المحلَّفُون على تحقيق العدالة، ويجد آلاف من الشعب لهم أمكنة في الهيئات الحكومية المحلية وفي داخل البلاد . فالحديث لا ينتهي عن الأثمان والأجور سواء في المنزل أو في المصنع، كما أن هناك المدرسة القديمة لازالت على طريقتها الرتيبة العتيقة ترغم على العمل وتبث الطموح في النفوس، كما أنها تهيء الفرص لمن يترقبونها، كما أن عملية النقل مهمة يومية لا تنقطع ، والمسارح ودور السينما والألعاب الرياضية تعطي تجارب لا يتاح للمواطن أن يلعب دوراً ايجابيًّا دونها ، وإلا بقي جامداً . وهذه المعارف والمعلومات التي تتسلح بها غالبية الشعب عدة قد تمكنها من أن تكسب قوتها، وقد يقويها ويدعمها المعارف المتداولة، والآراء المعروفة، فيتمكنوا من أن يختاروا نوع الحكومة التي تسيرهم ، ويصدروا قرارات هامة بسياسة شعبية ، ويصرفوا إيراداتهم بحكمة، ويفيدوا أكبر فائدة من العلم والثقافة، فالدعاية اذاً موجودة لأن عقول الأفراد إما متأرجحة أو مدرّبة تدريباً سيئاً، فهي تقودك الى العمل في أقصر الطرق وأخصرها . ففي بعض الأحايين

تكون أوقية من عمل أثمن من رطل من الفكر ، لأن الضرورة اللازبة في زمن الأزمات تقضي بأن العمل أولاً ، ثم التفكير ثانياً. وقد درّب الأفراد على التفكير فيما يفعلون مقدماً. وقد برهنوا على بطئهم في الاستجابة لنداء ما تتطلبه الأزمات . فالدعاية على هذا الأساس أداة قوة تتطوّر الى مسئولية تلقى على كاهل الحكومات، أو تبعة تناط بها المجتمعات القومية، وتعطيها الحق في استعمالها إذا تراءى لها أن المجتمع يهدده الخطر وروح الدعاية التأثير على الأفراد دون النظر الى ملكاتهم المفكرة ، فهي على هذا الاعتبار عملية غير منطقية ومع هذا فهي لا تطرح جانباً أو تغضي عن مظاهر التفكير والرأي . فالانسان حيوان مفكر في التمدن والحياة العادية وغمر الهمجية، فقد تعوّد على تدريب قواه المفكرة، فلكي نحمله على الاقلاع عن هذه العادة تفترض الدعاية عادةً بعض مظاهر التفكير . ومن الطبيعي أنه يمكن حمل الافراد على الخضوع قسراً للسلطان ، وتنفيذ ما به يؤمرون . ولكنّ الدعاية تلجأ الى وسائل الاغراء أكثر مما تلجأ الى القوة والقسر لأنه يمكنها أن تصل الى هدفها بأحسن الطرق وأسهلها إذا ألقت في روع الفرد أنه يقبل الاغراء ملبياً نداء قواه المفكرة العادية. ولذا فهو يبقى على احترام ذاته بصفته حيواناً عاقلاً وانه يستطيع العمل في وقت أقصر اذا كانت قواه المفكرة لا تساعدها قوة أخرى ويترك وشأنه . وحينئذٍ فكلما تيسر الحال تفترض الدعاية إخفاء التعقل بستار الفضائل التي هي من مميزات العقل مثل الصدق والنصفة والعدالة والمنطق، والداعية الناجح هو أمهر من يأخذ على عاتقه صفة من يبحث عن الحق ويدقق في البحث عنه أو صفة العالم أو المربي .

ومن الأسباب القوية المهمة التي تصبغ الدعاية بصبغة الوقاية المعارضة التي تقوم في وجه الدعاية نفسها وهذه المقاومة تبدو من الفرد بالغريزة عندما يحس نفسه خاضعاً لتأثيرها في أوضح صورها ، لأن الدراسة النفسية الرديئة هي التي تجعل الفرد يرى في نفسه فريسة للاغراء بينما في الامكان حمله على التفكير، لأن الاغراء صادر منه واقع عليه ، وقد أحاطت بالمجتمع الحديث ظروف جعلته أميل الى خلق مناسبات سيئة في كثير من الاحيان أو ايجاد كثير من الأشخاص الذين ملأت رؤوسهم فكرة تقصهم أو عجزهم اذا هم واجهوا ظروفاً تختلف والتي يعيشون فيها أو اعترضتهم اشكالات لم تكن تدور بخلدهم. فاذا أخطأ الداعية

مرّة وأشعر الذين ينشر بينهم دعايته أنه ينظر اليهم نظرة وضيعة تيقظت عقولهم واستثارت لجأة لتحول دون دعايته والانتشار، وتراقبه وتحرس الطرق التي يسلكها بينما الأمر على النقيض فيكون الفرد الذي به مركب النقص من أكثر الدعاة حماسة وحمية ويجد في إغراء الآخرين تعويضاً للنقص الذي في شخصيته وتكميلاً لعجزها لأن الدعاية لاتستمد قوتها من غريزة القطيع في الانسان ولكن تستمدها من فرديته وشأن النبي الذي يدوي صوته صارخاً في البرية، والذي بلا كرامة في وطنه، شأن الداعية من زعماء الشعب الذين يحملهم على الأكتاف وهم يثيرونه ويحركونه .

إن الغريزة التي تدفع الفرد الى العمل ضد الدعاية السافرة تجعله متبلد الشعور، جامد الحس، أو تجعله يقف موقفاً عدائيًّا إزاء التعليم والتربية ، لأن الحد الفاصل بين الدعاية من جهة والتربية والتعليم من جهة أخرى، باهت ضعيف صعب التحديد، لأن بعض ذوي النظر يرى أن تعليم الأطفال وعلى الأقل في صوره التقليدية ليس أكثر من إخضاعهم لعملية دعاية مستمرة منظمة يشرف عليها راشدون . وفي هذه الحالة يكون الداعية المعلم، ونائب المجتمع، الذي رسم عن تجربة وتقليد مجموعة من المعتقدات والنظم ، ووضع طائفة من المعارف والأفكار تفرض على كل فرد من أفراد المجتمع . والطفل لا يكوّن أفكاره الخاصة به ، ولا يحصل معارفه بنفسه، لأن المدرس هو الذي يزوّده بالقدرة على التفكير ، والتعود عليه ويزوّده بعادة الفكر التي سبق إعدادها فيخلع عن نفسه العقائد التي تبناها في طفولته أو بغيرها بينما يكون الأحرى به أن يهضمها ويدخلها في بناء تكوينه ليتسنى له أن يجعل منها أساساً يقيم عليه تفكيره في طور نضجه . وعلى أية حال فنحن نفرق عمليًّا بين التربية والتعليم من ناحية ، والدعاية من ناحية أخرى . فإن سوء سمعة الدعاية تتنزه عنها التربية والتعليم لأن عقل الطفل معتبر في جميع أحواله غير قادر على التقدم دون إرشاد . فإذا ترك وشأنه وقع فريسة لأي نوع من أنواع الدعاية مهما كانت خسيسة دنيئة المبادىء لا يرجى منها خير، في حين أن المعلم وهو عضو معترف به في الهيئة الاجتماعية المعترف بها يعمل خادماً للمجتمع على الاجيال ، ودعايته تمثل خليطاً من حكمة المجتمع على مرّ الزمن ، ذلك المجتمع الذي يستخدمه . ويجب حينئذٍ أن تستغل قوته

ويلقى عليه مسئولية كما يلقيها على رجال الدين ورغم أن كلاً من المعلّم ورجل الدين لا يدخل ضمن الدعاة، فالشخص الرشيد الناضج العقل ينظر إليهما نظرة لا تخلو من شك وريبة لأن في كل ما يعملان دعاية كاملة ، فالحصيف يخشى أن المدرس وقد اعتاد تلقين الأطفال يحاول أيضاً وقد يكون عن غير قصــد ووعي من أن يعلمهم ويربيهم كما يرغب ، كما أن رجل الدين وقد اعتاد التبشير والوعظ في الشعب يحاول أن يحوّل الطفل وجهة دينية أخرى . ويخلق هــذا الخوف وذلك الحذر مقاومة لا يفطن إليها الفرد ضد المعلم أو رجل الدين قد تأخذ في النهاية صور الإهمال أو التراخي أو الترفع أو المخاصمة السافرة . ولذا فهذه الطبقات تكون عادةً هدفاً لريبة جائرة أو حفيظة غير عادلة لا مبرّر لها في المجتمع الذي إليه ينتمون .

وتبعاً لهذه الصعوبة التي تقوم دون القدرة على التمييز بين الدعاية والتربية ، وتبعاً لأن الحقيقــة الواقعة أن الدعاية تصبح أكثر صلاحية في المجتمع كلما انحطت تقاليده ، والعرف السائد فيه . وقد بُـذلت محاولات لتوسيع معنى الكلمة ولتحديدها بمصطلحات لا تقوم على أساس التعمد ولـكن تنهض على التأثير فكلمة دعاية ، إذاً ، اصطلاح يشمل كل الحركات التي تؤتى عن عمدٍ وقصد لإغراء عــدد من أناس آخرين ليعملوا أو ليفكروا حسبما يريد الداعية . ولـكن هل تشمل الدعاية الحركات التي ليس من الضروري تلونها بلون التعمد والاصرار والتي تعد في الواقع لتأتي بنفس الثمار ؟ الإجابة على هذا السؤال معقدة والتعقيد فيها صادر عن قيــاس كلمة « عمد » ووزنها لأن أبسط صور الدعاية أوضحهـا تعمداً فهي عارية مكشوفة . ولـكن هناك حالات دقيقة تكون فيهـا الدعاية مقنعة الغرض إذا لم يكن مختفياً كل الاختفاء ، ويكون هــذا بصفة خاصة في أحوال الدعاية التي تعمل للنظم المرعيــة والعادات القائمة لأن في مثل هذه الأحوال يكون مجرد توارث العادات والاستمرار في هذا التوارث بتقوية التقاليــد والإبقاء عليها بحالتها الراهنــة لأنه يكفي وقاية الفرد من تسمم أفكاره، وصيانة حركاته، لـكي نثق أنه سيقبع راضياً في عقر داره، قانعاً بما اعتنق من عقائد وما يأتيه من تصرفات، وهذا غرض من أغراض الرقابة الأساسية، وتكون في هذا المقام ترياقاً ضد الدعاية وشفاء منها أو هي صورة من صور الحركات المضادة لها .

وتكون الدعاية مقنعة محجبة إذا كانت الدوافع خلفها ليست واضحة. فمثلاً هل كانت الدعاية

التي عملت في « إلدرشوث » للتجنيد والتسليح حقـًا أم كان القصد منها مجرد إجتماعات ترفيه وتسلية لأغراض البر والاحسان ، أو كلاهما معاً ؟ وهنا يعرض لنا السؤال الآتي : هل صور نجوم هوليود السينمائية في الأفلام تعتبر دعاية لاستعمال أدوات التجميل ؟ لقد قيل إن جميع التصرفات البشرية ترمي إلى أغراض وأهداف. وعلى هذا فليست هناك أعمال توصف بالنزاهة عن قصد أو لا تقصد إلى غاية . وعلى ذلك فيجب أن نستريب شرعاً في الدعاية في كل أوجه النشاط الاجتماعي وتبعاً لهذا التسلسل المنطقي : « فكل حركة تؤدي في وجود نظارة أو أي حركة تقدم للجماهير عن طريق الصحف أو المذياع وتوضع موضع الالتفات من الجماهير الذين قد يتجمعون فيما بعد أحزاباً وشيعاً هي في الواقع ونفس الأمر دعاية وتحت ضوء هذا التعريف الذي جاء عن طريق التصرفات اذا وجدنا أن أية حركة تعمل لحمل الناس على التعبير عن آراء خاصة أو أن يفعلوا أموراً معينة لم يعتادوا الافصاح عنها ، أو اتيانها، فلا بد وأن تكون تلك الحركة قد أديت لخلق هذه الآراء ، أو ايجاد ذلك التصرف . وعليه فهي دعاية فمثلاً الأثر الذي يتركه حفل شعبي مثل مهرجان التتويج يقصد به إظهار الولاء الشعبي للعرش مضخماً ولذا فقد قيل ان التتويج دعاية للملكية . والاعتراض الذي يقوم في وجه هذا التعريف الفضفاض للدعاية أنه يبدو كأنه يردها عديمة المعنى. فمثلاً مباريات كرة القدم يشاهدها آلاف من النظارة الذين يدفعون أجوراً لمشاهدتها وهي مصدر نفع جزيل لمنظمي هذه الحفلات . ولكن أثراً من آثار إقامة مباريات الكرة تحويل أنظار الجماهير وعقولهم بعيداً عن ميدان السياسة ردحاً من الزمن ويخفف حدة ما يحملون من موجدة ضد النظام القائم في المجتمع . واذاً على هذا الفرض القائم على التصرف الخلقي تكون مباريات الكرة صورة من صور الدعاية التي تعملها الرأسمالية لتخدير الرأي العام . وقد كان هذا موضع نقاش حاد في استعماله إذ منه نخطو خطوة أخرى نصل منها الى أن الدعاية توجد في كل شيء وهذا الغرض يساعد الماركسيين في تفسيرهم للمجتمع بدعوى أنه طبقات دائمة الحرب بعضها مع بعض في حياتها المستمرة لأن الدعاية في صميمها أداة حرب لأنها تزدهر وتينع وتؤتي أكلها حينما يكون هناك صراع آراء وتكون الحاجة ملحة لوضع نهاية لهذا الصراع. فاذا اتخذ شخص « حرب الطبقات » أساساً لكل مجتمع قائم غدت الدعاية موجودة في كل مكان وفي مثل

هذه الأحوال فقط يصبح من المستحيل تفاديها. ويعتبر النفع الذاتي وعدم التحيز والخلوّ من الغرض صوراً من صور النفاق المتعددة وليست مثلاً عليا من العسير الوصول اليها لخدمة أغراض معينة بواسطة قوم يعينهم وإذوجهات النظر المشبعة بالتهكم أو المتطرفة عن المجتمع تنتهي بصدام سافر بين الفاشية وبتعبير آخر فهي تكشف عن نفسها في صورة معارضة لكل تطرف لا يتفق إلاّ في استبعاد العناصر المتزنة. وهذه الفكرة لم تلق ترحيباً في بريطانيا الديموقراطية، والانجليز ليسوا مستعدين أن يروا الدعاية متغلغلة في جميع مرافق حياتهم لأنهم ما زالوا يفكرون في الفرد وملكات عقله وقدرته على الحكم على الأشياء، وأن من حقه التفكير لنفسه لأن عدم المحاباة والفردية تتمشيان معاً يداً في يد.

يمكننا الآن أن نفهم لماذا كان لكلمة دعاية معانٍ مختلفة في البلاد المختلفة فهي صورة من صور النشاط الاجتماعي، لأن أي محاولة تبذل من جانب شخص لإغراء آخر على شراء سيارة مثلا ليس دعاية بالمعنى المتعارف لأن الدعاية توجه إلى جماعة من الناس أو إلى الأمم وفي البلاد التي قويت فيها غريزة القطيع. بينما روح الفردية لا تجد التشجيع الكافي، تكون الدعاية الوسيلة الطبيعية لإثارة الرأي العام أو تكوينه ولكن في البلاد التي تعزز فيها روح الفردية يعترف بالدعاية على أنها شرٌّ لا بد منه، فتجيء في الرتبة الثانية الحسنة من مقومات الرأي العام وتكون الحيدة وعدم الميل ذات اليمين أو ذات اليسار فضيلة عقلية رفيعة وتكون التربية طريقة نزيهة لتزويد الطلاب بالمعلومات، حتى إن الدعاة يجدون تصرفاً حكيماً عاقلاً أن يحاولوا الوصول إلى العدل أو محاكاة وسائل التعليم ما وسعتهم الحيلة وما واتتهم القدرة فلا داعي لبث دعاية في بلاد ذات تقاليد تصبغها الصبغة الفردية القوية ويشيع فيها تعليم عام من الطراز الأول هذا التعليم من شأنه أن يكوّن مواطنين قادرين على التفكير والعمل وحسن التصرف حسبما توحيه ضرورته الحقيقية والدافع في كل شأن من الشئون التي تعرض لهم.

سبق أن قلنا إن الدعاية أداة حرب تزدهر وتينع حيث يوجد صراع بين الآراء وصدام بين المصالح ووجوب تفادي هذا الصدام والوصول إلى حلٍّ مرضٍ.

وتوجد ثلاثة أنواع من الحروب في العصر الحديث.

(١) صراع المبادئ — التنافس بين الكنائس — المذاهب — مدارس الفكر والمعتقدات

(٢) الصراع الاقتصادي — حرب الطبقات — والتنافس بين الجماعات الاقتصادية أو بين أفراد كل جماعة على حدة — الاعلان

(٣) الصراع المادي — الحرب بين الأمم أو الحروب الأهلية .

في غضون أحد هذه الحروب تنمو الدعاية وتترعرع لأنها جميعاً تترك المناقشات العقلية جانباً ، تتركها كوسيلة للوصول إلى قرارات حاسمة . ففي أثناء الصراع بين المبادئ يوجد صدام بين رجال المعسكرات المتضاربة المعتقدات ، وبدلاً من أن نحكم العقل أو نلجأ إلى الوصول إلى الحقيقة بعد البحث والاستقصاء ، تهب الملايينة وتأخذ أقصر السبل نحو إغراء المعسكر المعارض. فاذا كانت مدارس الفكر المختلفة متشابهة الحال متكافئة القوى كانت الدعاية التي إليها يلجئون دفاعية مصطبغة بالصبغة العقلية . ومع أن في الحقيقة ليس هناك متسع من الوقت ولا ميل للتمشي وإحكام العقل والمنطق ولكن غالباً ما تقوم الخصومات العقائدية بين مدارس فكر موجودة بالفعل من جانب، ومدارس آراء مستحدثة أو ثورية من جانب آخر. وفي مثل هذه الحال تأخذ الدعاية المعارضة ألواناً مغايرة وصوراً مختلفة . فالمدارس الموطدة الأركان تلجأ الى السلطة العقلية والتقاليد في الدولة وتضع ثقتها في حكمة هائمة ذائعة استقرت وتركزت وتبلورت فرسخت واستقرت وارتبطت بالماضي وليس مهماً أن تكون هذه الحكمة جاءت إلينا عن طريق العقل أم لا. والداعية الذي يدعو الى السلطة القائمة يعتمد على القصور الذاتي العقلي الذي يحيط بمعظم الأفراد لأن المنطق وأعمال العقل ما زالت مهمة شاقة وعملية عسرة على الانسان في حاضره المتمدن ، فليس ثمت رجل يستطيع أن يقرع دائماً الحجة بالحجة أو يحيا حياة منتظمة انتظاماً قائماً على التفكير المنطقي ، لأن الغريزة والعواطف دائماً أبداً متداخلة كما أن العقل نفسه لا يستقر في وضع من الأوضاع إلاّ بعد زمن طويل ، وأن الفرد يتصرف بحكم العادة أو تحت ضغط تبعاً لمن يسيطرون على الموقف بعد أن أحرزوا قصب السبق في العمل، أعني أن الفرد يتصرف بدافع من السلطان في الدولة ، أو بوحي من عقول أخرى سبقته في التفكير. هذا هو الحقل الذي يجب أن يفلحه داعٍ يدعو للسلطة المحلية القائمة ليبذر فيه بذوره. ولهذا السبب كانت الدعاية سلاح هؤلاء الناس الرئيسي فهي سلبية . ومن جهة أخرى

فانه لا يمكن لمدارس الافكار الحديثة أن تعتمد على قوة العقل الجامدة لأن ذوي العقول المفكرة المجددة ترى في الوقوف سقوطاً فيجب عليهم والحالة هذه أن يظهروا بمظهر من يخاطب العقل إلاّ الذين تمكنوا من أن يوقعوا على وتر حسّاس مشدود في العواطف الفطرية في طبيعة الانسان مثل الخوف أو الجوع وغالباً ما يحاول الداعون الثوريون اعادة بناء نظرية من النظريات أو مجموعة من المبادىء والأسس تقوم على المنطق في ظاهرها وهم يناقضون في هذا الداعين الذين يدعون للنظم المقرّرة المستقرّة ويعتمدون على أدلة صلبة وبراهين صلدة من تجارب الماضي.

أما في النضال الاقتصادي فتتركز صور الدعاية الرئيسية حول تنافس المنتجين لترويج بيع سلعهم بين المستهلكين في مجتمع حرّ التصرف فيما يأخذ وفيما يدع. والدعاية هنا الاعلان، والذي نسميه تجاوزاً نشراً، ووجدت الدعاية بالاعلان لقصور أحكامنا العقلية لأن الفرد في المجتمع الكبير ليس لديه من الوقت أو القوة ما يمكنه أن يعرف أي انتاج يختار لاستهلاكه من بين تلك التي ينتجها عدد كبير من المنتجين، وتعرض في الأسواق وتكون أنسبها لحاجته.

***

هنا يتقدم المعلن ليوفر عليك الجهد ويسد هذا النقص فيضمن ألاّ تعدم سلعة نافعة الجمهور الذي هي خليقة به اعتماداً على جهل المستهلك. ولكن منذ أن أصبحت الإعلانات موسومة بسمة التضليل والمغالاة في الوصف حلت محلها كلمة « نشر » للدلالة على لون من الإعلان أنزه وأحسن. وقد خلت من سوء العرض للجمهور. فالنشر صورة من صور الاعلان فهو دعاية تقوم بها جماعات لا ناقة لها ولا جمل مطلقاً في شؤون الاستغلال الاقتصادي. فمصيف على شاطىء البحر مثلاً يعلن عن نفسه في حملة بالنشر والإذاعة قوامها ثروة عامة تؤيدها الافلام والصور والصالح التجاري لمجتمع ما يتضمن في هذا المجتمع نفسه في الواقع، وليس الصالح التجاري فقط لجزء من أجزائه دون سواه. والجماعات التي تؤدي خدمات اجتماعية أو التي تخدم أعمال البر والاحسان تروّج لنفسها بالنشر أيضاً منتحلة الأسباب والمعاذير المقبولة والمعقولة لهذه أو تلك ويقف هذا اللون من الدعاية عادةً موقف الأمين على التربية والتعليم

والخلق في أوسع معانيها وتعتمد على الحقائق أو على عاطفة الشفقة المتأصلة في النفوس . ولكن الاعلان التجاري يمكنه أن يحاكي « النشر » ما دام معظم المعلنين يلجئون في الظاهر إلى عقول المستهلكين أو مصالحهم الخاصة ويجدون أن الأنسب صبغ الموقف بلون مصطنع من حب الخدمة العامة أو الحياد .

وعندما تنشب المشاحنات المادية بين الأمم أو في داخلها تتخذ الدعاية ، حينئذٍ،أعنف صورها ، وليس من السهل أن تتبين للنظرة الأولى لماذا يحدث هذا . ولكن من الواضح الجلي أن الحرب تحكيم القوة فإذا نجحت صار الإغراء تافهاً وحينئذٍ فالدعاية في زمن الحرب محاولة مسخرة تتجدد لإغراء العدو وحمله على الاعتقاد بصدق ما يشاع ويذاع وإن في الأزمنة الأولى وفي مدى مئين من الأعوام التي تلتها لم تكن الدعاية لازمة معترف بها من ضرورات الحرب وقيام الدعاية بقيام الحروب مرتبط بالضعف المضطرد في استعمال الحرب نفسها وسيلة لحسم المنازعات الدولية. والحقيقة التي لا مراء فيها أن في مدى مائة سنة من الزمان لم يكن هناك أي غرض سافر للحرب بالمعنى الذي نفهمه عن الفتوحات التي قامت بها قبائل المغول في العصور الوسطى ولكي تضطرم نيرانها ويشتد أوارها في ميدان القتال وفي ميدان الفكر سواء بسواء وتبعاً لما عليه الحروب من تعقيد وتبعاً لنمو المدنية صار الناس أقل استعداداً عما كانوا عليه في سالف العهود من حيث الالتجاء إلى الحرب فهم في حاجة إلى إقناع عقلي لحملهم على الايمان بضرورتها وتحكيمها ، حتى إن الشعوب التي تدافع عن كيانها ضد اعتداء المعتدين تحمل لواء حرب أخلاقيـة كما يضرونها حرباً مادية . وانتهى الأمر بالحكومات الحديثة الى أن اعترفت بالأهميـة القصوى في ضرورة ربط الآراء بعضها بالبعض الآخر بين رعاياها كما تحاول التفريق بين رعايا الدول المعادية وشطر الآراء فيهـا . ولما كانت الحروب تغذي الاختراعات كما تحتضن التنظيمات السياسية والاقتصـادية فهي ترعى الدعاية كما ترعى أي فن من الفنون ، لأن من الواضح أن دعاية الحرب أبعد منالاً وأصعب مأخـذاً من دعاية السلم . ومن المؤكد أنه أيسر للداعية أن يدعو الى التعاون والى الاتحاد والى التضامن بين بني وطنـه في زمن الحرب ولكن من الوجهة الأخرى المعسكر المعـادي متحد متعاون متضامن يقظ بلغ به الشك غاية بعيدة ، فهو أقل قابلية واستعداداً للتأثر بالدعاية

الخارجية في هذه الظروف منه في ظروف الحياة العادية . فعبقرية الداعية ومهارته بذور تجد تربتها الخصيبة في أرض الوطن لغرس الآراء وتعهدها بالري والسقيا حتى تنمو وتترعرع وتقف على سوقها وتبلغ أشدها وتسيطر على الآراء والأفكار في الدول المحايدة وغيرها من بلاد العالم ، وتسفيه آراء العدو . وللوصول الى الهدف الاول يجب أن تكون الدعاية في صورة أبسط ومادة أقوى وأقل اعتماداً على العقل وتكثر من التلاعب بكلمات التحامل وما جرى به العرف . ولكنها على النقيض من ذلك لأجل تحقيق الغرض الثاني يجب أن تكون الدعاية دقيقة غير مباشرة الى أقصى حدّ مستطاع ، ظاهرة في منطقها ، مناسبة في وضعها وأن يبدو الدافع اليها اعتبارات خيرة كريمة .

غني عن البيان أن موضوع الدعاية ظهر لأول مرة في الموسوعة البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة ١٩٢٩. أما الطبعة الثالثة عشرة التي ظهرت قبل الحرب العظمى الأولى(١٩١١) فلم تكن ضمن الموضوعات التي عالجتها الموسوعة لأن حرب ١٩١٤ـ ١٩١٨ كانت الأثر الفعال في اعطاء الدعاية أهمية شعبية لأن في مائة السنة السابقة لهذه الحرب كانت الدعاية لا تعدو أن تكون مجرد عمل خاص يقوم به الأفراد أو الدور التجارية أو جماعات تطوّعت لهذا الغرض، ورأت الحرب العظمى الاولى لأول مرة في التاريخ أن الدعاية تصبح ادارة من ادارات الحكومة فنظرية « اتركه يعمل » التي طغت في غضون القرن التاسع عشر حالت دون اضطلاع الحكومات بمهمة التأثير والاغراء كمهمة متميزة عن التزويد بالمعلومات ، وقليل من الحكومات في الفترة السابقة لعام ١٩١٤ أعارت التأثير على الرأي العام في الأقطار الأخرى الأجنبية التفاتها.وكانت المانيا الدولة الوحيدة التي أوجدت دعاية عن طريق مكتب الصحافة في وزارة الخارجية الألمانية بين مراسلي الصحف الأجنبية في برلين ، وعن طريق الوكالة التلغرافية الرسمية الألمانية . وعلى هذا الغرار قام الممثلون الدبلوماسيون الألمانيون ، وموظفو فروع البنوك الألمانية وشركات الملاحة بمهمة نشر المعلومات التي تتفق وصالح وطنهم، ولا يقوم الدليل على أن هذا اللون من الدعاية لقي نجاحاً إلاّ حيث كانت تظاهره المناقشات الاقتصادية المرتبطة بجودة المصنوعات الألمانية المصدرة ، وانخفاض ثمنها ولم يكن اندفاع حكومات أوربا إلى المعمعة في سنة ١٩١٤ إتباعاً لسياسة موضوعة ولكن

كان نتيجة محتومة للفوضى التي شملتها ، والخوف الذي أضواها ، ونتج عن هذا أن رأت جميع الحكومات نفسها أمام ضرورة ملحة لتبرير دخولها الحرب أمام الشعوب التي تحكمها.

وقد أشار لورد بونسنباي Ponsonby الى هذا بقوله : « يجب أولاً على الحكومة التي عزمت على خوض معركة الحرب الرهيبة الهائلة أن تعرض حالة ذات وجه واحد لتبرّر الحركات التي تقوم بها ، ولا تستطيع بحال من الأحوال أن تقوم على التصريح بأن الشعب الذي عقدت النية على محاربته له حجة ولو واهية أو حق ضئيل يتخلص به من تبعة اشعال فتيل الحرب . فالوثائق يجب أن تشوّه والظروف المناسبة يجب أن تستر كما يجب تقديم صورة تغري بألوانها الزاهية الفطرية الجهلة من الناس بأن حكوماتهم لا لوم عليها ولا تثريب وأن قضيتهم عادلة وأن شرور العدو أكثر وأعظم من أن تحويها مناقشة ولم تعد موضوعاً للتساؤل. ويجب أن تفسر الأمور تفسيراً أكثر وضوحاً في الدول الديمقراطيــة منه في الدول الاستبدادية . ولذا قصر الحلفاء جهودهم من أول الأمر على الدعاية داخل تخوم الوطن. ففي بريطانيا كانت الدعاية ضرورة لازبة أكثر من أي دولة أخرى للحض على التجنيد وسرعان ما صدع هذا الدافع مقاييس الحق والانصاف وشجع على رواج الغش والخداع. وفي مثل هذه الظروف توجد غمرات قومية يسير فيها الأفراد قدماً ويتذرعون بالكذب كواجب وطني. زد على هذا قلب أوضاع الأحداث التاريخية وايجازها واستعمالها تفسيراً لأسباب الحرب . والذي يدعو الى الحرب في مثل هذه الدولة يستمسك بالجانب الخلقي في اعتداء المانيا على بلجيكا وغزو أراضيها ويؤلف قصصاً صادقة في أصلها ولكنها مكبرة يحشوها بالفظائع التي اقترفها الألمان في المراحل الأولى الناجحة من الغزو في فرنسا وبلجيكا . وكثير من هذه القصص استقصى المهتمون بالأمر حقيقتها في مصادرها الأصلية ، فاستبان لهم أنها تلفيق متعمد أو تشنيع وتهويل أو مغالطة صريحة في سوء نية عرض هذه القصص . ومن أمثلة هذه الترهات والأكاذيب قصة تعذيب الممرضة وبتر الألمان ليدي طفل بلجيكي وتحطيم مذبح في مقاطعة لوفيا وصلب جندي من كندا واعدام كشاف فرنسي رمياً بالرصاص واقامة مصنع الجثث الآدمية (حيث قيل إن الألمانيين يغلون جثث الأسرى لاستخراج الدهن منها لاستعماله

في الأغراض الحربية) وكانت الصحافة في هذه الآونة الأداة الرئيسية للدعاية وكانت الدعاية تصدر في رسائل ووريقات .

ولكن كان للصحف الأجنبية النصيب الأوفر منها . ولما كانت هذه الدعاية قائمة على إثارة سخط الأهلين ضد حركات العدو فان الحقائق التي تكوّن هذه الدعاية كانت بالضرورة مأخوذة من ترجمة التقارير المدوّنة باللغات الأجنبية . وكان الخطأ في النقل عفواً أو متعمداً أحد الوسائل المنتظمة وأوفرها ثمراً في دعاية الحرب . وكانت تؤازرها الصور الفوتوغرافية المكذوبة والتزوير في أصول الوثائق وكانت نتيجة الدعاية ذات أثر قوي في الأغراض الحربية. وقد بلغ السخط القومي أوجه بهذه الحركة الملهبة للمشاعر وظلّ حيًّا زمناً أطول مما قدّر له إذ نظر اليه نظرة قومية بحتة ، لأن الحفيظة التي أثيرت في بريطانيا خلال السنوات الاولى من الحرب حالت دون انتهاز الفرص فأسف لذلك كثير من المراقبين لجريات الأمور. ومن أجلها تقدّم لورد لانزدون « بخطاب السلام » لحسم الأمر عن طريق المفاوضة بدلاً من إملاء شروط فرسايل [1] وقد أفضى هذا السخط الى المناداة في انتخابات سنة ١٩١٨ بالنداء المشهور « اشنقوا القيصر » واليه تعزى الأخطاء التي ارتكبها الحلفاء في سياستهم مع ألمانيا ، تلك الأخطاء التي تشبعت بها الفترة التالية للحرب والتي أتت أكلها مرًّا علقماً فيما بعد .

وبينما كانت دعاية الحلفاء ترمي الى خدمة غرضها العاجل في إثارة حماس الشعوب المتحالفة كانت الدعاية الألمانية تعمل على غرس بذور أسباب مصطنعة للحرب ، في الدول المحايدة وأهداف الدول المحاربة في هذه الحرب ، وقد قويت هذه الدعاية بالنصر الفعلي الذي أحرزته الجيوش الألمانية في السنة الأولى من الحرب . ففي فرنسا ، ولفترة من الزمن كانت مقاومة الدعاية تنحصر في عدم السماح للصحافة باذاعة نشرة الأخبار الرسمية الألمانية اليومية ولكن الرقابة أضرّت بالغاية التي تعمل لها لأن الصحف المحايدة والتي تضمنت

(١) كتب ويكهم ستيد كتاباً بعنوان « في عشرين عاماً » جاء فيه كيف هو بمساعدة صحيفة الديلي ميل أطاح بلورد لانزدون وبذلك أضاع الفرصة من يد أوروبا لاقرار الأمور في سنة ١٩١٨ وتفاديها قيام الحركة النازية فيما بعد .

النشرات الألمانية تسربت اليها من الحدود السويسرية ، وتقوت المطالب الألمانية بتداولها لأن القراء افترضوا ضرورة توفر الصدق فيها إذا ما منعت حكومتهم نشرها . ففي بريطانيا العظمى كانت نشرات الأخبار الرسمية ترد بنظام في الصحف السيارة رغم أنها لم تكن كاملة دائماً ، وبذلك تمكن الجمهور من أن يقارن النشرات البريطانية بتلك التي يذيعها العدو لا ليستخلصوا لأنفسهم النتائج بالنسبة للحقائق فحسب ، بل ليقدروا أي النشرتين كانت أقرب الى الصدق والعقل. ففي الشهور الستة الأولى من الحرب كانت الصحافة في بريطانيا محكمة تماماً برقابة حكومية قوية ورقابة دولية غير رسمية يشرف عليها أصحاب الشركات الصحفية. ولم يصرح الحلفاء للمراسلين الحربيين بمرافقة الجيوش فانتهى الأمر بأن حلت الاشاعات محل المعلومات ، وتداول الناس هذه القصص مثل مرور الجيوش الروسية داخل بريطانيا في شتاء سنة ١٩١٤ ، وبدأت قوة الصحافة في الانتعاش سنة ١٩١٥ عندما ظهر أن السياسة الفجة التي اختطتها الرقابة لم تكن رشيدة مثمرة وأضحى من الجلي أن التغيرات السياسية والحربية ضرورية لكسب الحرب وبدأ المزج بين سياسة « اتركه يعمل » وبين الرقابة يرسم طريقاً لتنظيم مقرر للدعاية . أما في المرحلة الأخيرة من الحرب فقد ازداد توجيه هذا التيار كثيراً نحو التأثير على العقول الأجنبية بطريقتين ؟

(١) حمل الدعاية الألمانية عبر البلاد المحايدة وأمريكا وإقناعها بالحق الأولي للدول المتحالفة (٢) إضعاف الروح المعنوي القومي في المانيا وحليفاتها . ولم تنتظم الدعاية في بريطانيا إلا بعد أن سلخت الحرب ثلاث سنوات وستة أشهر من عمرها . وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ وجه الرئيس ولسن الدعوة الى الدول المحاربة لتحدد كل منها أهدافها الحربية وفي يناير سنة ١٩١٨ أجاب مستر لويد جورج على الدعوة في ملخص لشروط الصلح انتهى بالرئيس ولسن بعد ثلاثة أيام بالتنصل من المبادىء الأربعة عشرة التي اشتهرت عنه ، والتي قصدت الولايات المتحدة التمسك بها في مفاوضات الصلح.وكانت عروض الرئيس ولسن ورد المستر لويد جورج عليها دعاية للدول التي صدرت عنها وصاغتها وان لم تكن دعاية متعمدة في الواقع . وانها لصعوبة ملموسة أن تقوم بدعاية فعالة ما لم تكن قد رسمت خطوط السياسة التي ستتبعها لأن الدعاية لا تشكل السياسة ولكن يجب أن تتبعها وتسير خلفها .

وبعد شهر من الزمان في فبراير سنة ١٩١٨ — تعين لورد نورثكليف مديراً للدعاية في البلدان المعادية، وبذلك يكون الرائد الأول في فن الدعاية الحديثة، هذا الفن الذي خلقته ظروف الحرب. ولقد انشأ لورد نورثكليف إدارة في كروهاس Crewe House واختار لجنة استشارية من مشاهير الصحفيين والناشرين ضمت أمثال هـ.ج.ويلز ومستر ويكهام ستيد) ونجح في إيجاد تعاون بين إدارته والإدارات الحكومية الأخرى. وظفر في النهاية بتكوين مجلس دعاية مختلط للحلفاء. وكان دستور العمل في الإدارة الجديدة كما عبر عنه جيداً ويكهام ستيد في النصح الذي أسداه إلى لورد نورثكليف عند تقلده مهام وظيفته[1]

«تولد عقم الدعاية البريطانية من خلوها من حسن السياسة والتدبير فلا طائل يرجى من إغراق العالم بطوفان من الآداب تصف محاسننا ونبل أخلاقنا وضخامة استعدادنا الحربي فهذا لا يغني الناس بشيء إذ يجب عليك أن تعقد الخناصر أين وكيف يمكنك أن تكيل الضربات قاسية مريرة للعدو وهنا ابدأ عملك واعمل دون أن تتحدث عنه وللوصول إلى ذلك يجب أن تكون هناك سياسة مرسومة فإذا ظفرت بالتأييد وجب تنفيذها بشتى الوسائل الممكنة»

وكانت همة كروهاوس موجهة ضد المانيا والنمسا والمجر وإلى بلغاريا ولكن بدرجة أقل وكانت الطرق المتبعة دعوة المؤتمرات الى الانعقاد لوضع ملخص الخطة السياسية ويقدم هذا الملخص إلى السلطات المختصة للحصول على موافقتها الرسمية. وحينئذٍ يمكن تنفيذ الدعاية على أساس الخطط المرسومة إذا ما لقيت الموافقة فأخذت هذه الدعاية صورة الوعود بمنح الحرية والاستقلال إلى الشعوب المحكومة في البلدان المعادية. وقد تجنبوا في حذر الإدلاء بتصريحات متعارضة أو الوعد بأمانٍ خلابة لا يمكن تحقيقها. وحيث كانت البلدان مرتبطة بألمانيا كانت الدعاية موجهة إلى بيان أوجه الخلاف بين قوات الحلفاء المتزايدة والبؤس الدائم بين شعوب أوربا الوسطى المحصورة والضعف المتفشي فيها.

كانت الوسيلة الرئيسية التي انتهجها كروهاوس إلقاء أوراق ونشرات من الجو خلف

(١) في كتاب «عشرين عاماً» الذي كتبه مستر ويكهام ستيد (١٩٢٤) يظهر هتلر في كتابه كفاحي بمظهر أحد تلاميذ ويكهام ستيد في قوله. «تعد الدعاية إعداداً يتناسب وعقلية الجماهير ويحكم على صدقها، بصفة عامة، بمدى أثرها الحقيقي

الخطوط الألمانية تحوي أخباراً عن القتال الدائر الرحى أو معلومات عن قوة الحلفاء وضعف ألمانيا. ولقد ألقي حوالي مائة ألف نشرة يومياً خلال شهر أغسطس سنة ١٩١٨. وفي خلال شهر اكتوبر من نفس العام ألقي خمس ملايين ونصف مليون نشرة كانت أساسها الدراسة العميقة للنفسية الألمانية مبنية على الأسرار التي حصل عليها كروهاوس: وزيادة على النشرات المشار إليها المتضمنة أخبار نجاح القوات المتحالفة موضحة بالخرائط والمصورات أعدت صحيفة سرية نسجت في أسلوبها نسج المطبوعات الألمانية وأعدت إعداداً جذاباً سهل تناولها. وقد ظهرت هذه الصحيفة وأمثالها في أرض ألمانيا تزينها صورة الامبراطور مقرونة باسمها وكانت تمد القارئ بمادة دسمة طريفة ممتازة تلمس الأوتار الحماسية من قلب الجندي الألماني وتكشف له عن حقائق كانت تمنع عنه حتى ذلك الوقت . . وكانت بعض النشرات دينية النزعة لأن في الخلق الألماني حساسية دينية قوية . وكانت هذه النشرات تعزي هزائم الألمان الحربية المتتالية إلى الخطايا والآثام التي تقترفها حكومتهم. وكانت إحدى هذه المقالات موعظة قصيرة على نص الآية[1] «فقال الرب لقائين لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك، وإن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وإن تسود عليها» وكان دعاة الحلفاء يتلاعبون بالحجج دائماً بأن المعلومات التي تذاع هي صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ونقتبس للمرة الثانية من أسرار كروهاوس أن «البديهية الأولى في الدعاية هي القول الحق» ولكن كان هذا في الواقع يحمل أكثر مما كانت الدعاية الانجليزية تعتقد في قدر الصدق والصراحة . والخطيئة الوحيدة التي جنتها الدعاية النشر المبتسر واذاعة الأكاذيب فيما تذيع . ولكن كان من بين الوسائل التي التجأت اليها الدعاية البريطانية إرسال «خطابات لندن» الى الصحف المحايدة في سويسرا أو دول الشمال على رغم أنها مكتوبة بروح ألماني ولكنها تحوي في الحقيقة دعاية في جانب الحلفاء فانخدعت الصحف الألمانية وتناولت هذه الخطابات وأعادت طبعها على أنها بكر . وكانت هذه الخطابات بالنسبة للألمان حملة نشرات حوت خطابات الأسرى الألمانيين مزورة مدسوسة عليهم وطبع اقتباسات مضللة منها وتوزيع مختارات ورسائل ممهورة بتوقيعات شعراء

---

(١) سفر التكوين الاصحاح ٤ (٦ — ٧)

الألمان وفحول كتّابهم وعباقرة ساستهم وإن هي الأ كذب . وكان يدّعي أنها طبعت في ألمانيا وكفى أنها تحمل عنوان سلسلة « الركلام » المشهورة . وفي النهاية لما كان كثير من دعاية الحلفاء قائماً على نشر الأقوال الخاصة بالدعاية المتحدة والتي لم تنفذ فيما بعد قبل نقض شروط ولسن الأربع عشرة فرغم أن الدعاية دقيقة كاملة في معناها الثانوي الاّ أنها مضللة في معناها الأساسي لأن أساسها خطط كاذبة .

وبجانب توزيع النشرات لعب المذياع دوراً خطيراً في نشر المعلومات وأشرف على توزيع الأفلام في الخارج هيئة دولية في سويسرا . وقد استغلّ الحلفاء قسط الحرية الذي تمتع به الموالون لهم أعظم استغلال . فأمكن تسريب الكتب المطبوعة داخل ألمانيا لدس الدعاية التي تروج حواليها في قناع الأدب الجاد ووكالات أنباء الدعاية التي تظهر بمظهر الاستقلال والاكتفاء الذاتي تأسست في البلدان المحايدة وعملت التسهيلات اللازمة لارسال صحف الحلفاء الى المانيا.ولسنا في حاجة لأن نقول ان المراسلين الحربيين للصحف الأجنبية والمحايدة كانوا تحت رعاية مناسبة.وكانت الطرق المقاومة للدعاية في المانيا عبثاً باطلاً لاطائل تحته. فمثلاً كانت تمنح الجوائز للذين كانوا يقومون بجمع النشرات واتلافها . وقد وصف الجنرال لندندورف في مذكراته تأثير دعاية الدول المتحالفة وصفاً دقيقاً قال « كان لورد نورثكليف سيد الموقف يوحي وحيه الى الجماعات . هاجمتنا دعاية العدو بتسريب التقارير والمطبوعات الى بلادنا عن طريق الدول المحايدة خصوصاً هولنده وسويسرا وطغت علينا بنفس الوسيلة في النمسا . وفي نهاية المطاف غزتنا في عقر دارنا من الجو.وقد فعلت الدعاية معنا هذا بوسيلة وقدر لم يستطع معهما السواد الأعظم من الناس التمييز بين إحساساتهم وبين ما تقوله دعاية العدو . . وكان لزعزعة الثقة العامة في أرض الوطن أثر عميق على الروح المعنوي الألماني وقتلت فينا الرغبة في القتال ».ويكمن سرّ دعاية الحلفاء في تعاونها الفعّال مع لورد نورثكليف فإن الألمان في أغسطس سنة ١٩١٨ حاولوا تنظيم وزارة الدعاية الامبراطورية في بلادهم ولكن لم يتمكنوا من السيطرة على الموقف إطلاقاً . وقد عانت جهود دعاتهم من الاضطراب بينهم والقفزات السريعة في عملهم وضاعت كل الجهود هباء . ولم يضع الدرس الذي ألقاه لورد نورثكليف على المانيا سدًى ولكن لم تنضج ثماره قبل الثورة النازية في عام ١٩٣٣ .

الدعاية

أسباب نجاحها

عُدّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية مترامي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة . فميدان الدعاية ومجال نشاطها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون من صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو إهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بثها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يتسرب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا إلى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له القدرة على إملاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة سيطرة مباشرة على أولئك الذين يود التأثير فيهم ، فإذا تشعبت الاغراض وتفرعت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فان الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها وميزتها ،

إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اقتناعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والقول المأثور « الرجل الذي يقتنع قسراً وضد إرادته ، يبقى على رأيه القديم » غالباً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما تجد أنه عندما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة في أذهان أولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ أنهم يؤمنون إيماناً صادقاً انهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان ، ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا فهم يميلون الى مقاومة كل حجج تتعارض وميولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأن لها قوتها ووجاهتها .

***

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعية الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرته أو حسن اعداد خطط الدعاية وانما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرض في كل وقت لخطر الهزائم المنكرة بسبب التغيرات الفجائية في مجرى الأمور والتي ليس له عليها من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر المشاكل تحييراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبث الحياة في حركة من الحركات تخبو لغير سبب ظاهر . والدافع اليها يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة محطمي الأصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعية التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أفحش الأخطاء وأنكرها ، فيجب عليه أن يكون دائماً على حذر وأن يمد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ — التكرار هو السر الأول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الأحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات ، وينفذ برّاقاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة أثر الأخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرّف أهمية هـذه أو خطورة تلك ، ولـكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيهـا عامل زراعي أمي مجهول مغمور، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولـكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقـابل لذلك . سياسي يلقي خطاباً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف ومن أعلى أعواد المنابر، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولـكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح سير صموئيل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نشاطه في الحبشة ، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها المبين أو يكمن فيها فشلها الذريع . فذلك الضعف يساعد الداعية على أن يغير مسلـكه دون أن تلتفت اليه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقى على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرّر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعية أن يقف إزاء ما يقع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على أن يبعث برسائله وتقريراته إلى رجال خاضعين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسراً بالقياس الى غيره .

ولـكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل معارضاً

الهيئة الحاكمة أو محارباً النظام الاجتماعي القائم، وجب عليه أن يكون ملمّاً بما تعقّد من الأمور أو تشعّب وتشابك منها، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر مختلفة الأوضاع متعددة الألوان، لأن التكرار يورث الملال والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة، ويقعد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات. ولكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يتجهون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته، لأنه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها مدى العقول ولحمتها.

التكرار، التكرار، التكرار. ليكن هو رائد الداعية فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتولون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أيّا كان هو، لأن العدو اللدود لأمرٍ من الأمور هو إهماله ونسيانه أو تناسيه، والحملات العنيفة. قطعاً، أفضل له من تجاهله، فمثلاً لما قذف المعتدون سير صامويل موزلي بالأحجار في اجتماع عام، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحيداً أعزل دون حماية أو رعاية. ولكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وبسبب حماقتها قفزت الأخبار الفاشية الى الصفحات الامامية والسطور الأولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الفاشية وهو سير صمويل موزلي قد دفع ثمن هذه الدعاية غالياً. ولكن مما لا شك فيه أن الحادث كان دعاية ناجحة غاية النجاح.

يمثل هذا الحادث عنصراً أساسياً في الدعاية الصحافية التي قوامها التكرار. وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية، لأن قيمة الأخبار في الصحافة الحديثة لهـا قدرها وخطرها والحكم عليها قاسٍ لا يرحم. وليست المعضلة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق أمر يدعو إلى الشفقة بالقائمين بشئون الصحافة. وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي إعلانات لهيئات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء أنها مقصودة لمجرد الاعلان)، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، كما لا يمكن تفاديها بحال، رغم ماتلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين

على الصحافة الى ضغطها واختصارها إلى الحد الأدنى ، . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله ، لا يلبث أن يجد نفسه بلا عمل فيجب عليه أن يصل بدعايته إلى الذروة دائماً وإلاّ أعطى خصومه الفرصة أن يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — اللون هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك الداعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حججه فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو ليثير السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هـذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها شاذة خارقة للعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً . لأن من عادة رجل الشارع أن يناقش الأشياء الخاصة وينتهي بها الى مبادىء عامة .

ولا يسع الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عند ما يكون هدفه التأثير في الجماهير . فبينما نرى القارىء يولي مسرعاً عن الدعاية الصينية القائمة على معاهدة الدول التسع ، نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر مفلساً معدماً الى الولايات المتحـدة والذي غدت بناته الثلاث فيما بعـد قابضات على السلطة في حكومة الصـين ومجالسها ومدام شيانج كاي شك إحداهنّ ، ويلعبنَ دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الأول وخطباء الطليعة يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بدّ وأن يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم ، لأنه ليس من الصواب أن نرغم الاقلية على تتبع ما نقول إذا كان فيما ندلي به من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نخاطر بالادلاء بأحاديث عن شئون ملموسة بادية للعيان الى الأقلية النابهة من أن نسحر الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل

التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر إنتباههم في أثناء الخطابة ، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وفطن الهر هتلر الى هذه الحقيقة واستوعبها فصار هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بهـا ، وإذا ما قارن نفسه بلويد جورج وبنثام هولوج [١] فهو يعزو عظمة السياسي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في أذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبه ، واليسر الذي يتجلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل ويلز [٢] السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً ، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويفيد من جهلهم ، ولكي يوضح « وول ايرون » هـذه النقطة يروي القصة التالية عن الحرب الاسبانية ، فان الصحافة الاقليمية في هذا البلد كان من السهل على الداعية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما عتمت الصحف الكبرى أن نشرت القصة ذاتها ، وهي تصف أن إحـدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هـذا الزواج طفلاً ذكراً . ولـكن الرئيس صليب القلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن وليدها . ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جديه المعـدمين اللذين كتبا للرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيده ولـكن ضاعت جهودهما سدًى ولم يظفرا منه بطائل رغم الإلحاف في السؤال.

فالداعية الألماني الذي نسج خياله هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يسمع عنه الفلاحون الاسبان . وان للاسبان غراماً بالاطفال لا يفوقه غرام ، وان بطل كل اسـباني واسبانية هو مصارع الثيران . وسخف هذه القصة في نظر

(١) كبير وزراء المانيا في الحرب السابقة (٢ لويد جورج كبير وزراء انجلترا في الحرب الاولى.

التابهين يعادله ويقابله تقدير لعبقرية مخترعها حيث تمكن أن يخلق جوًّا يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جوّ الحروب الخانق المسمم . فانه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها ، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فان شطَحات الخيال وسبَحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تحويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه ، وقد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو الى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في ابراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات وتحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فان «كابتن فريت» عند ما حاول أسر غواصة المانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أخفق ، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزّ إعدام هذا البحار الجريء ، العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدَّر . فقد استغلّ الداعية هذا الحادث ، كما استغلّ حادث الممرضة « إيديث كافل » من قبل عند ما صوَّر الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء ظلمات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الاعدام كانت من الغباء وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « إيديث » لا يهم . فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكشفت المحكمة باصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كتَّابها البارعين والرسامين والعباقرة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء ، فانه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى

صور « زانيكي » الهولندي دون أن تؤمن بعدى المعونة الهائلة التي قدّمها للحلفاء ، فقد صوّر في احدى روائعه اعتداء الألمان على السفن المحايدة واغراقها في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الألمان اجتمعت متهالكة على نفسها في برج الحراسة في غواصة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولكنها بارعة: «إنه يبدو محايداً ، فلنغرقه » . مثل هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الألمانية، وقوّض أسسها في نضالها الحلفاء حينذاك .

٣ — الدعامة الثالثة من أسس الدعاية

يجب أن تكون الحقيقة البذرة الأولى للدعاية فتقوم على قدر ولو ضئيل من الصدق . وان كان هذا يبدو انه يتعارض وقصص القسوة والوحشية في التعذيب التي أشرنا اليها في الركن الثاني ولكن حتى في قصص التعذيب هذه كانت الحقائق دائماً قوام صور الرعب والفزع التي يرسمها الدعاة

ولنضرب لذلك مثلاً بالجيش الألماني الذي كان يأخذ الرهائن من كل قرية فرنسية وبلجيكية في أثناء الحرب العالمية الماضية فاذا زاد نشاط الارهابيين وعمال القتل والتخريب فيما جاورهم وتلا نشاطهم كثرة عدد ضحاياهم من الجنود الالمان ، أعدمت السلطات الألمانية الرهائن رمياً بالرصاص . وكان يتلو ذلك صدور الأوامر المشددة بأنه في حال وقوع اعتداءات على الألمان سواء في المدن أو القرى فان المنازل التي تحوم حولها الشبهات تدمر وتمحى ويقتل جميع من فيها من رجال ونساء وأطفال . وكانت هذه القوانين صارمة كل الصرامة عنيفة كل العنف ، لا صلة بينها وبين الشفقة والرحمة ، فقد سُنَّت لتحول دون ضعف الروح المعنوي للقوات الالمانية. وانه لمن السهل اليسير أن ندرك الى أي حد وجدت هذه الدعايات في البلدان المتحالفة المجاورة ، تربة صالحة خصبة نمت فيها وازدهرت وهيأت العقول لقبول ما يردّده الحلفاء عما يرتكب الالمان من تعذيب .

ومن جانب آخر ، فان مكافحة خطر الغواصات كان قائماً على الحقيقة ، فقد كانت المانيا تحارب وظهرها الى الحائط ولم يكن في مقدورها أن تتحدى أسطول بريطانيا الجبار ، وكانت الغواصات ضرورية لوقف وصول سيل الذخائر والأطعمة والمواد الخام الى البلدان المتحالفة . وبنفس الطريقة عقدت بريطانيا وحليفاتها الخناصر على منع وصول الامدادات الحيوية الى

المانيا . ولكن أسقط في يد دعاة الألمان عند ما حاولوا أن يعلنوا هذا على الملأ ، لأن في اعلان نجاح الحصار انهياراً لدعواهم بأثر غواصاتهم في أسطول الحلفاء بينما كانت كل قذيفة تطلق وكل سفينة تجارية تنسف وكل بحار يغرق دليلاً قاطعاً وحجة دامغة على صدق ما يقول الحلفاء ، وصارت مادة خصبة تغذي دعاية الحلفاء ، ومعيناً لا ينضب يردونه فيغترفون منه مادة دعايتهم كل يوم .

والمبدأ القائل بأن لا بدّ لنجاح الدعاية من أن يكون لها قسط ولو صغير جداً من الحقيقة يقصد به ضرورة توافر عنصر الصدق فيها ، فان كذبة صارخة قد تترك أثراً وتأتي بفائدة ، ولكنه أثر قد لا يكون عميقاً ، وفائدة ولكنها وقتية ، ونجاحها محتمل وعلى شريطة أن يلحق بها قبس من الصدق يبددها قبل أن تصل إلى هدفها.

وفي الحرب الحبشية الايطالية والحرب الاسبانية الأهلية وفي الصراع الذي نشب بين الصين واليابان ، استغلّ المعارضون قصص التعذيب استغلالاً فاق كل حد قصد الظفر بتأييد المحايدين . فحاول الايطاليون ، مثلاً ، إن يظهروا في غزوة الحبشة بمظهر الصليبيين جاءوا لتحضير المتوحشين وتمدينهم . فأغرقوا الشعوب المحايدة بمنشورات سجلت صوراً بشعة لما يرتكبه الأثيوبيون من ضروب الهمجية وألوان الوحشية . ومن هذه صورة حية تنطق بما يدّعون ، تلك التي صوّرت ما ذاقه هؤلاء الايطاليون الذين ألقى بهم سوء طالعهم في أسر القبائل الأثيوبية الموغلة في الوحشية والهمجية ، وقد وزعت هذه الصور في جنيف قبل أن تصدر عصبة الأمم حكمها النهائي في تلك الحرب .

وصوّر أصدقاء الأحباش الايطاليين يشقون طريقهم إلى أديس أبابا خلف سحب كثيفة من الغازات السامة وأبرزوا التقارير الطبية المنزهة عن الغرض دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على صدق ما يزعمون . ولكن حملتهم باءت بالفشل ولم تلق ما قدّر لها من النجاح والتأييد فقد كانت الشعوب على استعداد ليصدقوا إن الايطاليين استخدموا الغازات المسيلة للدموع وإن الأدخنة المتصاعدة من القنابل المحرقة تفعل بضحاياها ما تفعله الغازات السامة من حيث الأثر الذي تتركه كل منها .

وفي الأشهر الأولى من الحرب الاسبانية الأهلية وقع كثير من مآسي التعذيب من

كلا الجانبين ما في ذلك شك ، لأن الحروب الأهليـة لا تعرف الرحمة ولا دخل للشفقة فيها بل كل الأثر فيها للعواطف الثائرة الجيـاشة الصادرة عن جنون المبـادىء وتقديسها ، فان آلافاً من الذين اشتركوا في النضـال شعروا بأن الشيوعية تنفث سمومها ،والفاشية تنشر وباءها وكلا الخطرين يمكن زواله بزوال مصـدره ، ففي بداية الصراع دأبت الصحـافة البريطانيـة — باستثناء صحف اليسار منها — على ان تعلق أهميـة على ما وقع على جانب الحـكوميين في اسبانيـا من وحشية ، ولـكن عند ما تدخل الألمان والطليـان إلى جانب « فرانكو » تدخلاً سافراً ، غـيَّـرَ عدد غير قليل من صحافة حزب اليمين النغمة السابقة فقد صارت الفظائع واضحة معروفة .

وكانت الحـكومة البريطانية الداعيـة الذي لا يمل ولا يفتر . فظلت دور الصحـافة البريطانية شهوراً طويلة تتسلم من « ڤالنسيا » حزماً حوت صوراً (فوتوغرافية) للأطفال الذين فتكت بهم طائرات « فرانكو » ، وقد طبعت هذه الصور على ورق حقير بخس الثمن فـكان من المستحيل إعادة طبعها وكان القصد الأساسي منها أن تعطي الصحـافيين الانجليز صورة واضحة عن فظائع الغارات الجوية ، وقد أرسلت هـذه الصور (الفوتوغرافيات) من باريس وطبعت ونشرت ، بحسن نية ، في لندن .

ولما تقدمت الحرب الأهلية الاسبانية لم تعد الحـكومة الانجليزية في حاجة إلى إبتكار ونسج قصص التعذيب ، لأن الحقـائق والأحداث كفتها مؤونة هـذا الجهد ، لأن قذف طائرات الثوار للمدن المفتوحة العزلاء بالقنابل أفزع العالم ،وهاله الدمار الذي حلّ بكبريات المدن مثل برشلونة وڤالنسيا وصغرياتهـا مثل ليريده سواء بسواء ، مع انه كان قد ألف تدريجيـاً أعمال العنف والتخريب .

وأحسن مثل لتطبيق الأساس الثالث من أسس الدعاية وأعني به ضرورة توافر بذور الحق فيما يذاع من دعايات كان في الحملة التالية للحرب العالمية الماضيـة التي شنتها المانيا ضد تشيكوسلوفاكيا فيما بين مايو عام ١٩٣٨ وسبتمبر من ذلك العام . جأر الألمان بالظلم الصارخ الذي يقع على السوديت الألمان والحيف الذي يحل بهم من جراء قيود اقتصادية ثقيلة فرضت عليهم ، وبسبب وعود قطعها الحلفاء على أنفسهم ، للسوديت ، ولم يفوا بها ، عند ما تكوّنت

الدولة التشيكوسلوفاكية الحديثـة . ففي خطاب لورد « رونسيمان » الذي بعث به الى رئيس الوزراء في ٢١ سبتمبر بعد عودته من براغ لخص فيه الموقف في هذه الكلمات : « اني أعطف عطفاً كبيراً على قضية السوديت ، فمن الموجع أن يرى الانسان أجنبياً يتحكم فيه ، ولقد غادرت هذه البـلاد وبنفسي الأثر الذي انطبع فيها بأن الحكم التشيكي في مناطق السوديت في العشرين سنة الأخيرة كان طابعه التجرد من اللباقة والذوق السليم وخلوه من حسن الإدراك وروح التسامح وحسن تقدير الأمور، رغم انه من المقطوع به انه لم يكن جائراً أو ظالماً بالفعل بل بكل تأكيد لم يكن ارهابيـاً . وكان التذمر يتغلغل في نفوس الألمانيين والاستياء يتأصل فيهم ويدفع بهم نحو ثورة كان من المستحيل تفاديها » .

ولما تجمعت هذه الحقائق في قضية السوديت تناولتها وزارة الدعاية الألمانيـة وبدأت بها عملها . وقد أفاد منها خارج المانيا ، أولئك الذين يشاطرون الألمـان عواطفهم ليؤكدوا عدالة مطالب السوديت الألمان . أما في داخل المانيا نفسها فان طوفاناً من صارخ السباب فاض ليغرق تشيكوسلوفاكيا . ولما أرادوا تصوير الشرور والمساوىء أضحى الرئيس « بنيش » هدفاً لهجمات لا تعرف هوادة وحملات لا تعرف رحمة . ولما بلغت الحملة ذروتها رمى الألمان المسؤولون الجنود بكل أنواع النقائص والشرور ولم يستثنوا منها إلاّ أكل اللحوم البشرية .

والمتشيعون لهذه الحركة خارج الريخ يظنون ان هـذا العباب الجارف من السباب والشتائم مصدره الحفيظة المتأصلة في النفوس ، ولـكن من وجهـة نظر دعاة النازيين ، لم يكن هو الغاية التي يعملون لها . فقد كان الغرض الذي يرمون اليه هو إلهاب ثورة السخط والغضب في نفوس الشعب الألماني ليثيروا ثائره ضد التشيك ، وإعداده للسير خلف الفوهرر في أية حركة يأتيها وأي اتجاه يتبعه ، بغية انقاذ ذويهم السوديت .

وتمكن الدعاة بفضل الرقابة الشديدة في المانيا على كل صور التعبير عن الرأي ، من الوصول بدعاياتهم الى أقصى حد مستطاع ، وان يغالوا ما شاءت لهم المغالاة وان يسرفوا ما شاء لهم الاسراف عامدين متعمدين وهذا غير متيسر أبداً في أية دولة ديموقراطية .

٤ — سحر الاسلوب

والركن الرابع من أركان الدعاية هو صياغتها في « سلوجن »

أعني تصوير حالة قائمة أو حركة من الحركات الشعبية في جملة قصيرة سهلة قوية التعبير عذبة

تصور في كلماتها القليلة المراد أبرع تصوير . فهو الايحاء في أقوى صوره في شئون الدعاية. وأصبح من البدهي أن القول بعدم فائدة التقارير المطولة في حملات الدعاية لغو ، ومع ذلك فكثيراً ما ينسى أو يتناسى الدعاة هذه الحقيقة فتمتلىء سلال المهملات في دور الصحف كل يوم بمقالات فياضة مطولة لم يفطن الذين أنشأوها أن ما عظم شأنه لديهم قليل الأهمية أو عديمها عند بقية المجتمع،وأن سطوراً قليلة تسترعي انتباه الجمهور خيرٌ من مقالات طوال تطوى كما نشرت لا يسمع بها أحد . وحتى لو حظيت المقالات المطولة بالطبع والنشر والاذاعة تظل عديمة القيمة لأن القارىء العادي لا يطيق الدخول في مجادلات ومناقشات طويلة اذ لا صبر له عليها فهو يعوزه الوقت الكافي والرغبة الاكيدة حتى يستوعب ما جاء فيها . ولذا فالأخبار في الصحف تقدم له سائغة سهلة التناول ، في عبارة قصيرة جلية ، لا التواء فيها ولا غموض . واذن فلكي ينجح الداعية في دعايته يجب أن ينهج نهج الصحفي في تقديم أخباره . والسلوجن يرفع الداعية الى أسمى درجات النجاح بأقل عدد من الكلمات ، فهو له أثره في النفوس وسحره في العقول ، ولذا وجب أن يكون بسيطاً خالياً من التعقيد بليغاً فصيحاً ، ذا رنة مسرحية في الأذن . وفي عصرنا الحاضر عند ما تتدافع الجماهير نحو المعارك الانتخابية يستعملون « سلوجن » كسلاح يظفر به على التأييد والنصر للسياسة التي يتبعونها ويدعون اليها .

هذا اللون من الدعاية ليس بجديد فان من أشهر ما صاغ الكتّاب في ذلك المضمار هو « السلوجن » الذي دبجته يراع الكاتب الروماني « كاتو الكبير » عندما اصطدمت قوة روما الناهضة بمصالح امبراطورية قرطاجنة التجارية ، وكان كاتو يختّم كل خطاب يلقيه بالكلمات : « يجب تحطيم قرطاجنة» . ومناداته دائماً بوجوب تدمير قرطاجنة جعلت عبارته تعيش السنين الطوال حتى بعد أن اكتسحت الرمال مصدر الكراهية وطمرته .

« حرية ، مساواة ، مؤاخاة » كانت أقوى « سلوجن » اكتسحت به الثورة الفرنسية الكبرى أوربا من أقصاها الى أقصاها ، وقد وجه الى العمال نداء لا يقل عنه أثراً وقوة : « اتحدوا أيها العمال فليس لديكم ما تفقدونه إلاّ الأغلال » .

وفي بعض الأحايين يتقدّم العدو « بسلوجن » من قول عدوه عند ما قال بيتْان هولوج

وزير الخارجية الالمانية : « تلك القصاصة من الورق » وهو يقصد الحط من قدر المعاهدة التي تضمن حياد البلجيك تلقفها الحلفاء ليشهروا بألمانيا الخائنة وليقف العالم أجمع على إجرامها . وكما يقود سلوجن الى نصر مبين يؤدي أيضاً الى هزيمة نكراء قاضية . ففي عام ١٩٢٩ وبعد أن سلخ المحافظون في انجلترا خمسة أعوام في دست الحكم وبعد أن حشدوا جيشاً جراراً من الناخبين يخوضون به خضم المعركة الانتخابية الحامية تفرقوا متجولين في المدن والقرى يدعون لانفسهم ويروجون لحزبهم وشعارهم «سلوجن» : السلامة أولاً . فكان خطأً فاحشاً دفعوا ثمنه غالياً ومنيت دعوتهم بالفشل وباءوا بالهزيمة .

وتجنيس الحروف في أوائل الكلمات المتتابعة والسجع وإحكام العبارة وحسن اختيار الحروف والكلمات في تأكيد الحقائق عناصر ومقومات ضرورية في بناء كل سلوجن .

والمبالغ الجسيمة التي يقدمها المعلنون التجاريون ثمناً لسلوجن يدعون به لبضاعة أو سلعة برهان قوي على ما له من قيمة .

ومجال السلوجن أوسع وأرحب في دائرة النشاط السياسي حيث يجد صدى عاطفيًّا تتجاوبه أنحاء البلاد عندما لا تكون في الميدان مشاكل تجارية تقلل من شأنه .

٥ — نحو الهدف

والأصل الخامس من أصول الدعاية وجوب تسديدها الى هدف معين

خير مثال لتطبيق هذا الأصل وجوب تضمنه دراسة دقيقة لعادات وخصائص ومميزات كل فرد يراد التأثير فيه ففي حال القادة من رجال الصف الأول المجهود ضروري ما في ذلك شك وفي أثناء احتدام معركة الدعاية الحامية التي سبقت دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في جانب التحالف الثلاثي : بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، في الحرب العظمى الماضية كان من الضروري للذين يعارضون مبدأ الاشتراك في الحرب أن يؤثروا في قادة الحكومة وقادة المعارضة على حد سواء وضرب البريطانيون على وتر حساس هو المبدأ السامي الذي نادى به الرئيس ولسون (مبدأ حق تقرير المصير للدول الصغيرة) نادوا بأن الحلفاء يخوضون المعركة دفاعاً عن الديموقراطية ، وفي نفس الوقت ركزوا اهتمامهم في ثيودورو روزفلت إذ تحققوا جيداً انه هو وحده الذي يستطيع الاحتفاظ بمن هم أكثر تطرفاً من أنصار العزلة والحيلولة دون تحولهم دفعة واحدة وفي فجائة مفاجئة نحو المعسكر المؤيد للالمانيين .

أما في الشؤون السياسية فان سبر غور الراي العام مهمة شاقةعسيرة فالصحف والمفروض أنها دائماً مرشد أمين تجيء أحايين تكون الصلة بين الجماهير وبينهـا على غير ما يرام ، فلا تعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة الشعور السائد في البلاد ومعرفة اتجاهات الشعب وميول العامة ذات قيمة للداعية فهي تغذيه بالمساعدة وتمده بالعون الذي يمكنه من إدراك مدى الحماس الذي استطاع أن يبثه في نفس جمهوره في كل مرحلة من مراحل الحملة .

فالداعية ، إذن ، يجب أن يتوقع كثيراً من الاخطاء وان لا يضيق بمجال الشك والتذبذب إذا طالت ما دام الأفراد مختلفين اختلافاً بيناً كل عن الآخر فيما بينهم . ويمكن الداعيـة أن يتثبت من أن باعثاً من البواعث يولد رد فعل خاص كذلك إذا حشد المجتمع ونظم طبقاته تنظيماً ثابت القواعد والأركان . وجدير بالذكر ان في الدول الفاشستية وروسيا الشيوعيـة يبذل القائمون بالأمر كل جهـد لحصر الشك في دائرة ضيقة بجمع طبقـات الأمة في حشود متشابهة قريباً بعضها من بعض .

والداعية الذي يعمل وينقصه ما يساعده على إزالة الشك من النفوس جهده ضائع إذا حاول التأثير في جماعات بالذات لأن الجماعات تلبي نداء الداعية إذا ما كانت من طبقات اجتماعيـة واحدة أو منحدرة من جنس واحد . وتكون تلبية نداء الداعية صورة مشابهـة للدوافع التي دفعت اليها . وتاريخ الدعاية منذ حرب ١٩١٤ — ١٩١٩ يذخر بأمثلة هـذه السياسة ، ففي بداية الحرب الماضية وقبل أن تتحول كراهية بريطانيا لألمانيا الى عاطفة جياشة كاسحة شاملة قوية من البغضاء والحقد والحفيظة تستعر بها قلوبهم كتبت مسرحيـة قوية تصور ما أصاب بلجيكا من ضنك وما حلَّ بها من شقاء بعنوان « بلجيكا الصغيرة البائسة » أو ما نزل بصربيا من هوان في رواية « صربيا المجاهدة التعسة ». واستغل الداعية خاصية العطف على المنكوبين وهي عاطفة تتأصل في نفوس البريطانيين ، لتدعيم دعوته ونجاحها.

ويمكن ، طبعاً ، استخدام أي وسـيلة من وسائل الدعاية في شن هجوم على جماعة أو هيئة معينة ، ولـكن بعض هذه الوسائل تكون قليلة النفع بطبعها في حملة نبذل جهداً في إعدادها . فالراديو مثلاً نفعه عظيم الأثر جليل القدر وبه تنفذ الدعاية الى صميم الأقليات عبر البحار ، بينما تقل فائدته في حملة غرضها وهدفها التأثير في طبقة اجتماعية معينة في الداخل

وتعامل على انها متميزة عن باقي المجتمع . والأفلام السنمائية مثلها مثل الراديو تقيدها نفس القيود وتقتصر على نفس التأثير بينما الصحف الاقليمية المحلية تسد هذا النقص . ولذا فان الموضوعات ذات الصبغة الوطنية يراعى في تصويرها الناحية القومية حتى تثمر الثمرة المرجوة عند الانتفاع بها باستخدامها على الشاشة البيضاء وسيلة من وسائل الدعاية في أماكن مختلفة . ومهما كانت الأوضاع فالصحافة اليوم تسد كل نقص فتقدم الصحف والنشرات الدورية والمجلات المتعددة الاختصاص والمتشعبة الاتجاهات ، مادة خصبة الى الجماعات والطبقات حتى الصحف التجارية المحضة والمجلات الأسبوعية وغيرها . . . وغيرها لها أسواقها التي تزدهر فيها وتروج وتحيا .

٦ — استئصال شأفة الشك

والأس السادس من أسس الدعاية اخفاء الدافع اليها

يعتبر بعض الكتّاب هذا العنصر الدعامة الأساسية في الدعاية « فورك » مثلاً يصل الى التعريف التالي « الدعاية حملة تخفي المعين الذي منه تنبع وتستر الدافع اليها أو كليهما معاً ، والغرض منها الوصول الى غاية معينة واصابة هدف خاص بالتأثير في الرأي العام واثارته » . والدعاية سافرة أو مقنعة كما أسلفنا فالدكتور جوبلز يلقب رسميًّا بوزير الدعاية وتنوير الرأي العام فهو لا يخفي شيئاً من طبيعة العمل الذي يقوم به في الدولة النازية ويعلن على العالم أجمع أن النظام الذي ارتضته المانيا لنفسها لن ينحرف يوماً عن الطريق المثلى التي اختطتها وسلكتها ، والذي ثبت صلاحه ونجاحه على الأيام . ومن وجهة نظره أن ما يميز الدعاية في دولة ديموقراطية عنها في المانيا أن في الأولى يرسم الرأي العام السياسة ويوجه الدولة بينما في المانيا الدولة هي التي ترشد الرأي العام وتوجهه وترسم السياسة التي يجب أن يتبعها ولا يمكن الاعتماد على الدعاية السافرة أو المباشرة فقط حتى ان دكتور جوبلز السافر لا يستطيع ذلك واتخذ احراق الريشستاغ المبيت موضوعاً لدعاية مستترة القصد منها التشهير بالشيوعيين واظهارهم بمظهر المجرمين أمام العالم .

وفي أكثر الدول طغياناً ، وعندما برهنت الأيام والأحداث على أهمية زوال الشك من النفوس الأمر الذي ينتج من الحقيقة الواقعة والعقيدة الراسخة في الأذهان أن الدعاية اذا

لبست ثوب التنكر اتسعت دائرة النقاش حولها وغدت موضع بحث وتعليق وبذلك تزول الحواجز التي تفصل الداعين عن الجمهور وتنتفي الشبهات التي تحيط بالدعاية وموضوعها وصدق القارىء العادي كل ما يقرأ ورجل الشارع كل ما يسمع. فاذا دبجت يراع رئيس التحرير، في صحيفة حازت ثقة قرائها مقالاً افتتاحياً في فوائد الكهرباء كان مقاله أقرب الى قلوب القارئين من مقال في نفس الموضوع يكتبه بائع محترف في صفحة الأخبار المحلية لأن جمهور القراء يفطن بالغريزة الى أن رئيس التحرير منزه عن الأغراض لا يرمي الى هدف سوى النفع العام.

وفي مختلف البلدان والأمصار تنفق الأموال الطائلة لشراء الدعاية المقنعة والانتفاع بفوائدها الجليلة. نظمت في الحرب الماضية حملة ضيقة النطاق ترمي الى الحض على مصادرة الأسلحة والحيلولة دون تهريبها فبذل الألمان في دعوتهم أربعين ألفاً من الجنيهات على جماعات الصحف الصغيرة التي تصدر بلغات أجنبية في أمريكا وكان نداؤها قاصراً على الترويج للمبدأ في ذاته دون ذكر لألمانيا على الاطلاق، وكانت الكتابات في الموضوع عامة وتهيب بالشعب أن يساعد على تخفيف ويلات الانسانية ولا يعمل على تدمير الحياة والمدنية بل يسعى جاهداً على حفظهما وبقائهما..

وكثيراً ما تطغى الداعية السافرة على الدعاية المقنعة أو هذه على تلك في حملة واحدة أو تبدو كل منهما في مرحلة من مراحل الحملة. ولنضرب لذلك مثلاً بمثل دولة أجنبية في لندن يريد عقد قرض لبلاده. فهو يعمل أولاً على أن تدس فقرات من الأخبار الخارجية في الصحف البريطانية تشيد بتقدم تلك البلاد وثبات مركزها المالي حتى اذا ما اتجه الرأي العام الى هذه المزايا وتنبه الناس اليها أعلن عن القرض سافراً صريحاً. ونجاح الجمع بين عنصري السفور والحجاب في الدعاية يتوقف كثيراً على الوقت المناسب للتحول من ظلام السرية الى نور العلانية.

ولقد افتتنت مؤسسات الذخائر وعتاد الحرب في السنوات الحديثة في هذا النوع من الدعاية المقنعة وأشهر مثال لها عرف حتى الآن يختص بمؤتمر نزع السلاح البحري الذي انعقد في جنيف عام ١٩٢٧ وبعد ان مضى عامان على انعقاد هذا المؤتمر قاضى مستر شيرر

ثلاث مؤسسات كبيرة لبناء السفن في الولايات المتحدة يطالبها فيها بأموال طائلة لأنه قد أدى لها خدمات جليلة بعمله على اخفاق المؤتمر في أغراضه التي كان يريد الوصول اليها فأخضع بناء السفن لمبادئه الخاصة به ، دون النظر الى المؤتمر وما يبغي . وقد تمكن شيرر من هذا لأنه كان مراسلاً لاحدى الصحف الصغرى الامريكية فنظم الدعاية لمحاربة بريطانيا وأعدّ العدة لذلك وتمّ له ما أراد بمساعدة الأخبار التي كان يوافي بها الصحف الامريكية الذائعة الصيت . وقد أميط اللثام عن هذه المؤامرة المدبرة عندما أمر الرئيس هوفر باجراء تحقيق على يد النائب العام للكشف عن هذه الفضيحة .

والعاملون على اثارة الخواطر والقلاقل الدولية تعارضهم جماعات ناجحة كانت تنمو رويداً رويداً قبل الحرب الاخيرة ، وقامت تدعو للسلام قبل هذه الحرب ، وضمت أفراداً من نحل مختلفة وهيئات سياسية واجتماعية متباينة ، ولكن يجمعها كلها غرض واحد مشترك ومن هذه الجمعيات : « اتحاد عصبة الأمم ، واتحاد المتكلمين بالانجليزية » وتعمل كلها في وضح النهار وغايتها نشر السلام .

واتحاد عصبة الأمم جمعية تأسست عام ١٩١٨ وبلغ عدد أعضائها قبل الحرب الاخيرة الرحى ألف ألف وكانت مسئولة عن أعظم حركة للدعاية قامت بها جمعية للسلام واشتهرت بالاستفتاء للسلم عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، ولقد قامت ضجة كبيرة حول هذا الاستفتاء ووصفته بعض الأحزاب بأنه دعاية مقنعة ماهرة ضد الحكومة وقالت أحزاب أخرى أن الأسئلة التي وردت في الاستفتاء لا يمكن الاجابة عليها عدا الثاني منها وأعلن سير أوستن تشمبرلن ان المنشور الذي قدم للمقترعين للتصويت عليه هو « هل أنت في جانب السلم أم جانب الحرب ؟ إذا كنت تريد السلم فاقترع بنعم ، لأن الاقتراع بلا معناه نشوب الحرب » . فكان هذا ايحاء للاقتراع في جانب السلم .

٧ — خطاب لويد جورج في يوم السبت من كل اسبوع

وتقسيم الوقت أو اختيار الزمن هو الأصل السابع من أصول نجاح الدعاية

في كل حملة من حملات الدعاية يجب على الداعية ألاّ يضيع فرصة استغلال أي حدث من الأحداث تكون لها أهميتها التي لا يحسن به تناسيها أو اهمالها بل يجدر به الاستفادة

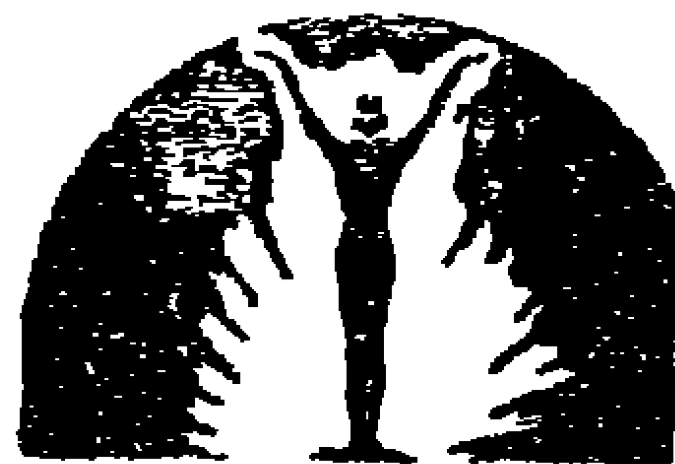
منها قدر المستطاع لتأييـد دعوته والعمل على نجاحها حتى ولو تأكد ان هـذا الاتجاه يتعارض مع توزيع الزمن الذي جعـله أساساً منظماً لعمله . ومن الحـكم المأثورة التي لها قيمتها في النشر والاذاعة ان حشد الجهود وتجنيد الـكفاءات واعداد العدة واتقان العمل ثم الهجوم بحملة قوية خاطفة لا تترك ثغرة تنفذ منها قوة مضادة أو نقطة ضعف تتداعى عند أول صدام هي خير الطرق وأنجع الوسائل لـكسب المعركة ، ثم يعقب هذا الهجوم القوي وفي فترات قصيرة متلاحقة تذكرات بموضوع الدعاية حتى لا يزول من الذاكرة وشيكا ، كما يجب أن تزاد هذه التذكرات قليلاً قليلاً كلما تقدمت الحملة في الزمن ويراعى في كل ما قصد به التذكرة والتركيز أن يكون قويًا فعالاً ، وان يكون وحدة في سلسلة متصلة الحلقات

واذا ما وقعت أحداث غير منتظرة وتفتحت احتمالات جديدة أمام الداعية فلا ضرورة لتطبيق القواعد والقوانين وما عليه الا أن يتحين الفرص ولا يدع فرصة تفلت من يديه حتى يجني ثمار ما غرس . ويتشعب هذا المبدأ الى شعب متعددة . فالظروف هي التي تملي علينا اختيار الوقت الذي يجب أن تطلق فيه قذيفـة الدعاية الأولى . فـكانت سياسة لويد جورج أن يلقي خطاباته المهمة بعد الظهر من يوم السبت في كل أسبوع — ونهج هتلر نهجه فيما بعد — وبهـذه الوسيلة يمد المتـكلم صحف المساء بأخبار حديثة وتجيء صحف يوم الاحد بتفصيلات وافية لهذه الاخبار وتعليقاً عليها . أما صحف الاثنين الصباحية فتـكرس مساحات أوسع لتعليق أوسع وأبعد مدى ، كما تعطي سرداً مفصلاً لما أحدثه الخطاب من رد فعل في الصحف الخارجية .

وفي أثناء الحرب الـكبرى الماضية عني القائمون بأمر الدعاية البريطانية عناية فائقة بمبدأ الزمن وتقسيمه تبعاً للأحداث والخطوب فـكان مراقبو النشر يمنعون كل خبر سيء ، مثل اغراق طرادة ، حتى يحرزوا نصراً في ميدان آخر أو يقع ما يدعو الى الابتهاج والاستبشار ويبعث على الفرح والتهليل وحينئذٍ لا بأس من اعلان ما سبق ان حظروا لأنه سيختفي حتماً ولا يؤبه له بجانب ضوء النصر الساطع . ويصرح ويروك في هذا الصدد ان الأوامر البريطانية الخاصة بمشاكل الحصر البحري روعي فيها التوقيت الدقيق لطابع التصريح الألماني

المتعلق بجعل القطن بضاعة قابلة للمصادرة.كغيرها دون قيد أو شرط ، جاء في نفس اليوم الذي كانت فيه الصحافة الامريكية في حالة انفعال شديد بسبب اغراق البارجة « ارابك » فأبان هذا التصريح أن الألمان الأشرار أحرزوا قصب السبق واتخذوا اجراءً اقتصادياً كان من شأنه أن تأثر النجاح الأمريكي ولحقت الحقوق الأمريكية أضرار جسيمة .

ويقوي هذا المبدأ ويؤيده ادراك ما للكتمان من فائدة في حملات الدعاية فغالباً ما يكون نجاح الداعية ليس لمعرفته فقط متى يتكلم بل متى يجب أن يصمت لأنه عندما تكون لدى خصومه قضية وطيدة الاركان مؤيدة بالأسانيد والحجج تلعب دوراً هاماً لأنهم يفسرونها تفسيراً يتمشى ومبادئهم التي يعملون لها ويساعد على نجاح الحرب التي يخوضونها فاذا لم يقتنع الجمهور بما أدلي اليه من تفسير ظلت القوة في القضية نفسها ولكن تنتقل الى المعسكر المعادي . وفي هذه الحال فان الطريق السوي أن يستعد الداعية وينتظر حتى ينسى الجمهور ويستعجل الداعية نسيانه بحملات هجومية مختلفة كل الاختلاف بعيدة كل البعد عن الموضوع الأصيل.ولا تقتصر فائدة هذه الخطة على توجيه الرأي العام وجهة أخرى بعيداً عن ميدان النضال الحقيقي حيث تحرّج الموقف وانسدّت عليه السبل ، بل أيضاً يمنع العدو عن متابعة نصره بارغامه فجأة من غير أن يتوقع ان يقف موقف الدفاع وهو موقف يظهر ضعفه وحرجه .



List of Books

Propaganda By Leonard W. Doob (1935)

Secrets of Crewe House By Sir Campel Stuart (1920)

Propaganda By Edward L. Bernays. New Work. (1928)

Propaganda By Richard S. Lambert

Propaganda Boom By A. J. Mackenzie (1938)

Through thirty Years By F. Wickham Steed (1924)

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور : وهو بحث مثبت للالوهية نافٍ لما يدعيه بعض الماديين من ان في المادية الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد . ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد دي موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور علي رجب المدرس بكلية أصول الدين مع مقتطف ابريل ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل — تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده ظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

موسكو — برلين — لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم عصام الدين حفني ناصف — ظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

فلسفة التفاحة

أو جاذبية نيوتن : بقلم نقولا الحداد : مقتطف يوليو ١٩٤٦

ثمن النسخة ١٠ قروش صاغ

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبد الودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي التساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
ص

١٢٠ في القطر المصري والسودان

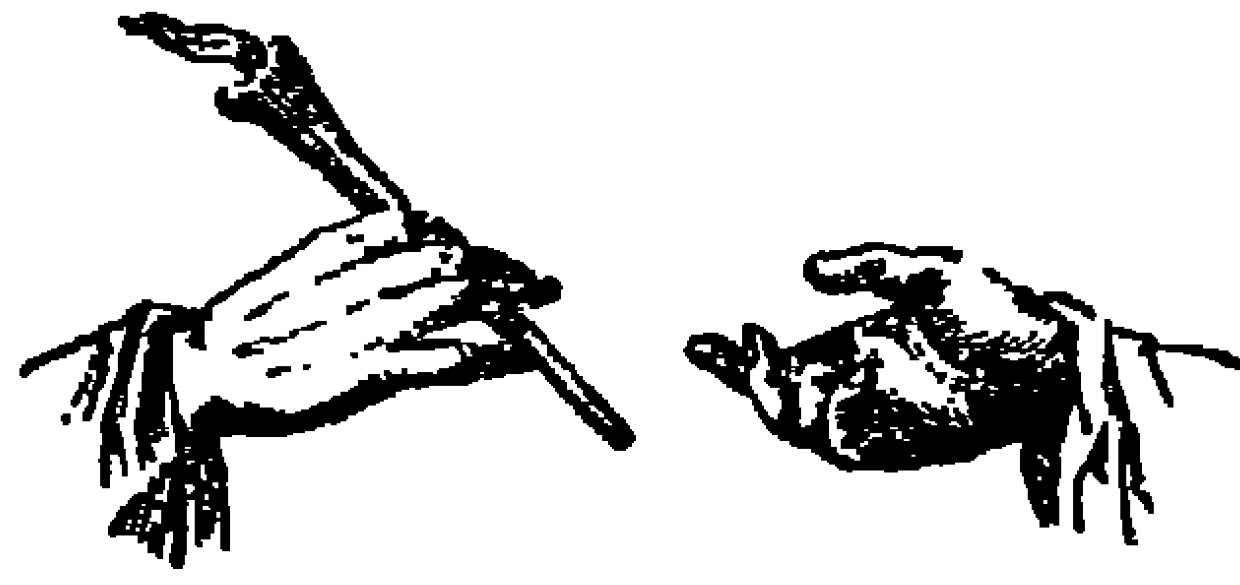
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



المقتطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع بعد المئة

١ نوفمبر ١٩٤٦ ‏ ‏ ٧ ذي الحجة ١٣٦٥

أصل الأمر في الدّين ، أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة . فالزم ذلك لزوم من لاغناء به عنه طرفة عين ، ومَنْ يعلم أنه إن حُرِمهُ هلك . ثم إن قَدَرت أن تجاوز ذلك الى التفقه في الدين والعبادة ، فهو أفضل وأكمل

« ابن المقفع »

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت له خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي رسلوها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد التاسع بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٦ — ٧ ذي الحجة سنة ١٣٦٥

هذي هي الاغلال

لعلَّ هذه أول مرة في تاريخ هذه المجلة يعني محرر من محرريها بكتاب يصدر فيخصص له الصفحات الأولى منها . لا نقول هذا لأن هذا تقليداً جديداً في الصحف العلمية أو الأدبية ، فقد تفرد مجلة من كبريات مجلات العالم مقالها الافتتاحي لنقد كتاب أو التعريف بمؤلف ، وإنما نذكر ذلك لأن هذه أول مرة يفرد المقتطف افتتاحيته للكلام في كتاب يصدر في الشرق أو الغرب . ولا شك أن ذلك إنما يرجع إلى أن هذا الكتاب ، هو في تقديرنا يستحق هذه المنزلة وله أن يحتل هذه المكانة .

ليس لنا بصاحب هذا الكتاب معرفة من قبل ، ولم يدر بخلدنا أن أستاذاً نابهاً كالأستاذ عبد الله القصيمي يمكن أن يخرج على أهل هذا الزمن بمثل هذه الأفكار من بيئة بعيدة عن الاحتكاك بأفكار العصر الذي نعيش فيه ، ويذهب في تحليل العقلية الجامدة التي وقفت بأهل الاسلام القرون تلو القرون،ذلك المذهب الحر المتزن المستند إلى حقائق مقتطعة من صميم الحالة الاجتماعية والعلمية ، التي تكتنف أهل الشرق والمسلمين منهم خاصة .

ونحن فوق ذلك لا ننتصر للكتاب ولا لصاحب الكتاب ، وإنما ننتصر لاعتقادنا الجازم بأن الكتاب وصاحب الكتاب هما إلى جانب الحق في تصوير عقلية المسلمين في هذا الزمن الذي دارت عجلته وظلت عجلة المسلمين واقفة ، ولأن هذا العصر لا يواتي أهل النزعة الأخروية التي دسها على الاسلام مسلمون أو غير مسلمين ، ساءت نيتهم أم حسنت ، أولئك

الذين أدخلوا في الاسلام من نزعات الخنوع والتأخر والانحلال ما صبغه بتلك الصبغة التي لا يرضاها لنفسه مسلم ، ويأباها الاسلام على كل المسلمين .

أنتصر لهذا الكتاب لأني أشتم فيه ريح القوة والجبروت والعزة التي هي من صفات الإسلام ، وليست الآن من صفات المسلمين . وأتنسم فيه عبير حرية الفكر وحرية الضمير ، وأرى فيه هزة نفسية تصدر من أعماق الضمير الاسلامي على حقيقته الأصيلة ، لا على ظاهر تلك الأقوال التي دسها على الاسلام ونبي الاسلام ، مغفلون من أصحاب التقوى الزائفة ، أو مدلسون من أصحاب المذاهب المريضة ، أو مزورون من أهل السياسة ، أو شعوبيون يودون لو أن العرب والعربية والعروبة تطوى صفحاتهن جميعاً من هذا الوجود ، أو دخلاء في الإسلام نقلوا إليه من مذاهب الزهد والنسك والباطنية ، هنوداً كانوا أو روماً أو فرساً أو أغارقة ، ما كان سبباً في ضياع ملكهم وزوال سلطانهم ، أمام تلك القوة الكاسحة وأمام الخُلق الثابت والنفس المتأججة التي ضرب بها الإسلام في أصول تلك الممالك ، فهشمها وحطم ملكها وأباد سلطانها ، بعد أن نخر منها الزهد والنسك والباطنية العظم ، وعرق اللحم ، وخلفها حطاماً ، وجعلها أحاديث .

أيصدق مغفل أو مجنون أن النبي العربي صاحب الرسالة العظمى في تاريخ البشرية يقول : لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة واستعينوا عليهن بالمغزل وسورة النور ؟ وهو الذي جاء بدينه للمرأة نصيراً ، وهو الذي أنقذ الموءودة من جهالة الوثنية الأولى !

أيصدق مخبول أو معتوه أن محمداً بن عبد الله العربي الصميم وصاحب رسالة الإسلام يقول : اللهم من آمن بي وصدقني وعلم ان ما جئت به هو الحق من عندك ، فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك ، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم ان ما جئت به هو الحق من عندك ، فأكثر ماله وولده وأطل عمره ؟ وهو الذي جاء بدين للدنيا والآخرة !

أيصدق مسلم صادق الإسلام أن نبيه يقول : إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته ؟ إلا أن يكون خليع بيمارستان أو هارباً من مستشفى مجاذيب !

أيدخل في تصور مسلم مؤمن بمحمد وبرسالة محمد أنه يقول : من أخذ لقمة أو كسرة

من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر في بطنه حتى يغفر له ؟ إلاَّ أن يكون طويل الأذنين كالحمار ؟

أتصدقون أيها المسلمون الصادقو الاسلام ان نبيَّكم وصاحب رسالتكم يقول : لا يأتي زمان إلاَّ والذي بعده شرٌّ منه ، وأنه يقول : لا يزداد الأمر إلاَّ شدة ولا الناس إلاَّ شحًّا ولا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الخلق ، وأنه يقول : كل شيء ينقص إلاَّ الشرّ فإنه يزيد ؟

أهذه هي العقلية التي دوّخت العرب وهم عمالقة الأمم ، ودوخت الفرس والرومان ؟ وفتحت العالم المعمور من حدود بحر الظلمات إلى أغوار الصين ؟

اذا كانت الشعوبية قد استطاعت ان تدسَّ على الاسلام وعلى العرب وعلى المسلمين أجمعين كل ما اتصفت به الأمم التي أكلها الاسلام أكلاً وهضمها هضماً ، وهي ترسف في قيود الزهد والنسك والباطنية ، وإذا كنا قد استطعنا الآن أن نلحظ شعاعاً من نور في الأفق الذي غشت عليه هذه النزعات وأظلمته تلك الآراء المزوّرة والأحاديث المدسوسة ، ألا يكون من أسباب قوتنا أن نعرف انه قد دُسَّ علينا ودُلّس على ديننا وزوّر على عقيدتنا ، وانا بذلك انحدرنا من تدويخ الامبراطوريات وتحطيم القائم من الوثنيات، إلى الكلام في مثل ما تكلم فيه السيوطي في كتابه « كشف المعمي في فضائل الحُمّيّ » ، وكتابه « الطرثوث في فضل البرغوث » ، أو ما تكلم فيه ابن حجر العسقلاني في كتابه « بذل الماعون في فضل الطاعون » ، أو ما ترى في كتب المناقب وغير كتب المناقب من الخرافات التي تهلع لها قلوب الأحرار ، والأساطير التي تهتز لها الأرض وتفزع السّماء ، أو البحث فيمن يحمل فوق ظهره قربة ملئت فُساءً هل تصح صلاته بها أم ينتقض وضوؤه ؟

الأغلال التي قيدت الإسلام والمسلمين ، والأساطير التي أودت بحياة الرومان والفرس ، والخرافات التي دست علينا ودخلت في ديننا زوراً ، ونزعات الزهد الكاذب والنسك البائر والصوفية المجذونة والباطنية البلهاء ، تلك هي الأشياء التي يدعو هذا الكتاب إلى تحطيمها ونبذها بل وحرقها وتذريتها مع الريح ، لنرتد ثانية إلى إسلام محمد والصديق وعمر ، وإلى رجولة بن الوليد وأبي عبيدة وعبد الرحمن الداخل ومحمد بن القاسم ، ونقول مع نبينا وصاحب شريعتنا السمحاء : الساكت عن الحق شيطان أخرس.

اسماعيل مظهر

من الأغلال

« إن الجهل الاعتقادي قد ضرب على قومنا عقداً فوق عقد ، وان أفضل ما يعمله المرء أن يحل عقدة من هذه العقد . . . إن للوهم الواحد في الحياة ثلاث نتائج :

أولاها : أن يعوق عن السير الى الغاية المنشودة ، وثانيها : أن يوجه جهة أخرى مضادة ، وهذا فيه من الابعاد عن الغاية وضياع الجهد المبذول سدى ، وثالثها : افساد العقل ... فان الاوهام تأكل العقول وكل وهم يأخذ من العقل بقدره . ولا تزال الاوهام تتوالى عليه حتى يصبح عاجزاً عن التمييز في النهاية عن وظيفته . . . أما ما في هذا الكتاب هو من الحقائق الازلية الابدية التي تفقدها أمة فتهوى ، لانها فقدت حقيقة من حقائقها الطبيعية ، وتأخذ بها أمماً أخرى فتنهض لانها قابلت الطبيعة الكاملة بطبيعتها الكاملة ... ولن يوجد مسلم واحد بين الاربعمائة المليون المسلم ، يستغني عن هذه الافكار اذا أريدت له حياة صحيحة طبيعية ».

***

« ان الدين اذا فسد العمل به ، صار آلة ضعف وانحطاط » .

***

« ان التفاوت بيننا معشر المسلمين ، وبين الاجناس والامم الاخرى ، لا بد له من أسباب وعلل . وهذا ما لا ريب فيه . فليس من المعقول أن يكون تقدم قوم ، وتأخر آخرين مشابهين لهم من ظاهر الخلق ، بل وباطنه ، صدفة من الصدف أو مجرد اتفاق لا تعليل له ، بل كل شيء قائم على أسباب وعلل » .

والمسألة لها احتمالان أو فرضان من حيث النظر العام : أحدهما أن يقال : إن هذا التفاوت طبيعي في أصل التكوين وجبلة الفريقين ، وثانيهما أن يقال انه تفاوت عارض له أسباب عارضة من الممكن علاجه ومن الممكن الشفاء منه .

أما الفرض الاول : فليس من الممكن القول به ولا المصير اليه . وذلك أن تطور العقل البشري في جميع مراحله ومراحل وجوده ، لا يبقى لهذا الفرض فرصة لان يكون مقبولا قائماً . واذن فالفرض الآخر هو الصحيح الواجب المصير اليه ، وعليه بنينا بحثنا وكتابنا.

عبد الله القصيمي

في هذي هي الاغلال



أمحوتب

وزير الملك زوسر وطبيبه

وبالتالي إلــه الطب المصري القديم



خصص هذا المقال لذكرى الطبيب والساحر والحكيم الممتاز ، الذى ظهر لأول مرة على مسرح التاريخ المصري في عهد الملك زوسر من الأسرة الثالثة كما ظهر بعدئذٍ مرة ثانية على نفس ذلك المسرح ، خلال مدة تزيد على ثلاثة آلاف سنة .

فاليك أيها القارىء تاريخ ذلك الطبيب « أمحوتب » في عصر نشاطه ، وشباب شهرته ، معاصراً للفرعون « زوسر » ، وفي العصور التاليــة ، حيث كان معتبراً نصف إله ثم أحد الآلهة المصرية .

﴿ نشأته وظهوره ﴾ كانت مدارس الطب عند قدماء المصريين تابعة للهيا كل وخاصة برجال الدين . قال هيرودت في كتابه الثاني ، الفصل ٨٤ :

« وكان من النظم المتبعة عندهم أن كل واحد من الأطباء يختص بعلاج مرض واحد ، »
« لا يعالج غيره . فكان فريق مختصًا بعلاج أمراض البطن ، وفريق مختصًا بأمراض »
« الرأس ، وفريق مختصًا بأمراض الأسنان ، وفريق مختصًا بالأمراض الباطنية » .

وقد ذكر هوميروس في كتابه « الأوذيسية » في الجزء الرابع العدد ٢٢٧ ، أولئك الأطباء ، ووصفهم بالمهارة في الطب والتفوق فيه حيث قال : « إن الرجال في مصر أكثر مهارة في الطب من جميع الشعوب » .

وقال « مانيثون » المؤرخ المصري القــديم : « إن الملك « أتونيس » من الأسرة الأولى مارس الطب ، ووضع كتباً قيمة في « التشريح » ، ولــكن يد الدهر قد لعبت بتلك الكتب حتى لم يبق لها أثر الآن .

وإنا لذاكرون هنا موجزاً عن حيــاة « أمحوتب » في أطواره الثلاثة ، التي لعب فيها أدواره الرائعــة على مسرح التاريخ ، حتى كان له من المكانة ، ما ألزم نُطس الأطباء وأفذاذ الفراعنــة ونبغاء المؤرخين أن يشيدوا بذكره ، وأن يكتبوا له صفحات ناصعة بيضاً ، باقية على الدهور والأزمان :

(١) « أمحوتب » معاصراً للملك « زوسر » (٢٩٨٠ سنة ق . م)
(٢) «أمحوتب» طبيباً نصف إلـه (سنوات ٢٨٥٠ — ٥٢٥ ق . م)
(٣) « أمحوتب » الهاً للطب (سنوات ٥٢٥ ق . م — ٥٥٠ ب . م)

ا — ﴿ أمحوتب المعاصر الملك زوسر ﴾ ولد « أمحوتب » في قرية « عنخ تاوي » القريبة من ممفيس ، في ١٦ من أبيب ، وتوفي في ١٧ من مسرى ، ولـكنَّا لا نعرف في أية سنة ولد ، ولا في أية سنة توفي ، كما إنا لا نعرف عن تاريخ طفولته شيئاً ، وكان أبوه « كا ـ نفر » مهندساً معمارياً بارعاً ، وكانت أمه تدعى « خرد ـ عنخ » ، وزوجته تدعى « رنبت ـ نفرت » وابنه « رع ـ حتب » .

وقد اصطلح قدماء المصريين على أن معنى «أمحوتب» — « الآتي بسلام » .

ولقد بدأ « أمحوتب » حياته بنشاط متنوع نادر حتى استحق أن يلقب بالألقاب الآتية (١) وزير (٢) مهندس معماري (٣) كاهن وعالم بالطقوس الدينية (٤) حكيم وكاتب ماهر في علم الفلك (٥) طبيب وساحر .

ا — ﴿ أمحوتب الوزير ﴾ كانت وظيفة الوزير لفرعون من الوظائف السامية ذات المسئولية الكبرى . فقد كان الوزير في الوقت الواحد يجمع بين الوظائف والألقاب المتنوعة : « حبيب الله ، وفم السلام في الديار المصرية ، والمتصرف بأمر الملك في الوجهين القبلي والبحري ، وحامل أختام الملك ، ورئيس الأنبياء » .

وفي عهد الدولة القديمة اشتهر في الأمة المصرية ثلاثة وزراء (١) امحوتب (٢) كاجمنا (٣) فتاح حتب .

ووُجد منقوشاً على صخرة من حجر الجرانيت في جزيرة الساحل قبلي أسوان على ميلين منها ، خرافة مجاعة السبع السنين ، وإن تاريخها يرجع الى عصر البطالمة ، على أن شكلها يدل بوضوح على رجوع تاريخها الى عهد الملك « زوسر » ، ووزيره « أمحوتب »

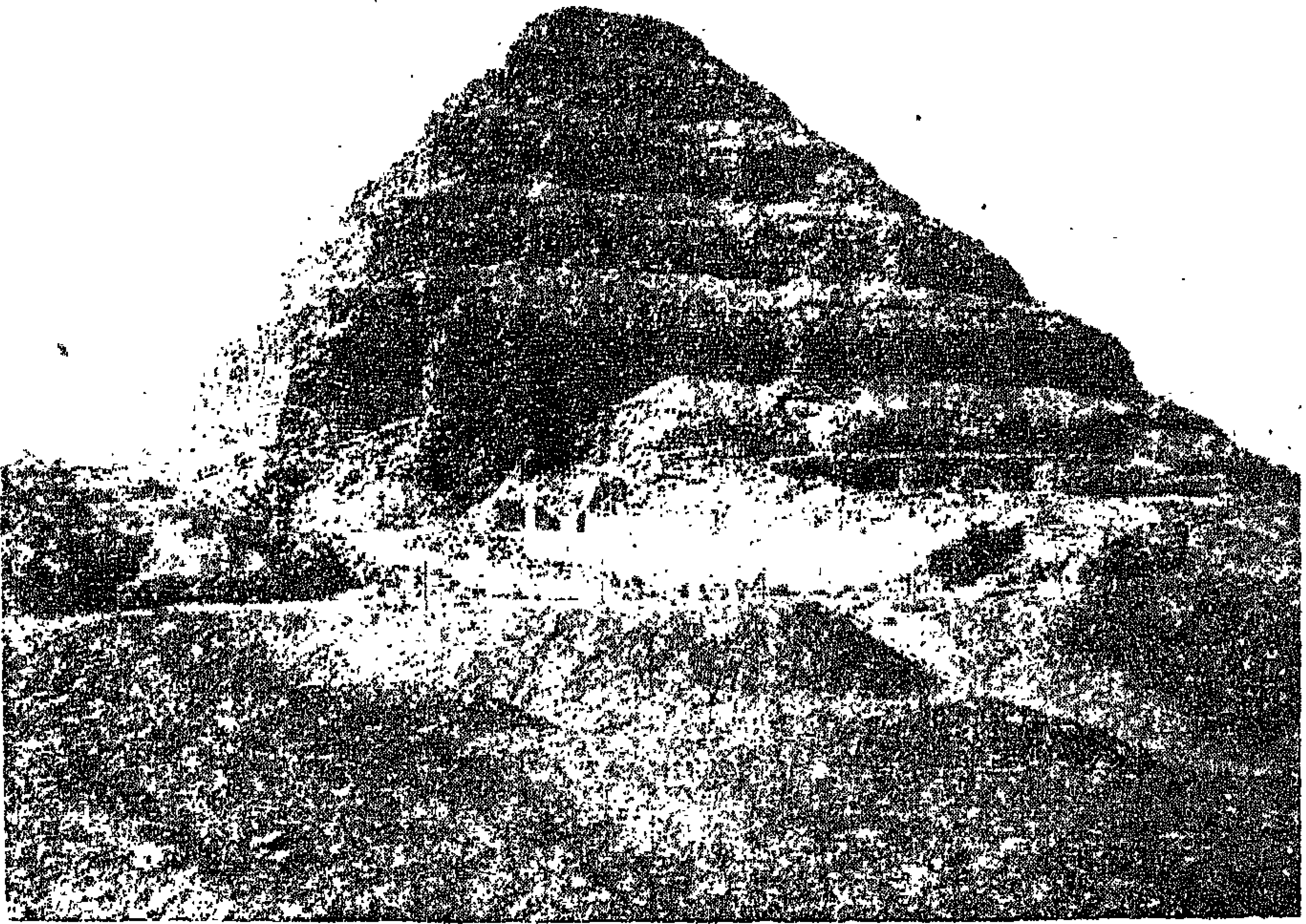


ش ١ — الملك زوسر من الأسرة الثالثة

وقد ذكر في الفصل ٤١ ، العدد ٥٤ من سفر التكوين : « وابتدأت سني الجوع تأتي كما قال يوسف « فكان جوع في جميع البلدان ، وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز »

وفي سنة ١٩٢٦ عُثر على تمثال الملك « زوسر » (ش ١) في الهرم المدرج ، وقد نقش على قاعدته أن الوزير أمحوتب أهداه لمليكه .

ب — ﴿ أمحوتب المهندس المعماري ﴾ كان « أمحوتب » رئيس جميع أشغال الملك « زوسر » في الوجهين القبلي والبحري ، وكان مهندساً معماريًّا بارعاً ، إذ تعلم هذا الفن عن أبيه « كانفر » الذي اشتهر بفنّه في جميع بقاع الديار المصرية .



شكل ٢ — الهرم المدرّج للملك زوسر

ولما اعتزم الملك « زوسر » بناء هرمه المدرج (ش٢) في سقارة بمقربة من ممفيس عيّن « أمحوتب » وزيراً مهندساً للاشراف على بناء ذلك الهرم فكان ذلك الهرم درجة انتقال في قبور قدماء ملوك مصر من المصطبة إلى الهرم الحقيقي . وأول من اخترع الهرم المدرج هو « زوسر » ووزيره « أمحوتب » ذلك المهندس الذي وضع هرم مليكه على شكل مستطيل تقريباً ، تبلغ مساحة قاعدته الشرقيـة والغربية ٣٩٦ قدماً ، وطولها من الجانبين

الشمالي والجنوبي ٣٥٢ قدماً وارتفاعه ١٩٥ قدماً تقريباً ، وبه ست درجات طول الواحدة منها على الترتيب : ٣٨ / ٣٦ / ½ ٣٤ و ٣٢ / ٣١ / ½ ٢٩ ، فيكون مجموعها ٢٠١ قدماً ، ويتفاوت عرضها بين ستة وسبعة أقدام .

واتسعت رقعة البلاد المصرية في زمانه ، وعُبّدت طرق المواصلات بين البلاد المصرية وبلاد الهند وما بين النهرين ، إذ وجد في تلك البلاد آثار قديمة وصُنِعت على شكل هرم « زوسر » المدرَّج ، يستدل بها على انه كان بين مصر وتلك البلاد طرق مواصلات (راجع كتاب : W, Simpson. The Tower of Babel and the birs Nimrod.)

ج — ﴿ أمحوتب رئيس كهنة ﴾ كان الكهنة عند قدماء المصريين طبقتين : الأولى الراقية وهم الأنبياء (حمونتر) أي خدمة الآلهه ، والثانية العادية (أوآب) . وكان أمحوتب رئيس الكهنة الداعين ومن الطبقة الأولى الراقية ، حيث اعتبره عامة الشعب كاهناً وطبيباً .

وكان فرعون هو الكاهن الوحيد الأعلا ، المتأنس من حورس المهيمن على جميع الطقوس الدينية ، ولكن « أمحوتب » باعتباره ممثل الملك ، له جميع السلطات الدينية المخولة له من مليكه ، كان في نظر عامة الشعب رئيس الكهنة .

د — ﴿ أمحوتب حكيم وكاتب ﴾ اشتهر « أمحوتب » بأنه أكبر حكماء المصريين ، وكان له في ذلك الميدان آثار كثيرة بقيت أعواماً ودهوراً طويلة وانتشر بعضها في كثير من البلاد ، ومن ذلك الغناء الجنازي الشهير « بغناء القيثارة » ، ومنه : « ألق خلفك كل الهموم ، واذكر الأفراح حتى يأتي اليوم الذي تسافر فيه الى أرض الصمت » . فكان لهذا الغناء أثر عظيم في نفوس المصريين ومن جاورهم . وقد ترجمه العالم الألماني « إرمن » من المصرية القديمة الى لغته ، كما ترجم هذا الغناء الى عبارات أشهرها ما ذكرناه آنفاً . وبقيت هذه الأنشودة سنين طويلة حتى نقلها اليونان والرومان عن المصريين ، وترجموها بما يأتي :

« دعنا نأكل ونشرب لأننا غداً سنموت » وذكر القديس بولس الرسول هذه الأنشودة في رسالته الثانية لأهل « كورنثوس » في الفصل ١٥ العدد ٣٢ بعبارة : « إذا كان الأموات لا يقومون ، فلنأكل ونشرب فاننا غداً سنموت » .

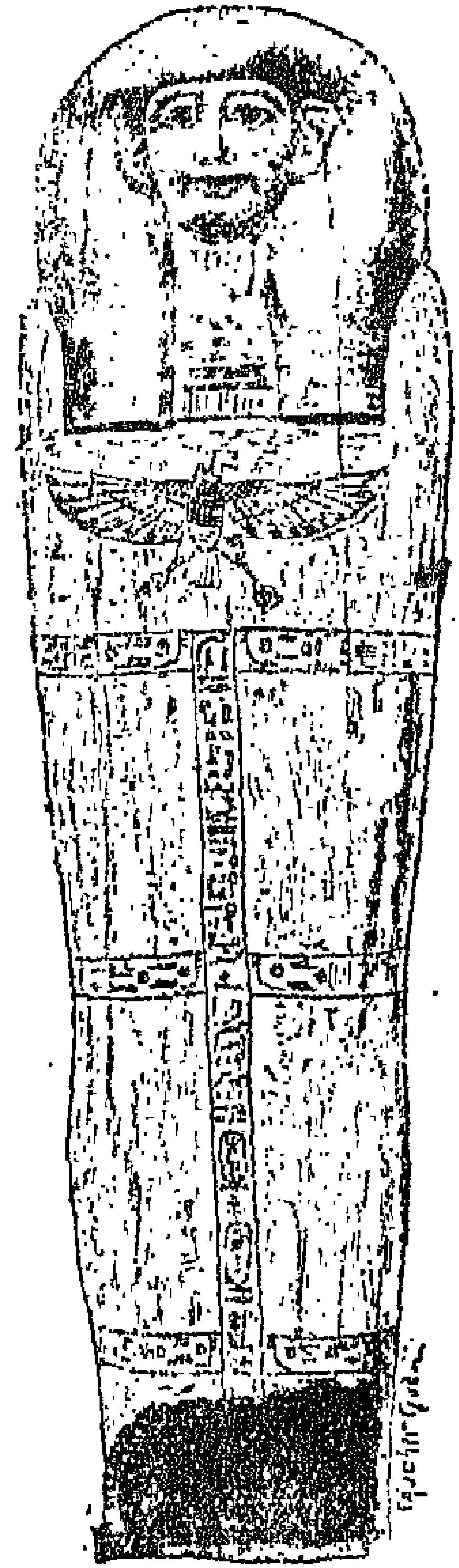
* * *

وقال هيردوت في الفصل ٧٨ من كتابه الثاني : « إعتاد أغنياء المصريين أن يأتوا بعد

تقديم الاطعمة في ولائمهم، بتابوت من الخشب (ش ٣) فيه صورة انسان ميت طبق أصلها في الهيئة والرسم ، يبلغ طولها ذراعاً أو ذراعين ، ويطوفون بهـا على كل شخص من المتكئين قائلين له : « انظر الى هذه الصورة ، وكل واشرب وانشرح ، فإنك ستكون مثلها بعد الموت ».



(ش ٤) أزوريس إلـه الأموات



(ش ٣)

تابوت من الخشب يحتوي على جثة تحوتمس الثالث

وكان من عاداتهم أن عملية تحنيط جثة الميت تستغرق أربعين يوماً ، قبل أن يدخلوها قبرها ، وفي خلال تلك المدة يقيمون الحفلات الطـقـسية عليهـا ، والأعياد الجنازية لها ، ويطوفون بالجثة المحنطة في كل وليمة عند انتهائها .

وقال « إشتين » (Stein) إن هذا الوجه الملوّن هو لأزوريس (ش ٤) ربّ الأموات

لأن كل انسان يموت يصير « ازوريساً » في العالم الثاني . وذكر فلوطرخوس « Plutarchus » ولوكيان « Lucian » هذه العبارة ، غير أنه لا يوجد لها أثر في العاديات القديمة .

وقال « ماسبرو » في كتابه « Annuaire Des Etudes Grecques pp. 176—186

« يوجد في المتاحف وجوه كثيرة صغيرة مصنوعة من الخشب تمثل مومياء في نعش ، بينها وبين ما وصفه هيردوت كثير الشبه ، وان العظة التي نقتبسها منه مذكورة في بعض القصائد المصرية القديمة » كما أوضحنا ذلك سابقاً .

وكان قدماء المصريين يعتبرون ان سعادتهم في تشييد مدافنهم ، وكانوا لا يدخلون القبور ، بل يجتمعون في أيام معلومة في مدافن أجدادهم ، ويقيمون الولائم لهم ، ويطوفون بتمثال حول المدعوين .

اشتهر اسم « امحوتب » مع الحكيمين الشهيرين : « كاجمنا » المعاصر « لحوني » آخر ملوك الأسرة الثالثة ، « وفتاح حتب » وزير « آسي » آخر ملوك الأسرة الخامسة .

و « لفتاح حتب » نصائح دينية قيمة مؤثرة في نفوس الخاصة والعامة ، نذكر منها هذه النصيحة الغالية التي تعلمنا فضيلة التواضع ، لصدورها من فيلسوف مصري قديم وهي : « إذا نلت الرِّفعة بعد الضَّعة ، وحزت الثروة بعد الفاقة ، فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها ، فانك أمين على نعم الله ، والأمين يؤدي أمانته ، وإن جميع ما وصل إليك ، سينتقل عنك الى غيرك ، ولا يبقى منه لك الا الذكر إن حسناً أو سيئاً »(١)



(ش ٥) تمثال لكاتب (مستشار) متربع بالمتحف المصري بالطبقة السفلى

وكان « أمحوتب » كاتباً أي مستشار الملك (ش ٥) « زوسر » يؤيد ذلك النقش الذي عثر عليه في معبد النوبة ونصه « أمحوتب رئيس الكتبة لغلال الوجهين القبلي والبحري » .

(١) راجع كتاب الادب والدين عند قدماء المصريين « لانطون ذكري صفحات ١٥ — ٢٠ »

هـ — ﴿ أمحوتب عالماً بالفلك والنجوم ﴾ كان المعبود « تحوت » عالماً في الفلك وغيره من العلوم ، حتى كان ينسب اليه وحده علم الفلك ، ولـكن العالم الألماني « زيتي » (Sethe) عثر في نجم يوناني يرجع تاريخه الى سنة ١٣٨ ق . م . ان « أمحوتب » كان شريكاً للمعبود « هرمس » في التنجيم (أي معرفة المغيبات بواسطة النجوم) .

قال هيردوتس في كتابه الثاني في العدد الرابع : « أما ما يختص بالأمور الفلـكية وعلم النجوم ، فقد اتفق الجميع على أن المصريين أصحاب الفضل والسبق في رصد سير النجوم والـكواكب » .

* * *

و — ﴿ أمحوتب ساحراً وطبيباً ﴾ كان السحر والطب في عهد الفراعنة ممتزجين بعضهما ببعض، وكان السحر في الغالب معتبراً عندهم قرين الطب ، كما كان « أمحوتب » معتبراً نصف إلـه للطب في عهد الملك « منـكاورع » من الأسرة الرابعة ، وإلهاً كاملاً للطب في عهد العجم في مصر .

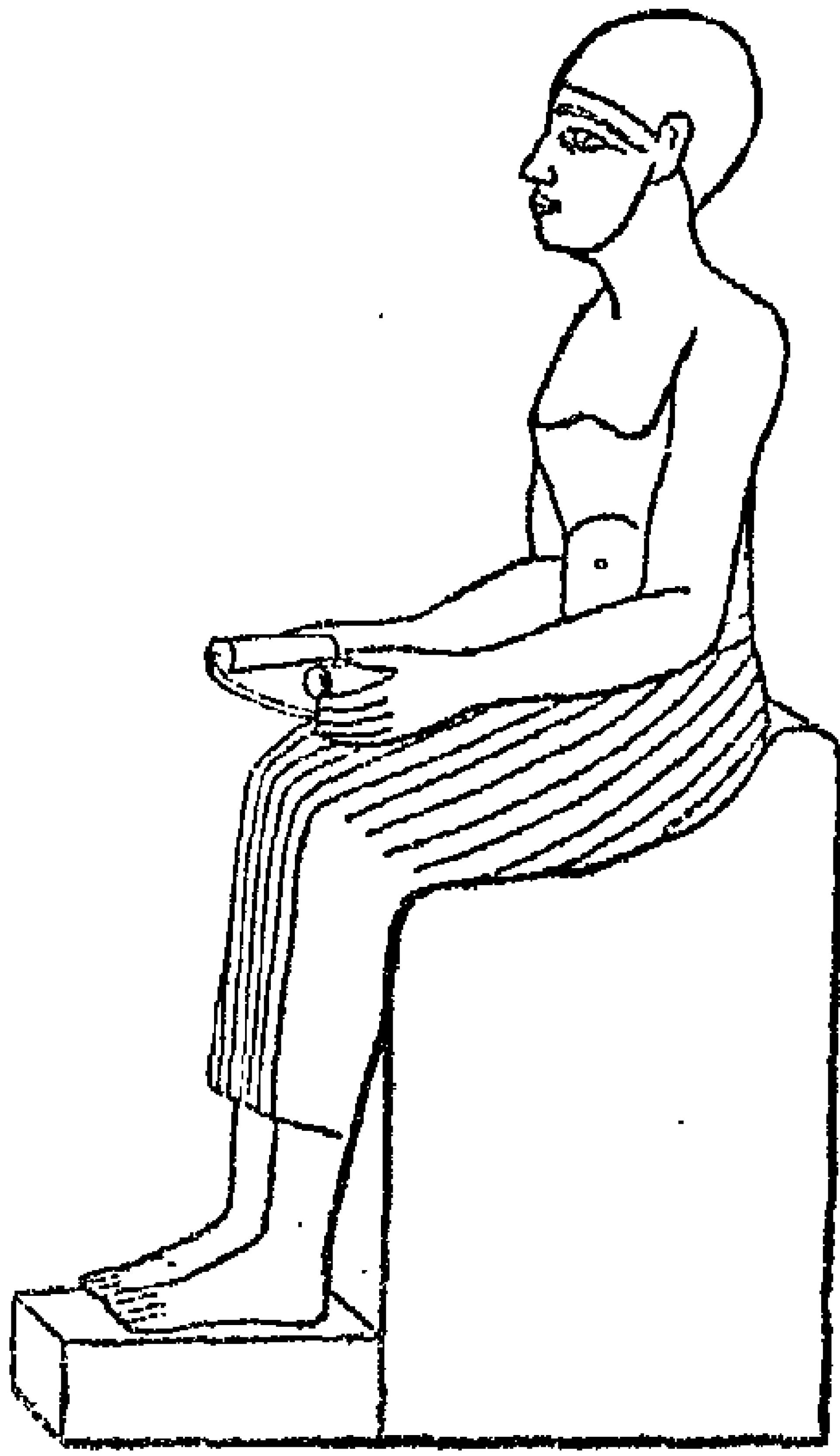
٢ — ﴿ أمحوتب نصف إله للطب ﴾ كان قدماء المصريين يطلقون على كل من امتاز في حياته بميزات طبية قانونية وذهنية،لقب « البطل » أو« البطل الالهي » أو « البطل نصف الـه » ، وكذلك كان عامة الشعب الفرعوني ، يعتبر أولئك الممتازين بعد موتهم قوماً فاقوا قوة البشر ، فيقدمون لهم فروض العبادة من أجل ذلك .

والورقة البردية التي عـثرَ بهـا في سنـة ١٩١٣ العالمان « جرنفل وهنت » في « أكسيرِ نـكوس » (Oxyrhynkos) بالفيوم تدل بوضوح على أن « أمحوتب » كان معتبراً عندهم نصفَ إلـه للطب، إذ وجد مكتوباً عليها « أن « أمحوتب » كان معتبراً نصف إله في عهد الملك « منكاورع » بن خوفو الذي يرجع تاريخه الى سنة ٢٨٥٠ ق . م ، وبعد بداية حكم زوسر بمائة وثلاثين عاماً ، وفي الغالب أنَّ تلك الورقة البردية كتبت في القرن الثاني قبل الميلاد .

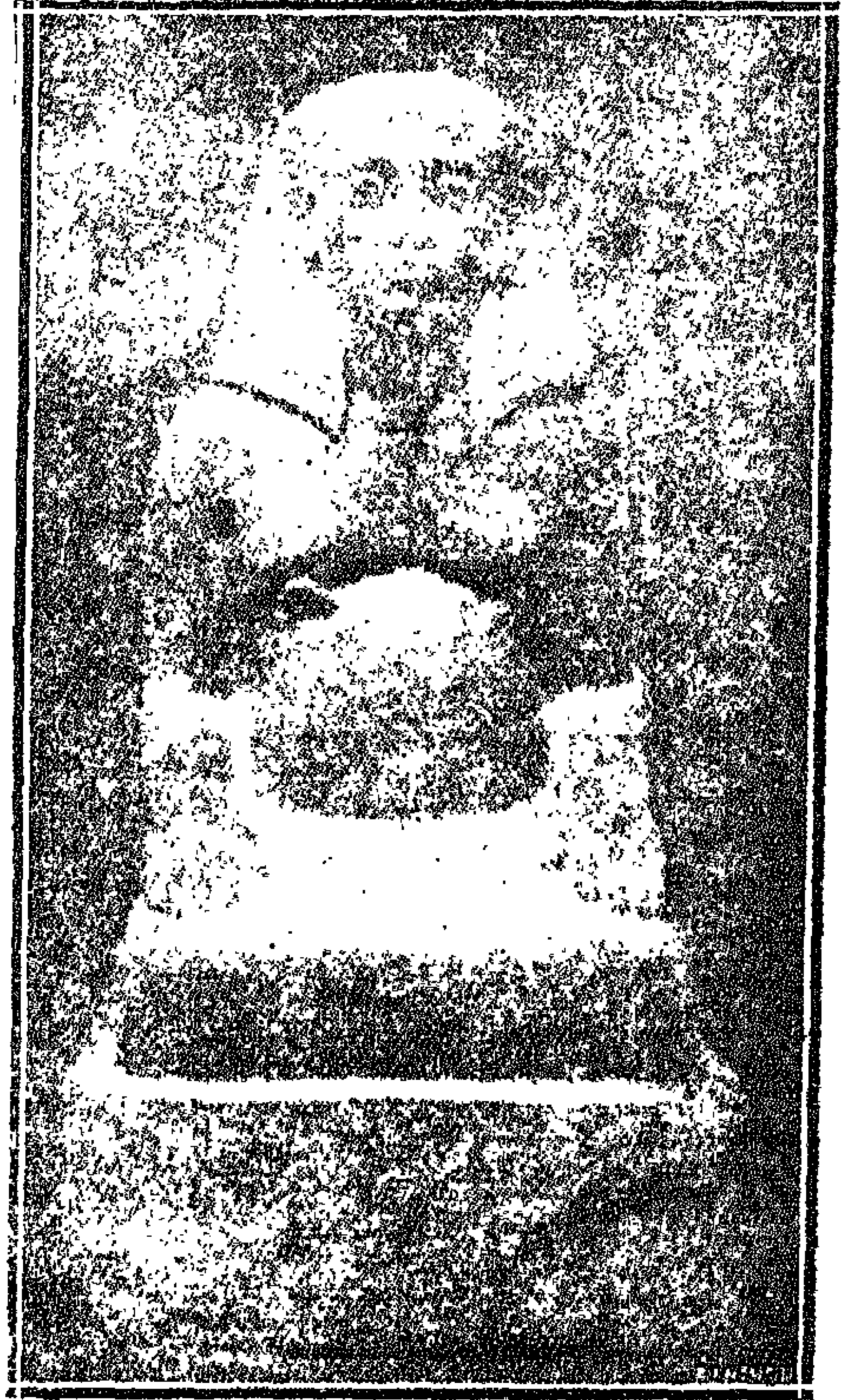
* * *

ومن الغريب أن هيردوتس . ذكر في الفصل ٥٠ من كتابه الثاني « إن قدماء المصريين لم يؤدوا فرائض العبادة « للأبطال » ، فـكأنَّ هيردوتس كان يجهل تاريخ قدماء المصريين وديانتهم الحقيقية ، ولم يرشـده أحد من الـكهنة الى أن من أبطال قدماء المصريين

« أمحوتب » ، وأمنوفيس بن حاءپي (ش ٦) اللذين فاقا عامة الشعب المصري وأُلِّها أي رقيا الى الألوهية ، وشيدت لهم المعابد الكثيرة . كذلك كان هيردوتس لا يعرف شيئاً عن جغرافية مصر القديمة ، إذ لو عرفها لعرف انه كان من بلادها في عهد اليونان بلدة تدعى « قرية الأبطال » وهي المعروفة اليوم » بتل المسخوطة (بيثوم) .



(٧) أمحوتب نصف آلـه للطب

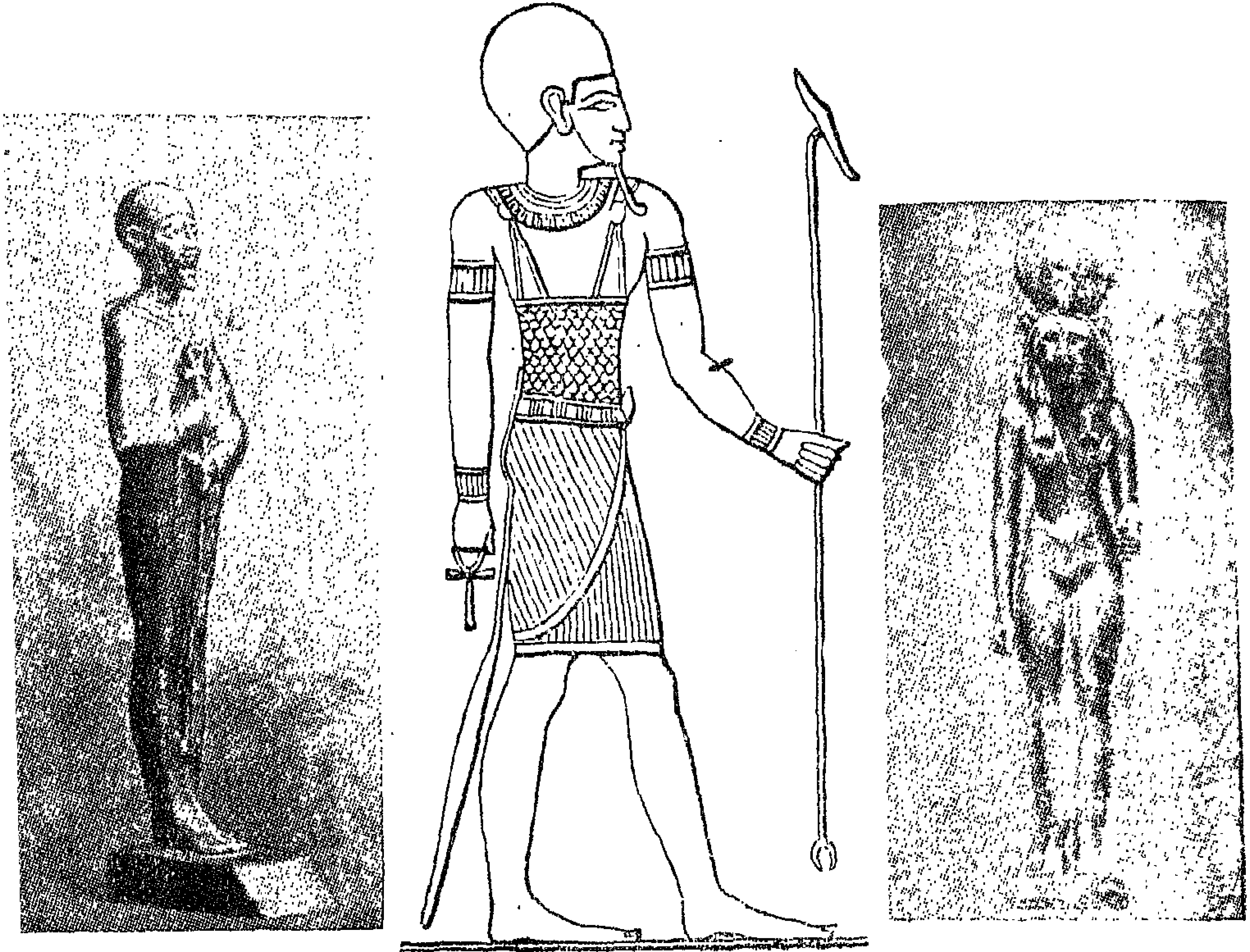


(ش ٦) أمنوفيس بن حاءپي

وكان قدماء المصريين يصورون « أمحوتب » صوراً متنوعة ، ويرمزونه رسوماً متعددة ، تختلف باختلاف تطوراته ، وتتشكل حسب رقي درجاته ، فكانوا يرمزونه بصفة نصف إلـه للطب (ش ٧) جالساً وبيده ملف على هيئة ورق البردي ، وفي رقبته عقدان ، وتارةً يصورونه عاري الرأس ، وأخرى لابساً قبعته ورمزوه إلهاً كاملاً على صورة انسان حاملاً الشارات الملكية ، وفي يده اليمنى صولجان ، وفي اليسرى علامة الحياة ، كما رمزوه واقفاً وجالساً[1]

(١) راجع (ش ٨) ثالوث ممفيس

٣ — ﴿ أمحوتب إلــه الطب ﴾ كان « أمحوتب » وزيراً للملك « زوسر » ، ثم رقي إلى درجة إلــه للطب في عهد كانت مصر تحت نير الفرس زمن « قمبيز » ، وفي الوقت الذي طـرد فيه الأشوريون سنة ٦٥٤ ق . م . حتى ولاية العجم سنة ٥٢٥ ق . م وكان قد مضى بين وزارته وتأليهه خمسة عشر جيلاً .



ش ١٠ ش ٨ ش ٩

ثالوث ممفيس (٨) امحوتب اله الطب المصري القديم والى يمينه رقم (٩) الاله فتاح والى يساره رقم (١٠) المعبودة سخمت

فقـد نشأت الأسرة ٢٦ المعروفة بالأسرة الصاوية ، ذات العصر المجيد في تاريخ مصر القديم . ولما شاهدت أعمال « أمحوتب » وآثاره الخالدة ، أرادت مكافأته خير مكافأة ، فلم تجد خيراً من تأليهه ورفعه الى درجة إلــه . ولقبته بابن الالــه فتاح (ش٩) وصار عضواً في ثالوث ممفيس الذي تكوّن من فتاح وزوجته سخمت (ش١٠)، وأمحوتب الذي سمّاه اليونان « اموثيس Amouthes » و « اسقولافيوس Asklepios » .

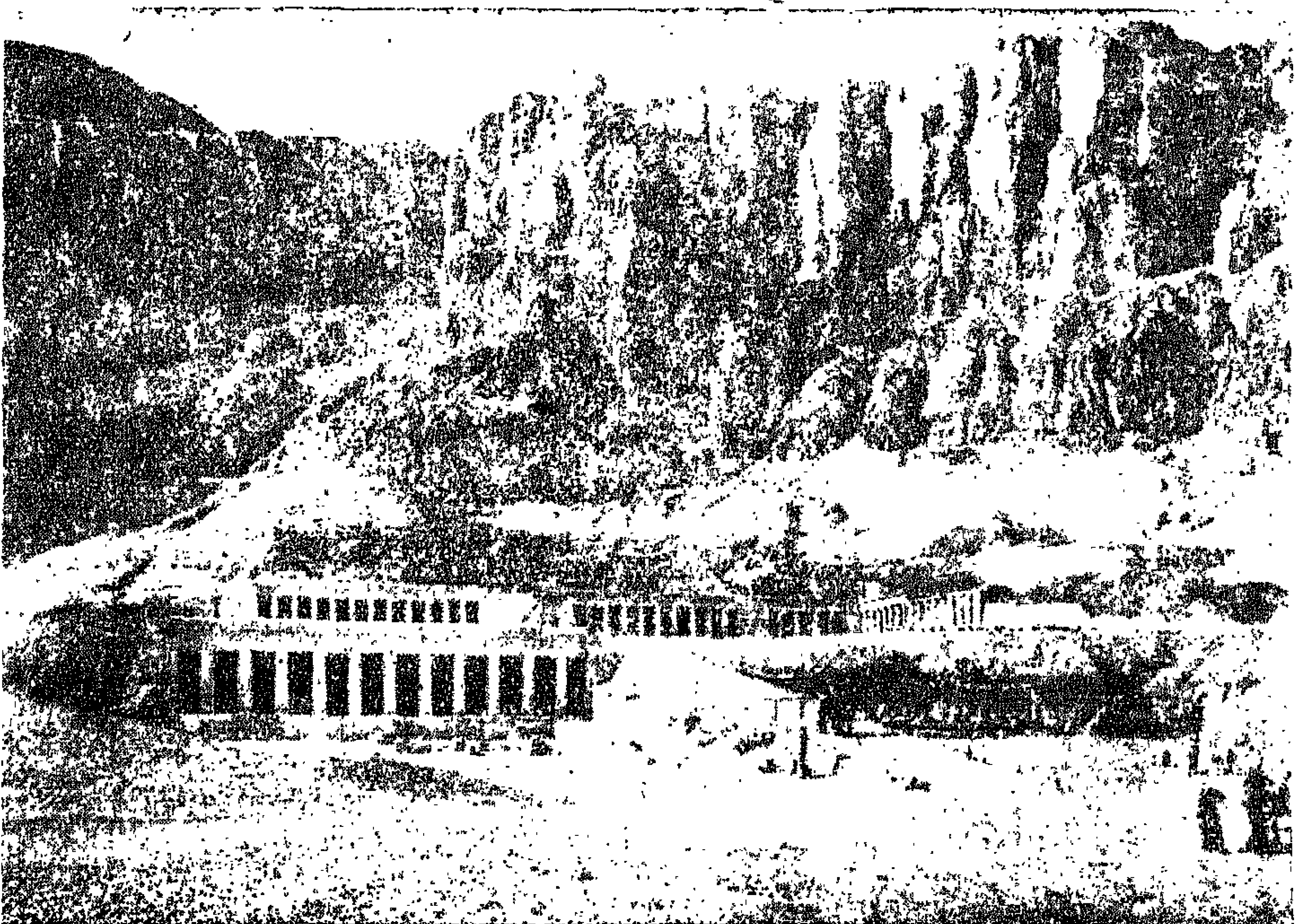
وقد شيَّد له المصريون معابد كثيرة بوصفه إلـه الطب ، أهمها معبد ممفيس الذي صار أكبر مستشفى ومدرسة للسحر والطب بعد ذلك ، ولكن مما يؤسف له أن الامبراطور « ثيودوس » هدم ذلك المعبد ، وكان به صندوق للصدقة على شكل حية (ش ١١) وهذا الصندوق لا يزال محفوظاً بالمتحف المصري بالدور الأسفل منه في الطرقة الشرقية

ويرجع تاريخه الى العصر الروماني المصري .

وأقاموا له معبداً آخر يسمى « الاسقولافيون » Asklepion



(ش ١١)
صندوق للصدقة على شكل حية محفوظ بالمتحف المصري بالطبقة السفلى



(ش١٢) معبد الدير البحري بالاقصر الذي شيدته الملكة حتشبسوت

بجزيرة « فيلة » الشهيرة باسم « الجزيرة المقدسة » شيّده بطلميوس الثاني حوالي سنة ٢٨٣ — ٢٤٥ ق . م ، ورغم كرّ الدهور ، وغمره بماء الخزان[1] الذي يغمره سنويًّا ، بقي هذا المعبد قائماً للآن . كذلك شيّد بطلميوس التاسع حجرة في معبد الدير البحري (ش ١٢) خاصة بأمحوتب وأمنوفيس بن حابي .

* * *

المكتبات الطبية لأمحوتب

(إسقولافيوس) بممفيس

كان لكل معبد هام بمصر القديمة مكتبة خاصة به ، تحوي كتباً مخطوطة على جلد الغزال ، أو على ورق البردي ، وقد دوّنت بها الطقوس الدينية التي كانت تؤدّي يوميًّا في تلك المعابد . وكان بعض الكتب يدوّن به « كتاب الموتى » الذي كان لزاماً على كل مصري أن يحفظه عن ظهر قلب . وكان بمعبد « إسقولافيوس » بممفيس ومعبد فتاح ، كتب « تحوت » المقدسة محفوظة بهما .

وكان لزاماً على كل طبيب أن يطبق عليها علاج المريض الذي يقوم بعلاجه ، ويعاقب الطبيب الذي يخالف التذكرة الطبية المصرح له باستعمالها في معالجة المريض . وقد نقل بعض الأطباء مثل « ثيوفراسطوس » (Theophraste) و « ديوسقوريدس » وغيرهما بعض العقاقير والتذاكر الطبية المصرية ، وطرق تشخيص المرض التي تعلموها في معبد فتاح أو « أمحوتب » بممفيس ، ثم انتشرت بعدئذٍ في أوروبا . وفي الحقيقة أن اليونان نقلوا كثيراً من العقاقير والتذاكر الطبية المصرية ، ثم نقلها عنهم جميع شعوب الأرض .

﴿ الأعياد المخصصة للمعبود أمحوتب ﴾ ذكر « جوتييه » ان الفراعنة في ممفيس كانوا يقيمون ستة أعياد في السنة اكراماً للمعبود « أمحوتب » :

فالعيد الأول كان لمناسبة ميلاد « أمحوتب » الذي ولد من امرأة بشرية ، وأبوه الاله « فتاح » الذي فرح بمولده كثيراً .

والعيد الثاني كان يقام في مثل اليوم الذي كانوا يحتفلون فيه عظيم الاحتفال بنقل تمثال « أمحوتب » من معبده الى معبد « فتاح » حيث كانت تؤدي له الطقوس الدينية .

---

(١) خزان اسوان

والعيد الثالث في مثـل اليوم الذي انتقمت فيـه المعبودة « سخمت » لإمحوتب من الأشوريين الأدنياء ، لما لاقاه منهم من الإهانات .

والعيد الرابع في مثل اليوم الذي توفّـي فيه « أمحوتب » كان يقيمه أبوه فتاح .

والخامس تذكاراً لدفنه .

والسادس عيد تأليهه .

وقد بقيت عبادة أمحوتب وتأليهه حتى القرن الرابع بعدالميلاد ثم بطلت من بعد ذلك.

* * *

﴿كيف بطلت عبادة أمحوتب﴾ استولى الرومان على مصر سـنة ٣٠ ق . م وحصلت تغييرات اقتصادية كثيرة في مصر وفي خارجها ، وانتشرت الديانة المسيحية في القرن الثاني بعد الميلاد . في جميع أنحـاء البلاد المصرية ، وبخاصـة في الاسكندرية ، واعتنق الديانة المسيحية الملك قسطنطين سـنة ٣١٣ ب . م . ، وأمر الامبراطور « ثيودوس » الـكبير سنة ٣٨٠ ب . م . بأن تعتبر الديانة المسيحية دين الدولة المصرية ، وأدخل اليونان في مصر علومهم وثقافتهم الطبية من تاريخ تأسيس مدينة الاسكندرية سنة ٣٣١ ق . م . ، كل هذه الأسباب مجتمعة كانت كافية في إضعاف وإبطال عبادة « أمحوتب » في الديار المصرية .

* * *

هذا ما أردنا ذكره في هذا المقال عن الوظائف التي شغلهـا أمحوتب ، والصفات العالية التي امتاز بها من وفرة الذكاء وقوة الارادة وسموّ الآداب ودماثة الأخـلاق ، وغير ذلك من الصفات التي رفعته الى صف العلماء المشهورين والعظماء المعروفين في التاريخ المصري .

فهو إذن لم يترك ميتاً راقداً في إحدى مقابر ممفيس ، بل بقي خالد الذكر الى يومنا هذا بما اختص به من الدرجات التي لم ينلها أحد قبله ولا بعده من الفراعنة ، حتى رقيّ الى درجة آلـه الطب ولقد صدق فيه القول المأثور :

«لم يمت من عاشت شهرته» "Non moritur cujus fama vivit" . واكراماً له ألّـه قدماء المصريين أباه وأمه وزوجته وابنه تمجيداً له .

انطون زكري

أمين مكتبة المتحف المصري سابقاً

تحول النمو التدريجي

الى انقلاب في الثورة الفرنسية

كل نهضة إجتماعية لا بدَّ لها من النموّ التدريجي . ولـكن عند حد معين تكثر المؤثرات فتصير إنقلاباً قد يكثر فيه الشطط في الأقوال والأعمال وقد كانت الثورة الفرنسية مثالاً لهذا الانقلاب بعد النموّ التدريجي .

وعند ما بدأ المؤرخون كتابة تاريخها بطريقـة علمية كانت الفـكرة المستحوذة على أذهانهم أنها أنقلاب لا صلة له بالمـاضي وإنه لا يصح أن يجمع المؤرخ بين نظرية النموّ التدريجي ونظرية الإنقلاب والثورة الفكرية . وكان أشهر من نظر إليها من حيث أنها انقلاب، الكاتب الفرنسي تين . ولبثت هذه النظرة سائدة إلى أن أظهر مؤرخان صلاتها بالماضي فأظهر سوريل صلاتها به في شؤون السياسة الخارجية وأساليبهـا وأغراضها كما أظهر دي توكفيل صلاتها به في الأمور الداخلية .

عند ما أيقظ أحد الضباط النبلاء الملك لويس السادس عشر من نومه وأبلغه خبر اعتداء الباريسيين على سجن الباستيل واستيلائهم عليه، قال الملك: هذا عصيان. فقال النبيل: لا يا مولاي انها ثورة . وكما أن ذلك النبيل صحح رأي لويس السادس عشر، جاء تين المؤرخ وصحح رأي النبيل . فقال لم تكن ثورة فحسب، بل كانت فوضى واضمحلالاً . ثم أخذ يقيم الأدلة على صحة رأيه . والحقيقة أنها كانت فوضى واضمحلالاً في أول أمرها قبل أن تنظم بعد تجربة إثر تجربة

ولـكن سوريل ودي توكفيل قد أثبتا أنها بالرغم من ذلك كانت مرحلة عنيفة من مراحل التغير الذي شهده الماضي وأوضحا صلاتها بها . ولم تكن آراء دي توكفيل آراء نظرية، بل إنه طاف بمدن فرنسا ودرس السجلات المحفوظة من العهود السابقة وجعل يبحث وينقب حتى كوّن آراء لم يكن يتوقع تكوينها. فقال : كلما تقدمت في البحث ازداد تعجبي، لأني في كل حين كنت أجد نظماً وخططاً وصفات أراها في فرنسـا الحديثة ، وكنت أظنهـا نتيجة الثورة الفرنسية فإذا هي من عهدٍ أقدم، وقد وجدت أن العوامل التي انتصرت في الثورة الفرنسية هي العوامل التي كانت تعمل قبلها مثل توحيد المقاطعات والقوانين وتنظيمها وإزالة الفروق . فحيث وجد غيره من المؤرخين انفصالاً عن الماضي ، وجد دي توكفيل استمراراً منطقيـاً.

فوجد أن الثورة زادت السلطة المركزية العامة كما زادها ملوك البوربون قبلها. ولو ان الثورة أضعفتها أولاً في عهد التجربة والفوضى المؤقتة. ووجد ان الثورة الفرنسية قضت على البقية الباقية من آثار النظام الاقطاعي الذي ظلّ ملوك فرنسا يحاربونه دهوراً طويلة. وبالرغم من الأمور التي تدل على غير ذلك فإن الملوك كانوا يحاولون تحقيق المساواة أمام قانون الملك. وإنما سقطت الملكية لأنها تخلت عن خطتها القديمة ولم تتمها. ثم عاد دي توكفيل يقول ان الثورة الفرنسية هي نهاية عنيفة لعمل استمرَّ أجيالاً كثيرة ودهوراً طويلة. وبالرغم من نقد النقاد له في الأمور الثانوية فقد صارت فكرته هذه أساساً ثابتاً لبحوث من يوثق بهم من المؤرخين حتى قال شيرير الناقد الشهير: إن ما فعله دي توكفيل لصلة الثورة الفرنسية بما قبلها قد فعل مثله علماء الجيولوجية عند ما وضعوا نظرية التغير التدريجي البطيء بدلاً من نظرية الانقلاب المفاجيء السريع في علم طبقات الأرض.

فكأنَّ الثورة الفرنسية هي تتمة لأعمال الملوك مثل لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولأعمال وزرائهم مثل ريشليو فقد كانت خطة ريشليو هي توحيد فرنسا ومحاولة ازالة الفروق المحلية واخضاع النبلاء، وقتل من يخرج منهم على القانون، ومحو نفوذهم السياسي، وقد نجح في ذلك حتى ان كثيراً منهم فضل ان يعيش في فرساي في حشم الملك وبطانته. وبزوال عملهم السياسي لم يبق ما يسوّغ ميزاتهم الخاصة كالاعفاء من الضرائب وغيرها. فلما جاءت الثورة الفرنسية قضت على تلك الميزات وكانت فرنسا الى عهد الثورة الفرنسية لم يتم توحيد نظمها وقوانينها. ففي كل مقاطعة قوانين ونظم. وكان هذا الاختلاف من بقايا عصر الاقطاع فما لم يزله الملوك من فروق، أزالته الثورة. وكان الملوك قد عطلوا اجتماع مجلس طبقات الشعب دهراً طويلاً كي لا يتقيدوا به. فلما ساءت مالية الدولة بسبب تبذير الحكومة الملكية ورفض الأشراف والكنيسة دفع الضرائب، اضطرت الحكومة خشية الافلاس الى عقد مجلس الطبقات، فكان فاتحة الثورة إذ تحوّل الى مجلس نواب موحد وهو الجمعية الاهلية بالرغم من معارضة الملك والاشراف والاساقفة، وتعطيل الملوك مجلس الطبقات دهراً طويلاً وخلو فرنسا من مجلس نيابي له خبرة، من أسباب تحول هذا النمو التدريجي البطيء الى ثورة عنيفة إذ أخذ الساسة بالنظريات العامة التي ظنَّ انها تصلح لكل زمان ومكان.

وإذا نظرنا إلى الأمور الاقتصادية وجدنا أن هذا التغير التدريجي ملحوظ فيها أيضاً. فقد أثبت الباحثون أن عدد ملاك الأراضي الزراعية من غير النبلاء زاد قبل الثورة الفرنسية بالرغم من قيود وضرائب. ولم تكن ثورة الفلاحين أول ثورة من نوعها. فقد شهدت فرنسا ثورات الجاكيري في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر. ولكن ظلت أعباء الفلاح ثقيلة

إذ أنه كان يؤدي للنبلاء الفروض الاقطاعية وللكنيسة ما فرضته ويقوم بأعباء ضرائب الحكومة. ولكن حرص الفلاح الفرنسي مكنه بالرغم من ذلك في الأقاليم التي كان أحسن فيها حالاً من شراء بعض أراضي النبلاء والفقراء كما تمكن غيرهم من البورجوازية فازدادت طبقة الفلاحين في العصور التي سبقت الثورة الا في سني الشدة بين سنة ١٦٨٠ و ١٧٥٠. ثم جاءت الثورة الفرنسية فضاعفت طبقة الفلاحين بسبب بيع أراضي الكنيسة وأراضي النبلاء المهاجرين. فهذا أيضاً نمو تدريجي غايته انقلاب. واذا نظرنا الى الآراء السياسية والاجتماعية الحديثة وجدنا انها بدأت قبل الثورة وكان بعضها مستفاداً من لوك الفيلسوف الانجليزي ومن مبادىء اعلان استقلال الولايات المتحدة وبعضها من دراسة تاريخ الاغريق والرومان. ولقد كان لهذه الآراء الحرة أثر في الثورة الفرنسية بالرغم من أن أكثر الشعب كان غير مثقف لأنها هيأت للثورة قادة وخطباء وكتاباً وصحفيين ومنظمين، ولأنها أثرت في طبقة الأشراف، فأسقطت سلاحهم، أو جعلته واهياً، وكانت هذه الآراء بين كثير من الأشراف قبل الثورة زيًّا جديداً يفرحون ويتجملون أو يلهون به متخذين منه مظهراً. ويكفي أن نذكر كيف أن الملكة وبعض النبلاء والأمراء تحايلوا حتى مُثِّلَتْ قصة (فيجارو) التمثيلية التي يسخر فيها مؤلفها بومارشيه من النبلاء ويشهّر بهم. وقد مثلت بالرغم من ارادة الملك ووزرائه فكان هؤلاء النبلاء كالفراش الذي يتساقط على النار. هذه الآراء الحرة لم تكن مباغتة بل كانت نموًّا تدريجيًّا انقلب ثورة.

ونمت طبقة (البورجوازية) قبل الثورة نموًّا تدريجيًّا وهم الطبقة الوسطى من رجال التجارة والصناعة والمال. والكلمة مشتقة من كلمة بورج أي مدينة. وكان رجال المال والتجارة يتحصنون في المدن في عهد الإقطاع ويتخذون جنوداً من أهل المدينة أو من المرتزقة ويمنعون النبلاء من السطو. وكان الملوك وهم يحاربون أمراء الاقطاع يمنحون أهل المدن ميزات ويستعينون بهم لإضعاف نفوذ الأشراف، فكان أصدقاء لويس الحادي عشر وأعوانه منهم. ولكن لما صار النبلاء حاشية للملك في فرساي، صاروا سدًّا يمنع تعاظم نفوذ البورجوازية. وبدأت هذه الطبقة تشعر بما ينقصها من منزلة إجتماعية حرمها منها النبلاء وكان بين أبناء البورجوازية كثير من المثقفين الذين قادوا الثورة ونظموها وبالرغم من ظهور المبادىء الاشتراكية فيها فقد تمكنت طبقة البورجوازية في النهاية من تحويل النفوذ السياسي والاجتماعي إليها بعد أن كان النفوذ الاجتماعي للنبلاء. فمن أية ناحية نظرنا إلى الثورة الفرنسية وجدنا أنها كما قال دي توكفيل كانت نهاية عنيفة لعمل استمر دهوراً طوالاً وهي تثبت أن النموّ التدريجي البطيء لا يمنع من التحويل إلى انقلاب كبير.

ع . ش

بعض محتويات

ميزان الحكمة

للخازن

من أولئك العلماء النوابغ الأفذاذ الذين ظهروا في العرب كالخوارزمي والكندي والحسن بن الهيثم والبيروني ، كان الخازن ، وكان من المتقدمين من هذه الطبقة الفريدة التي نظمت عقداً لآلاءٍ في جيد المعرفة الانسانية .

وكتاب ميزان الحكمة [1] كتاب نفيس فريد وضعه أبو الفتح عبدالرحمن المنصور الخازني المعروف بالخازن ، وهذه الأخيرة ، كنيته لأنه كان خازناً لمكتبة السلطان أبي الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب ارسلان برهان الدين سلطان خوارزم في النصف الأول من القرن الثاني عشر أي حوالي سنة ١١١٥ م . وهذا الكتاب هو الأول من نوعه في العلوم الطبيعية القديمة عامة وعلم المائيات الساكنة « الهيدروستاتيكا » خاصة .

وبحث الكتاب في مواضيع شتى منها — كما قلت — الهيدروستاتيكا ، ومراكز الثقل ، والأجسام العائمة والغائصة ، والأثقال النوعية لكثير من المعادن ومواد أخرى ، والكثافات للسوائل المعروفة آنذاك . وقد قسم الخازن كتابه هذا ثلاثة أقسام .

القسم الأول — يبحث في الكليات والمقدمات نحو ، الثقل والخفة ، ومراكز الأثقال ومقدار غوص السفن في الماء ، واختلاف أنساب الوزن والقفان وكيفية الوزن به في المايعات ، ومقياس المايعات لمعرفة الأخف والأثقل منها من غير وساطة الصنجات ، ومعرفة النسب بين الفلزات والجواهر في الحجم وأقوال المتقدمين والمتأخرين في ميزان الماء وما أشاروا إليه

القسم الثاني — يبحث في صنعة ميزان الحكمة وامتحانه وإثبات مراكز الفلزات والجواهر

(١) ان هذا الكتاب مفقود ولا يوجد منه إلا نسخة واحدة في الهند ولكن بعض المستشرقين نقلوا بعض ما جاء فيه ونحن العرب عرفنا شيئاً عن هذا الكتاب نقلا عن أولئك المستشرقين ومعرفتنا أولا لم تكن تتعدى بضعة أسطر .

عليه ووضع صنجات لائقة ، ثم العمل في تحقيق الفلزات وتمييز بعضها من بعض من غير سبك ولا تخليص ، بعمل شامل للموازين كلها ومعرفة الجواهر الحجرية وتمييز حقها من أشباهها وملوّناتها .

القسم الثالث — يبحث في البيوعات والمعاملات. وهو يشتمل على طرف الموازين وعملها نحو ميزان الدراهم والدنانير من غير وساطة الصنجات ، وميزان تسوية الأرض على موازاة السطح الأفقي ، وميزان يعرف بالقسطاس المستقيم ، يوزن فيه من حبة إلى ألف ، دراهم ودنانير بثلاث رمّانات ، وميزان الساعات يعرف به الساعات الماضية من ليل ونهار وكسورها بالدقائق والثواني وتصحيح الطالع بها بالدرج وكسورها .

أما هذه الأقسام فتحتوي على ثماني مقالات

ففي المقالة الأولى : بحث في المقدمات الهندسية والطبيعية لبناء الميزان ، وفي رؤوس مسائل مراكز الأثقال لابن الهيثم وأبي سهل الكوهي ، ورءوس مسائل ارخميدس وأقليدس ومانالاوس ونوفس الروحي مع مسائل متفرقة في مقدار غوص السفن .

وفي الثانية : بحث أسباب اختلاف الوزن مع مقارنة نتائج ثابت بن قره والمظفر الإسفزاري

وفي الثالثة : بحث في النسب بين الفلزات والجواهر في الحجم ، وقارن نتائجه بنتائج أبي الريحان محمد بن احمد البيروني .

وفي الرابعة : بحث في موازين الماء التي استعملها اليونان أمثال ارخميدس ومانالاوس والتي استعملها العرب أمثال محمد بن زكريا الرازي والإمام عمر الخيامي الذين سبقوا الخازن ، وعدد أشكالها .

وفي الخامسة : بحث في صنعة ميزان الحكمة وتركيبه وامتحانه وتعريفه .

وفي السادسة : بحث في استعمال الصنجات . الخاصة بالميزان ثم بحث في تمييز الفلزات المختلطة وتعيينها ومعرفة وزنها في الهواء والماء .

وفي السابعة : بحث في ميزان الصرف وتقويمه على كل نسبة مفروضة ، ثم معرفة وزن كل فلز وجوهر من غير واسطة الصنجات .

وفي الثامنة : بحث في مجمل ما جاء في الأبواب المتقدمة من آلات في الميزان وطرق في استعماله .

فكان الكتاب في ثماني مقالات احتوت على تسعة وأربعين باباً وهذه الأبواب احتوت على ماية واحد وسبعين فصلاً .

* * *

ولقد أورد الخازن تعاريف عديدة للقوانين الفوزيقية منها :

١ — إذا تحرك جسم ثقيل في أجسام رطبة (سائلة) فإن حركته فيها بحسب رطوبتها ، فتكون حركته في الجسم الأرطب أسرع .

٢ — الأجسام المتساوية في القوة والحجم والشكل والبعد عن مركز العالم متساوية .

٣ — كل جسم ثقيل يكون على مركز العالم ، فإن مركز العالم يكون في وسطه ويكون ميل أجزائه مع جميع جهاته إلى مركز العالم ، تقسم كل واحد منها الجسم لقسمين متعادلي الثقل عند ذلك السطح .

٤ — إذا ضمّ إلى أثقال متعادلة عند سطح مفروض أثقال متعادلة عند ذلك السطح فإن الجميع متعادلة عند ذلك السطح .

٥ — كل جسم ثقيل يعادل جسماً ثقيلاً فانه لا يعادل بجميع ثقله ولا بأكثر من ثقله جزء من ذلك الجسم ما لم يتغير وضع أحدهما .

٦ — كل جسم ثقيل يتحرك الي مركز العالم فانه لا يتجاوز المركز، وانه إذا انتهى اليه انتهت حركته .

٧ — كل جسمين ثقيلين بينهما واصل يحفظ وضع أحدهما عند الآخر ، فلمجموعهما مركز ثقل وهو نقطة واحدة فقط .

٨ — كل جسمين متعادلي الثقل عند نقطة مفروضة، فان نسبة ثقل أحدهما إلى ثقل الآخر كنسبة قسمي الخط الذي يمر بتلك النقطة ويمر بمركزي ثقليهما ، أحدهما الى الآخر .

٩ — كل جسمين ثقيلين متساويين في الحجم والقوة والشكل، مختلفي البعد عن مركز العالم ، أكثرهما بعداً أعظمهما ثقلاً .

١٠ — الجسم الثقيل إذا تحرك في مائع يعاوق بعضه بعضاً ولهذا يعاوق الماء جرم الشيء الثقيل الذي ألقي فيه ويوهن قوته وثقله بقدر جرمه حتى يخف الثقل في الماء بقدر وزن الماء المساوي لجرمه فينتقص عن ثقله بقدره ، وكلما كان الجرم المتحرك أعظم كانت المقاومة أكثر، وتسمى هذه المقاومة في ميزان الحكمة « الشول » .

١١ — الاجرام الثقال يعاوقهما الهواء وهي بذواتهـا في الحقيقة أثقل من ثقلهـا الموجود في ذلك . وإذا نقلت الى هواء ألطف كانت أثقل ، وعلى خلافه اذا نقلت الى هواء أكثف كانت أخف .

١٢ — كل جرم ثقيل معلوم الوزن لبعد مخصوص من مركز العـالم ، تختلف زنته بحسب اختـلاف بعده منه فكلما كان أبعد كان أثقل وإذا قرب كان أخف ولهـذا تكون نسبة الثقل الى الثقل كنسبة البعد الى البعد .

١٣ — كل شخصين متساويين قائمين على دائرة عظيمة من دوائر سطح الأرض تكون المسافة بين رأسيهما أكثر ممـا بين قاعدتيهما لأنهما على سهمين خارجين من مركز العـالم ويصيران ساقي مثلث رأسيهما مركز العـالم وقاعدته رأسهما ، وإذا وصل مقاما الشخصين صار الشكل مثلثين متشابهين فأطولها ساقاً أعظمهما قاعدة .

* * *

هذا عدد قليل من تلك التعريفات العديدة التي وردت في كتاب ميزان الحكمة واني معجب كل الاعجاب من ذلك الإطلاع الواسع في العلوم الطبيعية الذي أحرزه العرب ولتلك الابتكارات والأعمال الواسعة التي قاموا بها في عصور كانت أوربا تتخبط في دياجير الجهل والغباوة .

يدلنا هذا الكتاب أو قل يدلنا مؤلف هذا الكتاب النفيس على ان فلاسفة العرب الطبيعيين جدّوا وأوسعوا في البحث في ايجاد الثقل النوعي للمعادن المخلوطة من نوع أو أكثر من نوع وتوصلوا الى ايجاد كم مقدر من كل نوع في ذلك المعدن المخلوط.

ولقد أوصلني هذا الكتاب الى النتائج الآتية :

أولاً — ان فلاسفة العرب الطبيعيين في القرن الحادي عشر والثاني عشر قد تقدموا الى حد بعيد في فكرة التجاذب ، ولو انهم لم يعرفوا تجاذب الأجسام المتبادل كما عرفه كبلر ونيوتن

ولكنهم قالوا ان جميع الاجسام تنجذب الى مركز العالم (ويعنوا بذلك الأرض) لأن الفكرة السائدة آنئذ هي أن الأرض مركز الكون . ولقد عرفوا أن القوة الجاذبة هي بنسبة بعد الجسم عن مركز الجذب وقدَّروا ان القوة الجاذبة هي بنسبة طردية للمسافة .

ثانياً — لقد عرف العرب قوانين وسائل مضبوطة فيما يخص القوانين الميكانيكية ، فهم عرفوا المعادلة التي تربط بين السرعة والمسافة المقطوعة مع الزمن الذي في اثنائه قطعت تلك المسافة ، كما عرفوا قوانين مراكز الثقل والروافع وغيرها .

ثالثاً — وعرفوا ان للهواء وزناً وذلك بالتأثير الذي يحدثه الهواء على وزن الأجسام .

رابعاً — وفهم العرب فعل الشرقة ، ووضع الماء في انابيب دقيقة شعرية لها فتحة واحدة .

خامساً — واستعمل العرب الايروميتر الذي ورثوه عن اليونان فحسنوه وقدروا بواسطته قياس حرارة الماء وذلك عند تقرير الكثافة التي هي بنسبة عكسية للحرارة .

سادساً — ووضعوا جدولاً للأثقال النوعية لجميع الأجسام الصلبة والمايعة التي كانت معروفة لديهم .

سابعاً — وعرفوا أيضاً ان هنالك قوة جاذبة على جميع جزيئات الأجسام وهذه القوة هي التي تبيّن لنا صفة الأجسام . وهذه نظرية جد مفيدة في التحليل الكيميائي وهذه مفتاح لعديد من خفايا الطبيعة .

* * *

ولاجل هذا أرى أن البحث والتنقيب عن أعمال طلاب مدرسة خوارزم في تلك العصور يستحق التعب والاكباب عليه من جميع نواحيه.

وأخيراً لقد أصبح هذا الكتاب « ميزان الحكمة » في متناولي وإني ان شاء الله سأجعله في متناول جميع الذين يهمهم هذا العلم والذين ينقبون ويبحثون عن مخلفات الأسلاف وتراثهم القيم ، في القريب العاجل .

القدس فؤاد جمعان

العقم في المرأة

شغلت مسألة عقم المرأة العلماء ، ولا سيما الأطباء ، في كل العصور بالنظر لأهميتها في بقاء النوع البشري ولرغبة النساء خصوصاً في الحمل . وقد كانت الشعوب القديمة تنظر لمسألة العقم نظرة خاطئة جدًّا وبعيدة كل البعد عن نظرة الشعوب الحديثة ، معتقدين أن حدوث الحمل أمرٌ موكول إلى القضاء والقدر . وبعضهم كان يؤمن بأن الحمل خاضع لأمر الآلهة والأصنام ، ولذلك كانوا يلجئون في حالة العقم إلى تقديم الهدايا والقرابين . وعندما تطوّرت أفكار الشعوب على مرّ العصور أخذوا ينكرون إنكاراً باتًّا تلك الخزعبلات والعقائد الدينية ويُبدلوا أفكارهم شيئاً فشيئاً وفقاً لتطوّر العلم الحديث . ومما يؤسف له جدًّا أن معظم الناس في أيامنا هذه يضعون كل اللوم على الزوجة إذا لم تنجب أطفالاً لزوجها ، مع أن هذا الزوج نفسه قد يكون هو السبب في عدم الحمل ، سواء لتفريطه بقواه قبل الزواج ، أو لإصابته بأمراض تمنعه من التمتع ببنين . ولهذا نرى الرجل يطلّق امرأته ظلماً وعدواناً ويقترن بامرأة ثانية ، وإذا لم تلد هذه أيضاً فانه يطلّقها ويبحث عن زوجة ثالثة وهكذا ، وكم من النساء البريئات المتمتعات بأعضاء كاملة التركيب وأهلاً للحمل الطبيعي والولادة قد طلقهنَّ أزواجهنَّ لأنهنَّ ، حسب زعمهم ، لم ينجبنَ أطفالاً مع أنهنَّ لو تزوجنَ برجال سليمين وأصحاء البنية كنَّ قابلات للحمل . ولذلك يقتضي قبل مداواة عقم المرأة إن وُجد ، إخضاع الزوج أولاً لمعاينة طبية لمعرفة ما إذا كانت صحته جيدة وسالماً من الأمراض المعدية لنحكم بأنه قادر فعلاً على الانسال ، وإذا كان مريضاً يُعالَج الى أن يشفى شفاءً تامًّا ، واذا كان مرضهُ ميؤوساً منه ، فلا فائدة تُرجى من مداواة زوجته .

وعلى كلٍّ فالطبيعة لها أسرار غامضة لا يمكن سبر غورها حتى للطبيب نفسه . ولهذا يتحتم على كلِّ امرأة مصابة بالعقم أن تنتظر مدة من الزمن بعد زواجها حتى إذا انقضت هذه المدة ولم تظهر فيها علامات الحمل ، أمكنها حينئذٍ مراجعة أحد الأطباء الاختصاصيين

ليرشدها الى ما يجب عمله . فكثيراً ما يتأخر الحمل سنين طويلة بعد الزواج ثم تحمل المرأة فجأة . وأعرف سيدةً مضى على زواجها ١٨ عاماً وكانت تتمتع مع زوجها بصحة جيدة . فبذلت كل ما يمكن من الطرق اللازمة والمساعي عند بعض الاختصاصيين ، لكن ذهبت أتعابها بدون طائل وبقيت عقيمة . ولكن بعد انقضاء تلك المدة الطويلة أخذت تشعر فجأة بأعراض الحمل وبحركة الجنين في أحشائها . فكان لهذا الحادث المفاجئ رنّة فرح وغبطة لا توصف أفعمت قلبها وقلب زوجها وذويها معاً .

ولا ينكر أن بعضاً من النساء المتزوجات لايكترثنَ كثيراً بالحمل ، بل سيّان عندهنَّ مجيء الأولاد أو عدم مجيئهنَّ . على أن السواد الأعظم منهنَّ كما هو معلوم لاهمَّ لهنَّ ولا رغبة إلاَّ الحصول على بنين ، وقد يبذلنَ في هذا السبيل أعز ما يملكنَ تحقيقاً لهذه الغاية التي طالما شغلت بالهنّ عن كل شيء آخر . ومن سوء الحظ كثيراً ما تفشل المرأة في تحقيق هذا الأمل المنشود بالرغم من مراجعة الأطباء الاختصاصيين فيعتريها إذ ذاك اليأس والقنوط. وقد تصاب حينئذٍ بالنوراستنيا ، أو اذا شئت فقل بمس من الخبل أو الجنون . على أن معرفة أسباب العقم وعلاجها قلما تبقى مستعصية ، بل هي تزول إذا اتبعت المرأة طرق العلاج القانونية التي يشير بها الطبيب .

أسباب العقم

١ — للعقم أسباب كثيرة متنوعة : نذكر منها في الدرجة الأولى السيلان الذي تنتقل عدواه من الرجل الى زوجته . ويقدِّر بعض العلماء أن هذا الداء الخبيث مسئول عن ٥٠ في المائة من حالات العقم ، وآخرون يعزون إليه تسبيب ٣٠ في المائة من العقم نفسه . ولهذا يجب أولاً معالجة السيلان ويتم الشفاء منهُ قبل الافتكار بمعالجة العقم الناتج عنه .

٢ — وهناك أيضاً الزهري : وهو داء معروف يعمل بدوره على تسبيب العقم . وإذا حملت المرأة وكانت مصابة بهذا الداء فكثيراً ما تصاب بالاسقاط من وجود سمّه في جسدها . والأطفال غالباً ما يولدون وقد ورثوا المرض من والديهم . ولهذا تجب معالجته معالجة كاملة قبل المباشرة بمداواة العقم . وإذا كانت المرأة حامل فيواصل تطبيبها طوال مدة الحمل ، فيما اذا كانت مصابة به ، دفعاً للإجهاض .

٣ — وبين موانع الحمل الأخرى : البدانة المفرطة لاصطحابها باختلال افراز الغدد الباطنية، وهذه تعمل على احداث العقم عند كثير من الناس . ويجب أن نميز هنا ثلاثة أنواع من البدانة : فالنوع الأول منها يظهر باكراً في دور الطفولة أو في دور البلوغ ، والنوع الثاني يبدو في المرأة الشابة المتزوجة حديثاً وذلك منذ بضعة شهور فقط ، وفي هذه الحالة تأخذ الوظائف الحيضية تضعف عندها مع الزمن . وأخيراً النوع الثالث الذي يحدث من البدانة المكتسبة نتيجة افراط التغذية .

٤ — مفعول التسممات بأملاح الرصاص والتبغ والكحول : لهذه أيضاً تأثير يُذكر في احداث العقم . أما من جهة تأثير المناخ ونوع الطعام والقرابة الأبوية Consanguinité فليس فيها ما يسبب العقم كما يتصوَّر بعضهم ، وهكذا قل عن الاجهاد الجسمي والعقلي — بعكس الاضطرابات الحيضية التي لها على ما يظهر تأثير مباشر وثابت في احداث العقم نفسه . ولنأخذ مثلاً على ذلك امرأة عمرها بين ٢٠ و ٣٠ سنة ، أتاها الطمث دفعةً واحدة وبصورة منتظمة في السن ١٢ الى ١٥ سنة ، وكانت الأدوار الشهرية عندها منتظمة دائماً . فهذه المرأة سيأتيها أولاد ٩٩٩ في الألف . بعكس المرأة التي يتأخر حيضها الى السن ١٦ — ٢٠ والتي تشعر غالباً باضطراب وانزعاج في جسمها مع آلام حادة نوعاً في منطقة المبيضين . فامرأة كهذه تكون بلا ريب أقل قابلية بكثير من الأولى في انجاب الأولاد .

٥ — اعوجاج الرحم أي انحنائه أو انحرافه بحيث ان فمه لم يعد متوسطاً: هذه الاسباب لا تعتبر فعلاً كافية لاحداث العقم إذا لم تكن مصحوبة بالتهاب في هذا العضو . والمهم في الأمر أن يكون وضع الرحم في محله أي لا يكون منحنياً لا الى الأمام ولا الى الوراء . فاذا كان كثير الانحناء إلى الأمام لامس المثانة ، وإذا كان منحنياً إلى الوراء لامس المستقيم . وفي كلتا الحالتين يتغير وضعه الطبيعي ولا يتم الإلقاح . .

٦ — التهاب المبيضين ووجود أورام في الرحم : إذا كانت المرأة مصابة بالتهاب في المبيض أو في عنق الرحم ناتج عن دخول الجراثيم ، فهذه الالتهابات كثيراً ما تقضي على النسل . وهكذا قل من وجود أورام في الرحم نفسه كالورم الليفي (فبروما) مثلاً ، أو السرطان أيضاً . وقد تباينت آراء الأطباء حول هذه النقطة : فمنهم مَن يقول أن الفبروما لا يمكن أن تكون بحدّ ذاتها سبباً كافياً في منع الحمل ، وآخرون يرون أن وجود هذا الورم

عند المرأة يمنع وقوع الحمل . أما السرطان فوجوده في جسم الرحم ينافي وقوع الحمل على ما يؤكده فريق كبير من الاطباء الاختصاصيين ، أما الذي ينمو في عنقه فلا يكون مانعاً من وقوع الحمل نفسه ؟

٧ — الأسباب النفسيّة العقلية : وهي تسبب عند بعض الأشخاص عقماً بإحداث حالة نفسيّة تجعل مجرَّد الافتكار بالجماع يسبب تشنجاً في الأعضاء التناسلية والعضلات المهبلية الخ، مما يجعل الجماع أمراً متعذراً يورث العقم . ويشاهد ذلك عادةً في حالة التنافر التناسلي الذي ينتهي بالطلاق غالباً .

٨ — داء السل والبيلة الآحينية Albuminurie والداء السكري : لداء السكري والبيلة الآحينية تأثير لا ينكر في احداث العقم ـ بعكس السل فانه لا يمنع بوجهٍ عام من تسبيب العقم عند المرأة . ولكن الأفضل لهذه أن تكون عاقراً من أن تنجب أولاداً وهي مصابة بهذا المرض.

٩ — وجود نقص أو تشويه في أعضاء الحمل : ومن موانع الحمل أيضاً وحدوث العقم إصابة المرأة منذ ولادتها بنقص أو تشويه في أعضاء الحمل مما يقف الطب حياله عاجزاً عن اصلاح النقص الموجود . وهكذا قل عن ضيق الحوض الذي يضطر الطبيب حياله الى أجراء العملية القيصرية التي تنجح في أغلب الأحيان .

١٠ — كبر السن : المعروف أنه كلما دنت المرأة من سن اليأس قلّت الفرصة أو ضعف الأمل في حملها ، غير أن أغلب السيدات لا يردنَ أن يفهمنَ ذلك !

وقد أثبتت الاحصاءات الرسمية أن العقم في النساء يتراوح بين ١٤ و ١٦ في المائة . وبعبارة أخرى أن من كل ١٠٠ امرأة ١٤ الى ١٦ لا يصرنَ أمهات أبداً ، بينما تتراوح نسبته في الرجال بين ١٨ — ٢٠ في المائة .

ما الذي يمكن عمله لعلاج العقم : يتوقف هذا العلاج على معرفة السبب أو الأسباب الحقيقية التي أدَّت الى هذا العقم والعمل على إزالتها إن أمكن ذلك . أما إذا بقيت الطرق العلاجية والدوائية عقيمة فلا مندوحة إذ ذاك عن تجربة التلقيح الصناعي باجراء حقنة صغيرة لتقابل المادتين المكونتين للجنين واتحادها معاً . وتفيد هذه الطريقة خصوصاً عند النساء اللاتي يصاب جهازهنّ التناسلي بتشنجات أو انقباضات تمنع المادتين المذكورتين من الدخول في رحم المرأة ، أو في حالات أخرى أيضاً مثل وجود ناسور بولي أو ضيق في المجرى أو ارتخاء الزوج الخ توجب تلقيح الزوجة صناعيًّا إن كانت تروم الأولاد ، غير أنه يجب القول أن هذه الطريقة لم تصادف النجاح المطلوب الاَّ نادراً .

بيروت الدكتور عبده رزق

انتظار

أي طيف في صفحة الجوزاء يتهادى بالحلة الحمراء
أخيال من عبقر أم شتيت من أمانٍ منثورة كالهباء
أم بقايا الانوار في غسق الليـل طوتها مطارف الظلماء ؟
ذاك ركب المغيب ينهب ركضاً باختيال المدلّ صدر السماء
أطرق الكون حين آذنت الشمـس ببين كمدنف من عياء
وترامى الصفصاف من مضض ينزو كشلوٍ مضرج بالدماء
وتهاوت كتائب الطير تطوي في الفضاء البعيد رحب الفضاء
لا تبالي والريح تعصف في الأفـق كيمٍّ عواديَ النكباء
كلما دبّ في الجناح فتور أو توانت من سورة الاعياء
ذكّرتها الحمى لواعج شوق وحنين لرؤية الأنباء
ودعاها الهوى المبرّح في الصد ر فتُلقى زمامها عن رضاءَ

***

غمر الارضَ بالكآبة ليلٌ مدلهم يجيش كالأنواء
فاستتر الفضاء إذ نشر الليـل جناحاً في شملة سوداء
واستطابت حلوَ المنام عيونٌ أجهدتها بهارج الاضواء
النفوس الظمأى يهدهدها الشو ق فتغفو على نشيد الرجاء

والفؤاد الجريح يطمعه الوجد بوعدٍ من كاذب الاهواء
نام من في الوجود غير كئيب يتلظى من وحشة وعناء
ليت شعري من ذا أثار شبا الوجـــد بصدر الحسناء عند المساء
درجت والظلام منعقد الثو ب بذعرٍ كالحية الرقطاء
واستترت بيرقع من ظلامٍ حين راحت عن أعين الرقباء
ما دهاها وقد تماسكها اليأس فحارت كريشة في الهواء
أعرتها لواعج الألم المرّ فناءت من نهشة الأدواء
أخذت ترمق الفضاء وترعى بالتياع جوانب الجوزاء
وهي حيرى من الوساوس نهب لسهام الاهواء والأرزاء
تتلوّى من الأسى كنزيفٍ صدمته حرافة الصهباء
ليت شعري ما تبتغي حين راحت ترمق النجم في عنان السماء
أتراها تستطلع النجم عما خبأته لها صروف القضاء
أي شيء عند السماء لمن با ت يرجي السماء غير ازدراء
يضرع المرء حين يدهمه الخطـــب ويذري مدامع الضعفاء
ويمدُّ اليدين مدَّ ذليلٍ مستجيراً في النكبة العسراء
غير أن السماء عن كل شكوى لا تعير الحزين أي اعتناء

* * *

سئمت وحشة السماء فولّت بجفاء وجهاً الى الدأماء
علّها تستبين في البحر أمراً كتمته جوانب الجوزاء

فاذا بالنداء يخنقه الموج ويخفي المحيط كل نداء
وتضيع الآمال في لجج الماء وتُطوى الاخبار طي الخفاء
كم حزين أتى الشواطىء يستجلي ببشر غوامض الأشياء
يسأل البحر عن حبيب تناءى مستعيداً أيام عهد اللقاء
وينادي العباب هل من رجاء في لقاء الحبيب بعد التنائي
أي شيء سوى التبرم يُتلى في زفير المحيط من أنباء؟
يبعث البحر نفثة الألم المرّ كمضنى يجود بالحوباء
ثائرٌ صاخب يزمجر هدَّاراً ويرغي من قسوة وجفاء
تتهاوى أمواجه حين تهوي كخيولٍ في حومة الهيجاء
ولصوت الرياح أنةُ شكوى من حزين في لجة الظلماء

* * *

ضاق صدر الحسناء ذرعاً فراحت تترامى شطر الحمى من عياء
تترامى من الاسى كذبيح أقصدته رماية الاعداء
شفَّها أن يضيع في صخب الموج لغاها وينطوي كالهباء

دمشق عرنان صردم بك



الى السعادة

لا حياة للزهرة بغير ماء . . فنه تستقي ، وعلى روائه تنمو وتزدهر . . واذا انقطع معينه عنها ذبلت ثم ماتت . .

والصحة للسعادة ، كالماء للزهرة . . فلا وجود للسعادة بغير الصحة . . وكلاهما قرينان لا يفترقان . .

وأنت تجد الانسان القوي المعافى ... يشع للناس من حوله بهجة هي نور السعادة الكامنة في نفسه . . وما مثله في ذلك إلا كمثل الشمس تشرق على الدنيا فتملؤها بالضياء .

ومن النادر أن تصدم الاحزان الرجل الممتلىء صحة . . كما انه من العسير أن تسعد الافراح الشخص العليل الذي يعاني آلام الاسقام . . وليس هذا على الناس بغريب فان العامل الاساسي الاول للسعادة هو الصحة .

فيا أيها المرضى العليلون . ! أنشدوا الصحة أولا . . وبعدها تأتيكم السعادة طائعة تجرر أذيالها .

والصحة ليست بعيدة عنك . لانها تولد معك . . وهي جوهرة على راحتيك . . إن لم تصنها خطفها المرض منك .

وصيانة الصحة أمر سهل ، لا يتطلب منك أكثر من أن تلم ببعض الثقافة الصحية . . وان تنفذ ما تعرف وتطبقه في حياتك اليومية ، فيتكون لديك من ذلك مجموعة عادات صحية تصبح جزءاً متمماً لحياتك لا غنى لك عنه

ومن العادات الصحية الهامة . . أن تغسل أسنانك عند ما تستيقظ في الصباح . . وتشرب قدحاً من الماء على الريق . . وان لا تقل كمية الماء الذي تشربه يومياً عن اثنى عشر كوباً وتأخذ حمام الشمس كل يوم . . وتتبع في تغذيتك ، الاصول الصحية بأن تكثر من أكل الخضر والفاكهة ومستخرجات الالبان وتقلل من الخبز واللحم . ولا تسرف في السهر . . ولا تدخن . . ولا تشرب القهوة ولا الشاي واستعض عنهما بالكاكاو أو الانسون .. وكن مسروراً دائماً بلغت ما بلغت متاعبك .. وتراكمت ما تراكمت عليك الهموم .

واحرص على أن تفعل كل هذا . ثم باشر نوعاً من الرياضة البدنية كل يوم . . تجد أن الصحة قد ذوبت لك في كأسها رحيق السعادة .

فهمي عطا الله

هل هذه بذنبا الحرب ؟؟

إن الحرب قد انتهت . وليست بأول مرة في دورة الحياة تنتهي فيهـا حرب ، وسوف لا تكون آخر حرب يشهد الانسان نشوبها واحتضارها . ولئن هللت فئة من الناس عندما أذيعت بشائر السـلام وافتنّت في التعبير عما تكنه من الفرح المكبوت والغبطة المستكنة التي لا تخلو من كدر وغم ، فإن فئـة أخرى ألقت السلاح عنوة ، وهي تمني النفس بنشوب حرب أخرى فتدرك فيها ما فاتها من المغنم والثأر . ولئن وجد من يبغض الحرب ويمقتهـا ويتشاءم منها خيفة أن تقضي على الحضارة الانسانية العريقة التي ساهمت في بناء صرحها الامم كافة ، وتطمس في الانسان الشعور باحترام وتقدير حياة نظرائه من البشر ، وتجعل الناس يعيشون في المجتمع متنابذين متباغضين ، استحكمت بينهم أسباب العداء ، واستبدت الأحقاد والضغائن بعواطفهم وأفـكارهم ، ويعتبروها جنوناً ينتاب الشعوب ، كل بضع سنوات ، فتقذف الى الميادين ، في البر والبحر والجو ، خيرة أبنائها ، وأكثرهم شجاعة ، وأوفرهم قوة ، وأعظمهم إحساساً بالواجب والنظام والطاعة ، دون أن تحسب حساباً للخسائر التي تمنى بها ، الناجمة عن تدمير مرافق الحياة ، ومصرع الموهوبين والعباقرة من الجنود ، ويسخر ممن يتشدّقون قائلين ان الحروب تثار لصيانة المبادىء والمثل العليا والحق المطلق ، ولولا هذه الاعتبارات لما نشبت حروب ، ولا أزهقت أرواح ، ولا حلّـت خسائر بأحد ، ويخاصم هذا النفر من المفكرين أسفٌ عظيم عندما يرون الناس يؤمنون بأولئك الدجالين الذين يروّجون هذه الأكاذيب ، ويدافعون عنها بحرارة ، حتى تنطلي حيلتهم على الـكثرة الساحقة من البشر .

زد إلى ذلك ان الحرب بما يلازمهـا من أخطار جمة ناجمة عن الموت بالسلاح أو الموت جوعاً ، تصرف الانسان الموهوب عن الحياة الفكرية الهادئة ، وتهوي به من الأجواء التي يحلو له أن يحلق فيها إلى درجة الحيوان الأعجم الذي لا همّ له إلا أن يشبع بطنه ويروي ظمأه وينفر من الخطر اذا ما داهمه بغية التمكن من الاستمرار في قيد الحيـاة . وإن من نصر ، بالغة ما بلغت عظمته وأبهته ، يعادل الضحايا البريئة التي أذلها الواجب وانتبذت الى الجبهـة

فقضت نحبها . وان الحرب تضطر الانسانيــة ، من زمن لآخر ، أن تقف عن العمل الهادىء المثمر ، وتودع حيــاة السرور والمرح والراحة ، والبيت والأحبـاب والحقل ، وكل ما تتمشقه النفس الراضية المطمئنة . وما من ناحية من جميع النظم الاجتماعيــة ، الحقوقية والاقتصادية والأدبية والسياســية ، تبقى بمعزل عن أثر الحرب . وإن جميع أسس الحياة ، من حرية وفــكر وعمل ونظام وما لا يحصى من الأعمال والقضايا المتشابكة المتنوعة ، تصاب بهزة عنيفة تبعدها عن مجال الاستقرار والطمأنينــة . ولئن كانت الحرب تستنزف النشاط الإنساني بأسره ، فإن للانسان مندوحة عنها ، وذلك بما توفره له الحياة في كل آونة من مشاريع اقتصادية وصحية وأدبيــة بحاجة إلى انجاز أو اتقان . وإن السلام الذي تنشده النفوس الرضية الصالحة ، لن ينبثق عن الحرب كما يعقب النهار الليــل ، والصفاء الـكدر ، والسكينة العاصفة .

وهناك فريقٌ آخر يرى أن الحرب ناموس طبيعي ، وسليقة إنسانية موروثة ، وسنَّـة ترتكز عليها دعائم الحياة ، وأن كل ما يحل بالبشر من خسائر لا يضاهي أو لا يقاس بالفضائل التي تنجم عن الحرب . وأن الطبيعة في عرفهم تأبى سلطة الضعفاء وتنشـد دائماً سيادة العنصر القوي ، وإنهـا تبتهج بالحرب وتسر للموت وتحسب ذلك دليلاً على كون شرارة الحياة متأججة قوية في الإنسان كـكون النار في الحجر . وما من شعب يؤثر الراحة على التعب، والسلام على الحرب ، إلاَّ كان ذلك نذير الانحطاط والانقراض والفناء . وأن الانسان في قرارته يســتشعر فرحاً لا يوصف إذا ما ثابت اليه غرائزه العريقة في القدم وهبت من مكامنها عند وقوع الخطر ، فانصرف يصارع الموت الذي يراه متجسداً في إنسان آخر على صورته ومثاله . وليس السلام الدائم الذي تنشده النفوس الباخة الضعيفة إلاَّ محاولة أثيمة ترمي الى تجريد الانسان من السجايا الشريفة الفاضلة . وما من إنسان أوتي نصيباً من الذكاء والنباهة ، يحاول أن ينـكر أثر الحرب في خلق الفضائل النبيلة التي تتسم بالصـلابة والقوة والحيوية ، كالشجاعة والاقدام والتضحية وإتيان الأعمال التي تذهب مذهب الأساطير . فهذه السجايا لا يقدر لهـا التفتح والنمو والازدهار إلاَّ في بيئة تشهد الحروب آناً بعد آن وتبلوها وتتذوق حلوها ومرها وخيرها وشرها . وأن العناية الإلهية التي تكلؤنا بعطفها، لا تني تتمنى أن لا تنفك الحروب تنشب لأنها تساعد على ولادتنا ولادة جديدة ، ولأنها تجرف ما يترسب في أعماقنا من الأخلاق المتصفة بالرخاوة والجبن والخبث والمـكر . . .

وما هبت ريحها على أمة من الأمم إلاَّ جمعت شمل أبنائها بعـد تفرقهم ، وشدت أزر العصبية القومية بعد تفسخها ، ورفعت الناس فوق مستوى المشاكل الصغيرة والأمور التافهة التي

ألفوها طوال زمن السلام وبالجملة فان الحرب نزعة كائنة فعلاً في النفوس البشرية ، ملازمة للانسانية لا تفارقها ، كما أن الظل لا يفارق الجسم .

* * *

ليست الحرب حدثاً حديثاً في حياة الانسان وغير الانسان من نبات وحيوان . فقد وجدت منذ أن شاعت الحياة في الكون ، ولما تزل ناشبة حتى يوم الناس هذا . فالنباتات التي تذبل ثم تموت لا تحصى ، لأن نباتات أخرى طغت عليها وامتصت ماويتها وأهلكتها . ونرى حيوانات جهزتها الطبيعة بكافة أساليب الفتك ، من ظفر وناب ، تفتك بحيوانات أخرى لا سلاح لديها يدفع عنها الشرور . فها هي ذي الأرض تذخر بالحشرات الكاسرة والزحافات الكاسرة والطيور الكاسرة والحيوانات الكاسرة ، والأسماك التي تسبح وتعيش في الماء كاسرة . ومن خصائص هذه الحيوانات المفترسة إنها لا تتلف ما لا يفيدها في تغذية جسمها وحفظ ذاتها من الفناء . أما الانسان فانه يقتل ليقتات ويتدثر ويتزين ودفاعاً عن نفسه وصون جسمه من الأذى ، وليتعلمَّ ويلهو ويقتل أخاه الانسان كي يحفظ من التعدي ما يملك من عرض أو مال أو ملك .

فهي الحرب في جوهرها عادة مألوفة وسليقة موروثة في الانسان ؟ إن الحرب تمتد أصولها في نفس الانسان إلى أعماق سحيقة ومتأصلة كأعظم الغرائز التي لا فكاك له من التأثر بها والاستجابة لدواعيها ، وإن التعليل الديني والتعليل الاحيائي (البيولوجي) يتفقان على هذا الرأي . فقد بدأ النزاع بين البشر عند ما كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة . فمنذ ذلك الحين والأرض ما برحت متعطشة الى الدماء . واذا نظرنا على ضوء التعليل الثاني — البيولوجي — نلاحظ أن الانسان الأول عاش في بيئة مفعمة بالأعداء ، كتب عليه أن يصارعها ويقضي عليها كي يستتب له الأمر ويجد إلى البقاء سبيلاً ويحظى براحة الجسم وطمأنينة البال . عليه أن يسعى جاهداً كي يقي جسمه العوامل الطبيعية من حر وبرد ، ويصارع الحيوانات المفترسة التي تقضي عليه إن لم يقض عليها ، ويقف وجهاً لوجه أمام أبناء جنسه عند ما تصطدم الرغبات . وكان مجال النزاع لا يتعدى دائرة مطالب الجسم الأولية كالغذاء والمأوى الصالح والرفيقة التي تدفعه لحيازتها والاستمتاع بها قوى مجهولة عنيفة . فالحرب إذاً فرضت على الانسان البدائي فرضاً وتعتبر سبباً جوهرياً أساسياً للبقاء حيًّا .

والدليل على تأصل نزعة الحرب في الانسان ، وعمق جذورها في مطاوي نفسه ، وتدميها تأهبه الدائم لخوض غمارها ، واستبساله في ميادينها ، واندفاعه لتأييدها ، والحض عليها ،

وبذله المال والنفس طائعاً في ساحاتها ، ولا عبرة فيما يقول بعد ان تضع أوزارها ، ويكتب له أن يعود لبيته وأهله سليماً معافىً . ما أكثر الذين ينتقدون كل عمل تقوم به الحكومة ، وكل نظام تنوي السير عليه ، وكل تجديد تريد أن تدخله في جهازها لتصلح أمور الناس ، وما أقل ، لا بل ما أندر ، الذين يخرجون على أوامر السلطة ، ويتخلفون عن استجابة ندائها عند ما تعلن حرب . ساعتئذ تدب النخوة في النفوس ، وتفور الدماء في العروق ، ويسري النشاط في الأجسام . والويل لمن يحاول أن يثبط الهمم ، ويبذر بذور الاحجام عن اقتحام الأهوال ، ويذكّر بالعائلة من زوج وولد ، ويفتنهم عنها بإيثار الراحة والطمأنينة والحياة على المتاعب والقلق والموت ! ومن يجرؤ ساعتئذٍ أن يقول الهزيمة فضيلة والثبات جنون ؟؟!! .

ولو تأملنا أعلام الدول قاطبة ، لرأينا أنها لا تخلو من اللون الأحمر . والى مَ يرمز اللون الأحمر ؟ إلى الدم . فكأنّ الأمم تعترف في أعماقها أن الحرب حالة لازمة ، وانها لا تسمو وتتقدم إلاّ اذا ظلت هذه الجذوة متأججة متقدة في النفوس وإن دفعت ثمن هذه العقيدة دماء من أجسام أبنائها وأبناء غيرها . ولنقرأ الأناشيد الوطنية : كم تتكرر لفظة حرب وكم تعاد لفظة دم ؟ ! وهل يقصد من هذا الترداد والتكرار إلاّ إثارة النخوة وإلهاب النفوس وإيقاظ ما كمن من غرائز القتل والفتك ؟ ! .

هل تعتبر الحرب مظهراً جليّاً من مظاهر إنكار الذات ، أو تعبيراً فذّاً عنيفاً من التمسك بأهداب الذات ؟ لئن تكن الحرب سليقة موروثة في الانسان ، فحب الحياة أقوى الغرائز قاطبة . ويستحيل أن نتصور إنساناً سليم الأعصاب . سليم العقل والبدن ، يخطر له أن يوازن يوماً بين الموت والحياة،وأيهما أثمن في نظره . وهو لا يخوض غمار حرب ، بالغة ما بلغت شدتها وفظاعتها ، إلاّ عند ما يؤمن إيماناً لا يعتوره شك ، انه مستهدف لخطر عظيم غير محمود العاقبة . وليس الفرار غير ضرب من التمسك القوي بالحياة . وإنما يلجأ اليه من يوقن أن أعصابه سوف تخونه في ساعة الشدة وليس لديه ذخيرة كافية من قوة النفس والعضل على مجابهة الطوارىء . وربَّ قائل يقول : ما بال الذين حكم عليهم بالأعدام يتقدمون بملء ارادتهم ، ويوضع الحبل في أعناقهم دون أن يبدو حراكاً ؟ لماذا لم يحاولوا التملص من قبضة الموت وهم في ساحة الموت ؟ لماذا لم يدفعهم حب الحياة الى التمرد على نصوص القانون ؟ ان هؤلاء لم يتقبلوا الموت مختارين كما يبدو لنا ، بل إن الذي قادهم الى الموت هو الرغبة في حياة فاضلة ينعدم فيها المنافس والعدو . وإنهم ما ادخروا وسعاً كي يدفعوا الموت عن نفوسهم . وما اتخاذ المحامين إلاّ وسيلة جديدة مبتكرة يلجأ إليها المجرم، علّها تنقذه من

براثن الموت . إذ أنه يؤمن ان السلاح لا خير فيه إذا ما فكر أن يشهره في وجه الدولة التي صبت عليه كل ما تملك من قوة السلاح ، وقوة القانون ، وقوة الرأي العام .

* * *

والحروب في العصور القديمة تختلف الاختلاف كله عن الحروب التي وقعت في هذا القرن أو التي سوف تقع في السنين المقبلة . ذلك أن الحروب القديمة كانت محدودة من جميع النواحي وكافة المظاهر، هي محدودة بالجنود الذين يخوضون غمارها ، ومحدودة بالبقعة التي تدور فيها المعارك ويقرر فيها مصير أحد الجيشين ، ومحدودة بالخسائر المادية والروحية ، ومحدودة بالزمن الذي تستغرقه . أما الحروب في هذا القرن ، وخاصة الحرب الأخيرة ، فلا يعرف معرفة تامة عدد الذين اشتركوا فيها ، مباشرة أو مداورة ، وكم بلغ عدد الرجال والنساء الذين ساهموا فيها ، ولم تدر رحاها في بقعة محدودة من الكرة الأرضية بل شملتها بأسرها ، برّها وبحرها وجوّها ، ولا يستطيع أي كان أن يقدر الخسائر التي منيت بها البشرية طيلة هذه المدة ، إذ لم تقتصر الخسارة على الأرواح ، بل حلت في جميع مرافق الحياة من صناعة وتجارة وزراعة ، وشلت جميع أنواع المواصلات من برية وبحرية وجوية ، وساهمت فيها كل قوى الأمة ، من مادية وروحية وفكرية ، وكثيراً ما نشبت حروب في الأزمنة القديمة انحصرت ضمن البلدين المتحاربين ولم يتجاوز صداها البلدان المجاورة . أما اليوم فيتعذر ، لا بل يستحيل ، حصر الخلاف أو كتمانه ، فسرعان ما ينتشر نبؤه في جميع أرجاء المعمورة .

* * *

ويقيني أن للحروب القديمة أثراً في النفوس أقوى من الأثر الذي تخلفه الحروب الحديثة في نفس المحارب . لا لأن تلك أعظم وأفظع من هذه ، بل لأنها توفر للعين مشاهد مؤلمة ، فظيعة ، فظة ، ليس من طبيعة الحرب الحديثة إيجادها ، وذلك يعود الى نوع الأسلحة واختلافها عن الزمن القديم .

فالحرب الحديثة لا تشبع غريزة الضراوة الكامنة في الانسان ، لأنه لا يرى أجساماً تتلاحم وتتناحر وتتصارع وتقتتل وتتساقط ، ولا يرى الأرواح تزهق ، والدماء تراق فيشعر بقشعريرة وهول وذعر مما رأى وأي العين . فالمحارب الذي يشك بالرمح صدر خصمه ويرديه قتيلاً ، يرى مشهداً لن ينساه أبداً ، ويختلف كثيراً عن الطيار الذي يلقي القنابل

من ارتفاع شاهق على مدينة دون أن يرى بوضوح ما دمر من دور عامرة ، وما أزهق من أرواح بريئة وغير بريئة ومحاربة وآمنة. ومع كل ما امتازت به الحروب القديمة من الفظاعة والوحشية ، وما اشتهرت به الحروب الحديثة من الاتساع والشمول ووفرة الخراب وكثرة الموتى ، ورغم ما اكتوت به البشرية من حروب لا يحصيها عد ، فهل كانت الحروب ، قديمها وحديثها عاملاً فعالاً في تهذيب الجنس البشري ؟

* * *

إن التهذيب يقوم على مبادىء صحيحة تستهدف إصلاح الفرد والجماعة وتكييف سلوكهما وفق هذه المبادىء . فهل جاءتنا حرب ما، بدون استثناء ، بمبادىء ترمي الى تهذيب المرء وتطهير نفسه من أدران البغض والحسد والخبث ؟ في الواقع انه ما من حرب نشبت قديماً أو حديثاً تجاوزت غايتها الشؤون السياسية والعسكرية . أما الحروب التي تثار في سبيل إقرار مبادىء ، فقلما تعرفها الانسانية . والنبيه النبيه من لا يؤخذ بأساليب الدعاية القائمة على الكذب والايهام والمغالاة في تصوير الأخطار المحدقة كل ذلك كي تستثير أفراد الأمة ويصبحوا أداة طيعة في يد الدولة تحركهم في ميادين القتال كما يحرك لاعب الشطرنج أخشابه . ولم يأن لنا أن ننسى الخطب والأقوال التي كان يوجهها رؤساء الحكومات الى الشعوب التي يحكمونها ، يذكرونها بالواجب الملقى على عاتقها إزاء الأمة خاصة وتجاه الانسانية عامة، وأنها حامية المدنية وأسمى المبادىء والمثل ، وأن العدو البربري إذا ما انتصر ، فسوف يقوّض أركان الحضارة ويجعلها أثراً بعد عين !!! . وهل وعظتنا الحرب بأهوالها وأوبئتها ومجاعاتها ووحشيتها ، أكثر مما وعظتنا الديانات والفلسفات والأخلاق ؟ لا أظن . ان الحرب بويلاتها التي لا تحصى ولا توصف تولد في قلوبنا الخوف والحذر من حروب جديدة تكون أشد هولاً مما سلف، لكنها لا تقوى على انتزاع ما يخامر النفوس من البغضاء والحقد والحسد والطمع وكافة النزعات الشريرة التي تتمخض عنها الحرب . فهذه الكتل البشرية ، التي ندعوها جيوشاً ، التي تتحرك وتسعى لإبادة بعضها بعضاً ، لا تخضع للقادة أكثر مما تخضع للمطامع والغرائز الوحشية المسيطرة على نفس كل قائد وكل جندي . وعند ما نؤمن ونقول إن الحرب قادرة على ابطال الحرب ، فكأننا نعني ونؤمن بافلاس الدين ، وكل قيم اخلاقية تعد بمثابة صدى على جانبي الطريق يسترشد بها الناس الذين يسيرون ميممين الحياة الفاضلة التي يخيم السلام الأبدي في ربوعها ، ولماذا لم تعمل الحروب التي نشبت في الأزمنة الغابرة على تهذيب الشعوب التي منيت بويلاتها واصطلت بنيرانها ؟ ومن الثابت أن الشعوب التي

كتبت تاريخها بالدمع والدم ، هي التي تأصلت وترعرعت النزعة العسكرية في قلوب أبنائها . ولم تعد الحرب في نظرهم نكبة ، بل فرصة سانحة لتوحيد الصفوف ودفن الأحقاد ودعم العصبية القومية التي أصيبت بالانحلال والتراخي في زمن السلم وليست فترة السلم الا فرصة تستجم بها الشعوب وتتأهب للقيام بحرب تالية . ومن جهة أخرى فاننا لا نستطيع أن نصم الانسان باللامبالاة التامة ، ونقرر أن العبر تمر به ولا يعتبر، وتحدث الأحداث ولا يتعظ ، ويرى الدمار والدماء والثكل واليتم والمجاعات والأوبئة ولا يكتئب .

* * *

مما لا مشاحة فيه أن المدنية الحديثة التي ورثت عن الماضي حضارته ودياناته وفلسفاته وعلومه، ومثلتها جميعها ونمتها وجلت غوامضها، قد عجزت عن استئصال النزعة الحربية من قلب الانسان ، لكنها هذبت مشاعره ، وقلمت أظافر مطامعه ، وكسرت حدة ضراوته . ذلك بأن الحياة الاجتماعية وما تعتمد عليه من قوات أمن داخلي ، ومحاكم على اختلاف درجاتها وأنواعها ، وقوانين متنوعة تشمل سائر نواحي النشاط الانساني ، قد وقته شر الناس ، وسهرت على راحته وسلامته في الليل والنهار ، في المدن وخارجها . والبيوت التي يقطنها تشتمل على معظم مرافق الحياة ، وتوفر له كثيراً من أسباب الراحة ، كفته مؤونة صراع العناصر الطبيعية ، واكتظاظ المساكن ، واتساع الشوارع في المدن وانارتها بالغاز أو بالكهرباء ، بعثت الطمأنينة في نفسه وجعلته بمأمن من كل شر يفاجئه .

* * *

وان تصبح الحرب وازعاً ما دام المؤرخون يؤرخونها على النحو الذي نشاهد ، وما دام المربون في المعاهد والكتاب في المؤلفات والصحف والمجلات ، لا ينفكون يلقحون عقول الناشئة والقراء بالجنون القومي والمطامع القومية وكره كل ما هو أجنبي ، صالحاً كان أم طالحاً ، وأن المجد العسكري لا يضاهيه مجد في الدنيا . ولو شئنا توجيهاً صالحاً بغية تنشئة جيل يشعر شعوراً إنسانياً ، لوصفنا هول الحروب وفظائعها ، وتحدثنا باسهاب عن الملايين من الشبان الذين ماتوا في ميادين الحروب وتركوا في العراء فريسة لطيور الفضاء وكواسر الغبراء ودود الثرى . ووصفنا وصفاً دقيقاً ما أصاب المدن من الخراب ، والمرافق العامة من الدمار ، وما حل بالبشر من الأوبئة والضيق والفقر . وهلا التفت الروائيون ووصفوا لنا الأسر المنكوبة وحدثونا عن بؤسها وحزنها ؟ ! ! .

إن القوانين والسجون والعقوبات قد قللت كثيراً من حوادث الإجرام في العالم ، لكنها لم تقف على استئصال شأفة الروح الاجرامية . فمتى ما أنس المجرمون فطرياً تهاوناً واستهتاراً في ادارة الدولة ، عادوا لايقاع الأذى بغيرهم . وهكذا فالمعاهدات والمؤتمرات الدولية والاتفاقيات الاقتصادية والعسكرية . . . . تستطيع أن تمنع نشوب الحرب مدة من الزمن ، لكن ليس الى الأبد . فإلامَ يحتاج البشر لقمع النزعة الحربية في الإنسان ؟

***

إن الحرب أزمة روحية قبل أن تكون أزمة اقتصادية أو عسكرية . فالناس لا يقتتلون الاَّ بعد أن تكون خلت نفوسهم من المحبة والروح التعاونية والنزعة الصادقة للسلم . فالإيمان بالدور الذي تستطيع أن تضطلع به القنبلة الذرية في إبطال الحروب ، وانها سوف تكون بمثابة العصا السحرية القادرة على توطيد دعائم السلم الدائم ، إيمان فاسد . ذلك أننا نسلِّم بافلاس الانسان من القوى الروحية والنزعة الانسانية المثالية ، وانه عنصر حيواني خالص لا تؤثر فيه الاَّ القوى المادية الغاشمة . وهب أصبح هذا السلاح الفتاك في متناول كافة الدول ، ألا يصبح عندئذٍ تعادل بينها في القوة . فتعيش منكمشة ، حذرة متيقظة ، لا يفتر لها طرف عن مراقبة أعمال سواها . وهل يشعر بلذة النوم ذلك الذي يتوقع مجيء اللص الى بيته بين دقيقة وأخرى ؟

إنني لا استطيع أن أتخيل عظم الحرقة التي يتكوى بها قلب أشعياء النبي ، لأن نبوءته التي أطلقها منذ آلاف السنين لما تحقق : لقد رجا أن يرى الناس « يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ، تستعمل في سبيل مقاصد شريفة في ظل الأمن والسلام » فماذا عساه أن يقول لو أطلَّ من مماته في هذا العصر فرأى الناس قد طبعوا كل ما يملكون من مناجل ومحاريث وفؤوس ... لا سيوفاً ورماحاً بل بنادق وقنابل ومدافع . . . وغيرها من آلات القتل وأسباب الدمار التي لم تراود ذهن أشعياء ولا خياله !

***

ليت شعري هل يكتب للبشرية في الزمن الآتي أن تسمع ملاك الرب يترنم قائلاً : « المجد لله في الأعالي ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المسرة ! » .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

ابـــني

إلى مهدك الميمون يمناي تمتدُّ رجاءً ، ويثنيها مشيبي فترتدُّ
رجاءٌ ويأسٌ ، حرَّكا فيك ساكني ومن عجبٍ أني بالاثنين أعتد
أنا البحر، لاأدرى هل الجزْر نافعي أم النفع أن يمتد من جانبي المد ؟
دعاك شبابي قبل أن يزمع النوى ولكن أراد الله أن يبطىء الرد
وجئت على شيبي فلم أدر هل أنا أبٌ لك، ياحُلْمَ الأمانيّ، أم جدُّ ؟
بنيّ وشيبي ، هل سيضعف فيكما رجائي ، أم يقوى بضعفي ويشتد ؟
وهل منكما لي مَخلَصٌ، أم كلاكما عدويء الذي ما من صداقته بُدُّ ؟
وهل ما تراخى من لياليَّ ينتهي كما مرَّ، أم يبيض منهنَّ مُسْوَدّ ؟
بنيَّ ، حياتي ذات حدٍ ، وإنما حياة الهوى الروحيّ ليس لها حد
بنيّ، ألا اسمعْ لي فغيرك سمْعه يكاد إذا ناديتُه بعدُ ينسد
وصاياي شيءٌ واحدٌ ، فاحتفظ به، ولا يشغلنْك اللهو عنه ولا الجد
بناتيَ باناتي ، فكن أنت طائري ومُدَّ لباناتي جناحاً ، هو الود

شاعر البرازي

الكيمياء عند العرب

وجابر بن حيان

رأيت أنْ أطْرُقَ هـذا البحثَ لأمرين : الأمر الأول أن أثْبتَ لقومي اعتراف الغرب ، بفضل علماء العرب ، في تقـدم علم الـكيمياء . والأمر الثاني أن أخاطب قومي العَرَبَ فأقول : — إذا كان العربيُّ ، فيما مضى من الزمان ، أمهرَ علماء الـكيمياءَ في العالم ، فما الذي يمنعه من إرجاع هذا الفخر اليه مرة أخرى ؟

إنَّ أبا موسى جابرَ بن حيان ليس بأقَـلَّ قدراً من « دلتن » و «لفوازييه» و « بويل » و « اشـتال » وغيرهم من العلماء ، فإن لم يَكُـنْ أفضلَ منهم ، فهو مساوٍ لهم بلا جدال . أليس من الممكن أن يقومَ في العرب رجالٌ عظامٌ يجارون السير إرنست رذرفورد والسير تومس والسير وليم بوب فيعيدون للعرب مجدهم الغابر في علم الـكيمياء ؟ لم يك العربيُّ بالمصلي في التصور الـكيمياوي بل كان المجلي ، وكان الأسبق ، وكان عليه المُعول .

مهما تقدمت العلوم الطبيعية في هذين العصرين الأخيرين ، فإن الآراء الطبيعية وحدها ليست بكافية ، بل تحتاج الى مهارة وتدريب ، لأن كل تقدم في هذه العلوم ، يجب أن يكون ذا أساس متين ، ليُبنى عليه ومنه يتدرج الى الـكمال . إذا شاء العرب ، وهم أصحاب الهمم العالية ، والغيرة والحمية ، أن يتفرغوا لدرس العلوم الطبيعية ، فعليهم أن يرجعوا إلى ما أخذه عنهم علماء الغرب ، فإذا ما نبغوا في هذه العلوم ، لما فيهم من الاستعداد العجيب ، شاهدنا مرة أخرى ، طلاّب الغرب يقصُدون جامعات العرب ، لدرس العلوم الطبيعية على أساتذتها الحقيقيين الأصليين .

لقد وُجِـدَ علم الـكيمياء في أول ظهور الاسلام ، لأننا من الأحاديث الشريفة نعرف أن النبي (صلعم) قد اهتمَّ بهذا العلم ، ويؤيد قولنا هذا ما جاء في خطبة البيان ، لعلي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه . وسواء أكانت هـذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة ، فهي

تثبيتٌ للملأ أن المسلمين قد اهتموا بعلم الكيمياء في أول نشأتهم ، لا سيما بعد رسوخ قدمهم في مصر ، إذ أخذ علماء الاسلام في ذلك الحين يطّلعون على أخبار اليونان ، وساعدهم على ذلك مدرسة الاسكندرية والمترجمون السوريون الذين نقلوا الكثير من اللغة اليونانية الى اللغة العربية ، وكذلك حرّان في العراق فقد أصبحت مركزَ العلوم منذ أيام الاسكندر الكبير ، ومهبط العلماء ، ومهوى أفئدة الحكماء .

درس المسلمون علوم قدماء المصريين في الكيمياء العملية ، وساعدهم ذلك الدرسُ على معرفة تحويل المعادن ، وصنع الزجاج ، وعمل الدّباغ ، وتركيب السموم والعقاقير : بيد أن ما قدروا أن يصلوا اليه من التقدم لم يك كافياً لجعل علم الكيمياء علماً طبيعيًّا ، إذ أنه في العلم الطبيعي تجب معرفة الآراء ودرس الطرق ومعرفة القوى العقلية فضلاً عن الحقائق التي لا مندوحة عنها : وغاية العلم الطبيعي أن نقف على عجائب العالم مما لا يتأتى إلا بالعلوم العملية .

أراد اليونان أن يحلوا هذا اللغز عن طريق آخر ، إذ أن التجاربُ كانت مجهولة لدى علمائهم ، مثل أفلاطون ، وسقراط ، وأوسطوطاليس ، فهؤلاء لم يقم أحد منهم بعمل تجربة بسيطة واحدة . وقد حاول البعض منهم أن يشرح شيئاً عن العالم بواسطة العقل فقط ، من غير تحقيق عملي ، ولا أصول عامة يستند عليها . وقد كان حظ هذه الطريقة كحظ أختها المصرية ، فلم تصادف نجاحاً لأن العلم الطبيعي لا يتولد إلا باتحاد الآراء العلمية مع المشاهدات العملية والتجارب في المختبر .

كان انتصار المسلمين كبيراً عندما اكتشفوا هذا الاتحاد وأوجدوا علم الكيمياء على أساسه المتين الذي فتح الطريق للتقدم وأوجد العمل في هذا العلم . ولقد وجد المسلمون هذا النحو صعباً لأن علم الكيمياء في الاسكندرية كان مختصًّا بالسحر والالغاز والحيل . ولما كان للمسلمين ميزة لا تقدر قيمتها وهي دينهم الحنيف ، انقشعت أمامهم غيوم هذه الألغاز التي كانت قد استولت على عقول علماء المصريين والفرس والبوزنطيين وأصبحوا يرون العالم بوضوح وجلاء لا من وراء الغمام والضباب اللذين كانا قد حجبا تصورات غيرهم من الأقوام قبلهم فخبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين .

إذا كانت الروايات الاسلامية في علم الكيمياء حقيقية ، فقد يرجع الفضل فيها لأمير

الأمويين خالد بن يزيد بن معاوية الذي أدخل هذا العلم في الاسلام . ولقد جاء في كتاب الفهرست لابن النديم أن خالداً بعد أن قطع الأمل من التبوء على عرش الخلافة انكب على درس العلوم الطبيعية كل الانكباب . وكانت عنده كتب يونانية لا تعد ولا تحصى كلها تبحث عن علم الكيمياء والطب ، وقد ترجمها الى العربية فضلاً عن أن خالداً نفسه أخذ يصنف الكتب الكثيرة في علم الكيمياء التي كان أعظمها شعراً . وإن هذا لعمل مجيد خالد من أعمال العرب . وقد ينسب الى خالد كثير من الاشعار المحفوظة الآن في أكبر مكاتب أوروبا ومصر والعراق ، إلا أنه من الصعب البت فيما إذا كان قد كتبها هو بنفسه أو كان قد كتبها غيره ونسبت إليه . وهي لا تفوق غيرها من الكتب إلا أنها قد بسطت علم الكيمياء بسطاً وافياً ، هذا وقد تجلى فيها من الحماس ما جعل كل من قرأها يميل الى درس علم الكيمياء والولوع به ، الأمر الذي يجعلنا نحترم الأمير خالداً ونجله ، لأن غيرته على تتبع العلوم الطبيعية قد حملت الكثيرين من الناس على الاقتداء به ، وقد قيل إن الإمام جعفر الصادق كان أحد الذين شغفوا بهذا العلم مع أنه كان رجلاً منصرفاً الى أمور أخرى ، غير أن ذلك لم يمنعه من أن يدرس علم الكيمياء . ومن المتفق عليه أنه هو الذي أرشد جابر بن حيان إلى طرق العلوم الطبيعية ، ولذلك أجل علماء الكيمياء المتأخرون جعفراً كل الاجلال .

كان أبو موسى جابر بن حيان الكوفي أكبر علماء الكيمياء في الاسلام ، وإنه ليعد من كبار علماء الكيمياء في العالم ، ولا نعرف شيئاً عن مولده ولا عن نشأته وأول حياته ، إلا أن بعض المحققين يجعلونه صابئياً من حران ، وقد أسلم ، وكان له مختبر في الكوفة كما جاء في كتاب الفهرست . ونعرف من بعض كتبه أنه قضى شطراً كبيراً من عمره في بلاط هارون الرشيد في بغداد . واليك ما جاء في كتاب البرهان في أسرار علم الميزان : « الأستاذ الكبير جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي مولداً السدي قبيلة ، الطوسي منشأ ، الصوفي مذهباً ، أخذ عن جرمي الحميري اليمني الذي كان من المعمرين . وترجمه جابر بأنه بلغ من العمر أربعماية عام ، وكان مولده قبل الهجرة بأكثر من مائتي سنة حتى بلغ الى أيام هارون الرشيد ، بعد ماية وسبعين سنة من الهجرة ، رحمة الله عليه . ولما مهر جابر على جرمي من

صغره ، وبلغ في العلوم الى مقام كبير ، هاجر الى الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين عليهم السلام فصار بن جابر إماماً واتصل بالبرامكة ، وجرّب لديهم كثيراً واتصلوا به الى ما بلغوا اليه من نتائج الحكمة ، وعلوّ الشأن ، والتمكين في الدولة ، والاعطاء الكثير الخارج عن الحد ، حتى ضربت باسم جعفر الدنانير برسم الصدقات ، زنة كل دينار منها مئة مثقال واتصل الأستاذ جابر بواسطة جعفر الوزير بالخليفة الرشيد وصنف له كتاباً في الصناعة الشريفة ، وسماه «كتاب الزهرة » وضمنه الطرق القريبة فيما بين البراني والجواني بأسلوب ظريف ، وأعمال بديعة . وبسبب جابر جلبت كتب اليونان من الروم الجلبة الثانية ، وتمكن في علوم الفلسفة حتى بلغت مصنفاته ما يزيد على ثلاثة آلاف كتاب ، وتوفي وله من العمر نيف وتسعون سنة ، وكان من أمره ما كان ، ورحمة الله عليه .

وفي مكان آخر يقول الجلدكي أن جابر بن حيان كان على اتصال تام مع البرامكة . ويذكر في كتابه الخواص أن جابراً شفى بنتاً أميرة تخص يحيي بن برمك . ومن أعماله التي وصلت الينا يظهر أنه كان رجلاً كثير الاطلاع ، ولم يك كيماويـا فقط ، بل كان طبيباً وفيلسوفاً ، ورياضيًّا وطبيعيًّا ، وقد ألف كتباً جمة في مواضيع شتى . ويظهر أنه كان يعرف اليونانية وهذا من الممكن ، لانه جاء من حران . وعلى كل حال ، فان من يقرأ كتب جابر يعجب من ذكائه ، وجلاء معانيه ، ولا يأمل القارىء أن يجد فيها ما هي عليه من المكانة العقلية عند علماء اليوم : فان ذلك وراثة أجيال طويلة ، وناتج عن صبر وجلد ، وتفكير وعمل ، إلاّ أن المقابلة بين ذكاء جابر ومن أتى بعده واضحة بينة .

يتبعُ جابرٌ في فلسفته العامة خطوات الفيلسوف الكبير ارسوطاليس إلاّ أنه تقدم عليه وبزه في علم الكيمياء ، وكان أول من بشر بعدم الاستغناء عن التجارب في العلوم الطبيعية . وفي كتابه الخواص الكبير نجد مئات من التجارب التي أجراها بنفسه . وكثير من هذه التجارب موضح كل الوضوح حتى انه يمكن اجراؤها اليوم من اتباع تعليماته فقط . ويعود الفضل لجابر في اكتشاف المواد الكيمياوية الضرورية مثل ماء الحلال وروح الكبريت . ولقد تنبه أيضاً الى صعوبات الكيمياء في أعمال الحياة اليومية ، وفطن الى امكان ازالة اللون الأخضر من الزجاج بواسطة تذويبه مع المغنيسيا . وأكبر ما أكسب جابراً الشرف الجمع بين التجارب العملية والتصورات النظرية الكيمياوية على طريقة لم يسبقه اليها أحد

من قبل،وهو موجد النظرية بأن المعادن تتألف من الزئبق والكبريت ، وهذه نظرية بعيدة جداً ، ولقد فتحت الطريق بعد سنين عديدة أمام تقدم نظرية فلوكيستون في الحريق التي أوجدها بحّر واشتال . ولقد عرف جابر قليلاً عن نظرية الذرات التي أوجدها لوكايبس وديمقراطس، ويظهر انه فهمها أيضاً . لقد اعتقد جابر مثلما كان يعتقد قدماء علماء الكيمياء بتحويل المعادن ، وظن انه اتمَّ هذا العمل بنفسه ، إلاَّ أنه من المهم أن نلاحظ أن جابراً لم يترك لهذه العقيدة المجال لتستولي على عقله فتصبحَ العثرة الكبيرة في تقدمه ونجاحه ، كما كانت الحالة مع من أتى بعده من الكيماويين .

إن أكثر كتب جابر لم تعرف بعد كل المعرفة أو كما يجب ، فاذا كان العربي يريد أن يخدم أمته ويخدم العلم معاً،فما عليه إلاَّ أن يبحث عن كتب جابر ومدوناته في علم الكيمياء وينشر تقريراً وافياً عن أعمال هذا الرجل العظيم ليطلع على ذلك علماء الكيمياء . ومما نعرفه عن جابر هو أنه كان رجلاً عظيماً وعالماً كبيراً .ومن أقواله : — « إن علماء الطبيعة لا يفرحون بغزارة المادة ولكنهم يبتهجون بمهارة طرقهم في التجارب . ومن أقواله أيضاً : أن ليس للنقل والسمع محل في علم الطبيعة ما لم يعضدها البرهان ، أو بكلام آخر ، إذا حقق القول البرهان فعند ذلك نقول إن النظرية حقة أو صحيحة .

لقد ترجمت أكثر أعمال جابر في القرون المتوسطة الى اللغة اللاتينية ولقد قيل عن بعض أعماله أنها أحسن ما صنعت يد الانسان في الآداب الكيماوية القديمة ، ومن هذه الجامع الأعظم ، وكتاب الاستمام ، وكتاب التنانير ، ولكن ، ويا للأسف لم تكتشف بعد هذه الكتب في اللغة العربية ، ولذا نرى بعض علماء الافرنج يشكون بانتسابها لجابر ، إلاَّ أن البعض منهم متأكدٌ بأنها من أعمال جابر رغماً عمَّا غيَّر فيها المترجمون والمؤلفون. ولكي نتحقق من هذا القول يجب علينا أن نبحث بكل جد ونشاط عن هذه الأعمال في اللغة العربية — وإن هذا العمل لمن أكبر الأعمال في تاريخ الكيمياء فيجب علينا نحن العرب أن نَحُلَّ هذه المعضلة قبل أبناء الغرب لأن في مكاتبنا الألوف من الكتب المطبوعة والمخطوطة التي لا يَعْرِفُ عنها علماء الغرب شيئاً . فاذا بحثنا البحث الطويل فإننا سنجد اكتشافات هامة ، ولربما عثرنا على كتب جابر التي ذكرتها آنفاً ، وبهذا العمل نقوم بخدمة كبيرة نحو تاريخ علم الكيمياء ، ونُظهرُ للعالم فَضْلَ العرب ، ونساعد على تثبيت الشرف الذي استحقه جابر بن حيان على أعماله الكبيرة الكثيرة .

شريف النشاشيبي

السنة القمرية

وشهورها

من المعلوم أن الأرض تدور حول الشمس وتتم دورتها في ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات وسبع وأربعين دقيقة، وان القمر يدور حول الأرض في ٣٥٤ يوماً وثماني ساعات ، فتكون السنة القمرية أقل من السنة الشمسية بعشرة أيام وواحد وعشرين ساعة وسطياً .

لقد لاحظ العرب قبل الاسلام وهم يعيشون تحت سماء صافية لا تتخللها الغيوم طول السنة إلاّ في أيام الشتاء القليلة طلوع القمر وأفوله ، والتطورات التي تطرأ على شكله وعلى أوقات طلوعه وأفوله ، درسوا ذلك واعتبروه مقياساً للزمن عندهم ، ثم قسموا سنتهم اثني عشر شهراً قمريًا دون أن يروا حاجة لدرس أيام الشمس وأسابيعها وشهورها ودون أن يتنبهوا إلى فرق الأحد عشر يوماً من سنتي القمر والشمس . وظلّ هذا الخطأ قائماً على مر العصور الى ان انتقل العرب من عالم البداوة الى دنيا الحضارة وأخذوا يزرعون الأرض ويمارسون الأعمال التجارية . فأقاموا الأسواق في أماكن مختلفة لبيع منتوجاتهم وشراء ما يحتاجون من آلات وأدوات وملابس .

وقد نتج عن انصراف القوم الى الأعمال الزراعية والتجارية أن راجت عادة تعاطي الأوراق والصكوك التجارية فيما بينهم وتاريخ تلك الأوراق وحينئذٍ انتهوا الى ذلك الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية المتقدم ذكره . وكانت أهم سوق لهم تلك التي يقيمونها في (عكاظ) وهو مكان واقع بين مدينتي نخلة والطائف وموعدها من أول شهر ذي القعدة حتى العشرين منه. ثم تنتقل الحركة التجارية الى سوق (مِجَنَّه) بمر ظهران حيث تبقى قائمة حتى نهاية ذي القعدة ، وتأتي من بعدها سوق (مجاز) خلف جبل عرفات حتى اليوم الثامن من ذي الحجة .وفي التاسع منه وهو يوم التروية، يرحل التجار والحجاج الى جبل عرفات ليؤدوا فريضة الحج .

لقد كان العرب في أسواقهم هذه يبيعون ويشترون ، فاذا أقبل المساء ووقفت الحركة التجارية اجتمعوا في النادي العام من تلك السوق ليستمعوا الى القصائد البليغة التي كان يلقيها عليهم شعراء العرب الذين كانوا يفدون من مختلف الأنحاء لينشدوا ما جادت به قرائحهم ، وهناك ينال المجلي والمبرز منهم ما يستحقه من تقرير وإعجاب واحترام . ولقد خصوا أبلغ القصائد بالشرف الرفيع فعلقوها على جدران الكعبة بيت آلهتهم المقدس . وهكذا فان العرب وهم أبناء الصحراء موطن الشعور الحي الفياض والخيال الواسع لم ينسوا حتى حين انصرافهم لأعمالهم التجارية إقامة الحفلات الأدبية ليشنفوا آذانهم بسماع القصائد البليغة ويحتفلوا بالمبرزين من فحول شعرائهم ويكرموا الأدب الرفيع بإغداق النعم والجوائز الثمينة على الممتازين من بينهم .

وحينما كانت تلك الأسواق تقام في أوقاتها المعينة من السنة القمرية لاحظ ذوو الحل والعقد من العرب أن حالة الطقس كانت تختلف في مختلف المواسم فتكون تارةً صيفاً وأخرى شتاءً أو ربيعاً أو خريفاً ، ولاحظوا أيضاً أسماء شهور السنة عندهم لا تنطبق دائماً على مسماها . فشهر ربيع مثلاً لم يعد يصادف فصل الربيع . ثم تبين لديهم أن كل ٣٣ سنة قمرية كانت تساوي ٣٢ سنة شمسية . ومنها أنهم توغلوا كثيراً في الشؤون التجارية ، فلقد رأوا من الضروري ملافاة هذا النقص من الزمن . وكان اتصل بينهم أن يهود يثرب وما جاورها — وسنتهم قمرية كما هي عند العرب — يتبعون طريقة خاصة كانوا تعلموها من الكلدانيين وهي إضافة بضعة أيام لكل سنة قمرية ليتمكنوا من ضبط وتحديد أيام الأعياد عندهم . ومنها عيد الفصح الذي يصادف في يوم بدر كامل بعد أن يتساوى الليل والنهار في بدء فصل الربيع . وحين اطلع العرب على تلك الطريقة استحسنوها وأخذوا يمارسونها على أشكال مختلفة ، فتارةً يضيفون شهراً واحداً الى سنتهم القمرية بعد كل ثلاث سنوات ، وأخرى سبعة أشهر لكل ١٩ سنة انقضت أو تسعة أشهر بعد مضي ٢٤ سنة قمرية . وهكذا أمكنهم أن يحولوا دون حلول أشهرهم بشكل تتوالى فيه الاختلافات الموسمية .

* * *

وعبر العرب عن هذه الاضافة بالنسيء أو الكبس كما قال بعض الفلكيين . إلا أن ابن

هشام قال في سيرته حين بحث عن النُسَّاء بأنهم ينسئون الشهور في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون آخر بدل شهر من أشهر الحل. وقد نزلت الآية الشريفة في هذا وهي (إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرّم الله الآية). وقد فسر بعضهم هذه الآية فقال:

لقد كانت الأشهر المحرمة معروفة عند العرب فلما دعتهم الحاجة وهي شن الحروب فيما بينهم والقيام بالغارات الى احلال بعضها أرادوا أن يتأوّلوا وان يكتفوا بعدد تلك الأشهر دون التقيد بالأسماء فأحلوا أحد الأشهر تمشياً مع حاجتهم ثم حرموه في عام آخر حينما لم يروا هنالك من حاجة للتحليل.

وقد فسر آخرون النسيء بالكبس وهو بذل عناية خاصّة في اضافة عدد كاف من الأيام في آخر كل سنة قمرية ليكون هنالك ترتيب ثابت لا يتغير يجعل الأشهر القمرية متساوية مع حالة الطقس في الأشهر الشمسية.

* * *

ولكل شهر من الأشهر العربية اسمان مختلفان الأول منهما وضعه العرب العاربة. والثاني استعمله العرب المستعربة أما أشهر العرب العاربة فهي:

مؤتمر، ناجر، حيوانٍ أو بُصان، رُنَّى، إيِّده، الأصم، عادل، ناطل، واغل، وَرنَهْ، بُرَك. واليك الآن أشهر العرب المستعربة:

المحرم، صفر، الربيعان، الجاديان، رجبٌ، شعبان، رمضان، شوالٌ، ذي القعدة، ذي الحجة.

وقد قيل إنما وضع العرب هذه الأسماء لاتفاق حالات كانت وقعت في كل شهر فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع. فسموا المحرّم محرماً لأنهم كانوا أغاروا فيه فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه وسمّوه محرّماً، وسمّوا صفراً ليصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم الى الغارات. وقيل لأنهم كانوا يغيرون على (الصّفَرية) وهي بلاد في جزيرتهم، وشهرا ربيع لأنهم كانوا يخصبون فيهما بما أصابوا في صفر. والربيع عندهم هو الخصب. والجاديان من

جمد الماء لأن الوقت الذي سمّيا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده . ورجب لتعظيمهم له ، والترجيب هو التعظيم . وقيل لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب وهي أنامل الأصبع الوسطى. وقيل أن العود رجب النبات فيه أي أخرجه فسمّي بذلك ، وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه فسمي شعبان وقيل سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات . وسمي رمضان أي شهر الحر مشتق من الرمضاء ، وشوال من شالت الإبل أذنابها اذا حالت ، أو من شال يشول اذا ارتفع . وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال ، إذ هو من الأشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمي به .

* * *

واتخذ المسلمون منذ العهد العمري الهجرة النبوية مبدءاً لتاريخهم وقد ذكر الطبري في الجزء الثاني من تاريخه كيفية ذلك فقال : «كان رفع الى عمر صك محلة في شعبان. فقال أي شعبان ؟ هل هو شهر السنة الآتية أو الذي نحن فيه . ثم قال لأصحاب رسول الله : ضعوا للناس شيئاً يعرفونه : فقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الروم فقيل انهم يكتبون من عهد ذي القرنين وهذا يطول . وقال بعضهم : اكتبوا على تاريخ الفرس . فقيل ان الفرس كلما قام ملك طرح بما كان قبله من السنين . فأجمع رأيهم على أن ينظروا كم أقام رسول الله بالمدينة فوجدوه عشر سنين فكتب التاريخ من هجرة رسول الله » .

هذا ما ذكره الطبري عن مبدء التاريخ الهجري . والعرب المسلمون شعروا بحاجة شديدة الى وضع مبدء عام لتاريخ أوقاتهم ومكاتيبهم الرسمية وسجلات وقوعاتهم الحربية حينما انتشروا في بلاد الشرق الأدنى ، وأخذوا يحكمون أمماً لها مدنياتها وتقاليدها وتواريخها . وقبل هذه الفتوحات لم يكونوا يشعرون بتلك الحاجة نظراً لما كان يسود بينهم من البساطة في حياتهم الاجتماعية . ويقول الطبري انهم لم يباشروا بتاريخ وقائعهم وضبط حوادثهم قبل الاسلام الا لمدة لا تتجاوز الجيل الواحد . ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن المسلمون قد بلغوا من التوسع الاجتماعي ما يجعلهم يشعرون بقيمة التأريخ الرسمي . وكان نظام الحكم النبوي عندهم بسيطاً ، ولا يحتاج الى اتخاذ الملفات والى حفظ المستندات والى

ترقيم المكاتيب كما هي الحالة في الحكومات التي تكونت فيما بعد. إذ أن وظائف الحكومة النبوية كانت قليلة جدًّا . والأوامر النبوية كانت تعطى شفويًّا فتنفذ حالاً . وقد ظلت أمور الدولة الفتية سائرة على هذا المنوال الى أن انتشر العرب في سوريا ومصر والعراق حيث حلوا محل الأعاجم فشعروا حينئذٍ بضرورة التاريخ حينما باشروا بجمع الضرائب وبتوزيع القوائم وتخصيص الرواتب للمجاهدين. وبما أنهم حديثو العهد بتلك الأمور المعقدة التي كانت تحتاج الى خبرة ومران ، فانهم رأوا من المناسب أن يستبقوا موظفي تلك البلاد القدماء في مراكزهم ليقوموا بأعمال التسجيل والضبط والتوزيع وقيد وارد الدولة ونفقاتها.

وانصرف أولئك الموظفون الى أداء واجباتهم بالطرق التي كانوا ألفوها فاستمروا على تأريخ أوراقهم وسجلاتهم ومكاتيبهم بتواريخ العهد البائد. واستخدم موظفو العراق التقويم الساساني وموظفو سوريا ومصر التقويم البيزنطي . وهكذا أخذت الأوراق الرسمية ترد الى العاصمة الاسلامية حاملة تواريخ مختلفة لا تتلاءم مع تقاليد العرب وعاداتهم . وهذا ما حمل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب على اتخاذ مبدءٍ للتاريخ يتناسب مع تقاليد العرب المسلمين ويدفع حاجتهم ويطمئن ميولهم القومية والدينية .

* * *

لقد كان من المعقول حين فكر عمر باتخاذ مبدء للتاريخ أن يقترح عليه اعتبار اليوم الذي ولد فيه سيد الأنبياء أو اليوم الذي بعث فيه لهداية الناس الى ديانة الحق والعدل نظراً لما لهذين اليومين من المكانة الممتازة في حياة بعض الناشئة المسلمة . إلاّ أن القوم اختاروا يوم الهجرة مبدأً لتقويمهم الجديد بدلاً من يومي المولد أو البعثة ويظهر أن هذا الاختيار والترجيح كان بناءً على اختلاف المسلمين حينئذٍ في تعيين التواريخ الصحيحة لهذين اليومين العظيمين .

فلقد اختلف المؤرخون في العام الذي ولد فيه النبي فأكثرهم على انه في عام الفيل (٥٧٠ م) . ويقول ابن عباس : إنه وُلد يوم الفيل . ويقول آخرون إنه ولد قبل الفيل

بخمس عشرة سنة . ويذهب غير هؤلاء إلى أنه ولد بعد الفيل بأيام وبأشهر وبسنين يقدّرها قوم ثلاثين سنة ويقدرها قوم تسعين .

واختلف المؤرخون كذلك في الشهر الذي ولد فيه وإن كانت كثرتهم على أنه ولد في شهر ربيع الأول،وقيل ولد في المحرم ، وقيل ولد في صفر،والبعض يرجح رجباً على حين يرجح آخرون شهر رمضان

كذلك اختلفوا في اليوم من الشهر الذي ولد فيه فقيل ولد لليلتين خلتا من ربيع الأول وقيل لثمان ليال ، وقيل لتسع . والجمهور على أنه ولد في ثاني عشر ربيع الأول . وهو قول ابن اسحاق وغيره وكذلك اختلف في الوقت الذي ولد فيه أكان نهاراً أم ليلاً . كما اختلف في مكان ولادته بمكة .

والمرجح أن الولادة كانت في ٢٠ أغسطوس سنة ٥٧٠ أي عام الفيل وكانت الولادة في دار جده عبد المطلب بمكة .

* * *

فما تقدم يفهم أنه كان يتعذر على عمر وأصحابه الاتفاق على يوم الولادة ، كما أنه تعذرت أيضاً على ما يظهر معرفة اليوم الذي بُعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم . سنة ٢٢ لقد جاء في الجزء الثاني صفحة ٢٥١ من تاريخ الطبراني ما يأتي :

أنزلت عليه النبوّة وهو ابن اربعين سنة فقُرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين كان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل القرآن على لسانه . فلما مضت ثلاث سنين قُرن بنبوته جبريل عليه السلام فنزل القرآن على لسانه عشر سنين بمكة ، وعشر سنين بالمدينة ، فلعل الذين قالوا : كان مقامه بمكة بعد الوحي عشراً عدُّوا مقامه بها من حين أتاه جبريل بالوحي . وعدَّ الذين قالوا : كان مقامه ثلاث عشرة سنة من أول الوقت الذي استنبئ فيه . وكان اسرافيل المقرون به وهي السنون الثلاث التي لم يكن أُمِرَ فيها بإظهار الدعوة .

وأجمع المسلمون وعلى رأسهم الخليفة الثاني عمر على اعتبار الهجرة النبوية مبدأ للتقويم الاسلامي الجديد . كيف لا ، والهجرة قصة من أروع ما عرف تاريخ المغامرة في سبيل الحق والعقيدة والايمان . لقد كان النبي هاجر الى يثرب حتى يتمكن من تبليغ رسالة التوحيد

والهداية ، تلك الرسالة التي حاربها أهل مكة من يوم بعثته الى يوم هجرته أهول حرب فهو لم يفكر حين هاجر في مال أو جاه أورتبة أوتجارة إنما كان همه نشر رسالته وتوفير الطمأنينة لمن يتبعون تلك الرسالة ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم وصلاتهم . لقد كانت مكة ضيقة جداً بالنسبة لعظمة الرسالة . وكان القرشيون حجر عثرة في سبيل انتشارها واقتطاف ثمارها اليانعة لخير الانسانية وسلامة البشرية من ضلال الوثنية وفوضى البداوة الجاهلة . فلما وقعت الهجرة اتسع أمام صاحب الرسالة مجال العمل فتضاعفت الجهود وتضافر الاخوة في سبيل الله وفي سبيل العقيدة والايمان فلم يمض على ذلك اليوم — يوم الهجرة المبارك — ثماني سنوات الا وكان جيش التوحيد يتوج جهود نبيه ، ويحتل عاصمة قريش ويقيم فيها عرشاً شعاره الايمان والجهاد في سبيل الحق والعمل الصالح في انقاذ المظلوم من الظالم .

هذا هو يوم الهجرة الذي اتخذه عمر بن الخطاب وعصبته المجاهدة المؤمنة مبدأ للتقويم الاسلامي . وهو يوم معروف التاريخ لم يشك فيه أحد . ولقد قال الطبري في تاريخه عن تقرير هذا المبدء ما يلي :

(قدم النبي (ص) يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، فاذا كان الأمر في تأريخ المسلمين كالذى وضعت ، فانه وإن كان من الهجرة ، فان ابتداءهم إياه قبل مقدم النبي المدينة بشهرين وإذا هي اثني عشرة وذلك أن أول السنة محرم . وكان قدوم النبي المدينة بعد مضي ما ذكرت من السنة ولم يؤرخ التاريخ من يوم قدومه ، بل من أول تلك السنة) .

ولقد رأى أحدهم أن يحقق اليوم الذي هاجر فيه النبي بحسب التقويم الشمسي فقام بعملية حسابية طويلة لا محل لذكرها . ثم وجد أن قدوم النبي (ص) هاجر الى المدينة كان يوم الاثنين الواقع في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ الميلادية .

يافا — فلسطين

رفيق التميمي

خريج السربون — وجامعة استانبول

عيد الميلاد

تأليف : أنتوني تشيكوف

ترجمة : سليم الأسيوطي

انتوني تشيكوف قصاص روسي من الطراز الاول ، أبدع في تصوير شخوصه والحياة الانسانية تصويراً بلغ حد الكمال ، فهو يبعث فيهم وفيها الحياة ناضرة نابضة فتراهم يتحركون . والنشاط والحياة تلؤم . وفي هذه القصة القصيرة يرسم لنا الكاتب العظيم صورة لكهل وزوجه العجوز يذهبان الى جندي متقاعد احترف تسطير الرسائل يستكتبانه رسالة الى صهرهما في بطرسبرج . وفي الحديث الذي يدور بينهما وبينه تبدو عقلية هذا الصنف من الناس وغيرهم ممن عاشوا في هذه القصة القصيرة — المترجم .

ماذا أكتب ؟ هكذا تساءل يوجر وغمس في المحبرة قلمه . منذ أربعة أعوام لم تر فاسيليزيا بفيا ابنتها التي ذهبت الى بطرسبرج عقب زفافها ، ثم أرسلت الى أمها خطابين ومنذ ذلك الحين ، انقطعت أخبارها ، كمن فارق الدنيا، فلم يعد يسمع لها صوت ، ولا يلوح لها خيال. وكانت المرأة العجوز دائمة التفكير في شيء واحد ، سواء أكانت تحلب البقرة في فجر الصباح أم توقد النار في المساء أم تغفو في الليل — ماذا حدث ليفيا ؟ أهي حية ترزق وقد أضحى التنائي من التداني بديلاً .وكان فرضاً عليها أن ترسل خطاباً، فالوالد مسن ، وهن عظمه واشتعل منه الرأس شيباً ، لا يستطيع الكتابة ، وليس في الكورة من يكتب ، وقد أقبل عيد الميلاد ، وفاسيليزيا لا تطيق صبراً أكثر مما احتملت ، فذهبت الى الخان حيث يجلس يوجر أخو زوج صاحبه ، وهو متعطل منذ عودته من الجندية ويزعم الناس انه ذو مقدرة فائقة على تحرير الكتب إذا أجزل له العطاء ، ففاتحت فاسيليزيا طاهي الخانة ثم ربة الدار ، ثم يوجر ، وتم الاتفاق على خمسة عشر (كوبك) . وكان ذلك في اليوم الثاني من عطلة العيد. وفي مطبخ الخان حيث جلس يوجر الى المنضدة ممسكاً بقلمه في يده ، ووقفت فاسيليزيا أمامه وقد ارتسمت على وجهها دلائل القلق ، وبدت على أساريرها علامات الألم ، وكان يرافقها

زوجها بوتر، وهو شيخ نحيل توسطت رأسه بقعة صلع غبراء ، سار مرسلاً نظراته في شعاع مستقيم كأعمى ،وكانت شريحة من لحم الخنزير تقلى على الموقد في طاجن مع قليل من عصير الطماطم ،تئز بأصوات وقعها في الأذن مثل كلمات فلو فلو فلو ترسلها وهي تقرب من النضج .

***

عاد بوجر يكرر سؤاله : ماذا أكتب ؟ ماذا تساءلت فاسيليزيا ناظرة اليه في غضب وشك .لا تتقل عليّ فإنك لن تكتب لي بدون أجر .لا تخش شيئاً فاني سأنقدك أجراً عن عملك هيا اكتب : الى صهرنا العزيز أندري هريسانفاتش ، وابنتنا العزيزة الوحيدة يفيا بتروفانا في شوق لاعج نبعث بتحياتنا في حب واعزاز ،داعين لكما بالبركات تغمركما أبد الحياة . نتمنى لكما عيداً سعيداً نحن ننعم بعيش خافض وحياة رغدة نرجو لكما أطيب منها ، .... استجب يا الهي دعواتنا . . . . يا سيد السموات والأرض »

غرقت فاسيليزيا في تأمل عميق، ثمّ أفاقت وتبادلت النظرات مع رجلها المسن .

« . . . . . ونرجو لكما أطيب منها ، تقبل دعائي يا خالق السموات والأرض» . رددت فاسيليزيا الدعاء وبدأت تنتحب حتى عجزت عن أن تفوه بأكثر مما قالت ، وكانت تخال في ليلتها الماضية وهي مستلقية على فراشها ، مستغرقة في هواجسها وأحلامها إنها لن تكفيها عشر صفحات لتودعها ما في رأسها من أفكار. إذ منذ رحلت الابنة صحبة زوجها فاض ماء البحر غزيراً جارفاً ، وحرم مسنو الأسرة الخير والنماء وعاشوا في حاجة وعوز ، ضائقة صدورهم بالتنهدات والأنين ليلاً ،والشكوى يرددونها نهاراً ، وغدوا كمن واروا ابنتهم الثرى وفقدوها الى الأبد . لقد وقعت أحداث كثيرة في القرية منذ غادرتها يفيا فكم من زفاف وكم من وفاة ، ما أطول فصول الشتاء وما أمر لياليه .

« الجوّحار » قال بوجر وهو يفك أزرار سترته ، وأردف لا بدّ ان درجة الحرارة قد بلغت السبعين ، ثمّ سأل هل من مزيد ؟

صمت الرجل المسن ، وسكتت زوجه العجوز ... ثم أردف لقد كان جنديًا ، يا صديقي الطيب ، فاه الرجل في صوت خفيض ،وترك الجندية في الوقت الذي عدت فيه . كان جنديا

وثق مما أقول ، ولكنه يقيم الآن في بطرسبرج بواباً لمؤسسة العلاج المائي حيث يعالج الطبيب مرضاه بالماء دون غيره من العقاقير أو الأسلحة .

ثم قالت المرأة العجوز وهي تخرج خطاباً من جيبها نعم ان ما سمعت ولوحت بالخطاب في يدها ، مكتوب هنا ، ولقد جاء من يفيا ولكن متى كان ذلك فعلمه عند ربي . أليس من المحتمل أنهما صارا في عداد الأموات . فكر يوجر قليلاً ، ثم عاود الكتابة على عجل من املاء العجوز .

ثم استأنف الرجل العجوز إملاءه من جديد يقول « وفي الوقت الحاضر » اكتب يا يوجر ... « ومن يوم كتب عليك الانخراط في سلك الجندية ونحن ننصح لك أن تقرأ مجموعة الجنح التأديبية والقوانين الأساسية للادارة الحربية ، وسيبين لك من قراءتها ما يضطلع به رجال الحرب » .

سطر يوجر ما سمعه ، ثم قرأ عليهما ما سطر في صوت مرتفع بينما كانت فاسيليزيا تتدبر ما يجب اضافته الى خطابها ... كيف كانت حالهم في العام المدبر ، ولم تكف الحنطة حاجتهم حتى عيد الميلاد فاضطروا الى بيع البقرة فيجب والحال هذه طلب نقود وتصوير ما غدا فيه الرجل الشيخ من شكايات متواصلة دائبة وربما فارق الحياة وشيكاً .... ولكن أنى للمرأة العجوز الافصاح عن دخيلة نفسها ومكنون قلبها والألفاظ لا تطاوعها ؟ ولا تعرف كيف تبدأ ولا متى تنتهي . فصمتت وعاود زوجها الاملاء قائلاً « اكتب ملحوظة » ، فاستأنف يوجر الكتابة « في المجلد الخامس من أنظمة الجيش كلمة جندي اسم يكون تارة عاماً وأخرى علماً ، والجندي في المرتبة الأولى هو القائد ، وفي المرتبة الدنيا ... ثم قطع الحديث وحرك الرجل الهرم شفتيه بعد برهة ، وقال في رقة وهدوء » انه لمن الواجب ومن الصواب أن يعني الابناء بالأحفاد فسألت المرأة ، وقد استشاطت غضباً : أي أحفاد تعني ؟ فأجاب الشيخ ، أليس من الجائز أن يكون هناك أحفاد ؟ ربما كان هناك بعض الحفدة فمن يدري ؟ فقاطعته قائلة :

أهكذا يكون تصورك للأشياء ؟ وأسرع يوجر في عمله ، وأسرع الشيخ في الاملاء ... ان ألد أعدائنا في الداخل وفي الخارج هو باخوس اله الخمر .

مرّ القلم بين أصابع يوجر ولمع كشص صياد عند ما أجراه على القرطاس ، وأسرع فتلا كل ما سطر .

وكان يوجر يجلس على مقعد يحرك قدميه العريضتين تحت نضد أمامه ، تنطق طلعتـه بالفتوّة والشباب ، ويترقرق ماء العافية في وجنتيه ، وجهه كالح كوجه حيوان كاسر ، ورقبته كرقبة ثور ، فهو الفظاظة تجسمت . نخورٌ بطفولتـه وصبوته التي أظلتها سماء الخان حيث درج منذ الصغر .

وكانت فاسيليزيا تعي صفات يوجر ، ولـكن تنقصها قوة التعبير ، فنظرت اليـه وهي تتميز من الغيظ ، وانتابهـا الدوار واستعصى عليها التعبير ، وسبب لها صوته الأجش وهمهمته الخشنة الصداع ، ومنعا عليهـا القول ، وزاد الحال سوء حرارة المكان ، وهواؤه الفاسد ، فأمسكت عن التفـكير وتمهلت ريثما يفرغ يوجر من كتابتـه ، بينما نظر الرجل الـكهل في ثقة واطمئنان ، ثقـة بزوجه ، واطمئنان اليها ، وقد جاءت به الى ذلك المـكان كما كان يرتاح الى يوجر فلما ذكرت كلمة دار العلاج المائي نطقت أسارير وجهه بايمانه بها ، وقوة عقيدته في الماء على الشفاء .

* * *

وحين فرغ يوجر من تسطير الـكتاب وقف يعيد تلاوته ، والشـيخ يهزّ رأسه مظهراً راحته الى ما يسمع دون أن يفهم له معنى .

قال الشـيخ : « تجري الأمور طوع ما نبغي ، فالخطاب رقيق حافل جزاك الله طيب الصحة يا بنيّ . . . . الحال مرضية راضية .

ألقت المرأة والشيخ بقطعة نقود من ذات الخمسة (كوبك) على النضد ، وغادرا الخان والرجل ثابت البصر ، لا يطرف كأنه أعمى ارتسمت دلائل المعرفة والحـكمة كاملتين على وجهه ، أما فاسيليزيا فما وضعت قدمها خارج عتبة المنزل حتى لوّحت بيديها حانقة مغيظة وهي تقول « فليأخذك الوباء » .

قضت المرأة العجوز الليل بطوله ساهرة مسهدة ، ما اكتحلت عيناها بنوم ، ولا أخذتها

سنة ، تقض البلابل والهموم مضجعها ، فما لاح الفجر حتى هبت من رقادها تردد صلواتها ، ثم خرجت تقصد مكتب البريد سعياً على الأقدام لتلتقي بالخطاب، وهو يبعد مسافة تسعة أميال

* * *

— ٢ —

بدأت عيادة الطبيب ب . و . فوريلوز في صبيحة العام الجديد تستعيد نشاطها ، وتستكمل جميع مظاهرها السالفة إلاّ شيئاً واحداً فان الحاجب اندري هارنفتش ارتدى حلة رسمية ذات جدائل وأولى حذاءه نظافة فائقة ، ويحيي الزائرين قائلاً : عام سعيد .

وقف بالباب يقرأ صحيفة بيده ، وفي الساعة العاشرة وفد الى الدار ضابط عظيم ، تعوّد الاختلاف اليها ، وقدم في أثره ساعي البريد فتلقف أندري معطف الزائر وهنأه بالعيد قائلاً : عام سعيد يا سيدي » فأجاب الضابط : أشكر لك تمنياتك أيها الفتى الطيب ، ولك مثل ما ترجو ، ولما بلغ أعلا درجات السلم أومأ برأسه تجاه الباب وألقى سؤالاً اعتاد أن يلقيه كل يوم وينسى الاجابة عليه : ما الذي بهذه الحجرة ؟ انها غرفة التدليك يا سيدي .

هدأت خطوات الضابط وخفت وقعها ونظر اندري الى الرسائل التي وصلت فوجد بينها رسالة باسمه ، ففضّ غلافها وقرأ بضعة سطور منها ، ثم مضى وئيد الخطى ، وهو ينظر في الصحيفة ، نحو حجرة في الطابق السفلي في الجهة المقابلة للبهو .

كانت يفيما زوج أندري في فراشها ترضع طفلها وبجوارها رقد أكبر الأطفال سنّاً ، واستلقى الثالث مسنداً رأسه بشعرها المتموّج على فخذ أمه .

دفع اندري الخطاب الى زوجه وهو يطأ أرض الحجرة وقال . خطاب أظنه من القرية .

وغادر الحجرة ولا زال بصره عالقاً بالصحيفة ، واستطاع أن يسمع يفيما وهي تتلو السطور الأولى من الخطاب في صوت متهدج باكٍ ، قرأت السطور الاولى ولم تستطع الاستمرار ، ففي ما قرأت الكفاية ، ثم استخرطت في البكاء واحتضنت طفلها الأكبر ، وطبعت على وجهه قبلاتها ، وفي صوتها حشرجة ليست بنشيج البكاء ولا بقرقعة الضحك وقالت بلسان حال رضيعها :

. خطاب من جدتي، نعم خطاب من جدتي ، من القرية يا للسماوات ، ويا للقديسين والشهداء، ان الجليد الآن يتراكم أكواماً تحت سقوف المنازل ... والأشجار تكسو رؤوسها تيجان ناصعة البياض من الثلج ، والصبية تنزلق في مركباتها الصغيرة ، وجدي العزيز الأصلع يجلس بجوار المدفأة . وكذا كلبنا الصغير ... اني أعرف أحبائي . » طرقت تلك الكلمات سمع اندري فذكر خطابات زوجه التي أعطتها له رجاء أن يبعث بها الى القرية ولكن في كل مرة كان يحول دون ذلك عارض يمنعه ، ففقدت جميعها للأبد .

« الأرانب البرية تسرح حوالي الحقل » غنت يفيا وغمرت طفلها بالقبلات وفاضت عيناها بدمع هتون وأردفت « ان جدي عطوف رقيق . . . . وجدتي رحيمة حسنة الطوية وأهل الريف ذوو شعور قوي دافق ، وعاطفة مشبوبة جياشة ، يخشون الله ، ويعيشون في مخافته ، والقرويون يرتلون الترانيم في الكنيسة الصغيرة . ابتعدي بنا عن هذا المكان البغيض أيتها السماء ، أيتها الأم المباركة المقدسة »



عاد اندري الى الغرفة ليدخن لفافة تبغ في انتظار دقات طارق جديد فأمسكت يفيا عن الكلام واعتصمت بالصبر ، وجففت الدموع في مآقيها وما زالت شفتاها ترتعشان ، فقد كانت ترهب زوجها وتخشى بطشه وسطوته .

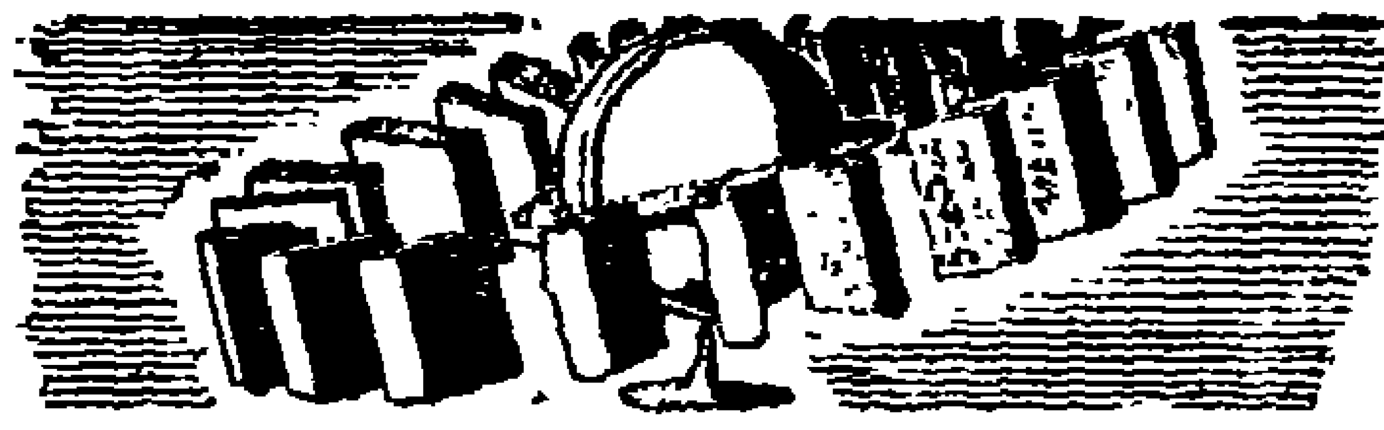
ارتعدت فرائصها ، وملأها الذعر عند سماعها وقع أقدامه ، وتبينت في عينيه ما أخرسها عن التفوه بكلمة في محضره .

لم يكد أندري يشعل لفافته حتى دق الجرس فأطفأها ، واصطنع الرزانة وأوسع الخطى نحو الباب الأمامي . كان الضابط يهبط الدرج منتعشاً متورد الوجنات بعد حمامه .

سأل ، كما سأل من قبل مرات ، وسبابته تشير الى الباب : « وماذا عساه يكون في تلك الحجرة ؟ »

وضع اندري يديه في سرعة وخفة بجانبه كعادة الجند وأجاب في صوت مرتفع ، مثمن الماء الساخن يا سيدي .

تمت



مكتبة المقتطف

مقدمة في الاجتماع

كتاب للاستاذ عبد الفتاح ابراهيم — بغداد

حيّا الله العراق وأهل العراق ، فإنهم قد أعطوا الدنيا كلها الدليل الواضح على عراقتهم في المجد ، وقدم عهدهم بالمعرفة ، وطول ممارستهم لشؤون الفكر والبحث ، على الرغم من أحداث الليالي : فلقد كان لبغداد في العصور الخوالي شأن وأي شأن في العلوم والآداب والفنون ، إذ كانت كعبة كل أديب ، ومطمح نظر كل مفكر ، عنها تصدر الروائع ، وفيها تظهر الطرف ، وفي قصورها ونواديها ومجتمعاتها تشهد أرقى صورة لنهضة الذهن ويقظة الروح ، ثم شاء ربك لحكمةٍ يعلمها أن تصيب العراق نوازل الدهر وكوارث الحدثان ، فاغتصبها الدخيل . وعدا عليها المستعمر ، وقضى على نواحي العظمة ومظاهر المجد فيها قوم بغوا في الأرض بغير الحق ، ومضى على ذلك دهر طويل ، وشاء ربك أن يعود السيف إلى قرابه ، وأن يرجع الحق الى أهله ، وأن ينال القوس باريها ، فتنفست العراق الصعداء منذ سنوات معدودات ، وما كان أشد دهشة الناس حينما رأوا العراق اليوم في مجده ونهضته وعظمته ، هو عراق القرون الماضية ، حيث كان مجلى النباهة ، ومستراد الوثبات والطفرات ، فكأن دهر الاحتلال والاستعمار لم يكن إلاّ سِنة من النوم استجم بها العراق قوته ، وجمع فيها شمله ، وجدّد نشاطه ، ثم هبّ من نومه مذعوراً وقد رأى الأمم تقدمته بخطوات ، فهرول في سيره ليدركها ، وطار في مشيته ليسبقها ، وأبى أن يستكين أو يصبح في الطليعة ! ...

أجرى على قلمي هذه العبارة الصادقة ما رأيته من مظاهر النهضة والتقدم في العراق

الشقيق الحبيب ، وعلى الأخص تلك النهضة الأدبية التي أنتظر أن تؤتي أطيب الثمار في الغد القريب ، فلقد غمرتنا العراق بمجلاتها الناشئة والناهضة ، وكتبها العلمية والأدبية القيمة ، التي إن دلت على شيء فلا تدل إلاّ على أن العربية بمصر والعراق وسوريا وبقية بلاد العرب حية لا تموت بإذن الله تعالى !

هذا كتاب جديد قيم ، في موضوع لم يصدر عنه بالعربية إلاّ كتاب أو كتابان ، فهو جديد على أذهاننا ، طريف في بلادنا ولغتنا ، فهو بلا شك صعب التناول شديد المراس علينا ، فاذا ما رأينا أديباً نابهاً منا تناول القول عنه فوفق في أكثر مراحله ، وأجاد في أغلب مواضعه ، كان واجباً علينا أن نقدّره حق قدره ، وأن نرفع من شأنه بين النابهين من الأدباء !! . .

اسم الكتاب « مقدمة في الاجتماع » ومبحثه كما هو ظاهر « علم الاجتماع » ومؤلفه الأديب الكبير الأستاذ عبد الفتاح ابراهيم ، من خيرة المثقفين المفكرين في العراق ، والذي درس حيناً من الزمن في أمريكا ، بعد أن رغب التخصص في التاريخ والاجتماع ، وقد سمعت أنه أصيب أثناء دراسته بأمريكا بمرض أجبره على الانقطاع عن الدراسة ، قبل حصوله على اجازة « الدكتوراه » بعام واحد ، فاضطر الى العودة إلى بلده العراق ، ولم يهيء الله له أن يعود مرة أخرى ، فاشتغل بالبحث في شؤون التاريخ والاجتماع ، حتى صار في ذلك أقدر من حملة الإجازات والشهادات العليا . . .

وكتابه هذا يقع في ٢٢٣ صفحة من الحجم المتوسط ، ويشتمل على تسعة فصول ، استعرض فيها النزعتين « الروحية والواقعية » في الحياة ، وأثرهما في الاجتماع ، ثم تناول « السياسة » فحلل معناها ، وبين صلتها بالمجتمع ، وأتى على نبذة في منشأ علم الاجتماع ومذاهب الفلاسفة اليونانيين وغيرهم فيه ، ثم انتقل الى تعريف المجتمع ومنشئه ، وأتبع ذلك بذكر مقوّمات المجتمع وهي : رابطة الجنس ، والبيئة ، والاقتصاد . . . ثم تحدّث عن « المثالية والمادية » حديثاً استغرق ما يقرب من أربعين صفحة ، ولكنه على الرغم من ذلك الطول جاء مبهماً موجزاً ، خصوصاً فيما أورد من أمثلة ، ولا يعني بتفسير « المثالية والمادية » إلاّ كتاب في خمسمائة صفحة كاملة على الأقل ، ثم تحدّث المؤلف عن تطور المجتمع ووجهته

ودلائله ، وذكر بتوضيح مقوّمات هذا التطور من القومية وملاءمة البيئة وتوزيع العمل ...

وأول ما ألاحظه على المؤلف ميله الى طريقة النقل والاستشهاد والتقرير ، لا إلى الانشاء والابداع ، فكثيراً ما تقرأ في تضاعيف الكتاب هذه الجمل : « ذهب فلان الى كذا » و «مذهب فلان كذا » و « في الكتاب الفلاني كذا » ! . . أفما كان يجدر بالمؤلف وقد تخصص في الاجتماع . وطال عهده ببحوثه وفصوله أن يقدم لنا نتيجة بحوثه الفردية وآرائه الشخصية ؟ . . . ولكن قد نجد للمؤلف عذراً عن ذلك في تسميته الكتاب « مقدمة » وننتظر منه أن يكتب بعد ذلك في الصميم فينشىء ويبدع ! . . .

وفي صفحة ٤٧ يستشهد المؤلف على رجوع الانسان إلى أصل واحد بقدرة أزواجه على التزاوج والتناسل ، بخلاف بقية الحيوانات الأخرى ، فإن جنسين مختلفين منها لا يتناسلان وإن تناسلا فإن ذريتهما تفقد قابلية التناسل حتماً ، كما هو الحال في الخيل والحمير عند ما تتناسل فتلد البغال العقم » . والتعليل بهذه العلة غير مقبول ، فقد ولدت إناث البغال في حوادث معدودة ، فبطل قوله « حتماً » . فان قيل إن ذلك من باب الشذوذ ، والشذوذ غير معتبر ، قلنا : ولا يصح لنا أن نعقد قاعدة علمية تطرد ارتكاناً على مثل هذه الحجة ، فالتناسل من سنة الطبيعة ، والطبيعة لا نستطيع ضبط ناموسها ، فقد تتناسل العقم غداً ، كما قد تعقم المتناسلة ، وذلك من أمور الغيب ، ولعلّ مما يؤيد رأيي هذا عبارة المؤلف نفسه في صفحة ١١١ عن عدم اطراد صحة الاختبارات والمشاهدات ، وهذا نصها : « الاختبارات لا تدل على أكثر من نتائجها ، فانجماد الماء في درجة الصفر في حالات معينة لا يدل على أنه ينجمد دائماً في هذه الدرجة ، فربما تكون درجة الحرارة انخفضت ملايين من المرات فيما مضى فلم ينجمد ، وقد تنخفض في المستقبل فلا تنجمد أيضاً » ! ! . . وقياس التناسل بين نوعي الجنس البشري الإنساني على التناسل بين جنسين مختلفين من الحيوان كالخيل والحمير قياس غير صحيح وغير مستقيم ، ففي الانسان كان النوعان داخلين تحت جنس ، أما في الحيوان فهما جنسان كل منهما مستقل بخصائصه ومميزاته ؛ وإن جمعتهما رابطة الحيوانية بعد ذلك ! .

وفي صفحة ٤٨ يقولُ المؤلف : « . . . وهفاهاً غليضة » وأظن الصواب « غليظة »

بالظاء لا بالضاد ، فأنا لم أسمع كلمة « غليضة » هذه إلاَّ في العامة ! .

وفي صفحة ٧٠ يقول المؤلف عن وفرة الحاصلات وعدم احتياجها الى عناء : « فالأرز يكفي أن تبذر بذوره فيجنى محصوله » والواقع يناقض هـذا القول ، فزراعة الأرز تحتاج الى مجهود كبير حتى تنضج ثمرتها وتؤتي أكلهـا ، والفلاحون في مصر مثلاً — وهي بلد مشهورة بزراعة الأرز ، وفيها النيل المبارك — قاسوا ولا يزالون يقاسون الأمرين في زراعة الأرز ! . . وجولة قصيرة في أرجاء الريف أثناء الصيف يعطيك أوضح دليل على ما نقول ! .

وفي صفحة ٧٢ يقول المؤلف عن استعباد الملوك للأفراد في العصور القديمة ، فالفراعنة — مثلاً — لم يبالوا بأن يستهلكوا جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات لنقل كل حجر من أحجار الاهرامات من مخارجها إلى أماكن الانشاء ، بحيث استنزف بناء الهرم الأكبر جهود ثلاثمائة وستين ألف عامل مدة عشرين سنة ، وكذلك لم يعبأوا بإفناء نيف ومائة وعشرين ألف عامل في حفر قناة البحر الأحمر ... ؟ . وهذا القول مبالغ فيه ، ويخطىء من يبالغ في وصف قسوة الفراعين على رعاياهم ، ولا يعقل أن نقل الحجر الواحد في الهرم كان يستنزف جهود ألفي رجل مدة ثلاث سنوات ، مع ان أكبر حجر في الهرم لا يزيد عن بضعة أطنان ، والمسافة بين المحجر وبين محل البناء ليست طويلة طولاً فاحشاً ، وكذلك لم يستخدم في بناء الهرم ٣٦٠٫٠٠٠ عامل كما ذكر المؤلف ، بل مائة ألف فقط ، كانوا يشتغلون في العـام ثلاثة شهور زمن الفيضان ، ثم يستبدل بهم غيرهم ، وهكذا . . . وقناة البحر الأحمر لم يهلك في انشائها ربع هـذا العدد المذكور ، ومن يتصوّر أن قناة متوسطة الطول والعرض يفنى في إنشائها مائة وعشرون الف عامل ! . أي يموتون ويهلكون ! . رفقاً بعقولنا ، ورفقاً بالتاريخ يا أستاذ عبد الفتاح !

لا تظلموا الموتى ، وإن طال المدى إني أخاف عليكمو أن تلتقوا !

ويتحدَّث المؤلف في ص ٧٢ أيضاً عن أهل البلدان الحارة فيقول إنهم « . . . يضبطون نسلهم خوف الجوع والعري » . ونحن لم نسمع قبل هذا العصر أن قوماً حاولوا تحديد النسل أو ضبطه ، وإنما قلّ النسل في البلاد الباردة لأسباب طبيعية ، فالجو البارد والغريزة الجنسية الباردة الراكدة بسبب هذه البرودة وقلة القوت الذي يعد عاملاً أساسيًّا في تكوين المادة التناسلية

وتوفيرها ، هذا وغيره هو السبب في قلة النسل بتلك البلاد ، على عكس ذلك في البلاد الحارة ! .

وفي ص ١٠١ يقول : « ومسخرة لأجل محافظة مصالح المنتفعين به » والصواب فيما أعلم « حفظ » أو « المحافظة على . . » . وفي نهاية ص ١١٣ وردت كلمة « بيضوي » نسبةً إلى البيضة ، والمشهور « بيضاوي » وإن يكن القياس « بيضي » ! . وفي ص ١٩٣ يقول عن وطن الانسان : « الذي ضمت تربته (رمم) أسلافه » ولو عبر بـ « جثث » أو « رفات » بدل « رمم » هذه التي يشم منها الرائحة الخبيثة لـكان أجمل وأحسن .

وقد أعجبني كل الاعجاب عبارة المؤلف في ص ١٧٨ عن سمو الأديان السماوية ، وسوء فهم الناس لها ، وتحويرهم الخاطىء لمبادئها ، فاستمع إليها تحس بما أحسست به ، قال :

« على أن الانسان لم يوفق الى ما كانت تريده له هذه الأديان العالمية ، فقد عاقه الجهل الشامل وقصر العقل في ذلك الزمان عن إدراك مراميها السامية ، واضطربت مساعيه في هذا السبيل ، بما اضطره الى اتخاذه من وسائل فرضها عليه الواقع ، فلم يمض على ظهور هذه الأديان غير وقت قصير حتى التوت كثير من مبادئها، لما أساء الناس فهمها ، واستحالت الى أغلال عاقت ارتقاء العقل ، ويسرت لذوي الأطماع أن يجعلوا منها ستاراً لمطامعهم في المال والسلطان ، وهكذا انقلب الجهاد في سبيل الاسلام مثلاً الى نزاع على سلطة الحكم التي تقمصتها الخلافة ، فآل نشر الدين الى بسط السلطان ، ومبدأ الاخاء الانساني الى تسخير الشعوب بإثارة العداوة بينها لخدمة مطامع المتنازعين على السلطة ، وقامت الـكنيسة في أوربا ففعلت في المسيحية مثل ما فعل النزاع على الخلافة في الاسلام ، واتخذت من مبادىء الدين المسيحي الساميــة وسائل لجمع المال ، وخدع النـاس بالبهرجة الزائفة ، واشغالهم بالطقوس الجوفاء ، واستهلاك قوى العقل في مسائل لا طائل تحتها ، واستخدام سلطان الدين لتدعيم الاقطاع ! » .

هذا جميل كما ترى ، ولـكن ما بال المؤلف يذهب عقيب ذلك مباشرةً فيناقض نفسه ويدّعي أن الأديان العالمية — يعني السماوية كما يظهر — « وإن سوّت بعض التناقض في كثير من الصلات الاجتماعية . . . ولـكنها قوّت في مؤسساتها متناقضات أخرى بالتفريق بين الناس على أساس الاعتقاد ... » الخ .

يا أخانا الأستاذ عبد الفتاح ! . . أما الأديان الوضعية فقد اتفق العقلاء على أنها باطلة .
وأما الأديان التي ثبتت سماويتها فكلها من نبع واحد ومصدر واحد ، قال القرآن الكريم :
« قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » . وقال القرآن الكريم أيضاً :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » .

وقال نبي الاسلام عليه السلام : « الأنبياء أبناء علات ، الأب واحد ، والأمهات مختلفات » .

فأنت ترى أن الأديان متحدة في الأصل ، وإنما جاء الاختلاف والتفريق من التحريف والابتداع الذي قام به الكهان والجهال في كل دين سماوي ، وما الموسوية والمسيحية والمحمدية إلا مترادفات لمعنى واحد ، هو الاقرار بوحدانية الخالق ، والاخبات لتعاليمه وشرعه ، ولكن الناس اختلفوا ، « وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات » ! .

ومن ذلك يتبين أن الأديان السماوية العالمية لم تحل العداوة بين المختلفين في العقيدة ، بل دعت الى الوحدة والاجتماع ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة !! .

وفي ٢٢٢ يقول المؤلف : « نستطيع أن نقدر الخدمة العظيمة التي قدمتها الحركة الكمالية الى اللغة التركية باقتباسها حروف « ألفباء » اللاتينية ، باعتبار أنها تمتاز عن « ألفباء » العربية في أنها بلغت في الاستغناء عن الحركات آخر مراحل التطور المحقق » .

وأنا مع إعجابي بنهضة الكماليين في شؤون كثيرة ، لا أساير المؤلف في الاعجاب بهجرهم للحرف العربي وإيثارهم اللاتيني ، فما يدل ذلك إلا على انعدام القومية ، وعدم الحفاظ على لغة القرآن ، تلك اللغة التي أوصلتهم يوماً ما إلى مجد لم تره أمة في العالم ، من الناحيتين المادية والروحية ! ولقد كان في مكنة الكماليين أن يصلحوا من شأن « ألفباء » العربية ، بأن يخترعوا فيها حروفاً للحركات ، فيحفظوا بذلك لغة دينهم ، وقوميتهم : وقد حاول هذا

الاصلاح بعض المفكرين العرب على صفحات بعض المجلات والكتب ولعلهم يوفقون !!

كذلك ألاحظ أن المؤلف أكثر من ذكر الكتب والمراجع وأسماء رجال الاجتماع بالحروف اللاتينية فقط في صلب الكتاب ، وعندي أن هذا يشوّش على القراء قراءتهم ، وخصوصاً الذين لا يعرفون لغة أجنبية وهم الكثرة الغالبة في بلادنا . ولذلك كان من واجبه أن يكتب هذه الأسماء بالحروف العربية في صلب الكتاب ، وإن أراد الدقة في العمل فلا مانع من ذكرها بالحروف اللاتينية في الهوامش .

كذلك أعاتبه على إهماله لرجال الاجتماع العرب والمسلمين في العصور الماضية ، فما لا شك فيه أن لهم باعاً طويلاً في هذا العلم ، وإن يكن بأسلوب وتعابير ومظاهر غير المعروفة لنا اليوم ، وما أظن أنه استشهد بعربي في كتابه إلاّ بابن خلدون مرة أو مرتين !...

إن للغرب نهضة علمية باهرة ، ولكن يجب أن نذكر أنها عنا أخذت ، ولعلها إلينا تعود يوماً من الأيام ! ..

لا يسعني في النهاية إلاّ تهنئة الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم على هذا الأثر العلمي القيم ، وأتوقع بعد أن قدم مقدمته أن يدخل في الصميم ، فيفصل لنا قضايا الاجتماع تفصيلاً لأنه من العلوم الهامة التي يترتب عليها كثير من الآثار الخطيرة في تقدم الأمم وعلوّ شأنها ، وما أحوجنا نحن الشرقيين إليه في هذا العصر ، والله ولي التوفيق .

احمد الشرباصي

المدرس بالازهر الشريف

١ — أثر العرب في الحضارة الأوربية

للاستاذ عباس محمود العقاد

توافر لهذا الكتاب عنصران قويان لهما خطرهما ، وأهميتهما في مجال الدراسة والتأريخ ، عنصر الموضوع الذي يدور حوله البحث . فهو من الموضوعات التي غدت مثاراً لاضطرابات الأفكار بين متعصب لها، ومتجنٍّ عليها ، ولم يظفر هذا الموضوع بالدراسة العلمية التحليلية — فيما أعلم — قبل هذا الكتاب ، فقد استطاع — العقاد — أن يبلغ الحز من تلك المشاكل المعقدة ، والنفاذ الى اللباب في كل ما يعرض له ، وبيان الأسباب ، والكشف عن

العوامل الطبيعية التي خلقت هـذه الظواهر ، لائذاً بالنزاهة العلمية ، التي لا تورّط ، ولا تغالي ، بل تعرض على المشرحة كل ما تريد أن تدرسه ، وتضعه تحت المجهر ، ثم تراقب ، وتستقرىء ، وتشاهد ، وتسجل ما تصل اليه بعد التجربة ، والتحليل ، والتأكد ، وهو يقرر أنه ليس من همه في هذا الكتاب أن ينفي مزايا الشعوب ، والسلالات ، فان هذه المزايا حقيقة لا شك فيها ، ولا سبيل الى نكرانها ، ولكننا إهتممنا برد هـذه المزايا إلى عدة عوامل طبيعية ، وأسباب تاريخية ، تسري على كل قوم إذا تعرضوا لها ، ولا ينفرد بها الساميون ، أو غير الساميين ، وبهذا الميزان الصحيح تنعقد الموازنة بين الحضارة العربية ، وسائر الحضـارات فلا تشيل في الميزان . هذا هو المنهج الذي ينهجه العقاد في دراسة أمثال هذه المباحث فلا يستعين بالثرثرة الإنشائية حيث تكون الكلمة المنطق الحكيم ، والسند التاريخي الركين ، وقد أخذ يدرس كل هذه المظاهر التي أخذتها أوروبا عن العرب ثم عقب بما أخذته العرب عن أوروبا فتكلم عن العرب ومن هم ؟ والعقائد السماوية ، وآداب الحيـاة والسلوك ، والتدوين ، وصناعات السلم والحرب ، والأصل والنقل والطب ، والعلوم والجغرافيا والفلك والرياضة ، والأدب والفنون الجميلة والفلسفة والدين . ثم يتناول بعض الألوان التي استعارتهـا العرب عن أوروبا . فتكلم عن — سداد الديون ، والاجتماع ، والسياسـة ، والحكومة البرلمانية الوطنية ، والأخلاق ، والعادات ، والأدب ، والفن ، والصحافة ، فجاء هذا الكتاب أجل دراسة عالجت هذا الموضوع وردّت الى كثير من قلوب شبابنا المثقف إيمانهم ، وإجلالهم ، لحضارتهم على أساس علمي ، لا من طريق إثارة الحماس ، وإيقـاد جذوة التعصب . والعنصر الآخر هو تلك المهارة ، والدقة ، والحذق في التحليل ، واستخلاص النتائج من المقدمات حتى يستطيع الكاتب الذى يتصدى لهـذه الدراسات أن يقدم ما ينفع ، ويعيش ، وهـذا البحث يعد المثال والنموذج في هذا النوع من الدراسة التي يجب أن يكون هدف من يروم الكتابة ، ويدرس التاريخ .

٢ — كتب وشخصيات

للاستاذ سيد قطب

لكل كاتب جانبه الحي الخصب الذي تتجلى فيه خصائص ذهنه ، وطبيعة ملكاته ، فهو مبدع ، متفوق ، دقيق ، ما انطلق في ميدانه ، واستجاب لإلهامه ، والاستاذ — سيد قطب —

وكان يتفرد في مجال النقد الأدبي بنوع من الأسلوب الطيع ، والتناول المحكم ، خليقان بالثناء والتشجيع ، يعاونه حس مشبوب ، وذوق مصقول ، وبصر بهذا الضرب من النقد . ولقد استطاع أن يتسنم هذه الذروة المرموقة ، واثباً . وكتابه هذا تظهر فيه كل هذه الخصائص التي يمتاز بها هذا الذهن المتوقد ، المأمول في عالم النقد والأدب ، وهو كتاب له أثره القوي في تمثل هذا اللون من النقد ، ورياضة الأذواق الناشئة على تذوق الجمال الفني ، وتبصيره بمواطن المآخذ ، ومحاولة إعطائه الصورة الصادقة التي يجب أن ترتسم في نفوس الشباب لماهية الأدب ، ورسالة الأديب ، وله أيضاً جانبه الخاص من حيث هو دراسة أدبية للأدب في هذا العصر ، فهو يتناول الأدباء المعاصرين بالدراسة ، وتصوير مذاهبهم وتوضيح مناهجهم في الكتابة والتفكير ، عن طريق كتبهم فهو يأخذ بعض الآثار التي تصدر عن هذا الأديب ، أو ذاك ويجعله محور كلامه ، ويتخذه وسيلة لافاضة الكلام عن أسلوبه ، ونهجه ثم يحاول أن يتخذ من كل هذا مذهباً عامّاً للكاتب ، أو الشاعر ، أو القصّاص ، فهو في هذا يدرس شخصيات الأدباء عن طريق كتبهم ، فليس هو تراجم لهؤلاء الأدباء ، ولا دراسة تحليلية شاملة ، عميقة عنهم ، ولكنك تستطيع أن تقول إنه دراسات لبعض جوانب من هذه الشخصيات ، يثيرها ، ويدعو اليها ، هذا الأثر ، أو ذاك الذي صدر عن هذا الأديب أو ذاك والذي كان داعية البحث ، والهدف الأصيل للناقد ، ولكن الكاتب لم يترك موضوع الكتاب يفرض عليه القيد ، ويحتجزه خلف أسواره ، بل كان ينطلق حرًّا في كثير من الأحيان حيث يلم المامات واسعة في نواحي الشخصية العامة حتى يضع بين يديك صورة متقنة لها ، فجاءت دراسات ممتعة خصبة في هذا الباب الذي تشتد حاجتنا اليه ، لما فيه من صقل للأذواق ، وإرهاف للاحاسيس ، ومعاونة في النهوض برسالة الفن والأدب . ففيه آراء قيمة عن الفن ، والقصة ، والكتّاب ، والشعراء بين شيوخ ، وشبان ، وهذه الدراسات تبرز السمات الفنية . والخصائص الأدبية ، وطرائق التفكير ، والتعبير ، لأمثال الأساتذة القادة : طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، والمازني ، والحكيم ، وأدهم وغيرهم ممن تلمع أسماؤهم في آفاق النهضة الأدبية المعاصرة .

محمد عبد الحليم أبو زيد

لتخليد ذكرى المرحوم نعمة يافث

تلقينا من الأستاذ أنطونيوس يافث من كبار المهاجرين اللبنانيين الأدباء في سان باولو في برازيل مجلدين كبيري الحجم وقفهما على ذكرى المرحوم نعمة يافث نسيبه. وقد توفي سنة ١٩٢٤ .

والذين تولوا التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت في أواخر القرن الماضي أو كانوا طلاباً فيها إذ ذاك يعرفون نعمة يافث تلميذاً نجيباً من تلامذتهم، أو رفيقاً من رفقائهم على مقاعد الدرس ، أو صديقاً حميماً من أصدقائهم بعد تخرجه ، ويعترفون بما أوتيه من مواهب عقلية وخلقية ممتازة ويذكرون له كثيراً من المفاخر والمآثر التي رفعت قدره في عيونهم، وأدامت صداقتهم له وعرفانهم لفضله حياً وميتاً .

تعلمَّ المرحوم نعمة يافث في مدرسة المرسلين الانجليزية في بلدته « الشوير » من أعمال لبنان . وبعد ما أتمَّ دروسه فيها التحق بالكلية الأميركية، ونال منها البكالوريوس في العلوم سنة ١٨٨٢ وفي أثناء الدراسة كان معروفاً بالنجابة والألمعية والاجتهاد والاكباب على تحصيل العلوم ، ولاسيما علوم الرياضة والفلك والاقتصاد، فقد برع فيها براعة أهَّلته لمساجلة كثير من الأساتذة والعلماء على صفحات المقتطف .

وبعد ما تخرَّج في الكلية دعي لادارة مدرسة للطائفة الأرثوذكسية في بيروت فأحسن ادارتها، وأصلح نظمها وترك فيها مآثر مشكورة. وكان المجمع العلمي الشرقي قد أسس قبل ذلك فانضمَّ الى عضويته ، وكان فيها زميلاً لكثير من أقطاب العلم في ذلك العصر ابراهيم اليازجي، وابرهيم الحوراني، وبطرس البستاني، وسليم البستاني، والدكتور يعقوب صرُّوف، والدكتور فارس نمر ، وغيرهم ، فانتخبوه كاتم سر المجمع تقديراً لمؤهلاته وذكائه ونشاطه .

ولكن لبنان ضاق بهمة نعمة يافث كما ضاق بكثيرين قبله ، فنزح الى برازيل في سنة ١٨٩٣ .

وكان قد سبقه إليها اخوته الثلاثة وأقاموا في سان باولو يشتغلون بالتجارة ، فانضمَّ اليهم وأسس معهم شركة تجارية ، تولى ادارتها ، فكان حليفها النجاح ، وشجعه ذلك على تفضيل الاشتغال بالصناعة واختار صناعة غزل القطن ونسجه ، لأنه توقع ببعد نظره أن مصنوعات القطن ستكون من أكثر المصنوعات رواجاً . وتمَّ له ما أراد ، وساعدته مؤهلاته العلمية ، وذكاؤه الطبيعي، وخلقه المتين على احراز أقصى ما طمح اليه من نجاح وبلغ مصنع « يافث »

في سان باولو من الشهرة وذيوع الاسم والازدهار فوق ما كان يحلم به، واتسع المصنع حتى صار يشتمل على ٤٥ الف مغزل، و١٤٠٠ نول، وأربع مطابع لطبع القماش، وكان يعمل فيه ٢٥٠٠ عامل، واقتنى هو واخوته من وراء ذلك ثروة ومجداً .

وبعد ما قضى في المهجر ٢٨ عاماً حنَّ الى وطنه، فزار الشوير في سنة ١٩٢١ وعرج على مصر، والتقى بأستاذه الدكتور يعقوب صرّوف وكان المقتطف قد نشر له كثيراً من البحوث الطلية و المناظرات العلمية في الرياضة والطبيعة واللغة كما تقدم .

وحالما وطئت قدماه مصر انصرف الى الاهتمام بشؤونها الاقتصادية وأخذ يبحث في كيف يجلب اليها البن البرازيلي ويبيعه فيها رخيصاً . وفي ما يتعلق بالقطن المصري كان له رأي خاص هو أن تحتكر حكومة مصر هذا القطن كما احتكرت حكومة البرازيل محصول البن اعتقاداً منه بأن ذلك يفيد الحكومة والشعب .

ولم تقتصر براعة نعمة يافث على حسن ادارة الأعمال الادارية والصناعية، بل كانت له نظرات اجتماعية تدل على سعة عقله، واستنارة بصيرته، وبعد نظره . كما كانت له نظرات فلسفية في الأديان فدعا الى التمسك بروح هذه الأديان، وتآخي الناس، ونبذ التعصب الديني. وفوق هذا وذاك كان وطنيًّا صادق النزعة يحب لبلاده الاستقلال والحرية .

هذا هو الرجل العصامي الذي جمع الأستاذ انطنيوس يافث آثاره من خطب ومقالات وبحوث في هذين المجلدين باسطاً تاريخ حياته بسطاً شافياً، فذكر نسبه، ومولده . وتثقيفه ورجولته، ونبوغه في العلوم، ونجاحه في الاقتصاد، ووصف أدبه وتواضعه، وكرم خلقه، واستقامته، ونزاهته، وبره بوالديه، ووفاءه لأصدقائه، وحسن معاشرته لزوجته، واجادة تربيته لأولاده، الى أن انتقل الى رحمة مولاه في سنة ١٩٢٤ فأجمعت الصحف في لبنان وسورية والمهجر على رثائه وأشادت بفضائله . أسكنه الله منازل الأبرار، وجعل من سيرته نبراساً يستضيء به الشباب في الحياة .

قصة الالياذة

للسيدة عنبرة سلام الخالدي : ٢٧٠ صفحة — المطبعة العصرية بالقدس

قبل تسع عشرة سنة كانت مدينة بيروت تفاخر وتزهو بمجلة « الكشاف » التي ضربت رقماً قياسيًّا عالياً بطلاوة بحوثها وروعة مواضيعها، إذ كانت مسرحاً لأقلام أعلام بارزين في البسيط العربي كالأثري والزهاوي من بغداد، وكردعلي والمغربي من دمشق، والريحاني

والفاخوري من بيروت ، وعبد الله مخلص والنشاشيبي من بيت المقدس .

وفي عداد هذا الرعيل الطيب الفوح ، المعطر الشذا ، كانت السيدة عنبرة سلاّم الخالدي قرينة الأستاذ المربي الكبير احمد سامح بك الخالدي ، تنشر نفثاتها الطيبة تباعاً من انجلترا ، يوم كانت تطلب العلم في جامعة لندن ، فكنت مسحوراً بطلاوة موضوعاتها وروعة أسلوبها ورجوت لها من ذلك اليوم مستقبلاً أدبيًّا باهراً

« . . . وإن في نساء[1] هذه الأمة ، قوًى هائلة مستترة ، بدرت لي بوادرها منذ أعوام ، وكان لي حظ مرافقتها منذ شببت ، يا لروعتها عند ما ترغي وتزبد ، جائشة كالإناء الغالي ، ويا لأنوثتها المستحبة ، تخالف سنن الطبيعة ، وتقنع بالهمود عند ما يوضع الغطاء ، وتسد المنافذ ، وتحكم الأقفال ! ! ، ولكنه همود يتلوه تدفق واصرار في غير زهو وادعاء ! » .

هكذا ظهرت عنبرة سلام ورفيقات لها ، ظهرنَ ثم اختفينَ وظهرنَ ثم انزوينَ ، وها هي ذي أصواتهنَّ الحلوة تعود الى المنبر النسائي بفعل القوة العلوية الدافعة الى الخير

ودارت الأرض دورتها حول الشمس... وما هي إلاَّ سنوات قلائل حتى كانت السيدة عنبرة من نصيب بيت المقدس ، فلم يقف إنتاجها — كأم — عند حدّ . . . . رغم مسؤولية الزواج وواجبات الأبناء ، بل استطاعت تلك السيدة النابهة أن توفق بين شؤون منزلها ورغبة قلمها ، وكان آخر ما أضفاه ذلك اليراع الخصب على خزانة الأدب العربي ترجمتها (الياذة هوميروس) عن كتاب « قصة الالياذة » بالانكليزية لألفرد تشرش أستاذ اللاتينية في جامعة لندن ، فجاءت ترجمة السيدة الخالدية تحفة رائعة تتسم بإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب مما يجعل الكتاب جديراً بأن يحتفظ به كل مثقف

وهذه القصة تسرد تفصيل وقائع الخصام بين زعيمين كانا حليفين في الحرب وما أنتجه خصامهما من كوارث لأصدقائهما . وقد قال أحد شعراء الرومان « ان الالياذة بتقديمها الأمثال عن عظماء وهم يعملون تعلمّ ما هو شريف وما هو هائن أفضل مما يعلمه كل الفلاسفة النظريين » .

ولو حظي كل قطر عربي بجماعة طيبة كالسيدة عنبرة في جهودها لانجلى ليل العرب . . . وقطعوا شوطاً بعيداً في مضمارهم الاجتماعي ، ولكان الوعي القومي غيره في بلاد تتلمس سبيل النجاة والانطلاق من كل قيد واسار ! .

(بيت المقدس) « البيروني الملثم »

---

(١) من كلمة نشرتها الاديبة السيدة سلمى صائغ عام ١٩٢٨

فهرس الجزء الرابع

من المجلد التاسع بعد المائة

لحق بالمقتطف

لواحق المقتطف الشهرية

في العلم الروحي الحديث

العجيبة الثامنة

بقلم

أحمد فهمي أبو الخير

مدير ادارة السينما بوزارة المعارف

الكتاب موضح بصور فوتوغرافية

الطبعة الاولى

مطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يكاد ينقضي قرن على « الروحية » بعد أن اتشحت ثوبها العلمي الجديد الذي حاكه دعاتها — علماء ووسطاء — ناصعاً مليئاً بالآيات البينات يدعمها التجريب العلمي الدقيق .

ومن الوسطاء الذين خضعوا لذلك التجريب العلمي الدقيق ذي الأسلوب القاسي سيدة بوسطن أو شهيدة بوسطن المعروفة باسم « مرجري » . وهي التي أخرست بتجاريبها ألسنة أشد العلماء الماديين عناداً ، وهي التي فضحت بحق « هوديني » عدوّ الروحية غفر الله لهُ ، وتركته مدحوراً مغلوباً على أمره .

ولهذا كله سميت بحقٍ « العجيبة الثامنة » .

وكان على رأس جمعية البحوث الروحية الأمريكية في احدى فترات ذلك التجريب العلمي محامٍ نابه بارع وقانوني ضليع هو العلاّمة وليم هـ . باطون William H. Button فلما نجحت تلك الإختبارات القاسية لم يسعه إلاّ أن يعلن اقتناعه بصدق الظواهر الروحية ، فقوبل من أهل الجمود بصيحة الاستنكار . وقال هؤلاء كدأبهم : خادع ومخدوع . وحدث أن قابل باطون فيما بعد الصحفي الإنجليزي البارز والداعية الروحي الكبير هانين سوافر Hannen Swaffer فسأله رأيه في ذلك الإستنكار ، فأجابه بما سبق أن أجاب به كثيرين وما نشره بعد في كتابه النفيس « قصّتي الكبرى » الذي ظهر في أواخر سنة ١٩٤٥ ، قال : —

« اذكر دائماً أنك إذا وجدت في الطريق ماسة صغيرة فلك أن تهبها أو تبيعها دون أن تجني من ذلك همًّا ولا نصباً . ولكنك إذا وجدت كتلة ماسٍ كبيرة فان حياتك تصبح عبئاً ثقيلاً عليك . ذلك أن كثيرين من الناس سيقولون إنها زجاج لأنها من كبر

الجرم بحيث لا يمكن أن تكون ماسا ، على حين يحاول سرقتها واغتصابها منك كثيرون غير هؤلاء لئلا كدهم من إنها ماسة حقيقية . وقد يطاردك رجال الشرطة . وقد تتهم بأنك سرقتها فتلاقي كثيراً من المزعجات . فإما ألقيتها في نهر وإما ألقيت نفسك فيه . وأنت الآن قد استكشفت حقيقة كبرى ، فان كنت لا تحب الحرب والكفاح فلك ذلك ، وإنما كان ينبغي أن تقرره قبل أن تبدأ بحثك وتقصيك . وأما وأنت رجل نزيه شريف فإنك لابدّ فاعل ما أعلم أنك فاعله وهو أن تلصق بالحق وتتمسك به » .

والحقائق التي سيطالعها القراء في « العجيبة الثامنة » ليست من نسج الخيال ، بل هي أحداث واقعية خاضعة لقوانين إلهية أزليّة تسري وتعمل ، وقد أصبحت موضوع دراسات جامعية بدأت في جامعة بون Bonn في المانيا وفي جامعة كمبردج في انجلترا ، ثم سرت الى الجامعات الأخرى في أوروبا وأمريكا . فليس سحراً ما سيطالعه قرّائي في الصفحات التالية بل نتائج حتمية لقوانين الله الأزلية الطبيعية التي تتكشف للعقل العلمي الفاحص آونة بعد أخرى وعلى قدر نضجه .

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد

أحمد فهمي أبو الخير

القاهرة: يوليه سنة ١٩٤٦
شعبان سنة ١٣٦٥

مفردات وشرحها

١ — إكتوبلازم Ectoplasm مادة تنبثق من جسوم الوسطاء وتساعد على إحداث الظواهر ، وقد وصل العلماء الى تحليلها ميكروسكوبيًّا والى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء فوتوغرافيًّا وسينمائيًّا .

٢ — تلبثي Telepathy أي إيصال تأثيرات من أي نوع ، من عقل الى آخر بعيداً عن مجاري الحسّ المتعارفة .

٣ — جلاء بصري Clairvoyance أي قدرة الانسان على الرؤية بشكل يخالف العرف وبدون استعمال الحواس العادية فيخترق بصره الحجب المعتمة ويرى ما وراءها متعدياً حدود الفضاء والزمن .

٤ — جلاء سمعي Clairaudience أي قدرة الانسان على ادراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف ، وهو كزميله الجلاء البصري لا يتقيد بأبعاد الزمان والمكان .

٥ — سيكومتري Psychometry هي عند السيكولوجيين قياس مدة الحالات أو العمليات العقلية وشدّتها ، وعند الروحيين تقصي أثر شخص بطريق سلعة من سلعه . والمقصود هنا في هذا البحث هو التفسير الروحي لا السيكولوجي .

٦ — غيبوبة Trance حالة نوم أو لا شعور ظاهري تعتري الوسطاء الروحيين ويصحبها تغييرات فسيولوجية كتيبس الجسد مثلاً ، ويكون الوسيط في حالة استحواذ ، أي أن روحه تكون قد غادرت جسده مع بقائها متصلة به بحبل أثيري ، وفي نفس الوقت تكون روح أخرى قد هيمنت على جسده .

٧ — اختير التعبير « بحث روحي » مقابلاً للكلمتين الانجليزيتين "Psychical Research"



ش (١) مرجري (العجيبة الثامنة)

نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

العجيبة الثامنة

١ — تمهيد :

يتحدَّث الأثريون عن عجائب الدنيا السبع التي أنشأها الأقدمون في سالف الأزمنة في جهات متفرقة في هذه الأرض ، وكلها من مبتكرات عقول رجال الفنون والعلوم والصناعات في تلك العصور الغابرة . أما العجيبة الثامنة التي نحن بصددها فهي بشر مثلنا — هي سيدة تمت على يديهـا أحداث جسام توطدت بها أركان أحدث العـلوم ، ونعني به العلم الروحي الحديث الذي شقَّ لنفسه الطريق في الوقت الحاضر حتى وصل الى الجامعات والمجامع العلمية المختلفة في كل من أوربا وأمريكا .

هي مسز مرجرى كراندون Mrs. Margery Crandon عقيـلة الطبيب الجرَّاح الدكتور ل . ر . ج . كراندون Dr. L. R. G. Crandon أستاذ الجراحة بمدرسة الطب بجامعـة هارفارد ، ومؤلف الكتاب الحجة في موضوع العلاج بعد الجراحي Surgical after treatment هي وسيطة بوسطن الروحية الشهيرة التي خصها الله بقوى روحية تكاد تكون فذَّة ، والتي حباها الله فوق ذلك الخلابة والجاذبيـة والخلق السمح الكريم والكرم الحاتمي . اختبر وساطتها أفراد ولجان وجماعات ، وتعرَّضت في تلك الاختبـارات لقسوة ذلك « الأسلوب العلمي » المقول به أو بعبارة أصح ذلك « الهوس العلمي » الذي يخرج البحث العلمي عن القواعد والأصول ، وخرجت كما سيجيء من هذه الاختبارات كلها ناجحة مرفوعة الرأس ، وفازت بشهادة العلماء على صدق ظواهرها . وشذَّ عن ذلك جماعة التووا ، إما لظروف خاصَّة بهم ، وإما لحقد أكل قلوبهم . ولم يتورَّع بعض هؤلاء حتى عن الدس الدنيء للتشهير بهـا كي يكسبوا من وراء ذلك شهرة على حسابهـا . ولا إخال نزعة الكراهية التي سادت بعض

مختبري وساطتها إلاّ لنجاح هـذه الوساطة من جهة ، ولشهرة زوجهـا الطبيب ومهارته في صناعته من جهة أخرى . وناهيك بأولئك الذين اتخذوا الشك والتشكيك حرفةً لهم ، يريدون بذلك التظاهر بالدفاع عن آراء وقضايا ظنوها حاسمة . وهؤلاء يبدأون بافتراض أن كل شيء لا يتفق وتفسيرهم للقوانين الطبيعيـة المتعارفة لا بدّ أن يكون وهماً أو خداعاً وتدليساً . وكأن تلك القوانين الطبيعية المتعارفة هي كل القوانين التي على مقتضاها يسير الكون بشقيه المنظور وغير المنظور . واذا قرأت لهؤلاء النقـاد ما كتبوا لمست تحيزهم ظاهراً . ووجدتهم يتلمسون الخطأ حيث يتوهمونه ، على حين يمرون بالبينة القاطعة ولا يشيرون اليها . وبذلك يحققون القول المأثور : ليس هناك من هو أشد عمىً من ذلك الذي لا يريد أن يبصر ، ولا من هو أشد صمماً من ذلك الذي لا يريد أن يسمع . وكما قال العـلامة شلر Prof. Schiller الاكسفوردي : « ان أقوى البينات لتخفق في إقناع العقل الراغب عن التصديق أو حتى الراغب عن التثقيف » .

ويقول هؤلاء المتشبثون بآرائهم إنما يرونه يخالف علمهم وما عرفوه عن صدق القانون الطبيعي ، فهم برغم رؤيتهم الظواهر تحدث مع كل الاحتياطات التي يتخذونها يرفضون قبول ما تنم عليه هـذه الظواهر من حقائق بحجة انهـا تخالف القوانين المتعارفة . والغريب أن بعض هؤلاء يعترفون فيما بينهم بصدق تلك الظواهر الروحية ، ولـكنهم يحجمون عن الجهر بذلك مخافة أن يضطرهم جهرهم بهـا الى التشهير بهم أو الى فقد مناصبهم ، إما بالاقالة ، وإما بالاستقالة ! وكأننا في القرون الوسطى !

ولو كانت مرجري امرأة فقيرة تستغل الوساطة في سبيل العيش لقلنا على الأقل ، ان طالب العيش ما تعدّى ، ولـكنها لم تكن تتقاضى على عملها الوساطي أجراً ، بل لقد كانت تبذل هي وزوجها من ثروتهما المتواضعة البذل الكثير في نشر العمل الصالح الذي كشفته لهما الوساطة الروحية ، وهذا عدا ما كانا يبذلانه سرّاً في سبيل البرّ والاحسان على فقراء بوسطن .

ولطالما تجادل نقّـاد هذه الوسيطة الشهيرة بعضهم مع بعض . ولـكن هل استطاعوا أن يقيموا الدليل القاطع على وجود ثلم أو عيب في أعمالها الوساطية ؟ كلاّ . ويلاحظ أن بعض الذين لا تتسع صدورهم ولا عقولهم إلاّ لبحث العلوم المتعارفة فقط يعتبرون البحث في العلم

الروحي جريمة . فهم والكهنة الأقدمون سواسية . ونراهم يرفضون قبول الحقائق التي لاتتناولها علومهم والتي تعجز عقولهم وعلومهم عن تفسيرها . وكان هؤلاء يهاجمون مرجري مهاجمة قاسية ودنيئة في بعض الأحيان ، ولكنها كانت تتلقى كل ما كان يوجه اليها ببشر وترحاب . وكثيراً ما هزأت في رفق ورقة بأولئك الذين كانوا يجرحون أعمالها الوساطية بالكذب والدس والافتراء .

٢ — بدء وساطة مرجري وتنميتها

قرأ الدكتور كراندون ما كتبه العلامة الدكتور كروفورد Dr. Crawford أستاذ الهندسة الميكانيكية في جامعة بلفاست عن الأحداث التي تمت في الجلسات التي عقدها مع الوسيطة كيت جوليجر Kate Goligher، فتطلع إلى أن يجري هو وزوجته بحوثاً مشابهة .



ش (٢) صورة ستنسون ولتر شقيق مرجري « المتوفي » والروح المهيمن عليها

« نقلا عن مجلة سايكك نيوز »

وحدث أن زارت مرجري وسيطاً للجلاء البصري فحدثها عن أخيها ولتر ستنسون Walter Stinson الذى توفي سنة ١٩١١ في حادث من حوادث السكة الحديدية ، وكان عمره إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً . واستطاع الروح ولتر خلال وسيط الجلاء البصري ذاك أن يثبت شخصيته لشقيقته ، ولما تمَّ له ذلك طلب إليها أن تعقد جلسات في منزلها . وفعلاً

عقدت الجلسة الأولى في مايو سنة ١٩٢٣ ، وظهرت وساطة مرجري بوضوح في هذه الجلسة ، لأن المنضدة التي استعملها الجالسون لم تهتز وتتأرجح إلاّ عند ما وضعت مرجري يدها عليها . وتعهد الروح ولتر شقيقته فنمّى الوساطة عندها بالتدريج ، وكفلها بإرشاده ورقابته حتى استطاع إحداث الظواهر الروحية المختلفة على يديها كما سيجيء . وقد تضمنت هذه الظواهر الدّق ، والغيبوبة ، والتجسد ، والصوت المباشر ، والمجلوبات والمأخوذات ، وتكوين الأكتوبلازم بحيث يمكن تصويره فوتوغرافيًا ، ومرور مادة خلال مادّة ، والكتابة بلغات مختلفة ، والرسائل المجزأة التي تعطى أجزاؤها لجماعات مختلفة تفصل بينها مسافات شاسعة ، فاذا ما ضمت الأجزاء كونت رسالة دقيقة مفهومة . وكان ولتر عدا هذا كله روحاً مخلصاً ناصحاً صادق النصح ، مجرباً مرحاً يملأ جوّ الجلسة سروراً إذا ما استشعر من الحاضرين ضجراً ، وكان في بعض الحالات يبتكر الاختبار ابتكاراً . فلما استتبت الوساطة برهان ما أصبح المنزل رقم ١٠ بشارع لايم Lime Street ببوسطن مقصد العلماء والبحّاث ومزارهم يحجون إليه من كل صقع .

٣ — بصمة الابهام

سأل الروح ولتر ذات يوم جلساء مرجري عن البرهان الذي يطلبونه لكي يثبت لهم أنه هو ولتر الذي كانوا يعرفونه وهو في الحياة الدنيا ، وأنه الآن يتابع الحياة في منطقة وجود أخرى في الكون ، فقالوا له « نريد بصمة إبهامك لأن بينة البصمة لا يمكن أن ترد » .

فلم يتوان ، وطلب إليهم أن يجيئوه بشمع وماء ساخن . وبدأ تجاربه في البصمات ، وأعطاهم مجموعة بصمات لا للابهام وحده بل لليد كلها . وقد كانت تجارب البصمات تلك مثار نقاش جديد لعلّ الأرواح كانت ترمي إليه ، لأنه كلما كثر نقاش رجال العلم كثر الحديث حول الروحية وزادت من ثمّ معرفة العالم العلمي لمرجري ووساطتها الفذة .

ولم يكن لمرجري دخل البتة في إحداث تلك البصمات كما قال الكابتن فايف Fife خبير البصمات في بحرية الولايات المتحدة في بوسطن ، لأن تلك البصمات حدثت مع اتخاذ أشد حيطة ممكنة . وقد كانت البصمات في مبدأ الأمر موجبة أي من النوع العادي . وبعد ذلك

أعطى ولتر مختبري بصمته بصمات معكوسة الوضع، وهي التي تسمى بصمات المرآة.

وقد صارت تعطى البصمات سالبة، تظهر فيها الخطوط البارزة غائرة والغائرة بارزة. وعدا هذا وجدت صورها المعكوسة في المرآة مطابقة للبصمات العادية. وقد بلغ عدد البصمات التي أعطاها ولتر ١٣١ بصمة، وقد قام بتحقيق هذه البصمات كلها رجال الشرطة وتحقيق الشخصية في واشنجطن وبوسطن وبرلين وميونخ وفينًا وسكوتلند يارد بلندن. وتمت المضاهاة على بصمة لولتر كان قد تركها على أحد أمواس الحلاقة، وكان قد استعمله يوم وفاته في ذلك الحادث الذي أودى بحياته. وأسفرت المضاهاة عن أن بصمة ولتر وهو في عالم الروح كبصمته وهو في عالم المادة.



ش (٣) بصمة ابهام الروح ولتر

نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وأراد أن يقطع الطريق على أولئك الذين يحترفون الشك والتشكيك، وهم الذين يشكون حتى في أنهم شاكون، فطبع يديه المتجسدتين في الشمع مظهراً بصمات أصابعه كلها

وتعاريج الـكفين . ومع ذلك رأى دعاة الشك والتشكيك هؤلاء أن يجرحوا هذا أيضاً ، متجاهلين قيمة هذه التجربة مع أن مجرد حدوثها مع الرقابة الشديدة المفروضة أمر معجز في ذاته ، فلم يقولوا إن البصمات قد أعطيت بشكل خارق ، بل قالوا في جرأة غريبة إن البصمة ليست برهاناً قاطعاً على تحقيق الشخصية !! ولو كان صدقاً ذلك الذي يقولونه لـكان معناه إنتهاء أمر بصمات الأصابع كوسيلة من وسائل تحقيق شخصية الجناة والمجرمين .

ورأى ولتر أن يرد على ذلك بتجربة أخرى حاسمة ساخرة . ذلك أنه لما توفيت في بافلو من تدعى فرانسس جراي Frances Gray إحدى قريبات مرجري ، في ليلة انعقدت فيها إحدى الجلسات ، جاء ولتر بروح هذه المتوفاة دون علم أحد من الحاضرين حتى بحدوث الوفاة ، وساعد على أخذ بصمتي ابهاميها الأيمن والأيسر . وما كاد ولتر ينتهي من ذلك حتى أخبر الحاضرين بالأمر ، فقام الدكتور كراندون على الفور واتصل تليفونياً بزوج تلك السيدة المتوفاة حديثاً ، وأخبره بما حدث في الجلسة ، وسأله أن يأخذ بصمتي ابهامي الجثة الأيمن والأيسر . وحينما ضاهى الخبراء بصمات الجثة ببصمات الروح في حجرة التحضير أعلنوا أنها متطابقة .

وثمة اختبار آخر من نوع آخر ، وكان اختباراً رائعاً . ذلك أن القاضي ستانتون هل Judge Stanton Hill الأمريكي كان من أعضاء تلك الدائرة الروحية . فلما رأى كثرة اللجاج والحجاج حول البصمات قام وسجل بصمته وهو على قيد الحياة ، وطلب أن تحفظ في سجل الى بعد مماته . وكان ذلك في سنة ١٩٢٧ . ثم دار الفلك دورته وتوفي القاضي هل بعد ذلك بثلاث سنين ، وجلسات مرجري تنعقد في مواعيدها . فلما مضت على وفاته ستة أسابيع حضر وهو روح متجسد في إحدى تلك الجلسات ، وعرّف الحاضرين بنفسه معلناً أنه جاء لـكي يبرّ بوعده ، وطلب أن تؤخذ بصمته وهو روح . وفعلاً أخذت البصمة الجديدة وضوهيت بالبصمة المحفوظة فاذا البصمتان سواء !

ولما كانت هذه البصمات نوعاً جديداً ومدهشاً من براهين اثبات الحياة بعد الموت فقد هوجمت من مناهضي الروحية مهاجمة عنيفة ووضيعة في آن واحد . ورأت جمعية البحوث الروحية الامريكية أن تفحص الامر ، واستخدمت لذلك رجلاً يدعى ددلي E. E. Dudley كان ملحقاً بخدمة الدكتور كراندون في المنزل ، طالبـة اليه أن يساعد في إعداد المواد اللازمة

للجلسات . وفجأة أصدر هذا الرجل كتيباً صغيراً يقول فيه إن بصمة الابهام الأيمن لولتر تضاهي بصمة الابهام الأيمن لطبيب الأسنان الذي يعالج أسنان مرجري وأحدث هذا الكتيب بطبيعة الحال ضجة ، وسر مناهضو الروحية لذلك وتصايحوا ، وراحوا مقدماً وسلفاً ينعقون كالبوم والغربان .

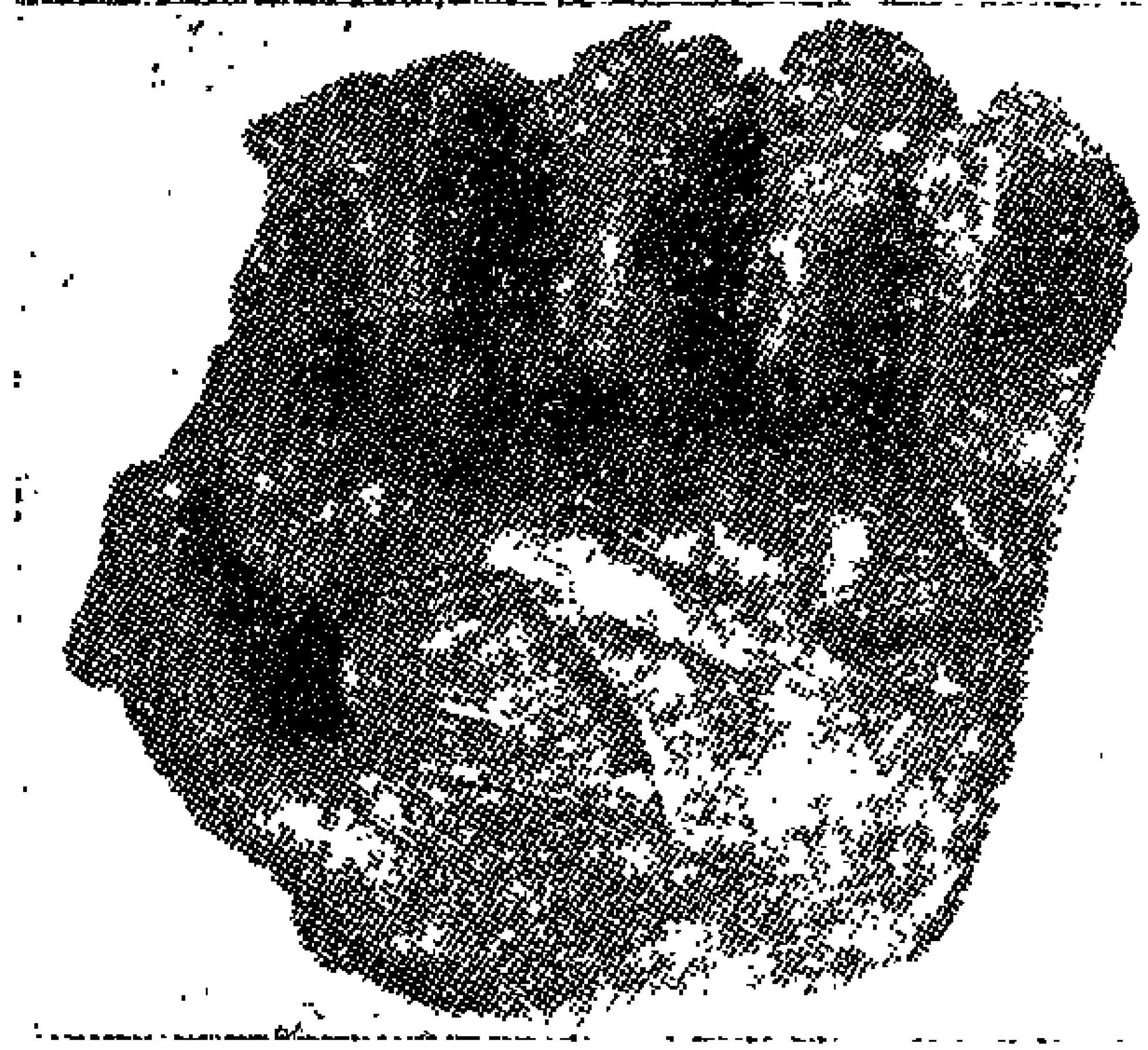


ش (٤) مرجري واقعة في الغيبوبة وقد أمسك بيديها اثنان وترى أمامها يداً متجسدة للروح ولتر

نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »

وازاء ذلك قررت جمعية البحوث الروحية الأمريكية أن تقوم بفحص شامل المسألة وانتهى فحصها إلى أن بصمة ابهام يمنى ولتر التي اتخذها ددلي أساساً لدعواه الكاذبة موجبة لاصالية كما قال . ومعنى هذا أن بصمة ابهام ولتر لا يمكن أن تكون مطابقة لبصمة ابهام طبيب الأسنان . ولكن ددلي الكاذب المكدود لم يقف عند ذلك بل عاد يؤكد من جديد أن هناك شبهاً بين ابهام يد ولتر اليسرى وابهام يد الطبيب اليسرى . وأثبت الفحص مرة أخرى كذب هذا الادعاء ، لأن بصمة ابهام اليد اليسرى — وهي البصمة التي اتخذها ددلي وسيلة لتدعيم دعواه — كانت فذة لا مثيل لها بين مجموعة البصمات كلها التي طبعها ولتر . وليس من بين بصمات ابهام يسراه المحفوظة عند جمعية البحوث الروحية الأمريكية مايضاهي تلك البصمة المزعومة — وعلى ذلك قررت جمعية البحوث أن دعاوى ددلي «ما زالت معروضة

للفحص والدرس » . وعادت الجمعية فأعادت النظر في كل أعمال ددلي هذا التي كان أجراها لانه أخطأ خطأ كبيراً وخطيراً في العمل الذي وكل اليه القيام به .



ش (٥) بصمة يد الروح ولتر

عن مجلة « سايكك نيوز »

ولما سئل ولتر عن رأيه في كل ذلك الذي زعموه قال انه زعم فاسد مضحك لانه لا تطابق البتة بين بصمتي ابهاميه وبصمتي ابهامي طبيب الاسنان . وبعد ذلك أخذت بصمات كاملة بالمداد وبالشمع للطبيب ، وطلب الى ولتر أن يعطي بصمات كاملة ليديه الاثنتين في الشمع لاجراء مضاهاة . وفيما يلي بعض ما قالته جمعية البحوث الروحية الامريكية في تقريرها عن هذه المسألة . قالت : —

« في سلسلة جلسات تعد من أهم الجلسات التي عرفت في البحث الروحي أظهر ولتر في شمع أعدّه له البحّاث عدداً كبيراً من بصمات كاملة أو جزئيــة لــكل من يديه اليمنى واليسرى » .

ـ ومضى التقرير يقول انه قد تمّ تسجيل هذه البصمات بحضور اثنين من كبار رجالات العلوم وخبير في البصمات ، وكانت بصمات ولتر التي حصلوا عليها إذ ذاك مضاهيــة لنفس البصمات التي اعتاد طبعها في مختلف الجلسات السابقــة . وكانت في الوقت ذاته مخالفة تماماً لبصمات طبيب الاسنان .

وبذلك انتهت تلك التهمــة التي جرت وراءها خيراً ، وأظهرت ما يمكن أن يواجه الوسطاء ويعترض سبيلهم ، ودلت على أنه كلما كان عملهم الوساطي أكثر اتقاناً واكمالاً كانت المعركة في سبيل الدفاع عنه أقسى وأعنف . وبالطبع لو كانت مزاعم ددلي تحققت لانهارت تجارب البصمات كلها ، ويكون باطلاً ذلك العمل المضني الذي قام به رجال تحقيق الشخصية في غير بلد بصدد بصمات ولتر ، وذلك لأن رجلاً ماجناً أو مأجوراً أعدّ كتيباً صغيراً حاول فيه — عن سوء قصد — أن يثبت أن بصمات الأصابع التي سجلهـا روح بالوسائل الروحية تطابق بصمات رجل له معرفة بالوسيطة وزوجها ، أو لأنها من زبائنه وعملائه باعتباره طبيب أسنان !

٤ — تحقيق عالم علمي

من البحّــاث المحترمين الذين قصدوا منزل الدكتور كراندون لفحص وساطة مرجري العلامة الدكتور روبين جون تليارد Dr. Robin John Tillyard كبير العلماء الحشريين في الحكومة الاسترالية . وقد أراد أن يعقد بمفرده جلسة مع مرجري ، وكان في طلبــه هذا شيء من الشذوذ وعدم اللياقة . ولـكن اجابةً لرغبة سير أوليفر لودج Sir Oliver Lodge وكان من المعجبين بأعمال مرجري ومسلك زوجها الدكتور كراندون سمحت بعقد جلسة انفرادية مع الدكتور تليارد . وفيما يلي الخطاب الذي كتبه سير أوليفر لودج الى الدكتور كراندون في هــذا الصدد حينما سأله الدكتور تليارد التوسط لـكي يجاب طلبه : —

«إن تليارد يرى أن السماح له بجلسة انفرادية يعقدها مع مرجري في حجرة يعدها هو بنفسه يقلل من فرص اتهامه بالتآمر والتحالف ، وهو يظن أنه لو حصل على نتائج إيجابية تحت هذه الشروط فان المتشككين لن يستطيعوا اتهامه بالتآمر ، لأن ذلك سيكون اتهاماً سخيفاً نظراً لمركز الرجل باعتباره من رجال العلوم » .

ووافق الدكتور كراندون على ذلك ، وعقدت الجلسة في منزل طبيب لا يمت بصلة لدائرة كراندون الروحية . وأخذ تليارد على عاتقــه فحص الملابس التي ارتدتها مرجري أثناء عقد الجلسة ، وقام فعلاً بفحصها فحصاً دقيقاً ، كما فحص كذلك كل الأدوات الخاصة بأخذ بصمات

الابهام . وجهز بنفسه الشمع الذي يستعمل في هذا الغرض بعد أن ميزه بعلامة خاصة . ثم أجلس مرجري فوق كرسي وشدّ وثاقها وربط ساعديها وراحتيها العاريتين بذراعي الكرسي ، ثم أحاط راحتيها بعد ذلك بأشرطة لصق ، كما ربط ساقيها وقدميها بقوائم الكرسي . وبعد أن حزمها بهذه الكيفية خطط حول الاربطة بقلم أزرق حتى إذا ما حركت الوسيطة يديها أو قدميها خلال الجلسة فضحها بسهولة تغير مواضع الأربطة وعدم انطباقها على التخطيطات الزرقاء .

وعلى هذا النمط عقد تليارد جلسته الانفرادية مع مرجري ، وحصل على ثلاث بصمات لروح ولتر ، وبلغ من تأثره واقتناعه بصدق تجربيه أن كتب لسير أوليفر لودج بعد انتهاء الجلسة ببضع ساعات خطاباً قال فيه : —

« لقد كانت تلك الجلسة في نظري أعجب جلسة حضرتها . وأظن أن الترتيبات التي اتبعناها كانت قاسية من الوجهة العلمية ، ولكنها في الوقت ذاته سجلت أعجب النتائج في تاريخ البحث الروحي كله . ويخيل اليَّ أنه يستحيل قطعاً أن يؤخذ على هذه النتيجة العجيبة أي ثلم أو نقص . ولقد كانت هذه الجلسة بالنسبة اليَّ الغاية القصوى في بحوثي الروحية كلها . وأستطيع الآن أن أقرّر أنه لم يبق بعد ذلك زيادة لمستزيد ، ومن ثمّ سأعود الى استئناف عملي الأصلي في علم الحشرات » .

وكان طبيعيًّا بعد أن أجرى هذا العالم الباحث تلك التجربة العلمية العظيمة الناجحة أن تتوق نفسه لاخبار اخوانه العلماء بما وفق إليه من كشف . ولهذا كتب الى مجلة « نايتشر Nature » العلمية بياناً مفصلاً لما تمّ في جلسته الانفرادية تلك مع مرجري ، وما تمَّ كذلك في جلستين أخريين . وقد كان هذا منه أكبر عطاء يتقدم به للعلم ، سالكاً نفس الطريق الذي سلكه من قبل كروكس Crookes ورسل ولاس A. R. Wallace ولودج وجمهرة كبرى من البحّاث غير هؤلاء . ولكن مجلة «نايتشر» أبت أن تنشر رسالة تليارد أو أن تشير اليها بكلمة . وبعد ذلك بعامين كتب مقالاً آخر نشرته له هذه المجلة في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ ، وكان هذا المقال آخر ما كتبه فى الموضوع ، وقد قال فيه :

« نتيجة لتجارب أخرى أجريت مع وسيطة بوسطن الشهيرة مسز كراندون (مرجري) أقرّ أن برهاناً علميًّا على الحياة بعد الموت قد أمكن الحصول عليه أخيراً » .

وفي شرح برهانه هذا بالتفصيل قال :

« ان فرص الغش والتدليس قد استبعدت بطريقتين : أولاها فرض الرقابة التي تستدعيها طبيعة كل تجربة وذلك لتجنب تهمة الغش الصريح ، والثانيـة ابتكار تجارب هي في صميم طبيعتها إما أن تكون مستحيلة على الآدميين الذين على قيد الحيـاة ، وإما أن تكون قد تقرّرت استحالتها إذا اتبعت في اجرائها الوسائل المتعارفة . وقد أمكن اعادة اجراء هـذه التجارب الفينة بعـد الفينة ، وكانت النتائج واحـدة وانحصر ما أمكن الحصـول عليه من البراهين الرئيسية الدالة على بقاء الشخصية بعد الموت في الظواهر التي يستحيـل على بني الانسان الأحياء احداثها بالطرق المتعارفة ، سواء أ كانت عقلية أم جسمانية .

« وقد ثبت أن شخصيـة ولتر مستقلة عن شخصية الوسيطة ، وذلك لأن ولتر استطاع في لجمة الظلام أن يتناول سلماً دقيقة ، وأن يضعها في أماكن دون أن يصيبها أي تلف . بل استطاع كذلك أن يعرف ويختار أموراً لا يعرف شيئاً عنها أي شخص في الوجود ، فبرهن بذلك على أنه لم يعتمد على التلبثي أو ما يكون مخزوناً من المعارف فيما يسمونه العقل الباطن لأي انسان . وأخيراً استطاع أن يحدث في الظلام بصمات لابهامه في الشمع بأسرع مما يستطيعه رجل عادي في بهرة الضوء » .

وكانت كلماته الأخيرة في هذا الصدد : —

« رأيي الأخير هو أن ولتر ستنسون الذي توفى سنة ١٩١٢ قد أثبت بطريقـة علمية اثباتاً تامًّـا دعواه أن شخصيته باقية حيَّـة بعد موته الجسماني » .

ومن هذا يتضح أن تليارد قد تكلم في صراحة العـالم الصادق الواثق في بحثه وتقصيه الحقائق العلميـة التجريبية . وقد علقت « نايتشر » في مقالها الرئيسي في ذلك العدد الذي نشرت فيه مقال تليارد قالت : « إننا نحن أنفسنا نحتفظ بعقل مفتوح إزاء كل ما يعمل في سبيل تقدم العلم والمعرفة ، والوصول الى الحقيقة في جميع مناطق النشاط الذهني » .

ثم قالت في نهاية مقالها ذاك : « ونحن وان كنا لا نقول ان تليارد قد صنع شيئاً كان

يجب على الرجل العلمي أن لا يصنعه ، إلاّ أننا نقول إنه إذا ثبت مرة أن روحاً يستطيع أن يبني من الاكتوبلازم حنجرة وتجويفاً حنكيّـاً ، وأنه يستطيع أن يدفع بالهواء خلالها ليحدث صوتاً وكلاماً بمثل هذه الوسائل فإنه يكون من السهل قبول معظم الظواهر المخالفة للمألوف التي وجه إليها تليارد انتباهه » .

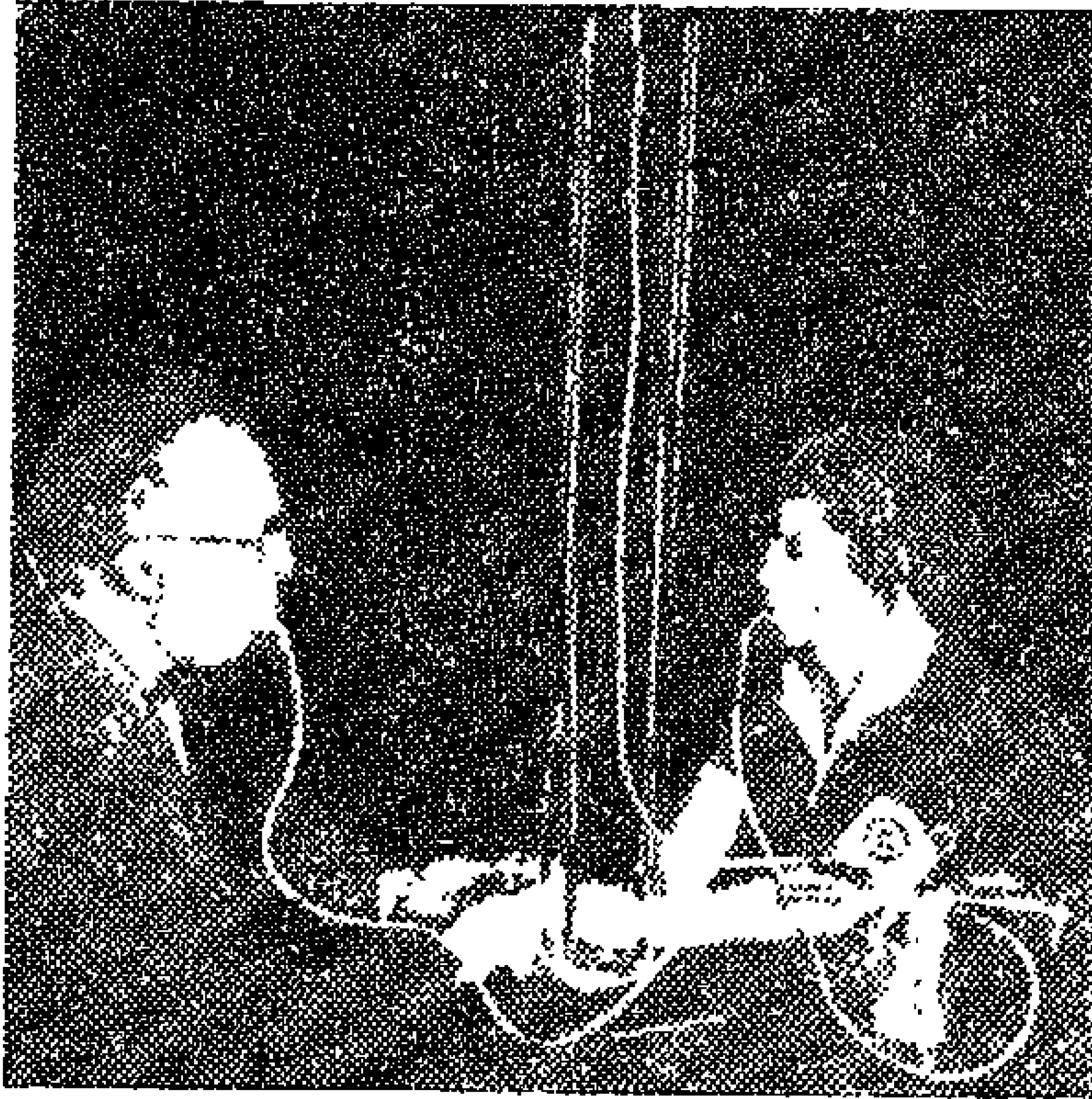
ترى ألم يبلغ « نايتشر » بعد أن تليارد وكثيرين غيره قد أثبتوا ذلك ؟ لقـد بلغها دون شك لأن ظاهرة « الصوت المباشر » أصبحت كثيرة الشيوع حتى لقد قال البـاحث الروحي دنيس برادلي Dennis Bradley في كتابه النفيس « حكمة الآلهة » : « ان التواصل مع الأرواح بأصواتها المباشرة في هـذا القرن سيكون في بساطة التواصل بالتليفون أو اللاسلـكي » .

٥ — الصوت المباشر

بعد أن مضى على تدريب مرجري على الغيبوبة وتفوهاتها ما يقرب من شهرين سمع في ركن الحجرة البعيد عن مكان جلوسها صوت خافت مستمر كالبسبسة ، ثم جعل هذا الصوت يتزايد في الجلسات المتتالية حتى أصبح قريباً من الهمس ، واشتدّ هـذا الهمس بحيث خيل لمستمعيه كأنما هو خارج من حلق رجل . ورأى كل من الدكتور كومستوك Dr.Comstock والدكتور كارنجتون Dr. Carrington وملـكولم بيرد Malcolm Bird ، وهم من أعضاء لجنة مجلة سينتفك أمريكان Scientific American ، لفحص وساطة مرجري ، أن يضع يده فوق فم الوسيطة على التناوب في جلسات متعددة ، فلم يحل ذلك دون حدوث الهمس واضحاً . وكتبوا اشهاداً بذلك . ورأى المجرّبون المتحذلقون أن يملأوا فم الوسيطة ماء . فلم يحل هـذا الاجراء كذلك دون حدوث الصوت نفسه . وجرّبوا ذلك مرات ، وفي كل مرة كانت الوسيطة في نهاية الجلسة تنفث الماء من فمها الممتلىء به ، وما كان هـذا ليجيء من معدة الوسيطة فيما نظن . . . .

ولـكن قطعاً لـكل شك رأى الدكتور مارك رتشارد سن Dr. Mark Richardson أن يبتكر جهازاً لمنع الوسيطة من الـكلام خلال حدوث ظاهرة الصوت المباشر من جانب الروح ولتر . ويتألف جهـاز منع الـكلام هذا كما في الشكل من أنبوبة ذات شعبتين في كل

شعبة طوف مضيء يطفو على سطح السائل الموجود في الشعبة . وتجلس الوسيطة ومعها مختبر واحد فقط ، وكلاهما ينفخ لكي يجعل طولي عمودي السائل في الشعبتين غير متساويين فيكون سطحا السائل في الشعبتين غير متعادلين أي في مستويين لا في مستو واحد. وللحصول على ذلك يجب أن توضع الفوهة الزجاجية لكل من الأنبوبتين بين الاسنان ، ويجب أن تغطى فيها ثلاثة ثقوب بالشفتين واللسان معاً . وبذلك لا تستطيع الوسيطة أن تتكلم أو تصفر مثلاً ، لأنه إذا حدث ذلك انقطع النفخ وتعادل سطحا السائل ، وظهر الطوفان المضيئان في مستو واحد . ومع ذلك حدث أن تكلم والتر بصوته المباشر ، ثم انطلق صفيره في الهواء . وقد تم هذا في كل مكان عقدت فيه مرجري جلسة . وقد أثبت استخدام هذا الجهاز البسيط أنه لا دخل البتة لفم الوسيطة في احداث الصوت .



شكل (٦) — جهاز منع الكلام
تنفخ مرجري في إحدى شعبتيه وينفخ الدكتور رتشاردصن في الشعبة الأخرى
(عن كتاب « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة » وقد أصدرته جامعة كلارك)

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الدكتور رتشاردصن رأى أن يجري تجربته الاولى بهذا الجهاز في غير منزل مرجري ، ولم يسمح لاحد بحضورها . وقد أصرَّ على أن يجريها بمفرده مع مرجري . وأسفرت تجربته الأولى تلك عن نجاح باهر ، وأثبتت له أن الصوت لم يصدر عن جسم مرجري ، وانه مستقل عن كل ما يتعلق بالجانب التشريحي والفسيولوجي لجسمها ، وان يكن وجودها أثناء التجربة ضروريًّا .

ولـكي يحدث هذا الصوت كان لا بدّ من حدوث تجسد من نوع ما . وانتهز ولتر الفرصة المناسبة لـكي يرى الحاضرين جهازه الصوتي هذا . وفعلاً أراهم اياه ، وسمح لهم بتصويره بالفوتوغرافيا . وقال ولتر انه في حالة اجراء تجربة الصوت مع وضع اليد فوق فم الوسيطة وأنفها لا بدّ له من وصل جهازه الصوتي هذا بأي جزء آخر من جسم الوسيطة ، وأضاف أن ذلك يستنفد منه مجهوداً كبيراً يمنعه من احداث ظواهر أخرى في نفس الجلسة . وما جهاز ولتر الصوتي هذا الا صندوق رنان أو ميكروفون من الاكتوبلازم المنبثق من جسم الوسيطة ، وقد ظهر في الصورة الفوتوغرافية فوق كتفها الأيسر ، موصولاً بأنفها بأنبوبة اكتوبلازمية .



شكل (٧) جهاز ولتر الصوتي

عن كتاب « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة »



شكل (٨) جهاز ولتر الصوتي

عن « موسوعة العلم الروحي »

أخذت الصورتان في جلستين مختلفتين

واخترع ثوروجود B. K. Thorogood جهازاً أدق وأحكم من جهاز رتشاردصن، وهذا الجهاز يتألف من صندوق مكعب الشكل صنع بحيث لا ينفذ الصوت إلى داخله ، وقد صيغت جدرانه لهذا الغرض من سبع مواد مختلفة . ووضع بداخل ذلك الصندوق ميكروفون دقيق وحسّاس جداً يتصل بسلكين خارجين من الصندوق ، ويتصلان بمكبر صوتي موضوع في حجرة أخرى بعيدة عن حجرة الجلسة . ووضع الصندوق في حجرة التحضير بعد أن أحكم

اغلاقه بالاقفال . وبدأت الجلسة . وبينما كان الجالسون لا يسمعون شيئاً في الحجرة لعلع صوت ولتر خارجاً من مكبر الصوت البعيد ، مثبتاً أنه لا بدَّ أن يكون قد وصل أولاً إلى ذلك الميكروفون الموضوع في الصندوق الذي لا ينفذ الصوت . وبذلك أمكن اثبات استقلال صوت ولتر اثباتاً تامًّا .

٦ — ظواهر أخرى تنفسية

لم تقتصر تجارب الدكتور رتشاردصن على الصوت فقط بل انه أجرى تجارب تنفسية أخرى ، فجاء بزجاجة ملئت لنصفها بماء الباريتا ، وجهزها بأنبوبة للنفخ ، ووضع الزجاجة بما فيها فوق رف على بعد ثلاثين بوصة من فم الوسيطة ، فلم يكن ميسوراً من ثمَّ لها أن تنفخ فيها بفمها . وبدأ ولتر ينفخ فسمع صوت الفقاقيع في ماء الباريتا . ويلاحظ أن ذلك حدث وفم الوسيطة مشغول بالنفخ في جهاز الدكتور رتشاردصن سالف الذكر ، فهي من ثمَّ لم تكن تستطيع الكلام ولا النفخ في ماء الباريتا . وقد تكون راسب أبيض هو كربونات الباريوم كما هو معروف لمرور غاز الكربونيك الخارج من رئة الروح المتجسد الى محلول الباريتا .

وأعيدت التجربة مع عدم استخدام جهاز منع الكلام اكتفاءً بوضع اليد فوق فم الوسيطة وأنفها وقد أجرى الدكتور رتشاردصن هذه التجربة بنفسه ولم يكن معه أحد وقت اجرائها . ووصل إلى نفس النتيجة .

ورأى ولتر أن يزيد في حيرة مختبريه ، فقال لهم ذات يوم إن أحد زملائه الأرواح واسمه مارك Mark سينفخ في ماء الباريتا فيسمعهم صوت الفقاقيع ولكن دون أن يتكوّن راسب . وتمت فعلاً هذه التجربة ، وفي نفس الوقت كانت مرجري تنفخ في جهاز الدكتور رتشاردصن ، وكان ولتر يتكلم ، وكان صوت الفقاقيع ظاهراً مسموعاً . ودلّ الفحص بعد ذلك على عدم تكوّن راسب في الزجاجة . ولما نفخ الدكتور رتشاردصن في زجاجة الباريتا ظهر الراسب الأبيض العادي ، فدلّ هذا على أن غازاً آخر غير غاز الكربونيك هو الذي مرّ خلال الزجاجة في تلك التجربة ، وأنه هو الذي أحدث تلك الفقاقيع التي كان لها صوت مسموع .

٧ – تسجيل صوت الروح ولتر واذاعته باللاسلكي

كان ولتر « الميت » شقيق مرجري أوّل روح يذاع له صوت على موجات الأثير ، وفيما يلي نص الرسالة التي أذاعها ذلك الروح : —

« يا أصدقائي ! لقد جئت اليكم اجابةً لرغبة بعض زملائي في عالم الروح لأسمعكم صوت رجل « ميت » .

« لقد كان يظن منذ سنين أن الوسيلة التي استخدمها في الكلام أماهي من عمل الشيطان وكان الوسطاء يقتلون ويحرقون . ولكنكم أنتم سرتم في مدارج التقدم فارتقيتم .

« عودوا إلى الاصحاح الأول من سفر أرميا ورددوا الآية التاسعة عشر : فيحاربونك ولا يقدرون عليك .

« ان كثيرين ممن يحضرون جلساتنا منكم يأخذون علينا أننا لا نجيء لكم من العالم الثاني بما هو ألزم لكم في حياتكم الحاضرة ولكنكم في الواقع تعرفون كل الأمور التي.... التي يجب أن تعرفوها . انكم لتعرفون تلك الأمور التي تجعل الحياة أكمل وأوفق وأحسن .

« ألا فاعلموا أن خير أمور الحياة أبسطها وأيسرها — ألا فأحبوا وعظموا كل ما يؤلف بين بني الانسان ويوفق بينهم » .

تلك كانت الرسالة التي أذاعها الروح ولتر بالراديو بعد أن سجلت كالمعتاد كما تسجل الاصوات في استوديوات التسجيل الصوتي . وقد نشرت صحيفة « بوسطن هرالد Boston Herald » إذ ذاك تفاصيل ذلك في مقال لمكاتب لها حضر التجربة من أولها الى آخرها وقد جعل عنوان مقاله « صوت روح في الراديو » . وفيما يلي نص هذا المقال : —

« لقد سجل صوت ولتر في ستوديوات هارلان. ف. هاسي Harlan F. Hussey الخاصة بتسجيل الصوت خلال جلسة عقدت لذلك الغرض . وكنت أصغي لبعض الاسطوانات التي سجلها هذا المحل ، فإذا بهاسي نفسه يقول لي ، وقد تناول اسطوانة جديدة من درج الاسطوانات : « قد تكون سمعت هذه الاسطوانات جميعها ، أما هذه فانك لم تسمعها من قبل » . ومضى يقص عليّ حكاية تسجيله صوت روح رجل ميت .

« قال ان شخصاً يدعى ددلي يمثل آل كراندون قد جاءه يوماً وأدلى اليـه بوصف دقيق لما تمّ من أحداث هناك ، ولما يمكن أن يعمله . واقترح عليـه أن يحضر إحدى الجلسات . وفعلاً ذهب هاسي ومعه ابنته اديث Edith ليفحصا هذا الموضوع الغريب المقترح . وقال هاسي انه كان متردّداً بعض الشيء ، ولـكنه لما قابل الدكتور كراندون والسيدة زوجته أنس بهما ، وسره استقبالها إياه وهدأت نفسه اليهما .

« وصعد هو وابنته الى حجرة التحضير في الدور العلوي ، وهناك عقدت جلسة كان عدد الحاضرين فيها ستّـاً فقط ، هو وابنته والدكتور كراندون وزوجتـه مرجري ومستر ددلي ذاك وأحد أساتذة هارفارد ، وقد نسي اسمه . وجلسوا كلهم سكوتاً في دائرة حول مائدة وفي ضوء ضعيف .

« وسرعان ما سمعوا صفيراً شديداً تلاه صوت الدكتور كراندون يقول : هالو ولتر هل أنت هنا ؟ فأجابه صوت خارج من حنجرة انسان قائلاً « نعم » . وبعدئذٍ تكلم الدكتور كراندون بشكل عادي قال « إننا يا ولتر سنسجل صوتك »وشرح له كيف سيتم هذا التسجيل

« وبعد ذلك قال هاسي انهم اتفقوا على أن تعقد في ستوديو التسجيـل ثلاث جلسات لهذا الغرض .

« وأعدّ هاسي حجرة صغيرة لـكي تعقد فيها الجلسات ، وأعدّ جهاز التسجيل في حجرة أخرى كبيرة ، وثبت الميكروفون في الحجرة الصغيرة حيث تعقد الجلسات . ولم تـكن نتيجة التسجيل في الجلسة الاولى ملائمة ، فان الصوت لم يكن واضحاً باطراد ، وحدثت فترات صمت طويلة بين الجمـل . وبدأ ولتر التسجيل الاول بالصفير ثم قال « وهل يصح أن ينسى الصحب والمعارف القدماء ؟ » وقد كان صوته عالياً وواضحاً . وأخيراً مضى يتكلم في الروحية . وقرأ بعض المقطوعات الشعرية ، وقد سجلت كلها . ولم يتم تسجيل الرسالة إلاّ في الجلسة الثالثة ، وأجرى التسجيل في ضوء أحمر ضئيل . . .

« وحدث في الجلسـة الأخيرة حادث كان له تأثير عميق في نفوس أولئك الذين كانوا جالسين في الحجرة الخارجيـة . وهناك كان هاسي وابنته إديث وأحد الضيوف . وحينما أعدت العدّة للبدء في التسجيل وقف هاسي بالقرب من الباب ليتلقى إشارة البدء من أولئك

الموجودين في الداخل . فدفع الفضول بابنته وبالضيف أن يقتربا من باب حجرة التحضير وكان مغطّى من الداخل بستارة سميكة من القطيفة . وكان يوجد في الحجرة الخارجية بيانو ، وكان الاتفاق تمّ على أن مس هاسي تعرف عليه متمشية مع صغير ولتر . فحينما تمت الإستعدادات كلها لعلع صوت ولتر قائلاً : (حسن يافتاتي الصغيرة . اتركي الباب وخذي مكانك عند البيانو فإني على تمام الاستعداد) .

« ويقول هاسي انه لم يكن ميسوراً لأحد داخل حجرة التحضير أن يرى أين كانت هذه الفتاة واقفة » .

وإلى هنا ينتهي مقال « بوسطن هرالد » .

٨ — الوساطة العقلية

. أنظر أيّان شئت إلى أية ناحية من نواحي وساطة مرجري تجد بينات متنوعة من تلك التي يكثر من السؤال عنها مستريبو الروحية ومناهضوها الذين لا يشبعون من البراهين . وقد كان هؤلاء اذا ما حدثت ظاهرة مادية ملموسة جديدة يزدادون تعسفاً في التأويل ، ويعدّون أنفسهم لتعليلات باطلة سخيفة ، فاذا ما باءوا بالخذلان طالبوا ببعض الظواهر ذات الطابع العقلي ، وهي ظواهر خلاّبة لم تستطع ماديتهم تفسيرها . فاذا ما تمّ حدوث هذه الظواهر عادوا فطالبوا بالظواهر المادية . ولقد رأينا مثلاً لتلك الظواهر المادية التي استطاع إجراءها ولتر ومرجري . وفيما يلي نماذج من الوساطة العقلية : —

(١) في إحدى الجلسات التي انعقدت في عشة الوسيطة في بوينت شيرلي Point Shirley بالقرب من بوسطن قال ولتر إنه سيجري تجربة جديدة ، وسأل كابتن جون . و . فايف Capt John. W. Fief أن ينتخب ستة أشخاص ويطلب إليهم أن يتفقوا فيما بينهم وهم جلوس في الساعة السابعة من الليلة التالية على كلمة أو سلعة يختارونها . وسيحاول ولتر أن يعطي هذه الكلمة أو إسم السلعة لمرجري ولوسيطة أخرى هي ساري ليتزلمان Sary Litzelman فقال فايف إنه سيكون على سفر هو وأسرته خلال نيو هامبشير New Hampshire وهو لا يعرف أين سيكون في الساعة السابعة . على أنه وعد أن يتفق مع جماعة من إخوانه على

كلمة يختارونها، وأن يمهروا بامضاءاتهم بيانا يوضحون به ما تمّ الاتفاق عليه . وقال فايف إنه سيتصل تليفونيًا بمخازن التاجر فرنش French في رويالستون Royalston التي تبعد عن بوسطن سبعين ميلاً ، وسيدلي الى مدير تلك المخازن بالكلمة المختارة . ومن ثم كان لا بدّ أن يكلف شخص مختار بالذهاب الى ذلك المحل لـكي يضاهي الرسالة بما سيتلقونه من مرجري .

وفي اليوم التالي قصد إلى منزل الوسيطة الريفي كل من مرجري وموريس باربانل Maurice Barbanell محرر « سايكك نيوز Psychic News» والسيدة زوجته ووليم هـ. باطون William H. Button رئيس جمعية البحوث الروحية الأمريكية ، وكان المسكن يتألف من مجموعة كابينات أقيمت في الغابة على بعد ميل من رويا لستون . وكانت تقيم هناك ساري ليتزلمان وزوجها . وقد اختير مخزن فرنش مكانا لتلقي الرسالة لأنه بالنسبة لكابينات مرجري أقرب مكان يوجد فيه تليفون . وسئل مدير المحل أن يستعد لتلقي الرسالة بالتليفون في الساعة السابعة مساء . وقبيل السابعة بعشر دقائق جلست مرجري في إحدى الـكابينات ، وجلست الوسيطة ساري ليتزلمان في أخرى . وجلس مع مرجري باطون وباربانل وخادم مرجري الياباني ، وفيما هم جلوس كتبت مرجري الـكلمتين "water melon" أي « بطيخ » . وجلست مسز باربانل في الـكابينة الأخرى حيث جلست ساري ليتزلمان فـكتبت هذه نفس الـكلمتين . وخلال اجراء هذه التجربة وقف الخـادم الياباني يداعب كلب مرجري ، فجعل ينبح ، وطلبت مرجري الى خادمها اسكاته . ومع ذلك فان هذا الاضطراب الحادث من النباح لم يؤثر البتة في تلقي الـكلمتين .

وانتقل باربانل بعد ذلك الى مخازن فرنش وهناك تلقى من مدير المحل ، وهو رجل يدعى ولـكوكس Wilcox الرسالة التي سبق أن تلقاها ولـكوكس هذا قبل ذلك ببضع دقائق ودوّنها . فلما فتح المظروف المختوم كانت الرسالة المـكتوبة فوق قطعة من الورق بداخله هي "water melon" أي « بطيخ » . وشهد بذلك كتابةً كل من اشترك في هذا الاختبار .

هذه التجربة مدهشة ومقنعة معاً ، وهي على أقل تقدير تجربة فذّة على ظاهرة التلبثي التي هي في الواقع برهان على وجود الروح مهما تعسفنا في تأويلها . والواقع أن جميع الحالات البارزة التي من هذا الطراز تتبع نوعًا من الظواهر أحكم وضعه أولئك المقيمون في الجانب

غير المنظور ، يريدون به لفت الأنظار والأذهان الى المدى الواسع الفسيح لتلك القوى التي تتكشف لنا وتظهر حين نطرح عنا ظهريًّا ذلك التشبث أو التنطع العلمي . ولا حاجة بنا الى القول بأن الأرواح الحارسة المرشدة للوسطاء تساهم بقسط كبير في هذه الاختبارات . وقد دلت التجارب على أنه حين يحاول بعضهم اجراء هذه التجربة ، دون تلقي مساعدة من جانب الأرواح ، فانهم لا يصلون الى نفس النتائج الدقيقة إلاّ ان كانوا قادرين على طرح أرواحهم من أجسادهم طرحاً واعياً . وقد يستطيع الواحد منهم أن يلتقط كلمة مثلاً أو رسالة بأكملها ، ولكنا في وضعنا الحالي ، دون أن نكون خارج أجسادنا ناظرين في وقت واحد الى كل من جانبي الستار ، لا نستطيع أن نعين القدر الذي قامت به روح الوسيط — أو قواه الروحية ان راق هذا التعبير — وحدها دون مساعدة ومقدار المساعدة التي قام بها الروح المرشد المهيمن على الوسيط .

وتقول مرجري إنها في مثل هذه الحالة لم تعد أنها كانت آلة استخدمها ولتر بعد أن هيمن على يدها وكتب بها . وتقول زميلتها ساري ليتزلمان في وصفها الدور الذي قامت به في مثل هذه الحالة إن الروح المرشد لها أو المهيمن عليها ، واسمه شارلز Charles قد نقل رسالة ولتر وكأنما انعكست كتابته فوق مرآة . وقد صدقت مرجري وصدقت ساري فيما قالتا . والواقع أن الإختبارات التي أجريت فيما يسمى « الادراك الحسي الزائد Extra Sensory Perception ليست إلاّ اختبارات بدائية وفجة إذا هي قورنت بالاختبارات الأخرى الأرقى التي تمت على أيدي الوسطاء الموهوبين حين يعاونهم في العمل أرواح مرشدة . ويصعب العمل على الوسيط إذا انفرد به دون معاونة روح مرشد ، فبدلاً من أن يطرح الوسيط روحه لينقب ويبحث ويتقصى يذهب الروح المرشد ويرى ما هو جارٍ ثم يعود إلى وسيطه ويتحدث خلاله عما رأى . فالمسألة بسيطة كما ترى مهما كانت العمليات الخاصة بجمع المعلومات ثم الإدلاء بها . هي في الواقع مجرد امتداد للوسيلة العادية الخاصة بالتقصي والبحث : وما نعمله نحن في هذا الصدد يعمله أولئك المقيمون في الجانب الآخر بعد أن تحرروا من ذلك الجسد المادي الذي يعوقنا ويحد من مدى عملنا .

(٢) وفيما يلي مثل يبين ما يقوله بعضهم من أن الوسطاء يتخذون من تجارب

«الادراك الحسي الزائد» أو «القوة فوق المدركة Ultra Perceptive Faculty» هواية وتسلية و « الإدراك الحسي الزائد » أو « القوة فوق المدركة » . هي المصطلحات العلمية التي حلت محل حذلقة المتحذلقين الذين يتحدثون عما رأوا أن يسموه « الحاسة السادسة » دون أن يعينوا مركزها ، وذلك إمعاناً منهم في إنكار النفس البشرية وإمكان اعتمادها على قواها ووسائلها الأولية .

ففي ذات يوم اشترى العلاّمة باطون مجموعتين من ورق اللعب ، ثم ناولها الى باربانل محرر « سايكك نيوز » ففضّ هذا غلافيهما ووجد بعد مضاهاة أوراق المجموعتين أن ظهور الأوراق متطابقة . وبعدئذٍ اختار منها خمساً وعشرين بطاقة مكونة لخمس مجموعات أوراق كل مجموعة منها من صنف واحد . وجلس باربانل وباطون وفايف بحيث يرون وجوه هذه البطاقات وقد أمسك بها باربانل بحيث ترى مرجري ظهورها فقط ، وهي واقفة على بعد سبعة أقدام منه ، وفي غير تردُّد عينت تعييناً صحيحاً ٢١ بطاقة من الـ ٢٥ ، فلما سمحوا لها بتجربة ثانية نجحت في تسميتها كلها صحيحة ، وحاولت ذلك مرة ثالثة ونجحت نجاحاً تامّـاً .

ورأوا أن يجروا تجربة أخرى فجاءوا بخمس وعشرين بطاقة ، وأمسكت بها مسز باربانل ، ووقفت مرجري على بعد ٢٥ قدماً ، ووقف الباقون يرقبون . فسمت الوسيطة ٢٤ تسمية صحيحة عند أول محاولة . ولكنها طلبت أن تحاول التسمية مرة أخرى ، وكانت نتائجها كلها صحيحة . وقد كتب الحاضرون بياناً بما تمّ ووقعوه بإمضاءاتهم .

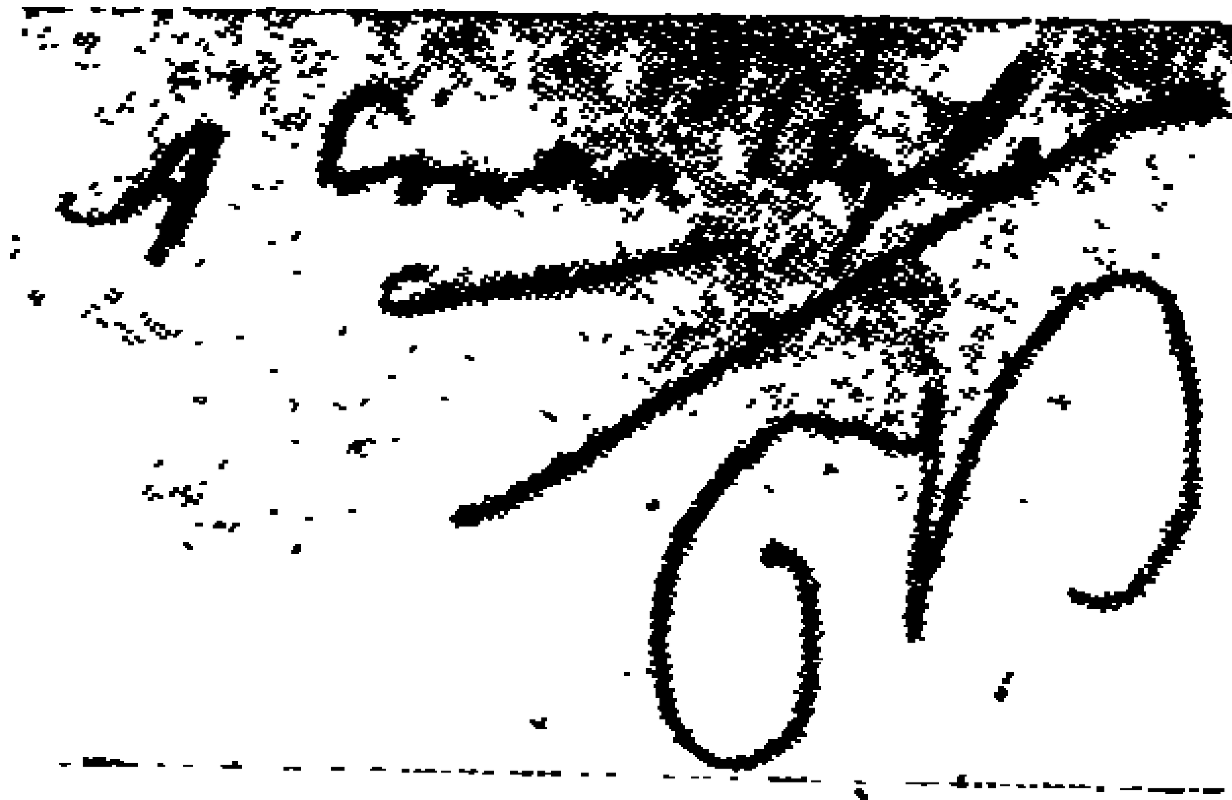
ألا تطابق هذه التجارب تلك التي أجراها العلامة الدكتور ج . ب . راين Dr. J. B. Rhine أستاذ السيكولوجيا في جامعة ديوك ، والتي دوّنها في كتابه الفذ « الادراك الحسي الزائد » لتحقق ظاهرتي التلبثي والجلاء البصري ؟ انها تشبهها ولا شك ، ويكاد يكون الأسلوب واحداً في تجارب البطاقات تلك . ولكن بينما نرى البحّاث الجامعيين يصفقون ويهللون لتجارب الدكتور راين في جامعة ديوك Duke نرى قوماً آخرين ينكرون صدق هذه التجارب إذا قام باجرائها الوسطاء الروحيون في الجلسات الروحية العادية .

ويقول محرر « سايكك نيوز » بصدد هذه التجارب التلبثية التي قامت بها مرجري « إن ارتفاع النسبة المئوية لنجاح مرجري ودقتها ليزريان من شأن جهود طلبة الدكتور

راين . ومع ذلك فان رجال العلم قد مجدوا راين وعظموه لبحوثه في السيكولوجيا الشاذة » ولاستكشافه « الادراك الحسي الزائد » . وقد اعترف راين أخيراً بالروح .

٩ — توقيع كونان دويل من عالم الروح

المعروف عن سير آرثر كونان دويل Sir Arthur Conan Doyle الطبيب والقانوني والكاتب الأديب أنه كان من أكبر دعاة العلم الروحي الحديث ، وكان من أصدقاء الدكتور كراندون وعقيلته مرجري . فبعد انتقاله الى عالم الروح زار ، وهو روح ، دائرة مرجري الروحية غير مرة .



Doyle's spirit signature, and his initials given upside down.

ش (٩) امضاء سيرآرثر كونان دويل من عالم الروح
وإذا جعلت عالي الصورة سافلها ظهر لك الحرفان الأولان C. D.
من الاسمين « كونان دويل »
(عن مجلة « سايكك نيوز »)

وحدث في إحدى زياراته تلك أن كتب بخطه وامضائه كلمة الاهداء على نسخة من أولى طبعات كتابه الأخير « حافة المجهول » . ولطالما كان الحاضرون في جلسات مرجري يسمعون هامساً يقول « هنا كونان دويل » . وكثيراً ما كان ولتر يقول للحاضرين ان كونان دويل كان موجوداً ، وإنه توّاق لأن يساهم في العمل ويساعد بأي شكل . ويقول العلامة باطون إن كونان دويل كان يشعره دائماً بوجوده قبل حلول عيد ميلاده (ميلاد باطون) مهنئاً إياه على ما كان يعمله في سبيل الوسطاء . وحينما أراد أن يكتب كلمة اهداء على نسخة

من كتابه ويمهرها بامضائه وهو روح اقترح أن يتم ذلك خلال وليمة تقام احتفالاً بعيد ميلاد باطون ، حيث سيحاول أن يكتب كلمة الاهداء ويوقعها بامضائه ، فان نجح فيها وإلا فانه سيحاول ذلك في مناسبة أخرى .

وقدمت مرجري نسخة من كتاب « حافة المجهول » وكانت هـذه النسخة آخر هدية قدّمها دويل اليها ، تسلمتها في اليوم الذي توفي فيه ، ولم يكن قد لمسها بيديه بل بعث بها الناشر مباشرةً الى مرجري طبقاً لتعليمات دويل . وأحست مرجري نهار ذلك اليوم ان لها ميلاً لأن تكتب بعض الـكتابة التلقائية ، وهي تلك الـكتابة التي تكتبها بعد أن تهيمن روح على يدها . وفعلاً كتبت هذه العبارة « في سنة ١٨٤٣ كتبت مقدمة لدكنز Dickens وسأوقع على كتابك . C. D. » . ويلاحظ ان الحرفين الفرنجيين C. D. هما الحرفان الأولان من اسم كونان دويل . وحار لذلك كل من باطون والوسيطة ، لأنهما يعلمان أن دويل لم يكن ولد سنة ١٨٤٣ ولـكن ما إن وافى المساء حتى جاء ولتر وطلب اليهما أن يتصفحا كتاب « أغنية عيد الميلاد » الموجود في مكتبة الدكتور كراندون . فلما تصفحاه وجدا فيه فعلاً صورة خطية للمقدمة مكتوبة في سنة ١٨٤٣ ، وقد وقعت بالحرفين C. D. وهذان الحرفان هما الحرفان الأولان من اسم شارلز دكنز Charles Dickens والغريب أنه يوجد شبه غريب بين خطي دكنز ودويل . وأدرك باطون على الفور ان اختيار تلك المقدمة يتفق ودعابة دويل لأنها احتوت على العبارة الآتية : —

« لقد حاولت في هذا الـكتاب الشبحي الصغير أن أقدم شبح فـكرة لا تثير قرائي فتخرجهم عن الحد إزاء أنفسهم أو إزاء بعضهم بعضاً أو إزاء الزمن أو إزائي . وأرجو أن يرتاد كتابي داركم ارتياداً سارًّا فلا يرغب عنه من يتناوله فيطارحه » .

ولا شك أن الدعابة هنا كانت في تشبيه الـكتاب بالروح الذي يرتاد جهة أو منزلاً .

وبعد ذلك بيومين عقد باطون جلسة مع مرجري حضرها وندل موراي Windel Murray أحد المحامين النابهين في بوسطن ، ووضع كتاب دويل فوق المنضدة ومعه قلم رصاص وقلم أمريكاني . ولم يكن في الـكتاب إذ ذاك أية كتابة خطية إلا ما كتبه الدكتور كراندون بخطه . وأمسك موراي بيسرى مرجري ، وأمسك باطون بيمناها ، وتماسك كذلك وندل

وباطون بيديهما الطليقتين ، أي أنه في هـذه المجموعة الصغيرة لم تكن توجد يد طليقة . وسمع صوت على المنضدة ، وكأن شخصاً تناول كتاباً ومضت بعد ذلك خمس دقائق ، وإذا بولتر يعلن أن العملية انتهت .

Sir Arthur's spirit message, signature and initials on the title page of his book.

Doyle's earthly writing and signature, reproduced for comparison.

شكل (١٠) كلمة الاهداء يكتبها ويوقعها روح كونان دويل من عالم الروح
(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

شكل (١١) كتابة كونان دويل وامضاؤه وهو في عالم المادة حي يرزق
(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

وعند انتهاء الجلسة دقّ جرس التليفون ، وإذا بالوسيطة ساري ليتزلمان تتكلم من قرية كمبردج على مسيرة ثلاثة أميال من بوسطن ، فتقول إنها تلقت بالكتابة التلقائية من الروح المرشد لها رسالة تقول « إن ولتر قد أتى عملاً عظيماً حصل فيه على توقيع سير آرثر ».

وفعلاً تمّ التوقيع وزاد عليه ان كتب الحرفين الاولين بحيث كان عاليهما سافلهما ، أي أنه إذا أديرت الورقة بحيث جعلت حافّتها العليا حافتها السفلى ظهر الحرفان واضحين . وفي جلسة أخرى كتب على الصفحة الأولى البيضاء من الكتاب عبارة الاهداء ومهرها بإمضائه هكذا : « مع صادق التمنيات لكم — ا . كونان دويل »

وبمضاهاة كتابة سير كونان دويل وهو روح بكتابته قبل أن ينتقل الى عالم الروح يتضح أن الخط واحد في الحالتين كما هو ظاهر في الصور .

ويلاحظ أن هذا كله قد تمّ والوسيطة تحت الرقابة التامة الشديدة. وقد كتب العلاّمة باطون بصدد هذا الحادث يقول « يبدو لي أن الرقابة في هاتين الحالتين الخطيرتين كانت تامة ، كما يبدو لي كذلك أن بينة الخط نفسه بينة قاطعة مقنعة ومن غير سير آرثر يستطيع أن يتخذ من شارلز دكنز وسيلة لتحقيق شخصيته هو بمثل هذه اللباقة والمرح ؟ »

١٠ — مرور مادة خلال مادة

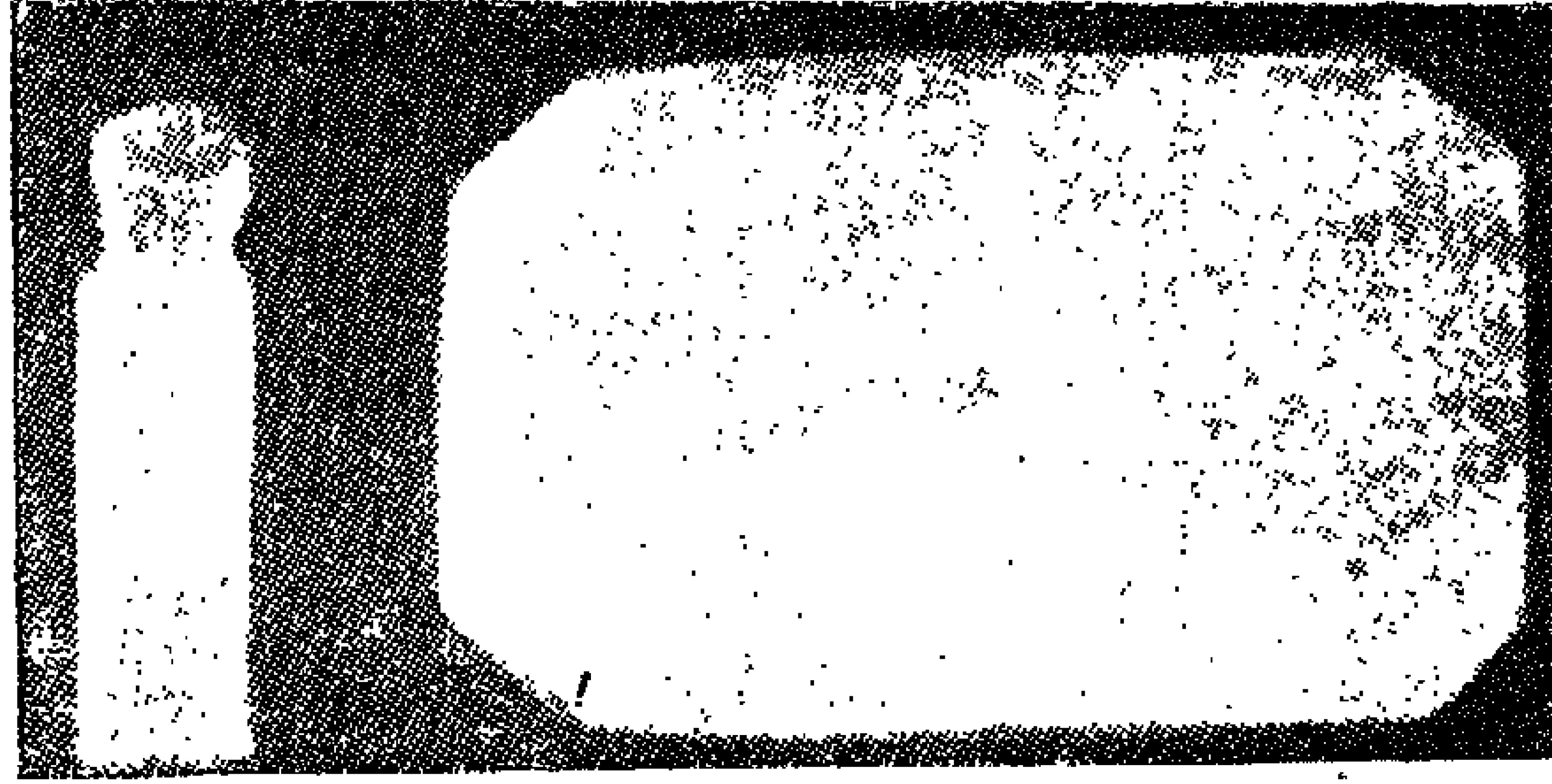
فيما يلي وصف لثلاث تجارب في هذا الصدد : —

(١) من التجارب المدهشة الفذّة التي أجراها الروح ولتر إخراج قنينة زجاجية من وسط كتلة من عجينة باريس ثم اعادتها إلى داخلها مرة أخرى تحت وسائل الرقابة الدقيقة ، وذلك دون أن تنكسر القنينة ودون أن تتفتت العجينة . وقد كانت هذه التجربة بالغة التعقيد ، واستغرقت الاجراءات فيها ما يزيد على سنتين . وقد أرسل كتلة العجينة تلك بما فيها الى منزل الدكتور كراندون رجل غريب لا يمت إلى آل كراندون بصلة . وهذا الرجل هو و . ب . منثورن W. B. Menthorn الصيدلي المقيم في بتوسكي بمتشيجان Petoskey, Michigan وقد كتب يقول ان بداخل تلك العجينة ثلاثة أشياء ، ولم يدل بأي إشارة يفهم منها أي شيء عن هذه السلع الثلاث . وجيء بهذه الكتلة إلى أولى الجلسات التي انعقدت بعد وصولها ، ووضعت هناك فوق منضدة ، وسئل ولتر عما بداخلها فلم يجب ، ولكن في نهاية الجلسة اختفت تلك الكتلة بشكل غريب ، ولم يقل ولتر أين أخفاها ولا كيف أخفاها . وبعد ذلك بأسبوعين قال « الآن أخبركم ماذا بداخلها . توجد فيها قنينة صغيرة تشبه قنينة حبوب كارتر للكبد ، وسلسلة فلزية صغيرة ذات سبع حلقات ، ويوجد بالزجاجة سداد من الفلين . وهذا هو كل ما أستطيع رؤيته في تلك الكتلة » .

وكتب الدكتور كراندون الى منثورن يخبره بما قاله ولتر . وكان جواب ذلك الصيدلي « إنه صادق مائة في المائة ، فالعجينة تحتوي على قارورة في حجم تلك التي وصفها ، وعلى قطعة من سلسلة ذات سبع حلقات ، وفيها كذلك قطعة من الورق عليها إسم مكتوب .

ومع هذا فإن الاختبار مدهش جداً » .

ومضى شهر آخر وكتلة عجينة باريس تلك مختفية أو هي لم تستعد بعد حالتها التجسدية الأولى ، حتى إذا انعقدت إحدى الجلسات سمع الحاضرون صوت خشخشة ، وكأنما الكتلة قد ظهرت من جديد وولتر يهزها فيسمع لها هذا الصوت . وقال ولتر إن هذا هو صوت السلسلة في داخل الزجاجة ثم مضى يشرح فقال « حينما تسلمتموها لم يكن للسلسلة هذا الصوت ، ولكني أرخيتها في داخل الزجاجة ، فقد كان بداخلها ورقة ملفوفة وقد تعقدت كلها كما أراد صاحبها ، ولذلك كانت قراءة الورقة أمراً صعباً » .



The bottle which Walter ex tracted from the plaster of paris block on the right.

شكل (١٢) كتلة عجينة باريس وبجوارها القارورة التي أخرجت منها بالوسائل الروحية دون كسر أو تلف

(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

ولا يفوتنا أن نقول إن خطاب منتورن لم يكن قد وصل بعد .

وظهرت الكتلة فوق المنضدة ، ولكنها اختفت ثانية في الليلة التالية . وفي جلسة تالية وضعها ولتر بين يدي الدكتور رتشارد صن . ثم أخذت منه وسلمت لآخر . وكان ولتر يشرح أعماله قبل أن تتم ويشعر بها الموجودون . وعند انتهاء هذه الجلسة اختفت الكتلة وفي الليلة التالية عقدت جلسة وعادت الكتلة فظهرت ، وبقيت على المنضدة شهراً كاملاً إلى أن أخفاها ولتر مرة أخرى قائلاً انهم حين يرونها ثانية « يكون ما بداخلها في خارجها » وظلت هذه الكتلة مختفية ستة شهور أخرى .

ولما عقدت جلسة بعد ذلك وفتشت فيها مرجرى جاء ولتر وهيمن عليها ثم سلم الكتلة لسيدة كانت حاضرة تدعى مسز بيجلو Mrs. Bigelow قائلاً إنه أخرج منها قارورة الحبوب محتفظاً في داخل القارورة بالرقعة التي عليها الاسم المكتوب ، وسلمت القارورة والرقعة التي فيها الى تلك السيدة ، وقال ولتر « لقد تركت السلسلة ذات الحلقات السبع في داخل الكتلة . وانكم لتستطيعون سماع صوت خشخشتها اذا أنتم هززتم الكتلة ، لأنها أصبحت حرة الحركة في الفضاء الذي كانت تشغله القارورة قبل الآن » . وفي الجلسة التالية التي انعقدت جاء ولتر بالكتلة ثانياً . وحين هزت سمع صوت خشخشة السلسلة بداخلها . وبعد ذلك بعشرة أيام أعاد ولتر الكتلة والزجاجة ، ووضعتا في درج وهناك بقيتا زمناً . وكان منشورن يبلغ أولاً فأولاً كل ما كان يحدث لهذه الكتلة ومحتوياتها .

ومضت بعد ذلك سبعة شهور أخرى وضعت الكتلة خلالها فوق منضدة في حجرة التحضير وتناولها كثيرون فسمعوا صوت خشخشة السلسلة بداخلها . ولكن بعد ثلاثة أيام اختفى صوت الخشخشة برغم هز الكتلة هزاً عنيفاً ، وقد فسر الروح ذلك بأن السلسلة قد ثبتت . وبعد ذلك بتسعة شهور صورت الكتلة والقارورة بالفوتوغرافيا . وأعيدت المجموعة كلها الى منشورن فلما وصل الطرد كانت القارورة قد اختفت . فهي إما أن يكون قد انعدم تجسدها خلال الانتقال أو تكون قد أعيدت الى مأواها في داخل الكتلة بالوسائل الروحية . فلما صورت الكتلة بالأشعة السينية ظهرت القارورة وظهر التجويف الذي كانت تشغله في الأصل ، وأما السلسلة فلم يعثر لها على أثر . وقال ولتر في الجلسة التالية انه اذا استمر منشورن يصور الكتلة بالأشعة السينية فان السلسلة قد تظهر ثانية في الداخل . ثم قال ان ورقة العنوان الموجودة بداخل الزجاجة مطبوع عليها كلمة كودين « Codeine » ثم عاد فقال ان الكلمة مكتوبة بخط صغير ، وان على هذه الورقة كلمة « منشورن » وبدت كأنها عنوان خطاب .

وأظهرت الصورة التي صورت بالأشعة السينية للكتلة أن القارورة موجودة بداخلها . وبعد ذلك وأمام لجنة مكونة من ثمانية أشخاص بينهم كبير الكهربائيين في بتوسكي Petoskey وكبير مهندسي شركة هناك كسرت كتلة عجينة باريس تلك ، وهي الكتلة التي كثر حولها

— ٥ —

الاغط والحديث والتي لم يقع لغيرها ما وقع لها هي من الاحداث. وهناك وجدوا الزجاجة في وضعها المحكم داخل الكتلة ، ووجدوا على البطاقة التي في داخلها اسم « و.ب. منثورن » أما السلسلة فلم تكن موجودة .

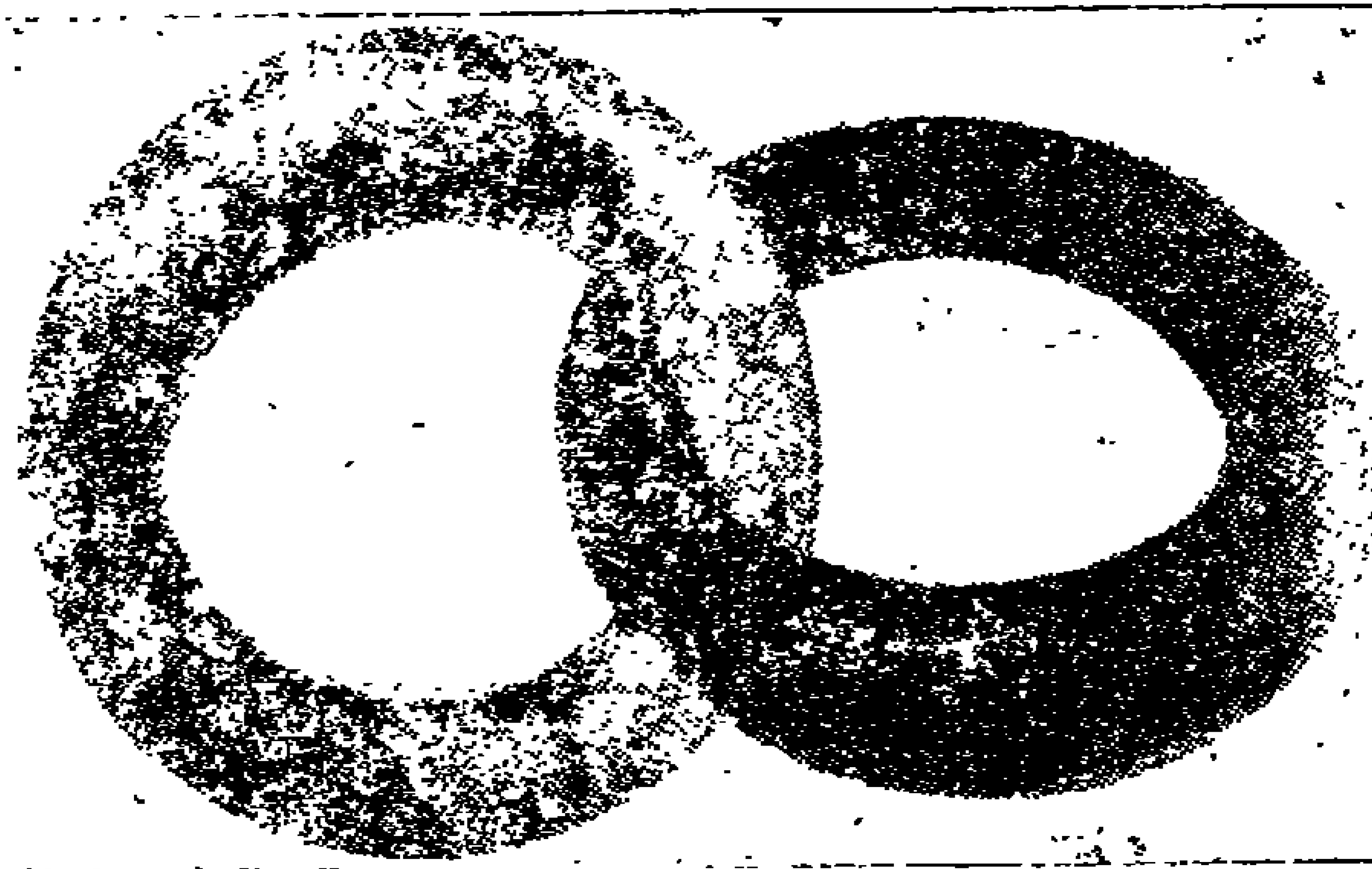
وفي جلسة عقدت بعد ذلك بأسبوعين في منزل الدكتور كراندون ببوسطن مرّر ولتر السلسلة بأيدي ثلاثة من أعضاء الدائرة ، وبعد ذلك بثلاثة أيام خلال انعقاد الجلسة قذفت السلسلة فسقطت فوق المنضدة . وسلط عليها نور أحمر فرآها واضحة جميع الموجودين — ولكنها في نهاية الجلسة اختفت من جديد . وقال والتر إنها على أرض الحجرة في بقعة عينها . وهناك وجدوها فعلاً ، فبعثوا بها الى منثورن الذي جهر بأنه لم يجد صعوبة في تبين كل من الكتلة والسلسلة . وقال انه حين صنع الكتلة شكلها وهي طرية لينة ، وترك قصداً بصمة ابهام يده اليسرى فوقها . وقد استطاع ان يتبين بسهولة بصمة إبهامه حين أعيدت إليه الكتلة ، وذلك لأن على إبهامه ندبة مميزة . أما البطاقة فكانت بطاقة الصيدلية مطبوع عليها اسمه وعنوانه . ولم تكن كلمة « كودين » ظاهرة .

(٢) بعد هذه التجربة الفذّة أجرت دائرة كراندون الروحية عدداً من التجارب على ظاهرة مرور مادة خلال مادة ، مع اتباع الوسائل والأساليب الاختبارية . واستعملت لذلك الغرض صناديق متينة محكمة الصنع ذات أقفال متينة . وكان المقصود تمرير أشياء الى داخل تلك الصناديق ثم إخراجها منها وهي مغلقة ومختومة ، أو إخراج أشياء تكون قد وضعت في الصناديق قبل إحكام غلقها دون كسر الصناديق وفض الأختام .

ففي الجلسة الأولى وضع العلامة باطون علامة على نصف ريال أمريكي ، وقد فحص الدكتور كراندون هذه العلامة . ووضعت قطعة النقود تلك في داخل صندوق من الورق المقوي ، ثم أغلق الصندوق بإحكام ولفّ فوقه شريط ووضع فوق الشريط أختام . ثم جيء بالصندوق ووضع على منضدة أمام مرجري . وبعدئذٍ استفسر باطون عما إذا كان ولتر يستطيع إخراج قطعة النقود تلك من جوف الصندوق . وما كادت تمضي بضع دقائق حتى أحسّ باطون بقطعة من قطع النقود توضع فوق معصم يده اليمنى ، وقد دفعت بعناية بين يده ويد الوسيطة . وأعاد ولتر التجربة في الجلسة التالية ، وأخرجت قطعة النقود للمرة

الثانية . وأعيدت هـذه التجربة في جلسة ثالثة ، وكان الصندوق أحد صناديق السكر المصنوعة من الورق المقوي ، وقد لفّ بعناية بأشرطة اللصق ووضعت عليه علامات من الداخل والخارج ووضع بداخله قبل إغلاقه نصف ريال بعد أن وضعت عليه علامة مميزة . وفي نهاية الجلسة اختفى ووضع في مكانه بنس انجليزي .

وأجريت تجربة أخرى في الجلسة الرابعة . وحدث في نهاية هذه الجلسة أن وجدوا في الصندوق قطعة نقد صغيرة قديمة . وعرفوا فيما بعد أنها عملة رومانية قديمة ترجع الى عهد القنصل . وطلب إليهم ولتر أن يضعوا قطعة النقد هذه على المنضدة معلناً أنه سيدفع بها الى جوف صندوق آخر مقفـل كان على المنضدة . وكان مستر ثوروجود Mr. Thorogood الباحث الروحي المعروف قد أقفل هذا الصندوق واحتفظ معه بالمفتاح ، ولم يحضر هو هذه الجلسة . ووضع الصندوق تحت الحراسة الشديدة الدقيقة الى أن فتحه ثوروجود نفسه في الليلة التالية . وقد وجدت فيه قطعة النقد الرومانية تلك ومعها قطعة نقد انجليزية وأخرى ألمانية ، لم يرها الحاضرون قط من قبل كما دلّ على ذلك البحث والتحري .



شكل (١٣) الطوقان الخشبيان وقد تشابكا دون كسر بالوسائل الروحية

(نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »)

(٣) وثمة تجربة أخرى تعتبر بحق من أهم التجارب الاختبارية في تاريخ الروحية على ظاهر مرور مادة خلال مادة ، وهي تجربة شبك (تعشيق) حلقتين من نوعين من الخشب

دون أن تصابا بأي كسر . وقد ظلّتا متعانقتين كذلك زمناً طويلاً عرضة للناظرين إلى أن انهارتا فجأة فتفتتتا وانفصلتا .

وقد حدث أن زار هانن سوافر Hannen Swaffer الصحفي الخطيب والكاتب اللبق والداعية الروحي الشهير ، سنة ١٩٣٤ ، الدكتور كراندون في بوسطن فأراه باطون الحلقتين متشابكتين . وصلهما ولتر تلبيةً لطلب باطون الذي كان قد سأله برهاناً على القوة فوق العادية مضافاً اليهـا العقل الذي يسيرها فيرى الناس آثارها في كل مكان . ولما قصد سوافر بوسطن بعد ذلك بزمن جرّه الحديث مع مرجري فعرج على تلك التجربة ، ودعته لرؤية الحلقتين . ولكنهما حين ذهبا لرؤيتهما وجداها انكسرتا .

ويرى بعض البحاث الروحيين أن البينة التي من هذا الطراز المادي تكون محدودة الزمن ، وأنه لابدّ لكل فترة زمنية جديدة من بينة جديدة ، وانه لا يمكن أن تحفظ الهبات الروحية تلك في متحف أو معرض دائم لأن ذلك قد يقلل من التطلع الى بينات جديدة مقنعة . وحينما تقدم باطون إلى ولتر بطلبه أول مرة انتهت العملية في بضع دقائق . وقال باطون انه لا يمكن أن يتجنى متجنٍّ فيقول إن العمل تمّ في هذه الحالة بالغش والتدليس ، لانه لم تكن هناك فرصة لذلك .

وحينما سمع سير أوليفر لودج بهذا الاختبار اقترح وصل أطواق من نوع من الخشب الذي لا يمكن أن يدّعي معه حدوث غش وخداع . وتنفيذاً لرغبته أجريت التجربة على حلقة من الخشب الابيض وأخرى من خشب المغنة جهزها هو بنفسه وبعث بها الى أمريكا . والغريب أن جميع الأطواق أو الحلقات التي أرسلت الى دائرة مرجري قد شبكت بسهولة ، ولكنها بعد ذلك تداعت وانكسرت بشكل غامض كما سبق أن وصلت بشكل غامض .

وقد كان ولتر يتخذ من هذه الأطواق وسيلة للتلهي . فأحياناً كان يرى الحاضرون في الجلسة تلك الأطواق وقد بدت وكأن أجزاء منها قد تآكلت . وأحياناً ترى مرجري على المنضدة نشارة ، وأن أجزاء من الأطواق قد اختفت . وأحياناً يرى الحاضرون تلك الأطواق تنكمش ثم تنمو ثانية . ولكن في نهاية الجلسة كانت الأطواق كلها إما أن تنكسر وإما أن تنفصل ، ولم يبق إلاّ الطوقان الأصليان ، وقد ظلاّ كذلك طويلاً وهما محفوظان في صندوق

زجاجي الى أن انكسر أحدها في النهاية . والظاهر أن المكونات الالكترونية لمادة الطوق الذي انكسر قد تأثر تماسكها بعملية إزالة التجسد ثم إعادته فانهارت في آخر الأمر .

١١ — المجلوبات الروحية والمأخوذات

هي نوع آخر من مرور مادة خلال مادة ، أي مرور مادة الشيء المجلوب أو المأخوذ خلال مادة الجدران . وقد رأينا لذلك مثلاً في اختفاء كتلة عجينة باريس ثم ظهورها ثانية ، والواقع أن تلك المجلوبات الروحية التي كان يجيء بها الروح ولتر في الجلسات قد أوقفت المتشككين في وساطة مرجري موقفاً لا يحسدون عليه . وكان من بين تلك المجلوبات بلورات وزهور وقطع معدنية بلغ وزن بعضها أحياناً بضعة أرطال وحمامة حية . وهنا نقف لنقول ان تمرير الأحياء خلال المواد الصلبة لم يقتصر على الحيوان بل تعدّاه إلى الانسان ، فقد حدثت تجارب على تمرير بعض الآدميين خلال الجدران والانتقال بهـا عبر مسافات شاسعة في أزمنة قصيرة ، وإن يكن ذلك لم يحدث في جاسات مرجري .

ويقول باطون انه حدث يوماً أن كان راكباً القطار مع مرجري في صالون خاص ، فأمسك بيديهـا وسألها عما إذا كان ولتر مستطيعاً أن يجيئهما بشيء من المجلوبات . وسرعان ما ظهرت فجأة على منضدة الصالون قطعة من تلك القطع البللورية . وهذا يذكّرنا بما كان يتم على يدي المرحوم الشـيخ سليم الطهطاوي من نوادر المجلوبات في قطار السكة الحديدية وغيرها .

ولأن تجيء في لحظة بشيء مادي كزهرة أو صندوق أو مبراة من أقاصي البلدان أو من قاع نهر أو بحر ، أو أن يختفي الشيء أمامك من صندوق مقفل أو حجرة محكمة الاغلاق أمر مدهش محير معجز لا يقبله المـاديون . ولـكن تبادل التحول بين الطاقة والمادة الذي كشفه العلميون أخيراً قد ألقى بصيصاً من النور على ذلك . والتفسير ان المادة المراد جلبها تتحوّل بالقوى الروحية الى إشـعاع فتسير بسرعة الضوء أو اللاسلـكي ، حتى إذا ما وصلت إلى المـكان المراد نقلها إليه بعـد اختراقهـا الجدران استحال الإشعـاع مادة . وفي حالة المأخوذات تنعكس العملية ، فيختفي الجسم المراد أخذه بعـد أن يتحوّل الى إشعاع غير منظور لـكي يتجسد من جديد في مكان ما .

وقد كشف العلم الروحي الحديث أخيراً أن عملية تبادل التحول بين الطاقة والمادة تتم باستخدام الإشعاعات المعروفة في عالم الروح بالاشتراك مع مادة الاكتوبلازم التي تنبثق من جسوم الوسطاء. وقد أمكن تصوير ذلك فوتوغرافيًّا باستخدام الأشعة تحت الحمراء في التصوير، فظهرت صور توضح انعدام التجسد ثم إعادته. وقد تمّ ذلك في كمبردج على الوسيط جاك وبر J. Webber.

وفي صدد المجلوبات والمأخوذات في جلسات مرجري يقول الدكتور كراندون في محاضرته التي ألقاها في جامعة كلارك سنة ١٩٢٦ في موضوع « وساطة مرجري » ونشرتها جامعة كلارك في كتابها « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة» الذي ظهر سنة ١٩٢٧ ما يأتي:

« تتضمن هذه الظواهر إدخال جسم في حجرة مغلقة أو إخراجه منها. وهي ظواهر قد يصعب تصديقها، وتدل على وجود عالم ذي أبعاد أربعة، أو هي تتوقف على أحدث الآراء العلمية بخصوص المادة، وهو الرأي القائل بالطاقة وحركة الذرّات دون مصادمات، فيستطيع جسم صلب أن يمر خلال جسم صلب آخر . . . .

« وتوجد في وساطة مرجري عشرة أمثلة للمجلوبات ومثل واحد للمأخوذات، وقد تضمنت الأشياء المجلوبة حليًّا قديمة وزهوراً وحمامة حيَّة. وكانت الظروف في كل حالة طيبة ومؤاتية. ولكن لكي تكون هذه الأحداث ذات قيمة علميَّة وجب أن يتم حدوثها والوسيطة مشدودة الوثاق في زنزانة من السمنت. ويجب أن ينبني القول بصدق هذه الظواهر على ما يأتي: (١) تفتيش الوسيطة والجالسين والحجرة. (٢) طبيعة الشيء المجلوب وهل يمكن الحصول عليه بالوسائل العادية أو استخلاصه من الجسم بعد اخفائه فيه. وأن يتم تسليمه تحت وسائل الرقابة المبسوطة في الجلسات الروحية ».

١٢ — كتابة الغيبوبة

نوع من الكتابة التلقائية يحدث والوسيط واقع في الغيبوبة وفي غضون أسبوع واحد كتبت مرجري وهي واقعة في الغيبوبة، تسع رسائل بتسع لغات مختلفة، من بينها اللغة الصينية ولعلّ أغرب هذه الرسائل التي كتبتها مرجري هي تلك الرسالة الصينية التي نرى صورة زنكوغرافية لها هنا.

ولما سئل خبير باللغة الصينية أن يترجم هـذه الرسالة قال ان كاتبها قد اقتبس من كلام كونفوشيوس Confucius وتلميـذه يان تسي Yan Tse . وفيما يلي ترجمـة الـكتابة الأقل وضوحاً في الصورة وهي عن كونفوشيوس : —



Chinese automatic writing

شكل (١٤) الـكتابة الصينية التي كتبتها مرجري وهي واقعة في الغيبوبة
نقلا عن مجلة « سايكك نيوز »

« هل نقضت عهدي ؟ ألم انقح تعاليم معلمي ؟ يجب أن لا يغضب الانسان حين يجهل الناس أنه وافر العلم والمعرفة . ألا يمكن أن يكون حكيماً عاقلاً ؟ »

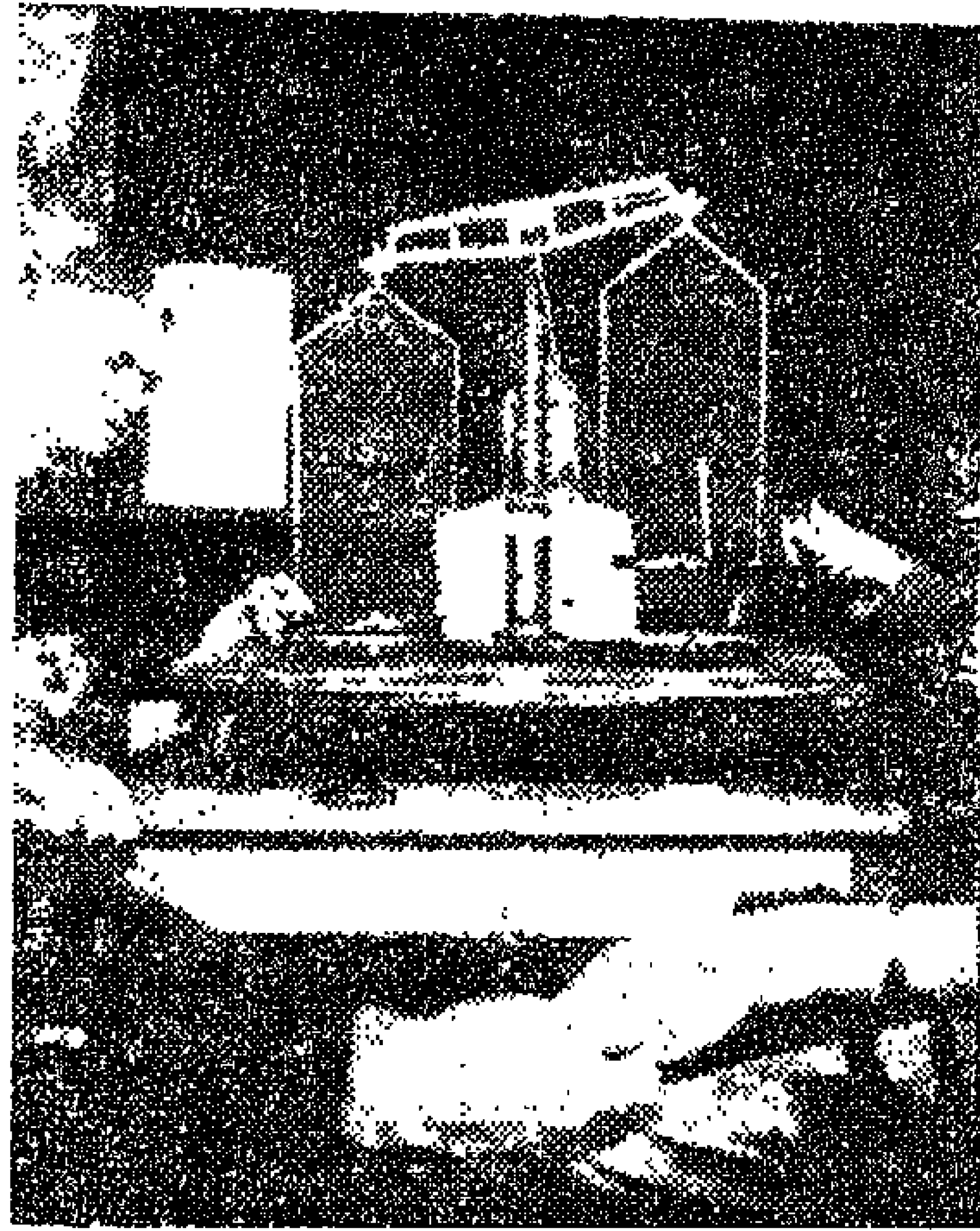
وأما الـكتابة الواضحة فترجمتها : —

قال يان تسي « ان الانسان القائم بواجبـه نحو أبويه وأشقائه وشقيقاته لا يمكن أن يضايق من هم أعلى منه درجة ، ولا يمكن أن يحارب مليكه » .

١٣ — تجربة الميزان

وجاء المختبرون بميزان كيماوي ، ووضعوا في احدى كفتيه أثقال وظلت الأخرى خاوية ومع ذلك اتزنت الـكفتان وكأنما قد وضعت فيهما أوزان متساوية. وكانت التجارب في هذا الصدد تبدأ وتنتهي في الظلام ومرجري مشدودة الوثاق ومراقبة رقابة شديدة . نرى هل

اختلت موازين قوة الجاذبية هنا أم هناك شيء غير منظور أحدث التعادل بين الكفتين ؟ لقد أضيء النور الأحمر لفترات زمنيـة استمرت من خمس الى خمس وعشرين ثانية ، وظهر الميزان واضحاً ، وكانت الكفتان متعادلتين . وقام الجالسون يمررون أيديهم فوق الكفتين وتحتهما وحول الميزان كله ، فأثبتوا بذلك أنه ليست هناك ثمة خيوط استعملها أحد الجالسين . واستعمل الضوء الساطع الخاطف في التصوير خلال هذه التجربة . فأثبتت الصور الفوتوغرافية أنه لم يكن ثمّ اتصال ما بين أحد الحاضرين وبين الميزان المتزنة كفتاه برغم وجود أثقال في احديهما دون الأخرى . ولكن حينما استعملت عدسة من الكوارتز بدل العدسة الزجاجية العادية ظهرت في الصور الفوتوغرافيـة اسطوانة اكتوبلازمية موضوعة في الكفة الخالية فكانت السبب في احداث الاتزان .



شكل (١٥) تجربة الميزان : ترى مرجري واقعـة في الغيبوبة
وقد أمسك بيديها اثنان . وقد أظهرت الكرا الاسطوانة الاكتوبلازمية .
نشرت هذه الصورة في كتاب جامعة كلارك « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة »
وفي « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وكتب الدكتور تليارد العالم الحشري الذي تقدم ذكره الى العلامة الطبيب السيكولوجي الأستاذ مكدوجل McDougall بتاريخ ٦ مايو سنة ١٩٢٦ بصدد تجربة الميزان هذه يقول :

« ان هذه التجربة من أكمل التجارب التي يستطيع العقل البشري أن يبتكرها . واذا نظرنا اليها في ضوء الصور الفوتوغرافية التي أظهرت « الاسطوانة الروحية » موضوعة في الكفة الفارغة حكمنا بأنها بينة قوية جداً على صدق الظاهرة ومصدرها غير العادي » .

١٤ — هوديني ومرجري

اذن كان قد شاد بذكر مرجري ووساطتها رجال من أمثال اودج وريشيه ودويل بعد أن تبينوا عملها الروحي العظيم ، وكفاحها هي وزوجها وشقيقها « الميت » في سبيل دعم الروحية ونشر قضاياها ، فانها لم تعدم قوماً راحوا يشهرون بها لغير سبب . ولعلّ أظهر مثل لهؤلاء المناهضين هو الساحر هوديني غفر الله له .



شكل (١٦) مرجري في الصندوق الذي إبتكره هوديني الساحر . ويرى وقد أمسك هو بيسراها كما أمسك شخص آخر . بيمناها فلما تمّ حدوث الظواهر مع كل هذا وجد هوديني من الجرأة الصفيقة ما استطاع به ان يتهمها بالغش والتدليس

(نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية)

وكانت وساطة مرجري مطروحة اذ ذاك على بساط البحث أمام لجنة مجلة « سينتفك أمريكان » . وحضر أعضاء هذه اللجنة جلسات مرجري ، وكان هوديني واحداً منهم ، واقتنع معظمهم بصدقها وبصحة التفسير الروحي ، وعجزوا عن تفسير الظواهر تفسيراً مادياً . والواقع أنهم كانوا في مراحل اقتناع متباينة . ولكن أبى هوديني أن يعلن اقتناعه وقد

ظهر له من ينازعه الزعامة في عمل الأحداث العجيبة ؟ بل كيف يعلن اقتناعه بعد إن أعلن هو أنه سيحاول أن يحل لغز هذه الوسيطة ؟

ولهذا أعدّ العدّة ، وبلغ من وثوقه من النجاح أن كتب قبل ذهابه الى بوسطن خطاباً إلى أحد أصدقائه بلندن يقول فيه : انه عن قريب سيفضح أمر هذه الوسيطة ، ويكشف للملأ خداعها وتدليسها . وقد كاد ينجح في مسعاه الخائب ، وذلك بارتكابه هو الغش والتدليس ، لولا أن تدخلت الأرواح في الأمر ، فكانت الفضيحة من نصيبه هو . وفي اعتقادي أن هوديني كان يكف يده عن ذلك لو عرف أن أمره سيفضح . ووقفت أمريكا كلها ترقب نتيجة عمله .

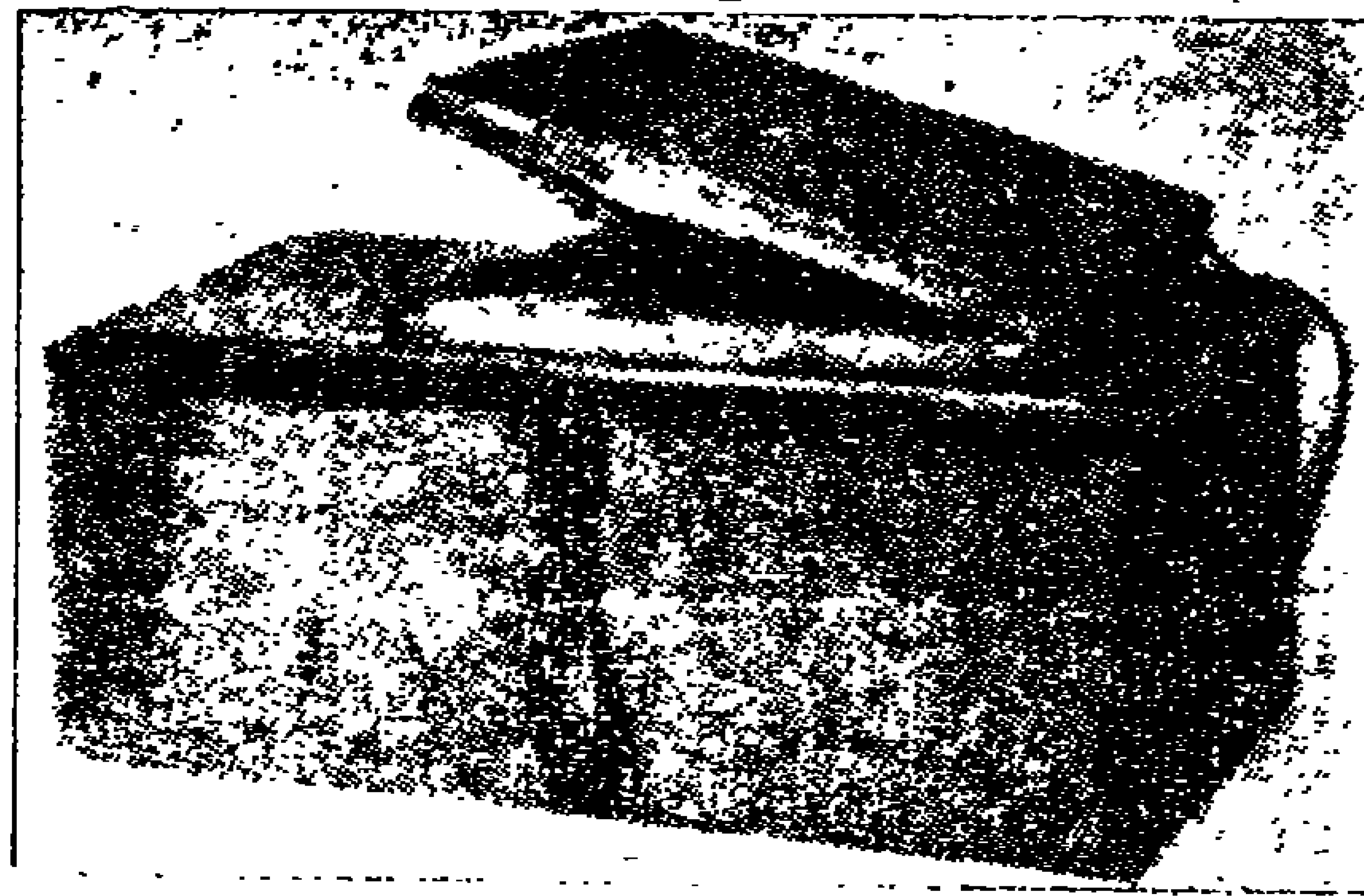
وساعد هوديني على وضع خطته أنه عرف مقدماً نوع الظواهر التي تحدث في جلسات مرجري ، والأمر الوحيد الذي لم يستطع أن يتلافاه هو تدخل الروح ولتر ، ذلك الروح الحذر الأريب الذي كان متيقظاً لكل حركات هوديني ، ولم يشأ أن تكون شقيقته ضحية بريئة لهذا الساحر ، ولم يرض أن تكون مضغة في أفواه الناس ، يتناولونها بالاستهزاء والسخرية والتهكم الجارح ؛ ولذلك قلب لهوديني كل خطته رأساً على عقب .

وكانت أولى الظواهر التي ستختبر ظاهرة دق جرس كهربائي لا يتم الدق فيه إلا بالضغط على ساق خشبية بعيدة جداً عن متناول الوسيطة . فلما أطفىء النور وعمّ الظلام في الحجرة لم يدق الجرس كالمعتاد . وفجأة سمع صوت ولتر يصيح في غضب قائلاً « لقد وضعت يا هوديني شيئاً يحول دون دق الجرس . انك يا هوديني ... » ومضى يوجه اليه أقذع السباب.

ولما أضيء النور وفحص الجرس الكهربائي وجدت قطعة من المطاط الذي يستعمل في مسح كتابة الأقلام الرصاص موضوعة بحيث تعوق حركة الرافعة التي تدق الجرس . وأبدى هوديني بطبيعة الحال جهله التام بذلك ، وما كان أقدر مثله على التجاهل . ولكن من هو ذلك الذي يجرؤ في الظلام على أن يعمل ذلك ، ولماذا لم يعمل ذلك الآن في وجود هوديني ؟

وحذّره الروح مغبة الرجوع الى مثل هذا ، لافتاً نظره الى أن عناده الذي يدفع به الى التدليس أحياناً ، قد يجر عليه أوخم العواقب ، لأنه لا يستطيع مقاومة القوى غير المنظورة ، وخاصة حين يتخلى المقيمون في الجانب الثاني عن مساعدته . ولكن سابق

خطاباته التي كتبها وبعث بها الى لندن ، والزهو الذي يملأ جنباته ، والأثرة وحب الشهرة كل هذا ملك عليه لبه ، ودفعه الى المضي في خطته العاثرة التي اختطها لنفسه . وكان في الجلسة التالية أسوأ حظًّا منه في تلك الجلسة . ذلك انه جاء بصندوق على بابه ثمانية أقفال حتى ليظن رائيه أنه صنع لكي توضع فيه غوريلا هائجة لا سيدة رقيقة وادعة كمرجري ولكن ربما كان «الأسلوب العلمي» الذي ينادي به بعض البحاث الفاحصين يستلزم كل هذا وما كادت مرجري توضع فيه وتغلق الأقفال حتى فتحته على الفور القوى الروحية غير المنظورة . فألجم هذا الحادث غير المتوقع صاحبنا هوديني ، وسكت لا ينبس ببنت شفة ، ولكنه لم يصده عن ألاعيبة الماجنة .



شكل (١٧) الصندوق ذو الجرس
نقلا عن « موسوعة العلم الروحي » الانجليزية

وحدث لهوديني بعد ذلك ما هو أسوأ وأسوأ . فقد وُضعت السيدة من جديد في ذلك الصندوق ، وأحكم اغلاقه بعد اخراج يديها من ثقبين في جانبيه . ولوحظ أن هوديني لغير سبب ظاهر قد مرّر يده على ذراع السيدة ثم في الصندوق . وبعد إجراء بضع تجارب أدخلت ذراعاها في الصندوق، ولم يبد منه خارجاً غير رأسها ، وانتظروا أن يدق الجرس بعد ذلك . وفجأة لعلع في الظلام صوت ولتر قائلاً : « هوديني ، أيها الوغد ! لقد وضعت مسطرة في الصندوق . . . أيها . . . أذكر أنك لن تعمر إلى الأبد ، وأنك لا بدّ ميت يوماً . . . » .

وأضيئت الأنوار على الفور ، وفحص الصندوق ، وإذا بالفاحصين يعثرون على مسطرة مطوية ، وكان المقصود أن يقول هوديني فيما بعد إن الوسيطة قد وضعت المسطرة بين أسنانها ، وضغطت بها على الساق الخشبية ، فضغطت هذه على زر الجرس فدق . ويتصايح الناس بعد ذلك في أمريكا ، ثم في العالم كله ، بأن هوديني قد فضح الدكتور كراندون وزوجته مرجري فقد ضبطهما وهما يرتكبان الغش والتدليس لاحداث الظواهر المزعومة ! وما كان لأحد أن ينقذ سمعة الرجل وزوجه بأحسن مما أنقذها به الروح ولتر .

وغلب هوديني على أمره ، وريع إزاء غضب الأرواح غير المرئية . ولما ذهب عنه ذهوله ، واستعاد وعيه من هذه الصدمة ، لم يجد بدًّا من الاعتذار بأن المسطرة لا بدّ أن يكون قد تركها أحد أتباعه في الصندوق عفواً ، وكان موقفه أمام الحاضرين مزرياً يدعو الى الإشفاق . ولكن هوديني لم يكن ليستحي من أحد في هذا العالم ولا في العالم الثاني . ولم يستطع إذ ذاك إلصاق التهمة بالدكتور كراندون وزوجته ، لأن هذين طلبا إليه أن يفتش الصندوق بعد دخول مرجري فيه فرفض ذلك وأصرّ على الرفض . وكان طبيعيًّا أن يرفض بعد تمرير يده في داخل الصندوق لغير سبب ظاهر كما مرّ بنا . وكان المفروض بعد ذلك أن يعترف بصدق هذه الوسيطة أو يسكت ليداري فشله ، ولكنه في جرأة غريبة أغرق أمريكا كلها بنسخ من كتيب صغير يقول فيه إن مرجري مخادعة وإنه كشف ذلك الخداع ، لأن مرجري قد دقت الجرس بإخراج رجلها من الصندوق ، ثم الضغط بها على زر الجرس ! ونسي المسكين أن الجرس ظلّ يدق وقد أمسك به أحد الحاضرين في يده ، وظلّ يدق وقد سار به في الحجرة بعيداً جدًّا عن مرجري : فيا للجرأة الصفيقة !

الواقع أن هذه الحادثة لم تكن فضيحة لمرجري ، بل كانت فضيحة لهوديني نفسه ، وكانت ضربة قاصمة لظهره . وما كان من رجل مجلة « سيئتفك أمريكان » وهو العالم مالكولم بيرد Malcolm Bird زميله في عضوية لجنة التحكيم التي اختارتها هذه المجلة لفحص ظواهر مرجري — لم يكن منه إلاّ أن اتهمه علانية ، وفي مواجهته ، بالغش والتدليس كحكم وعضو في لجنة التحكيم . وقد ذكر بيرد ذلك كله في كتابه النفيس « مرجري الوسيطة » قال : —

« لن أعلق بإسهاب على رواية هوديني لما حدث في جلسات مرجري التي حضرها .

والواقع أنه شاهد جملة أحداث لم يستطع أن يقدم لها تفسيراً سوى أنه أجرى مثلها . ونظراً لأنه لم يسلمّ بصحتها فقد اضطرّ أن يقدم لها هذا التفسير.

« وفي خلال الجلسة التي دقّ فيها الجرس الموضوع في الصندوق أخذت صورة فوتوغرافية ظهرت فيها المواضع النسبية لجميع أيدي الحاضرين وأقدامهم . وللصندوق وما الى ذلك ، كما ظهرت فيها أبعاد الصندوق . وحينما جاء هوديني ليدلي بتفسيره المحكم التلفيق عن كيفية حدوث ذلك الدق وجد أن الصورة الفوتوغرافية لا تتفق معه أبداً ولا تنطبق عليه بتاتاً . ولذا رسم بالقلم صورة تخطيطية مغيراً فيها حجم الصندوق وموضعه ، فزيف بهذه الوسيلة الوقائع كل التزييف .

« ولن أدلي هنا ببيان عن تفصيلات الغش الذي حاول هوديني ارتكابه مع هذه الوسيطة في زيارته التالية لها . وأكتفي بأن أقول إن شخصاً ما قد أحدث خللاً في صندوق الجرس جعله يحتاج لكي يدق إلى ستة أمثال الضغط المعتاد ، وأن شخصاً ما قد وضع عمداً في قفص الوسيطة مسطرة مفصلية طويلة لكي يظهرها بأنها إنما حاولت دق الجرس بها . وقد اتهمت هوديني كتابة وفي مواجهته بهذه الأعمال العدوانية الآثمة ، فلم يدافع قط عن نفسه . وكان مسلكه الشخصي بالنسبة لهذه الجلسات أن يحول دون الحصول على بينة إيجابية تدل على المجرم الحقيقي ، ولكن كان واضحاً كل الوضوح أن مرجري لم يكن في وسعها إتيان شيء من هذا — حيث لم تكن لديها فرصة لإتيانه » .

* * *

وختمت جامعة كلارك كتابها « المذهب الروحي بين التأييد والمعارضة » . ببعض ما ذكره هوديني في كتابه « ساحر بين الأرواح » مخافة أن تتهم بالتحيز والمحاباة . وقد قال العلامة هاري برايس Harry Price السكرتير الفخري لمجلس جامعة لندن للبحوث الروحية في كتابه « خمسون من سني البحث الروحي » عن كتاب جامعة كلارك سالف الذكر بعد أن شاد بذكره وحثّ على قراءته : « في رأيي أن المستوى العلمي لهذا الكتاب قد انحطّ باحتوائه على ما نقله من كتاب هوديني المسمى « ساحر بين الأرواح » الذي هو عبارة عن مجموعة حيل وألاعيب لا يجرؤ على استعمالها أي وسيط مداس خارج مستشفى المجاذيب » .

١٥ — العلماء بين الاقدام والاحجام

لا ندري أيهما كان أكثر إيذاء لهذه الوسيطة الصادقة البريئة ، أهو رجل كهوديني أم عالم من طراز العلامة مكدوجل أستاذ السيكولوجيا بجامعة هارفارد إذ ذاك ؟ حقيقة ان مكدوجل اعترف بصدق الظواهر الروحية ولكنه سلك مع مرجري مسلكاً فيه كثير من الشذوذ . فهو بعد أن حضر خمسين جلسة من جلساتها ، وبعد امضائه عقب كل جلسة ، هو والحاضرون جميعهم ، بياناً بصدق الظواهر التي تمت تحت وسائل الرقابة العلمية الشديدة ، لم يشأ أن يبدي رأياً حاسماً مكتفياً بتلميحات مبهمة . ولم يستقم الأمر حتى بعد تدخل الدكتور دنجوال Dr. E. J. Dingwall, D. Sc. Ph. D. عضو جمعية البحوث الروحية البريطانية ، فإن هذا أيضاً كان يعترف بصدق الظواهر في أحاديثه الخاصة ويسكت لا ينبس بكلمة في الاجتماعات العامة . فلما انتدب من قبل جمعية البحوث الروحية البريطانية لفحص أعمال مرجري قدم تقريراً دافع فيه بشدة عنها وعن أعمالها . وكان مكدوجل كما قلنا أحد الذين اشتركوا في فحص أعمال هذه الوسيطة ، وكان يخشى الجهر بما تحقق منه . فبعث الى دنجوال خطاباً خاصاً كتب في أعلاه تلك العبارة المألوفة « سري جداً » . وقد نشرته فيما بعد جمعية البحوث الروحية الأمريكية بمجلتها في عدد يونيه سنة ١٩٢٥ بالصفحة رقم ٣٠١ ، وقد جاء في هذا الخطاب ما يأتي : —

« ان شهادتي في هذا الصدد ستكون فيما أرى عظيمة الخطر وخاصة في البيئات العلمية ، على حين أن تقريراً تكتبه أنت وحدك في صالحها لن يكون ذا أثر اذا لم أؤيده أنا . والراجح بل المؤكد ، أنك حين تقرر صدق الظواهر الاكتوبلازمية فان العلماء سوف يتهمونك بأنك شريك مرجري في المؤامرة . وعند ذلك تكون شهادتي أحسن دفاع وأصدق إثبات . وعدا هذا فما لا شك فيه أني سأقدم تقريراً لجمعية البحوث الروحية البريطانية . ومهما كانت وجهة النظر فانه يكون غير ملائم جداً أن يتباين تقريرك وتقريري عن نفس الجلسات ، أو ان يختلفا اختلافاً خطيراً . . . . إنك تجهر صراحة بأنك مقتنع بحقيقة الاكتوبلازم . هذا حسن في ذاته كيفما كان الحال ، ولكن يبدو لي أنك تحاول أن تجرفني معك » .

وقد علق الدكتور كراندون على ذلك بقوله « ان هذه العبارة المقتبسة تدل على مسلك

البحّـاث ، فالمسألة لديهم لم تكن « ما هو الحق » بل كانت « ما هو الأنسب كتابته في التقرير ؟ »

على أن مكدوجل كباحث عالم لم يطاوعه ضميره على المضي في هذا المسلك الجائر . فألقى أولاً في جامعة كلارك الأمريكية سنة ١٩٢٦ محاضرته الشهيرة « البحث الروحي كدراسة جامعية » . ثم مضى بعد الى أبعد من هذا فأصدر مجلته « البار اسيكولوجيا Para Psychology » ونادى فيها بصدق الظواهر الروحية .

ولعلّ احجام بعض العلماء وأهل الرأي عن الجهر بآرائهم في هذا الصدد يرجع بالأكثر الى خوفهم من تشهير مناهضي الروحية بهم ، كما حدث لبعض الأفذاذ هنـا في مصر وقد جهروا به في أحاديثهم الخاصّة ، وان كان ذلك لا يصح أن يتخذ وسيلة للكف عن البحث العلمي . وخير ما نقدمه لهؤلاء هو الموقف الجريء الذي وقفه العلماء الروحيون البارزون. ونكتفي بذكر ما تمّ للعلامة سير وليم كروكس ، فانه لما وكل اليه فحص الظواهر الروحيـة سنة ١٨٧٠ قابلت الدوائر العلمية هذا الاتجاه بالترحاب ، وقابله بعضهم بالتهليل والتكبير . فلما جهر بأن الظواهر صادقة انقلب التهليل تجريحاً واستهزاءً . ويقول هو : —

« حينما أعلنت أنني قد اعتزمت فحص هذه الظواهر صادف إعلاني هذا موافقة عامة . فقال قائل ، إن آرائي تستحق التقدير العظيم ، وأبدى آخر الرضى التام ، لأن الموضوع على وشك أن يفحصه رجل مثقف تثقيفاً كاملاً . وقال ثالث : إنه قد سرّه أن يعلم أن المسألة الآن قد وكلت إلى عناية رجال لا يتأثرون ، ذوي عقول نيرة ولهم مكانتهم في عالم العلوم . وأكد رابع : أنه لا يمكن أن يشك أحد في أن كفاية مستر كروكس ستنهض بعملية فحص هـذه الظواهر دون محاباة البتّـة . وكتب ظريف خامس يحدث قراءه فقال : اذا كان رجال من أمثال مستر كروكس يمسكون بتلابيب الموضوع فانهم لن يسلموا قط بصحة شيء ما لم يثبت لهم ، ومن ثمّ فسنعرف قريباً مقدار ما سنصدقه ونؤمن بصحته .

« وإخال ان هذه الملاحظات كلها قد تسرّع أصحابها كثيراً في إبدائها . والظاهر أنهم كانوا مفترضين مقدماً أن نتائج تجاريبي ستكون متفقة وآراءهم التي اختمرت في صدورهم . ولم تكن رغبتهم في الواقع الوصول الى الحقيقة بل العثور على بينة جديدة تؤيد استنتاجاتهم

المقررة من قبل. فلما ظهر لهم أن الحقائق التي أسفر عنها البحث لا يمكن أن تتفق وآراءهم تلك انقلبوا على أعقابهم منادين بالويل والثبور وعظائم الأمور . . . .

« وحاولوا أن يتملصوا من أقوالهم السابقـة الدّالة على سالف وثوقهم بذلك العالم البحاثة ، فقالوا عن الوسيط هوم Home إنه ساحر ماهر خدعنا وخاتلنا . . . . ، و(ان مستر كروكس بنفس الاحتياط قد يفحص أعمال أي ساحر هندي) و(إنه لا بدّ لمستر كروكس أن يجيئنا بشهود أصدق قبل أن يظفر بتصديقنـا إياه) و (ان الموضوع من السخف بحيث لا يصح النظر إليـه بعين الجد والاعتبار) و (ان ذلك مستحيل وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون قد حدث) و (إن الحاضرين جميعهم قد نوّموا فتخيلوا أنهم يرون أشـياء لم توجد في الواقع) » .

فما أشبه الليلة بالبارحة !

١٦ — الاظلام والاضاءة

رأينا فيما سردناه أن بعض الظواهر لا تتم إلاّ في الظلام أو في الضوء الأحمر . وكثيراً ما سأل ويسأل السائلون عن ذلك ، بل كثيراً ما اتخذه بعضهم حجة على الروحية لا لها ، وهذا رغم ما كشفه التصوير الفوتوغرافي والسينمائي بالأشـعة تحت الحمراء في حجرات التحضير في لجة الظلام . والجواب على ذلك هو أن عمليـة سحب الاكتوبلازم اللازم لاحداث الظواهر من جسم الوسيط ، وتكوين تلك القضبان الاكتوبلازمية ليست سوى عملية حيوية قد تشبه إلى حدٍّ ما عملية الولادة . ولو فكرنا قليلاً لتبينا أن العمليات الحيوية جميعها تحدث في الظلام ، وفي الظلام فقط . فعمل المخ ، والتنفس ، وضربات القلب ، والهضم . والحمل — كل هذا يتم في الظلام . وبالاختصار ان من خواص الاكتوبلازم أنه يذوب في الضوء .

وعدا هذه العمليات الحيوية لدينا حالات إظهار اللوحات الفوتوغرافية ، فهذه لا تتم إلاّ في ضوء فاتر لا تتعدى شدّته شدّة الضوء الأحمر . ويلاحظ بجانب ذلك أن عملية إظهار الفوتوغرافيا الملونة لا تتم إلاّ في ظلام دامس . ومن ثمّ فالحاجة الى الظلام أو الى الضوء الأحمر في التجارب الروحية ليست أمراً مستغرباً ، وهذا لا يستلزم من الباحث النزيه إلاّ بعض

الذكاء والكياسة لبسط رقابة معقولة حذرة أريبة خلال اجراء التجارب .

على أن الاعتماد على الحواس وحدها في الادراك قد يؤدي إلى الغرض في أحوال الحياة العادية فقط ، أما في بحث ظواهر حجرة التحضير فالواجب ألا يعتمد عليها الاعتماد الكلي. وقد أثبت العلم أن ذلك الذي يبدو لنا صلباً جامداً ليس كذلك في الواقع ، وان كل ذرة من ذرات المادة عالم من البروتونات والالكترونات وما إليها من الجسيمات الأخرى ، وأن الجسم الصلب لا يحتوي إلا على جزء من مليون جزء منه من المادة . أما الباقي ففضاء يمكن أن يوازن نسبيًا بالفضاء الكائن بين الاجرام السماوية . ولا تدرك أبصارنا من الأضواء إلا الطيف الذي يبدأ بالأشعة الحمراء وينتهي بالأشعة البنفسجية كما نرى في قوس قزح ، مع أن العلم كشف لنا إشعاعات أخرى في غير منطقة الطيف الضوئي المعروف. وترينا عدسة الكوارتز أشياء لا تراها العين العارية . ولا ترى العين كذلك الأشعة السينية وما اليها من الأشعة الأخرى العلاجية وغير العلاجية . وهذا عدا الأشعة الكهربية المستكشفة حديثاً والتي اذا سلطت على انسان أو حيوان أو جماد اختفى عن العين وعن عدسة الفوتوغرافيا كذلك. وناهيك بالموجات الصوتية الصامتة التي لا تدركها الأذن .

١٧ — وفاة مرجري

وانتقلت مرجري الى عالم الروح في نوفمبر سنة ١٩٤١ ، ورثتها الصحف الروحية أبلغ رثاء ، ولم تنعها من الصحف الانجليزية الكبرى الا صحيفة الديلي تلغراف اللندنية . وقد خسرت الروحية بفقدها وسيطة فذة في وساطتها . وكان قد سبقها الى عالم الروح زوجها الدكتور كراندون ، وكان انتقاله في سنة ١٩٤٠ . وعند وفاة زوجها كتبت الى محرر « سايكك نيوز » تنعي اليه زوجها بهذه الكلمات . وقد كتبتها فوق بطاقة من بطاقات البريد العادية قالت :

« لقد تركنا روا Roi ليقيم مع ولتر » .

وها هي ذي قد تركت هذا العالم لكي تقيم مع روا وولتر .

تلك هي « العجيبة الثامنة » . هي مرجري المثل الكامل للوسيطة الكاملة التي لم يبق

أمامها لـكي يعترف مناهضو الروحية بصدقها إلاّ أن « تغلي نفسها في الزيت » كما يقول العلامة پول ملر Paul Miller في كتابه النفيس « موكب الروح » الذي صدر في لندن في شهر ديسمبر سنة ١٩٤٣ . وطويت بوفاة مرجري صفحة روحية مجيدة كم ودّ الروحيون أن لو ظلت منشورة فترة أخرى . على أن ذلك لا يمنع أن تطالع عالم المادة ، وهي في عالم الروح بصفحات أخرى تظل الى الأبد خفاقة.

١٨ — المسألة الـكبرى

و بعد فماذا وراء هذا كله ، والى أي طريق يسوق الانسانية ؟ وتلك هي المسألة الـكبرى التي يسعى الى شرحها العلم الروحي الحديث .

(١) فأما الظواهر أو الأحداث المادية التي تتم في حجرة التحضير فهي تجريب حسي حقيقي صحيح ، وأمرٌ واقع يجب أن يسلم به الانسان . وهي جزء من قصة معرفة الانسان بالـكون ووقوفه على سر من أسراره .

(٢) وأما البحث الروحي فانه يثبت حقائق لا تتصل فقط بعالم المادة المحسوس بل بعالم آخر لا تدركه حواسنا ، وهذا العالم هو الدولة الروحية التي قوامها الشخصية الآدمية لا الجسد المادي . وان هذه المنطقة الخفية لتدعو الروّاد لاستكشافها طالبة اليهم أن يبحثوا في حقيقتها لـكي يظهروها للملأ ، إذ أن فيها سر الخلود . وليس هناك ما هو أجمل ولا أنبل من حلٍّ علمي سليم لمسألة بقاء الشخصية و بقاء الوعي بعد ذلك التغير الذي نسميه موتاً ، وهي تلك المسألة التي نسلم بها عن طريق الايمان ، والتي أصبحت والحمد لله أساس الدراسة التي أنشئت حديثاً في جامعة كمبردج العريقة .

(٣) وأما العلم المادي فقد أفلس عند حافة القبر ، ولا يقدم الدين من الوجهة العملية الاّ تعزية فاترة . وقد نجح العلم الروحي الحديث في قتل المادية ، كما ذهب كذلك باللاأدرية التي اتخذ منها بعض المتعلمين في الوقت الحاضر تكأة ومطية ، وأثبت أن الانسان روح قبل كل شيء ، وأن الـكون كله في أصله روحي لا مادي ، واننا في حالة تطورنا الحالي لا ندرك منه الاّ الشق المادي الذي تترنم اهتزازاته وتتوافق مع اهتزازات أعضاء الحس لدينا ، وان الموت تغير بيولوجي وكيماوي لا أكثر ولا أقل .

(٤) وأما نقّاد العلم الروحي الحديث وكارهوه فهم سلالة تلك العصابة القديمة التي أرهقت أحرار المفكرين وأوسعتهم تعذيباً وتقتيلاً وحرقاً، ولكنهم لعجزهم في الوقت الحاضر عن اتيان أعمال القسوة والوحشية مضوا يسممون العقول والأفكار بتلك النظريات المادية الملتوية حتى لقد ابتدعوا علماً سموه «علم النفس» ينكر وجود «النفس»

ولكن الروحيين على الرغم من كل هذا ساروا قدماً حاملين مشعل العرفان، قائلين مع الرئيس روزفلت «ان أكبر صيد في العالم هو أن تحارب في سبيل مسألة غير متداولة ولا مشهورة حين تعرف أنك على حق فيها»

١٩ — المراجع Bibliography

1 — Cavalcade of The Spirit, by Paul Miller (1943).

2 — The Case for and Against Psychical Belief, Symposinm, edited by Dr. Carl Murchison, Copyright, 1927, by Clark University.

3 — Encyclopaedia of Psychic Science, bv Dr. Nandor Fodor, L. L. D. (1933)

4 — Psychic News, numbers : 494, 495, 496, 497, 498, 499, 500, 501, 502, 593 (issued in 1941, 194?) ..

فهرست

في العلم الروحي الحديث

تأليف

أحمد فهمي أبو الخير

يتضمن هذا الكتاب أحدث البحوث والنظريات الروحية التي تهدم الى حد كبير تلك الآراء السيكولوجية والمادية المتقلقلة السائبة . فهو يحدثك عن ظواهر عالم الروح ، ويحدد لك مقره في لوحة الكون ، ويشرح لك طرق الاتصال به . ويفسر لك النوم والاحلام والموت الظاهري والاسراء والمعراج ، ويفصل لك علاقة العلم الروحي الحديث بالجريمة ، ويتكلم عن المجلوبات الروحية والمأخوذات وعن الموسيقى الروحية والفوتوغرافية الروحية والعلاج الروحي كما يراه أساتذة الطب في الغرب . ويصف تجارب العلاج الروحي التي تمت في القاهرة موضحة بالصور الفوتوغرافية ومدعمة باعترافات المرضى وشهادات بعض حضرات الاساتذة في كلية الطب بمصر . وقد حضر بعضهم جلسات العلاج

ويجد القارىء فيه رسائل ممتعة في العلم والادب والشعر والاجتماع بعث بها المقيمون في عالم الروح من علمائنا وقادتنا وغيرهم . وعدا هذا يشتمل الكتاب على بيان مسهب يحل لغز الساحر هوديني الذي كان وسيطاً متساحراً ، ويفصح عن قانون تكوين الارواح أو الأشباح ، وعن جيراننا غير المرئيين من غير الارواح وغير ذلك .

ويتناول الكتاب تطبيق النظام الموجي على الظواهر الروحية ويختم بخمسة بحوث مترجمة .

الاول — « الظواهر الروحية في ضوء العلم الحديث » للعلامة هايوارد .

الثاني — « البحث الروحي كدراسة جامعية » للعلامة السيكولوجي الاستاذ مكدوجل أحد محكمي لجنة مجلة السينتفك أمريكان لبحث الظواهر الروحية .

الثالث — « هل يستحق البحث الروحي أدنى عناء ؟ » للدكتور ولتر فرنكلن برنس رئيس جمعية البحوث الروحية الامريكية وأحد محكمي لجنة مجلة السينتفك أمريكان سالفة الذكر .

الرابع — « البحث الروحي والفلسفة » للعلامة هانز دريش أستاذ الفلسفة في جامعة ليبزج ورئيس جمعية البحوث الروحية البريطانية .

الخامس — « بعض الوجوه المنطقية للبحث الروحي » للعلامة شلر أستاذ الفلسفة في جامعة اكسفورد

والبحوث الاربعة الاخيرة نصوص محاضرات ألقاها هؤلاء العلماء الاعلام في جامعة كلارك الامريكية سنة ١٩٢٧ بدعوة منها ، أي قبل أن يصبح العلم الروحي دراسة جامعية كما هو الآن في جامعة كمبردج وغيرها .

والكتاب كله مزين بالصور والرسوم ويقع في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير

قريباً يظهر هذا الكتاب

كتب أخرى للمؤلف

بين تأليف وترجمة

أولا — روايات قصصية :

المملوك المفقود	.. ..	سنة ١٩٢٦
الأميرة المصرية	.. ..	سنة ١٩٢٦

ثانياً — كتب علمية :

مذكرات التاريخ الطبيعي	.. ..	سنة ١٩٢٥
السينماتوغراف وهندسته	.. ..	سنة ١٩٢٩
علوم العرب الرياضية وانتقالها الى أوربا		سنة ١٩٣٠
هرم الجيزة الاكبر ـ مقاصده وعملياته البنائية		سنة ١٩٣٠
حرب الغازات (محاضرة)	..	سنة ١٩٣١

ثالثاً — في العلم الروحي الحديث :

ظواهر الروحية (ملخص أعمال سير وليم كروكس)		سنة ١٩٣٩
خلق الانسان من تراب	.. ..	سنة ١٩٣٩
عالم الروح في ضوء العلم الحديث	..	سنة ١٩٤٠
العلاج الروحي كما يراه الطبيب الدكتور ادوين فردريك باورز		سنة ١٩٤٠
الروحية والجريمة	.. ..	سنة ١٩٤٢
العلم الروحي الحديث في الجامعات	..	سنة ١٩٤٤
السيكولوجيا والروح	.. ..	سنة ١٩٤٥
العجيبة الثامنة	.. ..	سنة ١٩٤٦
ظواهر الطرح الروحي	.. ..	سنة ١٩٤٦

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي

في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات

في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
ص

١٢٠ في القطر المصري والسودان

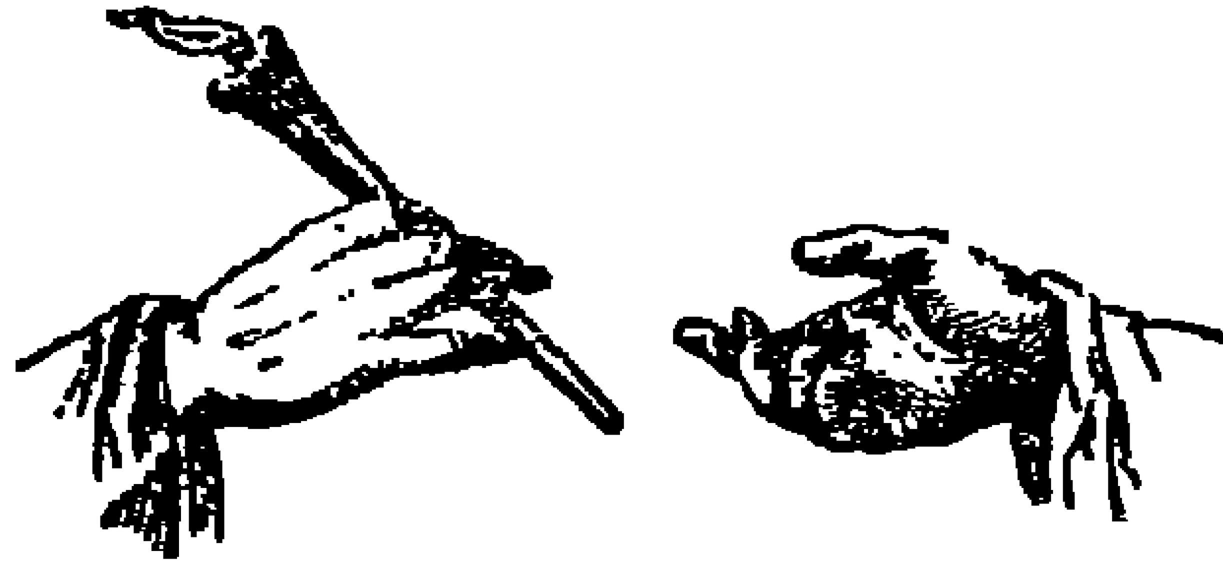
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

٧ دولارات لاميركا الشمالية

٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]



المقتطف

الجزء الخامس من المجلد التاسع بعد المئة

١٠ دسمبر ١٩٤٦ — ١٦ محرم ١٣٦٦

أنا النَّذير لكم مني مجاهرة — كي لا ألام على نَهْيي وإنذار
فإن عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا — أن سوف تلقونْ خزياً ظاهر العار
لترجعنَّ أحاديثاً مُلَعْنَنَةً — لهوَ المقيم ولهوَ المدلج السّاري

(قيس بن رفاعة)

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف و الدكتور فارس نمر

رئيس تحريرها اسماعيل مظهر

قيمة الاشتراك — في القطر المصري ١٢٠ قرشاً مصرياً وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الولايات المتحدة ٧ دولارات اميركية وفي عدن وأفغانستان وايطاليا والمانيا وبلاد الانجليز ٣٠ شلناً

اشتراك الطلبة والمدرسين — قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بقيمة الاشتراك وبشهادة من رئيس المدرسة تكون ١٠٠ قرش مصري في مصر و ١١٠ قروش مصرية في الخارج بالبريد العادة

الاعداد الضائعة — الادارة لا تعد بتعويض المشتركين ما يضيع من اعدادهم في الطريق ولكن تجتهد ان تفعل ذلك

المقالات — لا تقبل المقالات للنشر في المقتطف الا اذا كانت لهُ خاصة ولا يعد قلم التحرير بارجاع المقالات التي لا تنشر فنرجو من حضرات الكتّاب ان يحتفظوا بنسخة من المقالات التي يرسلونها

العنوان — ادارة المقتطف بالقاهرة — مصر

AL-MUKTATAF

An Arabic Monthly Review of Current Science and Literature.

Published in Cairo Egypt

Founded 1876 by Drs. Y. Sarruf & F. Nimr

Edited by I. Mazhar

المقتطف ٧

الجزء الخامس من المجلد التاسع بعد المئة

١٠ دسمبر سنة ١٩٤٦ — ١٦ محرم سنة ١٣٦٦

التعاليم اللاهوتية
في أصل الحيوان والانسان

في إحدى نوافذ كاتدرائية مدينة « أولم » نقش على الزجاج يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى ، يمثل فيه الواحد القهار منهمكاً في خلق الحيوانات ، وفي تلك الفترة بالذات خرج من بين يدي العناية القدسية « فيل » كامل الأوصاف ، وهو مثقل بالدروع وعليه سرج وغطاء ، كأنه على أتم الأهبة للقتال .

ولقد وردت أمثال من هذه التصورات في مخطوطات علمية ، وفي الكتب المطبوعة القديمة ، وتجمعت كل هذه التصورات والآراء في نواة واحدة ، ظهر فيها العزيز القدير مجدّاً في تصوير أول إنسان من « صلصال كالفخّار » منتزعاً من جنبه ، بكل مشقة وقوة ، أول امرأة ظهرت في الوجود .

* * *

على أن هذه النظرة العامة في أسلوب الخلق قد انحدرت إلينا من خلال الأزمان القديمة ، حيث كانت قد ظهرت لابسة صوراً شتى من آراء كونية عتيقة مختلفة الصور والألوان . فأنت ترى حتى اليوم في المعابد المصرية القديمة بجزيرة « فيلة » و « دندرة » أمثالاً تريك كيف يجبل آلهة النيل كتلاً من الصلصال فتخرج من بين أيديهم رجالاً ، وكذلك تقع في الألواح الأشورية على مثل هذا العمل منسوباً إلى آلهة بابل حتى إذا انحدرت بك السنون إلى

عصرنا هذا ، وقلبت كتبنا المقدسة ، ألفيت أن هـذه الآراء والتصورات بعينها ، قد اتخذت قاعدة لتطور جديد أسبغت ذيوله على اللاهوت الحديث .

* * *

مضى آباء الكنيسة قانعين بأن يعكفوا على النص الحرفي الذي صيغت فيه أسطورتا الخلق المتناقضتين في سفر التكوين ، وبعد أن أفرغوا جعبة الجهد والبحث في سبيل التوفيق بين تينك الروايتين ، وأدمجوها لتكونا شيئاً واحداً ، رضوا بأن يعتبروها آخر محك للرأي ومجس للفكر في أصل الكون وكل ما فيه .

* * *

وفي بداية القرن الرابع الميلادي وضع « لاكتانتيوس » أول قاعدة لتلك الطريقة التي لم يقصد بها من شيء إلا إخضاع كل الأشياء الأخرى التي اتخذت وسيلة لدرس الخلق ومنشئه للمتن الحرفي الذي جاء في الكتب المقدسة ، وأيـد فكرته في خلق الإنسان بإشارة لغوية قائلاً بأن آخر مخلوق خلق هو « الإنسان » لأنه صنع من الأرض Homo ex humo

وفي النصف الثاني من القرن الرابع بذاته أيـد القديس أمبروز : St. Ambrose أسلوب النص الحرفي الذي جاء في المتون المقدسة خاصًّا بالخلق ، وهو ذلك الرجل الذي أعلن في كتابه الذي بحث فيه أصل الخلق — « إن موسى قد فغر فاه وصبَّ منه كل ما قال الله له ».

ولكن رجلاً أعظم من هذين قد استطاع أن يربط هذه الفكرة باللاهوت النصراني وأن يوثّق لها منه . فإن القديس « أوغسطين » في كتابه « تعليقات على سفر التكوين » قد وضع في جملة واحدة قانوناً جامعاً ظلّ للكنيسة دستوراً حتى عصرنا هذا ، إذ قال :

« لن نقبل منه شيء إلا إذا أيدته الكتب المقدسة بسلطانها ، لأن هـذا السلطان أعظم من كل القوات التي يختص بها العقل الانساني » . . . . على أن قوة السبك التي تأنسها في الجمل الأصلية ، قد جعلت اصداءها ترن خلال القرون المتعاقبة [1].

وعلى الرغم من ذلك الانقلاب الكبير الذي أثاره القديس « أوغسطين » نفسه ، وتابعه فيه سلسلة من أعظم رجال الكنيسة محاولين أن يحوروا في الآراء التي سادت في أصل

(1) Major est Scripturde anctoritas quam omnis humaini ingenii capucitas.

الـكون ، فان قَـوْلَةَ « أوغسطين » قد ظلت مغشية على عقول الناس أشد الغشاوة طوال القرون الوسطى .

أمّـا « فنسنت بوفييه » الدومينيكي ، ومن أكبر الانسيكلوبيديين ، فعلى الرغم من أنه مضى في كتابه « مرآة الطبيعة » يخرّج آراء استمدها من ارسطوطاليس ، بآراء أخذها من الانجيل ، فانه وقف يؤيد أولى الروايتين اللتين وردتا في سفر التكوين ، وأظهر الفضائل العظمى التي يختص بها الرقم « ستة » ، ليتخذ ذلك سبيلاً الى القول بأن هذا هو السبب في أن كل الأشياء قد خلقت في ستة أيام .

***

وفي أواخر العصور الوسطى قبل العـلامة الثبت الـكردينال « دايلي » كل شيء جاء في الـكتب المقدسة خاصًّا بالخلق قبولاً حرفيًّا بلا تبديل أو تحوير . وانـك لا تقع في خلال كل هذه العصور المتطاولة على نزعة الى انكار شيء من هذا ، اللهمُ إلاَّ فيما كتب ثقة آخر من الثقاة هو « غريغوري ريش » : « Gregory Reisch » ، فقد ذكر في كتابه الذي خصه بالـكلام في بدايات الأشياء ، بعد أن وضع فيه صورة من الحفر على الخشب مثلت الواحـد القهار ينتزع حوّاء من جنب آدم ، كما مثلت كل الطبيعة المخلوقة في ظهرية اللوحة ، ما يظهره بمظهر القانع بفكرة القديس « أوغسطين » من الاعتقاد بوجود مادة سبقت بالوجود الخلق في الزمان .

وفي عصر الاصلاح الديني ولج « لوثر » بسلطانه العظيم ذلك الميـدان مؤيداً فكرة قبول النصوص الحرفية التي جاءت في الـكتب المقدسة ، واعتبـارها النبع الأوحد لـكل العلوم الطبيعيـة . ولقد رفض كل التفسيرات المجازية أو التصوفية التي قال بهـا متقدمو اللاهوتيين قائلاً :

« لماذا يلجأ موسى إلى المجاز بينما هو يتكلم في مخلوقات حقيقيـة أو عالم منظور يمكن أن يرى وأن يلمس وان يدرك ؟ ان موسى إنما دعى الأشياء بأسمائها الحقيقيـة ، كما يجب علينا أن نفعل . وإني أعتقد ان الحيوانات قد وجدت دفعة واحدة في عالم الله ، كما وجدت الأسماك في جوف البحار » .

ولم يكن تشبث « كالفن » بفكرة النص الحرفي لرواية الخلق في سفر التكوين ، بأقل من تشبث « لوثر » . ولقد أنذر الذين يجرءون على الاعتقاد بوجهة من النظر تخالف ما يذهب اليه ، بأنهم بذلك إنما ... « يسيئون الخالق ، وانهم يكونون على نظيرةٍ من قاضٍ عادل ينسفهم نسفاً » .

ولقد مضى معتقداً بأن كل أنواع الحيوان قد خلقت في ستة أيام كل منها ليل ونهار، وانه لم يظهر منذ ذلك العهد أي نوع جديد على اطلاق القول . وقال بأن الطيور قد استحدثت في الماء ، ذاكراً أن هذا القول تجيزه بعض نصوص من الكتب المقدسة . ولكنه يضيف الى ذلك :

« انه اذا كان لا بد من أن يجاب على هذا السؤال من ناحية القواعد الفوسيقية ، فأنت تعرف أن الماء أكثر قرباً للهواء منه للأرض » (١) .

وعلل بعض الصعاب التي واجهته في لزومه لظاهر رواية الخلق كما وضعت في الكتب المقدسة بقوله ان الله : « رغب بتلك الصعوبات أن يبرهن لنا على قوته وسلطانه ، فأفرغ علينا الدهشة والعجب » .

* * *

ولقد تشبثت بهذه الفكرة كل العقول الفذة في الكنيسة الرومانية . وفي القرن السابع عشر أسبغ « بوسيه » Bossuet عليها من ضياء عقله الكبير أنواراً كستها أبهى الحلل . ففي كتابه « بحوث في التاريخ العام » ، ذلك الكتاب الذي ظل القاعدة الأساسية ، لا لتعاليم اللاهوت وحدها ، بل لكل التعاليم التاريخية في فرنسا حتى عصر الجمهورية الأخيرة (الثالثة) نجده وقد عمد الى تنبيه الأذهان الى ما يعتبره آخر ما نزل به الوحي من حقيقة الخلق ، مؤيداً القول الحرفي بأن الأرض لم تخلق الا للانسان — « وان يد الله هي التي تحفظ على المادة القابلة للفوضى نظامها المحكم المرسوم » .

(للبحث بقية)

---

(١) الغرض من ذلك أن الماء ما دام أقرب الى الهواء منه إلى الارض ، والطيور سكنها الهواء ، اذن فهي مخلوقة من الماء .

تحقيق ولادة النبي

صلى الله عليه وسلم[1]

بيان حشّاد الفلكي

﴿ مقدمة ﴾ — اختلف المؤرخون والمؤلفون في تصحيح ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأخطأوا خطأً ظاهراً. وأخطاؤهم هذه جعلت الناس لا يغتفرون لهم هذه الأخطاء. لأن تاريخ ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر واضح كوضوح الشمس في رائعة النهار ولكن هؤلاء المؤلفون والمؤرخون لم يقتبسوا قبساً من نور فيستضيئون به في بحوثهم وتحقيقاتهم العلمية أو التاريخية. فلذلك ضلوا الطريق، فوقعوا في هذه الاخطاء فاللهمّ عفوك

﴿ حجة الوداع ﴾ — ان أظهر يوم في حياة النبي هي حجة الوداع وقد كانت في السنة العاشرة بلا خلاف فيها وكان يوم عرفتها تاسع ذي الحجة يوم الجمعة (٦ من مارس سنة ٦٣٢ م)

وهذا لأن أول شهر ذي الحجة كان يوم الخميس بالحساب وبالرؤية ولا يوجد خلاف في ذلك وهو يوافق (٢٧ من فبراير سنة ٦٣٢ م).

هذا اجماع من كل الأمة وقد نصّ على هذا النبي صلوات الله عليه وسلم في خطبته فقال ما معناه (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم) اي عاد التاريخ صحيحاً من دورات الأفلاك التي تقتبس منها مقاييس التاريخ والحساب، فالرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد وضع الأساس وعلينا أن نبني عليه الحساب والتاريخ. وعلى هـذا النظام السالف الذكر كان أول السنة الحادية عشر من الهجرة يوم السبت (٢٨ من مارس سنة ٦٣٢ م) بحكم الرؤية والحساب أيضاً لأن السنة العاشرة على اصطلاح أهل الحساب كبيسة فيكون شهر ذي الحجة ٣٠ يوماً ويدخل صفر الخير يوم الاثنين (٢٧ من ابريل سنة ٦٣٢ م) وأول ربيع الأول يوم الثلاثاء وبالرؤية في أفق المدينة المنورة يوم الأربع (٢٧ من مايو سنة ٦٣٢ م) وأكملت عدة أيام صفر.

﴿ تاريخ وفاة النبي ﴾ — وجاء في الجزء الثالث من السيرة الحلبية حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صدر عائشة. وذلك في يوم الاثنين حين زاغت الشمس لإثني عشر

---

(١) الصحيح في تاريخ ميلاده هو يوم ٩ ربيع الاول وليس يوم ١٢

ليلة خلت من ربيع الأول. هكذا ذكر بعضهم وقال السهيلي (لا يصح أن يكون وفاته يوم الاثنين الا في ثالث عشرة أو الرابع عشرة لاجماع المسلمين.

فثالث عشرة الذي ذكره السهيلي هو في الحقيقة على الرؤية وأما رابع عشرة فهو بالحساب الاصطلاحي . مما تقدم تبين لنا أن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ و ٨ يونيو سنة ٦٣٢ م) وهذا ثبت بالتحقيق ولا خلاف في ذلك

﴿تاريخ الميلاد العربي﴾ : ومما هو معروف واتفق عليه الأكثرون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عاش ثلاثاً وستين سنة قمرية تامة وأن مولده كان في شهر ربيع الأول في يوم الاثنين وكان ربيع الأول سنة المولد يوم الأحد فيكون مولد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول بالتحقيق وليس ١٢ لأن يوم ١٢ يوافق يوم خميس — ولكن المشهور كما ورد أن مولد النبي يوم الاثنين ويوم الاثنين هذا بالتحقيق هو ٩ من ربيع الأول .

﴿عمر النبي بالأيام﴾ : حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش ٦٣ سنة قمرية تامة فيكون مبدؤها من يوم ٩ من ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة لغاية ٨ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية وتكون الأيام الزائدة عن ٦٣ سنة قمرية هي خمسة أيام وهي أيام ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ. فاذا حولنا عدد الـ٦٣ سنة قمرية وهي مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم الى أيام بأن ضربنا عدد السنين البسيطة في ٣٥٤ يوماً وعدد السنين الكبيسة في ٣٥٥ يوماً وأضفنا الخمسة أيام الزائدة لكان الحاصل ٢٢٣٣١ يوماً وهي مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأيام .

﴿تاريخ الميلاد الافرنجي﴾ : مما تقدم تبين لنا أن مدة عمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأيام ٢٢٣٣١ يوماً فهذا المقدار يوازي بالضبط ٦١ سنة شمسية و ٥٠ يوماً بالدقة والحساب فاذا تقهقرنا الى الوراء من يوم (٨ من يونيه سنة ٦٣٢ م) وهو تاريخ الوفاة بالتحقيق بمقدار ٦١ سنة شمسية و ٥٠ يوماً لكان اليوم الذي نصل إليه هو يوم (الاثنين ٢٠ من ابريل سنة ٥٧١ م) وهو تاريخ ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم بغاية الدقة .

﴿مرسوم ملكي﴾ : لذلك نطلب من حكومتنا الرشيدة العمل على إصدار مرسوم ملكي يجعل الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة ٩ من ربيع الأول وليس ليلة ١٢ من ربيع الأول . وبهذا العمل الجليل تكون مصر وهي زعيمة العالم الاسلامي وحاملة فنار العلم ولواء الوحدة العربية، قد حققت أعظم وأجل درة في الشعائر الاسلامية في أزهى العصور وهو عصر الفاروق أطال الله في عمره وحقق للاسلام والمسلمين في عهده كل خير وفلاح .

عبد المقصود حشاد الفلكي

تجربة جديدة

في ألياف الرامي

وصفت نبات الرامي في مقال ضافٍ نُشر في مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦ ثم قرأت نبذة عليه ، وذلك في أحدث ما ورد عليّ من المجلات الانكليزية العلمية فآثرت نقلها الى قرائنا لكيلا تفوتهم فوائدها : —

الرامي نبات ليفيّ ، شرقي الأصل ، عجيب النفع ، وقد ورد ذكرهُ في الرسالة الزراعية الصينية الامبراطورية التي نشرت في بلاد الصين في سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد المسيحي . وسيجرب زرعه ثم تقشيره تجربة أخرى في مستنقعات اقليم فلوريدا . وذلك في بضعة الأشهر القادمة ، حيث تقوم شركتا سكر الولايات المتحدة الأميركيـة ، وصناعات نيويورك في مدينة بنساكولا في فلوريدا بإنشاء مصنع لتقشير الرامي الذي ينتج هنـاك من ألف فدان زرعت أولاً لهذا القصد . وستزاد هذه المساحة أخيراً الى ألفي فدان . وهاتيك الأطيـان عدا خمسة آلاف فدان ابتاعتها شركة فلوريدا الخاصّة بمنتجات الرامي ، وذلك من مستنقعات الاقليم السابق الذكر ، قصد زراعتها رامياً .

***

ولا غرو فان تيلة الرامي صالحة لنسج الثيـاب الجذّابة المتينة ، وأثاثات البيوت ، والسيور المتينة التي تستعمل لادارة الآلات ، . هـذا عدا منسوجاته التي تتشرب مواد الصباغ تشرباً جيّـداً ولا تنكمش ولا تبلى إلاّ بعد زمن مديد . والرامي شعر نباتي مثـل القنّـب أو الكتّـان أي انه ينتج من سيقان النبات لا من زهره ، على نقيض القطن . أما السيقان فتحتوي على جمّـار أو نخاع أبيض ليّـن . ويلي النخاع خشب رفيع هو حامل النبات . ثم قشره الداخلي وهو مملوء بالألياف المقرونة بمادة صمغية مستعصية وفوق هاتيك العناصر يوجد القشر الخارجي وهو رفيع جدّاً ، ملتصق بسائر الاجزاء التصاقاً محكماً .

ومن دأب أهل الصين عند حصد محصول الرامي من منابته تجريده من لحائه أي قشوره

الخارجية والداخليـة المحتوية على اليافه ثم يقومون بفصل اللحاء ، وما يصحبه من المادة الخضراء ، من هاتيك الألياف تقشيراً بالأيدي ، والمدى ، أو الأصداف الحادة .

وقد اخترعت آلات كثيرة لتقشير الرامي . وأجودها الى الآن ، ما أنتجته مصانع كروب في المانيا . وهي الآلات عينها التي استوردها اليابانيون من هناك إلى جزائر الفيلبين حيث استخدموها في أقليم داڤاو Davao في جزيرة مندناو وقد تمَّ لهم ذلك في أوائل سنة ١٩٣٠ وما بعدها ، فنجحت في تقشير القنَّـب والرامي كليهما .

وبلغ محصول الرامي في الفيلبين في الأشهر الثمانية الأولى من سنة ١٩٣٩ ، مليونين ونصف مليون رطل ، فاستوردت بلاد بريطانيا العظمى ثلاثة أرباع تلك الـكمية واستوردت بلاد الولايات المتحدة الأمريكية سائرها .

* * *

ويعتقد بعض العلماء المتخصصين في دراسة الرامي أنه ما دام شـعر الرامي يحسن نزعه عند ما يكون النبات غضّـا ، فالأفضل لنزع قشوره استخدام الآلاتِ الصغيرة المقشرة التي يتاح نقلها من مزرعة إلى أخرى . أجل أن الآلة الصغيرة إنما تستطيـع تقشير كمية محدودة من الألياف ، قد لا تزيد على مائة رطل في اليوم . أما الشراح الزراعيون فيؤيدون الوسائل الاجمالية إذ يرون عكس ذلك ويؤثرون حصد الرامي بالآلات الحصَّـادة العصرية ثم نقله جملة إلى مصانع التقشير . وحجتهم في ذلك أنه ما دام الفدان ينتج ثلاثين طنًّـا من نبات الرامي في السنة ، يستخرج منهـا طن واحد من شعره ، فلا بدَّ من إقامـة مصانع التقشير أقرب ما يمكن إلى المزارع ، بغية إقلال نفقات النقل الى أقل درجة لأن الحصَّـادة الحديثة يمكنها حصد عشرين فداناً في اليوم من محصول الرامي لـكي يتسنَّى نقل الحصيد على عجل الى مصنع فلوريدا . وعند ما يتم تقشير الرامي يكون شعره ثقيلاً مائلاً الى الاصفرار مشفوعاً بكمية كبيرة من الصمغ اللاصق به . فيغدو حينئذٍ أصلح ما يكون لصنع الدوبارة وحبال السفن وحبال قلوع السفن والرايات وشباك صيد السمك وحبال ربط قاطرات البواخر . أما شعر الرامي الذي تنسج منه المنسوجات فيطهر أولاً من صمغه .

عوض جندي



معجزة
في عالم الجراحة



للروس في مجال العلم مكان ملحوظ ، فقد كانوا في العهد القيصري كما هم في العصر الشيوعي من مقدمي الباحثين ذوي السبق في مجال الطب والهندسة والجراحة وعلم النفس .

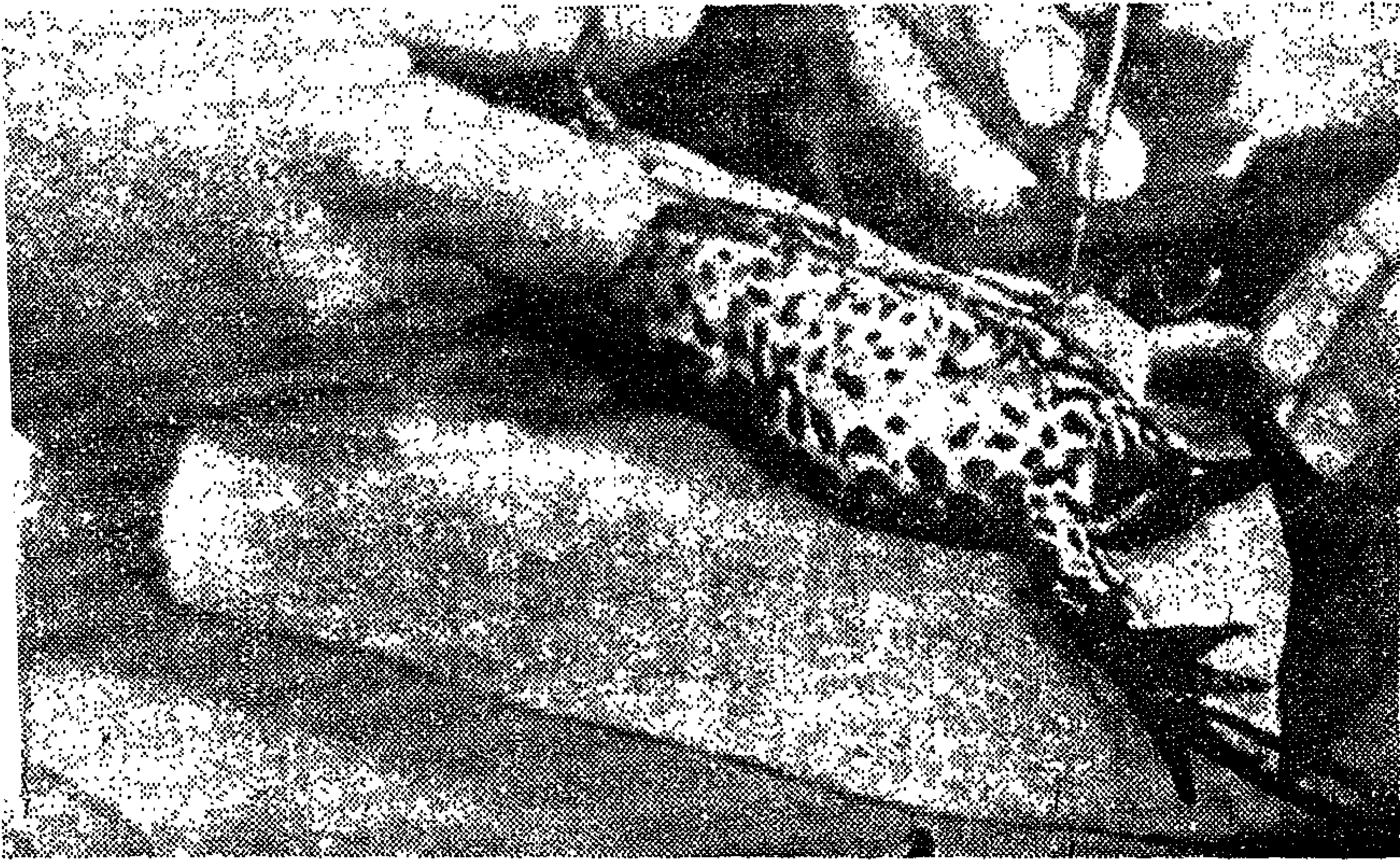


قلب انسان ميت انتزع من جثته بعد أن مضى على موته أربعة أيام ، ثم أخذ ينبض ثانية عندما هيء له ذلك الجهاز المعقد من الانابيب والصمامات وهو يغذى بسائل مركب تركيباً خاصاً ، وقد يمضي نابضاً اثنتي عشرة ساعة . وهنا دكتور « سرغي أندرييف » ينظر اليه بانتباه العالم المدقق في مستشفى بوتكين بموسكو

وفي الشتاء الماضي ، وفي مدينة غوركي ، استطاع العالم الروسي « نيقولاي سنتزف »

Nicolai Sinitzyn أن يقطع قلب ضفدع حيّ ويستبدل به آخر . وعاش الضفدع .

وبعد وقوع هذه التجربة بأشهر قلائل ، وفي موسكو ، أخذ العالم « سرغي اندرييف » Sergei Andreyev قلباً بشريًّا من جثة بعد أن وقع بها الموت بمئة ساعة ، واستطاع أن يجعل هذا القلب ينبض نصف يوم . لقد أمضى الوظائفيون (الفزيولوجيون) Physiologists : سنين عديدة يحاولون إجراء تجارب على القلب ، وهو أول أعضاء الجسم الرئيسية . فاستطاعوا أن يحتفظوا بقلوب الكلاب نابضة بعد الموت ، كما أمكنهم أن يصلوا قلوباً اضافية الى قلوب الحيوانات من ذوات الحرارة الثابتة ومن ذوات الحرارة المتغيرة .



هكذا تبدأ العملية الجراحية في ضفدع يطرح على ظهره فوق منضدة ويشد فكه الاسفل بمقبض ليتمكن دكتور سينتزن ان يجري تجربته من خلال فمه الواسع

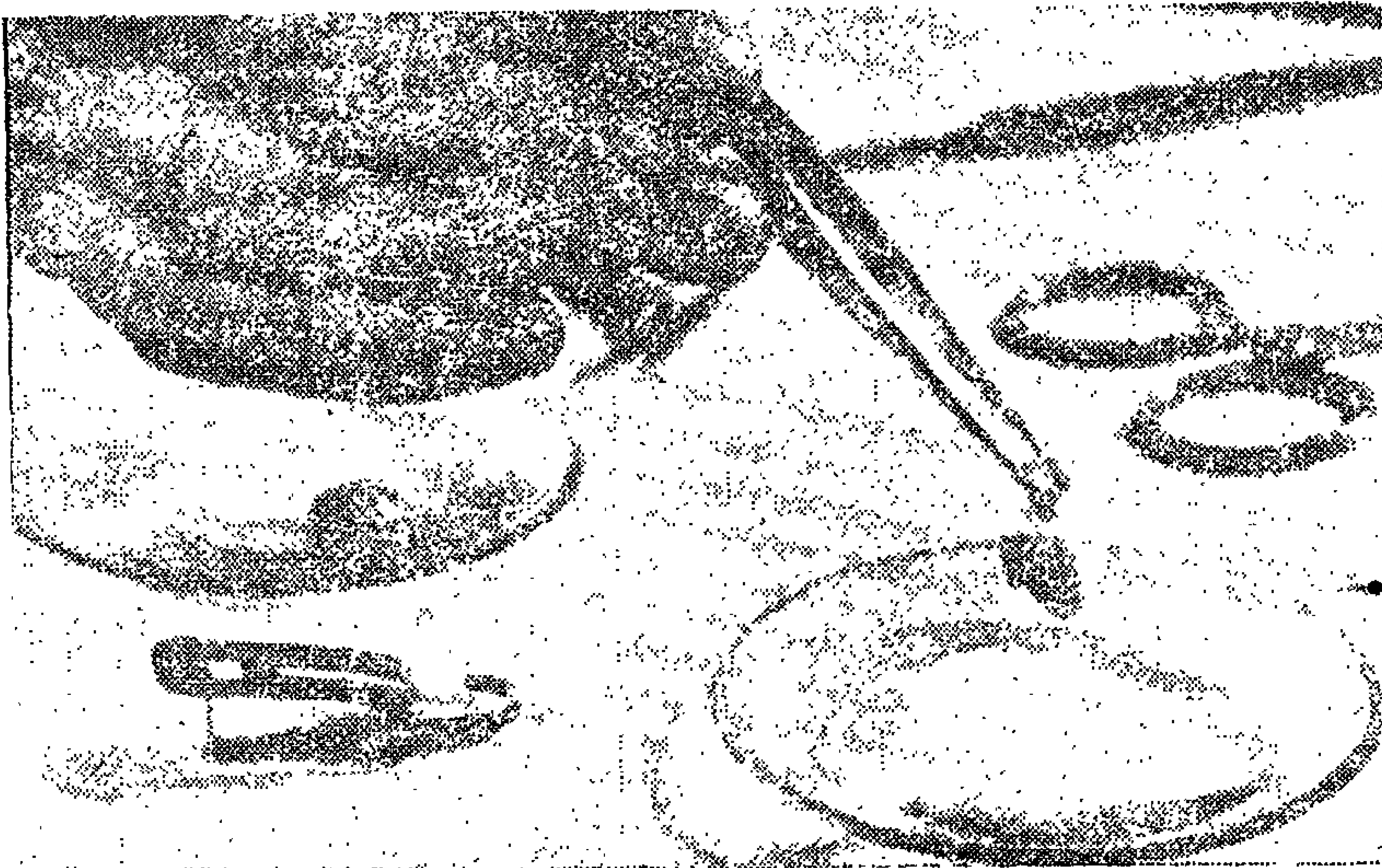
واستطراداً نقول أن الحيوانات ذوات الحرارة الثابتة ، هي التي يسميها البعض خطأ « ذوات الدم الحار » Warm-blooded = Hæmatothermals وذوات الحرارة المتغيرة هي التي يسميها البعض خطأ ذوات الدم البارد : Cold-blooded = Poikelothermals فكأنهم استطاعوا أن يفعلوا ذلك بحيوانات يصلها بالإنسان صفة ثبات الحرارة ، وحيوانات أخرى كالأفاعي والضفادع وغيرها .

في عصرنا هذا تخطت هذه التجارب الحد الذي وقفت عنده من قبل . والتجارب التي قام بها سينتزن وإندرييف تجارب مستقلة بعضها عن بعض ، ولكن قد يتضح فيما بعد أن بينها علاقات علمية تساعد المقدمين من الاخلاف على متابعة البحث .

على أن العالمان الروسيان لا يقولان بأن استبدال القلب بغيره ممكن في الانسان ، فإن الصعوبات التي تعترض استبدال القلب البشري بغيره مختلفة تمام الاختلاف عن تجارب

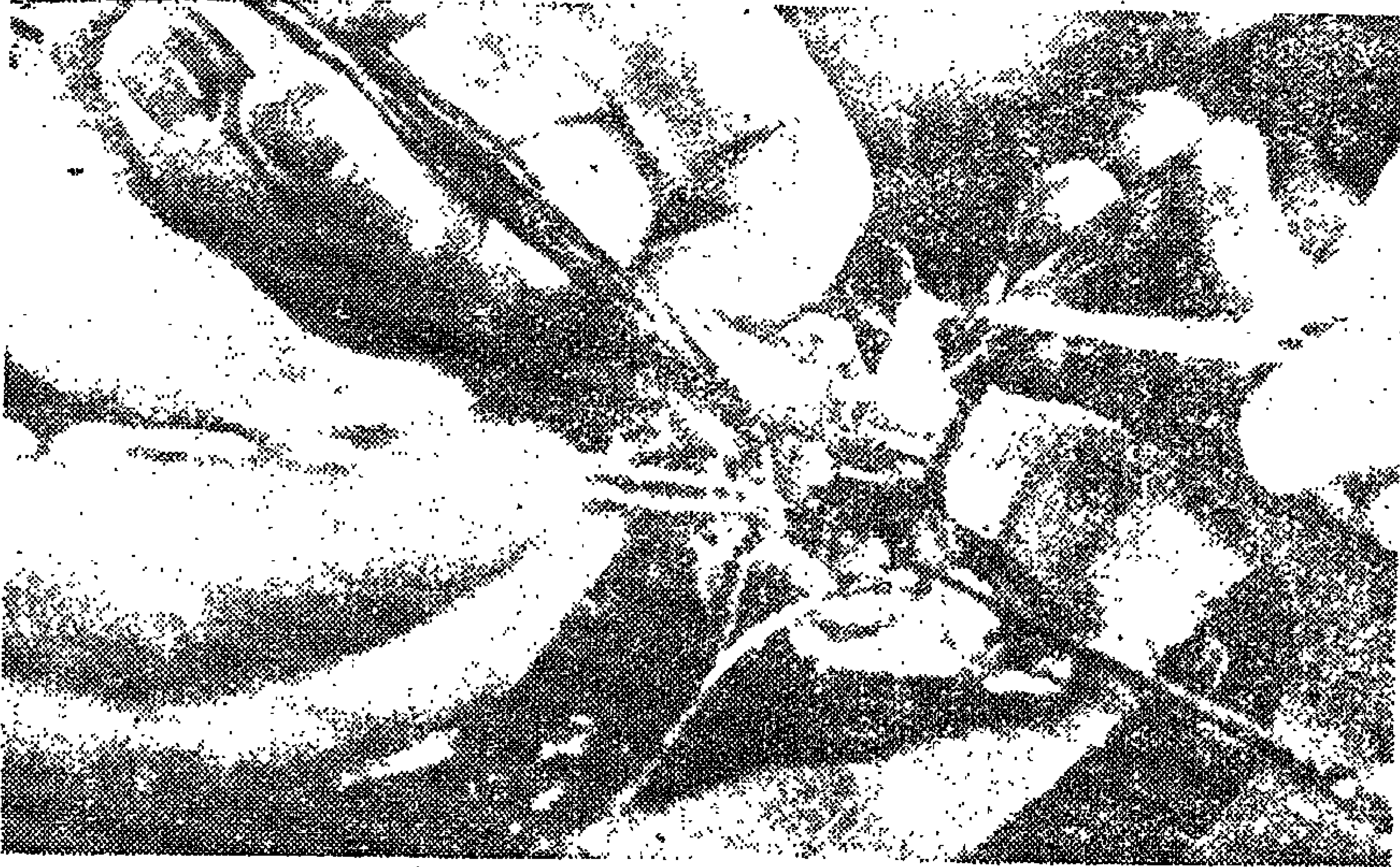


دكتور "سينتزن ينتزع القلب من جوف الضفدع . والمعروف ان الحيوانات المتغيرة الحرارة أكثر احتمالا لصدمات العمليات القصيرة من غيرها

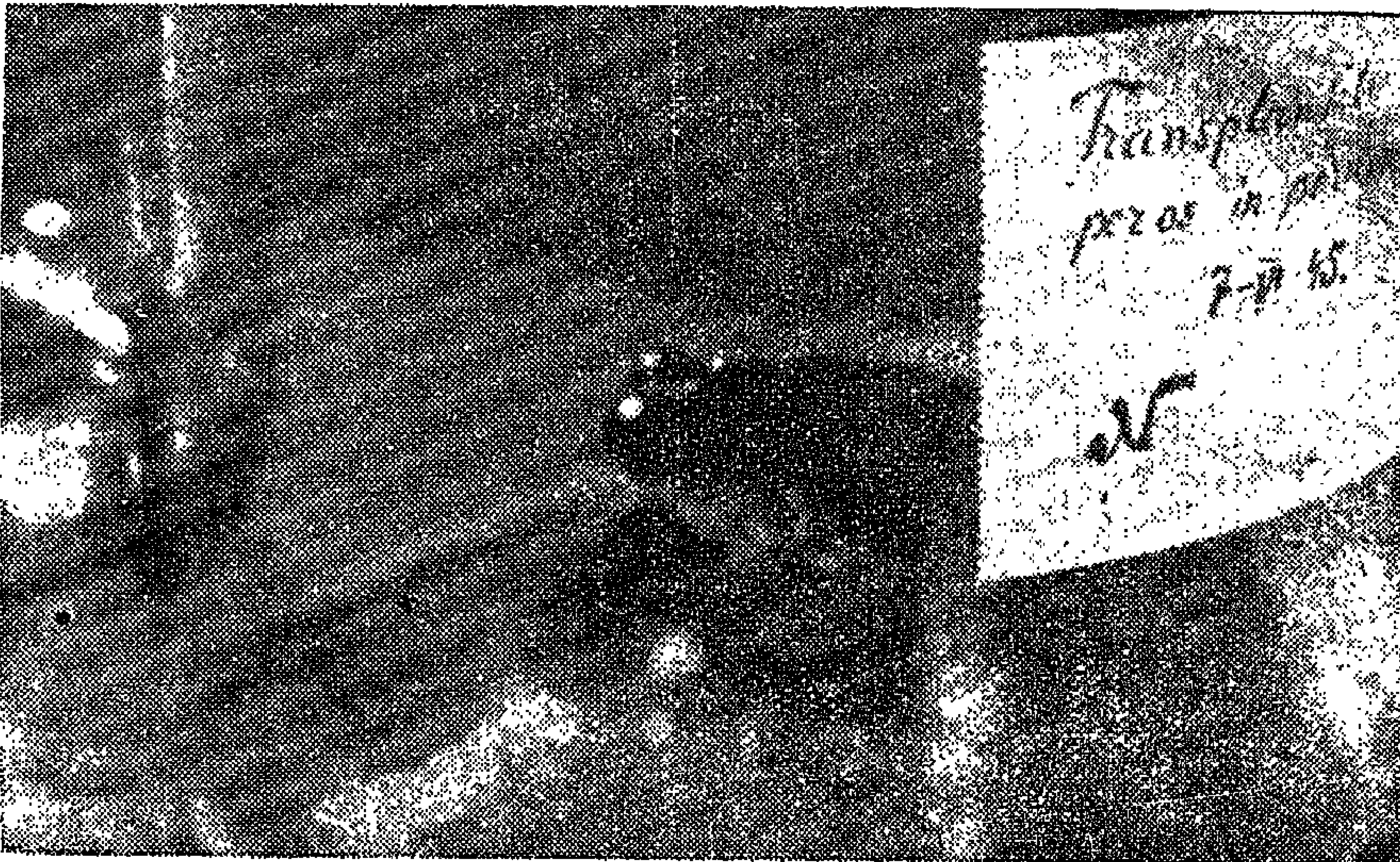


قلب ضفدع آخر يلتقطه سينتزن بمجرد أن يلقي بالقلب الذي انتزعه في الصحن الذي إلى يسار الصورة .. وفي هذه الفترة القصيرة يظل جثمان الضفدع بغير قلب

سينتزن في الضفادع . ولكن قد يكون في هذه التجارب جرثومة أولية من فكرة أو أسلوب أو طريقة يمكن بها استبدال القلب إذا ضعف أو مرض بآخر قوي سليم .



قلب جديد يلج من طريق الفم الى حيث يثبته دكتور سينتزن بطريقة خاصة تمكنه من اتمام العملية بأكملها في زمن يتراوح بين عشرين وثلاثين ثانية



بعد دقيقتين من إجراء العملية التي لم تترك أي أثر ظاهر في الجسم ، يرى الضفدع مستويا في الاناء ، ثم يقفز قفزاته العادية ، والراجح أن يعيش عدة أشهر

الكيمياء عند العرب
وأبو بكر محمد بن زكريا الرازي

حدثتكم في بحثي السابق عن جابر بن حيان ، وأخبرتكم أن أكثر أعماله قد ترجمت في القرون المتوسطة الى اللغة اللاتينية : ولقد قيل عن بعض أعماله أنها أحسنُ ما صنعت يدُ الانسان في الآداب الكيمياوية القديمة : ومن هذه الجامع الأعظم ، وكتاب الاستمام ، وكتاب التنانير . ولكن — ويا للأسف — لم تكتشف بعدُ هذه الكتب في اللغة العربية ، ولذا نرى بعض علماء الافرنج يشكون في نسبتها لجابر ، إلاَّ أن البعض منهم متأكدٌ من أنها من أعماله رغماً عمّا غيّر فيها المترجمون والمؤلفون : ولكي نتحقق هذا القول يجب علينا أن نبحث بكل جد ونشاط عن هذه الأعمال في اللغة العربية . وإن هذا العمل لمن أكبر الأعمال في تاريخ الكيمياء ، فيجب علينا نحن العرب أن نحُلَّ هذه المعضلة قبل أبناء الغرب لأن في مكاتبنا الألوف من الكتب المطبوعة والمخطوطة التي لا يعرف عنها علماء الغرب شيئاً . فاذا بحثنا البحث الطويل فإننا سنجد اكتشافات هامة ، ولربما عثرنا على كتب جابر التي ذكرتها آنفاً : وبهذا العمل نقوم بخدمة كبيرة نحو تاريخ علم الكيمياء ، ونظهر للعالم فضل العرب ، ونساعد على تثبيت الشرف الذي استحقه جابر بن حيان على أعماله الكبيرة الكثيرة .

وبَعْدَ جابر بن حيان تتجه أفكارنا نحو الطبيب الماهر والكيمياوي الكبير أبي بكر محمد بن زكريا الرازي الذي توفي عام ٣٤١ للهجرة وجُلَّ ما يُعرف عن هذا العظيم أنه كان معواناً ذكيّاً وكريماً محبّباً فإنه أدّى الصدقات للفقراء ، وما كان يأخذ شيئاً مُقابلَ تطبيبه المرضى : وإن هذه الشهرة التي اشتهر بها قد جذبت إليه قلوب جميع طلاب المسلمين من أنحاء العالم : ولقد عرفوه طبيباً ماهراً كما عرفوه كيماويّاً كبيراً ، إلاّ أنه لم يهتمّ بالنظريات الكيمياوية وقد صرف جهده في تحضير وتطهير المواد الكيمياوية لأجل امتحانها

في الطب ، وكتب كتباً كثيرة في هذا الموضوع :وهي كتب قيمة جليـلة ، مرتبة ترتيباً منطقيًّا تصف الأشياء جيداً . وكذلك طريقة تنسيقها جيدة جدًّا .

لقـد أخرج بعد تعب كبير ، وعمل طويل أحدُ علماء الغرب مجلداً ضخماً فيه ترجمةُ وشروحُ أعمال الرازي الـكيمياوية وهو كتاب سر الأسرار فكان عمل هذا الاستاذ كبيراً جدًّا لأنه جعل الاوربيين يواصلون ويتتبعون تقدم الـكيمياء عند العرب : فالعرب مدينون لهذا الاستاذ على عمله الجيد وكذلك لن ينسى العرب الأستاذ قدرمان ولا المسيو برتللو ولا الأستاذ أشيلتن في الهند فهؤلاء الثلاثة خدموا العرب خدمات جمة ونشروا الـكثير من علومهم .

ولما توفي الرازي قام ابن سينا ، فيلسوف الاسلام ، وكان لا يعتقد في امكان تحويل المعادن ولم يتردد في التعبير عن آرائه بكل قواه ، وإن انتقاده هـذه النظرية التي كانت مقبولة أفاد كل الإفادة ، ومع أن أكثر الكيمياويين لم يصدقوا ابن سينا فقد أخذوا يفكرون في موقفهم تجاهه واعتنوا أكثر من قبل وحاولوا أن يأتوا بالبراهين الجديدة ليُثبِّتوا آراءهم ونظرياتهم ولذلك نقول إنه كان لانتقاد ابن سينا قيمة ، وساعد علماء العرب على الجد والعمل ، في هـذا الوقت تأصل علم الـكيمياء في الاندلس وظهور الرياضيون والفلـكيون والأطباء والفلاسفة والـكيمياويون الـكبار وتقدم العقل البشري وانتقال العلم الطبيعي من المسلمين الى المسيحيين لأن ألوفاً من المسيحيين من أقطار العـالم أمُّوا الجامعات الإسلامية في الأندلس لِيَتعَلَّم أحدث وأهم علوم ذلك العصر ، وبعد ذلك شرعوا ينقلون ما يتعلمونه الى اللغة اللاتينية التي كان يتكلم بها كلُّ رجل متعلم في أوروبا ، وما تمت هذه الترجمة حتى انتشرت في جهات العـالم الأربع . فبين الـكتب التي ترجمت ، كانت كتب كثيرة في علم الـكيمياء : وأحدُ هـذه الـكتب كتابٌ في تركيب الـكيمياء كتبه مَرْيانوس استاذ خالد بن يزيد ولقد ترجمَ هذا الـكتاب المستر روبرت الانكليزي الذي ترجم القرآن الـكريم ، ونال شهرة كبيرة على ذلك . وترجَمَ أيضاً كتاب الجبر للخوارزمي ، ولقد أتمَّ هـذه الترجمة في شهر فبراير عام ١١٤٤ للميلاد . ولقد قال أيضاً في مقدمته بأن الغربيين لا يعرفون ما معنى الـكيمياء وسأشرح ذلك وأبينُ أن العلم الطبيعي الذي كان الفضلُ

للعرب في تقدمه قد تمّ على يد انكليزي .

كان المجريطيّ من أكبر علماء الطبيعة في الأندلس ، وقيل إنه توفي عام ١٠٠٧ للميلاد . وقد كان ماهراً في العلوم الرياضية كما أنه كان قديراً في علم الفلك وعلم الفرائض . وكثيرٌ من الناس يظنون أنه كتب كتاباً مشهوراً في علم الكيمياء سماه « رتبة الحكيم » وسواءٌ أكان هذا حقيقيًّا أم غير حقيقيّ فإنه من المصادق عليه أن المجريطي تجوّل في الشرق وتعرّف باخوان الصفاء وأرجع معه الى الأندلس رسائلهم وأعاد نسخها ، مع أن البعض منها مغاير للأفكار الاسلامية . ولضرورة الاطلاع على ما كتبه إخوان الصفاء في علم الكيمياء كان عمل المجريطي كبيراً وساعد علماء العصر الحاضر كل المساعدة : نجد في هذه الرسائل تأثيراً كبيراً لجابر والرازي ولا نجد ذكراً لاسميهما .

نأتي الآن إلى برهان الدين أبي الحسن علي الأندلسي المعروف بابن أرفع رأس والمتوفى عام ١١٩٧ للميلاد ، وله اشعار في الكيمياء معروفة بشذور الذهب ، صعبٌ فهمها ، ويجد القارىء خلال هذه الاشعار ابتداء حادث عظُم انتشاره بين الكيمياويين الذين جاؤا بعده ألا وهو الخلط بين علم الكيمياء والسحر والخرافات التي كان قد تخلص منها العلم في أول زمن الاسلام بفضل جابر بن حيان والرازي إلاّ أن أبا القاسم محمد بن احمد العراقي قد رجع إلى الطريق المستقيم وعاش عام ١٣٠٠ للميلاد وكتب كتباً قليلة في علم الكيمياء أهمها « العلم المكتسب في زراعة الذهب » والنسخ الخطية من هذا الكتاب نادرة جدًّا : وهو يبحث عن إمكان تحويل المعادن . ويبتدىء المؤلف بالبحث عمّا إذا كان هذا التحويل يتفق مع آراء فلاسفة اليونان بهذا الشأن ، ومع آراء من أتى بعدهم من مفكري وعلماء الاسلام ، إلى أن يصل إلى النتيجة بأن التحويل ممكنٌ فيشرع في البحث عن إبراز هذه النظرية إلى حيز العمل ، ثم يختم كتابه بأقوال من سبقه من العلماء ليقوّي حجّتَه ويثبّت نظريّتَه .

لقد شرحَ الجلدقي كتاب المكتسب في زراعة الذهب شرحاً وافياً في القرن الرابع عشر للميلاد وتوفي في القاهرة عام ١٣٦٠ للميلاد . فكتب كتباً عديدة نقدر أن نقف منها على تاريخ حياة الرجال العظام ، ونقف على شيء من علم الكيمياء في الاسلام وقد سمّى

كتابه هذا « نهاية الطلب في شرح المكتسب » جاء في ثلاثة أجزاء فآمل أن يطبع هذا الكتاب أحد علماء العرب ليطلع عليه علماء الكيمياء في الغرب لأنه كتاب قيم مفيد .

كثيراً ما يسأل السؤال الآتي : ماذا عمل علماء الكيمياء العرب لتقدم هذا العلم ؟

اذا سأل أوربي أو خلافه هذا السؤال ، فما على العربي إلاَّ أن يجيبه بالجواب الآتي :—

١ — لقد أخذ العرب علم الكيمياء عن علماء اليونان والمصريين في الوقت الذي كاد يندرس فيه هذا العلم .

٢ — طهر العرب هذا العلم من الخرافات والحيل التي كادت أن تقضي عليه .

٣ — جعل العرب هذا العلم علماً طبيعيًّا ثابتاً مثل علم الطب والفلك والرياضيات .

٤ — اكتشف العرب الحوامض المعدنية مثل ماء الحلال وروح الكبريت وروح الملح وقد وجدت هذه الحوامض بعدئذٍ من أنفع الأشياء ، في تقدم علم الكيمياء .

٥ — إن جابر بن حيان هو أول من نطق بنظرية أن جميع المعادن مركبة من الكبريت والزئبق : فهذه نظرية مثل جميع النظريات قد أهملت في بادىء الأمر لكنها وجدت بعدئذٍ بأنها من اكبر المجميات في المباحث الكيمياوية ومهدت الطرق للنظريات التي أتت بعدها .

٦ — إن العالم بأسره مدين للعرب في تصنيف وتطهير العقاقير وفي تحسين العمليات والآلات الكيمياوية وفي اكتشاف كثير من المواد وفي استعمال الكيمياء في الطب والصناعة وإن العالم بأسره ليعترف بفضل العرب الذين لولاهم لما كان لعلم الكيمياء التقدم الذي وصل إليه في وقتنا الحاضر .

٧ — إنَّ أهل الغرب الحاليين لن ينسوا أبد الآبيد فضل العرب على أجدادهم الذين درسوا على العرب العلوم الطبيعية التي كانت أساس مدنيتهم الحاضرة .

إذا فكر العرب بأعمال أجدادهم الكرام أليسَ من الواجب عليهم أن يسعوا السعي الحثيث لإرجاع السيادة العربية في علم الكيمياء مرة أخرى ؟ نعم إن ذلك واجب على كل عربي ينطق بالضاد ما دام فيه عرق ينبض ودم يجري والله المعين .

شريف النشاشيبي

شوبنهور والطبيعة

البشرية

﴿ أهميتان للعالم : ظاهرية وباطنية ﴾ يقول شوبنهور إن حقائق النظام المادّي، قد تحوز قيمة ظاهرية كبيرة، لا باطنية. لأن هذه من خصائص الحقائق الأدبية والفكرية التي من شأنها إبراز الارادة بأسمى أطوارها، بينما تختص الحقائق المادية باظهار الإرادة في أحقر أطوارها وأرذل أوضاعها. ويجد شوبنهور في مذاهب الفلاسفة العظام شواهد كثيرة على هذه القيمة الباطنة، كما أنه يلاحظها في كل مأساة بشرية تمثل أدوارها على مسرح الحياة، وأيضاً في سلوك الناس، سبيلي الخير والشر. فيقول إنها شواهد صادقة على هذه الحقيقة المعنوية الخالدة المتخذة لها من العالم الظاهر صورة خارجية. حقيقة تعلن عن طبيعتها العميقة بأسمى أطوارها المحسوسة. وإن الزعم بأن للعالم قيمة مادّية لا أدبية أو معنوية، قائم على نظرة خاطئة في الأساس، وعلى التواء في العقل والطبع. ومع هذا فانها نظرة قوية الشكيمة. متمكنة من النفوس، وتستطيع أن ترفع رأسها بين آن وآخر حتى يجبرها السخط الكوني العميق الشامل على إخفاء ذاتها، فتختفي لحين ثم ما تلبث أن تعاود الظهور كرَّةً أخرى، وسيتناول شوبنهور في الحديث التالي هذه الفكرة بالشرح والتعليل والتمثيل محاولاً تبيان الأساس الصحيح الثابت للأخلاق في كل مكان أو زمان، وبسط النتائج التي تنجم عن اتّصاف الانسان بهذه الأخلاق.

﴿ ردٌّ على كانت (Kant) ﴾ يتساءل شوبنهور عمّا يدعو كبار الأساتذة الجامعيين الى الأخذ والتسليم برأي «كانت» في أن شعور الانسان وإيمانه بخطورة قدره وكرامة نفسه، يستند إلى حقيقة غريزية أصيلة في الإنسان. فلو سألتهم على مَ تقوم هذه الكرامة والخطورة والعظمة لأجابوا « على أخلاقه » أي أن أخلاق الإنسان تعتمد على كرامته الشخصية وخطورة قدره وعظمة ذاته، كما تعتمد كرامته وخطورته وعظمته على أخلاقه. ومع ما يبدو

لنا في هذا المنطق من خلل ومغالطة وسفسطة ، فإن من السخف عزو الكرامة وخطورة الشأن إلى كائن كالإنسان ، إرادته أثيمة وعقله محدود وجسمه قابل للفناء . إذ كيف يجوز الانسان لنفسه الفخر بكرامة أو عظمة ، ما دام إدراكه ينطوي على سوء وكانت ولادته قصاصاً أليماً ، وحياته نصباً وشقاء ، وفناؤه أمراً محتماً .

وأنت حين تجلس إلى إنسان آخر لا تبدي اهتماماً بقدره وأبهته وعلو مجده بالغاً ما بلغ من ذلك . كلاً ولا تشير إلى إرادته الأثيمة أصلاً وفهمه الضيق وأفكاره الهزيلة . فأنت بعملك الأول قد تنساق من حيث لا تدري إلى كرهه ومقته ، وبالتالي إلى الاستخفاف به واحتقاره . أما إذا أردت أن تؤثر فيه أو تستحوذ على مشاعره ، فاضرب على وتر أشجانه وآلامه وأحزانه ، تراه قد استكان وانجذب إليك واستيقظت الرابطة الانسانية التي تربط بينك وبينه ، رابطة وصلة عميقتان وثيقتان تقوم على الضعف البشري الذي يشترك فيه كل الناس ويجعل منهم إخواناً في الحياة ، فيزول ما بنفوسهم من كراهية وتشاحن وعداء ، وتشيع المحبة ويسود الرفق والعطف والحنان. ولم يثر هذا الشعور وينبه هذه الرابطة، اعتبارك جليسك موطن احترامك وتمجيدك ، وإنما عطفك وعزاؤك وشفقتك، وفي هذا برهان على عقم مذهب «كانت» بل فيه ما يدعونا إلى نفي الخطورة والعظمة والكرامة عن الإنسان . وما يجعلنا ننظر اليه كائناً حقيراً مسكيناً جديراً بالرأفة والشفقة .

﴿ نظرة في تقسيم الفضائل ﴾ يرى البوذيون أن الرذيلة هي الأساس والأصل في طبيعة الانسان. ثم تأتي الفضيلة مظهراً معاكساً لها . والرذائل الرئيسة عندهم أربع ، وهي الشهوة والكسل والغضب والطمع . ومنهم من يجعل الكبرياء بدل الكسل ويضيف إليها خامسة هي الحسد. والصوفيون لاريب تأثروا بهذا التقسيم فجعلوا الرذائل أربعاً بين كل اثنتين منها تقارب وتجانس، وهي الشهوة، والطمع، والكبرياء، والغضب ومن الواضح أن الفضائل المعاكسة لها هي العفة، والكرم، والتواضع، والعطف. والذي يوازن بين رأي البوذيين وبين تقسيم أفلاطون الفضائل الى العدل، والشجاعة، والاعتدال، والحكمة، يرى ان أفلاطون لم يتخذ لتقسيمه أساساً مبنياً على العقل والمنطق . فقد اعتبر الحكمة فضيلة ، مع أنها من صفات العقل في الغالب ، وليست من صفات الإرادة. كما أن الاعتدال صفة غامضة غير محدودة، وتشير إلى فضائل عديدة

متنوعة. وأيضاً فإن الشجاعة ليست فضيلة، أكثر من كونها آلة في يد الفضيلة . ومن الجائز أن تكون كذلك في يد الرذيلة . إنها في الواقع من صفات الطبع. والفضائل الرئيسة عند الصينيين خمسة هي الشفقة، والعدل، واللياقة، والحكمة، والاخلاص. بينما الفضائل المسيحية ثلاث الأيمان والرجاء والمحبة .

﴿ نقطة بدء الأخلاق ﴾ يقول شوبنهور إن شعور الفرد نحو الغير إمّا متمثّلاً بالحسد أو بالشفقة ، هو النقطة التي يتفرّع منهـا طريقا الشر والخير، أو الرذيلة والفضيلة . وظاهرتا الحسد والشفقة هما عند كل الناس ، وإنما بنسب مختلفة ، وتنشآن من مقايسة الانسان حظه بغيره ، ونتيجة لذلك فإنه يرضخ لإحدى هاتين الخلّتين ، وتتسم أطواره وأعماله بميسمها وتتأثر بها . والحسد يشيد حاجزاً قويّاً ضيقاً بين (أنا) و (أنت) لكنّ الشفقة تعمل على هدمه وإزالة الفارق بين كل نفس ونفس، لعلّهما تصبحان في النهاية شيئاً واحداً .

﴿ الجبن والشجاعة ﴾ وينتقل شوبنهور إلى التأمّل في الشجاعة والجبن ، فيصف الشجاعة بأنها استعداد المرء لمجابهة شرور تهدده في الحاضر، لكي يحول دون وقوع ما هو أعظم منها في المستقبل ، بينما الجبن على عكس ذلك تماماً . ويقول إن الصبر قائم على إدراك واضح لشرور أخطر من التي يلاقيها الإنسان في حاضره ، وإن تهربه من مواجهة الشرور الحالية بقوة وجلد ، قد يجلب على نفسه ما هو أشد منها وأعظم وأعنف . ولهذا كانت الشجاعة من ناحية ، نوعاً من الصبر . وما دام الصبر هو الذي يمكن الإنسان من التجلد وضبط الأعصاب إزاء المخاطر، فالشجاعة بواسطة الصبر ، تعتبر شيئاً من الفضيلة .

ولا يدري شوبنهور لمَ لا تسمو الشجاعة إلى مستوى الفضائل الكبرى، ما دام الخوف من الموت في رأيه مبنيّاً على نظرة فلسفية خاطئة . إذ ليس يجوز أن يخشى الإنسان الموت ما دام وجوده موكداً في خارج ذاته، كما في ذاته أيضاً . وليس يضره أو يخيفه موته نفسه، ما دامت حياته مستمرة في الغير . بل هذا ما يجب أن يزهد الحياة في عينه ، ويبعث في نفسه الشجاعة لملاقاة الموت غير وجل ، ويجعل الجبن لديه أمراً حقيراً ممقوتاً .

يقول شوبنهور : هذا لدى النظر في الشجاعة من ناحية فلسفية عالية . أما إذا اعتبرت من ناحية عادية كان للجبن ما يبرّره ويجوزه عند العامة والدهماء . فالإنسان العادي يرى نفسه

كل شيء في الحياة ، بل يرى ذاته الشرط الأساسي لوجود العالم كله . ولذا فإنه يضع أمر حياته نفسه فوق كل همٍ وشاغل ، فلا يجازف بحياته بدافع الشجاعة ، فيستكين للذل ويعتصم بالجبن لـكي يضمن وجوده في الحياة . وعلى هذا الأساس فقط ، فقدت الشجاعة منزلتها بين الفضائل الـكبرى .

﴿ الطمع — مَالَـهُ ﴾ يقول شوبنهور إنك إذا نظرت في الطمع من زاوية معينة، رأيت له محاسن تجعله ضروريًّـا للإنسان لازماً لحياته ، فاعتبرته على هذا الأساس فضيلة ، بينما كان التبذير الذي يكون الطرف الثاني رذيلة . لأنك إذا أنعمت النظر في حقيقة التبذير ألفيته ينشأ من تقييد الإنسان اللذة وربطها بالدقيقة الحاضرة بدل الآتية . وربط اللذة وتقييدها بالحاضر ، يستند إلى الإعتقاد الوهمي الباطل بأن للذة معنىً حقيقيًّـا إيجابيًّـا . وينجم عن هذا أن عسي المبذر إن آجلاً أم عاجلاً ، فقيراً معدماً بائساً . إنه ثمن يدفعه لقاء جريه وراء اللذة الجوفاء العابرة القائمة على أوهام باطلة زائفة ، أو مقابل ما عاش عليه غروره وزهوه من كذب المنافقين ورياء الطفيليين الهازئين منه في سرهم ، ومن نظرات الدهماء الرانية إليه بذهول وحسد واستعطاف . وبديهي أن يؤول التبذير بصاحبه في نهاية الأمر إلى إتيان الشرّ (١) .

والدافع للطمع اعتبار الإنسان اللذة أمراً سلبيًّـا والسعادة القائمة على سلسلة من اللذائذ غولاً شرهاً نهماً لا يعرف الشبع . بينما ان الألم هو الحقيقة الايجابية في هذه الحياة . لهذا ترى الإنسان يتهافت على التبذير ليسلك بواسطته سبيلاً إلى اللذة التي تنسيه الآلام . ولما كانت إمكانيات الشقاء والألم في الحياة لا تنفد، ومواطن الخطر لا عدّ لها ولا حد ، فأن الإنسان يلجأ إلى الطمع ليتقي به أكبر شر ممكن . ولسنا نستطع أن ننعي على الإنسان إفراطه في الطمع والحرص والتقتير ، لأنه ليس في مقدور أحد تعيين الحد الفاصل الذي عنده تنتهي أحكام القدر القاسية ، وأضحت كل حيطة تتخذ ضده بواسطة جمع المال من دلائل الحـكمة والعقل . وهل يفيد جمع المال وتـكديسه ما دام يؤول مصيره آخر الأمر الى غير صاحبه، ويصبح سلاحاً واقياً في يد أحد الناس ضد الفاقة والذل ؟ وقد صدق المثل الإسباني القائل « ذو القلب القاسي يهب أكثر من ذيْ الجيب الخالي » . وعلى هذا الإعتبار يبدو

(١) جاء في القرآن الـكريم : «إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين ».

لشوبنهور أن الطمع ليس برذيلة ، وأن التبذير بعيدٌ عن كونه فضيلة .

﴿ الطمع — ما عليه ﴾ بيْدَ أن شوبنهور يرى في الطمع إذا اعتبرناه من ناحية ثانية خلاصة الرذائل جميعها . ذلك أن الغرائز الحيوانية في الإنسان تدفعه لملاحقة اللذة الحسية والاندفاع وراءها اندفاعاً أعمى دون التبصر في عواقبها السيئة . إذ حين يشيخ الإنسان ويهرم تنقص مقدرته على إشباع شهواته، وتضعف استجابته للذائذ الجسدية، بسبب ما اعترى جسمه من هزال، وما أصاب قوته من خور وانخذال ، فتستحيل رغبته في الاستمتاع باللذة الحسية إلى عبادة المال ، فيعمل على جمعه وخزنه دون أن يعي لذلك سبباً معقولاً . وبهذه الصورة تسري الحياة من جديد في هذا الجذع اليابس، بعد أن كان أخضر يانعاً زاهراً بجميع أصناف الشهوات . إنّها الرغبة في المال تتمكن من صاحبها وتقوى في نفسه وتعصف به ، وباستطاعتها أن تعمّر أكثر منه إن قُدر لها أن تجري معه في رهان زمني . رغبته هي الشكل المجرّد الذي فيه تتركز جميع شهوات الجسد ومطالبه الدنيئة، وإليه تتحوّل وفيه تنسكب وتتجمع وتتجسّد . ولهذا كان من الأصحّ اعتبار الطمع رذيلة الشيخوخة، والتبذير رذيلة الشباب .

ولعلّنا مرغمون إزاء ما نراه للطمع من محاسن ومساوىء على قبول المتوسط الذهبي الذي نادى به أرسطو . فنعتبر الإقتصاد الواقع بين الطمع والتبذير فضيلة . ويحملنا على هذا القول اعتبار كل كمال نسبي في الطبيعة البشرية قريناً لنقص ما ، وكل نقص حليفاً لنوع من الكمال . ولهذا فإننا كثيراً ما نخلط بين ما يبدو لنا في نفوس الناس من نقائص وكمالات محالفة لها . فنحكم على الحذر مثلاً بالجبن ، وعلى المقتصد بالبخل والمسرف بالكرم وجافي الطبع بالصراحة والجرأة .

﴿ ضعف عقلي وخطة خلقية ﴾ ويلاحظ شوبنهور الخطأ الشائع في الاعتقاد السائد بأن حطّة الخلق والغباء صنوان لا ينفصلان ، وأن منشأهما وأصلهما واحد . ولكن الواقع خلاف ذلك، وإنما يحمل على هذا التصوّر والاعتقاد وجودهما معاً في أغلب الأحوال ، كأنما يطيب لهما العيش تحت سقف واحد . وكثيراً ما يفسد أمر هذه الصداقة ويضطرب حبل الزمالة والألفة المتبادلة بينهما فتنقطع . فقد لا يتمكن الغبي مثلاً من إخفاء لؤمه وغدره

وفساد طبعه ، بينما بمقدور الذكي أن يستر عيوبه الخلقيـة إلى حدٍّ بعيد ، فيبدو بمظهر كريم الخلال من ليس على خلقه من غبار. وكم يحول لؤم الانسان وسوء طويته دون تمكُّنه من رؤيته الحق ناصعاً ، فيتحيَّز ضدّه ، فيحكم عليـه الناس بضعف العقل وبلادة الذهن . ولا يزعم شوبنهور أن في الحياة من تخلو طبيعته من عناصر الشر خلوّاً تامّـا ، إذ هو يرى تفاوتاً بين النـاس من حيث الطبائع والأخلاق ، كما في العقول . وإن أطيب النـاس خلقاً وأنبلهم طينة، لاتخلو نفسه من بعض بذور الشر والفساد . ويتمنى فيلسوفنا لو كان في مقدور الإنسان أن يرى ذاته مجرّدة عارية كما هي ، إذن لاتضحت له ضآلة الأمانة وزهادة النبل وحبّ الخير المطوي خلف سحب كثيفة من الرياء والمكر والادعاء الكاذب ، وبرزت لناظريه صورة مرعبة مزرية يندى لها جبين الانسانية عاراً وخجلاً ، تلك هي صورة حيوان الشرّ المكشّر عن أنيابه الجاثم وراء المظاهر البرّاقة الخداعة من الأخلاق المزيفة ، الجالس إلى دفة سفينة الطبيعة البشرية يدفعها ويسيّرها في مسالك الإثم والباطل . فلا جَرَم إذا ما رأيت الكثيرين يختارون أصـدقاءهم من عالم الحيـوان ، ذلك لأن القلوب تطمئن إلى ما فُطرت عليـه نفس الحيوان من البساطة والصفاء والصدق والولاء الذي ندر أن يكون طبعاً فطريّـاً أصيلاً عند بني الانسان .

﴿ وجوه وأقنعة عديدة ﴾ ويتساءل شوبنهور قائلاً : « وهل كان العالم المتمدين غير مرقص تعلو وجوه اللاّهين فيه أقنعة عديدة فيبدون جميعاً بوجوه كاذبة ؟ » فثمة الفلاسفة والعلمـاء وأهل الدين والأدباء والسّاسة والمحامون والأطبـاء وجميعهم يظهرون للناس على خلاف حقائقهم ونوازعهم الصحيحة . وما كانت هذه الأسماء الطنانة غير عناوين كاذبة على وجوه مصطنعة تخفي تحتها طلاّب نفع وفائدة شخصية في الحياة . فمنهم الذي استعار قناع المحامي البارع للدفاع عن الحق ظاهراً وابتزاز الأموال حقيقة وباطناً (الذين يحاربون الناس بالباطل ليُدحضوا به الحق) . وآخر استعار قناع الوطنية والخدمة العامة لغاية مماثلة. وثالث لبس وجه الدين ولحيته الكثة الكثيفة . ولغاية مشابهة بدا بعضهم بوجه العالم الفيلسوف أو المحسن الكبير . والنساء اخترنَ أقنعة الرّقة والاحتشـام للسيطرة على قلوب الرجال . وهنالك أقنعة عامّـة ووجوه متنوّعة زائفة تفيد في تحقيق أغراض كثيرة مختلفة كوجوه

الاستقامة والشفقة واللطف والدماثة والصداقة، وجلها تُتخذ لمقاصد نفعية منتزعة من لبّ الأنانية المنكرة. وقد يكون التجار هم الصنف الأوحد الذين يبدون على حقيقتهم، وقلما يحتاجون لوجهٍ كاذب. فهم ظاهراً وباطناً يسعون وراء غاية واحدة هي أن يصبح المال الذي في جيبك في النهاية مالهم.

﴿ الانسان حيوان ﴾ وهل كان الانسان في جوهره وحقيقته سوى وحش كامن! وهل كانت الحضارة البشرية غير عملية ترويض وضبط وتهذيب لهذا الحيوان الرابض في أحشاء الانسان! فليتنا لا ننتفض دهشة واستغراباً ولا ترتعد فرائصنا رهبة واشفاقاً حين نشاهد الطبيعة البشرية الأولى تنطلق من عقالها محطمة أصفاد النظام والعادات والقوانين، فيبدو عندها الانسان عارياً مجرداً، شراً من الحيوان! ولسنا بحاجة لانتظار الفوضى والعبث بالقانون والاخلال بالنظام الذي يأتيه الانسان من حين إلى آخر على نطاق شامل واسع لندلل على حيوانيته الشرسة الجامحة. ففي حياة الأفراد كما في التاريخ أمثلة واقعية لا تعدّ ولا تحصى على اتصاف الإنسان بقسوة ووحشية وفظاظة في الطبع لا ترى لها مثيلاً عند الأسد أو النمر أو الضبع. ففينا يقطن ويعمر حيوان الأنانية ومحبة الذات الذي يحطم أغلال الحق والعدل وحب الخير بعنف وقوة مرعبة. أوليس وجود مبدأ التوازن الدولي في أوربا دلالة ساطعة على أن الانسان حيوان مفترس ما يكاد يلمس ضعف أخيه الإنسان وعجزه عن الذود عن نفسه حتى ينقضّ عليه بشراهة الوحوش؟ أوَ لا ترى إلى جانب حيوان الأثرة وحب الذات حيوانات أخرى تحتشد في صدر الانسان كوحوش الكراهية والغضب والغل والحقد والحسد، وكلها متركزة كالسم في ناب الأفعى تتربص الفرصة السانحة للسطو بمن يعترض سبيلها في الحياة؟ وهل رأيت غاباً يكتظ بوحوش أكثر شراً وسوءاً وإيذاء من التي تسكن وتعيش وتتولد في نفس الإنسان؟

﴿ الحيوان أنبل من الإنسان ﴾ ويتجاوز شوبنهور هذا الحكم إلى القول بأن الحيوان أنبل من الانسان وأسمى. لأن الإنسان هو الوحيد بين طبقات الحيوان الذي يوقع في الغير أذى وألماً لمجرد الرغبة في ذلك، ولا يفعل ذلك غيره من الحيوانات الا بدافع الجوع، أو الذود عن النفس. كلا ولا يعذب حيوان آخر لمجرّد التعذيب فحسب. بينما يفعل الإنسان

أكثر من ذلك لأنه مفطور على الأذى والضرر . وهذا ما يجعله دون الحيوان في حطة نفسه وسوء طبيعته . وفي الحياة أمثال كثيرة تثبت ذلك وتؤيده . ولهذا كان الحيوان حكيماً ومصيباً إذا ما خشي الانسان وولى هارباً لدى وقوع بصره عليه . لأن التجارب علمته حقيقة مفيدة لازمة لحياته ما دام خاضعاً للحياة ، وهي أن الانسان هو الكائن الأوحد الذي يقنص قنصاً لا يفيد منه ولا يخشى أذاه

﴿ الرغبة في الحياة ﴾ ويقول شوبنهور إن الوحش الجاثم في نفس الإنسان هو علة كل نزاع وشر . وليس من يستطيع ترويضه وكبح جماحه وتقييده غير العقل حارسه اليقظ اللبق والماهر الجبار . والناس اصطلحوا على تسمية هذا الوحش الكامن بالناحية الشريرة من طبيعة الإنسان ، مع أنها تمثل في الواقع رغبة الإنسان في الحياة وتمسكه بأذيالها بكل سبيل مستطاع . وتصطدم رغبة الإنسان القوية في الحياة بألوان العذاب في الوجود ، فيعمل على تخفيف آلامه بإنزال الألم بغيره . ومن هناك الحقد والغل والكره وجميع أصناف الرذائل الإيجابية المؤذية في الطبيعة البشرية . وقد لاحظ كانت (Kant) أن المادة كامنة من جراء التضاد بين عاملي القبض والامتداد. وشوبنهور يقول ما يشبه هذا فيما يتعلق بالانسان . فالانسان يستطيع أن يضمن بقاءه في الحياة بسبب التضاد والمشادة والتجاذب الكائن بين عوامل الكره أو الغضب والخوف التي تتملكه في بعض الأحوال . فقد تمر عليك ظروف تدفعك للاجرام ، لولا عامل الخوف الذي يلطف من طبعك الأثيم ويخفف من حدته . كما أن الخوف يجعل من الانسان مهزلة في أعين الآخرين ، لولا الغضب الذي يتفجر من نفسه فيعينه على مقاومة الخوف وإزالته من نفسه بقدر الامكان

﴿ الشماتة ﴾ وفي رأي شوبنهور أن الشماتة أو الفرح بما يصيب الآخرين من أذى وضرر ، أسوأ مظهر من طبيعة الانسان . والشماتة تمثل الطرف الآخر من الشفقة التي هي مصدر الإنصاف والرحمة والإحسان . ومع أن الحسد على الضد من الشفقة من ناحية معينة ، إلا أنه نتيجة مباشرة لما يبعث إليه . وهذا ما يبرره بعض الشيء ويجعل منه شعوراً مستساغاً ، فطبعاً عادياً عند بني البشر . وليس يخلو أحد من بعض الحسد ، بل من الجائز المعقول أن يشعر أحدنا بحاجته لأشياء توافرت لدى غيره وجلبت له المسرّة والسعادة ، إنما لا يجوز أن

يتطوّر هذا الشعور إلى حدّ الكراهية، فتمقت من تراه أسعد منك حالاً، وترجو له الأذى وتفرح بمصيبته.

﴿ الحسد ﴾ وقد يكون للحسد بعض العذر حين يثيره في نفسك ما وهبه القضاء أو الصدفة أو الحظّ من نعم وعطايا للانسان الآخر. ولكنه يسوء ويهبط إلى مستوى حقير دنيء مشين حين تكون النعم من فضل الخالق الأعظم. مع هذا فانك تجد أن ما ليس للانسان من فضل في الحصول عليه، وأن ما تسبغه يد الطبيعة الكريمة على أبناء المسكونة من مواهب رفيعة، لأكثر اثارة للحسد في نفوس الناس. فالعقل الكبير، والذكاء الألمعي، حتى العبقرية، لا تستطيع رفع رأسها عالياً والمضي في سبيلها في هذه الحياة دون أن تتوسل الصفح والمعذرة لوجودها حين لا تؤاتيها الظروف، وتؤازرها الأوضاع، على تحدي العالم واحتقاره بجرأة واعتزاز. وقد يتمكن الحسود يوماً من كسب الأعراض التي تثير كامن حسده كالجاه والمال والحصول على الرقي الزائف الذي لا يمس النفس والروح والعقل، بل لا يتعدى القشور، فلا تنقذ الانسان من الاصطلاء بنار الجهل الكاوية أو يحول دون ولوجه عالم النسيان الأبدي المخيف. بيد أنه لا يستطيع كسب ما يملكه غيره من مزايا عقلية رفيعة وخصائص ممتازة كالذكاء وجمال الخلقة ونبل الفطرة، وجميع المواهب العالية الموروثة، فلا يلقى ما يغذي أعصابه المنهوكة المهروءة ويريحها وينفس عن نفسه المكبوتة المخنوقة غير مقت ذي الخصائص الممتازة والدس عليه والتنكر له والانتقاص من قيمته بشتى الأساليب، وحتى يضيب النجاح من هذا، فانه يحاول إخفاء نواياه الأثيمة بحذق ودهاء مصطنعاً في ذلك جميع ألوان الخداع من تزلف ومكر ورياء. وقد يتعدى ذلك إلى الكذب حتى على نفسه والدجل على غيره، فيمثل دور غير الآبه المكترث لما يراه في الآخرين من مزايا تؤذيه وتقض مضجعه. وإنه لا يذر وسيلة ناجحة أو يترك فرصة سانحة الاّ واستغلها في تشويه مقوّمات شخصية المحسود وتلويث سمعته وطمس شهرته. شأنه في ذلك شأن الأفعى تترقب الفرصة المؤاتية فتلسع عدوها، ثم تهرع الى جحرها لئلاّ ترى فتسحق. وهيهات أن يتمكن الحسود مما تتمكن منه الأفعى، فانه يميز ويعرف بسهولة، فيتم عليه ويفضح أمره وينكشف عن حقيقة اختلاف سحنته، وما يند على لسانه من عبارات مرّة لاذعة، كلما طرق سمعه اسم

الحسود . وكذلك سكونه غير الطبيعي الشاذ ، وانخذال قواه العقلية والنفسية في حضرة رجل المواهب الرفيعة والملكات السامية ، فلا يقوى على الصمود أمامه بل يذوب وينصهر كما تذوب فلول الظلام الدامس وتتقهقر وتتبدد أمام سهام ذكائه الحادة المشرقة . فلنرقب الحسود ولنذكر أنه يبطن العداء ومرارة النفس والبغضاء ، ويعيش في ظلام الكهوف ، ودوماً يسير في الحياة متنكراً مضللاً قلقاً تعباً .

﴿ عقاب وثواب ﴾ يبدو لشوبنهور أن شقاء الانسان في هذا الوجود هو بنسبة فساد طبعه وسوء طويته ، وأنه في واقع الأمر ناتج عن هذا الفساد والسوء . ومن هنا كان يسيراً علينا إدراك معنى العدل الالهي المطلق في العالم . وأن في الحياة الدنيا دنيوية عظيمة لا تقل عما في الآخرة ، وأن الانسان يلاقي جزاء إثمه في حياته كما في مماته ، وأن هذا الجزاء مساوٍ لما ينطوي عليه خلقه من شرٍ وطبيعته من فساد . وشوبنهور ليس بالمتشائم إلى الحد الذي يضيق عليه خناق الوجود فلا يرى فيه غير الاثم والشرّ المتأصل المتمكن من النفس البشرية ، فإنه يلمح أحياناً أنواراً وضّاءة من الأمانة والنبل وحب الخير ، تنبعث من جوف مغارة الطبيعة البشرية الحالكة الظلام ، فتزهر الحياة وتشرق وتشيع ثقة الانسان بالانسان .

﴿ غيرك ذاتك ﴾ ويعدّ شوبنهور مصدر الفضائل جميعها مبدأ (غيرك ذاتك) الذي شرحه بتفصيل في كتابه (الأخلاق) . ويعني بذلك أن كل كائن حيّ غيرك هو في الحقيقة ذاتك ، وأن ليس ثمّة من فرق جوهري حاصل بينك وبين غيرك من الأحياء . ولهذا كان كل إحسان تسديه للناس، وكل صدقة تتقدّم بها، هي بداءة الصوفية العالية في الخلق البشري ، وكل فضل تصنعه للغير عن قصد نقي ونيّة طاهرة صافية دليل على أنك تعمل منافياً لطبيعة العالم الظاهرة . ذلك أنك تعتبر ذاتك من حيث لا تشعر ، صنواً لفرد آخر منفصل عنك فتعامله كنفسك . ولك شاهداً على هذا حين يتقدم شخص للموت في سبيل غيره راضياً باسماً ، أو قصة الخادم الذي عضّه كلب مصاب بداء الكلب فلم يلهه التفكير بنفسه عن الاهتمام بأمر غيره ، فيقبض على الكلب بقوة خارقة ويدخله غرفة ويوصد الباب عليه لئلاّ يفلت فيؤذي غيره . وقصة الجندي الذي حُكم عليه بالموت ، وحين جثا يستقبل الرصاص دفع عنه كلبه الأمين

الجاثم قربه خشية أن يُقتل خطأً . وفي هذا برهان ساطع على أن الانسان قد ينسى ذاته في ساعة الخطر فيوجه عواطفه ويحشد قواه لانقاذ الآخرين . ومن هذا يستنتج شوبنهور أن الانسان لا يفنى بفناء جسمه ، وإنما يعيش في الأحياء الآخرين ، وفيهم يستمرّ بقاؤه في عالم الوجود . وأنه في أمحى أوضاعه الروحية وأحواله النفسية ، يدرك ذلك ويحس به ، وإلاّ لما ألفيته يهتم بأمور غيره ويعمل على استمرار وجودهم في الحياة في حال هجره هذه الحياة .

﴿ صورتان للوجود في ذهن الانسان ﴾ يرى شوبنهور أن للانسان وسيلتين بهما يعي وجوده في الحياة : الأولى إدراك للوجود قائم على ملاحظة المظهر الخارجي للعالم ، وفيها يرى ذاته شيئاً حقيراً زهيداً إلى حدّ نقطة الزوال من هذا العالم الذي لا يُحدّ ، وانه واحدٌ من ملايين مثله يسعون على وجه هذا الكوكب لفترة وجيزة ويتجدّدون كل ثلاثين عاماً . والثانية تتأتى من تغلغل الانسان بثاقب فكره إلى أعماق ذاته وسبر أغوار نفسه فيفضي به ذلك إلى الشعور بأنه (الكل في الكل) ، وأنه الكائن الحقيقي في هذا الوجود ، وأنه ككائن حقيقي يرى ذاته مكرّرةً في الآخرين الذين يبدون له كأنما هم ذاته الحقيقية قد انعكست في مرايا .

والصورة الأولى تطابق مبدأ كانت (Kant) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين . والثانية من العقائد التي جاء بها الفيدا (Veda) الكتاب المقدس للبرهمية في الهند . ولربما اعترض أحدهم على الصورة الثانية ملاحظاً استحالة إدراك الربط والوصل بين كائنين منفردين وإدماجهما في وجود واحد وحياة واحدة جامعة ، بالرغم مما بينهما من انفصال زماني ومكاني كما تدلّ ظواهر الأشياء . ويجيب شوبنهور بقوله إن مبدأ (كانت) القائل بتوزع الحياة على أفراد عديدين يساعد على توضيح هذه الصورة وطبعها في النفوس والأذهان . ذلك ان الرغبة في الحياة من الخصائص الأساسية لجميع الكائنات الحية ، منفردة وكذلك متجمعة تمثّل الحياة ككلية واحدة في جميع الأزمان . ولهذا كان لسان حال كل كائن حي قوله مخاطباً ذاته « ما دُمت آمناً على نفسي ، فلست أسأل لو هلك العالم كله »

ويؤكد شوبنهور أنه لو ظلّ فرد واحدٌ حيًّا وهلك الناس جميعاً فان هذا الفرد يملك في نفسه الوجود الذاتي للعالم بأسره غير مشوب أو منقوص ، ويسخر من فناء العالم كأنه وهمٌ باطل ، كما يعتقد أن بفناء ذلك الفرد الباقي فناء كل العالم أيضاً . ولعلّ هذا ما عناه

الفيلسوف الصوفي أنجليوس سيليسيوس Angelius Silesius إذ صرّح باستحاله وجود الخالق بدونه،وانه بفنائه فناء الله تعالى ، وقد يكون هذا القول مطابقاً لما جاء في الحكمة الاسلامية القائلة على لسانه عزّ وجلّ « كنت كنزاً مخفيّا فأحببتُ أن أعرف فخلقتُ الخلق فبهم عُرفت » . ويقرّب شوبنهور إلى أذهاننا اعتقاده بوجود الفرد خارج ذاته بظاهرة المشي أثناء النوم . فمع ان السائر أثناء النوم لا يفقد ذاته ، فانه حين يستيقظ لا يتذكر ما فعله خلال نومه . وهكذا تجد أنه من الذات الواحدة ينشأ ويتكوّن ويخرج وعيان منفصلان لا يدري أحدهما من أمر الآخر شيئاً !

﴿ الخلاصة ﴾ وصفوة ما يستنتج من شرح شوبنهور وتحليله الفلسفي للطبيعة البشرية أن للانسان كما للكون حقيقتين باطنية وظاهرية . وأنه من واجب المفكرين وذوي الألباب الالتفات إلى الحقيقة الباطنية الكامنة وراء المظاهر الخارجية ، لأنها وحدها التي تملك قيمة معنوية غالية . إذ كثيراً ما تخدعنا مظاهر الخلق والتصرف البشري الزائفة فتصورها حقائق راهنة . وشوبنهور يهدف إلى إزالة التعمية أو التنكير (كاموفلاج) التي يلجأ إليها الانسان في سلوكه في الحياة فتحول بينه وبين رؤية حقيقة ذاته وجهاً لوجه ، وتقصيه عن السبيل المفضي به إلى الخير والسموّ والكمال المطلق . ولقد شرحت هذه الفكرة في مقال مبتكر أسميته (وحدانية الانسان) ويتلخص كله في الجملة الآتية (إنه لا فرق بين مشرك بالله ومشرك بالنفس . فلن يدخل ملكوت الله الأحد غير الانسان الأحد . ولعلّ بمقدور الانسان بعد جهاد خلقي عنيف ورياضة روحية صارمة، التوفيق بين ظاهره وباطنه ، جاعلاً من ذاته إنساناً واحداً ومن نفسه وحدة لا تتجزأ . عندها يسهل عليه أن يرى غيره كذاته فيعامله كنفسه ، وإذا ما تمّ له ذلك أصبح عالمنا عالم خير ومحبة وتسام وتضحية وصفاء . عالماً شعاره وطابعه الحكمة الأولية الخالدة التي فاه بها الرسول الأعظم « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

السلط — شرق الاردن
جريس القسوس
ب. ع. أدب انجليزي

الخلوروس وعلاجه

هو نوع خاص من الأنيميا يصيب الشابات في دور البلوغ . وكلمة خلوروس Chloros مشتقة من اليونانية ومعناها «أخضر»[1] ، وهذا الداء معروف ويطلق عليه عاميًّا اسم المرض الأخضر أو أيضاً داء الخضرة ويتميز جوهريًّا عن الانيميا (فقر الدم) ليس بنقص كريات الدم الحمر الناتج عن فقد كمية كبيرة من دم الجسم ، أو من تلف الدم أو من خلل في تجهيزه — بل من نقص مقدار اليحمور (الهموغلوبين) الذي في الكريات . ويتسبب نقص اليحمور هذا عن نقص الحديد في الدم . فالمصابون بهذا المرض يكون عدد كريات الدم عندهم طبيعيًّا أو تقريباً طبيعيًّا ، غير إن كل واحدة من هذه الكريات تكون فقيرة مادة اليحمور (وهي المادة الملونة للدم) . وقد تقلّ كمية اليحمور هذا الى خمس النسبة الطبيعية . وفي حالات المرض المتوسطة الخطورة تهبط كميته الى ٤٠ بل إلى ٦٠ في المئة عمّا هي في الحالة السويّة .

﴿ أعراضه ﴾ : يُعرف الخلوروس بوجه عام من هيئة المريض الخاصّة دون أن تدعو الضرورة حتماً إلى فحص الدم ، فترى المصاب إذ ذاك شاحب اللون الى الاخضرار ووجه أبيض كالشمع . وإذا نظرنا إلى ملتحمة العين الجفني ، واللثة والشفتين نجدها إلى الصفرة باهتة اللون ، مع انتفاخ في الجفون وفي كعب القدمين . وخلافاً للمصابين بفقر الدم تكون حالة التغذية عموماً عند المصابين بالخلوروس جيدة ، فهم يتغذون غالباً تغذية حسنة ويكون وجههم في أكثر الأحيان منتفخاً . ومنهم بالعكس من تتلوّن خدوده فتبدو وردية زاهرة بالقياس إلى اقسام الوجه الأخرى . وعند ما تشتدّ الحالة يصاب المريض بانحطاط القوى ، والخفقان ، وسرعة دقات القلب ، والدوار ، وضيق التنفس عند أقل مجهود عضلي ، واختلال الحس في الأطراف والشعور بثقل أو ضغط في الرأس . ويرافق هذا غالباً بعض اضطرابات هضمية مثل فقدان الشهوة إلى الطعام أو ازديادها أو انحرافها ، والامساك المستعصي وكسل الامعاء وسوء الهضم وتمدد المعدة ، وتكون الكبد إما صغيرة أو متضخمة ، وهذه الأعراض لا تختلف إلاّ قليلاً عمّا هي في حالة الاصابة بالأنيميا . أضف إلى ما تقدم :

(١) يمكن أن يسمى هذا مرض الخضار بضم الخاء (المحرر) .

الميول الخاصَّة عنـد المصابين بالخلوروس لبعض الأطعمة فتراهم يحبون بنوع خاص الخل والتوابل وحبوب القهوة والطباشير أحياناً الخ... وكثيراً ما يتفق حدوث قرحة المعدة مع الاصابة بالخلوروس .

ويرافق أيضاً هذه الحالة في أغلب الأحيان اضطرابات الطمث، وهذا إما أن ينقطع أو يكون غزيراً جداً . ويصاب المريض عدا ذلك بضعف القلب والأعصـاب ويكون مُعرَّضاً غالباً للاصابة بالسل الرئوي . وقد تصاب أيضـاً العروق بانسداد يفضي إلى الموت . وبالرغم من ذلك كله فالخلوروس يعتبر من الأمراض الممكن شفاؤها خلال بضعة شهور إذا عولج في بدايته. وفي بعض الأحيان نراه يـشفى من تلقاء نفسه فتطول حينئذٍ مدة الشفاء . وفي بعض المرات أيضاً تنتكس حالة المصاب بعد التحسن وتبقى الفتيات المصابات مدة طويلة جداً في حالة تعسة محزنة ، فلا هنَّ بصحة جيدة فعلاً ، ولا هنَّ بالمريضات حقيقةً .

﴿ أسبابه ﴾ : تعزى أسباب الخلوروس غالباً الى رداءَة الحالة الصحية وسوء المعيشة والسكنى زمناً طويلاً في غرف ضيقة فاسدة الهواء ، ثم إلى التغذية غير الـكافية ، وقلة النوم أو عدمه والتعب والتأثرات والشغل المتواصل في المدن . ومن الأسباب المهيئة لذلك أيضاً لبس الملابس غير الصحية ولا سيما المشد . وحيال هذه الأسباب العَرضية المساعدة على الاصابة بالخلوروس توجد أيضاً أسباب حقيقية خاصَّة بهـذا الداء تعمل غالباً على تسبيبه كصغر القلب مثلاً أو وجود تَخَصُّر في الأوعية الدموية ، وهما عَرَضَان يشاهدان عند كثيرين من المصابين بهذا المرض وإن كان وجودهما فعلاً لا يكفي لتفسير كل الحالات .

والواقع أن الخلوروس نفسه لهُ أهمية كبرى في حدوث كثير من الاضطرابات القلبية . ولما كانت أسبابه تبدل في تركيب الدم ولا سيما نقص في كمية اليحمور كما قلنا ، نشأ عن ذلك والحالة هذه نقص في تغذية القلب . ولهـذا نجد في كثير من الأحيان عنـد الفتيات الشاحبات اللون والمصـابات بفقر الدم — اللاتي يشتغلنَ عادةً بائعات في المخازن ، أو أمينات صناديق ، أو عاملات في المعامل أو أيضاً خادمات — مرض في الصمامات مع تمدد في عضلة القلب . ولحسن الحظ يحدث غالباً أن تتحسن كثيراً حالتهنَّ الصحية ويزول المرض ويتم الشفاء ولو بعد فوات الوقت .

١ — ﴿ العلاج العـام لهذا المرض ﴾ : يجب أن نلاحظ أولاً في مداواة الخلوروس النقطة التالية: وهي أن قسماً من هذا المرض يعود سببه إلى رداءَة الحالة الصحية . فاذا كانت الحالة خطيرة وكانت نسبة اليحمور ٥٠ في المئة أو أقلّ من ذلك، فلا بدّ للمصاب والحالة هذه من الراحة التامَّة وملازمة الفراش ، بل والأفضل من ذلك إرساله إلى أحدى المصحات، إذا

كان قادراً على الوقوف. وان كان ثرياً فيُرسل إلى مدن المياه المعدنية ويُفضل تلك التي يحتوي ماؤها على الحديد مثل حمامات بوربون في فرنسا (Bourbonne les bains) ، ومياه موندور (Mont-Dore) بفرنسا أيضاً ، ومياه مارينباد (Marinbad) بالنمسا وغيرها .

وإذا كانت المريضة من عائلة متوسطة الحال فالسكنى في الأرياف تعتبر كافية . ومهما يكن من الأمر، فيجب على المصاب أن يعيش في الهواء الطلق ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ويتجنب تعب الجسم ولبس المشد والملابس الضيقة . أما من ناحية الغذاء ، فيجب أن يكون وافراً ، وتكافح قلة الشهية بانتخاب الأطعمة المتنوعة والمغذية ، ولا سيما التي تحتوي على الحديد . فسبب الخلوروس كما قلنا هو نقص مقدار اليحمور في الدم . وهو مادة زلالية تتميز عن سواها من المواد بارتفاع نسبة الحديد فيها ، فنقصه يعني في الوقت نفسه فقر الدم من الحديد الغذائي .

وقد دلت الاختبارات العديدة على أنه يمكن التوصل فعلاً الى تعويض نقص اليحمور في الدم وشفاء المريض باستعمال أطعمة غنية بالحديد كالبيض والبقول الخضر واللحوم والبطاطس والفطائر والمعجونات الغذائيـة . وأفضل البقول الخضر الحاوية للحديد هي الاسفاناخ والبطاطس والفاصوليا البيضاء والجزر والعدس والبسلة . ومن الأثمار : الكرز الأسود والأحمر والتفاح والتوت الافرنجي والبندق . ويأتي منها في الدرجة الثانية الخوخ والعنب والتين واللوز والتوت الشوكي framboises . ومن اللحوم : لحم الثور في الدرجة الأولى ثم لحوم الحيوانات الأخرى ، ودم الخنزير (بشكل مقانق boudins) أو متبل ragoûts . وأفقر المواد الغذائية بالحديد : بياض البيض والأرز ودقيق الحنطة والشعير المقشور . ومن الحلويات : العسل والدبس . أما السكر فخال تماماً من الحديد . ويجب الاقلال من القهوة وتناول الشاي الخفيف وتجنب المشروبات الكحولية ، ويكون طعام المريض منوعاً .

وزبدة القول أنه من أهم الأغذية الموافقة للمصابين بالخلوروس هي البقول الخضر ولاسيا الاسفاناخ ، والبيض واللحوم والمقانق والأثمار وخصوصاً التفاح ، والأثمار المطبوخة Compottes .

وهناك أيضاً اللبن الحليب ، وهذا يعد فقيراً جداً بالحديد ولا يصلح في علاج هذا المرض. واننا لا نقصد بذلك حذفه من قائمة طعام المريض ، ولكن تناوله صرفاً لا يفيد هذا المريض شيئاً في مثل هذه الحالة ، والأفضل أن يتناول مضافاً إلى وجبات الطعام المعينة كشراب يقوم مقام الشاي أو القهوة ، وهو يوافق خصوصاً الفتيات الضعيفات الهزيلات ، ويؤخذ

منه إذ ذاك قدر ربع لتر في كل مرة وقت فطور الصباح ووقت الغداء ، ثم بعد الظهر ،ومساء بعد تناول العشاء . واذا عافته نفس المريض ورفض تناوله فيضاف اليه قليل من القهوة أو الكاكاو أو الكونياك تسهيلاً لأخذه . ويمكن أيضاً الاستعاضة عن اللبن الحليب ببيضتين نيئتين مضروبتين (مخفوقتين) . وفي حالة ضعف الشهية أو فقدانها عند المصاب لدرجة أنه لا يستطيع أن يتناول لا اللبن الحليب ولا اللحوم ولا البيض ، فيمكن حينئذٍ إعطاؤه الأثمار والبقول او بعض المستحضرات الغذائية الصناعية الحاوية للحديد بشرط أن يعود بعد مدة قصيرة وبالسرعة الممكنة الى الحمية الاعتيادية . وعلى كل يعمل على تحريض الشهية إذا كانت مفقودة أو ضعيفة باعطاء المريض قدحاً صغيراً من شراب شيري Sherry أو الفرموت Vermous قبل الطعام ، أو أيضاً أحد الخمور الجيدة يتخلله عنصر فعال كالحديد أو كينا مع الحديد مثلاً التي أعطت غالباً نتائج حسنة .

ومن الضروري كذلك اعطاء الفتيات الضعيفات الناحلات أطعمة تحتوي على مقدار وافر من المواد الدهنية والكريما والزبدة بشكل (قطع خبز عليها طبقة سميكة من الزبدة) Tartines de beurre .

٢ — ﴿ العلاج الخاص للخلوروس ﴾ : أخص الأدوية المفيدة في هذا الداء بعض مستحضرات الحديد ، أو الكينا مع الحديد ، والزرنيخ وزيت السمك بحسب رأي الطبيب . ويجب أن نقول هنا إن الحالات الخفيفة لهذا المرض تشفى بفضل العناية الصحية والطعام الموافق . أما في حالاته الخطيرة فعدم استعمال مركبات الحديد الصناعية أو إهماله يعتبر خطأً كبيراً ، وقد برهنت تجارب الاطباء العديدة على أن الحديد لا يجارى في علاج هذا المرض،وانه من الأدوية القديمة النادرة التي هي فوق كل ذم أو انتقاد .

ويمكن أيضاً اعطاء الحديد نفسه في حالات الداء الخفيفة ، وتوجد الآن مستحضرات منه لا تؤذي قط المعدة ولا الأسنان . فتنتخب الوصفة الطبية من مركبات الحديد بحسب حالة المريض الصحية ، وخصوصاً بحسب معدته ، وحالته المالية ، وأفضل مستحضرات الحديد الحالية ، وأرخصها ثمناً وأشدها مفعولاً هي بلا منازع تلك الحبوب القديمة المسماة « حبوب بلود » pillules de Blaud التي تؤخذ مع قليل من الخبز بعد الطعام . ومن خواص هذه الحبوب أنها لا تزعج ولا تثقل على المعدة . ويمكن أيضاً في حالات المرض الخطيرة إعطاء المصاب ، عدا الحديد ، بعض مركبات الزرنيخ بحسب استحسان الطبيب .

بيروت الدكتور عبده رزوق

الضوئيات

آخر كلمة فيها

لم يتسنَّ لي أن أتصفح أجزاء المقتطف الاخيرة لأني كنت منكوباً بأكزيما في الجفون أفضت معالجتها عرضاً الى كارثة في العين اليمنى طرحتني في جحيم من آلام لم يذق أيوب مثل بعضها . فكنت كالطير يرقص . . . وقضيت بضعة أسابيع في زاوية مظلمة كأنها زنزانة المجرمين . وانقطعت عن العالم الخارجي . وبقيت في عالمي الداخلي تتداولني الأفكار السوداء . وقد تداركني نابغة طب العيون الأكبر الوحيد في الشرق والغرب سعادة الدكتور محمد صبحي بك . فعانى في معالجتي طويلاً وكانت أوامره الصارمة تحظر عليَّ رؤية الضوء بالعين السليمة لكيلا تتأثر العين العليلة . بل كان يرغب في أن تكون كلتا عيني معصوبتين لكيلا تتحرك العليلة في محجرها بتحرك السليمة — جحيم آلام متوالية — وقى الله منها العدو قبل الصديق . وأثاب الله الطبيب العبقري خيراً وعافية وعمراً طويلاً .

والعجيب أنه في اثناء آلامي أوحت أنامله الرؤوفة لقريحتي الخاملة هذين البيتين أسجل بهما فضله العظيم وشكري الجزيل .

أنامل صبحي أم بنان ابن مريم ... تمشَّت على عينيك بغية تطبيبك

فكانت اذا ما اسودَّ ليلي مُوجعاً ... تصيِّرُه صبحاً فآمنت صبحي بك

وأخيراً حملني ملل هذا السجن المظلم أن أعصى أمر الطبيب خلسة ، وقد قاربت الشفاء ، وأستعمل العين السليمة أويقات متباعدة لكي أقرأ ما نشره المقتطف من نقد لما كتبته فيه عن الذرَّة في الآونة الأخيرة .

وكأن ما كتبته كان حافزاً لعالمين : الاستاذ فؤاد جميعان من القدس والاستاذ جريس الشرايحه من السلط (شرق الاردن) أن يدليا بمعلوماتهما القيِّمة . فكان بعضها في صميم الموضوع وبعضها في ما اتصل به أو تفرَّع منه . ولا يخفى أن جميع المعلومات الطبيعية مرتبطة بعضها

ببعض . ولا ريب أن في نقدها فوائد كبيرة لي وللقراء .

والمفهوم من مقال الأستاذ فؤاد جميعان أنه تخصص في العلوم الطبيعية ولهذا يتكلم كمعلم يلقي دروساً على طالب. وأما أنا فكما قال في خاتمة مقاله لست متخصصاً . بل أنا بالحقيقة طالب علم حبًّا بالعلم . ولم أتخصص إلاّ في فن الصيدلة . وكنت في تلك الأيام في شبه بؤس لا يتسع لي المجال لتحصيل العلم . فلا أب لي لينفق ولا ثروة أستعين بها إلاّ الاجتهاد وقهر نزق الصبى ولهو الشباب . فأمكنني بمعونة الله أن أحصل على دبلوم صيدلة من كلية بيروت الاميركية (لم تكن جامعة حينئذٍ) في مدة ثلاث سنين وهي كل مدة دراستي المدرسية . واضطررت أن أتعلم اللغة الانكليزية بنفسي في البيت ولا معلم لي سوى قاموس أبكاريوس وكتاب الطوالع السعدية في تعليم اللغة الانكليزية وكتب القراءة الانكليزية، الى أن حصلت من هذه اللغة ما يمكنني من دخول الكلية .

أجل يا سيدي الاستاذ لم أكن متخصصاً ولم يمنحني الحظ العاثر المقدرة على التخصص . ولكني قضيت الى الآن ٤٤ سنة أطالع وأدرس ، وترى في قائمة مصادر كتابي النسبية بعض الكتب التي طالعتها مراراً فضلاً عن عشرات وعشرات غيرها من مؤلفات العلماء في هذا القرن . وآخر ما طالعته من الكتب عن الذرة ثلاثة صدرت بعد إلقاء القنبلة الذرية في اليابان . وأهمها وأقواها حجة كتاب «الطاقة الذرية» الذي أصدرته وزارة الحرب الاميركية تأليف العلاّمة سميث رئيس قسم الطبيعة في جامعة برنستون . وكان عضواً في إحدى اللجان العلمية المشتغلة بمباحث الذرة وباصطناع قنبلتها . كتبه تلبيةً لطلب الماجور جنرال جروفس في الجيش الاميركي. وكان هذا القائد مشرفاً من قبل وزارة الحربية على أعمال العلماء والفنيين في اصطناع القنبلة . ولا بد أن علماء الذرة والقنبلة قد اطلعوا على هذا الكتاب ووافقوا عليه ، فطبعته الحكومة الاميركية . وهو تقرير عام شامل عن المباحث في الذرة وعن التجربات العملية والاعمال في معامل القنبلة . وصرّح هذا المؤلف أنه أغفل منه أسرار صنع القنبلة وكيفية اطلاقها لأنها محفوظة في مستودع معامل القنبلة . فهذا الكتاب يُعدُّ الآن حجة وأعظم ثقة وإليه المرجع الاخير .

فما كنت أكتبه في هذا الموضوع كان مما رسخ في ذهني من هذه المطالعات العديدة

المتكررة من المعلومات الضئيلة التي حصلتها . فلا أستطيع أن أدعي العالمية (بكسر اللام) ولا أن أدّعي العصمة فيما كتبت — العصمة لله وحده .

وإذا كان كبار العلماء يختلفون كثيراً في نظريات علمية فلا بدع إن صماليك العلم من أمثالي (لا أحسب الأستاذين جريس الشرايحة وفؤاد جميعان منهم) يختلفون تبعاً لاختلاف العلماء الذين أخذوا عنهم .

من أمثلة اختلاف أساطين العلماء حتى اليوم عقيدتهم في ماهية النور . فقال بعضهم كما قال نيوتن إنه ذريرات تنبثق من الجسم المنير الى جميع الجهات في اتجاهات مستقيمة. ولما ثبت لهم أنها تنتشر بشكل موجات ذات مرتفعات ومنخفضات فرضوا الأثير لتعليل موجاتهم وبعضهم جحدوا الأثير . واينشطين لم يجحده بتاتاً بل أعرض عنه وقال انه يستغني عنه في نسبيته . وقال بعض العلماء : « لا يمكن أن نستغني عن الأثير لتعليل بعض الظاهرات العلمية كالتداخل النوراني » وقال بعضهم : ماذا يمنع أن يكون النور ذريرات تنطلق في اتجاهات موجية، يعني ذريرات تسير متموجة . والسير تجايمس تجينز من هذا الرأي وقد صاغ له كلمة Wavicle من كلمتي waveparticle . ولم يزل انطلاق النور أو الموجات الكهرطيسية في الفضاء الخالي موضوع تخمين وحيرة لأن العلماء لم يهتدوا حتى الآن الى نظرية تتعلل بها جميع ظاهرات الطبيعة .

وما يختلف فيه العلماء الى الآن حقيقة النيوترون في الذرة. فمنهم من يقول انه بروتون خالي الشحنة الكهربائية ، ومنهم من يقول إنه بروتون إيجابي يصاحبه الكترونه السلبي الشحنة، فتعادلت شحنتهما وأصبحا كأنهما بلا شحنة. ولكن يعترض على صحة هذا القول أنه اذا اصطحب بروتون الكتروناً تجاذبا وتصادما وتنافت شحنتاهما جميعاً وتفتتا الى فوتونات خالية الشحنة ذات طاقة. إذن النيوترون على كل حال ذريرة صماء لا شحنة فيها . وأخيراً قيل انه كان في الأصل بروتوناً . ولعارض ما انسلخت منه سلخة بوزن الالكترون وأخذت معها شحنته الايجابية فبقي بلا شحنة فسموه نيوتروناً .

وهناك نظريات أخرى يختلف فيها العلماء الى الآن فلا بدع أن نختلف نحن فيما اختلفوا فيه ونحن آخذون عنهم . وفي كتاب « الطاقة الذرية » الذي طبعته الحكومة الاميركية،

وقد أشرت إليه آنفاً ، بعض نقط اختلاف في تعليلها بعض العلماء الذين كانوا يبحثون ويجربون ويعملون .

ليس في إمكاني أن أمحّص مقال الاستاذ فؤاد جيمان وأناقش في كل نقطة منه إما إذعاناً أو تفنيداً أو جحداً . لأني في حال لا أستطيع معها أن أراجع مصادر إلا اضطراراً . فأكتب الآن استناداً على ما رسخ في الذهن من المعلومات بعد تكرار المطالعات .

يستهجن الأستاذ جيمان قولي بوحدة الطاقة والمادة ونسبتها الى أينشطين . وأنا لا أزال أصر على هذا القول . وهو يحجني فيه بخطاء في ترجمتي عبارة من كتاب «الكون الغامض» تفيد معنى الوحدة . وكذلك لا أزال أصر على ان فحوى ترجمة العبارة تطابق فحوى العبارة الذي عناه تجينز على اعتبار أن الطاقة والمادة شيء واحد كما قال اينشطين . ولعل الأستاذ يستنكر أن استعمل « القوة » بدل « الطاقة » . وقد اعتدت أن استعملها لكل معنى من معاني القوة كالطاقة Energy والقوة المحركة Force والقوة المضمرة أو الكامنة Potentiality والقوة العاملة Power لظني أن جانباً كبيراً من القراء لم يتخصصوا لمعرفة الفروق بين هذه الأسماء وما هي إلاَّ اسماء متنوعة لتنوعات الحالات التي تظهر فيها القوة كما نفهمها بلغتنا العربية . فلا يحق لك أن تقول للعامي القوة غير الطاقة إلاَّ إذا أفهمته اختلاف حالتي القوة . كلتاها قوة وانما الطاقة قوة مخزونة وتدل على مطلق وجود القوة من غير نظر إلى أحوالها المختلفة .

ثم يقول الأستاذ بشبه حدَّة « لست أدري من أين أتى بهذا القول وفي أي مكان أو زمان قاله اينشطين ؟ » وبهذا التساآل يعتقد الأستاذ ان ما لم يقرأه ولم يطلع عليه لا وجود له في كتاب ولا قاله قائل، في حين أن هذا القول أشار إليه بعض العلماء منسوباً إلى اينشطين . والحق يقال ان هذا القول لا يدخل في العقل كأكثر نظريات اينشطين لأن تصورها صعب أو متعذر . واينشطين في نظرياته لا يعتمد على التخيل والتصور في فهمها أو تفهيمها بل على العمليات الرياضيــة . ولعل الأستاذ جيمان إذا طالع ما لم يطالعه بعد من كتب فحول العلم الحديث يعثر على النظرية . قد يعثر عليها في كتاب « العوالم من حوالنا » للسير تجينز أو في غيره من مؤلفاته أو في بعض كتب النسبية أو في كتاب برتران رسل A. B. C. of Relatwity

ولعلَّ اينشطين قاله في سياق الكلام عن الفوتون . الفوتون مادة مندفعة في الفضاء

بقوة. فأين هذه القوة التي تدفعه ؟ — هي فيه ومنه وله — هي هو . اذا جردناه منها أو جردناها منه أصبحا عدماً . هما كالأحمر والحمرة شيء واحد ، فلا ينفصلان إلاّ لغويًّا نعتاً ومنعوتاً . واذا سحقت الأحمر سحقاً دقيقاً وجدت كل ذرة منه حمراء مهما بالغت في السحق . هما شيء واحد ذو مظهرين مادة ولون . بهذا الاعتبار قال اينشطين ان القوة والمادة شيء واحـد كما قال ان الزمان والمكان شيء واحد .

نعود الى العبارة التي ترجمتها من كتاب الكون الغامض لتجينز . فاذا شاء الاستاذ التدقيق فليسمح لي أن أقول له عبارته ان تصحيحه للترجمة تشويه للحقيقة اذ قال ان تجينز قال : « فتنطلق طاقتهما المشتركة كومضة اشعاع » لأن كلمة ompined لا تعني « مشتركاً » كما صحح بل « مركباً » .

وأغرب نظريات اينشطين ان المادة كلما عجلت أي تسارعت ازدادت كتلتها لأنه مخالف للمشاهد المألوف عند البشر ، على انه يؤيد نظريته في وحدة المادة والطاقة . وقد يكون قائله اينشطين في رأي الأستاذ جميعان أكبر مجانين هذا العصر . ولكن بكل أسف قاله وما هو بمجنون . وأظن — وبعض الظن إثم — انه قاله للاعتبار التالي : المادة تعجل بازدياد القوة التي تدفعها أو تعجلها بالتكافؤ . فالمادة تزيد كتلة لأن القوة التي تدفعها زادت . فكأنّ (وكأنّ غير أن) الكتلة تولدت من القوة أو الطاقة المتجمعة . فلا بدع أن يكونا شيئاً واحداً أو من طبيعة واحدة . وهو موضوع عويص جدًّا ليس لمثلي أن يفسره . وهنـا قد يحتد الأستاذ ويسأل : « من قال هذا وأين قرأته » أقول قاله اينشطين وجاراه العلماء فيه .

ومعظم نظريات اينشطين مستغربات كاندماج الزمان بالمكان فيسميهما معاً « مكان — زمان » لا « زمان ومكان » وقد اختصرتهما في كتابي النسبية بكلمة « زمكان » فهو يحسبهما شيئاً واحداً . وقد سبقه بعض العلماء الى هذه النظرية . ولا ريب في انهما شيء واحد بمعنى أن الزمان مقياس حركة المـادة في المكان . فلا تستطيع أن تجرد المكان من الزمان ما دام في المكان مادة تتحرك فيه مستغرقة مدة ... لا تستطيع أن تتحرك في المكان من غير أن تقضي مدة . هل تستطيع الطائرة أن ترحل من القاهرة الى القدس إلاّ في زمان معين ؟ فرحلتها أشغلت الزمان والمكان معاً .

كذلك الفوتون لا يندفع إلاّ بقوة فيه . كلاهما بهذا الاعتبار شيء واحد .

وكذلك حسب اينشطين الزمان رابع الابعاد الطول والعرض والعمق . والمستغرب في هذا القول ان الزمن من صنف غير صنف هذه الابعاد . فكيف حسبه أحدها ؟ ما شأن الزمان مع الطول والعرض والعمق ؟ شأنه أن الزمان مرتبط بالمكان كما تقدم القول. فالجسم المتحرك في المكان بابعاده الثلاثة يتحرك في زمان، فأصبح الزمان بعداً رابعاً.

ومن مستغرباته ان الجسم كلما أسرع تقلص حتى اذا بلغت سرعته سرعة النور فني أو اضمحل أو بالأحرى اختفى . وهذه النظرية يمكن تفسيرها بسهولة اذا روعي مكان الراصد الذي يرقب الجسم المسرع . وليس هنا محل تفسيرها

يستعين الأستاذ جيمعان بمقدار (Quantum) بلانك في جحد نظرية وحدة المادة والطاقة. والذي فهمناه من نظرية « الكونتم » ان الحركة ليست استمرارية منسابة انسياباً بل هي متقطعة قطعاً قطعاً متساوية . أي الجسم لا يسير في طريقه انسياباً بلا توقف بل يثب وثبات متتابعة . وبلانك اكتشف مقادير هذه الوثبات . فهو لم يتعرض لنفس الطاقة ، بل تعرض للحركة الناجمة عنها من حيث الكم لا من حيث الكيف .

الى الآن لم يكتشف العالم ما هي الحقيقة الطبيعية للطاقة وانما اكتشف كميتها من حيث الحركة الصادرة عنها وتنويعها في حالاتها المختلفة .

وقد صدق الأستاذ جيمعان بأنه يحس أو يلمس القوة بعملية رياضية . فهذا لمس أو حس عقلي يا أستاذ. ولكن ما هي الطاقة أو القوة منفصلة عن المادة ؟ هي لاشيء . لا يمكن أن تفصل الطاقة عن المادة. هما شيء واحد . لا يمكن بلانك أو اينشطين أن يفسر هذا السر الغامض في المادة . وإذا جعلنا نتأثر الطاقة من موضع الى موضع بلغنا أخيراً الى الجاذبية فهي ينبوع القوة . ولكن ما هي الجاذبية ؟ لم يقل لنا السير اسحق نيوتن ماهي .وإنما قال لنا ما هو قانونها . هي سر الله في الكون ، هي يد الله التي تدير الأكوان .

والعلماء الذين يتكلمون عن « المقدار » (كوَنْتُم) يتكلمون عنه تارة بأنه الفوتون وأخرى بأنه طاقة. كأن الطاقة والفوتون مترادفان لمعنى واحد .

والأستاذ جيمعان ذكر مثل هذا في قوله : « بحسب نظرية بلانك الطاقة أو الفوتونات أو المقادير الضوئية هي $E = hv$ وفي هذا النص الصريح الطاقة والفوتونات (وهي مادية)

والمقادير الضوئية Quantums مترادفات لشيء واحد . وهذا القول يؤيد وحدة المادةوالطاقة.

« من فلك أدينك يا إنسان » . عفواً يا أستاذ الدينونة لله وحده . وإنما هي عبارة مقتبسة من الانجيل لجاءت في محلها هنا

بعد هذا البيان أصبحت جميع نقدات الأستاذ (ما عدا حدته ونحوها) مردود عليها من غير تعيين. والقارىء اللبيب يفهمها اذا راجع المقالين. ويمكنه أن يعلم من منا مشوّه الحقائق.

بقيت ملاحظة صغيرة وهي أن الاستاذ يقول في وسط الصفحة الثانية من مقاله « إن الذرات مركبة من الكترونات وبروتونات وبوزترونات » ولعله يريد أن يقول نيوترونات بدل بوزترونات فكانت هفوة قلم . الذرة يا أستاذ مؤلفة من بروتونات ونيوترونات في النواة والكترونات (ما عدا الهيدروجن الخفيف فليس فيه نيوترونات) . وأما البوزترون فليس من بنية الذرة بتاتاً بل هو شظية من البروتون انسلخت منه مختلسة شحنته الايجابية في إثناء العمليات العلمية وربما في أثناء انفجار ذرات العناصر الشاعة كالراديوم. ويقال إنه وجد في الأشعة الكونية وكتلته بقدر كتلة الالكترون وإنما شحنته إيجابية .

وقد استحدثه الأستاذ أندرس من معهد التكنولوجي في كاليفورنيا منذ سنة ١٩٣٢ . وكوري وجوليو وجدا أن الألومينوم ينفث بوزترونات اذا قذف بذريرات الفا من الراديوم وهو قصير العمر جدًّا . ومتى انسلخ البوزترون من البروتون يتركه بلا شحنة كهربائية فيصبح هذا نيوتروناً. ويقولون إن النيوترون نفسه اذا انضم إليه بوزترون يصبح بروتوناً.

هذه نظرة عامة في مقال الأستاذ جيمان اذ ليس في الامكان الوقوف عند كل نقطة لكي أشير الى ما فيها من التشويه للحقيقة والى ما فيها من الصواب الذي استفدته منه. فشكراً له .

أما الأستاذ الشرايحه فليس أقل من الأستاذ جيمان تحقيقاً وتعليماً وإفادة . ولا أرى لزوماً للاسترسال في مناقشته لئلاّ تصبح المناقشة قلتم وقلنا وقلنا وقلتم . وما كتبناه كفاية للقراء وفيه كثير من الفائدة لهم ولي ،وقد اطلعوا على قولينا فلهم أن يحكموا بما له وبما عليّ .

وهو يعاتبني على كلمة «يخلط» وقد راجعت الجملة التي وردت فيها فوجدت اني لم أعن ما فهم بل عنيت يمزج أو نحو ذلك . ومع ذلك أعتذر له إذا كانت الكلمة قد ساءته .

وإنما لا يسعني أن أغفل قضية السعَر التي خطأني بها . فهو يرى انه قبض عليّ متلبساً بالجريمة وحكم عليّ حكماً صارماً إذ ألقى عليّ المسؤولية حتى ولو كان الخطاء مطبعيًّا .

بالطبع ليس الخطأ مطبعيًّا فقد قلت إن السعر هو ارتفاع حرارة الكيلو جرام من الماء درجة واحدة : وفي يقين الأستاذ هو جرام فقط . ولا يمكن أن أكون قد استنبطت هذا التعريف للسعر استنباطاً . لا بد أن أكون قد قرأته في كتاب، ولكن أي كتاب ؟ لا أتذكر . وأن أعود للبحث والمراجعة فهو أمر يطول بحثه ولم يكن في امكاني،فاستسلمت لحكمه . ولكن بقي الأمر يشغل بالي . وبالأمس قلت لنفسي لماذا لا أستفتي معجماً . فتناولت قاموس وبستر طبعة شركة مريم وشركاه في سبرنغفيلد من ولاية ماستشوستس في أميركا طبعة سنة ١٩٠٩ . وقد اختصره بعض ثقات في اللغة من قاموس وبستر العالمي الكبير لكي يستعين به طلبة الجامعات والكليات — واذا فيه نص صريح على السعر . أنقله بحروفه وقوسيه :

Calorie-Amount of heat equal to the amount required to raise the temperature of one Kilo gram (sometimes one gram) of water one degree centigrad

وترجمته : السعر هو وحدة حرارية تساوي المقدار اللازم لرفع حرارة كيلو جرام (وأحياناً جرام واحد) من الماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد .

ولا يخفى أن وضع (جرام واحد)ضمن قوسين يدل على ان الكيلوجرام أصيل والجرام دخيل. وبعد هذه الشهادة الصادقة صرت أرجو من الأستاذ الشرايحة ان يصدر عفوه عني،ويلقي المسؤولية على قاموس وبستر أو الأساتذة الذين اختصروه من قاموس وبستر الكبير لفائدة طلبة الجامعات.

بقي على الأستاذ ان يدل القراء على الحالة التي يكون السعر فيها بالكيلوجرام والحالة التي يكون فيها بالجرام . وله الفضل على كل حال .

هذا آخر ما أكتبه في هذه المناقشة وليس في امكاني العودة الى كلام آخر . وإني أشكر للأستاذين جميعان والشرايحه مناقشتهما ففيها فائدة لي وللقراء . والسلام عليهما .

أرجو من حضرة العلامة الأستاذ اسماعيل بك مظهر رئيس تحرير المقتطف أن يسمح لي بتنبيه القراء الى اقتضاب وقع في وسط صفحة ٦٤ من كتابي جاذبية نيوتن الملحق بمقتطف يوليو . وهو « مساحة سطح الارض ومساحة سطح المشتري » . والمراد مساحة سطحي فلكيهما الكرويين كما هو مفهوم من سياق الكلام قبل هاتين العبارتين . والأمر لا يخفى على اللبيب .

نقولا الحداد

المجمل في اللغة

لابن فارس — مخطوط

عثرت فيما عثرت عليه من الكتب المخطوطة النفيسة على كتاب المجمل في اللغة لابن فارس وهو كتاب قيم طالما ذكره صاحب اللسان والفيروزبادي والزمخشري وأخذوا عنه واستقوا من ينابيع معينه الصافية وطالما تحدث عنه الرواة واللغويون ولا أستطيع أن أشرح مبلغ سروري حين عثرت عليه وطفقت أقلبه بين يدي وقد كتبت نحواً من خمسمائة مجلد من المخطوطات فما بلغ سروري بها المبلغ الذي وصلت اليه بهذه النسخة .

الكتاب جميل جداً ومشكول بصورة متقنة حتى لا يكاد القارىء يعثر فيه على خطأ في القواعد ولا على خطأ في الشكل وهو بالقلم النسخي الفصيح وكأنه كتب بقلم واحد من أوله الى آخره لم يغيره الكاتب حتى أتى على آخره ولعلّ هذه النسخة هي الوحيدة ضبطاً واتقاناً .

***

يقع المجمل هذا في خمسمائة وإحدى وعشرين ورقة أي في الف واثنتين وأربعين صحيفة الجزء الأول منه في أربعمائة وتسعين صحيفة والثاني في خمسمائة واثنتين وخمسين صحيفة وكلاهما في مجلد واحد لا ينقص حرفاً واحداً فلم تصل اليه يد الزمان بالبلى والفساد على طول العهد وتكرار الليالي . الأول يبتدىء بباب الألف وينتهي بباب الصاد والثاني يبتدىء بباب الضاد وينتهي بباب الياء وما بعدها مما هو على ثلاثة أحرف. الكتاب من كتب المكتبة العثمانية الحلبية تحت رقم ٨٣٩ من القطع الوسط طوله ٢٥ سانتيا وعرضه ١٧ س وعمقه أو سمكه ٩ س وطول المكتوب من كل صحيفة بعد ترك الحاشية ١٨ س وطول السطر المكتوب ١١ س والصحيفة تشتمل على تسعة عشر سطراً والسطر يحوي نحواً من اثنتي عشرة كلمة والكلمة التي يراد شرحها والبحث عنها كتبت على الهامش بالقلم الأحمر .

وقد كتب على ظهر الصحيفة الأولى ما نصه :

الأول من كتاب مجمل اللغة تصنيف أبي الحسين احمد بن فارس الرازي رحمه الله وأول الصحيفة منه :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد وليك الله بصُنعه وجعلك ممن علت في الخير همته وصحت فيه طويته فانك لما أعلمتني رغبتك في الأدب ومحبتك لعرفان كلام العرب وإنك تساحت الأصول الكبار فراعك ما أبصرته من بعد تناولها وكثرة أبوابها وتشعب سبلها وخشيت ان يلفتك ذلك عن مرادك وسألتني جمع كتاب في ذلك يذلل لك صعبه ويسهل عليك وعره أنشأت كتابي هذا بمختصر من الكلام قريب يقل لفظه وتكثر فوائده ويبلغ بك طرفاً مما أنت ملتمسه وسميته مجمل اللغة لأني أجملت الكلام فيه اجمالاً ولم أؤكده بالشواهد والتصاريف ارادة الإيجاز . فن مرافقه قرب ما بين طرفيه وصغر حجمه ومنها حسن ترتيبه وفي ذلك توطئة سبيل مذاكرة اللغة ومنها أمن قارئه المتدبر له من التصحيف وذلك اني خرجته على حروف المعجم فجعلت كل كلمة أولها همزة في كتاب الهمز وكل كلمة أولها باء في باب الباء حتى أتيت على الحروف كلها فاذا احتجت الى الكلمة نظرت الى أول حروفها فالتمستها من الكتاب الموسوم بذلك الحرف فانك تجدها مصورة في الحاشية ومفسرة من بعد فأولها كتاب الألف .

باب الألف وما بعدها في الذي يقال له المضاعف .

وقد تسمى الألف ها هنا همزة .

وآخر الجزء الثاني ما نصه :

وهذا آخر مجمل اللغة فاحفظه وتدبر ترتيب أبوابه واعلم إني توخيت الاختصار كما أرغب وآثرت الايجاز كما سألت واقتصرت على ما صح عندي سماعاً ومن كتاب صحيح النسب مشهور ولولا توخي ما لم أشكك فيه من كلام العرب لوجدت مقالاً ولكني عمدت للأصول التي أسميتها في كتابي فجمعتها فيه بأوجز قول وأقربه ورجوت أن يكون هذا المختصر كافياً في بابه مستعيناً في معرفة صحيح كلام العرب وما يتداوله الناس من غريب القرآن والحديث وكثير من غريب الشعر عن غيره وكل ما شذ عن كتابنا هذا من محاسن كلام العرب والألفاظ التي يستعان بها في الأشعار والمكاتبات فقد ذكرناه في الكتاب الذي سميناه (متخير الألفاظ) والله أسأل أن يوفقنا وإياك لكل صالحة ويعيذنا وإياك من السوء كله .

تمّ الكتاب والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً .

***

وقع الفراغ من نقله غرة جمادى الأولى سنة ست وثمانين وخمسماية رحم الله من دعا

لكاتبه بالرحمة .

لم أجد في آخره اسم الناسخ جرياً على عادة النساخ بل جاءت هذه النسخة خلوًّا من إسم الناسخ كما رأيت .

ولم أجد على ظهر الكتاب ما يصح أن يذكر سوى هذين البيتين نسباً الى صاحب المجمل وهما .

مرت بنا هيفاء مجدولة ... تركية تنمى لتركي

ترنو بلحظ فاتر فاتن ... أضعف من حجة نحوي

وهذان البيتان ذكرهما ابن خلكان في ترجمة ابن فارس وذكر له قطعة تدل على ما كان يلازم نفسه من همّ مبرح وانه كثيراً ما لم يصل الى ما يحتاجه وقد لزم دفتره وكتابه ولم يفارق سراجه الذي يستضيء به في أثناء مطالعته وكتابته ولم يجد له أنيساً في لياليه الطويلة هذه سوى هرّته التي كان يأنس بها إذا ما جن ليله وخلا بكتابه وهي .

وقالوا كيف حالك قلت خير ... تقضي حاجة وتفوت حاج

اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا ... عسى يوماً يكون لها انفراج

نديمي هرتي وأنيس نفسي ... دفاتر لي ومعشوقي السراج

ويقول ابن خلكان كان ابن فارس إماماً في علوم شتى وخصوصاً اللغة فانه أتقنها وألّف كتاب المجمل في اللغة وهو على اختصاره جمع شيئاً كثيراً وله كتاب حلية الفقهاء ومنه اقتبس الحريري وعليه اشتغل بديع الزمان الهمذاني صاحب المقامات وله شعر حسن انتهى .

ويذكر جرجي زيدان في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٠٩ إنه توجد نسخ خطية من كتاب المجمل في برلين وغوطا وليدن وباريس والمتحف البريطاني وأكسفورد ويني جامع وكوبرلي وفي كتب الشنقيطي بالمكتبة الخديوية نسخة في مجلدين كبيرين صفحاتهما نحو ١٣٠٠ صفحة حسنة الخط .

* * *

هذا وقد كان أخي العلاّمة السيد محمد سعيد النعساني مفتي حماه حالاً ذهب الى مصر قبيل الحرب العامة وباشر نسخ كتاب المجمل هذا من المكتبة الخديوية . (بعد أن قام بطبع التصريف الملوكي) يريد طبعه ونشره بعد ضبطه ووضع حواشٍ عليه ثم حدث له ما شغله عن عزمه فقفل راجعاً الى حماه والنسخة هذه تحت رقم ١٨ لغة ح خصوصية عمومية ٤٢٨٤٨ جاء في آخرها ووافق الفراغ منه يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثمانية والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الى يوم الدين .

ويحسن بي أن أذكر صورة عنوان هذه النسخة وهي :

الجزء الأول من كتاب مجمل اللغة تأليف الشيخ أبي حسين أحمد بن فارس بن زكريا رحمة الله عليهم .

قرىء على الأجل العالم شرف الدين أبو الحسن الأشرف بن يحيى بن محمد بن أبي السطين العلوي أدام الله تأييده ونفعه بالعلم جميع هذا الجزء من مجمل اللغة وعارضته بأصلي قراءة ضبط وتصحيح ومعرفة وعلم . قرأته على الشيخ الامام العالم أبي الحسن علي بن عبد الرحيم اللغوي المعروف بابن العصار رحمه الله وخبرني أنه قرأه على نسخة حجة الاسلام أبي منصور موهوب بن احمد الجواليقي رحمه الله وأخبره أنه قرأه على شيخه ابي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي تصحيحاً وأخبره انه أجازه له الفقيه سليم بن أيوب الرازي وكان لقبه منصوراً وأخبره أنه قرأه على أحمد بن فارس مؤلفه بالري وسمعته يقرأ على شيخنا حجة الاسلام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد الحساب رحمه الله فرواه لنا عن الشيخ المصري أبي دلف هبة الله بن محمد بن علي بن الحسن عن أبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي عن أبي القاسم سعد بن علي الزنجاني الفقيه عن القاضي أبي عبد الله الديباجي وأبي الفرج الفارستاني عن ابن فارس . وكتب مصدوق بن سبيب بن الحسن بخطه في ثاني عشر جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسماية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

* * *

وقد وجدت ورقة ملصقة في هذه النسخة من المجمل ما صورتها بالحرف : هذه الجزازة وضعت في الكتاب تبياناً لما يأتي على حواشيه من علامات يأتي ذكرها ان شاء الله تعالى ما على الحاشية مكتوب نسخه س أو خ ش أو ش فهو نسخة السماع وما يكون في الأصل أو على حاشيته لا الى د فهو غير السماع وقد يقع في نسخ ذكره وما يكون في ج في حاشية وما يكون على الحاشية خط ز ك فهو بخط أبي زكريا التبريزي وما يأتي بخط ش ج فهو بخط هبة الله بن الشجري العلوي النحوي ـــ وما يكون خ فهو من نسخ وقع الاعتماد على صحتها وعلى الحواشي بخط ج أشياء لم يذكرها أحمد بن فارس رحمه الله انتهى وتوجد أيضاً نسخة في الدار المذكورة مخطوطة سنة ٥٦٥ هـ بها تقطيع ونقص من آخرها تحت رقم ٣٨٢ .

وتوجد من قطعة في الدار المذكورة مخطوطة بخط قديم بها تقديم وتأخير تحت رقم ٢٣٨ وقد وقع الاستاذ السيد أحمد عبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق على نسخة من كتاب المجمل في مدينة حماه في بيت آل لطفي وهي بقطع الربع تشتمل الصحيفة على خمسة وعشرين سطراً جاء في آخرها فرغ من انتساخها .... بن عبد الجبار في شهر ربيع الآخر سنة

ثمانين وخمسمائة غير أن هذه النسخة شاهدتها مخرومة من أولها ومن وسطها وخطها ركيك جداً وهي في مجلد واحد صغير .

وذكر لي أن في بيت الشطي في دمشق جزءاً من المجمل لم أبحث عنه .

وجاء في معجم المطبوعات أن طبع الجزء الأول من هذا الكتاب على نفقة محمد سامي المغربي ولم أطلع عليه.

ذكره صاحب كشف الظنون فقال مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس القزويني اللغوي المتوفي سنة ٣٩٨ اعتبر الأبواب في أوله والفصول في غيره كالمغرب والتزم فيه الصحيح والواضح من كلام العرب دون الوحشي والمستنكر وآثر فيه الايجاز وعليه كتاب مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزبادي الشيرازي صاحب القاموس أورد فيه الف سؤال وأخذه عنه مع ثنائه عليه وحبه له وذكر البرهان الحلبي ان صاحب القاموس تتبع أوهام ابن فارس في المجمل في ألف موضع مع تعظيمه له وثنائه عليه .

* * *

ولقد كان أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري حريصاً جد الحرص على طبع كتاب المجمل هذا وهو الذي حرض سماحة مفتي حماه على طبعه ووضع حواش عليه حتى باشر بنسخه كما ابنت وكان يرغب أن تلحق بالمجمل الكلمات التي أغفلها ابن فارس كالكلمات الموجودة في ديوان الحماسة ونهج البلاغة ومقامات الحريري وخطب ابن نباته وغريب الصحيحين البخاري ومسلم. أما غريب البخاري فيوجد في مقدمة فتح الباري وغريب القرآن للأصفهاني ، وأمهات دواوين الأدب وهي أربعة الكامل والأمالي والبيان والتبيين وأدب الكاتب :

وغريب الدواوين الثلاثة ديوان ابي تمام — والبحتري والمتنبي. هذا ولعل دار الكتب المصرية تقوم بطبع هذا الكتاب معتمدة على نسخة المكتبة العثمانية الحلبية هذه وغيرها في التصحيح فلا يستغنى عنها وان تعنى بالحاق الكلمات المغفلة من الكتب المذكورة وغيرها به وتنظر فيما أخذه الفيروزبادي على المجمل وتمحص هذه المآخذ وفي ظني اذا أخرج للناس في (ظل الملك فاروق ملك مصر المعظم) بحلته القشيبة وبطبعته الممتازة وفهارسه المتنوعة على الطريقة التي تنهجها دار الكتب في طبع النفائس كان الاقبال عليه فائقاً والنفع شاملاً وفقنا الله لإحياء آثار سلفنا الصالحة النافعة بمنه وكرمه .

حلب طاهر النعساني الحموي

بنو اسرائيل واليهود

وعلاقتهم بفلسطين العربية

شغلت المسألة الفلسطينية العالم كله تقريباً في السنوات الأخيرة ، واشتدّ الاهتمام بها في هذه الأيام .

ولا يعنيني في هذه المقالة شيء يتعلق بالسياسة ، ولكني أعني بالمسألة التاريخية فقط .

ومما لا شك فيه أن للصهيونية آراء متطرفة ، وآمالاً واسعة ، لعلها تشمل فلسطين وغيرها من التخوم المحيطة بها !

ذكر الأستاذ مصطفى مرعي بك المستشار في مقال له نقلاً عن كتاب فلسطين لليهود لمؤلفه ن . بنسوتسن . ما يأتي « ان الحضارة اليهودية يمكن أن تمتد حتى تشمل جميع الأراضي التي تضمنها الوعد ، من البحر الأبيض إلى الفرات ومن لبنان إلى نهر النيل . فهذه هي معالم الأرض التي وعد بها الشعب المختار » .

ولقد استنكر بعض اليهود الخلّص آراء هؤلاء الصهيونيين وآمالهم ، وبعضهم هاجمهم بالفعل . ولست أبالغ اذا قلت أن كثيراً من سوء الظن وعدم التجانس يقوم بين اليهود الشرقيين وبين الصهيونيين النازحين من أوربا وأميركا وكثير من هذا مبعثه احتقار وازدراء من الصهيونيين لليهود الشرقيين ، وتوجس من الشرقيين للصهيونيين المتغطرسين .

على أن الناحية التي تعنيني من الوجهة التاريخيــة هي صلة بني اسرائيل خاصّــة واليهود عامة ، بفلسطين العربية ...

ولعله من المناسب أن نذكر هنا بعض آراء متطرفي الصهيونيين في دعوتهم الأحقيــة بفلسطين . قبل أن نثبت تاريخيّــا انه لا صلة لهم بهــا مطلقاً ، إلاّ صلة الدخيل الثقيل أو العابر المتسكع !

فمن تلك الآراء الغريبة ما صرح به أحد زعماء الصهيونيين — جابولنسكي — أمام لجنة شو

وهو يقول انه يجب أن تقوم في فلسطين أغلبية يهودية حتى تسود وجهة النظر اليهودية دائماً . ويجب أن تؤسس فيها دولة يهودية . وان تكون أراضيها وقفاً على اليهود يتصرفون فيها كما يشاءون لأنها بلدهم القديم .

ومثل هذه الآراء كثيرة متعددة نشرها ونادى بها عديدون من رؤوس الصهيونية في العالم .

ومن الكتب الكثيرة التي قرأتها أخيراً كتاب عنوانه دليل فلسطين قصد به واضعه الصهيوني المهاجر أن يكون دعاية لليهود في فلسطين العربية ، وتمجيداً لنهضتهم بها . . .

وقد لفت نظري كثير من الحقائق التي وردت في هذا الكتاب ، وهي تعتبر دعاية ضد اليهود لا لهم وضد مجنديهم . فحق اليهود في فلسطين يشبه تماماً حقوق المسلمين في اسبانيا

استعمرت فلسطين قبل التاريخ الهجري ، أي منذ مائتي ألف عام قبل الميلاد ، كما دلت الآثار البائدة التي فيها .

ونلخص بعض الحقائق التاريخية ، وبعض الاحصائيات الرسمية الحكومية ، فنرى ما يأتي:

(١) — لم يدخل اليهود فلسطين الا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، عند ما هاجمت قبائلهم الكنعانيين .

(٢) — ا — كان عدد العرب في عام ١٩٢٢ خمسمائة وتسعين ألف نسمة ، أي أكثر من ثمانية وسبعين في المائة من عدد السكان . .

ب — كان عدد اليهود في نفس العام قرابة أربعة وسبعين ألفاً ، أي بنسبة أحد عشر في المائة من السكان .

ج — كان عدد المسيحيين العرب ثلاثة وسبعين ألفاً ، أي تسعة ونصفاً في المائة تقريباً ، من عدد السكان .

(٣) — ا — في سنة ١٩٤٠ زاد عدد العرب الى تسعمائة وثلاثة وأربعين ألف نسمة ، ولكن نسبتهم المئوية ضؤلت حتى صارت واحداً وستين في المائة من عدد السكان .

ب — ارتفع عدد اليهود فصار أربعمائة وستين ألفاً ، أي بنسبة ثلاثين في المائة من السكان .

جـ — صار عدد المسيحيين العرب حوالي مائة وعشرين ألفاً ، أي اضمحلت نسبتهم المئوية كنسبة المسلمين فصارت سبعة وثمانية أعشار في المائة من عدد السكان .

(٤) — ا — كان عدد الذين هاجروا الى فلسطين ما بين عامي ١٩٢٢ — ١٩٣٠ . تسعين ألف صهيوني .

ب — ارتفع هذا العدد ارتفاعاً هائلاً ، ما بين عامي ١٩٣٠ — ١٩٤٠ فصار ثلاثمائة وثلاثين ألف نسمة .

* * *

ولسنا نعلم بالدقة كم هو عدد الذين هاجروا الى فلسطين منذ عام ١٩٤٠ حتى الآن ... ولكننا لا نكون مبالغين اذا قلنا أنه عشرات وعشرات الألوف !

ومن الطريف في أمر ذلك الكتاب اعتباره السامريين غير يهود ! فهو يضعهم في جانب الأجناس والأديان الأخرى ، غير العرب المسلمين . واليهود ، والمسيحيين العرب ، بذلك الترتيب المتقدم !

وبعد هذا الترتيب الغريب ، يحلل المسيحيين الى أحد عشر عنصراً نصرانيًّا . ويأتي بعد ذلك أصحاب المذاهب الأخرى وأولهم : الدروز ، والبهائيون ، ثم السامريون ، فالوثنيون !

* * *

ولنتحدث الآن عن تاريخ دخول اليهود فلسطين ، وما هي حقوقهم فيها ، وصلتهم بها مستندين في ذلك الى كتبهم المقدسة أولاً ، وكتب التاريخ القديم ثانياً .

اليهود هم قوم (خابيرو) أحد الشعوب الآسيوية ، وقد نشأوا قبائل تائهة مشرَّدة تحدرت من جنوب آسيا الشمالي الغربي ، وارتحلت ما بين شمال العراق والشام ومصر والحجاز حتى صار لهم بعض الشأن في مصر أيام يوسف الذي اشتراه فرعون مصر ، كما هو معروف . ثم جاء النبي موسى وهم مضطهدون بين المصريين فخرج بهم من مصر وظلوا تائهين أربعين سنة في التيه لا يعرفون لهم مقرًّا ولا بلداً ينزلون فيه ... حتى النبي موسى لم ير فلسطين .

فلما مات موسى عليه السلام وتولى يوشع أمر اليهود من بعده أتى بهم الى نهر الأردن ثم دخلوا أريحا بسيوفهم ومنها الى نابلس ثم صاروا يعملون في بلاد الشام نهباً وسلباً بحد

السيف . ثم طغوا وبغوا وعصوا الله فسلط عليهم سوط عذاب فاستعبدهم الملك كوشان حاكم إحدى الممالك المجاورة . وخلصهم بعد ذلك أحد ملوكهم ولكنهم عادوا الى البغي مرة أخرى فهبَّ عليهم أهل فلسطين الإصلاء ودحروهم واستعبدوهم أربعين سنة ، حتى قام في اليهود شمشون الجبار ، ولكن الفلسطينيين ، هزموهم أيضاً وقبضوا على شمشون وحكايته معروفة ...

وظلت الحروب قائمة بين الفلسطينيين واليهود سنوات طويلة بعد ذلك ، حتى حكم الملك داود اليهود ، فانتقل الى القدس وفتح فتوحات كثيرة في فلسطين والشام وعمان وبلاد الارمن . وحكم من بعده الملك سليمان الحكيم ، وجاء مَنْ بعده من الملوك اليهود فأقاموا في فلسطين ، حتى طردهم (سلمناصر) الى خراسان ... ثم عادوا .

ثم جاء (بختنصر) الذي قبض على ملوكهم وأحرق القدس وهدم البيت الذي بناه سليمان الحكيم وأحرقه ودمر مدنهم و (أباد بني اسرائيل قتلاً وتشريداً وتعذيباً) ، وخلص فلسطين وبلاد الشام الاخرى منهم وأبقاها سليمة خالصة لأهليها الأصلاء ...

ويجدر بنا أن نذكر هنا بعض ما ذكره ابن مسكويه في تجارب الأمم : ان بعض اليهود الذين سلموا من مذبحة بختنصر هرب الى الحجاز ، وبعضهم الى مصر ، واستجار هؤلاء بفرعونها فطلبهم منه بختنصر قائلاً هؤلاء عبيدي فرفض فرعون مصر تسليمهم وقال ليس هؤلاء بعبيد ولكنهم قوم أحرار ... وكان ذلك سبباً في مهاجمة بختنصر لمصر وانتصاره عليها !

وعاد بعض هؤلاء الهاربين الى فلسطين ، ولكنهم شتتوا وأحرقت ديارهم كما خرب بيت المقدس مرة ثانية على يد طيطوس الروماني) ولكنه كان خراباً أبديًّا لدولتهم ، فقد أزال ملكهم زوالاً لا رجعة بعده ونهب القدس وخرب البيت وأحرق الهيكل وأباد كتبهم ، وخلا القدس منهم — كما يقول أبو الفدا — كأن لم يغن بالأمس ، ولم يعد لهم بعد ذلك رياسة ولا حكم ، وأسر اليهود كلهم وقتلهم عن آخرهم إلاّ من اختفى منهم أو كان شريداً في بطاح الارض وبين مناكبها ...

وعادت فلسطين مرة أخرى خالصة لأبنائها الأصلاء . . .

وليس هناك أدنى شك في أن هؤلاء الذين أبيدوا هم اليهودُ الاسرائيليون ، أي بنو اسرائيل ، ولم يبقَ منهم إلاّ نفر قليل . . . قال أبو الفدا في تاريخه : « واسرائيل هو

يعقوب بن اسحق بن ابرهيم الخليل عليهم السلام . وكان لاسرائيل المذكور إثنا عشر ولداً وجميع بني اسرائيل هم أولاد الاثنى عشر المذكورين » .

فهؤلاء هم الاسرائيليون ، وهم المندثرون تقريباً ...

وأما اليهود عامة فهم كما قال أبو الفدا نقلاً عمن تقدمه من المؤرخين : « . . . وأمة اليهود أعم من بني اسرائيل ، لأن كثيراً من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهوداً ولم يكونوا من بني إسرائيل ، وإنما بنو اسرائيل هم الأصل في هـذه الملة . وغيرهم دخيل فيها فلذلك قد يقال لكل يهودي اسرائيلي » .

هـذه حقائق يعرفها الصهيونيون أنفسهم . وقد عاش بعضهم في فلسطين ، وبعضهم في بلاد العرب ، وبعضهم في مصر ، وبعضهم في العراق وفي الشـام ، وفي بلاد الأرمن ، وفي خراسان وغيرها وغيرها . فاذا صحت دعوتهم في الأحقية بفلسطين ، صحت دعوتهم بأي بلد آخر من البلاد التي استوطنوها من قبل ، وفيها مصر !

لقد دافع عنهم فرعون من فراعنة مصر مرة ، وحارب (بختنصر) من أجلهم ، وهزم ذلك الفرعون بسببهم ...

كما أن فرعون آخر طردهم قبل ذلك من مصر ، فما هو السبب ؟

لقـد رأى ذلك الفرعون أنهم خطر على مصر كما هم خطر على كل شعب يعيشون بينه ، وخطر على كل دولة يسكنونها ، فطردهم من مصر ليأمن شرهم ...

ونوضح ذلك فنقول : وفد بنو اسرائيل على مصر أيام حكم الهـكسوس طلباً للرزق ، كما كانت عادتهم من قبل ذلك مراراً عديدة ، كما حدثت التوراة ، في سفر التكوين...وقد ساعد حكم الهـكسوس لمصر على دخول أسرة يعقوب العبرانية اليها ، كما ساعد قبائل أخرى من غير العبرانيين على دخول مصر ، وقد ظلوا فيها مدة غير قصيرة ، وعلى ما تذكر التوراة أنها كانت أربعمائة وثلاثين سنة . ولـكن هؤلاء الطامعين الطامحين كانوا عبيداً للمصريين .

جاء في التوراة ، سفر الخروج ، الاصحاح الأول ، عن ملك مصر الذي قال لشعبه على بني اسرائيل : « هلمَّ نحتال لهم لئلاَّ ينمو فيكون اذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض . فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لـكي يذلوهم بأثقالهم

فبنوا لفرعون مدينتي مخازن ورعمسيس ... واستعبد المصريون بني اسرائيل بعنف . ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللّبن وفي كل عمل في الحقل . كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً » ...

ومما يقرر أنهم كانوا عبيداً وخدماً للمصريين ، وما جاء في الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، إذ قالوا لنبيهم موسى يعاتبونه عند ما خرجوا من مصر ولم يجدوا قوتاً كما وعدهم : « ... لأنه خيرٌ لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية » ! ... وغير هذا الكلام في ذلك السفر وغيره كثير ...

وكان الفرعون الذي طردهم من مصر ، واعله منفتاح ، صادقاً في نظرته اليهم ، فقد كان اليهود وهم بنو اسرائيل يمالئون أعداء مصر ويأتون معهم ضد المصريين ، شأن الذين لا وطن لهم ويريدون أن يستتبوا في أي بلد بأي ثمن !

وكان منفتاح في حروب دائمة مع الليبيين والآسيويين ، نخشي على ملكه من بني اسرائيل فطردهم ... ولكنهم لم يكونوا ذا وطن يعرفونه ، ولا بلد محدود نشأوا فيه ، فيمموا وجهة سيناء مخترقين الصحراء الشرقية ، وكان ما هو معروف من ضلالهم في التيه أربعين سنة ثم هجومهم على الكنعانيين في فلسطين ... كما جاء في سفر الخروج ، الاصحاح الثالث : « فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً » .

وفي هذا السفر ما يصوّر أخلاق القوم تمام التصوير ! فقد صور كيف سلبوا المصريين. جاء في نفس الاصحاح : « ... بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين » .

وقد كرر هذا الكلام في الاصحاح الحادي عشر من نفس السفر ، وفي الاصحاح الثاني عشر أيضاً ، حتى تمت المعجزة ، وسرقوا أمتعة المصريين ...

وكان حينئذٍ ما تقدم من نزولهم أرض كنعان ، وحروبهم ، وتشتيتهم مرة بعد أخرى حتى أبادهم (طيطوس) ابادة تكاد تكون تامة ...

فكيف إذن بقي هؤلاء اليهود ؟

قلنا انه لا شك في أن اليهود الذين أبيدوا هم أكثرية بني اسرائيل الذين قاموا بالدعوة اليهودية ، أما من بقي منهم فهو إما اسرائيلي هارب شرد من تلك المذابح ، أو من الأجناس الأخرى كالفرس والروم الذين اعتنقوا اليهودية وتقدم ذكرهم . . .

* * *

وقد انقسم اليهود مذاهب شتى . . .

قال أبو الفدا في كتابه أيضاً :

« . . . وافترقت اليهود فرقاً كثيرة ، (فالربانيـة) منهم كالمعتزلة فينا ، و (القراؤون) كالمجبرة والمشبهة فينا ، ومن فرق اليهود (العانانية) ، نسبوا إلى رجل منهم يقال له عانان ابن داود . . . . . . وأما (السمرة) فنهم فرقة يقال لها الدستانية ، وتسمى الدستانية أيضاً الفانية ، ومنهم فرقة يقال لهـا (كوشانية) . . . ولليهود أعياد وصيام ، فمنها (الفسح) ، وهو اليوم الخامس عشر من نيسان اليهود . وهو عيد كبير . . . الخ . . . الخ . . . »

هذا ما ذكره أبو الفدا وغيره من قدماء المؤرخين . . . كما ذكر شيء شبيه بهـذا عن السامريين في التوراة ، سفر الملوك الأول الاصحاح السادس عشر . . .

والعجيب في أمر واضع الـكتاب الانجليزي الذي ذكرناه في رأس المقالة ، اعتبـاره (السمرة) ، أو السامريين ، غير يهود ، بل اعتبارهم كالمنبوذين في فلسطين . . .

وقد قدّر عـددهم بما بين مائتين ومائتين وخمسين نسمة فقط ، ولـكنه يعترف بأنهم من أسباط يهوذا ، وقد طردوا من أورشليم أيام حكم نحميا ، فاستوطنوا جبل السامرة ، وهم لا يؤمنون إلا بأسفار موسى الخمسة ، التي يحفظونهـا في ترجمة خاصـّة في لغتهم العبرانيـة باللهجة القديمة ، ويسمونها التوراة ، ويعيشون في نابلس ، وهم فقراء جداً . . .

هؤلاء هم السامريون . . . السلالة القـديمة الباقيـة من اليهود في فلسطين بل السلالة القديمة التي لا يرقى الشك إلى نسبتها لأصـلاب الاسرائيليين في العالم كله . . .

ولعله من الطريف حقـًا أن تعلم إن صلة الصهيونيين باليهودية الخالصـة مقطوعة بل معدومة ! فقد تقـدم كيف ينظرون إلى السامريين نظرتهم الى أهل ملة أخرى ، بل كيف

يضمونهم في ذيل أصحاب الملل الأخرى ، في صف واحد مع الوثنيين !

ولعلّ هذا حق من وجهة النظر الصهيونية ، فهم ليسوا يهوداً خلّصاً — اسرائيليين — ولا هم يريدون احياء عرش آبائهم وأجدادهم في فلسطين كما يدعي البعض ، ولكن نزعتهم سياسية واستعمارية محض ...

فمن هم هؤلاء السامريون الذين يبرأ منهم الصهيونيون الآن ؟ .

أما أن السامريين يهود فهذا ما لا شك فيه . فهم يحتفظون بعادات اليهود القديمة ، وأعيادهم القومية ، ومن ذلك عيد الفصح على التقليد الذي ذكرته التوراة ، وهو يوافق اليوم الذي نجوا فيه من مذلة المصريين وخرجوا من مصر . وهذه الكلمة ، كما ترجمها القدماء . فسح ، أي فصح كما نعرفها اليوم . مأخوذة من العبرية — بيصح — وهي تعني المرور أو العبور ، وهي كذلك تعني في الانجليزية المرور أو العبور Passover وهم يقصدون بها الخروج من مصر . . . وهم في هذا العيد يقدمون الضحايا والقرابين ...

جاء في سفر الخروج وصف دقيق لهذا التاريخ ، وللقرابين التي تقدم ، فهو أول شهور السنة ، وفي العاشر منه تذبح القرابين . ويأكلون لحمها مشوياً على النار مع فطير ، ولا يبقوا منها شيئاً للصباح ، والنزيل والأجير لا يأكلان منه ، ولا يخرج لحم من البيوت الى الخارج ، ولا يكسر عظمة ، ولا يذوقه أغلف ، وأن تكون علامات القربان وأوصافه كذا وكيت ، الى آخر هذه التعاليم ...التي لا يعمل بها أحد من الصهيونيين الذين يريدون إحياء ديانتهم في فلسطين !

وإليك ما جاء في مجلة (البريد المصور) الانجليزية عن هؤلاء السامريين ، في أحد أعداد ابريل من العام الماضي ، بعنوان : (السامريون يحفظون عيد الفصح ، ويحتفلون به) . قال الكاتب : « في اليوم الرابع عشر ، بعد ظهور القمر الجديد في الشهر الأول ، وهو يوافق مارس أو ابريل بالتقويم الأوربي ، تقوم البقية الباقية من السامريين بتأدية أقدم شعار ديني عرفه الانسان وهم يحتفلون بهذا الشعار فوق قمة جبل جرزيم ، الذي يبلغ ارتفاعه اكثر من ألفين وثمانمائة قدم من سطح البحر . وهؤلاء السامريون هم كل من بقي من الفرق ، أو القبائل العشر ، من بني اسرائيل . وقد اقتسموا فلسطين قروناً طويلة مع إخوتهم اليهود ،

وهم ينحدرون من فرقة يهوذا ، ولم يبقَ منهم اليوم إلاّ أقل من مائتي شخص ، يعيشون جميعاً في مدينة نابلس ، في ظل معبدهم القديم . وهم لا يشعرون بعدم الزائل إلاّ مرة واحدة كل عام ، عند ما يصعدون على قمة الجبل المذكور ليحتفلوا بعيد الفصح ، في نفس المكان الذي احتفل به آباؤهم منذ أجيال لا يحصرها التاريخ ... ... وليس لهم معبد اليوم ، ولكنهم يحتفلون بعيدهم على قلة الجبل الجرداء الممهدة . وقبل الاحتفال يخرجون جميعاً من منازلهم ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وينصبون خيامهم على قمة الجبل ، ويقومون بطقوسهم القديمة كما وصفها الكتاب المقدس (سفر الخروج الاصحاح الثاني عشر من اعداده الأول الى الرابع والعشرين) .

وهم يحفرون خندقاً ليستعملوه مذبحاً بأبعاد ومسافات خاصة . وفي الرابع عشر من الشهر ، عند ما تنحدر الشمس الى المغيب ، يشعلون ناراً في الخندق ، ويجهزون ماء يغلي ...

ثم يقف كاهنهم الأكبر على إفريز ويقف الآخرون خلفه متراصين في صفوف بترتيب أعمارهم ، ويرتل الترانيم التي يقرؤها من سفر الخروج مشيرة الى احتفال أجدادهم الأول بتخليصهم من نير العبودية في مصر ، وخروجهم منها . أما الضحايا التي تقدم ، فيجهزونها قبل أيام من تاريخ العيد ، وهي حملان كما وصفها الانجيل . وهي الآن سبع ، ترمز كل ضحية منها الى عشيرة من العشائر السبع الباقية في هؤلاء السامريين . وقبل غروب الشمس تماماً ، يحيط الجمع الحافل حول المذبح ، حتى إذا بلغ الكاهن ترنيمته : (وتكون عندكم تحت الحفظ الى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر ، ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية) يأتي بالحملان شبان يرتدون ملابس بيضاً ونعالاً ، يحمل كل ثلاثة منهم حملاً ، فيكشف عليها الكاهن ليتأكد من خلوها من العلامات ، ثم يذبحها ، ثم يأخذون دماءها ويعلمون بها خيامهم راسمين شارة ملاك الموت . ويصفى الدم من الذبائح ، ثم تطبخ ويستريح البعض ، بينما يذهب المتفرجون الى خيام أخرى ومعهم بعض السامريين الذين يبيعون لهم القهوة ... وعند انتصاف الليل يؤخذ اللحم ، ويكونون متراصين كما وصفت التوراة ، ويقشر اللحم بالأيدي ، ولا يتركون عليه نسيرة صغيرة . أما الفضلات ، والعظام ، فتحرق

جميعاً إحراقاً دينياً ، كما يأمر الكتاب المقدس . وبعد ذلك يحتفلون في الصباح بعيد الفطير غير المخمر ، ويستمر ذلك سبعة أيام . ويقضون غالباً أسبوعين فوق قمة الجبل ، وقد يولد لهم أطفال وهم يحتفلون بأعيادهم تلك . وهكذا يحتفل السامريون بطقوسهم القديمة ، احتفالاً بخروج أبناء اسرائيل من مصر منذ اثنين وثلاثين قرناً . . . » .

* * *

هذا بعض ما ذكرته المجلة الانجليزية ، وقد نشرت صوراً لهم وهم يصلُّون ، فترى في سجودهم وركوعهم ودعائهم وابتهالهم الى الله شبهاً تامًّا بصلوات المسلمين وركوعهم وسجودهم ودعائهم وابتهالهم .

ولقد آثرت أن أترجم هذا الكلام الطويل . لأسأل هؤلاء الصهيونيين الذين يريدون استعمار فلسطين اليوم ، هل هم من أسباط أولئك السامريين ، أو الاسرائيليين ؟ أم هم أجناس أخرى لا يعلم أصولها غير الله ؟ وهل يحتفلون بما ورثوا عن (أجدادهم) أم أن دعاواهم مجرد تمحك وافتراء ليغتصبوا بلداً لا يمتون إليه بصلة أو نسب ؟

* * *

ومن الجهل أن يظن بعض المصريين ، والشرقيين عامة ، أن الصهيونيين ينحدرون من أصلاب من عاشوا في فلسطين من اليهود القدامى ، أو أنها بلادهم الأصلية ، التي خلقوا فيها وعاشوا بها ، وهذا خطأ . . . فلم يبق من اليهود الأصلاء غير بعض الأشتات في آسيا الغربية ، وغير هؤلاء السامريين الذين قدمنا فصلاً عنهم ، والذين يندثرون الآن ... وهم لم يأتوا من فلسطين نفسها ...

ولسنا نعلم عن غيرهم من اليهود من يحتفظ بتلك العادات والتقاليد والأعياد . كاحتفاظ السامريين والأشتات المتفرقة في آسيا ...

وادعاء اليهود الآخرين بحقهم في فلسطين لا يقوم على أساس من حق أو منطق . . . فقد ذكرت التوراة في غير موضع أن العرب الفلسطينيين كانوا يخشون سطوة الاسرائيليين

الدخلاء عليهم فيحتاطون منهم متحدين مع غيرهم من الشعوب الأخرى...وكان الفلسطينيون يحاربون بني اسرائيل ويهزمونهم هزائم منكرة . ذكرت التوراة كل هذا في مواضع كثيرة وبخاصة في أسفار الملوك وأخبار الأيام وصموئيل ...

واليهود المشردون في أنحاء العالم اليوم أو الصهيونيون ، هم غير بني اسرائيل الذين عاشوا في فلسطين قديماً ، وليسوا غير قوم رحل خلقوا بلا وطن ، وظلوا بلا وطن ، حتى هجس بهم الشيطان أن يدعوا حقهم في فلسطين ، وان يخرجوا العرب منها . وغداً يتجهون الى مصر ، والشام كله ، وبلاد العرب ، والعراق لأن بعض الاسرائيليين البائدين عاشوا في تلك البلاد ...

* * *

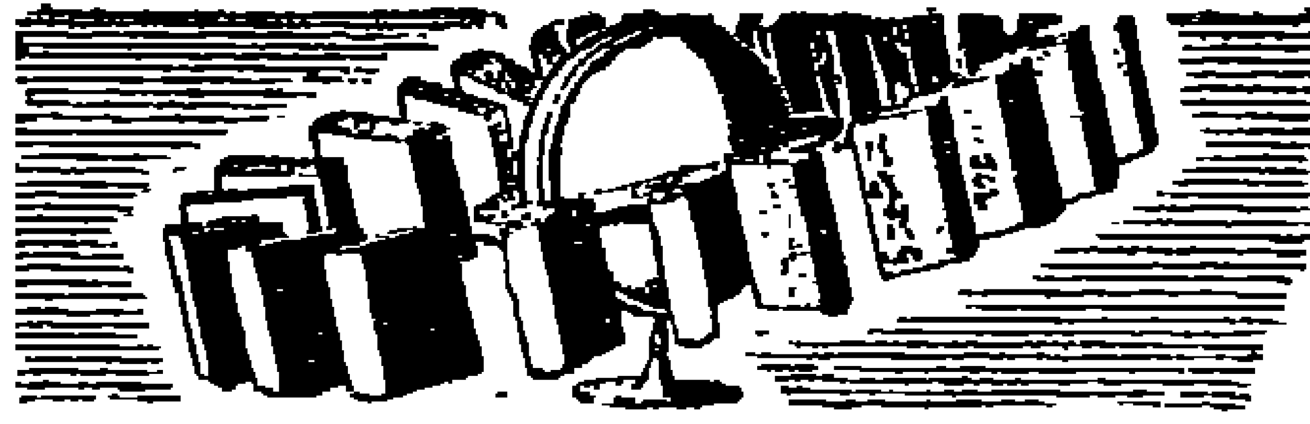
وإذا صحت هذه الدعوى ، فما أسهل أن يجمع المسلمون أمرهم في العالم كله — عرباً وغير عرب — ثم يتجهوا الى جزر البحر الأبيض ، وخاصة مالطة وصقلية ، ثم الى اسبانيا ، ويطلبوا احتلالها جميعاً ، لأن المسلمين قطنوها زماناً طويلاً ..!

وهو حق يشبه حق الترك في أوربا ، وحق الاغريق في مصر وايران والهند ، أو حق الرومان في مصر وفي انجلترا وفي فرنسا ، أو حق مصر في أمبراطوريتها القديمة والحديثة ، أو حق اسبانيا في أميركا — مثلاً — لأنهم حكموا تلك البلاد ... وغيرهم وغيرهم .

* * *

وقد تبين فيما تقدم انه لا صلة للصهيونيين بفلسطين العربية ، فأحرى بهم إذن أن يبحثوا عن مكان ناء غير معمور ، كنصف استراليا المهجور ، مثلاً ، ويستوطنوه ، فحقهم في أي بلد ، كحقهم في فلسطين تماماً ...

حسين المهدي غنام



مكتبة المقتطف

نفحات من سيرة السيدة زينب

ذلكم هو عنوان كتاب أصدره فضيلة الأستاذ احمد الشرباصي — وهو مدرس بالأزهر الشريف — ومن أدباء الشباب المبرزين .

ليس هذا الكتاب أول ما يصدر من مؤلفات الأستاذ الشرباصي فقد سبق أن أصدر عدة كتب أيام كان يطلب العلم على كرسي التلمذة فأصدر « حركة الكشف » و « محاولة » و « بين صديقين » وغيرها . واليوم يتحف العالم الاسلامي بكتابه النفيس هذا .

لم يقتصر الكتاب — على صغر حجمه [1] — على ذكر سيرة السيدة زينب وإنما حوى أموراً ذات شأن أوحت بها سيرة هذه السيدة العظيمة الشأن .

بدأ كتابه بذكر الاحتفال بالمولد الزيني ذاكراً فوائده ومزايا أمثال هذه المواسم الدينية التي « هي ذكرى تنبه الغافلين من المسلمين وهي فرصة لاستعراض صفحات من التاريخ الاسلامي الحافل بالعبر والعظات . . . » إلى غير ذلك مما فيه الخير للفرد والمجموع .

ولكن مما يؤسف له أن الأمر لم يكن خالياً مما يشوه روعة هذه المواسم ويحط من شأنها ويقلل من قدسيتها ، هو ما يجري فيها من الجرائم والتحايل والدجل والشعوذة ، يقوم بها رجال ضعف الإيمان في قلوبهم واتخذوا من هذه المواسم تجارة رابحة لهم ومرتعاً خصباً لشهواتهم . ويتخذون من سذاجة عقول البسطاء وسيلة للوصول الى مآربهم وغاياتهم الدنيئة

---

١ — عدد صفحاته ٤٨

وأولئك الذين أقبلوا من كل حدب وصوب للزيارة لم يؤدوها على وجهها بل صارت لديهم ضرباً من الوثنية ومظاهر الشرك : « فتراهم يتمسحون بالأضرحة ويطوفون حولها كأنها الكعبة الحرام ويلثمون ستائرها كأنها ستائر عرش ربك ويلصقون صدورهم بأبوابها وحديدها ونحاسها كأنها الملجأ الواقي من السعير ، ويلصقون خدودهم بعتباتها ويعفرون وجوههم بترابها ويعلقون الخير والشر والثواب والعقاب برضى ساكني هذه القبور وإرادتهم » .

هذا بعض ما جاء في الكتاب من وصف حالة الزائرين والزائرات لكل ضريح أو مقام في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية . وحقيق بكل مسلم موحّد أن يحارب هذه المظاهر الوثنية ، فقد بلغ هؤلاء الناس حدّاً من ضعف الإيمان بالله أن اتخذوا من ساكني القبور أرباباً من دون الله يخشونهم ويرجون خيرهم من دون الله ويبسطون أيديهم وألسنتهم بالدعاء وهم يتلون كتاب الله أو يسمعونه يتلى عليهم بواضح العبارة وفصيحه « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وفي آية أخرى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الدّاع إذا دعان ... » وهم يستعينون بالأموات ويقول ربهم في كتابه العزيز « إيَّاك نعبُدَ وإيَّاك نستعين » .

واستطرد إلى أن الانسان يجب أن يكسب رضى الله بجده وعمله لا بحسبه وبغيره وبالدعاء والتوسل الى المقربين الى الله تعالى فليس يغنيه كل ذلك شيئاً .

* * *

وانتقل بعد ذلك إلى سيرة السيدة زينب ، فهي بنت أمير المؤمنين علي كرّم الله وجهه وأمها فاطمة الزهراء بضعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وشقيقها الحسين عليه السلام ، ولدت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة بعد أخيها الحسين بسنتين وشهدت من حياة الرسول الكريم خمس سنوات ، فورثت أكمل الصفات وأجمل المزايا من سيد الرسل ووالدها البطل المغوار .

ولما كبرت سنها ونما عودها تزوجت ابنَ عمها عبدالله بن جعفر بن أبي طالب وهو الذي ولد بأرض الحبشة حين الهجرة الأولى . وتوفي رسول الله وعمرها عشر سنوات .

وكانت السيدة زينب مثالاً للزوجة الفاضلة المخلصة فكان بيتها أهنأ بيت وأسعده وصار لها من الأولاد : علي ومحمد وعباس وعون وأم كلثوم وأم عبد الله ومات بعضهم في أول حياته وعمر آخرون .

وكانت رضي الله عنها جميلة الخلقة صبيحة الوجه كريمة اليد والنفس عالمة فاضلة فصيحة بليغة شجاعة جريئة مقدامة .

وحينما بدأ شقيقها الحسين رضي الله عنه جهاده كانت معه عوناً له تشد أزره وتقوم بكل ما يحتاجون إليه دائبة على العمل صابرة .

وعندما وقعت الواقعة وصعدت روح الحسين الى الملأ الأعلى ظلت السيدة زينب رابطة الجأش وإن كان الحزن قد قطع نياط قلبها « وجاهدت في سبيل الله جهاد الصادقين وادَّخرت أخاها عند مليك مقتدر » .

وحملها عمر بن سعد مع أخوتها وأبناء الحسين الى الكوفة فمروا بالحسين وأصحابه وهم قتلى فملأ العويل والصراخ منهم .

وجرت محاورة ومداورة بينها وبين عبيد الله بن زياد ، وكانت فيها سريعة البديهة قوية الحجة والمنطق تقرعه بلواذع العبارات .

ولم تنخدع بدموع التماسيح التي سالت عن أعين أهل الكوفة فوقفت بينهم مبكتة تقرعهم وتظهر كوامن نفوسهم الخبيثة ثم تعقب على ذلك سابة لاعنة ، فاستدرَّت بلاغتها الدموع فضجَّ الناس بالبكاء وعضوا على بنان الندم .

ثم يأمر الطاغية ابن زياد بتجهيز الأسرى وفيهم السيدة زينب ، وترحيلهم الى الشام ، وهناك لقينَ ترحاباً من نساء يزيد .

ووقفت السيدة الفاضلة إزاء يزيد تذكره بآثامه وأعماله الشنيعة بتقريع وتأديب في خطاب طويل بليغ فكان ذلك سبباً في أن يأمر يزيد بإخراج الطاهرة زينب ومن معها الى المدينة . فخرج بهم الرسول معززاً إياهم مكرماً عارفاً لهم حرمتهم وكرامتهم .

وأخذت تؤلب الناس في المدينة على الأخذ بثأر الحسين ، فأحسَّ اليزيديون بخطرها عليهم، فكتب بذلك إلى يزيد فأجاب بأن يفرق بينها وبين المدينة على أن تختار هي البلد الذي

تأوي اليه ، فاختارت مصر . وكان استقبالها في مصر عظيماً

وأقامت في مصر عابدة زاهدة حتى وافاها الأجل المحتوم في الرابع عشر من مساء السبت ليلة الأحد من شهر رجب سنة اثنتين وستين للهجرة . وأقام لها فقهاء مصر ووجهاؤها موسماً حافلاً بعد عام من وفاتها هو المولد الزينبي الذي لا يزال يقام عندنا من أول شهر رجب إلى منتصفه في كل عام .

وتطرّق إلى ذكر الآراء والأقوال المختلفة في موضع ضريح السيدة زينب . وسرد ما نال هذا الضريح من اهتمام واحتفاء وتجديد بأيدي الملوك والأمراء الى عهد الملك فاروق اليوم .

وختم البحث بالدعوة إلى الوحدة والتآلف واتباع سنن الرسول وأن نتخذ من سير هؤلاء الصالحين والصالحات نبراساً نهتدي به في ظلمات الحياة الحالكة ودياجير الهوى والضلال وأن نتخلق بأخلاقهم ونهتدي بهديهم ونأتم بهم ونتخذهم قدوة لنا وإماماً في أعمالنا ، لا أن نتمسح بقبورهم ونقبل الأرض عند ضريحهم ونطيل اللحى ونقبع في الزوايا والتكايا كسالى لا خير فينا ، فليس هذا من الدين في شيء .

هذا وإني لأدعو كل إنسان إلى مطالعة هذه السيرة الطيبة فهي سراج للقلوب ونور للعقول وأخص السيدات بالذكر ليتخذن منها قدوة صالحة فهكذا تكون النساء .

* * *

أما أسلوب الكتاب فرصين متين قوي الديباجة مسبوك العبارة جزل الألفاظ ، وكأني به أحد شيوخ الأدب الأقدمين يرسل القول ارسالاً مستقيم الرأي سليم الفكر رفيع الأسلوب .

واني لآمل من الأستاذ المؤلف احمد الشرباصي وغيره من الباحثين أن يكثروا من نشر مثل هذه السير وإذاعتها في الناس فهي مجهولة لديهم غريبة عنهم ، ففيها الفائدة الجلى والنفع الأعم

بغداد محمد فاتح توفيق
مدرس تطبيقات دار المعلمين ببغداد

موجز تاريخ الحروب والقرون

جزءان في ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير — ثمن كل جزء جنيه مصري واحد

أول ما يروع المطلع على تلك الموسوعة التاريخية التي قام بوضعها الاستاذ حنا أبي راشد الرحالة الشرقي المعروف ، ذلك الحشد الكبير لمواكب التاريخ منذ بدء التاريخ في إيجاز غير مخلّ ، وفي عرض شائق غير مملّ .

وقد جمع لموسوعته الفخمة من حوادث التاريخ ، ومن أحداث الزمن ، ومن آثار الأمم والشعوب المختلفة ، ومن أعمال الرجال ، ومن قصص البطولة ما يشهد له بسعة الاطلاع وبموفور المادة التاريخية والمعلومات الكثيرة التي يعيها في صدره ويختزنها في عقله ليسطرها بعد ذلك ويخرجها للقارىء صوراً تاريخية رائع المشاهد .

ولم يشأ أن يعرض لهذه الحوادث والأحداث وتلك الآثار والأعمال وذكر البطولة والأمجاد عرضاً عاديًّا . ولكنه قسّم الزمن في موسوعته إلى قرون . فلم في كل قرن أحداثه وحوادثه في كل مكان وكل بيئة وشعب . مما يجعل تاريخ كل قرن ميسّراً أمام القارىء يعرف منه ما حدث هنا أو هناك في آن واحد . وهي ميزة لا ينكر أثرها في تسهيل إدراك البغية للباحث ، وفي تبسيط التاريخ للمطلع .

وقد انطوى الجزء الأول من تلك الموسوعة على أبرز الحوادث منذ بدء التاريخ المعروف حتى القرن الثالث عشر الميلادي . أما الجزء الثاني فقد جمع بين دفتيه الحوادث منذ ختام القرن الثالث عشر الى القرن السابع عشر الميلادي ويليه الجزء الثالث — الذي لم يصدر بعد — ابتداءً من القرن التاسع عشر .

وقد حرص المؤلف على أن يختم باب كل قرن بملخص يذكر فيه أهمّ الحوادث التي وقعت خلال ذلك القرن بعد أن يكون قد عرض لهذه الحوادث خلال الكلام عنها . ثم زيّن صفحات الكتاب بكثير من الرسوم التي ترتبط ببعض ذلك السرد التاريخي من رسوم لأعلام وأبطال أو مشاهد وآثار مما يزيد في فائدة الكتاب .

ولكن هناك هنات وقعت خلال الطبع نرجو أن يوفق المؤلف الى تلافيها في الأجزاء الباقية وعند إعادة الطبع ليكون لهذه الموسوعة قيمتها من كل وجهة ولا تستتبع الخطأ الحرفي خطأ في الأرقام التي تفسد من القيمة التاريخية للكتاب .

الحرب العالمية الثانية شعراً ونثراً

للاستاذ اسكندر الخوري البيتجالي : ١٠٧ صفحات (دار احياء الكتب العربية بالقاهرة

تناول الشاعر الفلسطيني المعروف الأستاذ اسكندر الخوري حوادث الحرب العالمية الثانية في ملحمة شعرية بلغت أبياتها (٢٦٣) بيتاً شرع في نظمها منذ لعلعت الرصاصة الأولى ... وفرغ منها حين خمدت نأمتها وطوح زبانيتها بأسلحتهم الفتاكة (ولو إلى حين...!) وفي هذه التحفة الشعرية تقيد الشاعر البيتجالي ببحر واحد وقافية واحدة ، وهو جهد عظيم بذله في نظم تلك الملحمة ، مدللاً بذلك على اتساع لغة (الضاد) لأي ضرب من ضروب الشعر ، أما مطلع الملحمة فهو :

« ناموا طوال لياليهم خليّينا واستأمنوا الدهر لا شرًّا يظنونا »

وقد أوفى الشاعر النابه موضوعه النفيس الماتع بحواشٍ وشروح أضفاها على خريدته فجاءت مع الشعر العذب سجلاً للحقيقة وكتاباً يجمع بين الأدب والقومية والتاريخ والسياسة ،

وكان من إعجاب الشاعر النابغ الأستاذ علي محمود طه بتلك النفحة المقدسية المجنحة ان قدّم لها بتمهيد رائع موفق إستهله بقوله :

« ليس بدعاً ان تخرج لنا فلسطين أرض الدم المسكوب ، والحق المغصوب ، والصراع المشبوب ، شاعراً حكيماً مبيناً كالأستاذ اسكندر الخوري ، يؤرخ لنا هذه الحرب العالمية الثانية ويقف من أحداثها وفواجعها موقف القاص المدقق والقاضي المحقق » ويشيد الأستاذ علي محمود طه بتوفيق شاعرنا الخوري كثيراً « في تطويع الأسماء الأعجمية لموسيقيته » ويلاحظ القارىء ذلك من قول شاعر الملحمة :

« والروس ما عتموا أن قام قائمهم وواصلوا زحفهم (برلين) يبغونا
غزوا (بدابسـت) في جيش زعمه جوكوف واستخلصوا (فينّا) مُعجلينا »

ومن قوله مخاطباً حاضرة المانيا :

« لو كان (هتلر) حيًّا ما مددت يدا ولا حملت على أبناء (موسكينا) »

وكان جميلاً من الأستاذ الخوري ان يتلفت وهو سادر في تصوير مشاعره على القرطاس الى الشرق العربي وقضاياه الكبرى فينادي بحقه ويهتف بالخير له ويتغنى بمثله العليا ويشيد ببطولة أبنائه وينعي على الحضارة الآلية هذه المذابح الحمر التي صبغت أديم الأرض بلونها القاني وأغرقت الدنيا في لججها الطاغية وقذفت العالم في عواصف سعيرها المتقد.

وفي تلك الملحمة عرضٌ رائع للاحداث السياسية التي ألمّت بالمجموعة العربية ابان هذه الحرب الضروس فمن (جامعة الدول العربيـة) الى قضايا مصر وسورية ولبنان والعراق

وفلسطين ولم يفته الحديث عن مؤتمر سان فرنسيسكو قائلاً .

« يا طير (سان فرنسيسكو) على مهلٍ إحمل لسان فرنسيسكو أمانينا
هنئ دعاة فرنسيسكو وقل لهم « إنا محيوك ياسلمى فحيينا » !
قل للوفود مقال الصدق هل ذكروا بنود (ولسن) هل هم غير ناسينا !
بغيرها لا سلاماً ينشدون ولا صلحاً به الأمن يوماً يستعيدونا »

والواقع ان في ملحمة الشاعر المنتج كتابين ماتعين كما يقول الأستاذ طه : يظفر منهما عشاق الأدب الرفيع بنصيب وافر، ويرجع محبو التاريخ بقسط مليء زاخر ! » ونلاحظ على الأستاذ الخوري تخلصه البارع عندما ينهي ملحمته بأبيات يرحب فيها بدنيا السلام ومن ذلك قوله:

أهلاً بدنيا سلام لاح بارقها وذرّ شارقها للخير يهدينا
دنيا سلام على الأخلاق قائمة (لا، لا) على نزوات المستبدينا

ولئن قدر للحرب العالمية الأولى أن ينظم وقائعها شعراً الكاتب العربي الجبار الشاعر الناثر المرحوم أسعد خليل داغر فان تاريخ الحرب العالمية الثانية حظي بشاعر غمس ريشته بحبر الخلود فجاءت ملحمته الطريفة من طراز عال يفوق كل وصف وتصوير !

(بيت المقدس) البروي الملثم

كرم على درب

تأليف ميخائيل نعيمه ، صفحاته ١٠٤ من القطع الوسط ، طبع بمطبعة المعارف بمصر

هذا اسم كتاب أصدرته دار المعارف في القاهرة مطبوعاً طبعاً أنيقاً وقد ضمّ بين دفتيه مجموعة كبيرة من الشذور والأمثال والحكم المهذبة للنفوس من نتاج عبقرية الأستاذ ميخائيل نعيمة وانبثاق نور بصيرته ومن ثمار ما وعاه صدره من معلومات وما عاناه من تجارب واختبارات وما بلاه من طبائع الناس وجميع هذه الأمثال تسمو الى الذروة في دقة تصويرها وبلاغة عبارتها . وقال في صدرها : « كرمي على درب فيه العنب وفيه الحصرم فلا تلمني يا عابر السبيل إن أنت أكلت منه فضرست »

يقصد بذلك أن في بعض هذه الأمثال والإشارات ما يطابق صفات بعض الناس فلا تروق لهم قراءته لأنه يظهرهم على عيوبهم ويريهم عواقب هذه العيوب . وفيها حكم يقرأها غيرهم فيرتاحون إليها ويرون فيها ما يشجعهم على مواصلة الأخذ بأسباب الفضيلة والشرف والحب والايثار . وكتاب كهذا جدير بأن تزدان به مكتبة كل فرد فانه كتاب الحياة في صميمها . فنثني على فضل مؤلفه وعلى فضل دار المعارف في طبعه ونشره .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد التاسع بعد المئة

الحق

لواحق المقتطف الشهرية

الحق والقوة

دراسة اجتماعية

بقلم

ادماند لهناف

ترجمة: سليم سعده

«اذن يجب ادماج العدل بالقوة . . . إذ أنهم لما لم يستطيعوا»
«أن يجعلوا مما هو عادل قويًا فانهم جعلوا مما هو قوي عادلاً»
« بسكال »

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

الفصل الاول

مقدمة

لم يتحدثوا في عصر من العصور عن الحق بأكثر مما تحدثوا عنه في وقتنا . فمن ذا الذي لا يزعم ان الحق في جانبه ؟ وليس الأمر قاصراً على المحامين أو الخطباء فحسب ، ولكنه يتعداهم الى المنازعات الاجتماعية كما يتجاوزهم الى الخلافات الدولية . فجميع الخصوم يصيحون بأنهم يرفعون لواء الحق ، ويستضيئون بنور الحقيقة . فمنهم من ينادون بأن قضيتهم عادلة وأتباع النظريات المعارضة يتذرعون بالحق لتعزيز مطالبهم ويعتمدون في ذلك على قوة السلاح أو غيرها من وسائل الارهاب .

ولكن . كم عدد الذين حللوا الفكرة التي يتمسكون بها من بين هؤلاء جميعاً ؟ ان الألفاظ المجردة أشبه بالأعلام الفضفاضة يعبث بها الهواء وتديرها الريح المتقلبة تباعاً حيث تسود الأهواء والغايات .

***

لقد عبر الفلاسفة عن الحق بشتى المعاني وفسروه بمختلف العبارات ، فشيدوه تارة على القوة وتارة على المنفعة والمصلحة وتارة أخرى على المساواة والحرية .

أما التفسير الأخير فهو الذي نادى به « كانت » بقوله : « كل عمل يكون عادلاً ما دام يجمع بين حرية الفرد وحرية الجماعات في ظل شريعة عامة » . وقال سبنسر مثل ذلك : « اننا نعمل عملاً عادلاً ما دامت حريتنا العملية لا تعتدي على حرية أي انسان آخر ولا تتعارض معها » . وهذا المبدأ في مساواة الحرية يرتكز بدوره على : « كرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ... إن كل رجل يحمل غايته في ذاته . فلا يجب أن يستغل كالآلة أو يتخذ وسيلة . فكل فرد — اذا وقف على نسبية مداركه الشخصية وكيان أمثاله — يستطيع أن يضع حداً لأنانيته وتماديها الى ما لا نهاية له . « إن الشعور بأن كل كائن يحمل في نفسه شيئاً لا يمكن التعبير عنه الا لذاته ولا دلالة له الا بذاته ، ذلك الشعور هو مصدر الحق

وكيانه (شوبنهور) » . اننا نزن رغم حيال كائن مثلنا كما نقف حيال أية نظرية يتعذر على علمنا ادراكها كما يتعذر علينا قياسها بتحليلنا على أننا نشعر في أعماق ضمائرنا بأن هذا الكائن مقدس لأنه ينعم بضمير مثلنا ... وهكذا فان مبدأ الكرامة الأخلاقية يقوم على القناعة والتعقل وصيانة ما للغير .

ان العيب الظاهر على هذا التفسير هو انه يرتكز على نظرية قياسية لم يرد ما يؤيد صحتها ، وقاعدة جدلية لم يدرك كنهها العالم الذي لا يرتكن الا على الملاحظة والاختبار. وكذلك المشرع ورجل الدولة لأنهما لا يهتمان الا بحكم الرجال . إن تحديد مدى الأنانية في ذاتها لا تسهل ملاحظته الا في المجتمعات ، والعدالة الانسانية التي تدوّن في الشرائع ليست رمزاً لمذهب مثالي نبيل يستطيع الأفراد أن يعيشوا في كنفه فيخلعون على أمثالهم ما تملكه أعانهم بمحض ارادتهم . ففي أي مكان قدّر لنا أن نكون لا نسمع الا كلمة الحق ولا تقع أنظارنا الا على الحق . وقد أعد وهيء على قياس عقلي واعتبر وسيلة كفيلة بضمان المساواة للجميع في استعمال حريتهم .

فمن ذا الذي يعبأ أو يهتم « بكرامة الكائن البشري ومكانتها السامية » ، ومن ذا الذي يفكر في احترامها ؟ لا أحد الا بعض القائلين بضرورة تهذيب الأخلاق وتقويمها ممن لا تصفو فكرتهم ولا تسمو الا داخل قلعتهم العاجية ، وتلك القلعة نائية عن معترك الحياة وميدان القتال . انهم يقولون لنا : « ان العدل فضيلة قبل كل شيء ، ولا بد أن يكون متأصلاً في الارادة ليمكن تنفيذه بواسطة الشرائع : ان الواجب الاجتماعي يرجع بنا الى الواجب الشخصي » . ان الحق فكرة موجبة نحو المستقبل » . فالحق في نظر هؤلاء العلماء قائم على احترام المساواة في الحرية عند جميع الرجال وبذلك لا يكون الا فكرة كمالية خاضعة قبل كل شيء للاصلاح الداخلي بواسطة نخبة مختارة من الرجال لا يأنفون الاستمتاع بلذة التأملات الفلسفية .

***

ولكن الحق في وقتنا هذا ؟ ذلك الحق المنصوص عنه في قوانيننا ، وفي معاهداتنا ، ذلك الحق الذي يعيش له السواد الأعظم العامل ، ويفرض على المفكرين المتأملين عند

ما يجرفهم دولاب العلاقات الاجتماعية ، ذلك الحق ماذا عساه أن يكون ؟ يقول المتشرعون والفلاسفة الذين يفاخرون بالمذهب الوجودي وينادون بأن مواجهة الحقائق الصارمة خير من الاستسلام الى لذة الأحلام وان كانت في بعض الأحيان حقيقة راهنة ، ان ذلك الحق ليس الا شريعة من النحاس مصهورة في بودقة القوة . وانه ليس وليد تفكير عميق حر للارادة البشرية . أما الشرائع فهي نتيجة التطور التاريخي لأعمال السلف وبلوغها الغاية وانها تعبر عن مصلحة الجماعات المنظمة التي تؤلف منها الدولة وتنعدم حيالها مصلحة الأفراد . يقول هجل : ان الأعمال العادلة هي التي يمتزج فيها روح الفرد مع روح الدولة ، وتعزز القوة الوطنية فيتحطم كل ما يعترضها أو يقف في سبيلها . فاذا ما تناولتها حركة التطور حوّلتها الى قوة ظافرة وحق مؤكد . ففي النزاع الذي يقع بين الدول ، يتولى الوطن المختار تنفيذ الحظ الذي قسم له ، ويتحكم بخصومه ويملي شريعته الانسانية السامية تحت الهام الروح الالهي الذي قاد خطواته في ذلك النزاع حتى ظفر وانتصر .

ان الحق لا يستند الى أفكار ولكنه يستند الى وقائع . كما انه لا يتجه نحو المستقبل ولكنه يعتمد على الماضي ليسيطر على الحاضر . فهو القوة الكامنة في العنصر السامي المسيطر ، واختيار هذا العنصر كان نتيجة اختبارات طبيعية دقيقة لاقصاء جميع العناصر الناقصة العاجزة عن القيام بمهمتها على الوجه الأكمل ، وهذا ما يحمله على تنظيم شؤونه للاحتفاظ بقوته وتنميتها . يقول ايهرنج : « ان معرفة الحق مسألة عملية بحتة . . . وان غاية الحق وغرضه هو السلم ، والوسيلة التي يتبعها الحق لضمان السلم هي القتال والحرب والقوة . وسيظل القتال ما بقيت الدنيا . وهكذا ليس القتال غريباً عن الحق ولكنه مقيد بأوثق الروابط وأحكمها بتنفيذ هذا الحق وتطبيقه . فكل حق في الحياة لم يُكتسب إلاّ عن طريق القتال ، لأن تفهم الحق ليس إدراكاً منطقيًّا ولكنه مجرد إدراك للقوة . ويقول هجل : « تقول بأن السبب القويم العادل يطهر الحرب ؟ وأنا أقول بأن الحرب القويمة العادلة هي التي تطهر جميع الأشياء . ان انتصار شعب هو الدليل القاطع على حقه » .

* * *

ها هما ذا التعليلان وكيفية ادراكهما وجهاً لوجه . على انه اذا تبين لنا ان إحداهما بعيدة

المرمى عزيزة المنال لأنها سريعة الزوال ذاتية ، واذا كانت الأخرى تثير فينا مكامن النفس بقدر ما تثير الفؤاد ، فهلاً نستطيع — حيال ذلك — ان نجد في غيرهما حلاً يلائم الشعور ويرضي العقل معاً ؟

ستكون دراستنا قاصرة على الحق الواقعي ،ذلك الحق الذي يجد رمزه في الشرائع المدونة أو في العادات الشفوية المنقولة مع ما تتطلبه من التعليل والتدليل .

ولسوف تقودنا دراستنا الى فحص العلاقات الخارجية والداخلية التي تصون المجتمعات الانسانية وتحافظ عليها سواء أكانت مع مثيلاتها أو مع أعضائها .

الفصل الثاني

الحق الآلي للعلاقات الخارجية

ليست مواضيع الحقوق من المواضيع المجردة البسيطة المسخرة لذاتيتها كالتي يقنع بها المشرعون عندما يرغبون في تحلية مؤلفاتهم في القانون الخاص وتنميق صفحاتها بعبارتي: « أولاً » و« ثانياً » . فتلك المواضيع تعبر اما عن أشخاص حساسين هواة نابهين عاملين، واما عن أشخاص أخلاقيين لا خياليين . وهؤلاء الأشخاص يظهرون — بفضل استمرار أغراضهم وأعمالهم المتواصلة — كياناً ، كثيراً ما يكون مزمناً ، يختلف تمام الاختلاف عن أعضائهم ويدللون به على فرديتهم الذاتية كذلك الفيلسوف الذي كان يدلل بالسير على وجود الحركة . إن العالم الاجتماعي يتناولهم ببحثه وهم أحياء ولا يقنع بدراستهم كما تدرس النباتات المجففة بين صفحات الكتاب .

ولكن ، أليست الحياة مظهراً خاصاً من مظاهر النشاط ، أم هي تختلف عنه . ان الكائن الحي يعرف مدى نفسه ويقدرها بوسائل عمله وعقله .

إن الظاهرة المميزة للحياة هي الجذب، والامتصاص ، والتحويل . فكل كائن حي يمكنه أن يحوّل جوهره الخاص الى عدة جواهر مختلفة تمتزج به . فتلك الامتزاجات الطبيعية والكيميائية تصون الحياة وتنميها وهي بمثابة الشرط الأساسي للحياة . وما دام الجسم حياً فإنه يكبر وينمو بفضل الغازات والسوائل والأشياء اليابسة المحيطة به ، والتي يخضعها لطبيعته وشكله . وعند ما يدرك سن المراهقة فانه يتولد ويتناسل وهكذا يمتد في الفضاء وفي الزمن . فالاحتفاظ بالحياة والتعمير هما إذن نتيجة التغلب على الطبيعة المقهورة . يقول نيتشه : إن النمو يعد جزءاً من تصور الشيء الحي . فكل شيء حي يجب أن يزيد نفوذاً وسلطة ، وهكذا فانه يبتلع القوات الغريبة » .

فقد يحدث — خلال بحثه عن العناصر اللازمة لكيانه — انه يلتقي بمنافسين . وان هؤلاء المنافسين يصبحون أعداء : كائنات أخرى من نفس الجنس أو من أجناس مختلفة .

فيجتذب كل واحد منهم الى نفسه المواد الضرورية له ويلقي النفاوة . وكثيراً ما تكون تلك النفاوة ضارة عن حوله . فإذا كان عدد الجواهر الضرورية لا يعد ولا يحصى فإن الجيران يعيشون في وفاق تام مع بعضهم . اما اذا انتفى هـذا الشرط فان النزاع يبـدأ في الحال بين الخصوم ، خصوصاً من اشتهروا بصلابة الرأي والعناد ، سواء أكانت خصومتهم قائمة بسبب الحصول على الأغذية البسيطة التي توجـد بوفرة لسد حاجيات الجميع ، أو للتغلب على جار خطر وسحقه . ان الحيـاة ليست سوى عمل أناني . وميل الـكائن في المحافظة على كيانه هو خير تفسير — بواسطة الأنانية — لما يسمى الـكائن الحي .

لم يكن للرجل الأول عدوٌ شرٌ من الرجل مثله ، وهو أقرب جار اليه . ففي العصور الأولى كان الرجل مرتبطاً بشريكة حياته وأبنائه بعاطفة طبيعية تعززها المصلحة . فـكان يحذر الغريب ويكرهه بقـدر ما كان يحذر منافسيه من الحيوانات ان لم يكن أكثر . وعنـد ما تعددت العائلات وازدادت عـدداً وانتشاراً ، وعند ما استوطنت هـذه العائلات الأرض زرعوها بأنفسهم ، بدلاً من السعي الحثيث وراء الفريسة والقنص ، وعند ما ازداد احتكاك الأفراد ببعضهم بزيادة السكان ، بدأت المنازعات بينهم ثم كثرت واشتدت بسبب المصـالح ونشبت الحروب وأصبحت سجالاً . واضطرت الجماعات الطبيعية الناشئة عن العائلة — سواء أكانت على هيئة عصابات أو قبائل — أن تتخذ لنفسها شكلاً حربيًّـا أو تحافظ على وجوده ، وان تضع نظاماً أوحت به الحاجة الى القتال الذي كانت ترقبـه عن كثب وفي كل لحظة . وكانت تلك الجماعات مؤلفة داخل نطاق ضيق ، ومعادية لجميع من حولهـا بحيث لا يوجد بينها وبين جيرانها علاقة مطلقاً . والآثارات التي خلفتها لنا عهود المدنيات القديمة منذ نشأتها قد حملت الينا آثاراً واضحة لتلك المعاهد الأسقفية . ولقد كانوا في روما يجهلون معنى الحدود الفاصلة — على ان وضع مثل تلك الحدود كان متعذراً ومستحيلاً ، فكانوا يفصلون بين حصتين في ميراث واحد بقطعة من الأرض يطلقون عليها اسم المنطقة المحرمة . اما في المدن فـكانت المساكن متباعدة فلا يجوز أن تلتصق ببعضها . وأبواب المنازل الرومانية لا يمكن أن تفتح إلاّ من الداخل كالأطم المحصنة .

ولم يكن مبدأ الأسرة القديمة قائماً على الذرية ولا على العطف بل ولا على الدين وإنما كان

قائماً على ضرورة الاتحاد والتحالف ضد الغريب . وهكذا كان يستحيل على الفرد أن ينتمي الى أسرتين في وقت واحد فالابن الراشد ، والفتاة المتزوجة يهجران الأسرة ويقطعان كل صلة لهما بها . ولم تكن لصلة الرحم أو أواصر الدم قيمة ما دامت لا ترمي الى تعزيز المجتمع العائلي . ففي البدء كانت القرابة لا تكتسب إلا عن طريق الرجال فقط . وكان التمييز والتفضيل سائدين بين الفتيان الذين يناط بهم الدفاع عن المدينة ، وبين الفتيات المذيلات العاجزات عن حمل السلاح ، بل وبين الأبناء اذ أن البكر وحده كان يرث السلطة الابوية .

واننا نجد نفس هذا النظام الحربي في القبيلة أو العشيرة التي تؤلف الأسرة نواتها ، بل وفي المدينة نفسها . فمجلس الشيوخ مؤلف من جميع رؤساء الأسر والرعاة المثقفين ، إما في القتال بين صفوف الجيش أو في منتديات الفوروم ، أو في الحفلات الدينية ، فان المجتمع العائلي يلتف حول زعيمه محاطاً بأفراد العشيرة فتتألف من فردية ذاتية بارزة قوية. فلا يجد الغريب مكاناً له بين تلك الجماعات المتأهبة للحرب بلا هوادة ولا انقطاع ، ولا يشترك في تشريع المدينة ، ولا يستطيع أن يلجأ الى الحاكم . ففي آثينا لا يخضع الغريب لتشريع القاضي ولكن لأحكام الزعيم الذي يقود الجيش . ويرجع ذلك الى أنهم كانوا ينظرون الى الغريب نظرتهم الى عدو يخشى جانبه . اما في روما فقد انتدبوا لذلك قاضياً خصيصاً للفصل في الدعاوى . وكان هذا القاضي لا يستمد وحيه من القانون المدني المشرب بالروح الدينية الذي يعمل به في المدينة ويطبق على سكانها ، ولكن من العادات الشائعة في جميع الشعوب ويطلقون عليها اسم قانون الناس .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية — عندما سادت القوة من جديد على أوربا الوسطى وأوربا الغربية — جاء عهد الاقطاعيات نذيراً بالعودة الى عصر البربرية الأول . واختفى عهد السلم الروماني وخلفه عهد الفوضى . فاضطر السكان والفلاحون الى الالتفاف حول زعيم . فكان هذا الزعيم يكفل لهم نوعاً من الهدوء والطمأنينة يتناسب مع طاعتهم له واستعباده لهم وما يفرضه عليهم من الأتاوة والضرائب . فمن كان منهم لا يرغب في الخدمة أو يعجز عن اعداد عدته الحربية ، كان في الواقع بمثابة العبد لا يتمتع بأي قسط من الحرية . وهكذا لم تكن هناك مكانة لغير الجنود . وكان التابع الذي يرافق سيده الى

الحرب يمنح مقاطعة على سبيل المكافأة عن خدماته . فهؤلاء المحاربون كانوا يمتلكون جميع الأراضي . وقد ساعد ضعف النفوذ الملكي على استبدادهم وجعل من هؤلاء الأسياد المُلاّك ملوكاً صغاراً . فامتزج التملك بالامارة . . . ان جوهر المجتمع الاقطاعي مشيد على أساس الروح الحربي .

ولا فائدة من ذكر الأسباب التي جعلت من الملوك أسياداً على الأراضي التي امتدت اليها سلطتهم تدريجيًّا وكيف سلبوا الأشراف سلطتهم تباعاً وأسندوا اليهم مناصب شرف بحتة ، وكيف فرقوا من جديد بين ملكية الأرض وبين ملكية الحكم ، وكيف جمعوا في شخصهم سلطة الدولة بأكملها . . . هكذا نشأت دول قوية واسعة منظمة مركزة . وهذه الدول في الواقع تمثل أشخاصاً معنويين يمتاز كل واحد منهم بمظهر جلي واضح ونفس جامعة . فجميع الدول — كبيرة أو صغيرة — مستقلة بذاتها ، وهي — إذ تضع خاتمها على وثيقة ما بمحض ارادتها واختيارها — تنعت نفسها باسم « الدولة العظمى المتعاقدة » . انها تشعر تمام الشعور بمكانتها وقيمتها ، كما تشعر بحقها في التصرف بمحض ارادتها ومطلق حريتها ، وتفتخر بعمل ما يميزها عن جاراتها في الأوضاع السياسية والعملية والفنية والاقتصادية . . . إنها لشخصيات قوية ، ودافع الجنسية يحملها أحياناً على التمسك برأيها وعدم التسليم بما يطلب منها ، ولهب الوطنية لا ينطفىء فيها إلاّ بانطفاء نار الحياة . ولو قدر لتلك الجنسيات أن تستعبد يوماً فان ثقتها في استعادة حريتها التي لا تنسخ بمرور الزمن لا تنعدم من صدور أفرادها ما دامت تلك الأمة تحافظ على شعورها بفرديتها الذاتية التي تميزها .

***

ان الرجل في العصور الأولى ، والقبيلة القديمة ، والأمراء الاقطاعيين ، والدولة الحديثة تخضع كلها لنفس القواعد في علاقاتها الخارجية . جميعهم يمثلون أشخاصاً طبيعيين أو معنويين لا يقبلون عليهم سيداً ويتنادون ، على رؤوس الملأ ، باستقلالهم ويفصلون في جميع المنازعات الخطيرة التي تنشأ بينهم ، بالقوة . فرجل المغاور والكهوف — عند ما يؤوب من صيد مجدود — كان عرضة لأن يلتقي في طريقه بندّ أو غريم متربص لسلبه الفريسة قسراً وقهراً . وان كلاً منهما ، عند اقتسام الغنيمة ، كان يقدر ما يتمتع به غريمه من القوة والبطش ... ان

قانون الاقطاعيات قد أحلّ الحروب الشخصية مكانة كبيرة ، وأقرّ المبارزات القضائية . أما الدول الحديثة فإنها لا تعرف — لفض منازعاتها — إلاّ الالتجاء الى السلاح وفي ظروف لا تقل في وحشيتها عن الفظائع الخرافية التي نسب ارتكابها الى العصور البائدة . ان الحرب كما يقول المشرعون — هو العقاب الذي يفرضه قانون الناس وهو الحجة السامية التي يتذرع بها الملوك .

ان نير ان الحروب في الماضي — كما هي في أيامنا — كانت تندلع في كل مكان في وضح النهار أو تحت طي الخفاء . فكان كل فرد يحاول أن يطغى على حرية جاره ، ويعمل على إخضاعه لارادته ويتخذ منه آلة لادراك مآربه ووسيلة لبلوغ مطامعه وثروته . كان الرجل الأول ذئباً يفترس الرجل مثله . وعند ما تمدينت الانسانيــة ظلّ النزاع قائماً تحت ستر من الهدوء والسكينة ولـكنه أشد وقعاً وأفظع أثراً . فهو يتجلى في المنافسات الاقتصـادية ، والمطامع المتبادلة ، ونزاع الطبقات ، واضطهاد الأقليات والخصومات الدولية .

« أفٍّ للطبيعة ، وأفٍّ للتاريخ !... المنافسة . المنافسة دائماً وفي كل مكان ، والحرب وانتصار القوة ، وقانون الجريمة والقتل . (سيايس) » ولقد دال جوزيف دي مستر (ليالي بطرسبرج) على ذلك كله بعبارات مؤثرة تنطبق على الطبيعة بأسرها : « كم من فسيلة نباتية تموت ، وكم تطأ الأقدام غيرها في عالم النبات ؟ ثم انك لا تكاد تقرب مملـكة الحيوان حتى تدرك أن الشريعة قد استعارت شكلاً مريعاً واضحاً . ففي كل قسم من أقسامها الـكبيرة ميزت الشريعة عدداً من الحيوانات وأناطت بها افتراس الآخرين : وهكذا توجد حشرات مفترسة ، وزواحف مفترسة ، وطيور مفترسة ، ودواب مفترسة . فلا تمر لحظة من الزمن دون أن يفترس كائن حي كائناً آخر . وعلى رأس تلك الأجناس الحيوانية المتعددة المنوّعة يوجد الرجل الذي لا تترك يده المهدمة شيئاً من ذلك دون أن تحطمه وتبيده : انه يقتل ليتغذى ، ويقتل ليدافع عن نفسه ، ويقتل ليتعلم ، ويقتل ليلهو ، ويقتل لذةً في القتل . فأي كائن سيسحق ذلك الذي يبيد الجميع ؟ هو ... ان الرجل هو المـكلف بقتل الرجل » .

لقد اكتشفوا مع هيكل رجل من عصر قبل التاريخ إحدى الآلات النادرة التي كان يستعملها ، وهي بلطة من الصوان . كان قابضاً عليها بيده حتى في ساعته الأخيرة . ثم ان

الآثار الأدبية التي آلت الينا عن العصور القديمة كانت منقوشة . بحروف هيروغليفية أو اسفينية على جدران المعابد الآشورية أو الكلدانية أو المصرية ، وهي في مجملها وصف للحملات العسكرية والمواقع الحربيـة وأسمـاء الشعوب المقهورة . فلنصغ الى قول أشور نازيرابال في وصف وقائعه الحربية : « وشيدت منصة عند باب المدينة ثم سلخت جلد جميع عظمائها وفرشته على المنصة ، وعلقت جثثهم فوقها وخوزقت غيرهم فوق قمتها وخوزقت الباقين حولها . ثم جمعت رؤوسهم على شكل تيجان وشككت جثثهم بالدبابيس ونظمتها على شكل أكاليل من الأزهار » . وليس ما تغنى به سنا شريب تبجحاً أو وصفاً خياليـّـا عند ما قال : « لقد مررت كالأعصار المدمر » . ثم إن رعمسيس الثاني كان يطلب أن يمثل وهو يجز أعناق اثنى عشر من الاسرى بضربة سيف واحدة .

ان سلسلة الفظائع الوحشية والحروب الآثمة الدامية تملأ صفحات التاريخ منذ القدم حتى أيامنا هذه . فالحروب الخارجية أو الداخلية ، والثورات ، والانشقاقات الدينية قد أسالت أنهاراً من الدم . أما العلاقات الدولية فانها قائمة على سوء الظن وعدم الثقة ولا تنفذ الا عن طريق الأساليب الدنيئة والوسائل المثيرة كما أنها لا ترمي الا الى مصلحة كل ملك أو كل بلد . فرشوة الموظفين ، وافشاء الاسرار الدولية ، واغتيال الرسل ، والاعتداءات الفجائية والحنث بالعهود ، وإخلاف الوعود ، والإخلال بالمعاهدات المبرمة بطريقة رسمية ، ليست في مجموعها إلا من الأساليب التي كانت تتبعها حكومات الأمس . ومن يدري ؟ فقـد تكون كذلك من أساليب حكومات هذا العهد أيضاً . فقد كتب أحد السفراء الى مليـكه : إن السياسة لا تعرف اللين ولا الاعتراف بالجميل ولا المعاهدات ، فالقوة أو المصلحة تحطم كل ذلك وتفصم عراه » . ثمّ ان بيتلفلد يشرح في مؤلف يدرسه رجال السلك السياسي نظرية شبيهة بهذه حيث يقول : « في الأحوال السياسية يجب على المرء ألا يسلم بالأفكار النظرية التي يعبر بها الدهماء عن معنى العدل والانصاف واعتدال الدول فمآل كل شيء الى الشوكة والقوة . »

والحقيقـة ان أغلب القوانين تقوم على أساس القوة ، وانه في سبيل تحويل ملـكية الجماعات الى ملـكية فردية كان لا بد من تدخل القوة لارغام المالـكين على الخضوع على التخلي

عن ملكيتهم المشتركة لقطعة الأرض . فكان يخلفهم في الملكية تارةً أحد الغازين من الخارج وتارةً زعيم عشيرة أخرى تمتاز على عشيرتهم بقوة البطش والسلاح وعدد الأفراد أو مساعدة حلفاء وينهجون نفس الغاية فتخضعهم لارادتها وتملي عليهم مطالبها . هكذا نشأ حق المالك الأول بعد اذ عرف هذا المالك كيف يقف في وجه الاغتصاب ، وهكذا نشأ أيضاً حق الفتح اذ ينجح الغازي في اغتصاب الأملاك التي يطمع فيها . ان القانون العام يعترف بتلك الحقوق وان كان يتردد في تسميتها بصحة أسمائها .

ثمَّ ان هذه الحقوق تتجلى خلال أوضاع القانون الخاص ، فاجراءات تأييد الملكية ووضع اليد والرهن العقاري تقوم كلها على أساس الملكية الفعلية . وتلك الملكية تستلزم — في بعض الظروف الخاصَّة — نقل اختصاص الملكية بأكملها . ان نقل ملكيَة العين من مالك لآخر ظلت وقتاً طويلاً موضع طقوس دينية رمزية ، وتسليم الجزء من العين وقطعة طوب أو مَدَرة من الأرض ليست إلاَّ من مخلفات عصر كان التمليك فيه يتم بنقل الملكية بطريقة مادية فعلية لا معنوية .

ففي فجر جميع المدنيات كانت الطبقة الحربية تندمج بطبقة الملاك . وكان عهد الاقطاعية يظهر في جميع العصور التي تتقدم أو تعقب تأسيس المجتمعات المنظمة . وأننا نجده في ملكية الكلدانيين حيث كانت أرض الدولة مقسمة بين الكهنة الذين كانوا في أول عهدهم أحراراً ثم أخضعوا لنظام الضرائب . ونجده في مصر حيث كانت الولايات عبارة عن اقطاعيات قبل أن تتحوّل الى مقاطعات ادارية . ونجده كذلك في آسيا الصغرى مع سقوط الامبراطورية البيزانطية ، وفي أوربا الغربية بعد سقوط روما . ان نظام الاقطاعية يعد من أكبر دعائم المدنية الاسلامية ولا زال قائماً بين أمراء الأطلس المراكشي . وقد عرفت اليابان هذا النظام وظلت تعمل به الى عصر قريب . فهو نظام اجتماعي وسياسي يقوم بذاته عند انعدام سلطة مركزة حول رجال أشداء تؤلف منهم القوة الجذابة للعناصر المنحلة .

وكذلك المجالس الاستشارية ، فقد استمدت كيانها من سلطة أعضائها وسطوتهم . ففي أول نشأتها كانت بمثابة مجالس عسكرية مؤلفة من جماعة من الرجال العسكريين يتداولون في الشؤون الحربية . ثم تناولت مداولاتهم الاختصاصات المدنية . لقد كانوا يحبون الوطنيين

الرومانيين عند اجتماعهم باسم « حاملي الرمح » إحياءً لذكرى العهد القديم وتخليده . واستمرّ اجتماع الأسباط عهداً طويلاً تحت السلاح اذا ما اجتمعوا للمداولة واقرار القوانين والموافقة على اجراءات ادارية ومدنية كالوصية أو التبني .

والنظام القضائي يشتق أصوله من هذا المصدر . فالقانون الأول كان قائماً على أساس أن كل فرد يقتص لنفسه من خصمه . وهذا النظام لا زال واضحاً في القانون الروماني القديم وفي الشرائع البربرية . ان قانون المرافعات الروماني كان عبارة عن مظهر من مظاهر القتال فكان الخصوم يقفون بالقاضي ويتظاهرون بالاشتباك ببعضهم . ثم جاء قانون الاقطاعية فنظم حق استعمال الحروب الشخصية في شكل مبارزة قضائيـة . فكان الشرفاء — سليلو الأسر الحربية — يأنفون الى عهد غير بعيد ، فض نزاعاتهم الا عن طريق المبارزة . وقد استمرّت تلك الطريقة متبعة حتى في عهدنا ، وما هي الا إحدى مظاهر تلك العقلية القديمة .

يقول سبنسر : « في سنة ١٧٦٨ عرض في انجلترا مشروع قانون يرمي الى تحريم القتال القانوني . فلقي معارضة شديدة وأوقف تنفيذ المشروع . ولم يصادف نجاحاً وتم الموافقة عليه والغاء هذا النظام الا عام ١٨١٩ » . ولم تحل الدعوى القضائية محل القتال المسلح الا تدريجيـاً . فكلاهما من مصدر واحد وطبيعة واحدة وكلاهما يؤدي الى استعمال القوة تارة ضد العدو الخارجي وتارة أخرى ضد العدو الداخلي . ولم تكن الدعوى الأولى قائمة على تحقيق الحادث بواسطة أحد القضاة ولكنها كانت عبارة عن جدل وحوار ومشادة بين الخصوم وكان لا بد لهؤلاء الخصوم من الحضور بالذات اذ لم يكن نظام الدفاع بالنيـابة معروفاً في ذلك العهد .

انه لمن أعجب العجب إن نلاحظ ، حتى في أيامنا ، ان اجراءات المحـاكم تستعير بعض أدوارها من أدوار القتال بعد اذ حل الكلام محل السيف . فالدفاع والمرافعات ليست إلاّ ضرب من ضروب القتال تشتبك فيها سيوف الألفاظ البارعة وتتراشق فيها سهام العبـارات القاذعة وتستعمل فيهـا جميع أساليب اللباقة والبراعة الخطابية . فكان لا يكفي لصاحب حق أن يكون على حق في دعواه ليربح الدعوى ، فلا بدّ من الدفاع عن هـذا الحق ودعمه بالعبارات الخلابة والاستعارات المنمقة والأساليب المقنعة . ولذلك فان القاضي كان لا يصدر

حكمه في غيبة أحد الخصوم أو في حالة صمته .

وليس قتال الرجل دفاعاً عن حقه والانتصار له قاصراً على تلك المبارزة بين متعادلين أمام القاضي . ولكنه يضطر ، بصفته عضواً في طبقة اجتماعية أو مهنة أو حرفة ، الى المناضلة ليُدخل في التشريع الاعتراف بمصالحه الفردية أو التعاونية ، فالصغير ضد الكبير والضعيف ضد القوي ، لم يستطيعا التمتع بالعدل إلاّ بمداركة ضعفهما بالاتحاد لأنه دعامة القوة . ان قانون نابليون متحيز الى أبعد مدى لصالح صاحب العمل فأقواله صادقة في كل نزاع خاص بالأجور أو الأضرار بحقوق العامل . كما انه يعامل اتحادم المؤقت ونقاباتهم معاملته للجرائم الاجتماعية . ولم تتمكن أكثر الطبقات عدداً — وهي طبقة العمل — من تحويل اتجاه القانون إلاّ بالحصول على حق الانتخاب المباشر العام . وتساوت الحقوق أمام القانون بعد إذ تساوت في القانون . وهكذا يصح اعتبار حق العامل ثمرة لانتصاره في نضال دام جيلاً بأكمله وقد آضت بعض الجرائم التي كان يعاقب عليها القانون من الحريات التي تقدسها الشرائع وتحميها . وهكذا ثابر الموظفون على مطالبهم طويلاً حتى تمكنوا — بعد نضال جبار — من الاعتراف لهم بحقوقهم النقابية والتعاونية .

* * *

ومع ذلك ، فهل معنى ذلك ان الحق ليس إلاّ القوة في علاقات الأفراد المستقلين بين بعضهم . كلاّ ثمّ كلاّ . فان اعتداء فرد على حياة عدوه ، أو سلبه ما يملكه بأكمه ، لا علاقة له مطلقاً بالحق والقانون . أما اذا هو رأى من مصلحته ان يحافظ على حياة خصمه ويحتفظ له بجزء من ممتلكاته ويعقد معه اتفاقاً يتعهد فيه المغلوب بأن يخلي المكان الى نده المجدود أو يشاطره إمتلاكه ، فإن معاهدة الصلح هذه تحمل بين طياتها طابع الحق الذي سينبثق نوره يوماً، إن الاتفاق في مصلحة الطرفين : فأحدهما يضمن السلامة في النصر الذي أحرزه ويوافق على التنازل عن حصته في الأرباح ليطمئن على التمتع بالحصة الباقية ، أما الآخر فانه ، بدلاً من ضياع الكل ، يحتفظ — في سبيل استسلامه وخضوعه، بجزء مما كان يملك وذلك يرجع الى أن الخصمين قاسا بين قوتيهما وتبينا انعدام الفائدة في متابعة نضال نتيجته محصورة واضحة ، ووجدا أن مصالحهما تقضي بالتفاهم والاتفاق مع بعضهما .

وهذا الاتفاق يمكن أن يتم سواء بعد نشوب القتال ، إذا كانت حرارة القتال ونشوة النصر لم تعميا بصيرة الظافر ولم تزعزعا ثباته ، وأما قبل أن يشتبكا ، إذا ما قدّر كل منهما مقدرة خصمه وقوة ثباته . وإذ ذاك يفضلان التفاهم والاقتسام على عاقبة قتال مستمر مشكوك في نتائجه.

وفي بعض الأحيان يتدانى الرجال وتتقارب الشعوب بدلاً من تمزيق بعضهم ، ويتحالفون ويقاتلون جنباً إلى جنب يجمعهم خطر مشترك : إنه تحالف مؤقت هجومي أو دفاعي . إن المعاهدة التي تعقب الحرب تقدر اتحاد الجهود باقتسام ثمار النصر على أساس قوات الحلفاء . وإنهم ليسرون لأن زوال العدو المقهور من طريقهم لم يجعل منهم أعداء بسبب قسمة الغنيمة المشتركة بينهم فتؤدي الى حرب جديدة كثيراً ما يسقط فيها الذي أراق دماء أكثر خلال الحرب الأولى في سبيل المصلحة المشتركة.

وهكذا عند ما تتقابل قوتان متعارضتان فإنهما تصلان الى التحكيم . وهذا التحكيم يوفق بين المطالب المتناقضة بنسبة القوات التي تؤيدها . وعند ما تتعاون قوتان من جانب واحد نحو غاية واحدة ، فان النتيجة التي تحصلان عليها تقسم بنسبة بأسهما وبطشهما . فهذا النوع من القانون الهمجي يخضع للشرائع الآلية ، وليس إلاّ نتيجة مجموع القوات . وهو مثلها قابل للتغيير وبالتالي خاضع لاعادة النظر فيه وتعديله . فإذا اختلفت علاقة القوات فإن نقطة التوازن تنتقل وتتحول . وما دام لا يوجد إلاّ فردان أو جماعتان ازاء بعضهما فإن هذا الاحتمال قد يطرأ مراراً لأن كل يوم يمر يحول الظروف الداخلية والخارجية التي تكتنف الفرد ويتطور بداخلها . وإنه من غير المنظور — نظراً للقوتين المتناظرتين — ان يزيد فعل الزمن من شدتهما أو يضعف منها بنسبة متساوية . فالعمر يزيد في قوة البعض ويضعف من قوة الآخرين : والذكاء الذي ينمو نوعاً ما يضاعف الموارد بنسبة متساوية ، والخلف يزيد عدد جنود الدولة الخصبة وعمالها في حين أنه ينقص من عدد جيوش الدولة القاحلة .

وربما لم يجد ذلك الفرض الذي أوردناه لتعليل نظريتنا ، مجالاً لتطبيقه إلاّ في جزيرة صحراوية نائية قد التقى فيها يوماً ما اثنان أو ثلاثة امثال روبنسون في عصور قبل التاريخ فالعادة هي أن يعيش الرجال أو الدول في وسط أمثالهم يتبادلون العلاقات مع بعضهم

ويتنافسون . ان ظروف احتكاكهم ببعضهم كثيرة منوعة والجهود التي تبذل في ذلك السبيل متباينة متعددة المصادر وكثيراً ما تكون محايدة مستقلة . على ان نتائجها تظهر مع الوقت شيئاً فشيئاً في ازدياد مطرد غير محسوس . إن علاقات الافراد أو الدول ببعضها مباشرة تتأثر بطريقة غير مباشرة بفعل العوامل الجذابة أو المنفرة التي يخضع لها كل منهم . وتلك العوامل التي تؤثر على ما يوجد تحت نطاقها وتحافظ على التنافس بين الجميع ، تنقاد بحركة جذابة تحدد لكل مكانه في نظام التوازن بتأثير الاعمال المتبادلة . . . لا يمكن أن يثار شيء بينهم إلا ويكون له تأثيره العكسي على الجميع وبذلك يثير تدخلهم . ويحافظ التوازن على كيانه على الرغم من بعض الهزات الخفيفة أو انه ينتقل طبقاً لحركة غير محسوسة تخفف من نتائجه : على ان تلك الهزات ليست عنيفة وتلك الانقلابات غير فجائية في الاوضاع الراهنة المقررة كالتي يثيرها اغتيال منظم ومدبر في صمت وسكون ولكنها تتجلى فجأة في معركة مسلحة بين ندين منعزلين . وحينئذٍ يجتهد الجير ان الذين يهتمون لنتائج هذا النزاع في حصر الافراط والتخفيف من ويلات معاهدة الصلح . خصوصاً وانهم سينظرون بغير ارتياح الى انتصار أحد الفريقين المتحاربين انتصاراً تامـًا يعزز قوته ويعلي مكانته على الآخرين . ولذلك فعلى الرغم من عظمة النصر الذي يحرزه الغالب وعلى الرغم من الصداقة القائمة على الخوف التي يشعر بها الضعفاء نحو الاقوياء ، فان المقهور سيجد دائماً من مظاهر العطف ما يخفف عنه ويلات الهزيمة وشر الانكسار .

إن الافراد أو الدول لا يجدون وسيلة يتقون بها طغيان أحدهم خيراً من المحافظة على نوع من التوازن بالتضامن والتحالف . وقد نشأ مبدأ التوازن الاوربي على أساس ذلك التضامن والتحالف . فقد رأت الدول الاوربية أن مصالحها المشتركة تقضي بألا تقوى إحداها بحيث يدفعها الطمع الى الرغبة في السيطرة على غيرها . فاذا حاولت إحدى الدول القوية ان تتوسع فان بقية الدول تشعر بأنها مهددة فتتحالف ضدها ، إلا إذا وافقت تلك الدولة القوية على ان تحالف بعضها لتشترك معها في قسمة الغنيمة وتنال بدورها تعويضاً كافياً لضمان المحافظة على توازن القوات . ان تشبث الملكية الفرنسية في خصومتها للاسرة الملكية النمساوية ، وتحالف الدول ضد لويس الرابع عشر ونابليون ، وسياسة بريطانيا العظمى التي

اتبعتها منذ أجيال عدة وحافظت بموجبهـا على وجود جماعات متنافسة على الساحل الاوربي تؤيد بعضها كلما سنحت لها الفرصة، ليست إلاّ تطبيقاً لنظام التوازن الأوربي في الحالة الأولى. اما تجزئة بولونيا بين روسيا والنمسا وبروسيا فانه مثال واضح على فهم هذا التوازن وتطبيقه في الحالة الثانية . كما ان اتفاقية واشنجتون للمحافظة على الحالة الراهنـة في المحيط الهادي وتحديد التسلح البحري بنسبة قوة الدول العظمى ، تقدم لنا بشـكل أوضح مثلاً بيّناً جليّـا على تطبيق تلك الفكرة لأنها مدونة في وثائق رسمية .

وقد صادف مبدأ المحافظة على التوازن عهداً من التضاؤل والاضمحلال ساد إبانه مبدأ ثورة الجنسيات الذي نادى بحق كل جنس في تقرير مصيره وتنظيم شؤونه كما يريد . وقد استعملت المانيا وايطاليا هـذا المبدأ في القرن التاسع عشر وحققتا وحدتهما عقب سلسلة حروب متعاقبة قوّضت دعائم التوازن القديم وبدّلت كيان أوربا الغربية . وبفضل الانقلاب العظيم الذي حدث عام ١٩١٨ في القارة الأوربية وانهارت له امبراطوريات الدول الوسطى ، تمكنت بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا من ارضاء مطامعها الوطنية ورغباتها الأهليـة . على ان أغلب رجال السياسة يفضلون دائماً حسابات الموازنة ومقاومة الضغط ويقولون بأنها تحافظ على النظام الموجود وتستبعد خطر الانقلاب على الأساليب التي تؤثر على شعور الشعوب وتستفزها وتحول دون انفجـار الشهوة الفكرية . إذ برودون يسلم بذلك حيث يقول : « منذ ذلك العهد — عهد معاهدات وستفاليا — أضيف مبدأ التوازن على القانون العام بحيث يمكن القول — بما يتفق مع المنطق والحقيقة — إنه إذا كان حق النصر أو سبب القوة هو المادة الأولى في القانون العام ، فان تحالف الدول وفيما بعد التوازن الدولي ، تعتبر المادة الثانية فيه ». قال القيصر اسكندر لتاليران ذات يوم. إن ما يلائم أماني الدول ويرضي رغباتها هو الحق واعتـدال الدول بتأثير بعضهـا على بعض الآخر خير ضمان لحمايتها والمحافظة على حريتها . ومجمل القول أن الحق إذا فهم على هـذا الأساس كان مقياساً للقوات وضابطاً لتوازنهـا . وهكذا يمكن القول بأن السلم لا ينال بواسطة الحق وان الحق هو الذي ينال عن طريق السلم .

* * *

ومع ذلك فان الحق لم يسمو ولم يبلغ القمة إلاّ بفعل الزمن . ان تأثير الزمن على تكوين الحق لم يوضح كما يجب وان كان قد شغل المفكرين ولا يزال يشغلهم فقد طالما فكروا في شرعية النظام الموضوع . فالكاردينال دي رتز في مذكراته ، ومونتيني في محاولاته ، وباسكال في أفكاره ، وبوسويه في مكاتباته السياسية ، قد اهتموا جميعاً اهتماماً عجيباً بفكرة سقوط الحق . على ان ذلك لا يمنع من أن تكون تلك الفكرة في أساس القانون الخاص . ويمكن القول بأننا إذا رجعنا الى الأصل فاننا نجد سقوط الحق في أساس أغلب القوانين ، وإننا إذا عدنا الى الماضي البعيد فانه يتضح لنا أن التمتع بالملكية واجراءات التمليك مرتبطة بسقوط الحق واجراءاته . فاستعمال بعض الحقوق وقتاً طويلاً يتحوّل إلى حق التمتع الفعلي وإن سلالات الملوك لم توطد دعائم حكمها وتنادي بشرعيته إلاّ على هذا الأساس . واذا كان هوج كابت ملك فرنسا قد احتمل تحقير الأشراف الذين كانوا لا يفتأون عن تذكيره بأنه مدين لهم بعرشه فان خلفه البعيد لويس الرابع عشر كان لا يحتمل أن ينازعه أعظم أمراء الدولة حقه وادعاءه بأن الملك آل اليه بأمر الله لا بفعل الاتباع . ثم أن القانون الدستوري أسس دعائمه على سلسلة اصطلاحات وعادات فلما تكرر تنفيذها أضحت مبادئاً شرعية. وهكذا الملكية الدستورية والحكومة البرلمانية في انجلترا . فقد كانتا نتيجة حتميّة لارغام الملك — بعد نضال ونزاع — على اختيار مستشاريه ووزرائه من بين الأحزاب القوية. وأكثرها أعضاء في برلمان يتمتع بحقوق شرعية كما يتمتع بحق الموافقة على فرض الضرائب ورفضها . وهكذا تتحوّل الوسائل الى حقوق مكتسبة غير قابلة لأي نزاع أو اعتراض .

فبماذا نعلل فعل الزمن ؟ إن بعضهم يعلله بسهولة التطبيق وملاءمة الاختبار وتعذر الوسائل أمام المترافعين للرجوع الى ماض بعيد للبحث عن الأدلة لتأدية حججهم إذ تكون تلك الأدلة قد اندرست أو تلاشت بمرور الزمن . على أن هذا التعليل ، إذا كان مرضيّاً من وجهة القانون الخاص ، فانه عديم الفائدة من ناحية القانون العام ، فهو لا يعرف سقوط الحق بالمعنى الصحيح ، ويطلب من الزمن الدليل بالوثائق الشرعية . فمن أين إذن نشأت قوة الحالات المكتسبة والأوضاع المقررة ؟ لقد نشأت أولاً عن العرف والتطبيق . فكل كائن حي ، إذا وضع في حالة مخصوصة ، لا يلبث أن يتعوّدها ويرتاح اليها والاّ كان مصيره

الزوال عند ظهور الوضع الجديد الاحياء . فهو لذلك يحصر كل قواه ليوازن بين نشاطه العملي وبين القوة التي تؤثر عليه . ان النشاط الذي يتعذر عليه أن يبذله في ناحية تكون مغلقة في وجهه يتحوّل بأكمله الى المنافذ التي ظلت مفتوحة امامه . ان مرانه لأعضائه يزيدها قوة وصلابة ، وفي بعض الظروف يغير من أوضاعها وتركيبها . وعلى كل حال فان الكائن الحي يتطور وفي أغلب الأحيان يرتاح الى النظام الجديد ارتياحه الى النظام القديم ، ولا يحاول شيئاً للعودة اليه .

على أن الحالة الراهنة المستمرة تحمل على الظن بأنها أسمى من الحالة التي خلفتها ، لأن في المحافظة عليها ما يحمل على الفرض بأنها ممتزجة بالأشياء المحيطة بها ، وانها تظفر عليها بفضل الروابط المتينة المرنة التي تربطها بها . انه يتعوّدها ، أو قل ما يكون يرتاح اليها . ان الضغط من جانب قوتين ، أو بالأحرى من جانب دعائمها المادية التي تطبق على بعضها ، توازن بين مسطحاتها وتهيئها للالتحام فتلتصق ببعضها تماماً . فاذا كانت الاجسام المضغوطة ناعمة مصقولة فانها تنفصل عن بعضها بغير ما صعوبة إذا تلاشت قوة الضغط التي تجمعها . على انها في بعض الأحيان تشتبك ببعضها بواسطة خطوط متعرجة وتتعشق بروزها مع الوقت بحيث تقاوم كل ضغط ولا تكون عرضة للانزلاق . وقد يحدث أيضاً — تحت تأثير أدنى ضغط — ان البروز الخشنة تدخل في الفوجات المقابلة لها وتملأ فراغها ، وإذ ذاك يتعذر التفريق بين هاتين القطعتين أو الجسمين الملتصقين مهما كانت الجهود المبذولة في سبيل ذلك قوية . فالقوات التي كانت فيما مضى متعادية تتحوّل الآن الى كتلة واحدة منسجمة ثم لا تلبث أن ترتبط ببعضها روابط تزداد متانة وقوة يوماً إثر يوم . ان فعل الزمن قد جمع بين الندين وختم اتفاقهما بازالة أسباب الخصومة بينهما والتوفيق بين مطالبهما .

وهكذا الحال في مسألة الحدود الفاصلة بين دولتين . ان تلك الحدود ليست ، كما يتوهم البعض ، خطًّا هندسيًّا مرسوماً على الأرض كما يرسم على خريطة جغرافية . فان تصور نطاق مستدير ثابت . تعيش الأمم بداخله وتنطوي فيه أو تنعزل بداخله ، ليس إلاّ نتيجة التصور المطلق والتجرد . والحقيقة ان الحدود منطقة حيّة متحركة قابلة للتعديل والتحوير في كل وقت يصطدم عندها نشاط شعبين وقواها المتعارضة . انها حدود متحركة وعلى الرغم من

ثياتها الظاهر فانها تتقدم أو تتقهقر باختلاف درجة انتشار الأمم أو قوة مقاومتها ، لأن التأثير المتبادل في هذين الشعبين يعمل ويتقلب في فسحة من الأرض واقعة فيما وراء الخط العرفي المتفق عليه بين السياسيين و القائم تحت تأثير ضغطين متنافسين من جانبين متباينين . ان ذلك التجاوز أو التوسع وراء محيط الدائرة يرجع الى ميل الشعوب التي تعيش بداخلها الى الاندماج ببعضها . فالحدود ، كالبشرة التي تكسو الجسد الحي ، تؤدي مهمة خاصّة بها فتارةً تكون مهمتها قاصرة على صيانة ما بداخلها وتارةً تكون مهمتها البدل والمقايضة . فهي نقطة فاصلة يقف عندها الطرفان ولكنها أيضاً نقطة مرور يتجلى أمامها نشاط خاص . ففي الأصل كانت تلك الحدود عبارة عن منطقة محايدة لا يمتلكها أحد ، ولكنها كانت دائماً موضع نزاع ، وتمتد الى مدى يوازي المسافة التي تفصل بين جيشين . على ان المصالح والعادات قد قرّبت بين الخصوم الى حد الالتصاق ببعضهم وحولت نظرية تلك المنطقة المحايدة إلى اعتبارها المجرد والنظر اليها كخط هندسي رضي به الفريقان مؤقتاً . فهذا الخط إذن يجمع بينهما بقدر ما يفرق بينهما .

على أن سقوط الحق يتجلى في النزاع بين الخصوم المتباعدين بتوطيد الأوضاع المكتسبة، كما أن عدم شرعية التمسك بالقوانين السابقة يحظر قلبها أو تعديلها . إن الحياة لا تقف وحركتها لا تهدأ ومع ذلك فان الأشخاص الذين يعاملون أناساً يرفضون التسليم بالأمر الواقع لا يستطيعون التعامل إلاّ إذا سلموا بصحة الأمور كما كانت عليه وقت التعامل. ان الاجراءات القانونية أو السياسية سواء أكانت خاصة بملكية العين أو بحالة الأفراد أو بمصلحة الشعوب قد وضعت مع مراعاة وجود نظام للاشياء . وكل شخص ينفذ تلك الاجراءات تحت مسئوليته ويعرض نفسه للخديعة والغش إذا هو لم يفاوض صاحب الحق بالذات . على أنه من المستحيل الرجوع بالحوادث إلى ما وراء عهد محدود لامكان تقدير صحة الوقائع بأكملها ، إذ أن كثيراً من المعاهدات والعقود المبرمة ترتكز الى العقد المتنازع فيه وقد مرت — بعد التصديق عليه شتى الحوادث حتى لقد صار من المتعذر الغاؤه دون المساس بدعائم الحياة الاجتماعية وتحطيم صرح كبير من بنيانه . ففي انتزاع حجر واحد من الأساس ما يعرض جداراً عظيماً من جدرانه للانهيار . وكم يكون الانقلاب عظيماً وفظيعاً

لو أمكن الطعن في جميع الحقوق المكتسبة ونقضها دون اعتبار شرط الزمن الذي انقضى عليها ! ولكن الأعمال التي تستند اليها تحميها، لحسن الحظ ، ضد مطالبات الاسترداد المطردة بلا انقطاع .

وهكذا يتحوّل الأمر الواقع الى حق . وهذا الحق يندفع الى الأمام مع حركة الزمن بغير رجعة . وارتباط تلك الحركة بأعمال أخرى يتعذر فصلها عن دورة الايام ولا يمكن التغاضي عنها واستنكارها . لن تأليف القوات المتزنة يصبح ، بفعل الزمن ، عملية أساسية بل تكاد تكوّن ساحرة لشدة تأثيرها فتولد قانون العلاقات الخارجية بين الأفراد المستقلين .

الفصل الثالث

التعاقد والعرف

ان العقد هو الآلة التي يُسجل فيها عادة توازن القوات البشرية كمعاهدات الصلح والتحالف بين الدول والشعوب والاتفاقات التجارية بين الأفراد.

في البدء كانت العقود استثنائية وكان البدل بين فردين قليلاً جداً. وكانت ملكية الفرد للأرض مجهولة حتى ظهرت الزراعة فوضعت حداً لعصر البداوة. أما في داخل الأسرة والعشيرة الخاضعة لنظام تأديبي، فالشيوعية الأصلية كانت لا تترك للملكية الخاصة إلاّ بعض المنقولات كالأسلحة والحلي أو الأواني المنزلية الصغيرة، إلاّ أنه يخال أن طريقة نقل العين — عن طريق البدل — قد تقدمتها الهبة. فكان الضعيف يسعى إلى استمالة القوي واكتساب رضاه فيقدم له العطايا والهدايا. وتلك الهدايا كانت — في الأصل — قاصرة على جانب واحد، ثم أصبحت بعد ذلك متبادلة للدلالة على الشعور القائم على الخوف والاحترام من الجانبين. فالوعد بالطاعة والخضوع من جانب واحد كان يتطلب من الجانب الآخر عاطفة مماثلة ورغبة ظاهرة في تبادل المصلحة، خصوصاً إذا كانت صادرة عن شخص تحسن مداراته لاكتساب مساعدته أو على الأقل حياده. ويقول سبنسر: «ليس من المستحيل أن تكون الميول المتبادلة أساس التعاقد الذي نشأ عنه البدل. لقد تعودوا — عند تقديم هبة ما — أن يرقبوا ورود هبة متساوية لها في الثمن او القيمة. وهكذا يجب أن يتم البدل بين الطرفين قبل أن تخمد جذوة العاطفة التي أوحت به. على ان العواطف سريعة التطور، ولذلك يجب أن يتم التعاقد الذي تجلت فيه تلك العواطف ويُمهر في الحال أو في مدى قصير. وهكذا تكون الحال إذا كان البدل وليد المصلحة. فالصفقة تتم نقداً وعيناً إذ من أصعب الأمور ابرام عقد لأجل. وفي الواقع، هل يمكن — بغير تدخل سلطة قوية — الاعتماد على حسن نية الأفراد لتنفيذ عهد أُرجىء على الرغم من حصول كلا الطرفين على ما يقابل تعهداته

ووعوده ؟ ولقد كانت التجارة بين السياح و برابرة أفريقا الوسطى تحاط بمثل تلك الأساليب، وكذلك بين العصابات والقبائل المسلحة . فقد كان أفراد الفريقين يقفون بكامل سلاحهم خلال المفاوضات وهم صامتون . وهكذا يصح القول بأن أول أوضاع البدل يقوم على التصور بأن الفريقين المتفاوضين قد عقدا هدنة فيما بينهما وإن تلك الهدنة واجبة الاحترام خلال المفاوضات . وأننا نجد في عقود بعض القبائل الهندية عبارات تحدٍّ وخصومة عنيفة تعبر عمّا يضمره المتعاقدون نحو بعضهم من شعور الحقد والضغينة .

ففي الأصل إذن كان عقد البدل ينطوي كذلك على معاهدة صلح لا تتميز عنه، إن لقوة الفريقين المتعاملين تأثيراً كبيراً على تحديد شروط المعاملة اقتصاديّاً، واتفاق الآراء والرغبات كثيراً ما يكون خاضعاً لعوامل الرهبة والخوف . ولا تتم الموافقة بين الطرفين إلاّ إذا فضلا الحالة الجديدة التي تنشأ عن اتفاقهما على الحالة التي كانا عليها مهما كانت أسبابها . وكل فريق يقدر ان ما يجب أن يناله لنفسه لا بد أن يمتاز كثيراً على ما يتنازل عنه لخصمه . ومن الأسباب التي تحمل على الاتفاق يوجد الضغط الذي يبديه الجانب القوي إلى جانب الاكراه وتأثيرات الظروف الخارجية التي لا تعمل على ارادة الفريقين بنسبة واحدة . ففي كل اتفاق تمتزج الحرية والاكراه بكميات غير متساوية ولكنها مع ذلك غير مهملة . فالحرية التامّة ليست من هذا العالم الذي يتحرك فيه الرجل في نطاق النسبية . ومع ذلك فان القوة وحدها ليست بمفردها كفيلة للوصول الى عقد اتفاق . والموافقة بين المتعاقدين أمرٌ لا بدّ منه فهي بمثابة نزع السلاح والاستسلام الذاتي من الوجهة الأخلاقية حيال الضرورة المعترف بها . ثم إنّ المفاوضة لا تخرج عن كونها ضربٌ من ضروب القتال اذا هي لم تسفر عن مثل نتائجه . إن الغرض بل الغاية التي يسعى اليها كل فريق هي التغلب على خصمه — سواء بالقوة أو بالحجة — لاخضاعه لارادته وحمله على الاعتراف بضعف مقاومته وعدم الفائدة منها . فاذا أقنعه تمّ له النصر لأن المرء يعد نفسه مقهوراً اذا ساوره الشك في نفسه وتملكه اليقين بقوة خصمه ثم ان المفاوضة لا تتم إلاّ إذا أيقن فريق بعجزه عن دحض مزاعم الفريق المعادي وتذليلها فكلا الفريقين يتأثر بسلطة منافسه وسطوته ويسلم له بشروط على أنه يفرض عليه — إرضاءً لنفسه وانتقاماً لها — شيئاً من رغباته وارادته ، إذ أنه يندر أن يتم اتفاق بين

متعاقدين دون أن يفرض كل منهما على الآخر شروطه وامتيازاته إذ لا يمكن التسليم بأن أحد الطرفين المتعـاقدين يتحمل بمفرده جميع التضحيات، خصوصاً وان الاتفاق ليس إلا تسوية للمطالب سواء أكانت في المعاملات التجارية والمعاهدات السياسية . فمهما كانت مزايا الموقف الاقتصادي أو الانتصار الحربي — ان لم يصحبه سحق العدو تماماً — فانه لا يؤدي الى الاتفاق أو إلى الصلح ما لم يتنازل الطرف الأقوى عن جزء من الحالة المكتسبة ليحمل الخصم على تفضيل الاتفاق على القتال والبدل على التمنع والتوقف. إما اذا اصطدمت المطامع فليس مايحول دون وقوع التوقف والقطيعة . إن النشاط اذا لم يكن محصوراً وكان موزّعاً صعب جمعه بعض الوقت وضعـف شره . والارادة مهما كانت قوية ، إذا هي لانت بعض الشيء ، رضيت بالتحكيم وخففت من غلوائها ومزاعمها . ان القبول والرضى هو الرضوخ وذلك الرضوخ اليائس في غيبته عقوبة أشد وأعظم — هو الذي يضمن الانتفاع بالتعاقد وقتاً من الزمن .

ولنذكر — على سبيل المثل بين رئيس ومرؤوس — التعاقد في عهد الاقطاعية . فذلك التعاقد كان يفرض على التابع والمتبوع واجبات متبادلة ولـكنها غير متساوية . ان التفاوت في المساوات بين المتعاقدين يظل قائماً وانه ليزداد ـ في بعض الظروف ـ خطورة في أيامنا وان كان في أوقات أقل اضطراباً من تلك . فتساوي الشروط في المجتمع من الشواذ لا من القواعد المقررة . ويكفي أن نقارن بين حالة صاحب صناعة كبيرة وحالة العامل الذي يستخدمه وبين شركة سكك حديدية والمسافر الذي يريد ركوب القطار ، لتتبين الفرق بين الحالتين ! فهل يمكن أن يتبادلوا المعاملة على قدم المساواة ؟ ان البائع والمشتري ـ في أية عملية تجارية تقريباً لا يتمتعان بمطلق حرية قبول التعاقد أو رفضه فتأثير العرض أو الطلب يرجح كفة أحد الطرفين على الآخر . فقد توجد لدى أحدهما أسباب شخصية وظروف قهرية تجعله في قبضة الآخر : كحاجته الى نقود ، أو عدم استطاعته التخلص من قيود احتكار ، أو غير ذلك من الأسباب التي يختلف تأثيرها ومفعولها بحيث يمكن القول بأن جميع العقود خاضعة للمؤثرات وان فائدتها ترجع الى أحد الطرفين دون الطرف الآخر .

ان للمعاهدات الدولية صفة كهذه . إذ أنها كثيراً ما تصل بين دول متباينة في القوة

تبايناً عظيماً أكثر مما تحصل بين الأفراد . فهل يمكن أن تقاوم الدول الامبراطورية العظمى نزعة الكبر والأنانية التي تمتاز بها وتنزل عنها لتفاوض امارات ضئيلة أو جمهوريات صغيرة مفاوضة الند للند ؟ يقيناً لا . . على أن الدول ـ أو قلما يكون في عهدنا ـ مرتبطة بالأرض التي تمثلها وهي لا نستطيع أن تقصر علاقاتها على أمور ثانوية ومنازعات مستمرة ، أو على عمليات تبادل أو مقايضة تنفذ في وقتها على ألا تتجدد الا نادراً أو لا تتجدد مطلقاً . أما البلاد المتلاصقة أو المجاورة لبعضها فتنشأ بينها علاقات وطيدة مضطردة ، لآجال طويلة ، وترمي الى ايجاد حالة مستديمة : كتحديد الحدود ، ودفع الجزية . ومعاهدات تجارية . أما عقوبة الارتباطات المتبادلة والالتزامات فموقوفة على احتمال العودة الى القتال العلني أو المستتر الذي تلافيا وقوعه ووضعا حداً له . وإذن ما الفائدة من تجديد اختبارٍ نتائجه معروفة ؟ وما دامت قوات الأمم المتقابلة لا تختلف فان مآل النزاع لا يمكن أن يكون موضع شك .

إن شروط الاتفاق تنبىء بتلك الحالة . على أن الحالة المتبادلة التي يوجد عليها الطرفان يمكن — مع ذلك أن تتغير بين النتيجة وبين تنفيذ الاتفاق ، وآنئذٍ تظهر الحالة جد دقيقة . إن التعاقد لم يبرم ليكون خالداً . وعبثاً يحاول أن يجمع بين حلقات المستقبل في سلسلة واحدة . تلك عمليات واجراءات وقتية قائمة على الخيال ووضعت لمجرد الانتقال من حال الى حال . ويتجلى ضعف العقد عند ما يحاول أن يضم عهداً طويلاً اذ أنه يتعدى الادراك البشري . إن التنفيذ الذي يتطلب سنيناً طوالاً يتأثر بحوادث غريبة عن صلب التعاقد . فالمشرع أو القاضي وكذلك الطرفان المتعاقدان ، يستندون جميعاً — لتعديل شروط الاتفاق — الى الظروف التي يتعذر فرضها أو وقوعها عند ابرام التعاقد . وحينئذٍ لا يبقى من الاتفاق إلا شكل العقد ان لم يبلغ بأكمله ، ويتخذ شكل شركة لم تقم إلا تحت ضغط الحوادث . وهذا هو سر ضعف المعاهدات الدولية . « إن المعاهدات — كما يقول سوريل — هي رمز للعلاقات القائمة — وقت ابرامها — بين القوة الماديّة والقوة الأخلاقية التي تتمتع بها الدول المتعاقدة . وتظل تلك المعاهدات قائمة بنسبة تقدير تلك القوات ، أيّاً كان ذلك التقدير . إن الحقوق التي تفرضها لا تتجاوز مطلقاً الشروط التي تقررت فيها تلك الحقوق » .

إن التعاقد الصحيح لا يربط الأفراد أو الدول إلاّ بنقطة واحدة ولأمد قصير . ولذلك فهؤلاء الأفراد أو الدول يظلون في عزلة عن بعضهم في كل ما ليس له مساس مباشر بمصلحتهم. ويقول دوركهيم : « إذا نحن نظرنا الى الأشياء في أعماقها فاننا نجد أن انسجام المصالح يخفي نزاعاً مستتراً أو قلّ ما يكون مؤجلاً . والواقع أن المصلحة في هذا العالم أقل الأشياء ثباتاً . فأنا اليوم أرى أن مصلحتي في أن أتفق معك ثم يصبح نفس السبب غداً وسيلة لأن أقف في وجهك وأكون لك نداً . فهذا السبب لا يمكن أن يُوجد إلاّ علاقات وقتية أو بمعنى أصح اشتراكاً لا يتجاوز يوماً واحداً . »

* * *

إن الحق الأصلي الناشىء عن المنازعات والاتفاقات المتعاقبة ، مليء بالمراسيم والتشريع . وليس أسهل من تفسير ذلك ، فالمراسيم تدل في ظاهرها على حالة كل شخص من الأشخاص الذين يجتمعون . وما الانحناء والتحيّات والاحترامات التي يبدونها لبعضهم إلاّ أوضاعاً مخففة ورمزية لحركة الرجل — في العصور الأولى — إذا أراد أن يقدم خضوعه التام فانه ينبطح على الأرض بغير سلاح بحيث لا يستطيع أن يبدي أي حراك أو مقاومة ، أو إنه يحني رأسه للدلالة على أنه يقدمها الى خصمه الظافر . أما في عهدنا ، فان الرجل المتمدين ، عند ما يتقدم بالتحية ، ينزع قبعته ويعيد حركة الرجل الهمجي الذي ينزع عنه كل شيء رجاء أن يحظى من خصمه بالحلم والرأفة . وكذلك المراسيم السياسية فانها تمثل العادات القديمة في شكلها الحديث الذي اكتسبته بعد أن تطورت تدريجيًا مع الزمن تطوراً مستتراً غير محسوس فإجراءات الحرص التي كان يتبعها المتعاقدون في تلك العصور النائية وسوء الظن الذي كان يساور نفوسهم قد تحولت الى علامات الاحترام التي يتبادلها الأشخاص الرسميون عند ما تبدأ العلاقات ببعضهم . وتلك المراسيم تدل على المساواة بين الخصوم — مع بعض التفاوت — إذا كانوا متقاربين في المكانة والتمثيل أو عدم المساواة بينهم بتاتاً .

إن موضوع الشكل يشغل المكانة الأولى . ولقد زعموا كذلك ان الحرب ضرب من الاجراءات القضائية . ولن الأصح أن يقال ان تلك الاجراءات هي الحرب بالذات ، لأن وجود المحكمة يسبق القاعدة التي ستنشأ عن القرارات التي تصدر عنها . واذن يكون من أهم

الأمور اوقوف على الطريقة التي سيلتقي معها الخصوم ، وفي أي ظروف يستطيعون الانتفاع بالوسائل التي لديهم . ان نتيجة المرافعات أمام المحاكم رهينة بالاتفاقات المقررة لطلب التحكيم في الخلافات الناشئة عنها أكثر مما هي رهينة بصحة دعوى أحد الطرفين وقوة حجته . ان حق السلم أو قانونه شبيه بحق الحرب وقانونه ، لأنه يحل محله مع الاحتفاظ بنية الرجوع اليه اذا ما خيبت النتيجة الأمل المعقود عليها .

على أنه لن يتخلص عنه الا ببطء متناهي إذ أن محكمة العدل في العصور القديمة كانت مؤلفة من رجال السيف . كان أحد أتباع شارل الأصلع إذا ما دعا الخصوم الى المثول أمام المحكمة طلب اليهم أن يأتوا بكامل سلاحهم وينبئهم بأنهم قد يقاتلون بعضهم تأييداً لصحة دعواهم . أما في انجلترا فالمحكمة التي تتولى تنفيذ الاجراءات القانونية لتسليم الأرض لمالكها كانت في ذلك العهد مؤلفة من رجال السيف والحرب . وكان من حق كل فرد يتمتع بالحرية أن يطلب محاكمته أمام محكمة مؤلفة من الأمراء التابع لولايتهم . وكانت المنازعات تفض بتطبيق قواعد القانون أكثر من استعمال وسائل التوفيق بين المزاعم المتناقضة . فكان القضاة يحاولون تبسيط تلك القواعد لوضع حد لحالة الحرب لأنها أساءت إليهم أكثر مما أساءت الى المتقاضين أنفسهم . ولا شك في أن نظام الصلح في نظير دفع غرامة مالية ، قد وضع لحقن الدماء ووضع حد للانتقامات الشخصية وقد تعدّلت تلك الغرامة — مع مرور الزمن — بتحديد مبلغ اجمالي ثمناً للدم الذي أهريق . وإننا نجد في المرسوم الملكي الذي صدر عام ١٢٩٦ بمنع المبارزات القضائية والحروب الشخصية ابان وجود الملك في حرب خارجية دليلاً على الأسباب القهرية الدافعة الى الاحتفاظ بالسلم الداخلي . وكذلك القانون الجرماني القديم فانه كان يفرض على الضعيف تقديم الدليل لأن مصلحته تقضي بأن يتلافى غضب المعتدي . ولهذا السبب يقولون أن الدفاع مكاف بإيراد البرهان . إلا أن تلك القاعدة تنقلب الى العكس اذا كانت الحالة الاجتماعية متزنة مركزة وكانت تستند الى صلح أضمن وأنسب ، فان القرائن تتجه لصالح المدّعى عليه الذي يتمتع بالحيازة الفعلية وتعضيد الأتباع . وهكذا يكون واجب المدعي إثبات حقه بالبينة والبرهان .

ويسوّى النزاع القائم بين فريقين بطريق الضغط المتوالي من جانب جميع من يهمهم أمر

المحافظة على السلم أو إعادته ويتأثر الحكم بعلاقة القوات الماثلة المتنازعة . ولا يمكن اعتبار هذا الحكم حكماً صحيحاً ولكنه يُعدُّ وساطة مسلحة .

تلك أيضاً أبرز صفات القانون الدولي الذي بقي على ما كان عليه منذ عهده الأول . فانه يشمل قواعد للمرافعات أكثر مما فيه من قواعد أساسية تطبيقية . وليس التحكيم وسيلة لفض المنازعات ولكنه يُعد وسيلة للتوفيق بين خصوم يفضلون وساطة فريق ثالث للمعادلة بينهم بدلاً من الالتجاء الى السلاح لفض نزاعهم . إن دعوى التحكيم التي تحيل تسوية النزاع على قرار تحكيم تهتم باختيار المحكمين أكثر من اهتمامها بالمبادىء التي يهتدون بها . والحاكم أو المشرع أو المحكمة المناط بهم أمر الفصل في النزاع قلّ أن يهملوا الخصوم دون إرضائهم بعض الشيء ، وعصبة الأمم التي أنشئت حديثاً ليست إلاّ مجتمع من الرجال السياسيين . وتأليف محكمة العدل الملحقة بها قد سبقها اجراءات تشريعية وإنشاء شرطة دولية . وهذا التناقض في الاجراءات يعتبره التاريخ منطقاً سلبياً .

إن القانون العام كان في وقت ما وفي جميع أنحاء العالم ، مجموعة معاهدات مرتبطة ببعضها ومعبرة عن علاقة القوات وأداة للمصالح في العصر الذي عقدت فيه وهي تقوم عادة على أساس عقد دولي له صبغة عامة وأبرم لوضع حد لعهد قتال وحروب . فمعاهدات وستفاليا ثم معاهدات فيينا وفي عهدنا مجموعة معاهدات فرساي وسان جرمان ونويي وتريانون قد ألفت تباعاً قانون أوروبا العام وضمنت السلم في الجزء الغربي من العالم عدة سنوات .

وفي الختام نرى أن نأتي على صورة أخيرة للتشريع في العصور الأولى وتلك الصورة تمثل صفة العقوبة التي تتخذ مظهر الانتقام أكثر مما هي عقوبة للردع أو الارهاب . وهي ترمي إلى إيضاح أوضاع الجريمة المرتبطة بها . فجسامة العقوبة لا تقاس فقط بفظاعة الجريمة ولكن الضرر الذي يحاق بالمجرم يكاد يشبه في ظروفه ونتائجه الضرر الذي لحق بالضحية .. عين بعين وسن بسن . . . إن شريعة الاقتصاص من المجرم بنفس جرمه لأعظم دليل على ذلك . ثم أن اجراءات قمع الفتنة تتخذ شكل الفتنة بالذات ، فالمخالفات التي تدل على شعور مسف تكون موضع عقوبات مخجلة كالسوط والتشهير والنصيبة والسخرية ، والمخالفات الناشئة عن الطمع والجشع يعاقب عليها بالغرامات المالية ، إذ شعور الانتقام يرتاح ويهدأ

لتلك العقوبات التي تُوجد صلة بين العقوبة ونوع الجريمة ، وليس بين العقوبة واستعداد المجرم . إن القانون القديم كان لا يهتم باصلاح حال المجرم أو ارهاب من يدفعهم الغرور والمثل السيء الى التمثل به فهو يذهب الى أبعد من ذلك إذ هو لا يبحث عن سبق الاصرار أو التعمد . ولذلك فان من يحدث أو يسبب في ضرر ولو بغير عمد أو قصد ناله نفس العقاب الذي ينال مرتكب الجرم مع سبق الاصرار .

فهل يفهم من ذلك شيء غير أن الفكرة الأساسية في هذا التطبيق هي إيجاد نوع من المعادلة والتوازن ؟ وأن الضرر الذي كان يحدث لا يتم إصلاحه عن طريق التعويض المادّي ولكن عن طريق هدم ما يتناسب معه ويوازيه ، وأن كل عذاب يجب أن يعوّض عنه بعذاب يماثله ويتساوى معه . ان التكفير عن الجرم يعتبر نوعاً من أنواع المقاصة . ولا زالت المنازعات بين القبائل الهمجية حتى في أيامنا تصطبغ بتلك الصبغة . فهناك قبائل تقوم بغزواتها لمجرد الاضرار بحقوق الغير بما يوازي الضرر الذي لحق بها، فاذا تساوى الضرر الذي أحدثوه بالاهانة التي لحقت بهم كفوا عن عملهم وارتدوا من تلقاء أنفسهم .

وستظل تلك الحروب الخاصة قائمة ما دام المجتمع لم يصل الى درجة من النظام كفيلة بالمحافظة عليه وما دام ضمير الجماعة لا يؤثر على شعور الأفراد ويكبح جماح الحقد ونزعة الانتقام التي تتملك نفوسهم بتهدئة الخواطر وتخفيف بعض العقوبات الوحشية وكذلك بتشديد بعض العقوبات البسيطة التافهة التي تطبق على بعض الجرائم التي ينظر اليها الخصوم فيما بينهم بشفقة متبادلة وإن كانت عواقبها تعود بأضرار جسيمة على المجتمع . وقبل أن يصل التطور إلى تلك المرحلة الأخيرة التي تعتبر فيها الدولة الجرائم الخاصّة جرائم عامة فانه يتقلب في ثلاث مراحل : مرحلة الانتقام الشخصي، وهذا الانتقام لا يخرج عن كونه حالة حرب قائمة بين عائلات أو جماعات مستقلة ، ومرحلة الصلح بواسطة المال وهو لا يعدو عن كونه نوع من معاهدات الصلح المتفق عليها طوعاً برضاء الطرفين بعد إذ سئما القتال وبعد إذ شعرا بتعادل قوتهما تعادلاً محسوساً وآنئذ يعدل المعتدى عليه عن انتقامه ، كما يعدل المعتدي — الذي يخشى ذلك الانتقام — عن متابعة هجومه (ذلك هو القانون الجرماني وقانون الاثني عشر لوحة) : ثمّ المرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة الصلح المشروع الذي تفرضه

الدولة وتحدد شروطه . إن جميع الشعوب المتمدينة قد مرّت بتلك المراحل . وفي عهدنا هذا نرى في قانون العقوبات في الحبشة ، إن الجرائم الموجهة إلى أفراد ، وجرائم القتل والسرقة ، ليست خاضعة لاجراءات قانونيـة إلاّ بناءً على طلب أولي الشأن الذين لهم الحق في التنازل عن طلب العقوبة أو المفاوضـة وحسم النزاع بمعاهدة صلح . ان الشعب الحبشي لا يشعر بشدة الضرر الذي يلحق بالمجتمع من جراء تلك الاعتداءات الشخصية .

على أنه قد ظهر أن الضمانات التي يمكن الحصول عليها من جراء تدخل الدولة في المنازعات التي تقع بين الجماعات — إذا كانوا مستقلين — أفعل وأشد أثراً من الضمانات التي يتمتع بها أعضاء الأسرة الخاضعين لتأديب الأب في الجرائم التي تتأثر منها الأسرة وحدها . إن حق توقيع الجزاء بين الجماعات في عهد النظام الأسقي كان ينفذ بغير ما رقيب، إلاّ الرأي السائد في دائرة الأسرة المتحدة بشعور واحـد . إن حق الموت أو الحيـاة الذي يتمتع به رب الأسرة نحو زوجه وأعقابه وعبيده لم يكن منظماً أكثر من حق الوالدين في تأديب أولادهم المعترف به في التشريع العصري . فهذا التخفيف المضطرد من جهة ، والامتداد العكسي في سلطة الدولة في قمع جرائم ومخالفات الخدم تبين نموّ العهد القانوني الذي تحقق بالتوازن على العهد الذي يتولد من نظام الأسرة القديم حيث كانت السلطة تسيطر دون وجود سلطة أخرى تعادلها .

* * *

وإنه نظراً للتكرار فان بعض الأعمال والتعاقدات قد اكتسبت قوة الحق الثابت المفروض — لا بطريقة مكرهة وفي اطار محدود — ولـكن في هيكل ظاهري عام وتحت تأثير السوابق المتعددة . وهكذا تقبل تلك الأعمال والتعاقدات بغير اعتراض أو مقاومة لأنها فُـرضت باعتبار أنها نتائج لضروريات الحياة العامة . فهي ايضاح وتفسير لنوع من التوازن أو بعبارة أصح هي نوع من التعهد والتعاقد .

والعمل الأساسي لا يقل شرعية عن الأعمال التي تعقبه وتضرب على منواله . ان العرف المصطلح عليه لا يخلق حقاً : انه يكشف عن هـذا الحق ويظهره وهو لذلك يزيده قوة . فالتدليل بالأمثال المتكررة على كيفية التوفيق بين المصالح المختلفة المتعارضة في حالة محدودة

ويحمل المترددين على الاذعان إلى حل قد يكون مفروضاً بالقوة ، فيترتب على ذلك تفضيل هذا الحل وقبوله لتلافي الضرر الذي ينجم عن مقاومة غير مجدية . وعلى كل حال فان العلاقات التي تقوم على أساس واضح وعبارات جلية ظاهرة تتجلى عن حالة مستترة . وتلك الحالة قلّ أن تتغير بظهور الأحوال المتعاقبة أو انتقالها .

وهكذا نرى ان أنسب الطرق للعمل وأكثرها ملاءمة لنظام الأشياء المقرّر ، تتكرّر وتزداد باطراد مستمر فتخلق عادات تتخذ مع الوقت صفة القواعد الثابتة . ان الأمر الواقع يرمي إلى التداول والتكرار إذ هو ينطبع في مجموعة الأعضاء والوجدان وينساب شيئاً فشيئاً من الشعور المفكر إلى أعماق اللاشعور.. فتطبيقه المتبادل يعزز ما تقدمه من العلاقات الأولية غير المرتكزة .

ان الاستعمال يتطوّر رويداً رويداً بفضل التعديلات التي تدخل على نظام الأشياء الطبيعي فيساعد ذلك — وبدون أي خطر يذكر — على ايجاد تطبيق جديد . أما إذا تحوّلت الحالات بسرعة فان الثقة في الاستعمال تصطدم بحدوث انقلابات ومفاجئات قد تكون سبباً في وقوع نكبات حقيقية . وهكذا تسود — خصوصاً في النظام الدولي — حالة عدم استقرار تحول دون تنفيذ كثير من الآمال العظيمة والأفكار السامية التي ترقبها الانسانية وتعلق عليها مستقبلها .

ان الحق الذي يستخلص عفواً من العلاقات الخارجية يتجلى عن صفات تميزه بكل سهولة فوحشية أصوله وصلابته تجعل منه آلة يصعب استعمالها وعلى جانب عظيم من الخطورة . انه سلاح لا يخلو من الشر والايذاء حتى مع من يستعملونه بحذر واحتراس . وهذا السلاح يحمله الأقوياء الأشداء بقدر ما يحمله الضعفاء المستكينين . ولا شك في أنهم جميعاً يشعرون بأنه حمل ثقيل إذا هم لم يستعينوا بكل قواهم على حمله .

وعلى الرغم من ذلك فان هذا الحق يُعد انتصاراً على القوة الغاشمة ويخفف من غلوائها وافراطها . ولكنه يمتاز بعيب ظاهر وهو عدم الاستقرار خصوصاً اذا كان صادراً عن توازن عدد قليل من العناصر . ولما كانت هذه العناصر لا تتبع نظام الأشياء الجامدة ولكنها تتبع كائنات حية خاضعة للتحول ، فأي تحول في نشاط إحدى هذه العناصر يكفي

لتحطيم التوازن والاخلال بجميع أجزاء الجهاز اخلالاً كبيراً . وهـذا الجهاز في ذاته غير مغلق . فهو مؤلف من عناصر مختلفة العدد منوعة ، ويظل مفتوحاً ومعرضاً لتدخل عوامل جديدة تستطيع — هي أيضاً — تحويل استعداد الأطراف تحويلاً كلياً .

وفي النهاية يعمل كل واحد من تلك العوامل بطريقة كلية في اتجاه واحد وبقوة شاملة ناشئة عن الاتجاهات المختلفة أو المعارضات . وهذه الظروف مجتمعة تساعد على ايجاد التوازن المعرض للانهيار تحت تأثير الاهتزازات الوحشية والاختلاجات غير المنتظمة . وان الخلل ليكونن أشد خطراً وأعظم بقدر ما تكون القطيعة فجائية . ثم ان تلك الاهتزازات تقطع الروابط التي تكوّن بين الأطراف المتعاملين وتقوّض دعائم المحور وتغير الاتجاه الذي كان بارزاً للآن على كل عنصر من العناصر التي تؤلفه .

ان هذا الحق ناشيء من امتزاج القوات الخاضعة للاعمال والتأثيرات المحلية والعرضية. وينقصه في الداخل دعامة مبدأ رئيسي يسيطر عليه نفوذ سلطة كفيلة بحسم النزاع وفضه . ان مثل هذا الحق ناقص إذ انه يفتقر الى القاعدة الصريحة التي تعد بمثابة تشريع ثابت منتظم. انه مجموعة من القوات المتعارضة التي ترتكز الى بعضها وترتفع ببطء كالقبة المتداعية لا يحول دون انهيارها الا القواعد والعقود التي تسندها . ومع ذلك فالمرء يرتاح الى الالتجاء تحتها عسى أن يجد فيها مجنباً أو ترساً .

فاذا كانت القوة والحق يختلفان تماماً في الجنس والطبع . واذا كانا ـ للاسباب المتعارضة التي ينشئان عنها — يقصي أحدهما الآخر ، فان تعاقبهما يصبح أمراً محتوماً ، وانه لمن العبث أن يرجى للانسانية مستقبل أحسن . ولـكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فالسلم يعتبر حالة خاصة من الحرب كما يعتبر توازن القوات حالة من التحور الاجتماعي . والسلم — وهو أسمى معاني الخير — هو الحق كما ان الحرب ليس الا مظهر من ثورة القوات على بعضها .

الفصل الرابع

الحق العضوي للعلاقات الداخلية

في الطبقات السفلية من العالم الحيواني تتألف جماعات ذات صبغة مبهمة نتيجة تكدس الخلايا وعلى الرغم من أن تلك الخلايا ميالة الى العيش عيشاً مستقلاً حرًّا . وتلك الجماعات الحيوانية — أو كما يسمونها المستعمرات — مؤلفة من عناصر ، وإن ظلّت في بدء تكوينها منفصلة متباينة ، إلاّ انها باتحادها مع بعضها تؤلف فردية ، وتلك الفردية تمتص تدريجيًّا فردية الأعضاء التي تكونها : « لأن اتصال الأنسجة التي تتألف منها أعضاء المجموع لا بدّ أن تؤلف في الواقع فرداً » . وما دامت جميع الخلايا متلاصقة فان المجموع لا يستطيع أن ينتقل إلاّ بحركات اجمالية؛ ولذلك فهو يشرك جميع موارده الحيوية بفضل انسجام أنسجته وقابليتها الى الترشيح . ثم ان تلك الخلايا — بفضل انسجامها وتشابهها — تتخصص في وظيفة لا تلبث مع الوقت أن تميزها عن بعضها بتطبيقها على العمل الذي يلائمها : إن الوظيفة تخلق العضو . والأعضاء بدورها تخلع على الجماعة تركيباً محدوداً بفضل وضع الأعضاء ونموها . ويذهب كثير من العلماء الى القول بأن ذلك هو السبب المباشر ونقطة البدء في التطور حتى في طبقة الحيوانات الفقرية التي تمتاز بعقليتها السامية الى حدٍّ يتعذر العثور فيها على آثار التكوين الاستعماري .

ومهما يكن من أمر ذلك القياس التطوري فإن حركة التطور التي لخصناها تضع نصب أعيننا صورة من ظاهرة الاشتراك التي أعقبت — بطريقتين مختلفتين — أرقى اوضاع المجتمعات . فتكوينها يتجلى أحياناً من تناسل الوحدات المتفرعة عن أصل واحد ، وأحياناً ينشأ عن اتحاد الجماعات التي كانت مؤلفة من قبل . فالأولى تعتبر مجتمعات بسيطة والثانية تعد

مجتمعات مركبـة قد تشابه أعضاؤها في كثير من النقط، وترمي الى الاندماج ببعضها اندماجاً كليـّا .

وكما أن تلاصق الخلايا في الجماعات الحيوانية قد أدّى الى تكوين وحدة فردية هي من جهة أسمى من وحدة أعضائها ، ومن جهة أخرى تعمل — بفضل الأعضاء المتباينة — على ارضاء حاجاتها المشـتركة ، كذلك المجتمعات البشرية ، سواء أكانت بسـيطة أو مركبة ، والأسرة ، والمدن ، والدول ، فانها تتقارب عرضاً بروابط واهية ومتقطعة ، ثم تشترك باتفاقات أقل انفصاماً وأكثر استقراراً تحت تأثير القوات المتوازنة الثابتة مما جعلها تندفع في حركات اجماليـة أدت الى اكتشاف فوائد التعاون والتعامل وتبادل المصالح المشتركة . ولقد كانت الحرب — في كثير من الأحوال — بما تجرهخلفها من ويلات وأهوال وتأثير الحاجة ، السبب المبـاشر في ازالة الشكوك وابادة سوء النيـة وتحطيم العراقيل وإلانة المعارضات وجمع الـكلمة وضم الحلفاء في شكل اتحاد دائم . ولقـد كانت الحرب السبب أيضاً في الجمع بين هيئتـين إحداها الظافرة التي امتصت المقهورة وضمتها في وحـدة سامية وفرضت عليهـا في بادىء الأمر ارادتها ثم انتهى بها الحال الى قبول الامتيـازات المشتركة بين الطرفين . ان العلاقات الثابتـة القوية تضم بين جميع الأجزاء المتناثرة طبقاً لنظام ثابت دائم . ومنذ تلك اللحظة تتحدد جميع التعديلات والتغييرات في هذه الأجزاء . والحرب أيضاً هي التي تخلق المجتمع الدائم وتحافظ على كيانه ووجوده في حالتـه الضيقة المحدودة المنـكمشة بأقصى ما فيهـا من عوامل الضغط والقوة . ان اشتراك عاملين في مناوأة عامل آخر يعد مبدأ للاتحاد وعنصراً رئيسيـّا فعالاً من عناصر الوحدة .

ان المجتمعات الصغيرة في العصور القديمة ، تلك المجتمعات التي كانت تعيش في حروب مستمرة وغزوات مطردة بغير هوادة ولا شفقة وفي أوقات كان الأسير لا ينجو من شر الموت الا ليقع بين براثن الرق والعبودية ، تلك المجتمعات كانت غريبة عن بعضها تتراشق هذراً وتتحين الفرص للبطش والفتك .

كانت المدينة في تلك العصور عبارة عن معسكر قائم . وكان دستور الأسر والمدن القديمة كما أسلفنا — شاقـّا وحشيـّا بفعل الضرورات الخارجية . على أنها قد تدانت من بعضها

وامتزجت في هيئة ثابتة . وأصبح السياج المسلح المحيط بها عديم الفائدة الا فيما يتعلق بمحيط الجماعة . أما في الداخل فان المساحات الملتصقة ببعضها فانها تفقد من صلابتها وخشونتها ، وتصبح قابلة للرشح كما هي الحال في المستعمرات الحيوانية الملتصقة الأعضاء ، وتسقط الحواجز ويمتزج ما بداخلها : لن تكون كالخلايا الجوفاء المتلاصقة ولكنها تصبح بمثابة قطعة واحدة من نسيج متواصل تسري في جميع أجزائه حياة واحدة .

وتتحول قوة المقاومة نحو ما يحيط بالجماعة الجديدة من الخارج . ويجتمع المقاتلون عند الحدود تحت امرة القائد المختار . ويعين في الداخل مجلس للتشاور والتقنين وقضاة لتفسير الشرائع وتطبيقها . وتفقد العلاقات بين القبائل أو الأسر صفتها الدولية وتتحول الى علاقات قانون خاص . ويوضع نظام الأمن في الداخل كما يوضع نظام للدفاع في الخارج . وهكذا ـ بفضل السلم الذي ينظم ويحتفظ به ـ يطمئن الأفراد الى المستقبل ويرتاحون الى شرفه المعاملات فيتقاسمون الأعمال في المدينة ويستسلمون لأذواقهم أو لكفاءاتهم .فيقدم الرعاة والمزارعون لحوم الأغنام وحنطة الأرض ،ويغزل العمال الصوف أو يصنعون الآلات اللازمة للزراعة وأسلحة القتال . ويضع التجار بضائعهم في متناول المستهلكين .

على ان هـذا التخصيص في الواقع لا يعد تحقيقاً لخطة مرسومة ، أو لارادة مدروسة . فالرجال مدفوعون ، ضد رغبتهم وبغير علمهم ،نحو اختيار العمل الذي تتوطد فيه مع الوقت كفاءة كل منهم ويميزه عن غيره . ان التخصص شرط المحافظة على التوازن والسلم . فهو يحوّل الأعداء من الخصومة إلى التعامل مع بعضهم بتحويل تيار نشاطهم . وفي سبيل نجاح أعضاء المجتمع وازدهار أعمالهم وتخفيف حدة المنافسات بين أرباب المهن يحصر أعضاء المجتمع نشاطهم في دائرة محدودة ويوجهوا هذا النشاط في تحسين الانتاج ، إن الظروف الخارجية والميول الطبيعية تحدد معنى ذلك التخصص . وقد لاحظ الرجال — مع توالي الأيام — عظم الشقة التي قطعوها على الرغم منهم ، وتحققوا انهم يستطيعون — بطريق البدل — اشباع غاياتهم وارضاء كل رغباتهم فسايروا ميولهم ووقفوا جهودهم على الصناعات أو الفنون فبرعوا فيها وازدادت قوة الجماعات بتقسيم العمل الذي يقرر لخير الأفراد المكان اللائق ويسمح له أيضاً بتحسين حالته بموالاة مهنته ومباشرتها . وهكذا يبدو التضامن الذي يجمع بين

أعضاء الجماعة ويتجلى أمام أنظار الجميع. فيشعرون باستطاعة البعض التخلي عن البعض الآخر، ويتمتعون بملء حريتهم واستقلالهم ويضطرون إلى الانضواء تحت لواء المجتمع الذي يعيشون في كنفه ولا يستطيعون تجنبه دون أن يهلكوا.

ثم ان هذا التقسيم للعمل لا يكون ميسوراً إلاّ بين أعضاء مجتمع واحد، على أن يكون هذا المجتمع مؤسساً على عقائد مشتركة وقائماً على مشاعر متحدة متضامنة ليستطيع أن يقاوم الضغط الخارجي. « إن المنافسة وحدها لا تستطيع إلاّ أن تزيد الشقة وتباعد بين الأفراد المستقلين إذا اتسع المجال لهؤلاء الأفراد ليتجنبوا بعضهم ويتباعدوا ». ان النزاع لا يمكن أن يُحل بغير عامل فعّال يؤدي إلى التعاون، فهو يقيم العراقيل ويزيد في عنت المتنازعين ويضاعف في اختلافاتهم. ويحفر بينهم هوة سحيقة من الحقد يتعذر سدها. فاذا كان تقسيم العمل يجمع في نفس الوقت الذي يعرف فيه، واذا كان يقرب في نفس الوقت الذي يميز فيه، فليس ذلك إلاّ لأن الاحتكاك يجب أن يظل قائماً بضروريات الحياة المشتركة كما يجب أن يظل الرابط الاجتماعي الذي كان موجوداً من قبل.

وهذا التضامن الذي يزداد يوماً بعد يوم بتقسيم العمل تقسيماً مطرداً والذي يميز دائماً بين القائمين بالأعمال بتمييز تلك الأعمال بالذات، هـذا التضامن هو القانون الأساسي للمجتمعات القائمة. وهو الذي يحول الحق الخاص والحق العام، أي حق الفرد وحق الجماعة. ان نظام الأسرة يقل عتوّا بزوال الحروب الداخلية: ان سلطة الأب المطلقة محدودة بالعرف والقانون، ومصالح البنات والنساء معترف بها ومصانة. أما حق الإبن البكر فانها تتضاءل ثم تتلاشى حتى تزول. ففي روما أستعيض عن منتديات القبائل بمنتديات الجماعة. وفي نهاية العصر المتوسط تلاشت مقاطعات الاقطاعيات وفتحت أبوابها لمن يشاء أن يلجأ إليها أو يقصدها. وسهلت المواصلات بينها وبين بعضها وزالت الحواجز السياسية، وضعفت موانع الضرائب، واختلط السكان ببعضهم ونمت المدن وامتازت على القرى والمزارع بازدياد الحركة فيها وتبادل الأفكار والآراء: وتخصصت تلك المدن فأضحت مدناً تجارية أو جامعية أو حصوناً لحماية الحدود وصيانتها أو أوساطاً صناعية أو موانئ ملاحية ونهرية تبعاً للظروف الطبيعية أو التاريخية، حتى القرى فقد تقاسمت الأعمال الشائعة في جميع انحاء

المدن تبعاً لملائمة أجوائهـا أو مكانة مواقعها أو سواحلهـا أو أنهارها أو أخلاق سكانها . واستعدادهم الشخصي ، وفي ذات الوقت يتطور الضمير الوطني والشعور والرغبة في إنشـاء وحدة أخلاقية بارزة ثابتة ، وتأبى العناصر المتجانسة المتساوية أن تعيش في عزلتها بعد أن كانت راضية بذلك العيش قانعـة بتبادل المعونة . ولا تلبث أن تجاري التيار المحيط بها فتمتزج وتتعاون .

ولا يلبث التجانس والفوارق التكميلية التي كانت تربطها أن يجعل منهـا وحدة قوية متماسكة يتعذر فصم عراها . وهنا يتجلى الشعور بالذات الى أعظم درجة من التناسق والنظام . ويتمالك المجموع البشري نفسه بعد إذ كان متبايناً متفرقاً . ويدرك ماهيته ومكانته على الرغم من تجديد أعضائه وأفراده . وفي نفس الوقت تصبح الدولة كما قال رينان : روحاً ومبدءاً نفسانيـاً بقدر ما هي مجتمع من الرجال ووحدة جغرافية .

فتقسيم العمل إذن ، يُعد من أهم وأقوى عوامل تكوين الشخصيات . وتبادل التناسب والتطبيق بين الأعضاء لا يترك مجالاً للأوهام المزعجة . فكل جهاز عضوي يعتبر جهازاً مغلقاً فلا يقبل بغـير مقاومة تسرب العناصر الغريبة إليه . والتوازن في علاقات الخـلايا أو الأفراد يختل بدخول عامل خارجي ويؤدي الى انهيار مجموعة النظم الدفاعية التي ترمي ، بمساعدة القوات المتحدة المتحالفة ، الى إقصاء هذا الدخيل وإعادة النظام السابق الى ما كان عليه . فاذا تكلل هـذا العمل بالنجاح — وهذا ما يغلب في كثير من الأحوال لأن قوة الجهاز العضوي التي ازدادت بالتعاون والتحالف تتغلب على أعدائها المنشقين على أنفسهم — فان التوازن يحافظ على كيانه ووجوده . ولو فرض أن العنصر الغريب قد يتمكن من التسرب والاستقرار في مكان من الجسم الحي ، فإنه لا يُسمح ببقائه إلاّ بحدوث تغيير يلائم الوسط الجديد الذي دخل فيه . وهـذا الوسط يتأثر بدوره ويعتريه تغيير مناسب للوضع الجديد ولـكن في مدى محدود إذا كان وجود الدخيل غير متنافر مع حياة مجموع العناصر المتلاصقة وغير عامل على إزالتها . فاذا تمكن من الاحتفاظ بحياته في وسطها فان الاستقرار يكاد يكون مضموناً في داخل الجهاز العضوي المحصّن الممتاز.

وما دامت لـكل مجموعة عنصرية حياتها الخاصة ، فانها تستعين بجميع أعضائها التي تظل

واضحة جليّة لأن نشاطها ضروري لكيانها . ولكن اذا اشتركت عناصر جديدة فإن الأعضاء المركزية تنمو على حساب الأعضاء المحلية التي يضعف نشاطها . وتلتقي جميع هذه الأعضاء ببعضها وتندمج خلال الفتحات الخالية التي تضعف مقاومتها. وهكذا لا تؤثر كل وحدة على جاراتها ولا تحدث فيها تأثيراً اجمالياً ناتجاً عن اتحاد تلك القوات مجتمعة ولكنها تحدث فيها تأثيراً متقطعاً موزّعاً يتجلى بفضل العلاقات المباشرة التي تقوم بين هذه الأعضاء وبين أعضاء الوحدات التابعة لنفس القياس . إن العناصر — اذا كانت من طبيعة واحدة — تتقارب وتتجانس مدفوعة بمصالح مشتركة متشابهة تتعارض مع مصالح الأعضاء الغريبة عن مجموعتها الأصلية . إن وحدة المجموعة الأصلية تتفكك ، ونشاطها الموزّع المقسم يندمج في مجموعة أمتن تركيباً وأكثر مرونة وغير مركبة من أجزاء صلبة تكاد تكون مرتبطة ببعضها . وهكذا يكون الفرد بالنسبة لاحتكاك الانفعالات التابعة لسلسلة من المشاعر مختلفة الحلقات . فهو يوجد عند نقطة التقاء الحركات التي تخترق العناصر المتجانسة في طبيعتها والتي تنتشر بين العناصر التي تؤلف عضواً وحداً وتغشي منطقة واحدة . وهكذا فان خلية واحدة في جهاز عضوي حيواني يمكن أن تكون تابعة للجهاز العصبي والجهاز الهضمي والجزء المتوسط من الجسم في وقت واحد .

وإذن فالفعل الخارجي أو الداخلي لا ينتقل بشكل حركات محتكة ويتناسخ بانتظام خلال المادة : فهناك خطوط انتقال تحفر على شكل شرايين دموية ومائية أو على هيئة ألياف عصبية تملأ جميع الاجزاء وتنقل الفعل الكيميائي أو الموجة المثيرة الى العوامل المؤثرة المشتركة بسرعة وانتظام . وهكذا يتم التنسيق والتنظيم بأقل ما يمكن من التكاليف وبدون أي خلل أو اضطراب .

***

إن تقسيم العمل يعد مبدأً لتطور الفرد كما هو مبدأ لانسجام المجتمع . إن تكوين الشخصية البطيء — مع ما فيه من آثار رجعية — يتجلى منذ أقدم عصور التاريخ . إن الرجال ينفصلون تدريجياً عن الجماعة التي كانوا مندمجين بها في الأصل سواء أكانت هذه الجماعة عائلية أو سياسية . والمدنية ليست سوى حلقة من الجهود الشاقة نحو استقلال

الكائن البشري . ففي البدء كان الفرد مستعبداً من الجماعة التي يتبعها ويشاطرها مواردها المادية وأفكارها وشعورها : تلك الجماعة التي يشعر بضغطها عليه وتأثيرها الخارجي والداخلي على كيانه وعقليته . كان لا يملك شيئاً لذاته بل كان لا يملك نفسه . وكان تملك الأشياء على الشيوع ، واختيار المهنة وممارستها معدوماً ثم تحدد شيئاً فشيئاً بالاستعمال . ولم تك للرجل حتى حرية اختيار شريكة حياته ومعاشرتها طبقاً لميولها وذوقهما وبيئة أولادهما . فقد كانت السلطة تتدخل في صميم الأسرة وتفرض الزوجة وتحدد تربية الولد وأحياناً كانت تنزعه من أبويه . ولم تكن السلطة تنفذ بواسطة زعيم يختاره الجمهور فقد كانت جمعية الشعب صاحبة الرأي الأعلى والأخير .

كانت المسئولية المشتركة تثقل على العشيرة بغير تمييز حتى لقد كان يمكن معاقبة أي عضو فيها على أعمال يكون قد ارتكبها غيره من أفراد العشيرة . ولم تكن الاهانة تعتبر من الأمور الشخصية لأن العشيرة بأكملها كانت تعاني نتائجها وجميع أفرادها يساوون منها في شعورهم كما يساوون في أموالهم المشتركة بين الجميع . وكانت الاساءة المادية الناجمة عن السرقة أو النهب ، والضرر الخلقي المترتب على الجريمة التي — لو لم تعاقب وتكررت — تعتبر تهديداً لكل فرد يتناول الجميع على حد سواء . وعكس ذلك فان المهين لا يعمل على انفراد : فاما انه يرتكب الفعلة التي تعزى اليه خلال غزوة حربية أو انه يرتكبها في مصلحة عشيرته وإذن فجميع رجال العشيرة يعدون شركاءه أو أنصاره . ويظل مرتكب الضرر مجهولاً من خصومه ! . على أنه بعيد عن سلطة تشريع الجماعة التي أسيء اليها ولا تستطيع هذه الجماعة أن ترجع الا على العشيرة المعادية لها فتنتقم منها . ان تناسق الجماعات الاولى متين الى حد يخال انها ممتزجة ببعضها تعيش من موارد واحدة وتحيا لغرض واحد وتدب فيها روح واحدة تهب عند أول احتكاك بالمؤثرات الخارجية وتتأثر بأجمعها من الحوادث الداخلية .

على أن نمو المجتمع رويداً رويداً واتساع نطاقه اتساعاً طبيعياً مطرداً بزيادة عدد أعضائه واشتداد حركاتهم وتنقلاتهم لا بد أن يضاعف الاحتكاكات مع تخفيض مداها وتأثيرها . لأن العلاقات ، إذا طال مداها ، ضعف مفعولها وقلت ميزتها وامتيازاتها . ان تقسيم العمل

تحدث تفاوتاً ، وهذا التفاوت يزداد باختلاف الأوساط التي يخضع الرجال لتأثيراتها . ففي عشيرة كبيرة تملأ السهل والجبل وشاطىء البحر يوجد فيها صيادو السمك ، والمزارعون والصيادون . وجميع هؤلاء لا يلبثون أن يمتازوا بعادات وأخلاق خاصة. عندئذ تنشأ طبقات أخرى في وسط العشيرة أو المدينة. ثم تتألف بين الرجال جمعيات بدافع من ميولهم وطبائعهم . وهكذا يمكن أن ينتمي رجل واحد الى جمعيات مختلفة فتنتفع كل واحدة منها بشطر من نشاطه . فاذا ما وقف عند مفترق الطرق فانه يصبح عند ملتقى نواحي التأثير المتشعبة الأغراض فتكون له شخصية غريبة بينة عن شخصية الوحدات المجاورة ، متباينة عن استعدادها . ان الميل النظري الى تصوير الوجهة والتفنن في خلق تقاطيعه البارزة المميزة ، والرغبة في اثبات « ما لن تقع عليه العين مرتين » ليس في الواقع الا ثمرة من ثمار المدنية وان تأخر نضوجها . فما أبعد البون بين الجمال المؤثر في تمثال من صنع فيدياس وبين الشذوذ المؤثر الذي يحاول أن يدركه مصورو العصور الحديثة ويسمون اليه .

وهكذا يتجلى الرجل بتأثير الاضطراب الاجتماعي في صدر ذلك المجتمع المتباين . فاستقلاله يدفعه إلى السعي وراء الظهور والتعرف على الجميع والحصول على ضمان الحريات اللازمة لكيانه بضمان المسئوليات . وإذ ذاك تتلاشى المبادىء الشيوعية وتعاليمها من الأسرة ويعترف التشريع بحق الوصاية بموافقة الجماعة وتحت تأثير الارادة ثم يقرر حرية التعاقد وحمايتها .

وعند ما يتمكن الرجل من إلقاء الأحمال التي تثقل كاهله وينزح تحتها، في وسط القبيلة، يتسنى له أن يستمتع بقسط وافر من الحرية . ولا بد أن تسري العدوى إلى أمثاله وتؤثر فيهم ، فينشأ عن تصرف الرجل بملء حريته نوعان من النتائج : أحدهما لا يعود مفعوله إلا عليه ويتوقف نجاحه أو فشله على جهوده فهو وحده يتحمل مسؤولية تدخله وأعماله ، والجهود التي بذلها إما أن تخدمه أو تسيء اليه . فالنتائج سواء أكانت حسنة أم سيئة تحد من نشاطه بعقوبة أوتوماتيكية لاتقبل نقضاً ولا ابراماً . ولكن قد يكون لأعماله أيضاً تأثير رجعي على بقية الأفراد . فمن ذا الذي يتحمل الأضرار المسببة عنها في هذه الحالة ؟ لا شك في أن العاقبة تقع على عاتق من تجاوز حدود القواعد المقررة بتواليه تنظيم العلاقات

بين الرجال وادارتها . وهكذا فإن معرفة المسؤولية وتحديدها — وهي إحدى نتائج الحرية ومن أهم عواملها — ترتكز على فكرة الخطأ والعمل الذي يرتكب بمحض الارادة والحرية وليس على العمل الوحشي .

كانت المسؤولية الجنائية ممتزجة بالمسؤولية المدنية في العصور الأولى ولا تتميز إحداها عن الأخرى إلا بعد أن حلّ القصاص الشخصي أو الفردي محل القمع العام . وفي العصور المتوسطة فرضت العادات النظام النقدي الاجمالي الذي يضمن إرجاء المجتمع الإنساني بالاقتصاص من المجرم وتعويض الضرر العائد على الفرد في وقت واحد . ثمّ تطورت كل حالة على انفراد مع الوقت ، فأصبح في الإمكان تقرير التعويض المالي مستقلاً عن أية مخالفة للقانون وتقديره بالنسبة للضرر الواقع . منذ ذلك الحين ازدادت عوامل الفصل بين نوعي المسؤولية وتحددت الجريمة وشرحت شرحاً وافياً ، فكان موضوع القصد والاصرار مثيراً للشكوك في مدى الجرم مما أدى إلى نقض عدد الأحكام . والى جانب ذلك فإن وطأة القمع خفت وتلطفت . وعلى نقيض ذلك فإن تطبيق التعويض المدني ، بالنظر الى تعدد العلاقات الاجتماعية وتقدم الصناعات ورقيها ، قد ازداد ، وإن تعقد تحديده وصعب ادراكه . ولذلك فإن التشريع والفقه يكتفيان — في حالة الجرم المدني — بالخطأ المحسوس والدليل الملموس. وفي النهاية تخطى القانون مرحلة جديدة وتغاضى عن الاستمداد بأي خطأ واكتفى بالتمسك بفكرة المجازفة وأعتبر كل مالك أو صانع مسؤولاً عن نتائج الأشياء إذا كان هذا المالك أو ذلك الصانع سينتفع — عند الحاجة — بالميزات والفوائد التي تترتب على الحالة أو الحادث الذي تسبب عنه الضرر . ان فكرة الخطأ وفكرة المجازفة — اذ تساعدان على ايجاد فردية العقوبة وفردية التعويض — تعضدان على ايجاد استقلال الإنسان مع المحافظة على التضامن الاجتماعي .

* * *

هناك اتجاهان متعارضان يتنازعان العناصر البسيطة في الكائنات كثيرة الخلايا أو الأفراد الذين يؤلفون المجتمعات البشرية : أحدهما يحملها على الحرية وتنمية نشاطها في الاتجاه الملائم لمصالحها الشخصية كل الملاءمة ، والآخر يرجع بها الى البحث عن المصلحة العامة وهي

الشرط الأساسي لإرضاء حاجاتها الخاصّة . الأول قوة دافعـة إذا هي عملت بمفردها ترتب عنها تشتيت الذرات الاجتماعية . والثاني قوة جاذبة إذا هي وجدت ما يوازنها فإنها تنتزع - بقوة جاذبيتها - كل حرية وكل فردية في العنـاصر التي يتألف منهـا الجسم الاجتماعي . والنتيجة في الحالتين هي الموت سواء بالانحلال أو بالضغط . ويمكن ايجاد التوازن بين هذين الاتجاهين ، ذلك التوازن الذي يسمح بالعيش والبقـاء ، بعمل اتفاق بينهما . تلك هي مسألة حقوق الرجل .

وإننا لا نظن بأنه يمكن حلّ هـذه المسألة باشتقاق الحقوق الفردية من حقوق المجتمع أو بالعكس، ولا بإسناد قيمة مجردة لهذه الحقوق. إن خط فك الزمام الذي يفصل بينها لا يعتبر حدّاً ثابتاً محدوداً . فهو مجرد امتداد مؤقت للعقار الذي ترك لها ، عملاً بمقتضيات الزمن والمكان ونوع النظام . فاذا كانت الشعوب التي تقدمتنا قد شعرت باحترام كرامة الفرد بمثل ما نشعر بها نحن اليوم فلا شك في أنه كان من المتعذر عليها أن تعيش وتحيا .

كيف يحدث هذا التحديد ؟ وما هو الخط الذي يلاحظ عنده التقاء الاتجاهات المتعارضة واتفاقها ؟ إنه لـكي يسهل فهم ذلك،يجب أن نذكر الطريقة التي تم بها اتحاد الأجزاء المتجانسة التي تحولت - إثر تخصصها - إلى أعضاء منفصلة مميزة . ان كل جزء من هذه الأجزاء يحمل إلى الجماعة قوة تندمج في التوازن مع قوة بقيـة الأعضاء ، ولـكنها بدلاً من أن تستقل بذاتها فإنها تتجه اتجاهاً واحداً وتتعاون مع بعضها . على ان هذا لا يمنع من أنها قد تسيء إلى بعضها ولو عن طريق رفضها القيام بمهمتها . إن الأعضاء ، سواء بتقاربها أو بطبيعة الوظائف التي تؤديهـا ، تؤلف جماعات جزئية تمتاز بتضامنها لأنه أمتن من التضامن الذي يجمع بين مجموع الخلايا . فهذه الأعضاء ، أو مجموعة الأعضاء ، تطالب - عند توزيع الأرباح والأعمال - بجزء يتناسب مع الحيز الذي تشغله أو مع أهميتهـا . ولما كانت مضطرة إلى الاشتراك في المعيشة فإنهـا تصل إلى نوع من التوازن خشية الفناء في المستقبل العاجل . وهكذا يلاحظ ، عند البحث في نظام الـكائنات ، وجود توازن بين مختلف أجزاء الجسم . إن أغلب الـكائنات الحيّـة تتمتع ببنية متجانسة والتي تتمتع منها بنعمة الحركة فإنهـا تتنقل بغير ما جهد كبير ، بفضل توازنها ، الذي يكفي أن يناله تعديل بسيط في كيانه ، ليدفع الجسم

بأكمله إلى الحركة .

وهكذا الحال في النظام الاجتماعي . إن تمييز الوظائف وانفصالها يعقبه مباشرة فصل السلطات ليساعد على ضمان سير المعاهد بطريقة أنسب وأجدى أكثر من مساعدته على تخفيض نسبة التنافس باختيار أساليب مختلفة من النشاط . ان الميكانيكا علمتنا أنه اذا استقلت قوتان وتوازنتا فانهما لا تغنيان بعضهما ولكنهما تحدثان تأثيراً آخر : التشويه والضغط ... في المجتمعات القديمة ، وفي القبائل الأسترالية مثلاً ، نلاحظ تقسيماً، في أولى المجموعات، إلى جزئين يقوم بينهما نوع من النزاع المنظم ينتهي بالتعاون . فهذان المعسكران اللذان يتنازعهما الاتحاد والتنافس ليسا إلا مثلاً خشناً لتوازن القوات الذي يسبق تخصيص الوظائف . إن النزاع بين بعض التشريعات الرومانية ، كالقنصلية ، ونظام مجلسي التشريع وممارسته ليست إلا تطبيقاً لنفس المبدأ .

إن الفصل بين السلطات الضامنة للحرية وتوازنها ، قد تألف في المجتمعات المتمدينة ووجد بطبيعته قبل أن يورد مونتسكيو نظرية تلك السلطات بعد اكتشافها في نظام الملكية الدستورية الانجليزية . والحقيقة أنها كانت موجودة دائماً . فاما أن الرئيس كان يستمد سلطته من موافقة أتباعه بعد أن تم تنظيمهم الى مجتمع حافل بالمعاهد القديمة التي يمكن الاعتماد عليها لمقاومة الاضطهاد ، واما عند تنفيذ أحكام السيادة والسلطة المطلقة ، إذا هو أصبح مستبداً ، أي انه اذا — وهذا ما يتبع في الغالب — تجاهل قوات اتباعه وأنكرها فإنه لا ينظمها ويوازن بينها بلباقة ودهاء فيستطيع أن يحكم مستعيناً بقوة البعض لمقاومة البعض الآخر ، فيحدث إذ ذاك حركة ثورية تحتم وضع حد للسلطات الملكية بمنح الضمانات المستديمة التي تكفل بقاءها وخير تلك الضمانات وأضمنها هو تجزئة السلطة . وفي كلتا الحالتين تنضم المقاومة وتلتف حول المراكز الثانوية المحلية أو حول الأعضاء الذين يتقاسمون السلطات بتوزيع الوظائف وتقسيمها على أنفسهم . وهي تقاوم نفوذ الملكية المطلق وتحدد، بشكل دستور، نصيب الحريات المحلية والنقابية والفردية والوسائل التي تضمن احترامها .

إنه لمن الصواب أن يطلق اسم « فصل السلطات » على تقسيم الوظائف التشريعية والتنفيذية والقضائية التي كانت في بادىء العصور محصورة في يد واحدة . عند ما تمكن

الزعيم من جمع السلطة التي كانت قبـل ذلك موزعة بفضل الاقطاعيين أو الرعايا الثائرين ، وتوحيدها وتركيزها بين يديه ، لم يعد لسلطته حد تقف عنده وأضحى من الصعب أن يقاوم الاغراء الذي يدفع به إلى الظلم والاستبداد : خصوصاً وان حاشيته كانت تدفعه الى ارتكاب هذا الشطط لأنه يعود بالخير العميم عليهـا وعلى البلاط . عندئذٍ يثور ممثلو الجموع المحكومة ويطالبون — سواء بالشدة أو برفض تقـديم الأموال — بالاشتراك المبـاشر في الادارة الحـكومية وأداة السلطة . ومع ذلك فإن المجلس المؤلف من المندوبين لا يستطيع ـ بالنسبة لعدد أعضائه ـ التدخل في تفاصيل الأعمال التي تتطلب خبرة فنية لدراسة المسـائل المشتركة وتوحيد القرارات واستمرار تنفيذ الأغراض التي وضعت لها تلك المسائل . وهكذا فالمجالس لا تستطيع إلاّ وضع القواعد العامة ، وعلى الحـكومة المؤلفة من عـدد قليل من الرجال الاخصائيين تحت سلطة واحدة ، ان تتولى اعداد المداولات وتنفيـذ المبادىء التي تتخذ وتقرر . وبذلك يتم تقسيم الوظائف التي تجعل من المجلس الاستشاري المؤلف من عنـاصر الشعب ، عضواً تشريعيـّـاً ، ويجعل من الحـكومة ، وهي أقدم منـه ، عضواً تنفيذيـّـاً ليس إلاّ . ولـكن لكي تنزع من الحـكومة سلطة التدخل في تطبيق جميع القوانين ووسيلة معارضة الوقائع ، فان المجلس التشريعي يجتهـد في توزيع القضاء التنفيذي بإيجاد القضاء المستقل الذي تتألف منه السلطة القضائية .

ومما يدل على أن تقسيم الوظائف لا يمثل الفكرة الرئيسية في توزيع الاختصاصات هو ـ قبل كل شيء ـ ان وجود التطبيق قد سبق وجود النظرية كما أن الفصل بينهما لم يتم تماماً وكلية . ان المجالس التشريعية تراقب السلطة التنفيذية وتلك السلطة في العهود البرلمانية ليست سوى إحدى مشتقاتها . فهذه المجالس ـ في الحالات الهامـّـة ـ تشترك في الادارة التنفيذية باتخاذ قرارات ليست لها من القوانين إلاّ شكلها : كنقل الملـكية العامـّـة ، والموافقة على المعاهدات وغير ذلك . كما أنها تقوم مقام محكمة العدل العليا . والسلطة التنفيذية تشترك من جانبها في الأداة التشريعية أولاً بما لها من حق الاطلاع على الاسرار والتصديق ثم بالاشتراك المتواصل في المداولات ـ وفي النهاية وهو أهم الاسباب ـ بما لها من حق مبـاشرة السلطة القانونية التي تؤلف — على الرغم من تمييز المشرعين — سلطة تشريعيـة هي ، وان كانت

تابعة لغيرها ، إلاّ أنها سلطة واسعة بين أيدي رئيس الدولة أو المحافظ أو العمدة .

ان النظام التنفيذي يحتل في النهاية مكانته في النظام القضائي بما له من حق اتخاذ اجراءات التنفيذ التي يكاد يحتفظ بأكملها بمفرده ، باشتراك ممثلي النيابة العمومية في مداولات المحاكم وتنفيذ أحكامها . وإلى جانب ذلك فانه يحتفظ لنفسه بحق رفع الدعاوي أمام المحاكم الادارية والحكم في منازعات تتعلق به مباشرة .

أما السلطة القضائية فعلى الرغم من الاحتياطات الدقيقة التي تتخذ ، فإن تأثيرها يبدو خارج دائرته باشادة تشريع يتألف منه نوع من التقنين المصطلح عليه .

وليس هذا النفوذ نتيجة مباشرة حتمية لتناسق الوظائف وتنظيمها ، فهو أيضاً دليل على ان فصل السلطات ليس فقط من ايحاء تخصيص الأعضاء في الأعمال التي تتفق مع مؤهلاتهم وكفاءاتهم الخاصة وهو يفسر كيف أن الحكومات السياسية ، مع عدم أخذها عمداً بشعار اللامسئولية ، تفضل مع ذلك مثل هذا النفوذ على سلطة الحكم المطلقة . وذلك لأن الحكومات تريد ، قبل كل شيء،وبفضل التوازن في الحرية والمصلحة ، أن تنال قسطها من القوات المنافسة ، ولكن متحدة ، في سبيل الحياة المشتركة والفوائد التي تترتب عنها .

لقد أدى نكران تلك الحقيقة العميقة الى عجز النقد الموجه ضد نظام الدول ممن حاولوا أن يقارنوا بها نظام الادارة في المشروعات الخاصة . ان المدرسة الحديثة التي تمسكت بشرح المذهب الاداري قد ضلت عندما أرادت أن تمد استنتاجاتها التي استخلصتها من المعاهد الصناعية الى المصالح العامة . فهناك فرق أساسي يميز بينهما . فالمعاهد الصناعية مؤسسات صورية نظمها مؤسسوها ، وهم الرأسماليون ، طبقاً لرغبتهم وطوعاً لمصلحتهم الخاصة . فالمديرون وأعضاء مجالس الادارة والمهندسون والعمال الذين يتعاونون على نجاح المشروع ليسوا مشتركين ولكنهم موظفون وافق المساهمون على أن يشتركوا في الربح ولكن بنسبة ما يرى هؤلاء المساهمون أن ذلك لا يتنافى ولا يتعارض مع مصالحهم الشخصية . كذلك ليست لهم أية سلطة خاصة ذاتية ولكنها سلطة منتدبة تفرض عليهم من الخارج فيعملون بها. أما مسألة نظم الدولة فغير ذلك فالسلطة ليست خارجية ولكن داخلية . فهي مخولة من جميع أعضاء المجتمع الذين يمكنهم أيضاً أن يطمعوا ويطمحوا الى الاشتراك في الادارة

والمصالح . وهم يحاولون التوفيق بين مصالح سلطة مركزية قوية تعمل - بتهذيب الجهود - على زيادة الانتاج والحصول على الضمانات اللازمة ضد عبث السلطة . وتلك لايسهل الحصول عليها الا بتذليل العقبات التي تعترض حسن سير الادارة. فاذا خيروا بين المصالح المادية والحرية فانهم يختارون الحرية ولو لم تضمن لهم الا النذر القليل من الراحة . اذ لو أن المشروعات الصناعية لا تنال من الرجل الا عمله ولمدة محدودة ، فان المجتمع يستولي على الرجل بأكمله وكليته من أول يوم الى آخر يوم من حياته . وهذا يدلل لنا على مبلغ سعيه وراء ما يضمن تحريره من ربقة الاستبداد والظلم .

غير ان تلك الضمانات التي تتحقق بتوازن القوات المتنافسة ، تؤدي الى وقف حركة الجهاز بأكمله وشل جميع الأعضاء لو أن هذه القوات لم تستعمل في أعمال ومهام مختلفة تدرك بواسطتها وبفضل استمرار مزاولتها وكفاءة خاصة مميزة يستفيد منها باقي الجماعة . وتلك الحركة تحدد مكانة الكائن الاجتماعي . فالكتلة المتنافسة التي كان يتألف منها تتميز عن بعضها بالنسبة لوظائف الأجزاء التي تتخذ الشكل الذي يليق بدورها الخاص ويتناسب مع توازن المجموع ، وتتحد العلاقات بين الأعضاء والخلايا لتضمن توجيه وتوزيع الجهود والنتائج .

وهكذا فان المجتمعات البشرية تذوب بالنظر الى الشيء في ذاته.ونعني بهذا التعبير أنها لا تنتظم بذاتها بفعل ارادة داخلية أو ظاهرة باطنية . وانما هي أشكال وأوضاع للمادة الحية التي صاغتها الحوادث التاريخية والتأثيرات المحلية . ان النظام — كما في جميع الكائنات الحية — يستقيم في تخصيص الوظائف وتنسيقها ، وفي توازن القوات ، القوات الفردية بين بعضها أولاً ، ثم القوات الفردية بمعارضتها للقوات الاجتماعية .

* * *

السلطة العمومية والفرد . ها هما ذا قطبا المجتمع والعاملان العظيمان اللذان لا يمكن بأي حال اهمالهما أو إغفال أحدهما عند دراسة ميكانيكا الدولة . أعني أن مذهب الفردية غير كامل اذا أقام دعامة « الحق » على المزايا التي يحملها الرجل معه منذ مجيئه الى هذه الدنيا ، والتي تتعلق بطبيعة رجولته وتدعو الى احترام الجميع له . وتلك النظرية — التي تعتبر المساواة

بين جميع الرجال وكيان القواعد المطلقة متممة لها وهي هي في جميع العصور وجميع البلاد ـ عرضة للنزاع باعتبار أن الرجل يولد من الجماعة وإنه لا يستطيع أن يعيش الا في مجتمع. إن الرجل الطبيعي الذي يأتي الى العالم حراً مستقلاً، هو ثمرة فرية أدبية. فهو في الحقيقة تابع لمن تقدموه ومن يحيطون به. ان العقل وليد المدنية. والرجل الذي يولد باعتبار انه يحمل عبقرية بني جنسه وعلومهم يُعدّ من النتائج لا من المسببات. ومن ناحية أخرى فان الوقائع تكذب نظرية المساواة تكذيباً قاطعاً كما أنها تثير جدلاً عنيفاً ساخراً حول وحدة التشريع.

والى جانب ذلك فان مذهب الحق الاجتماعي، الذي لا يرتكز إلا على التضامن، يهمل النظرية الأخرى التي تقدمها الملاحظة. حقاً أن المجتمع حدث أولي والرجل لا يفهم إلا بواسطة علاقات التضامن. ولكن الفرد من جانبه حدث أولي أيضاً ولولا الفرد لما وجد المجتمع. فالقول بأنه ليس للرجل حقوق الا بمقدار ما له من الواجبات وبمقدار ما يكفيه لتأديتها لا يقصد منه سوى ازالة معالم الحق: ففي المجتمع الذي يعمل جميع أعضائه متضامنين تضامناً تاماً يكون الحق لغواً زائداً ما دام لا يعتبر سوى وسيلة للدفاع ضد الغير ويفقد الرجل كل شخصية ويصبح بمثابة الآلة. إن هذا المذهب لا يجهل مصلحة الفرد فحسب ولكنه يجهل كيانه أيضاً لأن هذا الكيان يتلاشى في نظرة أمام كيان الجسم الاجتماعي. ان مثل هذا الزعم يخالف ما ينطق به البيان. وعلى الرغم من أن الأفراد — في بدء تكوين المجتمعات — يحملون كثيراً من عناصر الشبه الدقيق، فاذا كانت حصة الروح الاجتماعية في الكائن البشري الأولى تتجاوز الروح الفردية وتتغلب عليها، فإن هذا لا يمنع من أن للرجل فرديته المميزة: فإن نعومة مشاعره أو خشونتها وحدة ذكائه أو كساده، ولين أخلاقه وحدتها لا بدّ أن تميزه عن أبناء جنسه. إن استعداده الذي يتقلب طبقاً للظروف لهو أعظم من استعداد الخلايا التي تؤلف الكائن الحي. وهذا السبب هو أحد الأسباب القوية التي تجعل نظام المجتمع يختلف عن النظم الأخرى، وتجعل علم الاجتماع يختلف عن علم تركيب الأعضاء. إن الوحدات الحية التي تؤلف الحيوان شديدة الاحتكاك ببعضها بقدر ما هي متينة الارتباط مادياً، بينما الوحدات التي تؤلف الجسم الاجتماعي تتمتع بحرية تامة

وهي متحركة وقابلة لأن تتبع عدة جماعات في وقت واحد . وانه لمن المغالاة ان ندعي أن الحق يرتكز على هذه القاعدة : عدم فعل شيء يؤثر في التضامن الاجتماعي وعمل كل ما يؤدي إلى تحقيق هذا التضامن وتنميته .

إذ أن حق المجتمع لا يشمل فقط عملية تنظيم المجموعة عن طريق أعضائها ولكنه يشمل كذلك فعل النشاط الخاص الذي يبديه الأفراد في تعاونهم ، طوعاً أو كرهاً ، في سبيل المجتمعات . وهذا النشاط هو الأساس الذي تدور حوله حركات المجموع . وهو خاضع لنظام مقبول ومفروض في وقت واحد . اما انه مقبول فلأن الأفراد يعترفون بالضرورة العامة للخضوع — إلى حد ما — لارادة المجموع ، وإلاّ لا يبقى أمامهم غير الهلاك في الانزواء والقطيعة . واما انه مفروض فلأنه عند تطبيق القاعدة المشتركة يحاول أعضاء الجماعة أن يتحرروا من كل ما يحد من حريتهم . إن القانون يحد من الحريات باسم المصلحة العامة ، ولكنه على الرغم من عجزه عن خنقها يقاصّ القيود التي يفرضها بحماية المواهب التي يتركها لكل منهم لتنفيذ أغراضه الخاصّة . وعلى نقيض القانون الخارجي الذي يضع القوات المستقلة تجاه بعضها ، فان النظام الداخلي يطبق على تمرد الأفراد وضغطهم سلطة القمع التي تتغلب عليهما . أي — بعبارة أوضح — ان التوازن بين القوات الفردية والقوات الاجتماعيه يحدث لمصلحة الأخيرة على الأقل لغاية اليوم الذي يتجزأ فيه الجسم الاجتماعي أو يتلاشى .

إن للأفراد حقوقاً يتفاوت مداها تبعاً لنوع المجتمع الذي ينتمون اليه أو تبعاً لتركيز السلطة واتساعها وتبعاً لعلاقات الأعضاء ببعضهم : ان نصيب الحريات الشخصية ونصيب سلطة الاكراه والقمع خاضعان للتبديل والتغيير . كما إن عمل السلطة العمومية والمقاومات الفردية يرسم حدود القانون ويحدد تركيب الدولة ، ذلك التركيب الذي تنشره القوانين الدستورية .

ان الدستور هو وضع حالة الأشياء في شكل يتضح من التوازن الحقيقي للقوات السياسية . وهو فوق ذلك مقبول لأنه أكثر مراناً وليونة منها ، ولأنه يمثل بشكل أوضح علاقة القوات الدائمة في الدولة . إن القانون الدستوري ، كالقانون الأساسي لاخلاق الأشخاص ،

لا يفلت من شروط القانون الخارجي الخاضع لشريعة التوازن بين القوات العنصرية . إن أحسن الدساتير — غير التي تقوم على العادات — هي التي تقتصر في أوضاعها على وصف التجارب السابقة وتطبيقها أو التي تقتصر على ذكر الشروط التي اتبعت في التحكيم بين اتجاهات طبقات الشعب المختلفة مع تقدير التطور الذي يحتمل أن يطرأ على هذا النظام .

* * *

إن من نتائج التوازن الكامل الثبات المطلق . ولكن الكائنات والمجتمعات لا تستطيع أن تستقر في حالة جمود وركود . فهناك عوامل داخلية تحركها . ثم إن التوازن الداخلي يتغير في كل لحظة تحت تأثير الأسباب الخارجية وضغطها . فالكائن الحي يتأثر بالوسط ، وتبادل المنتجات والأفكار ، والمنافسة الاقتصادية والسياسية ، والمنازعات المسلحة تحدث تقلبات وتغييرات في علاقات القوات الداخلية . إن تسيير العلاقات مع الخارج يحتم وجود ادارة خارجية ونظرة بعيدة ثاقبة .

فلا بد إذن — ما دام المجتمع يجب أن يعمل ليعيش — أن تتغلب إحدى السلطات أو إحدى الميول على غيرها . ففي فجر كل حركة يحدث تصدع في التوازن . وقد طالما تفوقت السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية . أما في عهدنا ، وفي كثير من البلاد ، فان الدور قد انعكس وصار العضو الاستشاري هو صاحب السيادة بتأثيره ونفوذه .

ومن جهة أخرى . فان أفراد الامة يجتهدون من جانبهم في الانتصار لأفكارهم ومصالحهم في تصريف الشئون العامة ولذلك فانهم يتولون إدارتها ، إن الانقسامات الطبيعية أو التاريخية أو المحالفات المؤقتة التي تقوم على المصلحة تؤلف في داخل البلد معارضة القوات التي تقف في وجه بعضها لجميع الطبقات الاجتماعية أو بعض عناصر الأمة ، كالاشراف والقضاة والعسكريين ورجال الدين والملاك والعمال وسكان المدن والقرى، يريدون الحصول على جزء من السلطة . ان أضمن الأساليب التي اكتشفت لتنسيق الجهود المتعارضة جعل الكلمة الأخيرة للانتخابات العامة التي تستخلص ارادة الأغلبية لتفرضها على المجموع . تلك هي الوسيلة لتعداد القوات قبل بدء المعركة . إن في تحديد النتيجة المحتملة للنزاع خير ضمان لتلافي هذا النزاع بالذات ، ومعاهدة الصلح تسبق الحرب بدلاً من أن تعقبها . على انه يظل

دائماً للحزب المغلوب وسيلة أخرى وهي أن يرفض ذلك الخضوع والخنوع ويلجأ الى الثورة التي تسمح بقياس القوات بدلاً من عدّها . ولكن في بلد متضامنة ومنتظمة تنظيما طبيعيًّا ، تستطيع الأغلبية ــ التي ترغب على الرغم من كل شيء في المحافظة على الوحدة القومية ــ أن تحافظ على الحالة في انتصارها وتأخذ برأي الأقلية . وتلك الأقلية من جانبها تسالم وتستسلم للقرار الصادر وتفضله على الانشقاق والقطيعة . ويحتفظ بالاتفاق بتبادل الامتيازات بين الفريقين وتكون الأقلية قد أشعرت غيرها بتأثيرها على تقرير المصير المتبع . هكذا يتفق الميل نحو الحرية الذي يجعل من أعضاء المجموعة معارضين إن لم يجعل منهم اعداء والميل نحو التقريب واتحاد الجهود تحت تأثير التضامن الذي يجذبهما ويجمع بينهما كلما افترقا بتأثير العواقب السيئة التي لا تلبث أن تحدث . ثم أن حاجة الاستقرار التي تطمئن بالتوازن ، وضرورة العمل التي تتطلب نفوذ أحد العناصر ، تهدأ حدتهما بتأثير احداهما على الأخرى وتعتدلان في حركة هادئة مطمئنة .

لقد طالما تساءلوا اذا كان الانتخاب حق فردي أو وظيفة اجتماعية . انه في الواقع يشمل الاثنين معاً . فهو حق باعتبار أن الفرد ، عند ما يضع قوته في خدمة المصلحة العامة ، يمكنه أن يلح في المطالبة بعدم اهمال صوته وأن يحترم رأيه . وهو أيضاً وظيفة ، بل هو أبسط الوظائف ، بمعنى أنه يحرر الميل العام وتوجيه الأفكار والأغراض . وغاية تلك الوظيفة هي تحديد التنسيق وبث روح الثقة بين الاجزاء والكل ، والتعبير عن الموافقة على السياسة المتبعة أو رفض البرامج المقترحة . بل أن حقيقة الغرض من تلك الوظيفة هو في تمثيل دور المحقق المدقق وأداء مهمة المراقب اكثر منه في كفاءة التنفيذ .

وإذن فالسلطة العامة ليست فقط من خصائص الأقوياء الذين يستولون عليها لحكم الضعفاء والفصل بين الحكام والمحكومين . فهي بالعكس اجتماع القوات الاجتماعية ، يشترك فيها الضعفاء حتى عند ما يتخذ عملهم شكل الجمود أو المقاومة العمياء لأن جميع أجزاء الجسم الاجتماعي تحدد بعضها بعضاً . ان في اسناد مظهر السيادة الوطنية الى تلك السلطة ليس إلاَّ تعبيراً أجوف ليس في معناه السلبي إلا الاحتجاج على مبدأ السيادة الملكية للحق الالهي . فاذا وجهت السيادة الوطنية نحو الخارج فهي الحرية الدولية واذا وجهت نحو

الداخل فهي حرية الوطنيين . فلا ملك بغير رعية وليس في القول « ملك على نفسه » إلاّ نوع من أنواع التعبير والبيان اللغوي .

هنا يظهر التناقض الذي أشرنا إليه بين القوات التشريعية والقوات السياسية. إن القوات التشريعية هي قوات الحق الثابت والقواعد المقررة والمعمول بها منذ عهد بعيد والمتبعة بالغريزة . أما القوات السياسية فهي قوات الحق التي مازالت في طور التأسيس وما زالت متأثرة بالنزاع الذي تولد عنه ذلك الحق وتظل متخلقة — بعض الوقت — بصبغة اجراءات القمع وتأثير الظروف التي فرضتها أغلبية الأقلية . وتلك الأقلية — مع تسليمها بهذه القوات — لا تفقد الأمل في تحسينها اذا ما تولّت الحكم يوماً . إن القوانين — حتى بعد اصدارها وإقرارها — تظل عهداً طويلاً تحت الاختبار والمداولة قبل موافقة الشعب عليها أو قبل الغائها سواء بانتساخها أو نسيانها واهمالها ، اذا كانت لا تلائم النظام القائم للأشياء . وبعد تقلبات وتعديلات تنزع عنها صبغتها السياسية وتندمج بالكتلة التشريعية المحترمة . فاذا نظرنا الى أعماق الأشياء فان ذلك التناقض يميز صفة الاجراءات التشريعية بالنسبة الى درجة استمرارها . إن الأعمال التي تتكرر بسبب الظروف المستمرة تخلق عادة وتوجد نوعاً من الحاجة يؤدي ، مع طول الوقت ، إلى تعديل في النظام بتنمية وظيفة جديدة . فالأعمال التي يقل وقوعها ، لا تترك ، تحت تأثير الظروف المؤقتة العابرة ، أثراً وتضيع ذكراها . وهكذا الحال في الأعمال التشريعية : فالأولى تتحلى بصبغة قانونية والأخرى تحتفظ بمظهر سياسي .

* * *

ان مثل هذا التمييز يسمح لنا بتفسير الادارة والحكومة . ان عمل الحكومة يبدو دائماً مستحيل الحل في المذهب القانوني . فبعد إشادة جميع أركان نظرية القضاء في التشريع الكلي ، ونظرية القضاء في الحذف والالغاء اللذين يخولان حق اتهام أعمال السلطة ، الأول في موضوع تلك الأعمال ونتائجها ، والثاني في شكلها وصحتها ، يعترف القانون الاداري الفرنسوي بوجود أعمال تسمى أعمالاً حكومية . مستترة عن التشريعات الادارية بقدر ما هي مستترة عن المحاكم الاعتيادية . لقد أرادوا أن يحددوا صفاتها ولكن تعذر بتاتاً

إيجاد علامة تمييز كافيـة للتمييز بين عمل الحـكومة والعمل الأداري البحت . فكفوا عن البحث عن تلك العلامة في عنصر الشكل إذ أن كليهما صادر عن سلطة واحدة . وقد تعددت السلطات في أيامنا حتى لقد رأوا الاكتفاء باصـدار قائمة عددية بأعمال الحـكومة أعدها المشرعون،وتفسـير تلك الأعمال باعتبارها نتائج لاتفاق عرفي بين الحـكومة ومجلس الدولة وتنازل هذا المجلس عن تناول تلك الأعمال بسلطته واختصاصه ووضعها خارج حيز التشريع على أن ينال في مقابل ذلك حق الوقوف على بقية المنازعات والالمام بها .

وهكذا توجد الآن في فرنسا قرارات من السلطة الحـكومية لا يتناولها أي اجراء ويضطر الشعب الى الخضوع لها دون أن يستطيع الالتجاء الى القضاء ليقيه ظلمها وتعسفها . ومن باب أولى في الدول التي تقل حكوماتها ديموقراطية عن فرنسا . أما في انجلترا فاذا كانت مسئولية الموظفين منظمة تنظيماً دقيقاً فانه لا يمكن الطعن في مسؤولية الدولة أو المساس بها إذ « أن الملك لا يمكن أن يخطىء » .

والحقيقة أننا لنشعر أنه يوجد بين الحـكومة والادارة فرق في طبيعة كل منهما . ففي نظر المسيو إسمين : « الحـكومة هي المحرك وموظفو الادارة هم أعضاء الانتقال ودواليب الآلة » . وفي نظر المسيو هوريو : « الوظيفة الادارية ترتكز خاصّة على أعداد ما تحتاج اليه الجماهير بتنظيم فروع خدمته ووظيفة الحـكومة تقوم على تركيز سياسة الدولة » . وفي نظر المسيو لدا نتك : « ان دواليب النظام الاجتماعي التي تقوم بالوظائف البـارزة تؤلف ما يسمونه الحـكومة ، أما الدواليب الأخرى التي دونها أهمية وأكثر منها تخصصاً فتؤلف الادارة والخدمات العامّة » .

ولـكن كل هذه ليست صوراً أو مراسيم عامة . فالعمـل الاداري والعمل الحـكومي — كما قلنا — هما من عمل أعضاء واحدة ، وهذه الأعضاء تارة تكون المحرك وتارة أخرى تكون دواليب التحويل : إن التفسير يظل غامضاً غموضاً عجيباً . أما العمل السياسي أو عمل التركيز السياسي فبأية إجراءات واضحة يمكن تنفيذه ؟

إن التمييز بين الفكرتين المعبر عنهما بهاتين الـكلمتين يظل غامضاً على الرغم من تبينه في الوقائع وفي تشريع المحاكم الادارية ومع ذلك فانه يخيل الينـا أنه من الميسور ايراد تفسير

أوضح اذا شرعنا في تحليل العملين اللذين يشتركان في تأليف الدولة : توازن القوات الفردية أو الجزئية التي تؤلفه والتضامن الذي يتولد بين مختلف عناصر النظام الأهلي بتقسيم العمل. إن توازن القوات لا يخلو من التأثير على تقسيم العمل الاجتماعي إذ السبب في اتجاه القوات اتجاهاً متنافضاً يرجع على الأخص إلى تعارضها تلافياً لاطراد اصدامها . انها تشق طريقها في الناحية التي تقل فيها المقاومة وهكذا تساق إلى أداء أعمال مختلفة .

ولكن قد يحدث أيضاً — بصفة استثنائية — إن تقسيم العمل لا يتم باحترام توازن القوات — وإذ ذاك لا تجد بعض هذه القوات دائماً ما يشغلها بفائدة . على ان هذا لا يمنعها من المطالبة بحصتها في الفوائد التي عادت على المجموع . وهكذا الحال عندما تؤثر بعض الظروف غير المنظورة على وظائف كانت إلى عهد ما هامة ضرورية فتصبح هذه الوظائف غير مجدية وزائدة عن الحاجة ويحرم الذين كانوا يؤدونها من وسائل معيشتهم ويجتازون أزمة مؤلمة . هذا ما حدث مثلاً عند ما احتلت الآلة محل اليد العاملة وسدت سبل العيش في وجه العمال والقت بهم على قارعة الطريق أو في نهاية حرب مؤلمة عندما تسلخ ولاية من ولايات إحدى الدول أو تحرم من مصادرها التجارية إذ ذاك يتجلى اختلال التوازن في البلد عند توزيع الأعمال على القوات الحية التي تتطلبها ، وهكذا الحال أيضاً عندما تتعقد الحال السياسية أو الديبلوماسية وتستدعي الموارد الوطنية . وفي بعض الأحيان يقرب التقدم المادي والحركة الفكرية بين العناصر التي ظلت متباعدة متفرقة عاجزة وتوجد بينها ، فتكتسب قوة مضاعفة : ان تأسيس نقابات العمال وانشاء اتحاد الصناعات الكبرى لخير مثال وأحدثه على ذلك . وفي النهاية قد شوهد أيضاً — وتلك إحدى نتائج الحرب الكبرى الأخيرة — اضطراب كبير أوقف المستأجرون والملاك وجهاً لوجه .

هنا تثار مسألة تتطلب تدخل الحكومة . الواقع انه ما دامت العلاقات المتولدة عن تقسيم العمل تحدد من تلقاء نفسها بين الرجال فان تنظيم القوات يبدو ضرورياً لأول وهلة . ان توزيع الأرباح يتم بين الشركاء بوساطة البدل والعقد وفائدة المحاصيل التي تبودلت أو الخدمات المشتركة محدودة برغبة كل فرد في الحصول عليها وبصعوبة الوصول اليها بسبب المنافسات التي تبدو . ان مهمة الادارة تقوم على ضمان حرية العلاقات الطبيعية بحمايتها

وتكاملها بايجاد ادارات عامة للعناية بمصالح الجمهور وخدمته . فمهمة أداة العدل قائمة على حسم النزاع وتسويته ، وخطوط المواصلات تقرب بين المدن والسكان ، والنقد المشروع يعضد البدل ، والاسعاف يوجد عنصر التضامن البشري ، والنظام العسكري يشمل المجهود الدفاعي في جميع انحاء البلاد ، ومصلحة الضرائب والأموال تستعين بموارد الملاك لتسد حاجة ما تتطلبه المنافع العامة من المصروفات ، والنفقات . جميع تلك الخدمات العامة تلجأ الى تعاون الأهالي الذين يدركون — ولو في شيء من الصعوبة — فائدة الخدمات التي تؤدى لكل فرد وللمجموع . إن مهمة الادارة تقوم على ضمان حسن سير هذه المعاهد طبقاً للقوانين التي تديرها .

ولكن عند ما يتجلى اختلال النظام فإن المهمة تكون أصعب : إن مبدأ التضامن بين أعضاء المجتمع الوطني لا يكون كافياً لهداية عمل السلطة والقاعدة التي اتبعت في ظروف أقل اضطراباً لا تصلح لأن تطبق على الظروف الجديدة . فينشأ عن ذلك مقاومات حادة من جانب الأفراد الذين ضحي بهم . وتهدد الفوضى بالتدخل في النظام القائم . وإزاء تلك الحالة الفجائية لا بد — لتهدئة الخواطر ودرء الخطر — من اتخاذ قرار بعيد عن القاعدة أو ضد القاعدة يعمل به ما دام النظام القديم لم يستتب ، أو على الأقل حتى يتبدد الخطر من إقامة نظام جديد بصفة دائمة . فيصدر قانون للاعفاء من تنفيذ الاتفاقات المتعاقد عليها ، وتتولى السلطة الادارية مصادرة النشرات المحرضة والكتب الثورية ، أو في حالة الاعتصاب ، تتخذ إجراءات تأديبية ضد موظفين بدون تبادل سابق للمفاهم كما يحتم القانون ويستلزمه . إن هذا القرار الظالم ، وإن كان وليد التفكير في حماية المصلحة العامة ، يحسب حساب القوات التي يواجهها ، والحل الذي يتبع يحدد نقطة التوازن ، وتلك النقطة ، مع عدم استقرارها وعلى الرغم من تقلباتها ، لا تلبث أن تصبح مع الوقت المضطرد من مستلزمات مصالح المجموع المتضامنة .

فالعمل الحكومي يتجلى اذن في حالات فجائية وعرضية بواسطة أعمال تعسفية ظالمة وتلك الأعمال هي أسمى ما يتاح للرجل عمله اذ انها تعبر الى أقصى حد عن مدى العبقرية وقوة الارادة . ولذلك فان أغلبها منوط بالسلطة التشريعية التي تنفذ بما لها من الأولوية وبما

لها من النفوذ على السلطات الأخرى . فاليها يرجع حق تعديل القوانين القائمة ولا يمكن الاعتراض على القرارات التي تتخذها أو الطعن فيها . وهكذا الحال في ادارة الدستور وعلاقات السلطات العامة فيما بينها : كدعوة البرلمان أو تأجيله، وتأليف الوزارة أو استقالتها. فليست هناك أية هيئة قضائية للنظر في منازعات من هذا القبيل .

على أن الأعمال التي تتطلب السرعة أو التي ليست لها أية صبغة عامة تعد من طبقة الاجراءات التنفيذية وتدخل ضمن اختصاص الحكومة ، فبعضها له علاقة بالأمن الخارجي والبعض الآخر خاص بصيانة الأمن في داخل الدولة . أما الأولى فتتجلى من النشاط الديبلوماسي والحربي والثانية هي عبارة عن اجراءات شاذة المحافظة على النظام : كالمراسيم الخاصة باعلان الحرب والقرارات التي تخول البوليس بعض السلطات في الحالات الصحية الى غير ذلك . في هذه الظروف تترك الحكومة حرية تامة وسلطة واسعة لتنفيذها بما يكفل صيانة الدولة أي كيانها . على أن المجلس الدولي يرفض الاعتراف بها .

وبمعنى آخر ، يتحقق التضامن في بعض حالات التوازن ، بوساطة القواعد السابق تقريرها والتي يتألف من ادارتها المنتظمة وحسن تطبيقها العمل الاداري الصحيح . أن العمل الحكومي قائم على المحافظة على توازن القوات وتنظيمه كلما اختل ، وهو الشرط الأساسي لصحة الجسم الإجتماعي . فهذا العمل الحكومي يضيف ، أو عند الحاجة ، يستبدل القوة التي تجمع بين العناصر الوطنية التي يضمنها النظام الاختياري الناشىء عن العمل الاداري قوة وقتية مكتسبة من تحرير القاعدة العادية من الضغط . وإنه لا يوجد أي تشريع يستطيع أن يتذرع بالمنازعات التي يثيرها هذا الفعل أو يستند إليها . ولا يوجد قانون كما لا يوجد مبدأ تشريعي يمكن تطبيقه على هذه الأقيسة ، فأية محكمة ، غير متشيعة أو متحيزة اذا كانت مطلقة الحرية تستطيع أن تفصل في هذا الموضوع . ان الحكام غير مسئولين سوى امام الرأي العام والتاريخ . فإذا قدر ألاّ يكون النجاح دائماً دليلاً على نزاهة حكمهم فان المستقبل كفيل بالحكم عليهم بغير ما تحيز أو تعسف . لقد حدث أن عزي الى أحد رؤساء الوزارات انه اتخذ اجراءات غير مشروعة لاخماد ثورة هبت في أحد المصانع الوطنية الكبرى فأجاب بأنه لن يتردد في خرق القانون لو دعت الحال الى ذلك لانقاذ الوطن . وقد

استياء البرلمان من عباراته ودهش لها وصفق له قليلاً ولكنه خلعه بعد مضي يومين لا لما فعله ولكن للعبارات التي تفوّه بها فكانت محبذة للتهور وقلة التبصر التي أشار اليها الكاردينال دي ريتز بقوله : « لقد نزع النقاب الذي يجب أن يظل مسدولاً ليخفي كل ما يمكن أن يقال وكل ما يمكن أن يفهم من حقوق الشعب وحقوق الملوك (اقرأ كتاب الحكومات) التي لا تتفق ولا تتآلف إلاّ في الصمت» .

* * *

والحقيقة أن الاعتراف بصحة تصرفات الحكومات وإقرار أعمالها لا يمكن أن يتم إلاّ بمرور الوقت وفي جوٍّ مشبع بروح السكينة والصمت . ان المجتمع ، وهو من مؤسسات الطبيعة ، لا يهتم — بما له من حقوق ثابتة مسلّم بها — بالقانون والأخلاق . ولكنه مع ذلك ينشىء عهداً قانونيًّا يحقق شكلاً من العدالة . ان أكبر الحكومات في التاريخ كانت وليدة حركة ثورية أو عمل جريء : (١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ — ١٨ برومير من العام الثامن — ٢٤ فبراير سنة ١٨٤٨ — ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ — ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ ولا ننسى الأيام المظلمة التي تخللت عام ١٨١٤ وشاهدت عودة الملك داخل مركبات سكة حديد غريبة عن الأمة وكذلك أيام يوليه سنة ١٨٣٠ المشمسة) . ان هذه التواريخ التي اشتهرت في فرنسا خلال جيل بأكمله وفي عهود متقاربة لتثير في النفس ذكريات العنف والقوة التي تتولد عنها الحكومات . وانه لمن الصعب أن نرى فيها حقًّا ، حتى المشرعين الذين ، في حالات اغتصاب السلطة — جعلوا من الثورة أقدس الحقوق وأقدس الواجبات — فانهم قد أهملوا تحديد الاستعمال .

* * *

والواقع أن كل ثورة ليست سوى قيام القوات التي تحاول أن توجد توازناً جديداً . فالحالة بين النظام القديم والنظام الذي يناضل ليحل محله لا تعدو مسألة قوة . وما دامت نتيجة النزاع مشكوكاً فيها فان حظ الحق مشكوك فيه الى أن يأتي اليوم فيقرر الحزب الظافر

صحة الاجراءات التي سبق أن اتخذها خلال مدة الانتقال من حكومة الى أخرى . ولذلك فان الاعتداء على سلامة الدولة وعلى نظام الحكم يحالان على محكمة عليا تؤلف في الغالب ، أو بالأخص ، من العناصر السياسية . وفي أغلب الأحيان — كما هي الحال في فرنسا — يتولى أرفع المجلسين مكانة ، مهمة القيام بهذا الدور القضائي . وزيادة على ذلك فان هذه المحكمة تستثنى من المبادىء العمومية التي يتضمنها القانون الجنائي . فيصبح هذا المجلس مطلق التصرف والحرية في الاتهام وتقرير العقوبة ويفسر الجريمة كما يحدد العقوبة دون أن يتقيد بقواعد القانون ، فليس الأمر في مثل هذه الظروف أن ينصب القاضي نفسه منصب الحكم ليسيطر على المزاعم المتعارضة أو يقمع بكل هدوء الجرائم التي لا تعود على الجسم الاجتماعي إلاّ بالاضطراب المحلي ، إنما الغرض هو اتخاذ اجراءات الدفاع العاجلة ضد عدو يهدد الهيئات بالذات ، ضد عدو ملحّ وكثيراً ما يكون ذا سلطة ونفوذ ، لا ينفع معه تطبيق النصوص بحذافيرها ولا بطء الاجراءات القانونية ، ولا عطف قضاء متغاض أو قضاة يندفعون مع احساسهم ومشاعرهم وشهواتهم .

ان القاعدة الوحشية لتوازن القوات تتغلب على مبدأ التضامن الرقيق . هذا هو تطبيق حق الدفاع المشروع .

* * *

وعلى عكس ذلك فان للتشريع الجنائي العادي صفات جديدة بالنسبة للقانون الجنائي الأصلي . فليس هذا التشريع وليد رغبة في الانتقام ، أو توقيع عقوبات أو غرض دفاعي . إن مبدأ التضامن يتخلله ويخفف من شدته كما أن العقوبة لا تقاس فقط بجسامة الجرم وماديته . فهي تراعي حالة المجرم ومكانته وأغراضه ومزاجه . إن المجتمع لا يفكر فقط في الانتقام فهو يرمي الى تهذيب المذنب بتنفيذ العقوبة ويجتهد في تخويف وارهاب من يمكن أن يتشبهوا به وردعهم بتطبيق العقوبة عليهم . وينتج عن ذلك أن المجتمع يعمل متشبعاً بفكرة أن الجاني كالمجني عليه متساويان في تبعيتهما له وخضوعهما لأحكامه وانه لا يجب أن ينبذه من وسطه ، ويقصيه أبداً ولأجل ما ، بل على عكس ذلك يجب عليه أن يحتفظ به ويصلح

المعوج منه بتلقينه شروط الحيـاة الاجتماعية ونظمها . ان من مصلحة المجتمع أيضاً أن يتدارك مساوىء من تتناولهم العدوى وتردهم رؤية العقوبة الى سواء السبيل . وفي نفس الوقت تساعد العقوبة على تقوية الشعور الخلقي حتى في نفوس الاشراف الذين لا يحتاجون الى تهديد أو تخويف . وهكذا يتلافى المجتمع وقوع الاضطراب الذي يعقب كل جرم وخسارة الوحدات النافعة للمجتمع بأكمله .

* * *

وهكذا ، الى جانب الميل الطبيعي في الاحتفـاظ بالموازنة بين العقوبة والجريمة الناشئة عن منازعات القوات العنصرية ، يتجلى الميل الى وضع نسـبة بين الجزاء ومسئولية المعتدي الشخصية . ان تخفيف النظام الجنائي لا يتم إذن بنفس الوسيلة المتبعة في الجرائم السياسية الكبرى وجرائم الحق المشترك . فالجرائم الاولى خاضعة لتشريع ذي صبغة قديمة . ان المجرمين السياسيين الذين يقدمون للمحاكم العليا لا يتمتعون بالضمانات المكفولة لأي مذنب آخر يحاكم أمام المحاكم المستقلة العادلة بموجب عريضة اتهام ونظام عقوبات مقررة . ولكن في نظير ذلك فان العقوبات التي تطبق في حالات الجرائم الثانية تخفف عند تطبيقها ـ بدافع من الشعور الطبيعي الذي يتملك الخصوم الظافرين الذين يعلمون بأنهم معرضون بدورهم لمثل تلك العقوبات في حالة هزيمتهم ـ بحذف عقوبة الاعدام وانشاء العهد السياسي . وبعكس ذلك فان التشريع الجنائي العادي يتطور بتخفيف صفة العقوبات بمراعاة شخصية المجرم ووضع تشريع نزيه ليس للمتنازعين أي تأثير عليه ، واهمال وجهة نظر الحرب الخاصة لاتباع وجهة نظر القمع العام .

***

إن الحق الذي يشيد على هذا الأساس ليس واحداً ولا متشابهاً في جميع العصور وجميع الأماكن . فعلاقات الأفراد ببعضهم ثم بالدولة تختلف بعض الاختلاف طبقاً للنظام الاجتماعي في مجتمع واحد ، وتحت تأثير الظروف الداخلية والخارجية ، يخضع الحق للتطور سواء بسرعة أو ببطء . فقد رؤي في العصور الوسطى في فرنسا ، ان طبقة الأشراف على الرغم

من ثرائها ، كانت تعفى من جميع أنواع الضرائب حتى إذا جاءت الثورة فأدخلت مبدأ دفع الضرائب بنسبة الدخل والأرباح. وها نحن أولاء الآن نعرف نظام الضرائب التدريجي . ان هذه الطرق الثلاث ظهرت تباعاً كأنها من مستلزمات العدالة وتطبيقها القاسي . أوليس هذا مثلاً صارخاً على نسبية العدالة البشرية ؟ حقاً بأن العدالة لم تكن موجودة ولكنها قد أصبحت .

June — December 1946 يونيو — دسمبر سنة ١٩٤٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد التاسع بعد المئة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 109

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد التاسع بعد المئة

من المقتطف

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في العاصمة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع القاصد — باب اللوق
في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩
في طرابلس الشام الاستاذ عبدالله الياس حمصي
في دمشق — شعلان — الشهداء الاستاذ السيد حمدي القواص
في شرقي الاردن — عمان الاستاذ يعقوب عودات
في فلسطين الأستاذ مصطفى الطاهر
مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج
في حمص — سوريا الخوري عيسى اسعد
في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود الكيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية
في صيدا نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال
في حماه السيد طاهر افندي النعساني

في الارجنتين Mr. N. J. Nazer
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا Mr. Naguib Shehadi
8012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدما

عن سنة
مـ

١٢٠ في القطر المصري والسودان
١٤٠ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»
٧ دولارات لاميركا الشمالية
٦ دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين
وفي سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملاحظة { [يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تشجيعاً لهم]

